



٢١

حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غربي إفريقية

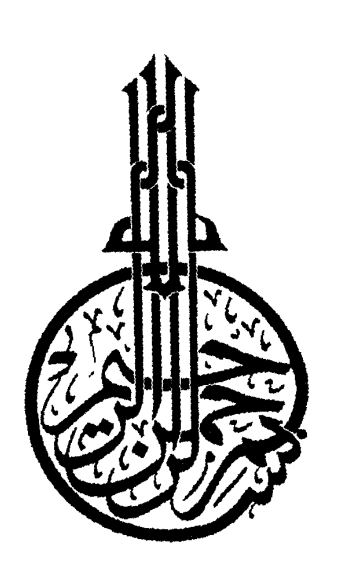
قبل الاستعمار وآثارها الحضارية

تأليف

الدكتور مهدي رزق الله أحمد

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م




بسم الله الرحمن الرحيم


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
٢١

حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غربي إفريقية قبل الاستعمار وآثارها الحضارية

الدكتور مهدي رزق الله أحمد

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

الطبعة الأولى ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

ص . ب (٥١٠٤٩) الرياض ١١٥٤٣

ⓗ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ١٤١٩ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

أحمد، مهدي رزق الله

حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غربي إفريقيا .ـ الرياض.

٨٥٢ ص ؛ ٢٤ سم

ردمك ٠-٣٢-٧٢٦-٩٩٦٠

١ ـ إفريقيا الغربية ـ تاريخ إسلامي　　٢ ـ التجارة　　أ ـ العنوان

ديوي ٠٧٢، ٩٥٣　　١٩/١٧٧٩

رقم الإيداع: ١٩/١٧٧٩

ردمك: ٠-٣٢-٧٢٦-٩٩٦٠



مطبعة

مركز الملك فيصل

للبحوث والدراسات الاسلامية



مقدمة المؤلف

(أ) بواعث وأهمية موضوع الكتاب

إن أصل هذا الكتاب هو بحث نلت به درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بمرتبة الشرف الأولى من جامعة الأزهر ـ كلية اللغة العربية ـ قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، عام ١٩٧٧م، تحت عنوان «تاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غربي إفريقية قبل الاستعمار». وعندما هيأ الله لنا إعادة طبعه ثم نشره على نطاق واسع لتعم الفائدة، أضفت إليه جزءاً من بحثي التكميلي لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير من الجامعة والقسم نفسيهما، عام ١٩٧٤م، تحت عنوان «دور العلاقات التجارية في دخول الإسلام إلى غربي إفريقية». كما أضفت معظم المبحث الرابع من الفصل الثالث، بعنوان: «دولة الفولاني الإسلامية»، والمطالب الآتية: الخامس: «حركة الشيخ صالح جنتا»، والسادس: «حركة الشيخ حمد»، والسابع: «حركة الشيخ عمر الفوتي»، والثامن: «حركة الشيخ ماباجاخو»، والتاسع: «حركة الشيخ فودي كبا»، والعاشر: «حركة الشيخ محمد الأمين درامي»، والحادي عشر: «حركة الشيخ أحمد بامبا»، وهذه المطالب السبعة من المبحث الخامس للفصل التاسع. وأضفت المبحث السادس من الفصل التاسع: «الأثر الحضاري الإسلامي للحركات الإصلاحية الإسلامية»، وبعض الزيادات إلى المبحث الخامس من الفصل التاسع: حركة الشيخ عثمان بن فودي، ومعظم الخرائط.

إن مما حفزني إلى اختيار هذين الموضوعين عدة اعتبارات، أولها: أن بعض المثقفين في المشرق الإسلامي يجهلون تاريخ وحضارة الإسلام في إفريقية بصفة عامة وغربي إفريقية بصفة خاصة، فكان لابد من إلقاء الضوء على تاريخ وحضارة الإسلام في غربي إفريقية، بداية لدراسات تالية ـ إن شاء الله ـ

تشمل أجزاء أخرى من القارة الإفريقية، ليقف أبناء المشرق الإسلامي على تاريخ وحضارة دينهم الإسلامي في إفريقية.

ويتمثل الاعتبار الثاني في أنني وجدت في جامعة الأزهر عزوفاً من طلاب الدراسات العليا عن دراسة التاريخ الإسلامي الإفريقي، وخاصة جنوبي الصحراء، فوددت أن أكون حافزاً لهم إلى ولوج هذا المضمار، لاسيما وأن للأزهر دوره المشهود في التاريخ الثقافي الإسلامي الإفريقي، منذ أن عرفت إفريقية الإسلام، أيام أصحمة النجاشي، وأولى بطلاب الأزهر أن يتقدموا غيرهم في هذا الميدان.

أما الاعتبار الثالث فهو أنني أردت أن يعرف المسلمون العرب في المشرق الإسلامي أن العرب المسلمين، إبان ازدهار حضارتهم، كانوا أكثر من جابوا القارة الإفريقية وكتبوا عنها، وأسهموا مساهمة أصيلة في استجلاء تاريخها، وأضحوا فرسان هذه الحلبة، الذين لا يمكن إغفال الإشارة إلى كتاباتهم في أي بحث عن تاريخ إفريقية، وخاصة غربيها.

والاعتبار الرابع هو أن هذا العصر هو عصر البحث في التاريخ الإفريقي والاهتمام به، وأصبحت معظم الجامعات العالمية، وعلى رأسها الجامعات الغربية، تخصص له الكراسي العلمية، وتجتذب إليها شباب المسلمين للتخصص في هذا الحقل، ولعل الأجدر بنا نحن أبناء إفريقية المسلمين أن نكون أول من يهتم بتاريخ إفريقية الإسلامي.

والاعتبار الخامس هو أن الدوائر الاستعمارية اهتمت بإفريقية اهتماماً بالغاً منذ مطلع العصر الحديث، وذلك لما تزخر به هذه القارة من ثروات متنوعة تحتاج إليها الصناعة الغربية، مثل النفط واليورانيوم والذهب والألماس والنحاس والمحاصيل الزراعية المتنوعة. وازداد الاهتمام بهذه القارة في عالم

اليوم لما تمثله من أهمية استراتيجية في السياسة الدولية والإقليمية. وتتعاون الصليبية الدولية والدوائر الاستعمارية والصهيونية العالمية في محاولة لفك الارتباط بين إفريقية والعالم الإسلامي بشتى الوسائل والأساليب. وكان لابد للباحثين المسلمين العرب أن يبرزوا لأمتهم الإسلامية علاقة إفريقية بالعروبة والإسلام، وأنه لابد من تقوية هذه العلاقة، لأن هذا من الواجبات الدينية والقومية.

والاعتبار السادس هو أن المنظمات الكنسية التنصيرية اهتمت اهتماماً بالغاً بالكشف عن تاريخ إفريقية ودراسته دراسة واعية تعينهم في تحقيق أهدافهم التنصيرية، وليس أدل على ذلك من كثرة كتابات المنصرين الأوروبيين عن تاريخ إفريقية، وبخاصة البريطانيون والفرنسيون، ومن أشهر الأسماء في هذا الميدان، القس المستشرق البريطاني جون اسبنسر ترمنجهام. الذي من كتبه:

تاريخ الإسلام في غربي إفريقية - الإسلام في غربي إفريقية - الإسلام في شمالي إفريقية. الإسلام في السودان - الإسلام في شرقي إفريقية - الإسلام في الحبشة - أثر الإسلام على إفريقية - المفهوم النصراني للإسلام في السودان - الكنيسة النصرانية في سودان مابعد الحرب العالمية الثانية - الكنيسة والبعثات التنصيرية في اثيوبيا - الكنيسة النصرانية والإسلام في غربي إفريقية.

والمفترض أن يكون المسلمون العرب فرسان هذا الميدان، لأن تاريخ إفريقية إمتداد لتاريخ العرب المسلمين في المشرق الإسلامي، ولانستطيع القيام بواجبنا تجاه إخواننا في إفريقية إلا إذا تعرفنا تاريخهم لمعرفة احتياجاتهم الفعلية، في هذا الزمان الذي تتكالب فيه الأمم علينا كما تتكالب الأكلة على قصعتها.

وفي ضوء هذه الاعتبارات وغيرها، حددت حقل دراستي العليا،

واخترت الموضوعين المشار إليهما في صدر هذه المقدمة، لأنني لم أجد باحثاً قبلي - حسب علمي - قد طرق هذين الموضوعين في بحثين متكاملين، بل وجدت، إشارات إلى هذين الموضوعين تأتي في ثنايا الكتابات التي تعالج قضايا عامة في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية في غربي إفريقية.

ولا أزعم أن بحثي في موضوع «تاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غربي إفريقية قبل الاستعمار»، أو بحثي في موضوع «دور العلاقات التجارية في دخول الإسلام إلى غربي إفريقية» سيتعدى أكثر من مجرد الإسهام في الدخول بأبحاث التاريخ الإفريقي إلى مرحلة الشروع في محاولات التعمق الكفيل بإخصاب ميدانها، فإن جاء عملي متناسباً وهذا الحد، فذلك هو قصدي منذ البداية، وحسبي أنني اجتهدت، واللهَ أسأل أَجْرَيِ المصيب أو أجرَ المخطئ.

ثم أولاً وأخيراً أحمد الله سبحانه وتعالى الذي وفقني لإعادة طبع هذا الكتاب، الذي ظل حبيس مكتبة كلية اللغة العربية بالأزهر ومكتبة جامعة الأزهر ومكتبتي الخاصة منذ عام ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م. كما أشكر كل القائمين على أمر مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الذين رحبوا بنشر هذا الكتاب عندما تسلموه مني في عام ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، وحكموه. ولولا كثرة أعباء المركز في مجالي الطباعة والنشر وحرصهم على خروج الكتاب بصورة جيدة لكان الكتاب بين أيدي كل الراغبين من القراء والباحثين قبل مدة.

والله أسأل أن يوفق الجميع إلى ما فيه الخير.

(ب) دراسة عن أهم مصادر البحث

أولاً ــ المصادر العربية والإسلامية:

(أ) ماكتبه المسلمون من خارج غربي إفريقية :

إن من حسن حظي أن تكون هذه الفئة من الكتاب كبيرة بحيث مكنتنا من إلقاه الضوء الساطع على تاريخ هذه المنطقة الحية من العالم الإسلامي، ومنهم: ابن الفقيه (ت بعد ٢٩٠هـ/ ٩٠٣م) مؤلف «كتاب البلدان»، وابن خرداذبه (ت حوالي ٣٠٠هـ/ ٩٢٢م) مؤلف كتاب «المسالك والممالك»، والإصطخري (ت في النصف الأول من القرن ٤هـ/ ١٠م) صاحب كتاب «المسالك والممالك» وابن حوقل (ت ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م) مؤلف «المسالك والممالك» أو «صورة الأرض»، وأبوعبيد البكري (ت ٤٩٦هـ/ ١١٠٢م) مؤلف كتاب «المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب»، وهو جزء من كتابه «المسالك والممالك» والإدريسي (ت ٥٦٣هـ/ ١١٦٦م) صاحب كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، وياقوت الحموي (ت ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م) صاحب كتاب «معجم البلدان»، وزكريا بن محمد القزويني (ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) صاحب كتاب «آثار البلاد»، وعلي بن سعيد المغربي (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) مؤلف «بسط الأرض في الطول والعرض»، وابن أبي زرع (ت٧٢٨هـ/ ١٣٢٦هـ) صاحب «الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس»، وأبوالفداء (ت ٧٢٣هـ/ ١٣٣٢م) صاحب «تقويم البلدان» وابن الوردي (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) صاحب «تتمة المختصر في أخبار البشر»، وأحمد بن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) مؤلف «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» و«التعريف بالمصطلح الشريف» وابن بطوطة (ت ٧٨٠هـ/ ١٢٧٨م) صاحب الرحلة المعروفة بـ: «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب

الأسفار»، وابن خلدون (ت٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م) صاحب كتاب «العِبَر..» والقلقشندي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) مصنف كتاب «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء»، والمقريزي (ت ٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م) مصنف المؤلفات العديدة منها «الذهب المسبوك» و«الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام» و«السلوك»، و«اليعقوبي» (ت ٨٩٧هـ/ ١٤٩١م) صاحب «البلدان»، وحسن الوزان ـ ليو الإفريقي (ت٩٥٩هـ/ ١٥٥٢م) مصنف كتاب «تاريخ ووصف إفريقية».

أما أهم هؤلاء الذين ذكرناهم فهم: ـ

١) البكري (ت ٤٩٦هـ/ ١١٠٢م)[١]

«المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب» وهو جزء من كتاب «المسالك والممالك»

هو أبوعبيد عبدالله بن عبدالعزيز بن محمد البكري القرطبي. ولد بقرطبة بعد سنة ٤١٣هـ/ ١٠٢٠م[٢]، وتوفى بها، ونشأ في أسرة وبيئة علمية، وينتسب إلى قبيلة بكر بن وائل العربية. شارك بعض أفراد أسرته في الحياة السياسية.

لم يغادر البكري في حياته أرض الأندلس، ولذلك فان مؤلفاته العلمية لاتعدو أن تكون جمعاً لجهود من سبقوه من المؤرخين والجغرافيين. وكذلك أفاد من مؤلفات لاتينية معربة. ويعد كتاب «المسالك والممالك» أعظم ما صنفه من تواليف جغرافية وتاريخية، إلا أنه لم يصلنا منه سوى أجزاء، منها الجزء

(١) هذا التاريخ يخالف فيه غيره لأول مرة الباحث عبدالله الغنيم في بحثه: مصادر البكري ومنهجه الجغرافي. ذات السلاسل للطباعة والنشر، الكويت ١٩٧٤م. ص٢٠. أما من سبقه من الباحثين فكانوا يقولون بأن وفاته سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م.

(٢) المرجع نفسه، ص١٩، ويرى من سبق غنيم من الباحثين أن مولده كان سنة ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م.

الخاص بوصف المغرب، الذي قام بنشره لأول مرة بالفرنسية «كاترمير»، ثم نشر المستشرق دي سلان النص العربي لهذا الجزء في الجزائر سنة ١٢٧٤هـ/ ١٨٥٧م، ثم أعاد نشره للمرة الثانية سنة ١٣٣٠هـ/ ١٩١١م، ونشر الترجمة الفرنسية له سنة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م. وهذا الجزء المنشور يحدد بلاد إفريقية والمغرب بأنها المنطقة الممتدة من برقة شرقا إلى طنجة غربا. ويسمي فيه غربي إفريقية بالسودان الغربي. والجزء الثاني يتصل بالجزيرة العربية، قام بدراسته وتحقيقه ونشره عبدالله يوسف الغنيم[١] ويتضمن هذا القسم الكلام عن حدود الجزيرة العربية وما خصت به من المعادن والصناعات، وما كان يحمل إليها من المنتجات. وجزء ثالث نشره عبدالرحمن علي الحجي، يختص بجغرافية الأندلس وأوربة، وقطعة رابعة عن الروس والصقالبة، قام بنشرها فون روزن وكونك في بطرسبرج سنة ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م، كما نشر كوفالسكي قطعة من الكتاب عن الصقالبة سنة ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٦م.

أما الجزء الخاص بغربي إفريقية فقد قام بتحقيقه ودراسته حيدر خوجلي محمد حسن[٢] معتمدا على عدة نسخ مخطوطة محفوظة في مكتبات العالم المختلفة. وهذا الجزء هو الذي يهمنا مباشرة، وهو ضمن الجزء المنشور بالجزائر بعنوان «المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب»[٣] وقد أفرد له عنوانا جانبيا، وهو «ذكر بلاد السودان ومدنها المشهورة واتصال بعضها ببعض، والمسافات بينها، ومافيها من الغرائب وسير أهلها».[٤]

---

(١) المرجع نفسه، الجزء الثاني.

(٢) أبوعبيد البكري ـ حياته وآثاره العلمية التاريخية (٤١٣ ـ ٤٩٦هـ/ ١٠٢٢-١١٠٢م). رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، ١٩٧٤م.

(٣) انظر، ص ١٧٢ ومابعدها من «المغرب».

(٤) المغرب، ص١٧٢.

وتنقسم مادة البكري في هذا الجزء قسمين، قسم يمثل دراسة أوفت الموضوع حقه، وكثيرا ما تفردت بحقائق أصيلة عن دولة غانة. أما القسم الثاني فهو نصوص وإشارات مقتضبة عن بعض المدن والدول التي قامت في غربي إفريقية، وهي من أقدم المعلومات التي حفظت عن تاريخ هذه المنطقة، ولا غنى عنها لكل دارس.

يبدأ البكري وصفه لغربي إفريقية بالحدود الشمالية المتاخمة لمناطق قبائل البربر من جهة الجنوب. وأول ماذكره من البلاد هي صنغانة، على الضفة اليسرى لنهر النيجر، الذي يسميه البكري بالنيل. ويشير البكري إلى قرب قبيلة جدالة البربرية المسلمة من بلاد السودان. وهذا القرب والجوار جعل من هذه القبيلة عنصرا مهماً في نشر الإسلام بغربي إفريقية منذ زمن قديم. فقد كانت تسيطر على الطرق التجارية بين المغرب وغربي إفريقية كما سيجيء ذكره.

ويمدنا البكري بمعلومات مفيدة عن مدينة تكرور وقدم الإسلام فيها، وأول من أسلم من ملوكها، ودوره في إقامة الشريعة الإسلامية في تلك الأصقاع، ونشر الإسلام فيما جاوره من مناطق مثل مدينة سلى. ثم يقف قليلا عند مدينة سلى، ويذكر أنها مدينتان على النيجر. ثم يقفز بعد ذلك إلى ذكر غانة، ويحدد المسافة بينها وبين سلى بعشرين يوما، ويقطن في هذا البون الشاسع قبائل عدة في عمائر متصلة. ويذكر الصراع بين ملك سلى المسلم وكفار هذه المناطق، وأقربهم إليه أهل مدينة قلنبو.

ويمدنا البكري بمعلومات هامة عن غانة، من حيث ثنائية تكوينها ـ مدينة للمسلمين وأخرى للكافرين ـ ويذكر عدد مساجد غانة المسلمة وعلماءها، وتجارتها في الذهب، وعاداتها الاجتماعية، وبعض أمورها السياسية.

أما كتابته عن دولة مالي فقد كانت أقل كما وكيفا، وعلى الرغم من

ذلك فقد أثبت الدارسون للبكري الفضل في أنه قد سبق غيره من المؤرخين إلى استعمال الاسم «مالي» ورسمه «ملل»، وذكر اسم أول من أسلم من ملوك هذه الدولة التي كانت في زمانه مستقلة.

ولم تحظ دولة سنغي إلا باليسير من اهتمام البكري، لأن ازدهارها كان مابين القرنين الخامس عشر والسابع عشر الميلاديين، ولكنه تعرض لبداية دخول الإسلام إلى أهم مدن هذه الدولة، وهي مدينة كوكو، التي أصبحت فيما بعد إحدى عواصم دولة سنغي.

أما دولة الكانم، فإن نصوص البكري عنها تعد من أقدم النصوص التي وصلتنا، ولكنها قليلة وربما يرجع ذلك إلى عدم إسلامها في ذلك الوقت.

وقد كان البكري معاصرا لأحداثه التي ذكرها، ومن أدلة ذلك قوله «وأمير المرابطين إلى اليوم وذلك سنة ستين وأربعمائة تنكامين، وولي سنة خمس وخمسين».[1]

وأهم الشخصيات التي اعتمد عليها البكري كمصادر عن غربي إفريقية، شخصية الفقيه أبي محمد بن عبدالملك[2] وشخصية أبي عبدالله المكي.[3]

ولم تخل كتاباته من روح النقد للروايات وترجيح بعضها على بعض.[4]

أما منهجه في التأليف فهو طبقا للمكان لتأثره بالجغرافية، وبذلك حاد عن منهج مدرسة التقسيم طبقا للسنين كالطبري، أو حسب الموضوعات مثل ابن الأثير.

---

(١) المغرب، ص١٧٠.

(٢) المصدر نفسه، ص١٧٤.

(٣) المصدر نفسه، ص١٧٩ ـ ١٨٠.

(٤) انظر مثلا المصدر نفسه، ص١٤٩.

٢) الإدريسي (ت ٥٦٤/ ١١٦٦م)[1]

«نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»

هو أبوعبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس، ونسبته إلى الأشراف الأدارسة. يرى الكثيرون أنه ولد بسبتة سنة (٤٩٣هـ/ ١١٠٠م). تلقى علومه الأولى في المغرب، ثم انتقل إلى قرطبة مواصلا دراساته. ثم قام برحلات في الأندلس والمغرب ومصر وآسيا الصغرى، ويذكر أنه زار فرنسا وانجلترا[2]. وزار صقليه، واتصل بملكها رُجار «Roger» الثاني، فنزل في بلاطه، فأكرم وفادته: لأنه رأى فيه العالم الذي يشبع نهمه في الاستزادة من معرفة علوم الفلك والجغرافية، وطلب منه تصنيف كتاب في صفة الأرض من واقع مشاهداته، فعكف الإدريسي على هذا العمل حتى أتمه في سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م وأضاف إليه قسما سماه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، استغرق تصنيفه خمسة عشر عاما[3]. وظل الكتاب ينسب إلى الملك، فيقال «كتاب رجار»[4]، أو «الكتاب الرجاري».

والكتاب يزخر بالمعلومات القيمة عن بلاد المغرب والأندلس، ومعظمها معلومات شخصية استقاها من مشاهداته في رحلاته وأسفاره، ومن مصادر أخرى. وقد ترجم بعض الكتاب إلى اللاتينية. وقد نشر المستشرقان دوزي ودي غويه الجزء الخاص بإفريقية والأندلس من «نزهة المشتاق» في ليدن سنة ١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م بعنوان: «وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس». وقد أعاد سافورا نشر هذا الكتاب مصححا في مدريد سنة ١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م.

---

(١) يذكر جورجي زيدان أن وفاة الادريسي كانت عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م، والمعروف ان هذا التاريخ هو تاريخ الفراغ من مؤلفه نُزهة المشتاق.

(٢) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الدار البيضاء، ١٩٦٥. الناشر: دار السلمى، ص٢٤٨.

(٣) المرجع والمكان نفساهما.

(٤) انظر مثلا: ابن خلدون: العبر، جـ٦، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦، ص٤١٢.

وطبع روزن ملر وصف الشام وفلسطين في ليبسك سنة ١٢٤٤هـ/ ١٨٢٨م، وطبع ماري وغيره القسم الخاص بايطاليا سنة ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م في رومية، وفي كل طبعة شروح وتعاليق. واشتغل غيرهم في ترجمة أقسام منها إلى ألسنتهم، وطبعت الترجمات وحدها أو مع أصلها العربي. ويوجد جزء من نزهة المشتاق «برسومها وصورها بدار الكتب المصرية.[1] وتقع في خمس وثلاثمائة صفحة من الحجم الكبير. وفي خرائطه التي رسمها أظهر أنه أول من عرف حقيقة منابع النيل، فصورها بحيرات عند خط الاستواء كالتي اكتشفها علماء القرن الماضي (١٢٧٥هـ/ ١٨٥٨م)، وهما: بحيرتا فكتوريا وألبرت.[2]

وقد أمدنا الإدريسي بمعلومات قيمة وأصيلة ـ في كتابه المذكور ـ عن بلاد غربي إفريقية. فقد تكلم عن مدينة أوليل حيث مصدر الملح الذي يجلب منه إلى غربي إفريقية منذ القدم ويستبدل به الذهب. وتكلم عن مدينة سلى التي كانت تحت حكم ملك التكرور، وعن مملكة التكرور المستقلة، ووصف التجارة بينها وبين المدن الأخرى وبين المغرب، وعن المسافات بين المدن المختلفة في المغرب وغربي إفريقية. وتكلم عن العلاقات بين سلى وتكرور، وغانه، وبريسي من ناحية، وعن أرض لملم التي تقع جنوباً من ناحية أخرى، وهي علاقات غير ودية في الغالب. ونراه يذكر معلومة هامة عندما قال «والنيل يجري في هذه الأرض من المشرق إلى المغرب[3]»، وهو يعني بذلك نهر

(١) انظر الفهارس، رمز «جغرافية»، رقم: ١٥٠، أما الخرائط الجزئية التي تضمنها هذا الكتاب فقام بجمعها مستشرق ألماني من مكتبات مختلفة وألف منها خريطة كاملة ملونة، كتبت باللاتينية سنة ١٩٣٣م. ثم أخرجها المجمع العلمي العراقي بالعربية سنة ١٠٥١. انظر: المغرب عبر التاريخ، مرجع سبق ذكره، ص٢٤٨.

(٢) انظر الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سبق ذكره، ص ص١٩ ـ ٢٠، المغرب عبر التاريخ، المصدر السابق، ص٢٤٨.

(٣) نزهة المشتاق، ص٣٠.

النيجر، وبذلك كـان له السبق في تحديد مجرى هذا الـنهر وليس» منجوبارك» في نهاية القرن الثامن عشر.

وأمـدنا بمعلومـات فريـدة عن بلدة «ونغـارا» المشهـورة، حـيث الذهب وتجارته. وعول الباحثون كثيرا على وصفه لهذه المنطقة.

أما مالي فـي زمانه فكانت صغيـرة غير ذات شأن، بل كان الشـأن لغانة التي أطنب في وصفـها أكثـر مما فعل البكري، وكذلك سنغي لم يرد لهـا ذكر عنده لتأخرها في الظهـور، ولكنه، مثل البكري، تعرض لكوكو واستـقلالها، وناقش من سبقـه حول موقعها، هل هي علـى الخليج أم على النيجر،؟ ونراه لأول مرة يفرق بين لفظي كوغة وكوكـو. ويرى كوغة تابعة لونغارا. ويذكر أن من الناس من يجعلها من كانم. أما كوكو فهي عنده مملكة مستقلة.

ويذكر لأول مرة مدينة أنجيمي الكانمية، وكانت في زمانه صغيرة.

وعمـوما فقـد أمدنا بمعلومات لاغنى عنهـا لكل من يتعـرض لتاريخ هذه المنطقة، وأفاد معظم العالم بمعلوماته الفريدة ونظرياته الجديدة في علم الجغرافية.

٣) العمري (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م)

«مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»

هـو أبوالعبـاس، شـهاب الدين أحمد بن يحيى بن فـضل الله بن يحيى ابن وعجـان. ويتـصـل نسبـه بعمر بـن الخـطاب، ولذلـك عــرف بالعمـري. ولـد في دمشق سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م، وتعلم فيـها وفي القاهرة والإسكندرية والحجـاز. وتولى خطة القضاء وغيـرها بالقاهرة. ومات بدمـشق. وهو مؤرخ حجة في معرفة الممالك والمسالك والبلدان، وإمام في الترسل والإنشاد، عارف برجال عـصره، غـزير المعرفـة بالتاريخ، وأجل آثاره العلمـية كـتابه «مـسالك الأبصار»، وهو مـوسوعـة في بضعةٍ وعـشرين مـجلداً، منه نسخـة مخطوطة

مصورة بالفوتغراف بدار الكتب المصرية. وهو من المؤلفات المهمة في الأدب والتاريخ والجغرافية، وهو أكثر شبها بـ«نهاية الأرب» للنويري. ويقسم قسمين: الأول في الأرض ـ الجغرافية ـ وملحقاتها، والثاني في سكان الأرض من إنسان وحيوان. بحث في الأجزاء الأولى منه في التاريخ الطبيعي والجغرافية وما يتبع ذلك من مسالك الممالك والرياح وعجائب البر والبحر، ومواقع البلدان، خاصة ممالك مصر والشام والحجاز، وأفاض في وصف سكان الأرض. وفرغ من تأليفه سنة ٧٤٤هـ/ ١٣٤٤م. وقد طبعت دار الكتب المصرية الجزء الأول من هذا الكتاب.

لقد حظيت دولة مالي الإسلامية عند العمري بوصف مهم ودقيق، وذلك من حيث أقاليمها ومدنها، وقبائلها وبناء دورها، وأقواتها وثمارها، وحيواناتها وعاداتها، وتقاليدها وأزياؤها وعساكرها ومعادنها، وعلماؤها ا لذين عرفو آنذاك في مالي بـ «المرابطين»، ومن حيث صلات ملوكها بمن يجاورهم، وساق طرفاً من سير ملوكها. ومايزال هذا الكتاب مخطوطاً.

استقى العمري مادته من أشخاص عاشوا في تلك البلاد وعرفوا أخبارها، ومن أهل مالي أنفسهم أو من ملوكهم الذين زاروا القاهرة مثل السلطان منسا موسى[١]، ومن آخرين صحبوا هؤلاء الملوك ونقلوا ما حدثوه به وما عرفه هو أثناء وجوده في ديوان السلطان بالقاهرة. ومن الشخصيات المهمة التي استقى منها معلوماته عن مالي: الأمير أبوالحسن بن علي بن أمير حاجب[٢] وهو أهمهم، وسعيد الدكالي[٣] والمهمندار[٤]

(١) انظر: مسالك الأبصار، ص٥٠٣.
(٢) المصدر نفسه، ص ٥٠١.
(٣) المكان نفسه.
(٤) المصدر نفسه، ص٥٠٥.

والــزاوي[1] ومهنــا.[2]

وتعدّ كتابة العمري عن رحلة منسا موسى سلطان مالي إلى الحج من أهم المصادر التاريخية حول هذا الموضوع، وهي كتابة جديرة بالثقة والاحترام.

عقد العمري في كتابه فصلا عن مملكة الكانم، وصف ملكها بأنه مسلم مستقل. وتحدث عن عــاصمتها، وعن المسافات بين أقاليمهــا وما جاورها شرقا وغربا وشمالا، وألم بجزء وافر من حياة كانم الاجتماعية. ومن أهم ماذكره عن هذه المملكة أن أهلها بنوا مــدرسة للمالكية بفسطاط مصــر، لتكون مكانا يتلقون فيه الدراسة بمصر، وملاذا لوفودهم القادمة إلى مصر للعلم أو الحج أو التجارة.

وللعمري كتاب آخر هو «التعريف بالمصطلح الشريف» وهو مجموعة من الرسائل في مــراسم الملك وما يتعلق به، قســمه سبعــة أقسام، وهو مفــيد في بابه، ويشبه «صبح الأعشى» للقلقشنــدي، ولكنه أوسع منه كثيرا، ومنه نسخة في دار الكتب المصرية، وطبع بمصر سنة ١٣١٢هـ/ ١٨٩٥م.

وفي الكتــاب جانب يهمنا كــثيــراً، وهو نماذج المكاتبات السلطانــية التي جرت الــعادة أن تقــوم بين السلطان المصري والبــلاد الإسلامــية؛ فــهناك رسم للمكاتبة إلى صاحب البرنو والكانم وملك التكرور.

٤) ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)

«تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»

هو أبوعبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي. ولد ونشأ ببلدة طنجــة من أسرة وصل الكثير من أفرادها إلــى منصب القضاء، ونبغ بعضهم في العلوم الإسلامية.

---

(١) المصدر نفسه، ص٥٠٧.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٠٦.

غادر وطنه حاجا سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م، ولكنه عشق الأسفار فظل على تلك الحال ثمانية وعشرين عاماً. فوصل شرقاً إلى الصين، وفي أوربة حتى أسبانيا، وفي إفريقية حتى مالي. وكانت المغرب هي قاعدة انطلاقه في هذه المراحل الثلاث من رحلته. وعندما ألقى عصا التسيار بمدينة فاس، اتصل بسلطانها أبي عنان المريني، الذي أعجب به وبأخبار رحلاته، فأمر كاتبه محمد ابن جزي الكلبي أن يدون ما يمليه عليه هذا الرحالة، فتولى ابن جزي رواية الرحلة وتلخيصها وترتيبها، وإضافة بعض الأشعار، وتحقيق بعض الأجزاء، مستعينا بكتب الرحلات المعروفة، ثم سماه «تحفة النظار..» وفرغ من ذلك سنة ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م. وختم ابن جزي الرواية بعبارة أجزل فيها الثناء على ابن بطوطة ولم ينس مولاه السلطان، فافتخر بأن ذاك الرحالة اختار الاستقرار في دياره دون غيرها.

والجزء الذي يهمنا في هذه الدراسة هو الرحلة التي قام بها ابن بطوطة إلى غربي إفريقية، قيل إن السلطان المريني هو الذي أوفده إلى تلك البلاد.[1] وقد اصطحب في هذه الرحلة قافلة من التجار، بدأت رحلتها عبر الصحراء الكبرى في أول سنة ٧٥٣هـ/ شباط ـ فبراير ١٣٥٢م. ووصلت بعد خمسة وعشرين يوما إلى مدينة تغازى من مصادر الملح الصحراوي، وتحدث عن عجائبها وسكانها ومبانيها ومعاملة أهلها بالملح كما يتعامل غيرهم بالذهب والفضة. وعندما وصلت القافلة إلى «تاسر هلا» بعثوا دليلا إلى إيولاتن (والاتا) يسمونه «التكشيف»، وهو اسم لكل رجل من قبيلة مسوفة البربرية يكتريه أهل القافلة ليبلغ أصحابهم في والاتا بقدومهم ليستأجروا لهم دورا. وتكلم على هذا التكشيف ومهمته وأحوال الصحراء ومخاطرها وعجائبها.

(١) انظر: عبدالله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط٢ بيروت ١٩٦١م، جـ١، ص٢١٣.

مكث ابن بطوطة خمسين يوما في والاتا، وهي أول بلاد غربي إفريقية، وقص كل ماحدث له فيها، لاسيما مع أميرها وملكها، وتكلم على سكانها من مسوفة، ثم واصل الرحلة إلى مدينة «كارسخو» على النيجر، الذي يسميه بالنيل، وبين انحداره من كارسخو إلى كابرة، ثم إلى زاغة فتنبكت، ثم إلى كوكو ومولي، ثم ينحدر إلى بلاد النوبة كما يظن. وقد أخطأ في هذا الربط بين النيل المصري ونهر النيجر.

ويذكر أن لكابرة وزاغة سلطانين يؤديان الطاعة لملك مالي، ولاحظ أن أهل زاغة قدماء في الإسلام متمسكون بالدين، ولهم همة في طلب العلم.

وعندما اجتاز النهر إلى مدينة مالي وجد أن أحد أصحابه، وهو محمد ابن الفقيه الجزولي قد اكترى له دارا. وأثناء إقامته بمالي التقى بقاضيها عبدالرحمن من أهل البلاد فأكرمه. والتقى بآخرين من الوافدين فأشاد بهم جميعا، وفي ذكره لهذه الشخصيات الوافدة دليل واضح على تطور العلاقات بين مالي والبلاد الإسلامية الأخرى، ومنها مصر. فقد التقى بطبيب مصري عالجه من وعكة ألمت به نتيجة لتناوله وجبة غذائية محلية لم تناسب معدته. وذكر السلطان المالي منسا سليمان، وضيافته التافهة في البداية، ثم إحسانه إليه بعد ذلك فشكره، وذكر مجلسه، ووصف تذلل الناس إليه بذر التراب على رؤوسهم، وغير ذلك من أحوالهم، وذكر العدل المتفشي فيهم. ومن الأمور التي أعجبته كثيرا عناية أهل مالي بالتعليم وحفظ القرآن الكريم، فيقول: «وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه، فلاتفك عنهم حتى يحفظوه[1]» وشاهد مثالا لذلك عند القاضي عبدالرحمن عندما زاره في

(١) تحفة النظار، طبعة التحرير، ص٤٥٠.

العيد فوجد أولاده في القيود، والتقى بشاب مقيد لهذا السبب. ولم يغفل ذكر مساوئ أهل مالي.

ومن مدينة مالي توجه إلى مدينة كوكو وأقام بها شهرا، وقفل راجعا إلى بلاده مارا بتكدا مصدر النحاس، ووصفها، وأعطى إشارات إلى بلاد برنو، مما يدل على أنه لم يزرها. ثم غادر تكدا إلى سجلماسة.

والمعلومات التي أوردها ابن بطوطة في هذه الرحلة معلومات أصيلة أصبحت على مدى العصور مصدراً أساسيا للباحثين في تاريخ هذه المنطقة من غربي إفريقية، خاصة دولة مالي الإسلامية، لأنه أول رحالة يجوب الآفاق المجهولة في الصحراء الكبرى، ويكتب عن مشاهداته مباشرة، وليس الخبر كالعيان كما يقولون.

وقد تُرجمت هذه الرحلة إلى الإنجليزية، وطبعت في لندن سنة ١٢٤٥هـ/ ١٨٢٩م، وطبعت في باريس مع ترجمة فرنسية سنة ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٣م، ثم سنة ١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م و١٣١١هـ/ ١٨٩٣م، وطبعت بمصر سنة ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م، ولخصها «جب» بالانجليزية سنة ١٩٢٩م، وقامت مؤسسة الطباعة لدار التحرير بطباعتها في الأعداد من ١٦٦ إلى ١٦٧ لسنة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م، وعملت في مجلد واحد كان اعتمادنا عليه في هذه الدراسة. وتوالت ترجمات أجزائها إلى عدة لغات. والجزء الخاص بغربي إفريقية ترجم إلى الفرنسية.

٥) ابن خلدون (ت ٨٠٩هـ/ ١٤٠٥م)

العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر

هو عبدالرحمن بن أبي محمد بن الحسن بن خلدون. ونسبته إلى بني خلدون من عرب اليمن الذين استقروا بمدينة إشبيلية عند فتح الأندلس، وكانت

لهم الرياسة إبان عصر الاضمحلال الأول. وظلوا بأشبيلية إلى أن كانت ثورة ابن الأحمر بحصن أرجونة، وقيام الفتنة التي انتهت بسقوط قرطبة في أيدي النصارى سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م، فانتقلوا إلى سبتة. وكان جده محمد يعمل في خدمة بني حفص بتونس، فنشأ ابنه أبوبكر في بلاطهم، وكان «مقدما في صناعة العربية وله بصر بالشعر وفنونه».[١] فنشأ ابنه عبدالرحمن في بيئة علمية، وتتلمذ لكبار مشايخها، ولازم مشاهير علمائها[٢]، ثم اتصل بالسلطان المريني أبي عنان فأستخدمه في خطة الكتابة سنة ٧٥٥/ ١٣٥٤م، مما أتاح له فرصة الظهور على مسرح السياسة والاهتمام بمشكلات المجتمعات.

وانتقل عبدالرحمن إلى مصر سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م، وعمل مدرسا بالجامع الأزهر، ثم اتصل بالسلطان الظاهر، «فأبر اللقاء وأنس الغربة ووفر الجراية من صدقاته، شأنه مع أهل العلم»[٣]، ونصب في سنة ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م قاضيا للمالكية، وظل يمارس القضاء والتعليم، وتقلبت به الأحوال كثيراً.

وألف كتابه «العبر» قبل قدومه مصر مابين عامي ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م و٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م وربما يكون قد عدّل وأضاف فيه أثناء إقامته بمصر في ضوء ما جدّ عنده من معلومات.

ويهمنا في هذا المؤلف الجزء السادس من طبعة لبنان لسنة ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م، ففي هذا الجزء تكلم ابن خلدون على ممالك غربي إفريقية التي كانت قائمة في زمانه. وقد اعتمد في معلوماته على من سبقه من الكتاب العرب أمثال ابن سعود

(١) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة ١٩٥١، الناشر: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ص١٤.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص ص١٥ ـ ٢٠.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٨٤.

المغربي والبكري والإدريسي، وعلى من التقى بهم من التجار والمسافرين الذين كانوا يترددون على هذه المناطق وعلى بعض العلماء المغاربة الذين تولوا القضاء في بعض مدنها، أمثال القاضي ابن وانسول السجلماسي، ومن الذين التقوا بعاهل مالي منسا موسى في مصر، أمثال الحاج يونس، الذي قام بدور المترجم بين السلطات المصرية وفوج الحجيج المالي، ومن الحجاج الذين التقى بهم في مصر، أمثال الشيخ عثمان، الذي يقول عنه «فقيه أهل غانيه[1] وكبيرهم علما ودينا وشهرة، قدم مصر سنة ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م حاجا بأهله وولده»[2]

وترجع أهمية هذا الجزء عن مالي إلى أن معظم كتابات ابن خلدون عن مالي وغانه أصيلة. وهو أول من ذكر ترتيب سلاطين مالي من قبل ومن بعد السلطان منسا موسى، وذكر أحوالهم وعلاقاتهم الودية مع ملوك بني مرين بالمغرب، لاسيما السلطان أبي الحسن، وذكر السفارات والهدايا التي كانت بينهم، ولابن خلدون في ذلك قصيدة. وذكر تغلب المرابطين والصوصو على دولة غانا وإسلامها وأول من أسلم من ملوكها.

وعموما فمؤلفه عظيم الفائدة، تناوله الدارسون كل من وجهة نظر تخصصه، لأن صاحبه كان ذا رأي في الاجتماع والفلسفة والاقتصاد والتاريخ والدين والأدب، واهتمت معظم دور النشر بطبعه ونشره. والكتاب عامة أشهر من أن يعرف به.

٦) القلقشندي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)[3]

صبح الأعشى في صناعة الإنشاء

في الجزء الخامس والسادس من هذا الكتاب المطبوع معلومات مفيدة عن

---

(١) يعني غانة.

(٢) العبر، جـ٦، ص٤١٣.

(٣) هو أحمد بن علي الغزاوي. ولد في قلقشندة من قرى القليوبية سنة ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م. تولى كتابة الإنشاء سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٨ في دولة المماليك المصرية.

بلاد غربي إفريقية في تلك الفترة. وقد اعتمد القلقشندي كثيرا في معلوماته عن هذه المنطقة على كتابي العمري «مسالك الأبصار» و «التعريف»، فهو كثيرا مايقول مقتبسا: «قال في مسالك الأبصار» أو «وذكر في مسالك الأبصار» أو «وقد حكى في مسالك الأبصار»، ويستخدم العبارات نفسها عندما يقتبس من «التعريف» أو يستقي منه معلوماته. وبجانب هذا نلاحظ أن معظم معلوماته مستقاة من مؤلفات من سبقوه. ففي الجزء الخامس من مؤلفه المذكور تكلم كثيرا عن ممالك البرنو والكانم والتكرور ومالي، وسار في ذلك على النهج نفسه الذي سلكه العمري من قبله. وفي الجزء الثامن أ يضا تتبع خطى العمري بأن أورد نماذج للمكاتبات الرسمية التي كانت تدور بين سلاطين مصر وحكام غربي إفريقية الذين تحدث عنهم في الجزء الخامس.

وكتابات القلقشندي عظيمة الفائدة لمن يؤرخون لتاريخ العلاقات الثقافية بين مصر وغربي إفريقية، وتلقي ضوءاً على الحياة العامة في غربي إفريقية، خاصة في دولة مالي. وترجع قيمة نصوصه إلى أنه جمع الكثير من نصوص الجغرافيين والمؤرخين الذين لم تصل إلينا مؤلفاتهم كالمهلبي. فالنصوص الأساسية لمعرفة أخبار بلاد غانه وغربي إفريقية عامة نجدها في المصادر التي كتبت قبل القرن السابع الهجري (١٣م). أما النصوص التي عن مالي فنجدها عند العمري وابن بطوطة ثم عند القلقشندي.

٧) حسن الوزان (ت ٩٥٩هـ/ ١٥٥٢م)[1]

تاريخ ووصف افريقية وأشهر مافيها من عجائب

"History and Description of Africa" ، هو حسن بن محمد الوزان، المشهور

(١) اعتمدنا في دراسة هذا المؤلف بالدرجة الأولى على المقدمة التي كتبها «جون بوري» لهذه الطبعة الإنجليزية، مستخلصا تاريخ حياة الوزان من ثنايا كتابه المذكور «وصف إفريقية».

بـ«ليو الإفريقي». ولد حـوالي سنة ٩٠٠-٩٠١هـ/ ١٤٩٤-١٤٩٥م بغرناطة، لم نحط بشيء عن حياة والده ماعـدا أنه كان يملك أرضا، ولكن من المؤكد أنه كان من أصحـاب الثروات والمراتب العليا في غـرناطة ثم في فاس، وذلك في ضوء المكانة المرموقة التي نالها أقاربه عندما هاجروا من إسبانيا إلى مراكش بعد سقوط غـرناطة سنة ١٩٨هـ/ ١٤٩٢م ويبدو أيضا أن عم حـسن كان ذا شأن، فقد أُرسل سفـيرا من قبل السلطان الفاسي إلى ملك تنبكت، واكـتسب شهرة عريضة كخطيب مفوه وشاعر فـحل، ويبدو أن لليو قريباً أخر في فاس، كرس جهده لدراسة الكيمياء القديمة، وماعدا ذلك فلا نعرف شيئا عن أسرته.

كان يوجد بفاس الكـثير من علماء العربية والعلوم الإسـلامية في القرن السادس عشـر الذي شب فيه الوزان. وكانوا متضـلعين من فنونهم، بالإضافة إلى قيامهم بتـرجمات إفريقية ورومانيـة. وعلى يد هذا الجيل من العلماء تلقى الوزان دراساته في العلوم العربية والإسلامية.

عمل الوزان في شبابه كاتبا في المارستـان بفاس، وكان يعمل خلال أسفاره في مهنة القـضاء في المدن التي يحل بهـا، أو كاتبا في القـافلة التي يصطحبـها. ومارس بعض مهام السفارة. فقد أوفده ملك فاس سنة ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م إلى الملك المراكشي طالبا نجدته ضد البـرتغاليين. وصحب سنة ٩١٨هـ/ ١٥١٢م ملك فاس في رحلة داخلية، وأرسله مرة سفيرا إلى مراكش في مـهمة رسمية، وفي رحلاته الداخلية وذهابه إلى الحج مع والده ألف الكثير عن الحياة في المناطق التي رآها.

ومن أسفاره المشهورة التي قام بها رحلة مع عمه إلى تنبكت وإلى أجزاء أخرى من غربي إفريقية، وهو إذ ذلك في حوالي السابعة عشرة من عمره. فقد بدأت رحلته سنة ٩١٩هـ/١٥١٣م، وعاد منها حوالي سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م، وقام بعد ذلك برحلة

إلى القسطنطينية في حوالي سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م، وزار مصر بعد سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، لأنه يخبرنا بزيارته لمصر ثلاث مرات بعد أن استولى عليها السلطان سليم. وزار الجزيرة العربية وأجزاء من البحر الأحمر. وفي إحدى سفراته في البحر الأبيض المتوسط وقع الوزان أسيراً في أيدي القراصنة المسيحيين بالقرب من جزيرة جربة، وعندما وجد القراصنة أنفسهم أمام عالم، أخذوه إلى روما، وأهدوه إلى البابا ليو العاشر، حوالي سنة ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م. واحتفى البابا بالوزان لعلمه. وحرره وأغدق عليه الأموال حتى لايغادره. ويقال بأن البابا قد نَصَّرَهُ ثم أطلق عليه اسمه "Giovani Leoni" فأصبح يعرف في التاريخ بـ«ليو الإفريقي». وفي كنف هذا البابا أكمل الوزان كتابه المشهور: «وصف إفريقية». وترجمه كله إلى الإيطالية. وحتى الآن لاتوجد غير النسخة الإيطالية التي ترجمها جون بوري إلى الإنجليزية في سنة ١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م في ثلاثة أجزاء كبيرة.

ولكتاب ليو ترجمات أخرى باللاتينية والفرنسية، كما أن له عدة طبعات بالإيطالية.(١) بعد موت الباب ليو العاشر غادر الوزان روما إلى وطنه فاس، حيث مات هناك مسلماً.

ويبدو أن الوزان قد جمع كل معلوماته الخاصة بغربي إفريقية أثناء رحلته الطويلة مع عمه، ففي ذلك الوقت كانت تنبكت في قمة مجدها. وفي هذه المرحلة مر الوزان على خمس عشرة مملكة من المغرب إلى الشرق ثم الجنوب وهي: والاتا، جني، ومالي وتنبكت وجاجو وغوبيرا وأجاديس وكانو وكاتسينا

---

(١) Leo Africanus: The History and Description of Afrioa (John Pory ed.), Vol, I,I, (London, 1600), PP. 52-58.

- محمد المهدي الحجوي: حياة الوزان الفاسي وآثاره، الرباط ١٩٣٥، الناشر: المطبعة الإقتصادية، ص ص ٤٠-٤٢.

- كتاب وصف إفريقية وتاريخها للحسن بن محمد الوزان، مقال للدكتور جمال زكريا قاسم بمجلة كلية آداب جامعة عين شمس: المجلد الحادي عشر، (سنة ١٩٦٨م)، ص ص ٢٧٩-٣٠٨.

وزجزج وزانفــرا ووانغارا وبرنو وجاغــو ونوبي، وأشار إلى مــعظم هذه البلاد باستفــاضة، وجاءت معلومــاته عن الكثير منهــا صحيحة. ومــن خلال إشارته يمكننا ملاحظة التغيير الذي حدث في هذه المنطقة منذ الإدريسي. فلم تعد كانو تلك المدينة ذات السيــادة والهيمنة، إذ أصبحــت مستقلة بينما لــم يعد لبرنو أو كاتسينا الــشأن الذي اكتسبــتاه فيما بــعد. وقفزت تنبكت من بلدة صــغيرة إلى مركز ثقافي وتجاري مزدهر، بسبب فتوحات آسكيا الحاج محمد سلطان سنغي. وأخذ على الوزان تكراره بعض الأخطــاء التي وقع فيها الإدريسي حــول مواقع بعض البلاد على نــهر النيجــر. ويبدو لنا أنه اعتــمد في بعض معــلوماته على السماع، على الرغم من وجوده في نفس المنطقة، وكــان صغيرا في سنه ليصل إلى درجة العلماء المحققين فيما يكتبون، أو لعله بدأ في الكتاب بعد فترة طويلة من زيارته لتلك المناطق: لأن هناك بعض الأحداث المذكورة فــي كتاباته وقعت بعد الوقت الذي زار فيه المنطقة.

وعموما فقد حفلت كتابته عن هذه المنطقة بمعلومات مفيدة في تاريخ هذه المنطقة وجغرافيتها، ومبانيها وعاداتها وتقاليدها، وتجارتها وملوكها، ومراسيمها وعلاقاتهــا فيما بينها، إنْ سلمــاً أو حرباً. وقام بتعريف العــالم الخارجي بهذه الحضارة، وبذكر بعض الأسماء الواقعة في المنطقة مابين غانة وبرنو، لم يذكرها البكري أو الإدريسي من قــبله. وكلامه عن حــالة التعليم الإســلامي في مدينة فاس في ذلك العصر يرسم لنا صورة حية لذلك التعليم الذي كان يعد أنموذجا لما كان عليــه حال التعليم في غربي إفــريقية، وقد وقــف الحجوي(١) عند هذه الصورة كثيرا.

---

(١) حياة الوزان الفاسي وآثاره، مرجع سبق ذكره، ص ص٧٥ـ٨٨.

(ب) ماكتبه علماء غربي إفريقية

٨) أحمد بابا التنبكتي (ت١٠٣٦هـ/ ١٦٢٧م)[١]

«نيل الابتهاج بتطريز الديباج»

يعد هذا الكتاب أضخم إسهام لأحمد بابا في تاريخ التعليم الإسلامي في عصره، وقد استدرك به على ديباج ابن فرحون. فهو قاموس تراجم للعلماء الكبار، لاسيما المؤلفين في كل من المغرب والأندلس وغربي إفريقية ومصر في الفترة التي عاش فيها، والتي سبقته بقليل، ومعظم هؤلاء العلماء الذين ترجم لهم من المالكية. ولم يترجم لعالمة من النساء سوى واحدة هي أم هاني بنت محمد العبدوس، المتوفاة سنة ٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م. وقد بلغ مجموع الشخصيات التي ترجم لها نيفا وثلاثين وستمئة عالماً.[٢]

تقع النسخة المخطوطة والموجودة بدار الكتب المصرية(١٩٧١ تاريخ) في إحدى وأربعين وثلاثمائة صحيفة، وهو مايعادل ثمانين وستمئة صفحة. وقد فرغ من تأليفه في عام ١٠٠٥هـ/ ١٥٩٥م بمدينة مراكش، عندما كان في الأسر. وهو مرتب كترتيب القواميس، حسب الحروف الأبجدية.

وهذا الكتاب هو عمدتنا في معرفة حالة التعليم الإسلامي في غربي إفريقية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وقد قام بوضع كتاب آخر أسماه: «كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج». وعن هذا يقول: «هذا جزء اختصرته من الذيل الذي ذيلت به كتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب للإمام برهان الدين بن فرحون، المسمى نيل الابتهاج بتطريز الديباج. اشتمل على جماعة لم يذكرها من أهل عصره وغيرهم، ومن بعده،

---

(١) انظر: ترجمته ومؤلفاته في الفصل الخاص بعلماء تنبكت، وفي النص الكامل لترجمته.

(٢) انظر: أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، مخطوط بدار الكتب المصرية، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، تاريخ. ورقة ٣٤١.

مع زيادات في تراجم جماعة ذكرهم، فجاء في نحو ثمانية عشر كراسا من القالب الكبير، وتم في عام خمسة وألف، ونفرد منه نسخا، ثم لخصت معظمه في هذا الجزء، مقتصرا فيه على مشاهير الأئمة وأولي التصانيف دون غيرهم غالبا. ليتيسر تحصيله ويقرب تناوله، وسميته كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج». [1]

والمخطوط الذي اعتمدنا عليه هو نسخة دار الكتب المصرية. فهو مكتوب بخط مغربي واضح بحبر أسود. أما الأسماء فمكتوبة بحبر أحمر، مما يجعل قراءته ميسورة. وقد قام بنظره عباس بن عبدالسلام بن سقرون بالقاهرة سنة ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م، على هامش الديباج المذهب لابن فرحون. وأخيرا قام الباحث ناطق صالح مطلوب بتحقيقه لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، من جامعة عين شمس سنة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ولم ينشر هذا التحقيق بعد. أما تكملته المعروفة بـ«كفاية المحتاج» فلم تنشر أو تحقق حتى الآن.

اعتمد السعدي في كتابه «تاريخ السودان» على كتاب النَّيْل، ونقل منه فقرات عديدة دون إغفال الإشارة إلى مصدره، واعتمد أيضا عليه الإمام محمد بلّو في كتابه «إنفاق الميسور» وغيرهما ممن جاء بعده من المؤرخين. ونقل عنه كثيرا ابن مخلوف[2]، ولم يشر إليه.

٩) السعدي(ت بعد سنة ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٥م)[3]

«تاريخ السودان»

ينتمي السعدي (أو السعيدي) إلى أسرة من الفقهاء في تنبكت موطنه،

---

(١) أحمد بابا التنبكتي: كفاية المحتاج، مخطوط مصور بالميكروفلم في معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، ٧٥٦ تاريخ، الصحيفة الأولى.

(٢) محمد بن مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، القاهرة ١٣٤٩هـ الناشر، المطبعة السلفية، صفحات: ٢٤٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٦ و٢٨٧، الخ...

(٣) انظر ترجمته في الفصل الخاص بعلماء تنبكت.

وقد حدث الاحتلال المراكشي لدولته قبل مولده بحوالي خمس سنوات. وقد انعكست الروح المعادية للاحتلال في كتاباته. وتلقى العلم في شبابه على يد الفقيه أحمد بابا وغيره من علماء المنطقة مثل القاضي محمود ابن أبي بكر بغيغ.

قضى السعدي شطرا من حياته في مدينة جني حيث عمل بها محررا للعقود. وفي أثناء وجوده في تنبكت تولى منصب إمام مسجد سنكري الشهير في عام ١٠٣٩هـ/ ١٦٢٩م. وتقلب في عدة وظائف إدارية. وكان يعتزل أحيانا كل عمل ماعدا التأليف. وقام برحلات داخلية أهمها رحلته إلى مملكة ماسنة الفولانية شمالي جني على الضفة اليسرى لنهر النيجر، بدعوة من قاضيها. واستقبل في ماسنة بحفاوة من السلطان وأعيان مملكته، مما حبب إليه تكرار الزيارة والقيام بصلح بين السلطان وتابع له كان بينهما ثأر قديم. ولم تكن هذه هي المرة الأولى أو الأخيرة التي يفعل فيها مثل هذا العمل للوفاق بين أمراء المنطقة، وأكسبته هذه الوساطات والرحلات معرفة واسعة بأحوال البلاد وتقويم أحداثها وتدوينها، وساعده على ذلك مكانته العلمية والاجتماعية، وتقلده منصب كاتب ـ سكرتير ـ الباشا التنبكتي محمد الخرجي سنة ١٠٥٦هـ/ ١٦٤٦م. وقد أتاح له هذا المنصب بالذات أن يتجول مع الباشا في مناطق لم يكن يعرفها من قبل، فاختمرت في ذهنه الكتابة عن تاريخ هذه المنطقة، فكتب جزءًا وقف فيه عند أحداث ذي الحجة سنة ١٠٦٣هـ/ ١٦٥٢م،[١] واستأنف الكتابة بعد توقف دام ثلاث سنين، فأضاف إليه أحداثا تنتهي في جمادى الأولى سنة ١٠٦٥هـ/ مارس ١٦٥٥م،[٢] وهي آخر مادون من أحداث.

(١) السعدي/ تاريخ السودان، باريس ١٨٩٨م، طبعة هو داس، ص٣١٤.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٢، ٣٢٣.

وتاريخ السودان على الرغم من عنوانه العـريض إلا أنه يركز على تاريخ دولة سنغي وفتـرة الاحتـلال المراكشي لها. ولم تحظ مـالي عنده إلا بالقليل. وينصب اهتمامه الأكبر على مدينة تـنبكت مسقط رأسه، فهو يؤرخ لها منذ أن كانت محطة صغيرة للقوافل، حتى أصبحت العاصمة الثقافية الأولى في غربي إفريقـية على مدى ثلاثة قـرون، من القرن الخامس عـشر حتى القـرن السابع عشر. والمدينة الثانية التي حظيت باهتمامه أيضا هي جني.

إن الجزء الأول من «تاريخ السودان» والذي يتجاوز نصف الكتاب تقريبا، يشمل المعلـومات التي جمـعها المؤلف من مـصادر شفـهية أو مـكتوبة، أهمل الإشـارة إلى مصـادرها. ولعل المخطوطات الألف التي اكـتشـفت أخيـراً في النيجر، تلقي لنا الضوء على تلك المصادر التي اعتمد عليها ولم يذكرها.(١)

وفيمـا يتعلق بتاريخ السودان يشيـر فقط إلى كتابين همـا «نيل الابتهاج» و«الحبر»، الذي لم يذكـر مؤلفه أو يُعَرِّفْه. أمـا بالنسبة لتاريخ المغـرب فلايذكر سوى كتاب الحلل الموشية في تاريخ وأخبار الدول المراكشية.

أما الجـزء الثاني فيخـتلف عن الأول لأنه كان يسجل فيـه الأحداث عن قرب، ويسـتنطق من حوله ممن كان شـاهد عيان، ويدون تجـربته الشخصـية، فجاءت معلوماته فـيه حية أصيلة، فحددت لنا المراحل الرئيسة للحـياة القومية والسياسية والثقافية والاجتماعية.

والكتاب زاخـر بسيـر العلماء، ولكن العيب فـيه اقـتصاره على أسـماء العلماء فقط ومشايخهم والكتب التي درسوها، وتواريخ وفاتهم ومكان دفنهم، وإهمال الإشارة إلى حياتهم الخاصـة، والأحداث العامة التي ارتبطوا بها. وقد

(١) عن هذا الخبر المهم انظر: صحيفة الأخبار المصرية، الأعداد ٧٣٤٧ و٧٣٤٩ بتاريخ: ٥/١/١٩٧٦م، و٧/١/١٩٧٦ على التوالي، السنة الرابعة والعشرين.

اتبع نفس الطريقة في ترجمته لباشوات سنغي. وكان متأثراً بالبيئة التي عاش وسطها عندما أخذ يعدد كرامات وخوارق بعض العلماء الذين ترجم لهم. وهذا يدلنا على أن الشعوذة كانت تختلط بأفكار الناس، ولم يكن العلماء يختلفون عن غيرهم من العامة، ولاشك في أن هذا فهم منحرف لبعض جزئيات مقاصد الشريعة، ونذهب مع زبادية[1] بأن هذا يعدّ فهما سطحيا للشريعة الإسلامية على الرغم من أننا نلاحظ حتى اليوم علماء ينتسبون إلى التصوف ولهم حظ وافر من علوم الشريعة ولكنهم يؤمنون بأشياء، ويروجون لها، ويصعب على العقل تصديقها.

وقد اتبع السعدي في كتابه طريقة الحوليات مثل الطبري وغيره، فرتب أحداثه ترتيبا زمنيا. ولغة الكتابة عنده سهلة عموما، وإن لم تخل من بعض الأساليب الركيكة، وقد تخللتها كثير من العبارات الرصينة، والتي تدل على مقدرته وتمكنه من اللغة العربية، لاسيما الخطابات الرسمية التي كان يكتبها.

وكان السعدي وطنيا في شعوره وإن حاول أحيانا أن يكبت مرارته ضد الاحتلال المراكشي، ويشيد ببعض رجال هذا العهد. ويتجلى شعوره الوطني عندما اضطلع بتصنيف هذا المؤلف المهم وشرح دوافعه في الصفحة الأولى.

وقد نال هذا الكتاب اهتمام المستشرقين منذ أن عثر بارت على نسخته المخطوطة في جوندو بغربي إفريقية سنة ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٣م، فقام بنشره وتحقيقه ـ دون تغيير نصه ـ المستشرق هوداس وتلميذه بنوة سنة ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م بباريس، وقسماه إلى ثمانية وثلاثين بابا من دون عناوين، اكتفاء بكتابة أرقام الأبواب. وأصدر ترجمة فرنسية مع نصه العربي في مجلدين في العام نفسه،

(١) عبدالقادر زبادية: مملكة سنغاي في عهد الأسيقيين، الجزائر، لم تذكر السنة، الناشر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص١٥٩.

ومعـها ذيل اسمه «تذكـرة النسيان في أخـبار ملوك السودان». ألفـه أحد أبناء الأمير محمد بن صود، من قبيلة في سنغي في تنبكت سنة ١١٦٤هـ/ ١٧٥٠م. ويتضمن تاريخ ثلاثة من باشوات مراكش تولوا الباشوية في تنبكت، وطبع في باريس سنة ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م. وفي نهايته مقالة عن تاريخ سوكوتو الفولانية وحروب الشيخ عثمان دان فودي وابنه السلطان بلّو، سلطان سوكوتو.

وهذا الكتاب مـازال تحت الدراسة والتـقييم لاسـيما بـعد أن اكتـشفت مخطـوطات أخرى منه حـديثا لم تر النور بعـد، مما يجعل من الممكـن إصدار طبعة أخرى جديدة تعيد النظر في بعض نقاطه التي تحتاج إلى بحث.(١)

١٠) ابن المختار (ت بعد سنة ١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤م)

«تاريخ الفـتـاش في أخبـار البلدان والجـيـوش وأكابر النـاس وذكر وقـائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار»

إن مؤلف هذا السفر العظيم مازال مثار جدل ونقاش بين العلماء منذ أن ظهر في طبعته الأولى سنة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م. فالمشهور حتى اليوم، أن مؤلف «الفتـاش» هو القاضي مـحمود بن الحـاج المتوكل كعـت، وعلى هذا الأساس ظهرت طبعته الأولى باسم كـعت هذا. ولكن ظهر أخيرا رأي يقول بأن المؤلف هو شخص آخر يعـرف فقط بابن المختار. وصاحـب هذا الرأي هو لفتزيون(٢) وسبقـه آخرون شكوا في أن يكون المؤلف هو القاضي محمـود كعت، وذهبوا إلى أن هناك عالما آخر غير محمود كعت يعرف بهذا الاسم، ومن أولئك الأب جوزيف برن سنة ١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م وبعـده جون هنوك(٣) وآخرون(٤) وقد

---

(١) See: J. Hunwick, Source Materials for the History of Songhai, Bornu and Hausaland in the 15th. C.", J.H.S.N., VII, 3 (Dec. 1974), 9. 579.

(٢) N. Levtzion: "A Seventeenth Century Chronicle by Ibn Al-Mukhar: A Critical Study of Tarikh Al-Fattash".

(٣) Source Materials, op.cit, P. 579.; Ibid, PP. 575-76.

(٤) S.J. Hogben and A.N.M.kirk- Green: An Introduction to the History of the Islamic States of Northern Nigeria, (Oxford 1967), p. 21.

اعتمد لفتزيون في دراسته عن «الفتـاش» ومؤلفه على مخطوطة غير التي اعتمد عليها هوداس ودلافـوس اللذان قاما بنشر هذا الكتاب، ورمـزا إليها بالمخطوطة «ألفـA» وسمى مـخطوطة هوداس بـ«سي C» وفي الحجج الـتي يستند إليـها لفتزيون قوله أن محمـود كعت لم يولد سنة ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م كما يذكر هوداس، بل ولد في عـهد آسكيـا الحاج محـمد (١٤٩٣ـ١٥٢٨م) لأن هناك إشـارة في المخطوط «ألفـA» تذكر أنه ولد مع أربعة علماء آخرين في عهد آسكيا محمد، وهم:

١ ـ أحمد بن محمـد سعيد ابن ابنه محمود بن عمـر أقيت، وتوفى أحمد هذا سنة ٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م وعمره ٤٢ عاما كـما جاء في «تاريخ السودان»، لذا فقد ولد في سنة ٩٣٣هـ/ ١٥٢٦م.

٢ ـ مـحـمـد بن مـحـمـود بغـيغ، ولد سـنة ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م ومـات سنة ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م كما جاء في «تاريخ السودان».

٣ ـ أحمد بن الحاج أحـمد بن عمر بن محمد أقـيت، والد أحمد بابا، ولد سنة ٩٢٩هـ/ ١٥٢٢م ومات سنة ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م كما ذكر ابنه في حولياته.

٤ ـ أبوبكر بن مـحمـود بن عمـر بن محمـد أقيت، ولد والـده محمـود سنة ٨٦٨هـ/ ١٤٦٣م أما الإبن أبوبكر فمن المحتمل أن يكون قد ولد بعد تولي آسكيا مـحمد العرش سنة ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م. وفي ضـوء هذا وفي ضوء بينات أخرى يـرى الباحث أن علاقـة محمـود كعت كانـت مع آسكيا داود (١٥٤٩ـ١٥٨٣م) ومع العلمـاء المذكورين آنفا وهو في عـمر دون الثـمانين بكثيـر، لإشارات تدل على ذلك، وأن الغـرض من وراء ذكر المخطوط (C) بأن مـحمـود كعت صـحب آسكيا مـحمـد الحاج ١٥٩٤ـ٦م) هو غـرض سياسي، الهـدف مـن ورائه أن يحـمل تاريـخ الفتـاش «بيـنة عـن أن الخليفة الثاني عشـر المتوقع وهو «شيخو أحـمد» وريث عرش الخليفة الحـادي عشر

آسكيا الحاج محمد.[1]

ويخلص لفتزيون من هذا كله إلى أن هوداس ودلافوس نفسيهما قد توصلا إلى أن كعت لايمكن أن يكون قد كتب كل الحولية، إذ إن الحوادث تنتهي بسنة ١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩م، أي بعد ست سنوات من وفاة محمود كعت. وهناك عدة إشارات إلى تواريخ حتى سنة ١٦٦٤ـ٦٥م أي بعد وفاته بفترة طويلة. ولكن هناك حقيقة لاتنكر، هي أنه قد حرر جزءا يسيرا من الكتاب، لاسيما الفصول الست الأولى والتي هي أيضا لاتخلو من فقرات لم يحررها كعت مباشرة. بل تركها كمذكرات قام بتحريرها أحد أحفاده بعد أن ضمها إلى مذكرات أخرى لبعض أبناء محمود كعت. وهذا الحفيد هو أحد أبناء بنات محمود كعت كما يشير هو إلى ذلك.[2] فقد استخدم الوثائق الأسرية التي بدأها جده محمود كعت وأبناؤه، ليخرج لنا «الفتاش».

ومهما كان الأمر فإنه من الواضح أن محمود كعت كان له اهتمام بالغ بالتاريخ الذي ورثه أبناؤه، أحدهم القاضي يوسف بن محمود كعت[3]، الذي استعان بمذكراته ابن المختار خاصة في تاريخ الحرب الأهلية بين آسكيا إسحاق وبالما صادق سنة ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م، والثاني القاضي إسماعيل بن محمود كعت[4] الذي أطلع ابن المختار على مخطوطته الخاصة بالميثاق الذي منحه

(١) See: Hunwick, Source Materials, op.cit., pp.579-90.

(٢) انظر هذه الإشارات في: تاريخ الفتاش، باريس ١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م. الناشر: هوداس ص١٠٨، حيث يقول: «ومن ذلك ما رويت عن خالي (يقصد يوسف كعت) عن ابيه ألفع كعت أنه أتاه...» وفي ص١٤٢ يقول: «ورأيت بخط خالنا الفقيه يوسف كعت بن الفع محمود كعب رحمه الله أنه جاءه مرسول الأمير...» وهكذا.

(٣) انظر: الفتاش، ص١٢٩، ١٤٢.

(٤) المصدر نفسه، ص٧٥، ١١٦.

آسكيا محمد إلى أحفاد «مودي هو قارو»، والثالث هو القاضي محمد الأمين ابن محمود كعت، الذي مات سنة ١٠٥٥هـ/ ١٦٤٦م، ولكنه يسجل أحداثا وقعت في جني سنة ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م، مما يدل على أنه سجلها من والده محمود كعت. ومن أحد هؤلاء الأقارب (الأخوال) حصل المؤلف على معلومات حول علاقات محمود كعت الوثيقة بآسكيا داود.

إن المؤلف قد سجل روايات عن سني علي وآسكيا محمد من والده المختار، وبسبب هذه الإشارات سماه لفتزيون بـ«ابن المختار» لأنه لم يعط إشارة لاسمه الأول، وإن الحولية كتبت في تاريخ مابعد سنة ١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤م لأن ابن المختار يشير إلى حادثة معينة بقوله: «رأيتها بنفسي، في سنة ١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤م[1]، وبهذا يكون «تاريخ الفتاش» قد كتب في حوالي الزمن نفسه الذي كتب فيه «تاريخ السودان» ـ ١٠٧٦هـ/ ١٦٦٥م).

وقد اعتمد ابن المختار في تصنيفه لهذا الكتاب على مصادر أخرى غير ماتركه أقاربه من أسرة كعت. ومن أهم هذه المصادر «درر الحسان في أخبار بعض ملوك السودان» تأليف باب كور بن الحاج الأمين كَانُوَا[2]، وهذا الكتاب مفقود حتى الآن. ويذكر الدكتور زكي[3] أنه من مهاجري كانو، ومصدره في ذلك «الفتاش»، ولعل هذا الاسم الأخير ـ كَانُوَا ـ قد أوحى إليه بذلك، ولانطمئن لذلك، وقد اعتمد على مصدر ثان هو ماكتبه شيخ ابن المختار المدعو محمد بن المختار، والمشهور بـ «محمد ولد كُرتُم»، ويلاحظ أنه دائما مايقول:

(١) الفتاش، ٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٤، ٥٢، ٩٣، ١٢٦. الخ ويسمى احيانا «جواهر الحسان»، انظر الفتاش ص١٨٢.

(٣) المراجع العربية للتاريخ الإسلامي في غربي إفريقية. بحث للدكتور عبدالرحمن زكي، نشر بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية: المحاضرات العامة: الموسم الثقافي ٦٧/١٩٦٨م، ص١٩.

«وحدثنـي شيخنـا ولد كرتم»[1]، أو «هكذا نقلت من شـيخنا مـحمـد ولد كرتم»[2]، مما يدل أنه كان يأخـذ من ابن كرتم ثم يسجل أو ينقل مما كتـبه ابن كرتم عن بعض الأحـداث. أما الرواة الذين كان يسـجل عنهم بعض الأحداث التي شاهدوها، نذكر منهم: أحـمد بن إبراهيم بن يعقوب[3]، والشيخ محمد زغيث.[4]

أما الأسلوب، فلا يخلو من الأخطاء اللغوية أو الأساليب الركيكة، ولعل مرد ذلك أن المؤلف لم يقصـد أن تكون كتابته قطعـة أدبية رائعة، ولو أراد ذلك لفعل، خاصة والكتـاب قد تخللته بعض العبارات القويـة والتراكيب والأساليب السليمـة، وقد لاحظت أن «ود ضيف الله» صـاحب «الطبقات» المشـهورة في علمـاء دولة سنار» يشبـه ابن المختـار في أسلوبه، علما بأنه من أصل عـربي، ولعل تأثير البيئة هو الذي جعلهما يكتبان بأسلوب يفهمه العامة».

وترجع أهمية «الفـتاش» إلى كونه مصدراً أسـاسياً في تاريخ دولة سنغي السياسي والثقافي والاجتماعي وطرفا من تاريخ الدول الإسلامية الأخرى، مثل مالي. وقد وقـفت الأحداث التي تناولها محمـود كعت راوية الجزء الأول من الفـتاش عنـد السنوات الأولى للغـزو المراكشي لـدولة سنغي سنة ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م. وقد تكلم في بداية هذا الجـزء عما يمكن أن نسميـه النقد العلمي في البحث التـاريخي، عندما قال: «لما رأيت إهمال الناس للتـاريخ، على ماله من فائدة جليلة في معـرفة البلاد، والوقوف على أخبار أبطالهـا، التمست من الله جلت قدرته، أن يسـاعدني على كتـابة هذا التاريخ الذي يبـحث في سلاطين

(١) تاريخ الفتاش، مثلا ص: ١٧٣.
(٢) المصدر نفسه، مثلا ص١٧٤.
(٣) المصدر نفسه، ص٩٣.
(٤) نفسه، ص١٥١.

السودان». وماخرجنا به منه في ثنايا البحث يكفي للدلالة على أهميته في تاريخ التعليم الإسلامي في غربي إفريقية.

وقد اهتم المستشرقون به، فترجمه هوداس ودلافوس إلى الفرنسية سنة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م بفرنسا، ثم أصدرا النسخة العربية محققة في العام نفسه، في حوالي ست وثمانين ومئة صفحة من الحجم الكبير، وعليها كان اعتمادنا.

١١) تاريخ [أو حولية] كانو KANO CHRONICLE

لم يعرف حتى الآن مؤلف هذه الحولية. أما تاريخ كتابتها فلابد أن يكون قد تم في أواخر الحقبة التاريخية ١٣٠١-١٤٠٤هـ/ ١٨٨٣-١٩٨٣م كما يوحى بذلك مضمونها وأسلوبها، ولكن ربما كانت تمثل بعض التواريخ القديمة التي اندثرت في الحروب التي دارت رحاها في هذه المنطقة، وآخرها حرب الفولاني(١). وقد وجد أول نسخة منها الدكتور بارث، عندما قام برحلته إلى غربي إفريقية في أول النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وممن أشار إلى هذه النسخة «لوجارد»، ولكن لم تكن النسخة المشار إليها مكتملة، بل جاء فيها ذكر اثنين وأربعين ملكا. أما النسخة التي قام بترجمتها إلى الإنجليزية «هنري رتشموند بالمر» فقد وجدت في بلدة سابونجاري بالقرب من كاتسينا، وهي تمتد إلى زمن الملك الثامن والأربعين من ملوك كانو، وهو محمد بلّو بن السلطان دابو.

لقد ترجم بالمر المخطوط كما هو، مع إضافة بعض الحواشي في حوالي الأربعين صفحة، على صفحات مجلة معهد الانثروبولوجيا الملكي(٢)، ووضع تواريخ تقريبية لفترة حكم كل ملك من خلال الأحداث الأخرى التي يعرفها عن تاريخ هذه المنطقة، ابتداء من دخول الفولاني إلى كانو في سنة ١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م.

(١) See: H. Palmer, "Kano Chronicle" Translatad in J. R. A. S., (1908), P. 58.

(٢) Ibid, pp. 58-98.

ومن الأحداث التي اعتمد عليها، رسالة السيوطي إلى بعض أمراء غربي إفريقية، وزيارة المغيلي إلى المنطقة[1]. ويرى بالمر أن تواريخه التي وضعها تكاد تكون صحيحة باستثناء تواريخ الملوك الأوائل. وعلى كل حال فهي لاتزال في بعض جوانبها مثار جدل بين المختصين، ولكل وجهة نظره في ضوء ما لديه من معلومات إضافية عن بعض الأحداث.

والمخطوط يلقي ضوءاً على التاريخ القديم لبلاد الهوسا والبرنو عامة، ومدينة كانو خاصة منذ نهاية القرن الرابع الهجري (١٠م) حتى عهد السلطان محمد بلّو بن السلطان دابو في مطلع القرن الرابع عشرالهجري (نهاية القرن التاسع عشر الميلادي). وهو تراجم مقتضبة جدا لبعض جوانب الحياة السياسية للسلاطين الذين تعاقبوا على عرش كانو. وقددرج المؤلف على أن يذكر الاسم أولا، ثم ترتيب السلطان في سلسلة السلاطين، ثم بعد ذلك يذكر اسم والدته، ثم بطانته، ثم يدخل بعد ذلك في أحداث عصره. ومن خلال دراسة هذه التراجم يستطيع الدارس أن يخرج بصورة عامة عن بعض جوانب الحياة الثقافية الإسلامية منذ بداية وصول الوفود الإسلامية القادمة من دولة مالي. ويشير كثيراً إلى العلاقات السياسية والثقافية بين بلدان الهوسا بعضها ببعض، وبلدان الهوسا مع البلدان الأخرى المجاورة محليا وخارجيا.

مازال هذا المصدر هو المصدر الرئيس في تاريخ الهوسا القديم حتى ظهور شعب الفولاني على مسرح الأحداث في نهاية القرن الثامن عشر. وقد كان عمدتنا في تتبع التاريخ التعليمي والثقافي لبلاد الهوسا، ولولاه لعانينا الكثير.

---

(١) Ibid, p. 59.



تمهيد

شمالي وغربي إفريقية

أ ـ شمالي إفريقية : مكانياً

نعني بشمالي إفريقية هنا مصر وليبيا وتونس والجزائر والمملكة المغربية، ولكن لهذه المنطقة تسميات غير هذه المذكورة لبعض أقاليمها، كانت تستعمل من قبل ذلك. فجزء كبير من شمالي إفريقية كان يعرف بالمغرب عامة، وهو كل مايلي مصر غربا حتى المحيط الأطلسي. فبلاد الجزائر الحالية كانت تعرف بالمغرب الأوسط، وبلاد تونس تعرف بالمغرب الأدنى أو إفريقية(١)، والمملكة المغربية الحالية كانت تعرف بالمغرب الأقصى(٢). وهناك من يطلق كلمة المغرب على هذه الأقاليم مجتمعة، بالإضافة إلى الأندلس.(٣)

إن إفريقية (تونس) تمتد من خليج سرت الكبير شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، وسماها العرب بالمغرب الأدنى، لقربها من بلاد العرب ومقر الخلافة بالحجاز أو الشام. وتمتد من طرابلس شرقا حتى بجاية أو تاهرت غربا وقاعدتها مدينة القيروان.(٤)

---

(١) انظر: إسماعيل رأفت بك: التبيان في تخطيط البلدان، جـ١ ص٢٠.

(٢) الدكتور إبراهيم العدوي: المجتمع المغربي ـ مقوماته الإسلامية والعربية، ص٢٤٩.

الدكتور السيد عبدالعزيز سالم: المغرب الكبير، جـ٢، ص١٢٥ (ونلاحظ هنا أن المغرب ينقسم إلى ثلاثة أقاليم، إلا أن الدكتور سالم يضيف إقليما رابعا، وهو إقليم برقة في طرابلس، وهي أول كورة المغرب في جهة الشرق، ويذكر أن بعض المؤرخين يدمج هذه الكورة إلى إفريقية، وبعضهم يفصلها عن المغرب، ويرى أنه في الغالب كانت برقة وطرابلس جزءا لا يتجزأ من المغرب الإسلامي).

انظر: أيضاً: الدكتور عثمان الكعاك: مراكز الثقافة في المغرب، ص٥ (ويلاحظ هنا أن الكعاك يضيف بلاد غربي إفريقية حتى نهر النيجر إلى إفريقية الشمالية، ويضيف الأندلس إلى المغرب الإسلامي، وبهذا نراه ينظر إلى الموضوع من زاوية الوحدة الثقافية.

(٣) الأصطخري: مسالك الممالك، ص٣٩.

(٤) المغرب الكبير، جـ٢، مرجع سبق ذكره، ص١٢٧.

أما المغـرب الأوسط. فيمتـد من تاهرت حتى وادي ملوية وجبـال تازة غربا، وقاعدته مدينة تلمسان وجزائر بني قرعنة.(١)

والمغرب الأقـصى يمتد من وادي ملوية شرقـاً حتى مدينة آسـفي على المحيط الأطلسي غرباً وجبال درن جنوباً(٢). وسمي كذلك لأنه أبعد أقسام المغرب عن مقر الخلافة.

ولقد عرفت بلاد المغرب منذ غابر الأزمان بأسماء متباينة، فقد أطلق الاغريق إسم ليبو أو ليبيا على القسم الشـمالي الذي كان يقطنه العنصر الأبيض، بينما كانوا يطلقون على الصحراء اسم بلاد الأحباش السود.(٣)

أما لفظة إفريقية «Africa» فقد أطلقه الرومـان على الإقليم الذي يقابل اليوم الجزء الشمـالي الشرقي من الجمهورية التونـسية، ويشمل قرطاجنة وماحـولها حتى نوميديا غربا، وكان يعـرف باسم ولاية إفريقية القنصلية(٤)، وهو الاسم الذي عُرِّب فـيمـا بعـد إلى «إفـريقيـة»، وأطـلقـه العـرب في البـداية على كل مـا يلي إقليم طرابلـس غربا. ثم تحـدد مدلول لفظ «إفريقيـة» فاقتصـر على مايلي إقليم طرابلس غربا حتى بجاية.(٥)

---

(١) المكان نفسه.

(٢) الدكتور حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص١٣.

(٣) المغرب الكبـير، المرجع السـابق، ص١٢٥، نقلا عن: Andre Tulian: Histoire de L'Afrique du Nord, Paris, 1921; p. 9.

(٤) انظر: المكان نفسه، د. حسين مؤنس. فتح العرب للمغرب، ص٢.

(٥) المغرب الكـبير، ص١٢٥، وعن أصل كلمـة إفريقـية ومعنـاها انظر: شارل اندريه جولـيان: تاريخ إفريقية ـ ترجمة طلعت عوض أباظةـ ص٥، ومما يذكر أن الكتاب اللاتينيون أطلقوا في النصف الأول من القرن الثـاني قبل الميلاد اسم الأرض الإفريقـية African Terra على القسم الذي خـضع للنفوذ الفينيقي من تونس الشـمالية، وهو الجزء الذي كانت تقطنه قبائل تعـرف باسم إفري من أبناء البلاد، ويقصد به الجزء الذي جعلت منه روما ولاية إفريقية بعد تدمير قرطاجنة عام ١٤٦ق.م ويذكر أنه لما كان أصل كلمة إفري اللغوي غير معروف، فقـد اتجه البحث إلى محاولة معرفة أصل كلمة افريكوس المشتقة منها، وأن هذه المحاولة ذهبت هباء. وفوق ما ذكرنا فإن للعلماء آراء في الاسم «افريقية» منها

وبناء على ذلك فإن كلمة إفريقية في حدود العرف الإداري الروماني كانت تعني الولايات الشمالية التي يسكنها البيض، بمقابلة المنطقة التي يقطنها السود، ثم أطلقت التسمية عينها ـ إفريقية ـ على كل جزء كان يتم كشفه إلى أن عمت القارة كلها بعد ذلك.[1] واليوم تطلق كلمة إفريقية على القارة المعروفة بهذا الاسم، وهي خزانة الجنس الحامي والزنجي.

ويعتبر شمال افريقية المدخل الأول لدراستنا التي تختص بحركة الإسلام وبحركة التعليم الإسلامي في غربي إفريقية، فهي مدخل لطبيعة الدعوة الإسلامية في هذا الجزء من إفريقية، وهذه المنطقة الشمالية من إفريقية تمثل أحد طرفي الموضوع، لذا نود أن نلقي نظرة تاريخية أيضا على هذه المنطقة قبل ظهور الإسلام، وعلاقة ذلك بالروابط الاقتصادية والثقافية، وأثر هذه العلاقات في بث الدعوة الإسلامية في إفريقية الغربية، ووجود مراكز إسلامية فيها معاهد تعليمية ذات صلة وثيقة بمعاهد شمالي إفريقية.

ب ـ غربي إفريقية : مكانيا

إن غربي إفريقية جزء مما كان يعرف قديما ببلاد السودان. وبلاد السودان اسم أطلقه العرب على البلاد الواقعة جنوبي الصحراء، مقابل «بلاد البيضان» ـ أي شمالي إفريقية والصحراء.[2] وفي الاستعمال العادي فهي محددة بالمنطقة العريضة

أن لفظ إفريقية جاء من اللغة اليونانية، وذلك أن لفظ آخر يفيد النفي وفريكا معناها البرد، أي البلاد التي لا برد فيها. وقال الطبري في تاريخه بأنها سميت إفريقية لنزول افريقش من ولد حام بن نوح بها. انظر: إسماعيل رأفت، التبيان، مرجع سبق ذكره، ص٢٠.

(١) جوليان، تاريخ إفريقية، المكان نفسه.

(٢) انظر: القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص٢٤. من حيث المقصود بكلمة «السودان» في نظر الرحالة والمؤرخين المسلمين في العصور الوسطى فإننا نجد أن الباحث سر الختم عثمان قد عالج هذا الموضوع علاجا ضافياً وعميقا لأول مرة حين تطرق إلى أراء أولئك الرحالة والجغرافيين حول مدلول الكلمة. وقد درس هذا الأمر زمنيا، ونعرض للحدود الجغرافية والقبائل ورأي هؤلاء كلهم فيها.

جنوب الصحـراء الممتدة عبر الصـحراء من المحيط الأطلنطي في الغـرب إلى هضبة الحبشة في الـشرق[1]، ومن الصـحراء في الشـمال إلـي الغابات الاسـتوائيـة في الجنوب. وأن شرقي إفريـقية، على الرغم من أنها أرض السـود، وقد عرفت باسم «أرض الزنج». [2]

وبلاد السودان تنقسـم إلى ثلاثة أقاليم رئيسة: السودان الـغربي، وهو يشمل منطقة حوض النيـجر والسنغال، والسودان الأوسط، وهو فيما يقـع ممتدا شرقي نهر النيجر حـتى الحدود الغربية للـسودان الشرقي[3]، والسودان الشرقي، وهو سودان وادي النيل العربي.

ودراستنا مختـصة بمنطقة السودان الغربي والأوسط، أي المنطقـة الواقعة مابين بحيرة تشـاد شرقا والمحيط الأطلسي غربا، ويحدها من الجنوب المناطـق الاستوائية، ومن الشمال المناطق الجنوبية للصحراء الكبرى، وتقع بين خطي عرض ٩و١٧ درجة شمالا، وهي المنطقة المصطلح على تسميتها حاليا بغربي إفريقية.

ويُعبَّر عن غربي إفريقية أيضا بالاسم «نجرتيا» Nigritia. وقد أطلق القدماء من المؤرخين والجغرافـيين والرحالة هذه التسميـة عليها نسبة إلى نهـر النيجر، وأول من أشار إليها المؤرخ الروماني القديم بليني الكبير Plinius (ت حوالي سنة ١١٥م)، فهو الذي أطلق على نهر النيجر اسـمه الذي اشتهر به Nigris، أي نيل الأجناس السود،

==

فانظر: سر الختم عـثمان: العلاقات بين مصر والسـودان في العصور الوسطى، رسالة ماجستـير غير منشورة بآداب جامـعة القاهرة ١٩٦٩م. ص ص١١ـ٢٨. وبجانب هذا انظر: الدكتـور سعد زغلول عبدالحميد: تاريخ المغرب العربي ـ رسالة دكتوراه منشورة، ص ص٥٤ـ٥٥.

(١) D.P. Barrows: Berbers and Blacks, p.9.

(٢) J.S. Trimiagham: Islam in West Africa, p.1.

(٣) توطن العناصر الإفريقـية الغربية بالسودان، بحث للدكتـور شريف محمد شـريف، نشر بمجلة كلية آداب القاهرة: المجلد الرابع والعشرون، (١٩٦٢) ص٧٠.

ثم أخذ كتاب العصور الوسطى بغربي أوربة هذا المصطلح ونسبوا جميع المنطقة المحيطة بهذا النهر إليه، فعرفوا سكانها بالنيجرتيين Nigrite[(١)].

ومن الوجهة الجغرافية يغطي نهر النيجر وروافده هذه المنطقة. فمن الشرق يصل رافده الكبير نهر بنوى Benue إلى قرب بحيرة تشاد، بل تتصل أعاليه بنهر شاري الذي يصب في تشاد، وكذلك تقترب أعالي روافده الغربية مثل سنكاراني Sankarani وتنكسّو Tinkisso ودوليبا Doliba من ساحل المحيط الأطلسي، وحوض النيجر.[(٢)]

وقد سماه العرب بأسماء مختلفة، فالعمري[(٣)] والإدريسي[(٤)] وابن سعيد[(٥)] وغيرهم من الجغرافيين العرب يسمونه بالنيل، وعمم معظمهم تسمية النيل على نهر السنغال أو النيجر أو روافدهما[(٦)] ولا وجود في الحقيقة لتسمية تشمله بأجمعه في لغة الأمم النازلة على شواطئه.

وقد زادت معرفة الجغرافيين بأحوال هذا النهر زيادة كبيرة منذ أن استتب للفرنسيين الاستيلاء على جهاته، أي منذ سنة ١٨٨٧م، فقد علم مجراه وكذلك النهيرات التي تصب فيه، ودرست دراسة دقيقة في كل جهاتها العليا. ومن الذين

---

(١) الإسلام واللغة العربية في غرب إفريقية، بحث للدكتور إبراهيم علي طرخان، نشر في مجلة كلية آداب القاهرة: المجلد السابع والعشرون (سنة ١٩٦٥م)، ص ص٥٢ـ٥٣.

(٢) المرجع نفسه، ص٥٣. يلاحظ أن الأستاذ إسماعيل رأفت في مرجعه الذي سبق ذكره، ص ٣٩ يسمى نهر النيجر نفسه بـ«ديوليبا» والصحيح أن ديوليبا فرع من النيجر.

(٣) مسالك الأبصار، مصدر سبق ذكره، ص١٠٥.

(٤) المغرب وأرض السودان، مصدر سبق ذكره، ٣، نزهة المشتاق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦، ٣٠، ٣٩، وأحيانا يسمى النيل بالبحر الحلو، المصدر نفسه ص٤٦.

(٥) بسط الأرض في الطول والعرض، ص٢٣، وأحيانا يسميه نيل غانة، ص٢٦، ٢٧ ويذكر نيل السودان العربي بنيل مصر، ص٢٧، ٤٨ أو نيل النوبة، ص٢٩، وأحيانا يذكر نيل الجزيرة، ولعله يعني باختلاف هذه التسميات فروع نهر النيجر الغربية.

(٦) انظر: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص٢١٧؛ البكري، مصدر سبق ذكره، ١٧٢، ١٧٧.

اكتشفوه اكتشافاً جيدا ضابط بحري فرنسي عُرف باسم كلويبه R. Gloubie ـ ١٢١٤-١٢٥٤هـ/ ١٧٩٩-١٨٣٨م) سار فيه من بلدة باماكو إلى تنبكت، فكان أول من اكتشف هذا القسم، وقد ذهب إلى بلاد السنغال وادعى أنه مسلم مصري من مدينة الإسكندرية (١٨٢٧م)، ثم توغل في البلاد حتى وصل إلى نهر النيجر ومدينة تنبكت، ومن هناك انضم إلى قافلة واخترق بلاد الصحراء ثم عاد إلى أوروبا من مراكش، وقد طبعت سياحته سنة ١٢٦٤هـ/ ١٨٣٠م في ثلاثة أجزاء. واقتفى أثره غيره من بعده، وكلهم أتموا دراسة مناطقه المائية، كما عينوا خلجانه وبحيراته.(١)

وأقدم من حاول اكتشاف نهر النيجر من الأوروبيين الطبيب الأسكتلندي منجوبارك، وكان ذلك بين سنتي ١٢١٠ و١٢١٣هـ/ ١٧٩٥ و١٧٩٨م، ومات وهو يؤدي هذه المهمة(٢). وسعى من بعده كثيرون لهذا الهدف فلم ينجحوا، ثم قام رينيه كلويبه وتمكن من إنجاز مهمة الكشف سنة ١٢٤٤هـ/ ١٨٢٨م كما سبق ذكره.

ويبلغ طول مجرى هذا النهر نحو أربعة آلاف كيلو متر، ولكن المسافة بين مصبه ومنبعه لاتزيد على عشر وثمانمئة وألف كيلومتر، وذلك بسبب تعاريجه.(٣)

أما من حيث الجغرافية فإنه من الواضح أن غربي إفريقية إقليم مناخي واحد، إذ لايوجد هناك أي حاجز طبيعي يفصله عن الصحراء في الشمال، وعن المناطق الاستوائية في الجنوب. إن مناطق المناخ والحشائش تعتمد على كثافة الأمطار وطول موسمها. ففي الشتاء تهب الرياح الحارة الشمالية الشرقية الجافة المعروفة باسم الهرمتان، وتتجه في هبوبها نحو الشمال، أما المعاكسة لها والمعروفة بالمونسون الجنوبية الغربية الدافئة الرطبة فهي تهب من المحيط.(٤)

---

(١) التبيان، مرجع سبق ذكره، ص٤٠.
(٢) المرجع نفسه، ص٤٣.
(٣) المرجع نفسه، ص٤١.
(٤) Trimingham: Islam in W.A., op.cit., p.1.

يبدأ فصل الخريف في المناطق الساحلية في نيسان/ أبريل ويستمر إلى منتصف تموز/ يوليو، ثم تبـدأ الأمطار في النقصـان تدريجيا، يتـبع ذلك في تشرين الأول/ أكتـوبر فصل ممطر آخـر قصيـر. ولمنطقتنا هذه فـصلان فقـط: الممطر والجاف[1]، وتعرف بمنطقـة الساڤنا حيـث صلاحيـة الزراعة، وتزداد حـشائش الـساڤنا غزارة وارتفاعا إلى أن تنتقل فجأة إلى الحد الذي تبدأ عنده الغابات المطيرة.[2]

أما من ناحية التضـاريس، فإننا لانجد فروقا ضخمة كـالتي نجدها في اثيوبيا، حيث ترتفع الجبـال مكونة بيئة متميـزة عما حولها، بيئة دار حـولها الإسلام وتسلق بعض أجزائها، ولكنه لم يستطع أن يغمر كل أجزائهـا غمرا كاملا، أو أن يحيط بها إحاطة كاملة. مـثل هذه العقبة الطبيـعية لانجدها في غربي إفـريقية[3]. فالسلاسل الجبلية الموجودة لم تكن ضخمة، وإنما متناثرة، وتمثلها كتل فوتا جالون والكامرون، ولم تكن مرتفعات تبمتي والأحجار عقبة أمام تقدم الإسلام إلى غربي إفريقية.[4]

جـ ـ شمالي إفريقية قبل الإسلام:

عقب انتهـاء الصراع القرطاجني اليوناني، حدث مـايماثله بين قرطاجنة وروما حول السيادة السياسية والاقتصادية في منطقة غربي البحر الأبيض المتوسط، نتج عنه احتلال روماني للشمال الأفريقي، واكتملت الـسيادة الرومانية في المغرب الكبير بعد إحكام قبضتهم على مدينة قرطاجـة وتدميرها عام ١٤٦ق.م. بعد السيطرة على كل أقاليم حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقية والغربية.[5]

ولتأكـيد بسط نفوذهم على هذه المنطقـة أنشؤوا المعسكرات الدائمة المجـهزة،

---

(١) Loc. cit.

(٢) دونالد ودنر: تاريخ إفريقية جنوب الصحراء ـ ترجمة راشد البراوي ص١٣.

(٣) د. عبدالعزيز كامل: جغرافية الإسلام في إفزيقية، ص٨٠.

(٤) المكان نفسه.

(٥) الدكتور يسري عبدالفتاح الجوهري. شمال إفريقية ـ دراسة في الجغرافية التاريخية، ص١٥٨-١٥٩.

فعـدت بمنزلة مـدن عسكرية ارتبط تشـييـدها بإنشاء الطرق الـلازمة للمـتحـركات العسكرية والمدنية، ومن ثم فقد خلف الرومان شبكة طويلة من الطرق، تعدّ من أهم مخلفاتهم في شمـالي إفريقية[1]، إذ أعطت للبلدان المغربية صفـة الحضرية أكثر من الصفة البدوية، واجتذبت إليها الكثـير من البربر، خاصة أولئك الذين كانوا يعملون في المزارع الرومانية التي كان يمتلكها أثرياء الرومان.[2]

وقد حـاول البربـر في ظل الوجود الرومـاني جمع شـمل القبـائل، ولكنهم فشلوا، للفـروق التي نشأت حين أصبحـوا يضمون عناصر بربرية تحـضرت وأخرى لاتزال بدوية على حافة الصحراء، تحاول الاقتـراب من المجتمعات الحضرية، ولكنها لم تألف بعد حياة المدن والخضوع السياسي لدولة بربرية متحدة.

وللظروف الجـغرافيـة دورها في هذا الوضع الانعزالي، إذ إن طبـيعـة البلاد ليست من اليسـر والتجانس بحيث تكفل تحـقيق مثل هذه الوحدة حينئـذ، لأن كثرة المناطق الجبـلية، وعدم توافـر الطرق الموصلة بينها، باعـد بين المجتمـعات البـشرية المختلفة، لذلك فـقد أعطى الرومان أهميـة خاصة للمواصلات لكـي تحقق التحكم الروماني على المناطق التي تقع تحت سيطرتها كافة.[3]

وقد أخـذت سيطرة الرومان في شـمالي إفريقـية تنهار خـلال القرنين الرابع والخامس الميـلاديين، وساعد على سـرعة هذا الانهيـار دخول الجمل من آسـيا إلى شمال إفريقية[4] ففي المناطق الصحراوية المتاخـمة لتونس وطرابلس ظهرت عناصر بدوية جـديدة ممثلة في قبـائل زناتة التي قـدمت من مناطق «أستـبس» الصحـراوية

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٦١، ١٦٣، كـوابونج: إفريقـية الشـماليـة في الغصـر القرطاجني واليـوناني والروماني (مترجم)، ص ص ٨ ـ ١٠.
(٢) الجوهري، المرجع نفسه، ص١٦٥.
(٣) المكان نفسه.
(٤) رولاند اوليفروجون فيج: موجز تاريخ إفريقية (ترجمة دولت صادق)، ص٦٥.

الكبرى على ظهور الجمال، لتهاجم وتسلب وتنهب الجماعات المستقرة في الأقاليم الرومانية، الأمر الذي أدى إلى إضعاف سلطة الرومان على هذه المناطق، لاسيما بعد أن بدأت عناصر البدو الرعاة في التوسع والانتشار على حساب المدنيات الزراعية المستقرة. وقد عجلت عمليات السلب هذه بغزو الأسبان لشمالي إفريقية على أيدي قبائل الوندال في القرن الخامس الميلادي، وتبع ذلك إعادة إخضاع هذه المناطق بواسطة العناصر البيزنطية في خلال القرن السادس الميلادي.(١)

أما فيما يتعلق بسكان هذه المناطق وتسمياتهم، فمما يذكره بوفل(٢) بأنه قبل الفتح الإسلامي لشمالي إفريقية في القرن السابع الميلادي كانت المناطق الداخلية للمنطقة يقطنها نوعان من البشر: زنوج وغير زنوج، وأن الأخيرين والذين كانوا من الحاميين الشماليين، أطلق الرومان عليهم اسم «الليبيين» ويسميهم العرب بـ«البربر» والاسم الأخير أخذ من اللاتينية «Barbari». ومن ضمن الليبيين أو البربر كانت هناك أجناس صحراوية يسميها الرومان بـ «Gaetuli» في الجزء الشمالي الغربي، وبـ «Goramantes» في إقليم فزان، وبـ «Nobate» في وادي النيل. ويرى بوفل أن من المعتقد انتماءَهم إلى فرع من الكوشيين القدماء الذين طردوا من زمن سحيق قبل الفترة المسيحية من موطنهم في جنوب الجزيرة العربية عبر مضيق باب المندب إلى إفريقية، ويعرفون بـ «Gara» في فزان ومايزال حطام جاراما «Garama» إحدى مدنهم، ويبدو منه جليا أنهم لم يكونوا بربريين «Barbarous» مئة في المئة. وأن الاثيوبيين الذين ذكرهم هيرودتس، والذين يتمثلون اليوم في قبائل التيدا أو التبس ينتمون إلى النوع نفسه، وأن قبائل جارا «Gara» هذه والذين عرفوا أخيرا لدى العرب باسم «Su» أو «Sa» ذابوا في الزنوج، أو أصبحوا أجدادا للشعوب السودانية مثل قبائل الماندنجو

(١) الجوهري، المرجع السابق، ص١٦٦.

(٢) B. W. Bovill: Garavans of the Old Sahara, p. 23.

أو السوننكي والوانغارا في غربي إفريقية والـ«Garawan» و«Guraan» في إفريقية الوسطى. وليس بدو الصحراء الليبيون الذين نسميهم اليوم بالطوارق أقل أهمية من الجارا. فقد عرفوا عند الكتاب العرب باسم «الملثمين».

ويعقد بوفل(١) فصلا كاملا عن أجناس الصحراء لاسيما الطوارق، وكيفية وصولهم إلى مناطقهم الحالية، واختلاف الآراء حول أصلهم وزمان قدومهم وعاداتهم وتقاليدهم وأثر المسيحية فيهم، والأجناس الأخرى، وإلى أي مدى كان انتشارهم في غربي إفريقية، خاصة في منطقة بحيرة تشاد، ونعلم أن لهم فروعا في السودان النيلي، خاصة في دارفور.

د ـ الإسلام في شمالي إفريقية :

فتح العرب المسلمون منطقة شمالي إفريقية مرتين: أولاهما في القرن السابع الميلادي، والثانية في القرن الحادي عشر، وكانت كل منهما تختلف عن الأخرى من حيث الظروف التي مهدت لها، والنتائج الطويلة الأمد التي حققتها. واستطاع العرب خلال الفترة التي امتدت بين هذين الحدثين أن يحولوا إفريقية الشمالية إلى دولة إسلامية يتحدث شعبها اللغة العربية، كا استطاعوا كذلك أن يمهدوا الطريق أمام حركة انتشار الإسلام نحو الجنوب إلى الصحراء، وإلى أبعد من هذا، إلى أعماق إفريقية الاستوائية، أحيانا عن طريق التجارة، وأحيانا أخرى عن طريق الدعاة. ومن هنا يتضح لنا أهمية ذلك الإشعاع الحضاري الذي انبعث من قلب الجزيرة العربية، ليعم معظم أجزاء العالم، وكان لإفريقية نصيب الأسد من تلك الثروة. ولنلق ضوءا على تلك الحركة:ـ

لم يحل عام ٢١هـ/ ٦٤١م حتى كان المسلمون العرب قد استولوا على مصر من أيدي البيزنطيين، وتم توقيع معاهدة اندمجت مصر بمقتضاها في الدولة

---

(١) B. W. Bovill: Garavans of the Old Sahara, p. 23. ff

الإسلامية، ثم عبرت الجيوش الإسلامية الأولى الصحراء الغربية من مصر إلى داخل شمالي إفريقية في عام ٢٧هـ/ ٦٤٧م. وبعد أن ضعفت قوة مقاومة البيزنطيين أمام الفتح الإسلامي أخذ المسلمون يتوسعون في تنفيذ خططهم التي كانت تتسم بشيء كبير من العزم لاستئصال البيزنطيين.[١]

وبعد أن تم القضاء على المقاومة البيزنطية في القطر المصري، أصبحت مصر القاعدة الأمامية العسكرية التي انطلقت منها الفتوح إلى برقة وليبيا وتونس وبلاد المغرب[٢]، ولقد قاوم البربر ـ وهم غالبية[٣] سكان شمالي إفريقية وسكانها الأصليون[٤] ـ المسلمين الفاتحين مدة طويلة، واشتبك الجانبان في معارك كثيرة، كان من أهمها سبيطلة سنة ٣٠هـ/ ٦٥٠م. ثم توغل القائد المسلم حينذاك عقبة بن نافع الفهري، على رأس جنده[٥] وفيما بين ٥٠هـ/ ٦٧٠م ـ ٩٠هـ/ ٧٠٨م انتهت مقاومة البربر أمام الجيوش الإسلامية بقيادة حسان بن النعمان[٦]، وألحق المغرب سياسيا بدولة الخلفاء الشرقية الأموية والعباسية، وتولى موسى بن نصير زمام

---

(١) انظر: برنادر لويس: العرب المسلمون في إفريقية، ص٢١.

(٢) انظر: عبدالرحمن بن عبدالحكم: فتوح إفريقية والأندلس، تحقيق الطباع ص ص٣٤ـ٥٠: البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٣٤.

(٣) د. عبدالرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في غرب إفريقية، ص٥.

(٤) لويس، العرب المسلمون، مرجع سبق ذكره ص٢٢.

(٥) انظر: ابن عبدالحكم، مرجع سبق ذكره، ص٥٠، كان ذلك سنة ٤٦هـ/ ٦٦٦م.
الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، ص٣٩ وما بعدها.
محمد الواقدي: فتوح إفريقية، ص٢ وما بعدها، وهذا الكتاب فيه تفاصيل دقيقة جدا عن سير حروب عقبة في هذه الناحية، وسرد جميل ومشوق يصور فيه خلجات النفوس المؤمنة وجهادها في سبيل إعلاء راية الإسلام.

(٦) انظر: ابن عبدالحكم، المصدر نفسه، ص٦٥. وحسان هذا أمره عبدالملك بن مروان في سنة ٧٣هـ/ ٦٩٢م، وكانت له صولات وجولات مع الكاهنة البربرية وظفر بها أخيرا وقتلها وكسب الإسلام إلى جانبه ولديها. انظر المصدر نفسه، ص٦٣ وما بعدها والرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص ص٥٥ـ٦٤.

المغرب[١]. وفي عام ٩٣هـ/ ٧١١م حشد جيش إسلامي - عربي بربري - بقيادة طارق بن زياد[٢]، واجتاز المضيق وتوغل في الأندلس، وفي سنوات قليلة ضمت أسبانيا إلى الدولة الإسلامية الكبرى.[٣]

وكان فتح بلاد الأندلس فتحا للإسلام في المغرب والأندلس معا، ذلك أن معظم الجيوش التي فتحت هذه البلاد كانت من البربر. وشعر المغاربة البربر لأول مرة بمساواتهم بالعرب، وبدأت شخصية المغرب الإسلامي تدخل في دورها الفعال إذ شعر البربر بعد فتح الأندلس بأنهم أضحوا حماة الإسلام في هذه البلاد، وعليهم مهمة نشر الدين ومناهضة المسيحية عند الاعتداء.[٤]

وبدأ المسلمون بعد ذلك يتدفقون من الشرق. وكان هؤلاء القادمون الجدد يستقرون في القيروان التي أسسها عقبة بن نافع عام ٥٠هـ/ ٦٧٠م في تونس[٥]، والتي ظلت العاصمة الإدارية والعسكرية للعرب المسلمين في شمالي إفريقية خلال فترة الفتوحات، ومنها تمكن المسلمون من السيطرة على تونس، ثم مدوا نفوذهم ناحية الغرب إلى الجزائر ومراكش، وإلى غيرها من المدن الأخرى التي أصبح العرب المسلمون يمثلون فيها معظم السكان، والتي أصبحت تشغل مراكز صبغ أبناء شمالي

---

(١) ابن عبدالحكم، المصدر نفسه، ص٦٨. وابن نصير هذا هو خليفة حسان بن النعمان من قبل عبدالملك بن مروان سنة ٧٨هـ/ ٦٩٧م، وبوفاة عبدالملك استخلف الوليد بن عبدالملك، فتواترت فتوح المغرب في عهده على يد ابن نصير حتى عظمت منزلته جدا. انظر المصدر نفسه، ص٧٠ والرقيق القيرواني، المصدر السابق، ٦٨ وما بعدها.

(٢) ابن عبدالحكم، المصدر نفسه، ص٧١، ويذكر أن جنده كانوا سبعمائة وألف، وتذكر رواية أخرى لآخرين بأنهم كانوا اثنى عشر ألفا من البربر، وستة عشر رجلا من العرب، ويقول بخطأ هذه الرواية، وقد ذكر القيرواني هذه الرواية، انظر، ص٧٤.

(٣) لويس، مرجع سبق ذكره، ص٥.

(٤) د. حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ص١٦.

(٥) انظر: ابن عبدالحكم، مصدر سبق ذكره، ص٥٤.

إفريقية بالصبغــة الإسلامية العربية[1] تلك الصبغة التي لم يسبق أن صبغ بمثلها هذا الإقليم، وذلك كله للدلالــة على العلاقــة الوثيــقة العــرقيــة التي تربط بين العــرب والبربر، يؤكــد هذا الصفة العــربية الخالصــة لهذا الإقليم الإســلامي العربي، الذي ظهرت فيه شعوب في التاريخ القديم بأسماء مــختلفة ـ كما رأينا ـ وغشيته الحضارة الفينيقية، وهي ذات الصلة القوية بالثقافة السامية فترة من الزمن، ولكن جل تأثيرها كان مجــاورا للشاطئ[2]. وكذلك ألمت به الثقــافة الرومانية، وحلت به جــماعات الوندال، ولم تتــرك هذه التــجــارب كلها أثرا فــي حضــارة الإقليم إلى أن جــاءت الفتــوحات الإسلامــية في القرنين الســابع والثامن، فــإذا العربية تزدهر، والحــضارة الإسلامية تنتــشر، وتثبت قواعدها كأحسن مــا نجده في أقطار الشرق الإسلامي[3]. وأصبحت فيه مراكز للثقافة والعلوم الإسلامية في مدن مثل القيروان وفاس.[4]

ويرى كثير من المؤرخين أن هذا الانتعاش الثقافي في العهد الإسلامي ربما كان من بين أسبابه قرابة في السلالات أو نوع من القــرابة الروحية، فإن الكتاب العرب، يتحدثون عن القــبائل العربية في جزيرة العرب ومــايليها من الأقطار، كثيرا مــايشير بعضهم إلى أن البربر من سكان شمالي إفريقية لهم صلة نسب قديمة بالعرب.[5]

ويرى الدكتور عبدالحــميد بخيت[6] وبعض الكتاب الآخرين[7] أن في تاريخ العرب أربعــة انقلابات عنيــفة تجمــعت عنها تلك الهــجرات، وأولهــا كان في سنة

---

(١) برناردو لويس: مرجع سبق ذكره، ص٢٢.

(٢) الدكتور محمد عوض محمد: الشعوب والسلالات الإفريقية، ص٣٣٧.

(٣) المرجع نفسه، ص٣٣٨.

(٤) المكان نفسه، عثمان الكعاك: مراكز الثقافة في المغرب، ص٤٥ وما بعدها.

(٥) الشعوب والسلالات الإفريقية، المرجع السابق، ص٣٣٨.

(٦) المجتمع العربي والإسلامي، جـ١، ص ص٧٠ـ٧١.

(٧) انظر المكان نفســه، ويذكر الدكــتور بخــيت من هؤلاء البعض: ســيد مظفر الدين الــندوي: التاريخ الجغرافي للقرآن، ص ١٤٧، انظر أيضا: بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص١٢.

٣٠٠٠ق.م حيث هاجرت أعداد كبيرة من القبائل من الجزيرة العربية وانتشروا في بابل وآشور ومصر وفينيقية. والهجرة الثانية كانت سنة ١٥٠٠ق.م حيث خرج المؤابيون والمدينيون ـ المعروفون باسم الماويين ـ والادوميين من بلادهم إلى الأراضي المجاورة. أما الهجرة الثالثة فهي عندما هاجر السبئيون واليمنيون إلى بلاد أخرى. أما الهجرة الرابعة فقد كانت في القرن السابع الميلادي حين انتشر العرب تحت راية الإسلام في البلاد الأجنبية طولا وعرضا.

ولاشك أن هناك جمهرة كبيرة من مؤرخي العرب وغيرهم يكادون يجمعون على أن العرب في الأزمان السحيقة، قد استوطنوا وادي النيل كما استوطنوا شمالي إفريقية ومن قبلها العراق والشام، بل سكنوا كذلك شرقي إفريقية كالحبشة وزنجبار وجزر المحيط الهندي.(١)

وبعد طرح كل الآراء التي تؤيد أن وطن الساميين هو جزيرة العرب يقول الدكتور جواد علي(٢) مناقشا بعض الآراء الأخرى: «.. ومن هؤلاء من أبصر الوطن السامي الأول في إفريقية، ومن هؤلاء «بلكريف»، وقد بنى نظريته هذه على وجود تشابه في الملامح وفي الخصائص العرقية، وصلات لغوية بين الأحباش والبربر والعرب، مجمل هذا التشابه الذي رآه يدلّ على افتراضه وجود الوطن السامي الأول في قارة إفريقية، وذهب إلى هذه ا لنظرية جيرلاند Gerland واستحسنها وأيدها علماء آخرون من أمثال (برتن) و(نولدكه) و(موريس جاسترو) و(ريلي) وآخرون..»

ويقول الدكتور محمد عوض(٣): «ولئن كان من الصعب أن ندرك صلة

---

(١) فتحي غيث: الإسلام والحبشة عبر التاريخ، ص١٠ وما بعدها.
غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص٦٦٤ وما بعدها.
الدكتور محمود طه أبوالعلا: المؤثرات العربية في شرق إفريقية، ص١١٩ وما بعدها.
(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٧، ص ص١٥ـ١٦.
(٣) الشعوب والسلالات الإفريقية، مرجع سبق ذكره، ص٣٣٨.

النسب القديمة بين العرب القدماء والبربر فإنه ليس من الصعب أن نتابع الأستاذ جرينبرج[1] فيما ذهب إليه من أن لغة البربر واللغات السامية تمت كلها إلى أصل واحد، وقد سماها المجموعة الأفروآسيوية، ولن تكون القرابة اللغوية قائمة دون أن تستند إلى شيءٍ من القرابة الروحية بين العرب وسكان إفريقية، وكان لهذا الفضل في استجابة سكان إفريقية الشمالية للمؤثرات الإسلامية والعربية.[2]

ونتيجة لتلك العلاقة وطبيعة الإسلام وخصائصه العالمية، نجحت الحضارة الإسلامية حيث أخفقت الحضارات الأخرى التي سبقتها، نجحت في ربط القارة الافريقية بعضها ببعض وفي إقامة روح واحدة لشعوبها، تلك الروح التي كانت سرا من أسرار سرعة انتشار الإسلام وحمله بحماس عبر الصحراء إلى غربي إفريقية، مما سنعرض له بالتفصيل في الفصول القادمة.

---

(١) واسم كتابه: الثقافات الإفريقية، وهو من أقدر علماء اللغات في العصر الحاضر كما يقول الدكتور محمد عوض، انظر المرجع السابق، هامش ص٣٣٨.

(٢) لمعرفة تشعب الآراء حول هذا الموضوع انظر:

ابن خرداذبه: المسالك والممالك، مصدر سبق ذكره، ص٩١.

ابن خلدون: العبر، جـ٦، مصدر سبق ذكره، ص ص١٨١ ـ ١٩٣م.

البلاذري: فتوح البلدان، جـ١، مصدر سبق ذكره، ص٢٦٥.

المجتمع العربي والإسلامي، جـ١، مرجع سبق ذكره، ص٧٢.



الفصل الأول

عوامل تغلغل الإسلام في غربي إفريقية



المبحث الأول



التجــارة والتجــار

إن من بين العناصر المهمة التي قدمت إلى إفريقــية في الفترة الإسلامية، وكانت تألف هذه المنطـقة منذ القدم، هم التـجار، ولقد وفـد هذا العنصر من سوريا والعـراق، وفي بعض الأحيان كـان يفد أيضـا من فارس ومنطقة آسـيا الوسطى، ووصلت قوافلهم إلى إفريقية الغربية عبر شمالي إفريقية.

ومنذ القـرن التاسع الميـلادي أصبح الـغرب من الغنى والتـقدم بحـيث استطاع أن ينبذ سلطة المشـرق عليه، وأن يقيم دولا إسلامية مـستقلة، وظهرت الأمة العربيــة والبربرية الحاكمة في كل من مـراكش وتونس، وهي الأسر التي ظلت تعترف فقط بالسـيادة الاسمية للخلافة المشـرقية، في الوقت الذي كانت تتـمتع فـيه باسـتقـلال بلادها اسـتقـلالا كامـلا. ومن تلك الدويلات: دولة الأغالبة[١] والدولة الرستمية[٢] والمدرارية[٣] وغيرها مما هو معروف.[٤]

(١) نسبـة إلى إبراهيم بن الأغلب، أحد ولاة الـعباسـيين بالمغرب(القـيروان). والذي تمرد على الخـلافة واستـقل بالمغرب وأسس دولة عرفت بالأغـالبة في نهاية القـرن الثاني الهجـري (١٨٤هـ) إلى نهاية القرن الثالث الهجري، (٢٩٦هـ) انظر: الدكتور السيـد عبدالعزيز: المغرب الكبير، جـ٢ مرجع سبق ذكره ص ص ٣٧٢ـ٤٠٦.

(٢) نسبـة إلى عبدالرحمن بن رسـتم، وهو من الخوارج الإباضيـة الذين أفلحوا في إقامـة دولة بتاهرت بالمغرب (١٦٠هـ/ ٧٧٦م ـ ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م). انظر: المرجع نفسه، ص ص ٣٣ـ٥٦٦.

(٣) نسبـــة إلى اليسع بـن أبي القـاسم بن المـدرار، وتعـرف بدولة بنـي واسـول (١٧٤هـ/ ٧٩٠م ـ ٣٤٧هـ/ ٩٥٨م) وقاعدتها سجلماسة. انظر: المرجع نفسه ص ص٥٨٣ ـ ٥٨٩.

(٤) مـثل الأدارسـة (٢٧٢هـ/ ٨٨٥م ـ ٣٥٩هـ/ ٩٦٨م) انظر: المرجع نـفســه ص ص٤٦٥ـ٤٨٦. والفاطـمية (٢٩٦هـ/ ٩٠٨م ـ ٣٥٨هـ/٩٦٨م) انظـر المرجع نفسه، ص ص٥٩٣ ـ ٦٣٧ ومـن بعد الفاطمـيين جاء بنو زيزي وبنو حماد الصنهـاجيون ثم المرابطون والموحدون: انظر المرجـع نفسه، ص ص ٦٤١-٨٣١، والحفصيـون وبني زيان (عبدالواد) والمرينيون والسعديون والعلـويون. انظر: محمد ابن تاويت ومحمـد الصادق عفيفي: الأدب المغربي، ص ص ٣٠ـ٤٣، لويس، مـرجع سبق ذكره، ص٢٣، إنتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مرجع سبق ذكره، ص١٧.

ومما تجدر الإشارة إليه أن تأسيس مدينة فاس في عهد الأدارسة كان فاتحة عهد جديد في تاريخ تطور التجارة، إذ أضحت قبلة العلماء والتجار من كل حدب وصوب. وما مدينة فاس إلا واحدة من عدة مدن أوجدها المسلمون العرب في الشمال الإفريقي، وذلك في نطاق ما أوجده الإسلام من التعمير في محيط المناطق التي تحد البحر الأبيض المتوسط، وسادت فترة رائعة تميزت بالمساواة والابتكار، وفاقت فيها المدن الإسلامية المغربية غيرها من المدن الإسلامية من حيث الاستقرار والنظام والإدارة وفن المعمار... وكلما فقد الناس الاستقرار نجد أن من بين العوامل وراء ذلك عامل التجارة، لأن فقدان الاهتمام بالتجارة كان مدعاة للانهيار في جميع المجالات الحيوية، لأن التجارة تنشأ قبل نشأة المدن، أي إن حركة استراتيجية التجارة هي التي تجذب الأنظار نحو موقع ما ليكون مدينة تنمو بمرور الزمن نسبة لموقعها التجاري الذي خصها الله به، وإذا تحولت التجارة عن المدن تصبح مشلولة كما حدث في مطلع هذا القرن، عندما تغيرت استراتيجية التجارة عن بعض المدن في إيطاليا والشرق الأوسط، وهذا الأمر من البدهيات في علم التجارة التقليدية وتخطيط المدن.(١)

ولقد كان وجود المسلمين العرب في شمالي إفريقية يمثل عهدا جديدا في مجال ازدهار التجارة،(٢) لأن من أكبر الخدمات التي قدمها حكام شمالي إفريقية هو الإسهام الكبير في تعمير الطرق مما أتاح للتجار الفرصة في حمل الإسلام إلى جنوب الصحراء. فقد عمل عبدالرحمن بن حبيب الفهري - حفيد عقبة بن نافع - (١٢٧-١٣٢هـ/ ٧٤٤-٧٤٩م) على حفر سلسلة من

---

(١) انظر مثلا: W.E.F. Ward: A History of Africa, P. 37. رولاند أوليفر وجون فيج، موجز تاريخ إفريقية، مرجع سبق ذكره، ص٦٦ وقد تمثلا هنا بمدن العصر القرطاجني الروماني مثل مدينة لتبس ماجنا وليكوس التي كانت تقع على المحيط الأطلسي عند نهاية طرق التجارة عبر صحراء موريتانيا.

(٢) عن تجارة قرطاجنة والجمهورية الرومانية مع غربي إفريقية انظر: ويدنر، مرجع سبق ذكره ص٣٧. وما بعدها.

الآبار تصل بين واحات إفريقية ومديـنة أودغست بصحراء المغرب الأقصى[1]، واستطاع جنوده بفـضل الله ثم بفضل هذه السيـاسة أن يعبروا الصـحراء، وأن ينشروا الإسلام بين القبـائل الضاربة فيها، كما استطاع التـجار أن يتصلوا ببلاد الملثـمين وبلاد غربي إفـريقيـة عن طريقين[2]: طريق ساحل المحـيط أو طريق الصحراء الذي أصلحه عبدالرحمن بن حبـيب الفهري، وأصبحت القوافل أكثر استعدادا لارتياد الطرق إلى غربي إفريقـية. وقد تمخضت هذه الجهود عن نتائج طيبة، إذ أدت إلى دخول الإسلام إلى غربي إفـريقية عن طريق آخر غير الطرق التي كانت مألوفة من قبل. وقـد استطاع ابن حبيب أن يقر الأمن والسكينة في بلاد الغرب، فانتشر الإسلام في ربوعه، وبدأت الحياة الثقافية والاقتصادية تنمو وتزدهر على الرغم ممـا انتاب العـالم الإسـلامي من فتن بعـد سـقـوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية.

وتجدر الإشارة إلى أن مما قَرّب الصلة والاحتكاك بين البربر والزنوج، أن القائمين الجدد (العرب المسلمين) لم يكونوا كالرومان يعيشون في المدن ويؤثرون السـاحل على الداخل، بل كـان بين هؤلاء الفاتحين مـن ترك الساحل وفـضل الآفـاق الفسـيحـة بالداخل، ومن ثم أخلى كثـيـر من البربر مكانهم للعـرب واندفعوا للجنـوب، ثم جاءت غارات بني سليم وبني هلال في عهـد المستنصر الفاطمي في القـرن الخامس الهجري، تلك التي اندفعت كـالسيل يزحف على شمالي إفـريقية[3]، فاتجه مـزيد من القبائل البـربرية نحو الجنوب، واقتحـموا أرض الزنوج، حيث نـزلوا بلاد السنغال، ثم اتجـهوا شرقـا إلى نهر النيـجر،

---

(١) إنتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مرجع سبق ذكره، ص ص٩١ـ٩٢.

(٢) المرجع نفسه، ص٩٢.

(٣) الدكتور أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، جـ٦، ص١٦٨.

وكانم برنو.[1]

وعن طريق هذا الاحتكاك وجدت الصلات الروحية بين سكان القارة الافريقية شمالي الصحراء وجنوبيها، وقد تأكدت هذه الصلات الروحية عن طريق التجارة الصحراوية ونشاط القوافل التي كانت تجوب هذه الصحاري حاملة معها المنسوجات وغيرها من منتجات الشمال الإفريقي وحضارة الشمال الإفريقي. وفي الطريق كانت القوافل تعطف على واحة «تغازة» حيث يكثر الملح، وهو أهم ما كان يطلبه سكان غربي إفريقية[2]، ويتقاضون بالملح والذهب، ثم تعود القوافل حاملة منتجات غربي إفريقية الوفيرة. وكان للمسلمين والعرب دور بارز في هذه التجارة المهمة التي سارت في طرق معروفة، نجمل وصفها.

تذكر كتب الجغرافية الحديثة أن طرق القوافل الحالية لم تتغير تقريباً عما كانت عليه قديما، وأنها لاتزال قائمة بين المغرب وبين السنغال والنيجر، وقد ذكر الدكتور شعيرة[3] ثلاثة طرق مهمة مع وصف للمدن التجارية التي تتحكم فيها، وهي: ـ

١ ـ **الطريق الأول**: يمر عبر موريتانيا، ويبدأ من أغادير الواقعة على مصب نهر السوس ويسير جنوبا إلى أن يصل إلى عاصمة موريتانيا «نواقشوط»، ثم يستمر في سيره حتى يصل إلى مصب نهر السنغال، ويقابل هذا الطريق قديما طريق يبدأ من «تارودانت» شرقي أغادير على نهر السوس، ويسير إلى

(١) المرجع نفسه، ص١٦٩.

(٢) ويدنر، مرجع سبق ذكره، ص٣٧.

(٣) المرابطون وتاريخهم السياسي، ص ص١٦ـ٢٣، بتصرف، وعن هذه الطرق انظر أيضا: محمد عبدالفتاح إبراهيم: إفريقية من السنغال إلى نهر جوبا، ص ص٧١ـ٧٢.

نول التي خلفتـها تندوق اليوم، ثم يسـير إلى مدينة أوليل، ويقابلهـا اليوم مدينة «سانت اتبين»، وهذه المحطات القديمة كانت مراكز مهمة جداً.

أما تارودانت فهي التـي كانت تستقبل القـوافل الآتية من الجنوب، والتي كانت تزود القوافل المتجهة نحو الجنوب، بل كانت هذه المدينة مركز العمران الذي تحول إلى مراكش عـندما انشئت في صدر الدولة المرابطيـة، ونتصورها لذلك مـدينة كـبيـرة أشبـه مـاتكون بعـاصمـة الجنوب وبنهـايات الخطوط التجارية. . وكانت تقع في إقليم خصب صالح للزراعة وتربية الماشية.

فـإذا عـادت القوافـل من الجنوب وجـدت في المدينة من الخـصب ومن الصناعات ومن أنماط الحضارةماينسيها مشقة الرحلة.

والمحطة الثانية على هذا الطريق هي مـدينة نول، وهي مدينة داخلية تقع على نهـر صحراوي يحـمل الاسم نفســه. وتأتي أهميـتهـا من أنها مـركز الدروق اللمطية الشـهيرة. ويضاف إلى هذه الصناعة صـناعة السروج ولُجم الخيل، وهي صناعة يجب أن تقاس بمقدار الحـركة التجارية المارة بهذا الخط على الأقل، وصناعة ثالثة هي صناعة الأكسية التي تباع بثمن غال.

ثم تكون أوليل نهاية المطاف، وهي عبارة عن جزيرة في البحر، قريبة جداً من الساحل، وفيها معدن الملح الذي يحمل منها إلى جميع بلاد غربي إفريقية، حيث كانت صاحبة الاحتكار في هذه التجارة المهمة في ذلك العصر.[1]

وقـد اشتـهـر هذا الطريق بأهمـيـتـه رغم بعـده ووقوعـه في «أقـصى

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٩١، الإدريسي: نزهة المشتاق، مصدر سبق ذكره، ص٢٢٦؛ المغرب وأرض السودان، مصدر سبق ذكره ص٣؛ المغرب في ذكر بلاد إفـريقية والمغرب، مصدر سبق ذكره، ص١٧١، ياقوت الحموي: مـعجم البلدان جـ٣، مصدر سبق ذكره، ص٢٨٣؛ الاستبـصار، مصدر سبق ذكره، ص٢١٤؛ ابن سعيد المغربي: بسط الأرض، مصدر سبق ذكره ص٢٤.

الغـرب». [1]

٢ ـ **الطريق الثـاني** : طريق مـالي وغـانا، وهو الـطريق الأوسط الممـتـد بين سجلمـاسة ثم درعة من ناحـية أودغست، ثم النيـجر من ناحيـة أخرى. ورأس هذا الطريق عند سجلماسة، وهي من أقدم رؤوس طرق القوافل في المغرب وأكثرها شهرة وحيوية وتعبيرا عن الشخصية المغربية التجارية، وهي مركـز إقليم يعرف باسم «تافـيللت». وقد بادت هذه المدينة الـتي تعدّ من أقدم المدن المغـربية الإسلاميـة التي رحبت بالإسلام على مـذهب الخوارج الصفرية، الذين أقـاموا فيها دولة ذات تجارة واسعـة، وكانت تقع على نهر كثـير المياه، وفـيها تـنبت الزراعات الثمـينة، ذات القيمـة التجـارية، مثل الكراوية والحناء والقطن، وهي مـدينة داخلة في مناطق الصـحراء، يّجـود فيهـا الرطب، وتكتسب المدينة من القوافل ما تجري به العـادة من انصباب البضائع إليها وشغل اليد العـاملة ووفرة الثروات، فلا غرو فقد كانت «باب الصحراء إلى أرض السودان». [2]» ويجمع الجغرافـيون والكتاب المسلمون

---

(١) W.D. Cooley: The Negro land of the Arabs, p. 2.
M.A.H. Sharkawy: "Egyptian and Foreign Elenents in the Evolution of West Arrican Cultures" C.U.D.A. Vol.1, (1933), p. 190.
ويذكر الشرقاوي أن الطريق الشرقي كـان متعبا لوجود قبائل غير مسلمـة عليه. د. عبدالعزيز كامل: جغرافية الإسلام في إفريقية، ص٤٠.

(٢) مسالك الأبصار، مصدر سبق ذكره، ص٥٥٣، ولمعرفـة أهمية هذه الثروة يقول العمري: «.. ولقد رأيت صكا فيـه حق على رجل من سجلماسـة لآخر من أهلها باثنـين وأربعين ألف دينار»، ويقول: «... من أكبـر مدن المغـرب وأشهـرها ذكرا في الآفاق.. وأهلـها ميـاسيـر ولهم متـاجر إلى بلاد السـودان»؛ البكري: المغـرب، مـصدر سـبق ذكـره، ص ص١٤٨ـ١٤٩، إذ يقـول: «ومن مـدينة سجلماسة تدخل إلى بلاد السودان إلى غانا..»؛ الأصطخري: مسالك الممالك، مصدر سبق ذكره، ص٣٩، وعنها يقول: «وسـجلماسة مدينة وسط من حد تاهرت، إلا أنها منطقـة لا يسلك إليها إلا من القفار والرمال، وهي قريبة من معدن الذهب، بينها وبين أرض السودان وأرض زويلة، ويقال إنه لا يعـرف معـدن للذهب أوسع ذهبـا ولا أصفى منه إلا أن المسلك إلـيه صـعب والاسـتعداد شـاق جدا..».

والعرب على أهميتها التجارية.[1]

ثم تكون درعة إلى الجنوب، وهي تشبه في الوصف سجلماسة من حيث وقوعها على نهر، واستمداد رزقها من القوافل.[2] ويصفها الإدريسي[3] بأنها مدينة كبيرة آمنة غير مسورة ولا محاطة بحفير، وإنما هي قرى متصلة ومزارع، وهي تشارك سجلماسة في زراعة الحناء ذات القيمة المادية في ذلك الوقت، وتتميز درعة عن سجلماسة بأنها هي المحطة التي لابد منها في طرق المواصلات الصحراوية، وأهم من ذلك الأمن، فإن درعة وسجلماسة استغنتا عن الأسوار التي تكون ضرورية في مدن الشمال، والأمن عامل أساسي لرواج التجارة.

ثم تكون المحطة الثالثة على هذا الطريق هي «أزقي» أو «أزكي»، وهي المركز الحقيقي لأهل الصحراء، وفيه يكون اجتماعهم، وهي الباب الشمالي إلى السودان كله كما كانت سجلماسة بابه الجنوبي، ولا اتصال بين المغرب وبين جميع بلاد غربي إفريقية إلا عن طريقها.[4]

٣ ـ والطريق الثالث هو طريق الصحراء من أرض السودان إلى جبل نفوسة

---

(١) من هؤلاء: الإدريسي: المغرب وأرض السودان، مصدر سبق ذكره، ص٦٠؛ المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣١، ويقول عن أهلها: «أهل سنة وقوم جيد، بها علماء عقلاء...»، الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص ص٢٣٨ـ٣٩؛ ابن الوردي: المختصر في أخبار البشر، مصدر سبق ذكره، ص٨٤؛ ابن حوقل: صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص٦٥، ٩١، وعنها يقول: «وسكنها أهل العراق وتجار البصرة والكوفة والبغداديون الذين كانوا يقطعون ذلك الطريق»؛ ابن رستة: الأعلاق النفيسة، ص٣٥٩.

(٢) وعن أهمية هذه المدينة انظر: أبوالفداء: تقويم البلدان، مصدر سبق ذكره، ص١٣١؛ ابن خرداذبه: المسالك والممالك، مصدر سبق ذكره، ص٨٨؛ الإدريسي، المغرب، سبق ذكره، ص٦١؛ الإستبصار، مصدر سبق ذكره، ص٢٦؛ البكري، المغرب، مصدر سبق ذكره، ص١٥٥.

(٣) المغرب وأرض السودان، المصدر السابق، ص٦١.

(٤) انظر: الإدريسي، المصدر نفسه، ص ص٥٩ـ٦٠. قال عنها: «وهي أول مراقي الصحراء».

وطرابلس[1]. وعلى هذه الطرق والمسالك قامت مدن تجارية أخرى غير التي ذكرنا[2]، أدت دوراً هاماً في خدمة الدعوة الإسلامية والتعليم الإسلامي، مما يدل على صلة انتشار الإسلام وعلومه عن طريق التجارة ومدنها، فإذا مابرزت مدينة تجارية يؤمها البائع والمشتري، سرعان ماتصبح مركزا ثقافيا يؤمه المعلم والمريد، حتى أصبح من الشائع أن مراكز الاحتكاك تبودلت فيها السلع والأفكار، وقد يغلب الجانب الاقتصادي على بعض المراكز التي نشأت في غربي إفريقية نتيجة لتلك العلاقات التجارية المستمرة، ويغلب الجانب العلمي على مراكز أخرى مثل كانو، واشتهرت تنبكت بالأمرين معا تقريبا.[3]

وللطرق التي ذكرنا دلالة كبرى على ماكان عليه الحال قديما من صلات بين الشمال الإفريقي والإقليم العريض الذي عرف قديما لدى الرحالة العرب بـ«بلاد السودان». وقد ظلت هذه الصلة تجاريةً صرفاً حتى كان أول العهد المسيحي، حين دفعت التقلبات السياسية في الشمال شعوبا عدة وقبائل مختلفة للنزوح عبر الصحاري للجنوب هربا من الحروب، وتوالت هذه الأفواج حتى القرن الثالث عشر الميلادي، ونشأت معها منازل من

(١) وعلى هذا الطريق أدى الخوارج خدمة كبيرة عندما ساهموا في نشر الإسلام في غربي إفريقية، وسنرى ذلك فيما بعد.

(٢) مثال ذلك: أودغست (انظر ص ١٧١ من هذا الكتاب)، وأغمات، وتلمسان وتاهرت، وزويلة، وزالة، وسبتة، وطنجة، وطرابلس، وهران. انظر: الإدريسي، المغرب، مصدر سبق ذكره، صفحات ٣٢، ٦٦، ٨٠، ٨٤، ٨٧، ١٢١، ١٢٢، ١٦٨؛ دائرة المعارف الإسلامية: مادة تلمسان وأودغست؛ البكري، المغرب، مصدر سبق ذكره، ص١٥٨ـ١٥٩ عن أودغست، وص٧٦ عن مدينة تلمسان، وص١٥٣ عن أغمات، يقول البكري عن يوم سوقها: «يذبح فيها أكثر منماية ثور وألف شاة وينفد في ذلك اليوم جميع ذلك، وهذا دليل على أهميتها في القرن الخامس الهجري (١١م). وعن تاهرت انظر: الأصطخري: مسالك الممالك، ص٣٩، والنفوسي الأزهار الرياضية، ص٩ ومابعدها، وفي هذا المصدرجزء خاص عن تاهرت وأئمتها من الرستمية.

(٣) الدكتور شلبي، الموسوعة، جـ٦، مرجع سبق ذكره ص١٩٤.

المهاجرين العرب والبربر المتهودين،[1] تعيش آمنة وسط الزنوج، يتنافسون ويتقاسمون العيش ويتبادلون ماعندهم من ثقافات.[2]

أما في العصر الإسلامي، وفضلا عن تلك الظروف الخاصة، فقد كان للبربر، وخاصة تجارهم، الفضل الأكبر والقدح المعلى في مجال الدعوة الإسلامية والتعليم الديني بين القبائل الزنجية التي تقطن الصحراء وفيما وراء الصحراء، فالفضل يرجع إلى مراكز تجارتهم الموجودة في السهول التي تلي الصحراء، فتجذب إليها العناصر المسلمة النشطة لتقوم بدور بارز في خدمة الإسلام وتربيته. وأبرز تلك الأدوار أنه عندما اعتنقت قبائل صنهاجة[3] البربرية الإسلام في القرن العاشر الميلادي تسرب الدين الحنيف عبر الصحراء، وبدأت المراكز التجارية في الصحراء، ومنها أودغست، المركز الأمامي لتجارة غانا من الجهة الشمالية، بدأت تتسم بالطابع الإسلامي، وتصبح مركزا للدعوة الإسلامية.[4]

ولايخفى أن الأخذ والعطاء مما يصحبه دائما تبادل الأفكار ونمو الثقافات وانتقال الحضارات، ولولا طرق القوافل التي كانت تربط سودان المغرب ببلاد البحر الأبيض المتوسط أو وادي النيل، لما ازدهرت في وقت من الأوقات تلك الحضارة الإسلامية التي لم تعرف غربي إفريقية مثلها من

(١) R.J. Harrison Church: West Africa, op. cit., pp.163 ff.
وقد تكلم عن دور اليهود في هذه التجارة.

(٢) بازل ديفدسون: إفريقية تحت أضواء جديدة ـ ترجمة جمال محمد أحمد، ص١٩ من المقدمة لجمال.
G.P. Murdock: Africa, Its peoples and their Culture, pp. 125-29.

(٣) سنتكلم عن دور هذه القبائل فيما بعد.

(٤) الدكتور عبدالرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في غرب إفريقية، ص٦؛ قداح: إفريقية الغربية في ظل الإسلام، مصدر سبق ذكره، ص٣٩ الإدريسي: المغرب، ص٣٢، ولكن في زمان الإدريسي لم تكن عامرة، لأن تسرب الإسلام كان بطيئا، لذلك نراه يقول عنها: «وهي مدينة صغيرة في صحراء ماؤها قليل.. وعامرها قليل.. وليس بها كبير تجارة؛ ابن سعيد: بسط الأرض، مصدر سبق ذكره، ص ص٤٧ـ٤٨؛ دائرة المعارف الإسلامية: مادة أودغست، بقلم أيفر.

الحضارات السابقة: إفريقيةً أو رومانيةً أو بيزنطيةً.[1]

ولقد تعلم أهل غربي إفـريقية عن طريق اتصالهم بالحضـارة الإسلامية التي وفدت إليهم، بوساطة الاحتكاك التجاري في المقام الأول، أشياء كثيرة لم تكن لديهم من قبل، وكان للعرب في هذا دور مركـزي، لأنهم عرفوا التجارة مع إفريقية عامة منذ أمد بعيد، حتى قيل إن كل عربي تاجر. ولما جاء الإسلام وأصبح التاجـر مسلما، زاد النشاط التـجاري بين شمالي الصحـراء وجنوبيها، كما زاد النشاط التجاري الذي يقوم به العرب. فقد عني حكام المسلمين بالطرق والأمن[2]، وحددوا المكاييل والمقايـيس السليمة، وأشاع التاجـر حوله جوا من الثقة، فلقي ترحاباً أنى حل، وأصبح بيـته منارة للفكر الإسلامي بما يحمله من مدنية وحضارة، واختار مساعديه من الجنوب، ومن خيرة الناس، فهيأ للإسلام فرصة الانتشار والذيوع مع التجارة والتجار.[3]

والتقى العرب في تجوالهم بالقارة الافريقية مع جماعة تماثلهم في النشاط

---

(١) الدكتور زكي: الإسلام والمسلمون، مرجع سبق ذكره، ص١٦٠.

(٢) انظر: عبدالله كنون: النبـوغ المغربي في الأدب العربي، جـ٢، ص ص١٠٦ ـ ١٠٧، وأوضح دليل أورده كنون هو تلك الرسالة الموجـهة من أحد أمراء الموحدين ـ سليـمان ـ إلى ملك من ملوك غربي إفريقية لم يسمه. وفي هذه الرسالة ينكر الأمـير الموحدي على الملك السوداني تعويق التجار من أداء عملهم، ومما جاء فيها: «نحن نتجاوز بالإحسان، وإن تخالفنا في الأديان، ونتفق على السيرة المرضية ونتآلف على الرفق بالرعية، ومعلوم أن العدل من لوازم الملوك في حكم السياسة الفاضلة، والجور لا تمارسه إلا النفوس الشريرة الجاهلة، وقد بلغنا احتباس مـساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدده وتردد الجـلابة (يعني التجـار ويعرف هذا عندنا فـي السودان النيلي العـربي) إلى البلد مفـيد لسكانها ومعين على التمكين من استيطانها، ولو شـئنا لاحتبسنا من في جهتنا من أهل تلك الناحية، لكنا لا نستصوب فعله، ولا ينبغي أن ننهى عن خلق ونأتي بمثله، والسلام». ولـم يفطن فقط مسلمو شمالي إفريقية إلى أهمية العناية بالطرق التجـارية، بل إن حكام غربي إفريقية على مر العصور كانوا يفعلون ذلك، ويحضرنا هنا مثال قريب وهو اهتمام السلطان بللو بهذا. انظر:
Dunham and Clapporton: Narrative of Travels and Discoveries in Northern and Central Africa,p.179.

(٣) د. شلبي، مرجع سبق ذكره، ص٢٠٣.

التجـاري من أبناء غربي إفـريقيـة، وعلى رأسهم تجـار الفولاني، والهـوسا، والديولا، والماندنجـو، وغيرهم من تجـار التكرور[1]، وبذلك أخذت التـجارة مكانة مرموقـة، فنمت في ظل الإسلام، فخدمـها الإسلام وخدمـته إلى الحد الذي يقرر فيه ترمنجهام أن الإسلام والتجارة يرتبطان إلى درجة كبيرة.[2]

لقد اندفع العرب بعد الإسلام نحو شـمالي إفريقية، وترعرع سلطانهم، وامتد فيمـا بعد القرن الخامس الهجري (١١م)، وهي الفترة الـتي شهدت قيام الدول الإسلامية الكبرى في غربي إفريقية وازدياد هجرات سكان شمالي إفريقية إلى غربيها، واتساع نطاق التجارة، مما جعل أثر الوافدين عميقا في حياة سكان غربي إفريقية.[3]

ويذكر ديفدسون[4] بأن مجيء العرب إلى هذه المناطق لم يكن من أجل الإغارة كما فعل البربر من قبلهم (أحـيانا) ولا للإقامة الهاربة من الاضطهاد[5] كما فعل الـيهود والبربر المتهودون حين شق عليـهم العيش مع الروم، بل كان التجـار والمهاجرون العـرب يحملون رسالة، ويتـحدثون لغة، وكـانوا بعد هذا

(١) سنتكلم عن هذه الجماعات فيما بعد.

(٢) J.S. Trimingham: A History of Islam in West Africa, p. 31.

(٣) ديفدسون، مرجع سبق ذكره، ص٢٠ من المقدمة للمترجم.

(٤) المرجع نفسه، ص٢١ ـ ٢٢.

(٥) إن تاريخ الأسـر التي كـونت دولا في شـرقي وشـمالي إفـريقـيـة والأندلس يرجع إلى الاضطهـاد السيـاسي، خاصة في الدولتين الأمـوية والعباسـية كمـا هو معروف. وقـد ذكر ذلك كل المؤرخين، ومنهم الدكتور شلبي: الموسوعة، جـ٦ ص١٨١، ويبدو أن الاضطهـاد السياسي وقيام دولة الأدارسة بالمغرب أدى إلى هروب أعـداد هائلة من أنصار الأمويين إلى داخل إفـريقية، حيث لا يوجـد حاكم يساند العباسيين يخشى من غدره، ولجأ البعض إلى الأندلس والبعض الآخر من أنصار الأمويين وجد الأمان المطلوب في غربي إفريقية وبذلك سارت بهم القوافل إلى هذه المنطقة، فوجدت الطبيعة ملائمة لحياتها البدوية، فـعاشت في سلام، لم يقلل من عددها عدو أو حرب سياسـية، فتكاثرت أعدادها بمرور السنين.. في ضوء هذا يمكننا ألا نقبل بما أورده ديفدسون.

يبحثون عن مـجال أوسع للتجارة. واتخذت صلاتهم العـرقية مظاهرها البارزة إلى اليوم في سـحنة الكثيرين، وفي التكوين الجسدي، لاسيما في الـشعوب التي تعيش شمالي غربي الصحراء، فالدم الغالب شمالي السنغال والنيجر، هو الدم الخليط من الزنوج والبربر والعرب، والدين الغالب هو الإسلام، ولم تكن اللغة العـربية غريبـة على الكثيـرين منهم. ثم يغلب الدم الزنجي جنوب هذين النهرين، وإن كنت ترى حتى اليوم هذا الأثر الذي تركته تجارة القادمين ودينهم وعاداتهـم رغم القرون التي مـضت على تلك الصلة[١]. وكانت مـدن غربي إفريقية الرئيسة، ابتداء من القرن الخامس الهجري (١١م) فصاعدا، تمثل المراكز المهمة التي تنتقل إليها تعاليم الإسـلام عبر الصحراء، ثم تأخذ في الانتشار إلى مختلف أنحاء غربي إفـريقية، ولاشك أن انتشار الإسلام كان يعني شيـئا كثيرا بالنسبة لهـذه المنطقة، فمن بين مايعنيه وجـود ارتباط أكثر تدعيـما بين العالمين العربي والزنجي عبر الصحراء، ونمو التعاليم الإسلامية والعلوم.[٢]

وليس هناك أدل على أهمية التجـارة الإفريقية من المثل الذي يقول: «إن جرب جملك فعليك بالقطران، وإن افتقرت فسافر إلى السودان».[٣]

وسوف نـستعـرض في الصفـحات التـالية دور كل مـن تجار الصـحراء وشمالي إفريقية عامة وتجار غربي إفريقية في تغلغل الإسلام وعلومه في مساحة واسعة بغربي إفريقية.

---

(١) ديفدسون، مرجع سبق ذكره، ص ص٢١-٢٢.

(٢) توماس هودكير: ممالك السودان الغربي - فجر التاريخ الإفريقي، ص٢٦.

(٣) نعيم قداح، مرجـع سبق ذكره، ص١٣١؛ جوليان، مرجع سبق ذكـره، ص٨٥، وقد ترجم المترجم هذا المثل بقوله: «إذا أردت علاج جرب الجمال فاستعمل القار، وإذا أردت علاج البؤس فاذهب إلى السودان، وقد ذهبت الترجمة بروعة السجع، ولكنه أعطى المعنى.

أ ـ تجار قبائل الصحراء الكبرى

لقد أخذت بعض القبائل العربية والبربرية في الصحراء بالاستقرار بعد دخول الإسلام، وكان لهذا الاستقرار إسهامه الفعال في نشر الإسلام في غربي إفريقية، إذ كانوا هم الوسطاء في حركة التجارة بين بلاد غربي إفريقية والبلاد الأخرى. ومن هذه القبائل البربرية ذات الشأن في هذا المجال قبيلة هوارة وقبائل الطوارق الملثمين، وعلى رأسها لمتونة وجدالة[1]. وهوارة من البربر المتبربرين بالمجاورة[2]، وقد كانوا تجارا مياسير يدخلون إلى بلاد غربي إفريقية وعلى ظهور جمالهم القناطير المقنطرة من السلع، منها النحاس الأحمر والملون والأكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر، وصنوف من الزجاج والأصداف والأحجار الثمينة، وضروب من العطر وآلات الحديد المصنوع، وعنهم يقول الإدريسي[3]: «وما منهم رجل يسفر عبيده ورجاله إلا وله في قوافلهم المئة جمل والسبعون والثمانون جملا. . . ولم يكن في دولة الملثمين أحد أكثر منهم أموالا ولا أوسع منهم أحوالا، وبأبواب منازلهم علامات تدل على مقادير أموالهم. .» وقد تكلمنا عن ثراء بعض مدنهم في الصفحات السابقة.

وكان من تجار البربر من يطيب له المقام في بلاد غربي إفريقية فيظل هناك

---

(١) انظر: د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين، مرجع سبق ذكره، ص١٤٧؛ المرحلة الإفريقية من تاريخ المرابطين، بحث للدكتور حسن محمود، نشر بالمجلة التاريخية المصرية: المجلد الثاني عشر (١٩٩٤ـ١٩٩٥م)، ص١١٢، Caravans of the Old Sahara, op. cit, p.25

G.P. Murdock, op. cit, p.129.

الدكتور سعد زغلول عبدالحميد، مرجع سبق ذكره، ص٤٣.

(٢) الإدريسي، المغرب وأرض السودان، مصدر سبق ذكره، ص٦٦.

(٣) نفس المكان.

بصفة نهائية أو إلى مدد متفاوتة، وفي رواية البكري[1]، عندما تكلم عن غانا، مايشير إلى ذلك. ففي المدينة الإسلامية كان يسكن التجار، مما يدل على الإقامة الدائمة. وهناك رواية يذكرها الدباغ[2] ربما تحمل هذا المعنى. فقد ذكر أن أحد المغاربة من أصحاب مالك سأله قائلا: «ياأبا عبدالله، إن لي أبا ببلاد السودان ولي أم أنا معها، فأبي يكتب لي بالنهوض إليه وأمي تنهاني عن الخروج، فقال له مالك: «أطع أباك ولا تعص أمك. فقال له الرجل: ياأبا عبدالله فما ترى؟ فانتهره مالك وقال: أتريد أن آمرك أن تعصيهما جميعا. قال الرجل: ثم سألت الليث بن سعد فقال: أطع أمك، فإن البر لها ثلاثا». ومن الأدلة الواضحة على إقامة التجار في بلدان غربي إفريقية مايرويه حسن الوزان (ليو الافريقي)[3] من أن ملك تنبكت قد زوج ابنتيه إلى تاجرين من أغنياء الغرباء، ويبدو لي انه يعني بهؤلاء تجار المغاربة.

وليس أدل على نشاط تجار البربر المغاربة من وجود بعضهم حتى في الصين كما يروي ابن سعيد[4] وابن بطوطة[5]، بل إن أحد التجار العلماء المغاربة كان سببا في إدخال ملك جزر المالديف[6] في الإسلام في منتصف القرن السادس الهجري (١٢م)، وهي اليوم دولة إسلامية مئة في المئة.

---

(١) المغرب، مصدر سبق ذكره، ص١٧٥.

(٢) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، ص٤٢ والدلالة العميقة لهذه الرواية هي قدم استيطان مسلمي شمالي إفريقية في وسط البيئات الوثنية في غربي إفريقية منذ القرن الثاني الهجري (٨م)، وربما قبله بكثير. وعن البربر في غربي إفريقية انظر: الكعاك: البربر، ص ص٩٦-٩٧، وص ص٨٢-٨٣.

(٣) The History and Description of Africa, Vol. II, p. 824.

(٤) بسط الأرض، مصدر سبق ذكره، ص٤١.

(٥) الرحلة، مصدر سبق ذكره، ص٣٨٥.

(٦) انظر: جزر المالديف ـ الجزر الآسيوية المسلمة، مقال للأستاذ محمد الأزهري، نشر بمجلة دعوة الحق: الأعداد ٥و٦ (مايو ١٩٧٠م)، ص ص٢٣٣-٢٣٤، واسم هذا الشيخ البربري «أبوالبركات».

ب ـ تجار الخوارج[1]

اتصلت الدولة الرستمية من عاصمتها تاهرت[2] بغربي إفريقية عن طريق القوافل التجارية التي كانت تخرج من ورجلان (ورجلة) قاعدة الرستميين التجارية في الصحراء إلى غربي إفريقية. وساعد الامتداد العريض للدولة الرستمية على تعدد الطرق والمسالك إلى غربي إفريقية، وأن درجة الاستثمار التجاري للخوارج والتغلغل في بلدان غربي إفريقية كان مدهشا، ويشهد بذلك ثراؤهم الكبير[3]. ولقد سافروا حتى غانا القديمة، وتاجروا على طول النيجر[4]. ومن المؤكد أنهم حملوا متاجرهم حول بحيرة تشاد، وعبر طرقهم التجارية تسربت آراؤهم الدينية[5]. وبعد تحطيم تاهرت على يد الفاطميين سنة

(١) عن دولتي الرستميين والمدراريين الخارجيتين بتاهرت وسلجماسة في المغربين الأدنى والأوسط انظر:
الدكتور محمود إسماعيل: أثر الخوارج في الحياة السياسية في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، رسالة دكتوراه غير منشورة بآداب جامعة القاهرة، ١٩٧٠م.
الدكتور السيد عبدالعزيز سالم، مرجع سبق ذكره، ص ص٥٣٣ ـ ٥٨٩.

(٢) انظر: الأصطخري: مسالك الممالك، مصدر سبق ذكره، ٣٩.
النفوسي: الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، القسم الثاني، مصدر سبق ذكره ص١٣؛ البكري، المغرب ص٦٧.

(٣) كان يبيت بن زلقين المزاتي يملك من الإبل ثلاثمئة ألف، ومن الغنم ثلاثمئة ألف، ومن الحمير اثنى عشر ألفا. انظر: الأزهار الرياضية، المصدر السابق، ص١٣٧؛ الدكتور السيد سالم، المغرب الكبير، المرجع السابق، ص ص٥٧٧ ـ ٥٧٩؛ ياقوت: معجم البلدان، مصدر سبق ذكره، ص١٨؛ الاستبصار، مصدر سبق ذكره، ص١٧٨؛ أحسن التقاسيم، مصدر سبق ذكره، ص٢٢٨؛ صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص٨٦.

(٤) الوسياني: السيرة، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٩١١٣ح، ص٥١، أورد رواية عن امرأة سافر زوجها إلى غانا ثم عاد من سفره، ومنهم من ولد في كوكو من مدن سنغي، أمثال مخلد بن كيداد الخارجي، انظر في هذا: العبر، جـ٢، مصدر سبق ذكره، ص.
B.G. Martin: "Kanem, Bornu, and the Fazzan;" J.A.H. X, 1 (1969), p. 17.
د. سعد زغلول عبدالحميد، مرجع سبق ذكره، ص٣٩٨ وما بعدها.

(٥) Martin, Loc. cit.

٢٩٧هـ/ ٩٠٩م نجعت موجة أخرى من الخـوارج جنوبا في الصحارى، وكانوا دائما حريصين على بناء مدنهم ومواصلة تجـارتهم جنوبا من فزان وجبل نفوسة ومن المراكز التجارية جنوب الجزائر.

وقـد كانت مـدينة زويلة من مـراكز الخـوارج الرئيـسة، لذا عـانت من العباسيين حين أرسلوا إليها جيشاً بقيادة ابن الأشعث، فهزم قوات أبي الخطاب (عبدالله بن السمح المعـافري) الخارجي، إمام الإباضية في شمـالي إفريقية سنة ١٤٤هـ/ ٧٦١م، ثم هاجم ابن الأشـعث زويلة وذبح سـكانها الإباضيـة[١]. وعلى الرغم من هذه الضربة ظلت زويلة لعدة قرون مدينة إباضية ذات أهمية، وإحدى النقاط الـرئيسة لانتقال القـوافل الذاهبة إلى غربي إفـريقية[٢]. فكانت بمثابة شريان يسري فيه الدم الإسلامي على المذهب الخارجي.

لقد كانت العـلاقات التجارية بين جـبل نفوسة[٣] وكانم بالذات عريقة، فحـاكم جبل نفوسـة الإباضي أبوعبيد عـبدالحمـيد الجناوني (١٨٤ـ ٢٣٦هـ/ ٨٠٠ ـ ٨٥٠م) استطـاع أن يتكلم لغة كـانم بالإضافة إلـى العربية والبـربرية،

---

(١) بعد هذه المعركـة أسست دولة تاهرت الخارجية، وبعـد تأسيسها مبـاشرة أضحت مركزا تجاريا مـهما للتجارة مع غربي إفريقية. وحاكمها أفلح بن عبدالوهاب (٨٢٣/ ٢٤ـ٨٧٢/ ٧٢م)، أرسل مبعوثا غنيا إلى غربـي إفريقيـة، وتبع ذلك نشوء علاقات دبلوماسية. ويبدو أن صلات تاهرت الرئيسة كانت مع جاو ـ عاصمة سنغي ـ عن طريق وارجلان وتادمكة ـ ولكن بعض تجـارتها وصلت غربي إفريقية عن طريق سجـلماسة وأودغـست، وفي سنة ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م غزا الفـاطميـون تاهرت، ولجأ آخـر إمام تاهرتي إلى وارجلان في الجنوب الشرقي، والتي خلفت تاهرت كمركـز للإباضية، ومركزا تجاريا مع مدن غربي إفريقية، ومنها تاكيدا. فأبو يزيد بن كداد الذي قاد الثورة على الفاطميين سنة ٩٤٣ـ٤٧م، ولد في تادمكة، ووالده من توزير (Tozeur) جنوب تونس، وقام بالتجارة مع غربي إفريقية. انظر:
N. Levtzion: Ancient Ghana and Mali, pp. 136-37.

(٢) Ibid. p.18. في بداية القرن العاشر الميلادي مازالت زويلة مديـنة إباضية هامة. فهي الملتقى، حيث طريق فرعي للتجـارة والحج يجري شرقا وغربا عبـر الطريق الرئيس، شمال ـ جنوب، وهذا الطريق الشرقي ـ غربي يصل الآن القاهرة، حيث يدخل المدينة الفاطمية عن طريق باب زويلة (أو زويلة).

(٣) يقع جبل نفوسة شمال زويلة، في الطريق إلى طرابلس.

واسمه نفسه يمكن أن يرجع إلى غربي إفريقية، إلى مدينة جني.[1]

وكان المسلمون من أهل جبل نفوسة أكثر الناس حركة، خاصة إلى الحج، حتى إنهم يحجون بالنساء والذرية، ويذكر الوسياني[2] أنه قد علم بأنه ولد في قافلة واحدة ثلاثمئة من الصبية الذكور. ويبدو أن هذا من المبالغات.

اما منزلة الرستميين العلمية فيقول عنها الدرجيني[3]: «وكان بيت الرستميين بيت العلوم. جامعا لفنونها من علوم التفسير والحديث والفرائض والأصول والفروع وعلم الفلك وعلم النجوم[4]. وقد حكى بعضهم أنه قال: «معاذ الله أن تكون عندنا أمة لاتعرف منزلة القمر - يعني الإمام عبدالوهاب -» ويذكر الدرجيني[5] أن الامام أفلح لم يصل الإمامة إلا بعد أن جلس لثلاث حلق، هي ثلاثة أنواع من العلوم - وأن ولده محمد بن أفلح عندما أراد السفر إلى غربي إفريقية للتجارة امتحنه والده في مسائل الربا، فتوقف في واحدة ولم يجب عنها أو لم يعرفها، فأمره أبوه بالرجوع عن السفر خشية أن يدخل أموالهم شيءٌ من الربا أو المحظور. وهذه الرواية تدلنا على مدى حرص الإباضية الخوارج على الفقه، مما يجعلنا نتصور كيف أن مثل

---

(١) Levtzion: Ancient Gh. op. cit., p.18.

(٢) مصدر سبق ذكره، ص٥، وانظر: ابن رستة، مصدر سبق ذكره، ص٣٤٥، حيث يقول عن أهل زويلة بأنهم «قوم مسلمون إباضية كلهم يحجون البيت الحرام وأكثرهم رواية».

(٣) طبقات الإباضية، جـ١، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ١٢٥٦١ تاريخ (٢٦١٢ تاريخ)، صحيفة ٢٥ وعن علمهم انظر أيضا: الشماخي: كتاب السير، ص١٩٣.

(٤) اشتهرت مدينة تاهرت الرستمية بالاهتمام بعلوم الفلك، ذلك أن العلاقات التجارية الواسعة التي قامت بين هذه المدينة وبلاد غربي إفريقية، وكذلك مع المسلمين في الأندلس جعلت علم الفلك جزءاً من الثقافة العامة، حيث رأى الناس في معرفة مبادئ علم الفلك السبيل لاشتراكهم في القوافل التجارية. انظر: الدكتور إبراهيم العدوي: المجتمع المغربي، مصدر سبق ذكره، ص٢٩٨. ومن تجارة هذه المدينة مع غربي إفريقية، انظر: الإدريسي، المغرب، مصدر سبق ذكره، ص٨٧.

(٥) طبقات الإباضية، جزء٢، المصدر السابق، صحيفة ١٣٦.

هؤلاء التجار الخوارج يمكنهم أن يقوموا ببث الدعـوة الإسلامية ويحببون الناس في الإسلام بسلوكهم الإسلامي الصارم في اتبـاع أصول المعاملات التجارية في الإسلام. وللرواية السالفة أيضا دلالة أعمق وهي أن الأئمـة الرستميين أنفسهم كانوا يشاركون في تجـارة القوافل عبر الصحراء إلى مناطق غربي إفـريقية. وقد جمعوا ثروات طائلة من هذه التجارة مع مراعاة حق الله فيها.[١]

وحتى نساء الخوارج كن يَتُقْنَ إلى المشاركة في الحـركة التعليمية والصبر على المكاره في سـبيل الله، فـهناك رواية للوسيـاني[٢] تفصح عن هذا المعنى بجلاء عندما قال: «وذكـر الشيوخ عن ثلاث نسوة في جبل نفوسـة اجتمعن، فقالت إحداهن: تمنيت لو أن الله ساقني إلى قوم جهلة فأعلمهم فيرحمني ربي بما أعلمهم بعض العلم والتعليم. . وتقول الرواية إن الثانية تمنت خدمة مسلمين في يوم قاس مطير، وتمنت الثالثة الصبر على رجل داعر فاجر. والرواية أوضح من أن نعلق عليها.

والمتصفح لكتبهم، يرى أن أئمة الرستـمية كانوا من العلماء الذين كرسوا حيـاتهم للعلوم ونشـرها في كل طبقـات المجتـمع، وقد شارك هـؤلاء الأئمة العلماء مـشاركة فعـالة في الحركة العلميـة بجامع تاهرت وجامع جبل نـفوسة بمدينة شروش.

وكان عبدالرحـمن بن رستم من كبار العلماء في عـصره. كان بارعا في علوم الدين واللغة والفلك، وكـان محبا للعلم، فأقـبل على التأليف على قلة

(١) الوسياني، مصدر سبق ذكره، صحيفة ٨٣.

(٢) المصدر نفسه، صحيـفة ١٥١، ومن نبغ منهن في العلوم أخت الإمام أفلح، التي برعت في الحساب والفلك والتنجيم. انظر: الدكتور سالم: المغرب الكبير، مرجع سبق ذكره، ص٥٧٥.

ماكـان يجد من الوقت. ويـذكر له الشـماخي[1] تفسـيرا للقـرآن. وقد اطلع الشماخي[2] على أجوبة في الفقه والأحكام وأصول الدين للإمام عبدالوهاب، وكذلك كان الإمام أفلح من العلماء المؤلفين، لاسيما في علوم التنجيم.[3]

وكان الإمام أفلح أديبا شاعرا، ومن شعره ــ مثلاً ــ قصيدة يشجع فيها على العلم، ويحث على طلبه، منها:[4]

العـلم أبـقى لأهل الـعلـم آثارا ... يريك أشـخاصهم روحـا وأبكارا
حيٌّ، وإن مات، ذو علم وذو ورع ... ما مات عبد قضى من ذاك أوطارا
وذو حـياة على جـهل ومنقصـة ... كَمَيِّتٍ قد ثوى في الرس أعصارا
لله عـصبـة أهل الـعلم إن لهم ... فضلا على الناس غـيابا وحضارا
العلم علم، كفى بـالعلم مكرمة ... والجهل جهل، كفى بالجهل أوبارا
فاطلب من العلم ماتُقْضى الفروضُ به ... واعمل بعلمك مضطرا ومـختارا
واطلبه ماعشت في الدنيا ومدتها ... لموقف العـرض أن لاتورد النارا
واجـعله لله لاتجـعله مـفـخـرة ... ولا ترائي به بـدوا وأحـضـارا

وقال في الحث على العلم أيضا: -

اشدد إلى العلم رحلاً فهي راحلة ... وصل إلى العلم في الآفاق أسفارا

---

(١) السير، مرجع سبق ذكره، ص١٩٣، ولم يصل الينا هذا التفسـير كما تحقق من ذلك الدكتور سالم، انظر: سالم، المغرب الكبير، المرجع السابق، ص٥٧٤.

(٢) المصدر السـابق، المكان نفسه. ولعله يعني كـتاب «نوازل نفوسة»، وهو مـجموع الفتـاوى التي كان علماء نفوسة يستفتونه فيـها، ولا يزال هذا الكتاب في مدن وادي ميزاب، بجنوبي الجزائر وفي جبل نفوسه وجربة. انظر: محمد علي دبوز: المغرب الكبير جـ٣، ص ص٣٨٢ ـ ٧٣. وعن اهتمام أفلح بالعلم انظر: النفوسي: الأزهار الرياضية. مصدر سبق ذكره، ص١٦٤.

(٣) انظر: الشماخي، ص١٩٣.

(٤) عن هذه الأبيـات انظر: دبوز، مرجع سـبق ذكره، ص ص٣٧٦ـ٣٧٧، الدكـتور سالـم، المغرب، مرجع سبق ذكره، ص٥٧٥.

واصبر على ولج الأغساق معتسفا مهامه الأرض أحزانا[1] وأقطارا
حتى تزور رجالا في رحا لهم فضلا فأكرم بأهل العلم زوارا
والطف بمن أنت منه العلم مقتبس جدد له كل يوم منك إبرارا

وبجانب هؤلاء الأعلام البارزين من بيت أئمة الرستمية العلماء نذكر ميمون بن محمد أبوعمر وأبوالفضل سهل «وكلاهما في الفضل والتوفيق فائق، وفي ميدان الرضا والعدل سابق وبالحكمة وفنون العلم ناطق..»[2]

ولشهرة الأول في العلم يذكر الشماخي[3] أنه قدم عليه ركب من التكرور من بلاد غربي إفريقية، وكانوا في تجارة، فاستمعوا إلى علمه وأعجبوا به أيما إعجاب، وقدموا إليه هدية عبارة عن مبلغ من المال قدره أربعمئة دينار، فأبى قبولها تورعا.

وهذا الذي يذكره الشماخي دليل على وجود علاقات وثيقة بين بلاد التكرور في غربي إفريقية ومناطق جنوبي الصحراء الكبرى، علاقات ثقافية تعليمية، وعلاقات تجارية، وهو دليل قاطع على أهمية التجارة في نشر الإسلام والتعليم الإسلامي بين هاتين المنطقتين.

ومما لاشك فيه أن أئمة الرستمية كانوا ييسرون لتجار غربي إفريقية مهامهم التجارية والتعليمية، فكان من الرستمية من يعنى بهم كأضياف عليه، ومن أمثال أولئك أبوهارون الجلالي، إذ كان: «واسع الدنيا تاجرا سفارا، جمع مالاً أنفقه في الطاعة».[4]

ويلاحظ أن هذه الصفات الكريمة في الخوارج الإباضية عامة وتجارهم

(١) أحزانا: ماغلظ من الأرض، جمع حَزْن.
(٢) الشماخي، السير، مصدر سبق ذكره، ص٢٧٣.
(٣) المصدر نفسه، ص ص٢٧٣ ـ ٢٧٤.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٧٨.

خاصة، جعلتهم من حملة مشاعل النور والإيمان إلى غربي إفريقية في وقت مبكر عن طريق أسفارهم إلى تلك البلاد. ومما يمكن ذكره هنا لهذه الدلالة أن أبايحيى الفرسطائي سافر إلى تلك الأصقاع فألفى ملكا لهم ناحل الجسم ضعيف القوى، فقال له: «مابك» قال: خوف الموت. قال: فأخبرته عن الله وصفاته سبحانه والجنة والنار والحساب وما أعد الله للمطيع والعاصي، فكذبني. وقال: لوصح عندك ما تقول لما بلغت إلينا لطلب الدنيا. قال: فمازلت أذكر نعم الله وآلاءه حتى أسلم وحسن إسلامه». [١]

ومن العلماء التجار أيضا أبونوح سعيد بن يخلف المزاتي، الذي يقول عنه الشماخي[٢]: «كان في العلم آية وفي العبادة غاية، «فقد سافر إلى «تادمكة» من بلدان شمالي غربي إفريقية. ومنهم علي[٣] بن يخلف الذي سافر إلى دواخل غانا تاجرا، فقام بها، وله مكان عند ملكها[٤]». وعندما وقع

(١) المصدر نفسه، ص٣١٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٧٤.

(٣) لاحظ أنه من الخوارج واسمه علي. وذكر أن والده سئل عن كيفية تسمية ابنه باسم عدوه، فأبى قدوة الخوارج في هذا وسماه عليا. وهذا دليل على تسامح بعض الإباضية. مما جعل بعض المؤرخين يعدهم من أهل السنة، أو أقرب إليهم. انظر: العدوي، المجتمع العربي، مرجع سبق ذكره، ص٢٣٢، إلا أن الدكتور حسن محمود يحمل عليهم كثيرا لمواقفهم من المالكية، لا سيما في عهد الدولة الفاطمية. انظر: قيام دولة المرابطين، مرجع سبق ذكره، ص١٣٥.

(٤) الشماخي، السير، ص٤٥٧. وقد لاحظت أن هذه الرواية نفسها يذكرها البكري، ولكنه لم يذكر اسم الشخص، بل قال: «وكان عنده ضيف من المسلمين يقرأ القرآن ويعلم السنة؛ ولكنه ذكر اسم المكان الذي كان فيه هذا المسلم وهو ملل، يعني به مالي. وذكر اسم ملكهم المسلماني، وأن سبب التسمية هو الرواية المذكورة. ويلاحظ من رواية البكري أن مالي كانت مملكة قائمة بذاتها، أما في زمن الشماخي في القرن الثالث الهجري فلم تكن معروفة بالتحديد، ولم يسبق أحد من المسلمين الشماخي في ذكر هذه المناطق، مما يجعلنا نرجح صحة رواية الشماخي بأن الذي أسلم هو ملك غانا، ولا يستبعد أن يكون البكري قد أخذ هذه الرواية من الشماخي مع شيء من التحريف، وتتفق رواية دولا رونسير مع الشماخي في أن أول من أسلم من ملوك غانا كان حوالي سنة ٢٢٣هـ/ ٨٣٧م وهو الملك تلوتان أو بولاتان بن تكلان، انظر: البكري، مصدر سبق ذكره، ص١٧٨؛ د. طرخان، غانا، مرجع سبق ذكره، ص٤٦، نقلا عن .Dela Ronciere, 1.p. 103

القحط ببلاد غانا، اشتكت الرعية إلى السلطان، فقربوا لأصنامهم الذبائح، واستغاثوا بها فلم يغاثوا، وكان الشيخ علي يتأهب للارتحال إلى وطنه، فطلب منه الملك أن يدعو ربه لعله يغيثهم، فقال علي بعدم جواز ذلك ماداموا على الأصنام، فطلبوا منه كيفية وصفة الإسلام، وفي هذا يقول الشماخي[1]: «فما زال به حتى وحد وتكلم بكلمة الحق، فخرج هو وإياه إلى كدية فصار يصلي به علي ويتبعه على مايفعله، وإذا دعا قال: آمين. فلما أصبح عظم المطر وحالت السيول بينه وبين المدينة.. مادخلوا إلا في السفن مع النيل فدامت سبعا تسح ليلا ونهارا. فلما رأى الملك ذلك دعا أهل بيته ثم وزراءه ثم أهل المدينة ثم من قرب، فأجاب جميعهم وأبى من بعد. وقالوا: نحن عبيدك ولانبدل ديننا. واشترط عليهم ألا يدخل كافر المدينة، وإن دخلها قتل. فالتزموا ذلك، وأخذ يعلمهم الصلاة وفرائض الدين والقرآن». وظل على ذلك إلى أن جاءته رسالة من والده تحثه على الحضور. فأخبر الملك بالأمر، وحاول الملك إثناءه عن تركهم خشية الضلال مرة أخرى، ولكن عليا لم يشأ أن يخالف أمر والده، فرجع بعد أن بذر بذور الإسلام في هذه الأرض، على الرغم من أن الراوي يذكر أن أعداء الإسلام تكاثروا على أهل الإيمان كما تتكاثر الأكلة على قصعتها فردوهم إلى طريق الضلال.[2]

وفي هذه الرواية دليل ناصع على دور التجار عامة والإباضية خاصة في حمل الإسلام إلى غربي إفريقية، إذ كانوا تجارا وعلماء ودعاة.[3]

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٥٧.

(٢) المكان نفسه.

(٣) عن دور الدولة الرستمية والمدرارية في إسلام غربي افريقية المبكر، انظر: دبوز، جـ٣، مرجع سبق ذكره، ص ص ٣٤٥ـ٣٤٩.

ويشهد للإباضية بالباع الطويل في مجال التعليم والحضارة الإسلامية كثرة العلماء الذين كانوا ينتشرون في مدنهم المهمة، مثل تاهرت وشروش وجادوا وأجناون وجربة وورجلان[1]. واشتهرت قاعدتهم تاهرت بمكتبها الكبيرة التي كانت تضم نحوا من ثلاثمئة ألف مجلد في مختلف أنواع العلوم والفنون، وقد خربها الفاطميون بعد أخذ مايهمهم من كتب الرياضيات والفلك والهندسة والطب.[2]

ومن دورهم في تاريخ الإسلام بغربي إفريقية نتبيّن أهمية العلاقات التجارية.

(١) انظر الشماخي، ص٢٧٣، دبوز، المرجع نفسه، جـ١ ص٣٤٧، ٣٧١.
السيد سالم، المغرب الكبير، جـ٢، سبق ذكره، ص ص٥٧٤ ـ ٥٧٥.
(٢) السيد سالم، المرجع نفسه، ص٥٧٦.

جـ ـ تجار الديولا الманديين

إن هذه المجموعات من التجار المسلمين يعـرفون بأسماء مختلفة[1] وسط مختلف القبائل، فعند مالنكي النيجر العلوي يعرفون بـ«الديولا»، وعند البمبارا في إقليم سيغو أو سيجـو وجني باسم «ماركا»، وباسم «داقنج» في منحنى نهر فولتا الأسود العلوي، وباسم «يارسي» عند متكلمي لغات المول ـ داجبين.

وفي المصـادر العربيـة يسـمى تجار الماندي هـؤلاء بـ«الوانغارا». وبهـذا الاسم عرفوا عند الفولاني والهوسا. وعلى أثر الهوسا فإن الاسم وانغارا أطلق على نطاق واسع، في منتـصف حوض الفـولتا، على كل من شـعوب الماندي المخـتلفة على بلادهم. ويذكـر مكوان[2] أن فرعـا من الديولا يسمـى بوسا، أقاموا على الطريق الجنوبي الغربي من كـاتسينا في بلاد الهوسا إلى الأشانتي، فقد أقاموا على معبر فوق النيجر.

بعد أن دخل الإسـلام إلى غربي إفـريقيـة عن طريق التجـارة في المقام الأول، وبعد أن رسخت قدمه هناك تسلم تجار غـربي إفريقية أصحاب الأرض الراية من إخـوانهم المسلمين من العرب والبـربر، وبدؤوا يمارسون الـدعوة إلى الإسلام عبـر منظماتهم التجارية من خـلال حركة التجـارة الداخلية بين مناطق

---

(١) See: N. Levtzion: Muslim Chiefs in West Africa, p.3, 6.

P.I. N. Moewon: Africa from Early Times to 1800, p. 36.

M.A.AL Hajj: "A Seventeenth Century Chronicle on the Origins and Mssionary Activities of Wangarawa" K.S.

ولب كتاب مكوان الآنف الذكر حول أثر الماندي في مناطق غربي إفريـقية لاسيما من حيث نشر الإسلام شرقا وغربا وجنوبا، ويشير الكاتب إلى أن هذا النفـوذ الماندي يكون أحيانا سياسيا ومرة تجاريا وأحيانا أخرى يجمع بين الاثنين.

(٢) Ibid, R. 36.

غربي إفريقية المختلفة. ومن هذه المجموعات التجارية التي أدت دورا بارزا في مجال الدعوة الإسلامية والتعليم الإسلامي تجار الديولا.

وعلى الرغم من معرفة تفاصيل قليلة عن منظماتهم المبكرة ودورهم في انتشار التعليم على فترات مختلفة كما يقرر ذلك لويس[١]، إلا أن هذا القليل يمكن أن يعطي صورة حقيقية لطبيعة تغلغل الإسلام داخل غربي إفريقية وعلى أيدي أهل المنطقة.

إن الاسم «ديولا» الذي يعني في لغة المالنكي كلمة «تاجر» اصطلاح يستعمل اليوم إشارة إلى عدد من متكلمي لغة المالنكي المسلمين. مثل واتارا وتوري وكيولبالي وبامبا.. إلخ. وهذه الفروع من شعب المالنكي متخصصة في التجارة[٢]. ويمكن اكتساب عضوية هذه الجماعة عامة بالمولد، فالابن يتبع الآباء، ويرجعون أصولهم اليوم إلى مركز نشاطهم الأول، إلى دولة مالي في العصور الوسطى.[٣]

وعن طريق تأسيسهم مستعمرات تجارية وأحيانا دولا[٤]، فقد تمكن هؤلاء التجار من تكوين شبكة تجارية ذات مستوى عال.[٥] وعن طريق منظماتهم المختلفة وتعاونياتهم المتفرقة أو نقاباتهم تمكنوا من اكتساب نفوذ اقتصادي داخل مختلف الدول والمجتمعات التي مارسوا فيها أعمالهم. وهكذا

---

(١) Islam in Tropical Africa, p. 24.

(٢) Loc-cit.

(٣) Ibid, p. 25.

(٤) من هذه الدويلات: دولة «كونج» في نهاية القرن السابع عشر بعد أن غادروا مركز بيغو الإسلامي في حوض الفولتا. انظر: N. Levtzion: Muslim and Chiefs, op. cit, p. 12.

(٥) loc. cit.، وعن دويلاتهم الصغيرة الأخرى وسط الشعوب الوثنية انظر: Trimingham. A History of Islam, op. cit., p.31.
Trimingham and Others: Islam in Africa, p. 17 Mewan, op. cit. p. 30.

نجد تاجرا في القرن الثامن عشر من هؤلاء الديولا في مدينة تنبكت يمكنه أن يستخدم عملاء يشترون له الذهب من منطقة الأشانتي بالجنوب، والبعض الآخر يبيعونه في فزان ومنطقة بحيرة تشاد، حيث يلتقون هنا بشبكة تجارية أخرى هي شبكة تجار الهوسا[1]، إذ إن الأخيرين أيضا يتمتعون كما سنرى باحتكار التجارة إلى الشرق. ويعملون فيما يعرف اليوم بدول نيجيريا وداهومي وتوجو وغانا الحديثة.

وبانتشار هذه الجماعة التجارية المسلمة تغلغل الإسلام على نطاق واسع مما لفت أنظار الكتاب إلى أهميتهم في مجال الدعوة الإسلامية والتجارة، إلا أن البعض أخذ في الافتراء والقول بأن اهتمام التجار عامة بالهداية إلى الدين قليل. ولايستغرب مثل هذا القول من منصّر كترمنجهام[2]، يريد أن يقلل من الدور السلمي في نشر الإسلام.

لقد حمل هؤلاء التجار الإسلام إلى الداخل عندما مدت الطرق التجارية جنوبا في البحث عن مصادر جديدة وغنية بالذهب الذي كانت تسيطر عليه دولة غانا، وفي القرنين الحادي عشر والثاني عشر وصل التجار إلى حقول الذهب في مدينة بيور على النيجر العلوي، وأقاموا مستعمرات تجارية أصبحت إحداها نواة لدولة مالي التي ازدهرت في القرن الرابع عشر، وسيطرت على بقية الممالك الأخرى.[3]

---

(١) Loc. cit.، وعن هذه التجارة الداخلية لتجار الهوسا وغيرهم انظر: Leo Africanus, op. cit., p.829.

وعن المنطقة الواسعة التي يتحركون فيها انظر: ; N. Levtzion: Muslims and Chiefs, op. cit., p.3. P.M. Holt and Others: The Cambridge History of Islam, pp. 363-64.

(٢) History of Islam, op. cit., p.28.

(٣) Muslim and Chiefs, op. cit. p.4.

ويمكن أن يكون تطور مـالي إلى دولة كبرى له عـلاقة بسيطرة حكامـها على تجـارة الذهب لبيـور «Bure»[1] فـفي القـرن التاسع الهـجـري (٨٧٦هـ) الخامس عشر الميلادي (١٤٧١م) تمكن البرتغاليون من تأسيس ميناء «ألمينا» على ساحل الذهب، فكسروا بذلك احتكار تجـارة الذهب التي كانت كلها في أيدي المسلمين، والتي كانت تأتي من حقول غـابة الأكان في الأراضي الواقعة خلف ألمينا، وإن هذا التدفق في تجـارة الذهب إلى الساحل يشير إلـى أن هذه الحقول قد سبق أن اسـتُغِلت في تجارة الذهب[2]. ، وإن البرتغاليـين كما هو واضح، غيـروا من اتجاه سيـر جزء من تجـارة الذهب الذي كان في السـابق يصدر إلى الشمال، وفتـحوا مجالا آخر لتجار الديولا الماندين لـيدخلوا في هذه التجارة، فوصلوا بذلك مباشرة حتى ألمينا بعد تأسيسها على أيدي البرتغاليين.[3]

إن فتـح التجـارة بين الساحل وحـقول الذهب في الغـابة يمكن أن يربط بتطور جني كمـركز تجاري لوقوعـها في النهاية الجنوبية الشـرقية لدلتا النـيجر الداخليـة، فهي نقطة الانطلاق لعـدة طرق إلى حوض الفـولتا. والسـعدي[4] يشير إلى هذه التجارة. إذ يقول بلقاء تجار الملح من تغازا بتجار الذهب من بيط قرب جني، ومن هذا يفهم أن الملح يصدر جنوبا قـادما من مناطقه الصحراوية الشمالية.

إن الطريق البحري بين تـنبكت وجني يربط طريقين بريين: من تغازا إلى تنبكت، ومن جني إلى الغابة. فقد وصف ليون[5] الافريقي (الوزان) فيما بين

(١) Loc. cit. (0) L.

(٢) Loc. cit.

(٣) وللتوسع في هـذا الموضوع انظر: JVO Wilke: The Northern Factor in A Shanti History: Begho and the Mande "J. A. H., Vol. 11,1 (1901), p.32.

(٤) تاريخ السودان، ص ص١١ـ١٢.

(٥) Description of Africa, op.cit, 11, p. 465.

سنتي ٩١٨-٩٢٠هـ/ ١٥١٢-١٥١٤م التجار التنبكتيين الذين يحملون بضائعهم في قوارب صغيرة، إلى جني. ومن المحتمل جدا أن يكون مركزا جني وتنبكت قد تطورا في وقت واحد.

إن نهايات الطرق الصحراوية القديمة في غانا وأودغست ووالاتا كان لها مسالك برية فقط، أما تنبكت فقد كان الوصول إليها يتم عن طريق الماء، ونتيجة لهذه الميزة نمت تنبكت على حساب والاتا. وفي قول السعدي[١]: «فكانت عمارة تنبكت خراب بير» مايوصلنا إلى هذه النتيجة.

وفي سنة ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م رافق ابن بطوطة[٢] قافلة أخذت الطريق القديم، سجلماسة ـ تغازا ـ والاتا. ثم بعد ربع قرن من الزمن نجد على خريطة برسم كرسكو «A. Gresques» مؤرخة في سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م أن الطريق الصحرواي الذي رسمه هو سجلماسة ـ تغازا ـ تنبكت، وحول نهاية القرن الرابع عشر حلت تنبكت محل والاتا كنهاية رئيسة لتجارة القوافل، وقد أخذ الوزان[٣] هذا الطريق الأخير في مطلع القرن السادس عشر.

وعلى مر الزمان، وفي حوالي القرن (١٠هـ/ ١٦م) شهدت هذه المناطق تطورا سياسيا مهما في حوض الفولتا، إذ تطورت دول موسي ـ داجومبا وبونو ـ مانسو، أقدم دول شعوب الأكان الإفريقية. وكانت كل هذه الدول متعلقة بطرق التجارة من النيجر إلى الغابة الاستوائية.[٤] ولايفوتنا أن نذكر أن الدول عادة ماتمنح الأمن لحركة التجارة، وأن المكسب الذي يحصل عليه حكامها من السيطرة على الطرق التجارية قد ساعدهم في تقوية سلطتهم.

---

(١) المصدر السابق، ٢١.

(٢) الرحلة، مصدر سبق ذكره، ص ص ٤٠٤ـ٤١.

(٣) Description of Af., op. cit., 11, p. 797 FF.

(٤) Levtzion, Muslim Chiefs, op. cit. pp. 5-6.

إن أول مجموعة لتجـار الماندي، وبالذات الفرع المسمى هنا بـ«اليارسي»، أقاموا في دولة مـوسي حول بداية القرن السادس عـشر، وارتادوا سوق بونو ـ مانسو، وتركوا أثرهم هنا بإدخال بعض شعب الأكان في بونو.[١] والمركز المهم لتغلغل الإسلام في هذا الجـزء من إفريقية الغربية كـان في مدينة بيو Be'o التي نافست بونو في تجارة الذهب[٢]. وقد تطور سوق Be'o بوصول مجـموعتين عـامتين من تجـار الماندي، همـا: اللجي والديولا، وصلوا إلى هنا في القـرن الخامس عـشر والتـقوا في Be'o، وكان ذلك سـببـا في ازدهار هذه المدينة، ولكنهم كانوا غرباء، فغـادروها عند اضمحلالها[٣]، وتفرقوا في مناطق غربي إفريقيـة، مثل باندا. وأقاموا مـراكز أخرى تجارية في حـوض النيجر الأوسط. ولايكاد يوجد مجـتمع مسلم مهم دون أن تجد بيتـا واحدا على الأقل من تجار اللجي. أما الفـرع الآخر وهم الديولا فقـد خرجوا في البـحث عن مكان آخر للرزق غرب نهر الفولتا الأسود بعد أن انطفأ نوربيو[٤]، حاملين معهم نور الله الذي لاينطفئ: الإسلام.

فنهر الفـولتا الأسود لاتظهـر فيه فقط بصـمات تجارة الماندي إلى جـهة الغرب، بل كان أيضا منطقة نفوذ إسلامية متميزة إلى الشرق من ذلك النهر.

وهنا أسهم المسلمون من هذا الأصل الماندي في نـشر الإسلام إلى القرن السابع عشر حينما عاضدهم في هذا المجال المقدس تجار الهوسا منذ بداية القرن الثامن عشر.[٥]

---

(١) Ibid, p. 8.

(٢) Loc. cit.

(٣) Ibid, p.11. وعن أسبـاب تدهور هذه المدينة انظر: Loc. cit. والمهم أن خـلاصة سـبب تدهورها هو تحول طرق التجارة عنها وتبدل أنماط التجارة في منتصف القرن السابع عشر. انظر: Ivor, Loc. cit..

(٤) Ibid, p. 12 .cit. p. 32.

(٥) Ibid, pp. 12-13.

إن الدراسة التفصيلية للإسلام في دول الفولتا الوسطى أظهرت أنماطا لعمليات وجود الكيانات الإسلامية وتغلغلها في نظام الحياة الاجتماعية والسياسية، وتسرب العناصر الإسلامية في الثقافة المحلية. ثم أخيرا دخول الكثيرين من السكان المحليين في الدين الإسلامي. وهذه الظاهرة متشابهة في كل الدول التي تغلغلت فيها الجماعات التجارية، والاختلاف فقط في الدرجة والكثافة طبقا للظروف التاريخية والاجتماعية والسياسية للدول المختلفة.

إن العداء بين قبائل الموسي والدول الإسلامية التي قامت في الشمال من منطقتهم، مثل غانا ومالي وسنغي، واستمراره طوال فترة هذه الدول، يدل دلالة واضحة على عناد وصلابة هذه العناصر، ولكنهم لم يستطيعوا أن يصموا آذانهم عن دعوة الحق عندما جاءت اليهم مع التجار الوافدين من الشمال من الماندي على اختلاف مشاربهم. فنجد أخيرا أن هذا الشعب الشديد المراس، تقبل الدين الإسلامي الذي جاءه عن طريق التجار وليس عن طريق الحرب التي كانت تتجدد دائما بينهم وبين الدول الإسلامية الإفريقية في غربي إفريقية. وهكذا فتحت أراضي الموسي للإسلام جينما عجزت هذه الدول عن هذا العمل.

إن أول مجموعة من تجار اليارسي قدمت إلى أرض الموسي في عهد ملكها ناباكندومى، ومن المحتمل أن يكون ذلك قد تم في القرن السادس عشر[1] ويقال إن أول مسلم كان يسمى بوكاري ساكاندي، أقام في مدينة زوغنة، وهي الحي القديم لليارسي في إقليم الموسي، ثم انضم إليه فاماري كوندا، الذي أقام في مدينة غونسن بالقرب من زوغنة، ثم أخذ عدد اليارسي

(١) .Ibid, pp. 163-64، انظر: إفريقية القارة المسلمة، مقال للأستاذ زين العابدين الكتاني، نشر بمجلة دعوة الحق: العدد السابع (يونية ١٩٧٠م) ص١٠٦. في هذا المقال يذكر الكاتب أن الديولا في غربي إفريقية أسلموا منذ سنوات قليلة. وهذا ليس بصحيح كما رأينا، أما إذا كان يعني أن النسبة أضحت مئة في المئة تقريباً، فهذا ربما يتمشى مع نسبة تغلغل الإسلام في هذه المناطق.

في ازدياد حتى إنه كانت هناك بنهاية القرن الماضي جاليات يارسية في كل قرية تقريبا، وسوق كبيرة في المقام الأول على طول طرق القوافل.(١)

وكانوا أحيانا يقيمون في أحياء أو قرى خاصة بهم. ولشدة تغلغلهم في المجتمع الموسي تبنوا لغة الموسي، ورويدا رويدا أضحى في منطقة الموسي زعماء مسلمون.(٢)

ولا مندوحة من أن نذكر دور تجار الماندي في إدخال الإسلام إلى منطقة الأشانتي، وما ترتب على ذلك من قيام مملكة الأشانتي في أواخر القرن السابع عشر، وبذلك ربطوا هذه الدولة بالدول الإسلامية في الشمال.(٣)

واشتهر في هذه المنطقة مركز تجاري مهم، هو بيغو كما ذكرنا، في الزاوية الشمالية الغربية للأشانتي الحالية(٤). ومن الواضح أن انتشار شعوب الماندي، وتجارهم خاصة، كان في المرتبة الأولى نتيجة لتطور وتنظيم تجارة الذهب من مناطق الغابات التي يكثر فيها الذهب، وحوافها الواقعة في منطقة السافنا وإلى مدن منحنى النيجر التي كانت بمثابة نهايات لطرق القوافل الصحراوية.(٥)

وهكذا فالعامل الشمالي في قيام دولة الأشانتي يظهر بوضوح إلى جانب العامل الجنوبي الخاص بالمعاملة التجارية مع أوربة عن طريق البحر، وهذه الناحية كما يذكر ايفور(٦) قد أهملها الكتاب والمؤرخون من قبل.

وهكذا نرى بوضوح دور هذه الجماعات التجارية في نشر الحضارة الإسلامية بغربي إفريقية.

---

(١) Ibid., pp. 164-65.

(٢) Ibid, p. 165، وعن وجود أحياء للتجار في مدن غربي إفريقية انظر: K.M. Paniker, op. cit, p. 262.

(٣) Ivor Wilks, op. cit, P. 25, 33.

(٤) Ibid, pp. 26-7، في هذه الصفحات روايات حول مكان المدينة وموضعها.

(٥) Loc. cit.

(٦) Ibid, p. 33.

د ـ تجــار الهوسا

لقد وجد الإســلام طريقه إلى غربي إفريقية منذ القــرون الأولى للهجرة النبوية، وذلك بالوسائل الـسلمية التي رأيناها، مثل التجـارة والمصاهرة. وظفر الإسلام بالقبائل القوية الكبيرة الشجـاعة، مثل قبائل الماندي كما رأينا، وقبائل الهوســا والفولاني كمــا سنرى. ثم نما الإسلام وترعرع فــي المدن الكبرى التي أقامها المسلمــون واستقروا فيهــا، فنمت وكبرت واشتهرت وقــامت فيها الدول الإسلامية الكبرى.

بعد أن أشــرقت هذه القبــائل بنور ربها أخذت تؤدي دورها الـطبعي في حمل مشعل الهداية والحضارة الإسلاميــة إلى مختلف أنحاء غربي افريقية التي يمكن لتــجارتهــا وهجراتهــا أن تصل إليــها. وهناك مــثال لذلك يذكــره بعض المؤرخين، وهو أن معظم المراكز التجارية في منطقة حــوض الفولتا مثل مافان، وكافــابا، وغيرهما قــد سبقت مــدينة سلقا[1] الشهــيرة كأسواق على الضــفة الشمالية للفولتا، كــما هو الحال في مدينة سلقا في القرن (١٣هـ/ ١٩م)، وأن ازدهار هذه المراكز يرجع إلى أن التجار القادمين من الشــمال فضلوا أن يُسوقوا بضائعــهم في هذه المراكز ليــتجنبــوا الرحلة جنوبا في الغابة، حــيث المناخ أقل ملاءمة لأهل السافنــا، وحيث الحيوانات التي تحمل الأمتعــة لاتستطيع العيش. والذي يهمنا هنا أكثــر هو أن المجموعات المسلمة في هذه المراكــز تدعي أنها قد أتت إلى حــوض الفولتــا من بلاد الهوســا وبرنو قبل القــرن (١٠هـ/ ١٦م)[2].

---

(١) Muslims and Chiefs, op. cit, pp. 26-7. يرى لفتزيون أنه من المحتـمل أن سلقا كانت سوقا ذات أهمية قبل نهاية القرن السادس عشر حسبما عرفه من روايات حول هذا الموضوع.

(٢) Loc. cit.

ويبدو لنا أن هــذه المجموعــات كان مبــدؤها تجاريا، فكانت ســببــا في إدخال الإسلام إلى هنا، لأن القبائل الشــمالية في إفريقية الغــربية تقبلت الإسلام أولا من الشمال الإفــريقي، لتنقله بدورها إلى أخواتها من المجموعــات القبلية التي تقطن في المناطق الجنوبية بغــربي إفريقية. ولقد كان دور تجــار الهوسا في هذه المنطقة مثل دور تجار الماندي ـ الديولا.(١)

ومن مجالات تجارة هذه المجموعات من التجار المسلمين دولة الأشانتي، إذ إنه منذ بداية القرن الثــامن عشر أخــذت دولة الاشانتي تتجــر رأسا مع بلاد الهوسا إلى الشــمال الشرقي منها، بالإضــافة إلى علاقاتها التــجارية مع المراكز الأوروبية في الساحل جنوبا(٢)، ومما لاشك فيه أن هذه الصــلة التجارية لابد أنها كانت ذات أثر عمــيق في نشر الإسلام عبر هذه الطرق التجــارية كما كان الحال بالنسبة لتجار الديولا، فترك هؤلاء التجار الهوسا أثرهم ـ منذ بداية القرن الثامن عشــر ـ في حوض الفولتا الأسود الأوسط، في مجــراه من الشمال إلى الجنوب.(٣)

إن سقوط دولة سنغي على يــد المراكشيين في نهاية القرن الســادس عشر وماتبع ذلك من فــوضى في حوض النيجــر الأوسط، وتدهور حالة الأمن في الصحراء الغربية، أسهم في تحويل المركــز السياسي والتجاري من تنبكت وجاو إلى بلاد الهوسا والــبرنو، فتحركت الطرق الصــحراوية شرقا، وتحــول التيار الرئيس للتجارة من حوض الفولتا الأوسط إلى الشمال الشرقي.(٤)

لقد برزت كــاتسينا، البــوابة الشمــالية لبلاد الهــوسا، كــواحدة من أهم

---

(١) Ibid, pp. 6-7.

(٢) Ibid, p. 12.

(٣) Ibid, p. 89 . وهنا نجد اختلاف الآراء حول مدى أثرهم في داجومبا.

(٤) R. Oliver: The Dawn of African History, p. 65; Ibid, p. 18. K.M. Paniker, op. cit, p. 261.

المراكز التجارية في غربي إفريقية في القرن الثامن عشر بجانب كانو. ومن هذه المدن التجارية انطلقت جحافل قوافلهم المسلمة إلى داجومبا في حوض الفولتا، إلى الجنوب الغربي، متحدين مع تجار الديولا في هدف التجارة ونشر الإسلام، ثم أضحت مجموعة تجار الهوسا تقوم بدور أبرز عندما تقهقر الداجومبا إلى الشرق تحت ضغط الكونجا المعادية، مما أفسح المجال لزيادة في حركة المواصلات على الطريق في بلاد الهوسا وتنشيط تجارتها[1]. وقبل ذلك كانت عاصمة داجوبا القديمة في ينديي - داباري، على طريق تجاري مزدهر يطرقه تجار الماندي إلى جني، وفيها أحياء للتجار.[2]

أما وقد حدث هذا التدهور الذي ذكرناه، فقد تسلمت قبائل الهوسا التجارية الراية، وواصلت الدعوة السلمية للإسلام في هذه المناطق، فقد كانوا من أكثر الشعوب تحملا لمشاق السفر وركوب الأخطار، وأصبحوا يسيطرون على تجارة طويلة في كل المنطقة الشرقية لإفريقية الغربية، ونمت مستعمرات هوسية في كل المراكز التجارية المهمة، وأصبحت لغتهم هي لغة التخاطب المشتركة في الأسواق.[3]

(١) Muslim and Chiefs, p. 103.

(٢) Loc. Cit.

(٣) R.Oliver: The Dawn, op. cit, P.65.

هـ ـ شركة المقري إخوان: نموذج للبيوتات التجارية

في وقت ما من القرن (٦هـ/ ١٠م) بدأ نجم أسرة تجارية يسطع في سماء التجارة بين غربي إفريقية وشمالي إفريقية وأوربة، وتعرف هذه الأسرة بأسرة المقري ـ ولعل النسبة إلى شهاب الدين محمد بن التلمساني المقَّري صاحب كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ـ ومن هذه التجارة نمت ثروتهم.[١]

تبدأ قصة تكوين أحفاد هذا المؤرخ لشركة تجارية عندما مات أحد أفراد هذه الأسرة ويسمى عبدالرحمن[٢]، وترك خمسة أبناء، اتفقوا على تكوين شركة تجارية. وكان الاتفاق أن يبقى اثنان منهم في تلمسان[٣]، وهي في ذلك الوقت ميناء رئيس على البحر الأبيض لتجارة أوربة، ويبقى واحد في سجلماسة[٤]، ويذهب اثنان إلى والاتا[٥] في الصحراء.[٦]

---

(١) See. Lugard, op. cit., pp. 100-104.
والذي يحكي تاريخ هذه الشركة أحد أحفاد هذه الأسرة في القرن الرابع عشر (١٣٥٦م)، إذ كان قاضيا لمحكمة عليا بفاس، كما يذكر المرجع نفسه، ص١٠٣.

(٢) Loc. cit. والقاضي الذي كتب وصفا لهذه الشركة هو السادس في سلسلة أحفاد عبدالرحمن مؤسس الشركة، وإذا جعلنا مدة ثلاثين عاما لكل جيل فهذا سيرجعنا إلى سنة ١١٠٠م، وهذا التاريخ يدل على أن هذه الشركة قد قامت بدور مهم في إنعاش التجارة بعد الركود الذي انتابها بعد سقوط دولة غانة وقيام دولة مالي وهيمنتها على هذه المنطقة. See: Ibid, p. 103

(٣) عن وصف هذه المدينة انظر: الإدريسي، المغرب، مصدر سبق ذكره، ص ص٨٠ ـ ٨١؛ دائرة المعارف الإسلامية، مادة «تلمسان».

(٤) كانت هذه المدينة هي مركز الشركة، وفيها تحدد الأسعار ومتطلبات السوق الأوربية والإفريقية. انظر: paniker, op. cit., p. 265؛ الدكتور زاهر رياض: الممالك الإسلامية في غرب إفريقية، ص١٢٩.

(٥) ابن بطوطة يسميها (إيولاتن).

(٦) L ugard, op. cit, p. 101, Paniker, op. cit. p. 265.

وفعلوا حسب الاتفاق. وكان الذي في سجلماسة يمثل قطب الرحى الذي يمد الآخرين بمعلومات خاصة بظروف التجارة كلها وما يحيط بذلك من ظروف سياسية أيضا، ونجحوا بهذه الطريقة.

ومثل تجار اليوم حاول أحد هؤلاء الإخوة التوغل جنوبا فوصل إلى عاصمة الماندنجو - مالي. ولم تكن لهم مشكلة في هذه العاصمة، إذ كانت شركتهم معروفة هناك(١). وكانت الجالية العربية التجارية في ذات العاصمة منسجمة بعضها مع بعض ولهم نقابتهم. وفي عهد السلطان سليمان كان رئيس الجالية العربية بمالي هو محمد بن فقيه الجزولي، وهو مراكشي، ووصل الأمر إلى أن تزوج هذا المراكشي بنت عم السلطان سليمان.(٢)

وكانت منظمات التجار قوية في والاتا، وهذا يظهر من وصف لحادث وقع فيها عندما هاجم الملك التكروري المجاور للمدينة واستولى عليها ووضع أرواح التجار العرب وأملاكهم في خطر، ومن بينهم شركة المقري. وكما يحكي عبدالرحمن، فإن التجار اجتمعوا وقرروا الدفاع عن أنفسهم في مخازنهم، وقرروا الحرب إذا دعت الضرورة. وأخيرا وبعد محادثة الشريك الرئيس في هذه الشركة مع الملك الغازي وافق الملك على بسط حمايته على الشركة وعاملهم من ذلك الحين باحترام زائد. وكان يكتب مرارا للشركاء الذين بتلمسان يطلب مباشرة بضائع يظن أنها مناسبة لبلاده.(٣)

---

(١) Paniker Loc. Cit. يرى بانكر أن هذا الشريك المقري وصل إلى مالي سنة ١٣٥٢م، ولا يتفق هذا مع رأي لوجارد الذي يقول إن زمان قيام هذه الشركة هو القرن الثاني عشر، مع ذكر ما يدعم هذا الرأي، وقد ذكرناه سابقا.

(٢) Loc. Cit.؛ ابن بطوطة، مصدر سبق ذكره، ص٤٤٤.

(٣) Lugard, op. cit. p. 102.

ويبدو أن هذا التطور السياسي قد وسع كثيراً من نطاق المعاملات التجارية لمؤسسة المقري، إذ إن عواقب الطريق أصبحت آمنة لأنها في حماية الملوك، مما جلب الفائدة لهم وللسكان في غربي إفريقية[١]. ولابد أن نفهم أن التجارة الصحراوية كانت في الغالب يرثى لها قبل شركة المقري إخوان. فلم يكن التجار كليا يعرفون الاحتياجات الحقيقية للسكان في غربي أفريقية، فلربما يجلبون بضائع لاتستعمل هنا، أو لاقيمة لها عندهم. أما شركة المقري فقد أمدتهم بسلع لم يروها من قبل، وحصلوا على فوائد كبيرة في المقابل[٢]. إن هذه الطريقة في إدارة التجارة تحمل دلالة عميقة بأن العرب الأوائل من التجار، ومن خلال شركاتهم ومنظماتهم وجدوا أنه من المهم - مثل الشركات الأوربية فيما بعد - أن يكتسبوا نفوذا سياسيا بجانب النفوذ التجاري، وأن الطبقة الممتازة من التجار مارسوا طريقة حكيمة فيما يختص بدرجات ونوعية السلع التي يدخلونها إلى بلدان غربي إفريقية[٣]، وهذا بعينه ماتقوم عليه التجارة في عصرنا الحاضر.

وفي رواية عبدالرحمن عن تاريخ أسرته التجارية، نرى بوضوح قِدَمَ إقامة الجاليات التجارية في مملكة غانا، وأن ذكر غزوة ذلك الملك الذي لم يذكر اسمه لدولة غانا، يجعلنا نطمئن إلى قدم هذه العلاقة، لأن غانا هاجمها الصوصو أولا ثم مالي، وقد حدث الهجوم الأول في القرن (٦هـ/ ١٢م) والثاني في القرن (٧هـ/ ١٣م)[٤]. وإن قدم العلاقات التجارية المنظمة مع دولة

(١) Loc. cit.

(٢) Ibid, pp. 102 - 103.

(٣) See: Ibid, p. 103.

(٤) See: Loc, cit.

غانا يعني مـانرمي إليه من التطرق لهذه الأسـرة التجارية وغـيرها[1]، بأنه عن طريق القوافل التجـار ية عبرت الأفكار والمبادئ إلى بلدان غربي إفريـقية حتى يظهر في يوم من الأيام إنتاج علمي نتيجة لقيام مجتمع إسلامي وتعليم ديني.

(١) انظر: الدكتور زاهر رياض، الممالك الإسلاميـة، مرجع سبق ذكره ص١٢٩. وفي هذا المرجع يقول «بوفل» بأنه لابد أنه كان هناك آخرون مثل إخوان المقـري إلى حد أن أبا هشام ملك تلمسان تذكرهم حين قال في بداية القرن الخـامس عشر إنه يسره أن ينفي جميع التجـار إلا هؤلاء الذين يتاجرون مع غربي إفريقية، لأنهم سبب ثروة مملكته، بينما الآخرون يفقرونها.

المبحـــث الثانـــي



العلماء الدعاة المعلمون[1]

سنتكلم هنا على العلماء الدعاة المعلمين الذين كانت لهم صلة بالتجار والتجارة، أو أوفدتهم بعض دول شمالي إفريقية إلى غربي إفريقية للدعوة الإسلامية، وسأترك دور العلماء الذين أقاموا في المراكز الإسلامية وقاموا بالتدريس في غربي إفريقية إلى الفصول التالية، فلقد كان لمثل هؤلاء الدعاة الذين سأتكلم عنهم دورهم البارز في إسلام هذه المنطقة منذ زمن مبكر، وكان الداعية والتاجر أحيانا يمثلان شخصا واحدا ويصعب التفريق بينهما[2]، لذا ربطناهم هنا بالتجارة.

لقد لوحظ أن بعض القوافل التجارية كانت تضم بعض أفراد من الدعاة، وكان يتفاوت عددهم، فيكون أحيانا واحدا فقط[3]، ولأنه متعلم فهو الذي يقوم بحفظ السجلات التجارية، ولأنه رجل علم بالدين فهو الذي يتبرك به في اختيار اليوم المناسب لتحرك القافلة، وهو الذي يضفي جوا روحيا وسط القافلة بدعواته ومواعظه وحكمه حتى تقوى النفوس على مخاطر الطريق[4]. ومن خلال هؤلاء المعلمين، وبجانب التجار، ترك الإسلام آثارا واضحة على طول

---

(١) انظر: توماس آرنولد: الدعوة إلى الإسلام (مترجم)، ص ص٤٤٩-٤٥٤، فهو يتكلم هنا عن وجود الدعاة المسلمين دون أن تضمهم هيئة كما عند المسيحيين، وأن مسؤولية الدعوة فردية يقوم بها الرجل والمرأة. وأورد نماذجَ للدعاة وأثرهم في آسيا وإفريقية، ولم يغفل ربط التاجر المسلم بقضية الدعوة إلى الإسلام.

(٢) See: I. M. Lewis: Islam in Tropical Africa, op. cit, p. 20; E.W. Blyden: Christianity, Islam and the Negro Race, p.11.

الشماخي، مصدر سبق ذكره، الصفحات ٢٧٨، ٢٧٩، ٣١٢، ٤٥٧، ٥٤٩.

J.S. Trimingham: Islam in W.A., op. cit. p. 32.

(٣) J.S. Trimingham: The Influence of Islam Upon Africa p. 39.

(٤) Levtzion: Muslim Ghiefs, op. cit. p. 23.

الطرق التجارية. ومادام ليس هناك غرض مباشر لهؤلاء المعلمين في التجارة نفسها فإنهم أحيانا يتركون القافلة في طريقها عندما يجدون زعيما محليا يمكنهم أن يقدموا له الخدمات الدينية، فيعطى المعلم زوجة، وغالبا ماتكون بنت الزعيم العشائري، فينشأ مجتمع إسلامي صغير حيث لم يكن قد عاش مسلمون هنا من قبل[١]. وهذا دليل قوي على الجهد المثمر للمعلمين والدعاة المسلمين في بلاد غربي إفريقية.

ولعل من أبرز خصائص انتشار الإسلام في بلاد غربي إفريقية أنه لم يكن يبدأ دائما بالطبقة العليا والأسر الحاكمة ثم ينتشر، ولا نذهب مع من يرى عكس ذلك.[٢]

وعن طريق هؤلاء الدعاة والتجار انتشر الإسلام في زمان مبكر كما قلنا، والشاهد على ذلك وجود شواهد قبور كشف النقاب عنها بمنطقة النيجر،

---

(١) Loc. cit.
See. Trimingham: The Influence, op. cit. p. 39.
Muslim Chiefs, op. cit. p. 23; Islam in W.A. op. cit. p. 32.
البكري، المغرب، مصدر سبق ذكره، ص١٧٨.

(٢) انظر: عصمت عبداللطيف دندش. دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقية، رسالة ماجستير غير منشورة بمعهد الدراسات الإفريقية بالقاهرة سنة ١٩٧٥م، ص١٦٧، ومرجعها في هذا:
Chailley: Marcel, Histoire de l'Africa Occidental Francaise, p. 33.
والدليل على ذلك أن البكري يروي أن غانة مدينتان إحداهما للمسلمين والثانية للكفار، وأن الملك وبطانته من هؤلاء الكفار.
انظر: البكري، المغرب، ص١٧٥ و١٧٦، ودليل آخر من البكري هو أن ملك مالي أسلم على يد ضيف من المسلمين وكان عنده يقرئ القرآن ويعلم السنة. فقد كان يعلم السنة ويقرى القرآن لشعب مَلِكُه غير مسلم ولا يملك غير المسلمين، وأن كوكو أيضا مدينتان إحداهما للمسلمين والملك والأخرى لغير المسلمين. وفي هذا دليل على أن الملك أو الطبقة العليا يمكن أن تكون مع جزء من الشعب والعكس صحيح كما رأينا. ويذكر السعدي أن ملك جني أسلم في القرن السادس الهجري (١٢م) على الرغم من وجود علماء كثيرين في دولته ووجود مجتمع مسلم.
انظر: تاريخ السودان، مصدر سبق ذكره، ص١٢. لذا لا نذهب مع الباحثة دندش في التعميم.
انظر: البكري ص١٨٣.

وتحمل تاريخ سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م[١]. كما عثر على شـواهد قبور منذ عهد المرابطين أيضا في منطقة النيجر الأوسط، منقوشة بالعربية والإسبانية.[٢]

وعندما سقطـت مدينة أودغست[٣] في يد المرابطين انطلقت موجات من دعاة المرابطين إلى بـلاد غربي إفريقـية[٤]. ولم يتـوقف سيل الدعاة عـلى مر العصور إلى زمـاننا هذا، ولقبائل موريتانيا ذات الأصل البـربري دورها الفعال في مجال الدعـوة والتجارة لاسيمـا قبائل الزوايا[٥]، بل إن شهرة هذه المنطقة عامـة وأودغست خاصة يرجع إلى أنهـا كانت آهلة بالمعلمين للقرآن حـتى قبل قيام المرابطين.[٦]

وكـان الدعاة يتـدفقـون من كل حدب وصـوب. وهناك روايات ترجع الفضل في تأسيس جـالية إسلامية بمدينة سلقا التجـارية إلى معلم عربي أبيض جاء من بلاد الهوسا، وأن أحفاده في سلقـا يعرفون بـ«ماقاجي ـ ن ـ باتور»، أي وارثي العـربـي أو الرجل الأبيض. ويقـال إن بـاتور هذا بنى مـنازل له

---

(١) Trimingham: A History of Islam in W.A., op. cit. P. 160.

(٢) Davidson: The Lost Cities of Africa, pp. 98-90.

يذكر ديفدسـون هنا بأن ذلك وجد سنة ١٩٣٩م في مدينة Sane على بعد أربعة أميال من منتصف مدينة جاو الحاليـة، وعليها تاريخ الجزء الأول من القرن الثاني عشـر، والنص المنقوش هو: «هنا قبة الملك الذي حمى دين جاو والذي سكن إلى الله، أبوعبدالله محمد».

(٣) انظر: نعـيم قـداح، مـرجع سـبـق ذكـره، ص٤٠، دائرة المعـارف، الإدريسي المغـرب، ص٣٢، أبوالفداء، مصدر سبق ذكره، ص٢٢.

(٤) انظر: د. حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، ص ص٢٣٤ ـ ٢٣٥.

(٥) See: Philip D. Curtin: "Jihad in W. A.", J.A.H. (1971), pp. 12-13, 14.

(٦) وحسبما جاء في الروايات أن مملكة أودغست دخلهـا الإسلام قبل المرابطين بقرن من الزمان، ومعنى هذا أن هذه الدولة قد أسـهمت بنصيب مـا في نشر الإسلام والتعـريف به في بلاد غربي إفريقـية، فإسلام الملك الخامس من سلسلة ملوك سنـغي، وهو السلطان زاكاسي، أسلم حوالي عام ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م، وهذا قـبل مجيء المرابـطين. انظر: البكري، مصـدر سـبق ذكره، ١٥٨. د. طرخـان: الإسلام واللغة العربية في غرب إفريقية، مرجع سبق ذكره، ص٢٥٥.

ولأولاده، وسوقا صغيرة بالإضافة إلى مكان لضيوفه.[1]

وجاء المعلم جـديا إثْر باتور قادمـا من قريتـه بالقرب من كاتـسينا، وله الفضل في بناء المسجـد الجامع لأداء صلاة الجمعـة في سلقا، وتلا قدوم هذين المعلمين وفود جماعات من مسلمي البرنو إلى منطقة سلقا.[2]

وكان الداعـية المسلم يتصف بسـمت وأخلاق تدعو للإعجـاب، وتجذب إليه الناس، ملابس فـضفاضة وأخلاق سامـية، وشخصية مؤثرة جـذابة، وفيه كرم وإيثار، يباشر دعوته مع تجارة يزاولها، وأحيانا يتفرغ للدعوة والتعليم، فإن كان تاجـرا كان الصـدق دينه والأمانة دسـتوره، وإن كان مـعلما جـمع حوله مجـموعة مـن الصبيـة والشباب سـرعان مـا يظهر امتـيازهم عن رفـاقهم ممن لايتبعونه، وهذا يجذب إليه نفرا جـديدا كل يوم للانضمام إلى حلقته، وعندما يجن الليل ويتـوقف التاجـر عن البيع والشـراء، وينصرف عن المعلـم مريدوه وتلاميـذه، نجد حول المعلم والتاجـر جموعـا جديدة من الرفاق فيـما يمكن أن يسمى «صـالونا أدبيا» يتسع يومـا بعد يوم، وتنبثق عنه صـالونات جديدة تزيد انتشار الدعوة الإسلامية.[3]

وعندما تكون القرية الصغيرة خالية من المساجد التي يمكن أن تكون مقرا للدراسة، أو تنعدم فيـها المدارس القرآنية المعروفة بالكتّـاب، نجد أن أطفالَ مثلِ هذه القرى الصغيـرة يتلقون تعليمهم على يد أحد الدعاة في ساحـة صغيرة في الحي.[4]

---

(١) Levtzion: Muslim & Chiefs, op. cit. p. 27.

(٢) Ibid, p. 28.

(٣) الدكتور شلبي، مرجع سبق ذكره، ص١٦٤.

(٤) قداح، مرجع سبق ذكره، ص١٤١.

وخلاصة القول: إن الداعية والتاجر تبـادلا مهمة نشر الدعوة الإسلامية وقاما بدورهما الفعال في تأصيل الإســلام وعلومه، والمساعدة على إنماء مراكز إسلامية ثقافية في غربي إفـريقية، وكانوا بحق المشاعل التي أضاءت أرجاء هذا الجزء البعيد من العالم الإسلامي.



المبحـــث الثالـــث



المرابطــون

لم يكن نفوذ البربر ـ أصل دولة المرابطين ـ مقصورا على الأقاليم التي تمتـد على ساحل البـحر الأبيض المتـوسط، فالمعـروف أن أول من ملك منهم الصحـراء زعيم اسمـه تيولثـان، ت ٢٢٢هـ/ ٨٣٦م، كما تذكـر المصادر.[١] وملك بعده حفيده «بلثان» ت ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م[٢]، ثم ابنه نضيم بن الأثير عام ٣٠٦هـ/ ٩١٨م. ثم ظلوا في تفكك مـئة وعـشرين عـاما إلى أن قـام فيـهم أبوعبـدالله محمد بن ثيـفات، وحج ثم توفي بعد ثلاثة أعوام من رياسـته في جهاده من غـربي إفريقية (السـودان). وقام بأمرهم من بعده صـهره يحيى بن إبراهيم.[٣]

وكان لهؤلاء البربر، وخاصة تجـارهم ودعاتهم، الفضل في إسلام غربي إفريقيـة كما رأينا. ولم يقف هذا الدور على الرغم من قـيام حركة اصـلاحية منظمة عـرفت بـ«المرابطين»، أعطت للإسلام دفـعة قوية في غربي إفريقـية،

---

(١) صبـح الأعشى، جـ٥، مـصدر سـبق ذكره، ص١٨٩، ابن أبي دينار: المؤنس في أخـبار إفـريقـية وتونس، ص١٠١ نصه: (أول من تملك منهم بالصحراء تيولثان بن تيكلان، ملك الصحراء بأسرها، ودانت له ملوك السودان وأدوا له الجزية. وكان يركب في مئة ألف نجيب، وكان في أيام عبدالرحمن الداخل (ت٢٢٢هـ)، انظر، البكري، المغرب، مصـدر سبق ذكره، ص١٥٩، ولكن البكري لا يقول بأن أول من ملك الصحراء هو فلان كما ذكر القلقشندي وابن أبي دينار ولكنه يقول: «وكان صاحب أودغست في عشر الخمسين وثلاثمـئة تين يروتان بن وينو بن نزار رجل من صنهاجة وكان قد دان له أزيد من عشـرين ملكا من ملوك السودان. كلهم يؤدي إليـه الجزية، وكان عملـه مسيرة شـهرين في مثلها عمارة يعتد في مئة ألف نجيب» ولعل هذا الملك المذكور في نفس الأسرة، خاصة وأنه حكم في القرن الرابع الهجري، وحكم بتلوتان في القرن الثالث الهجري.

(٢) المؤنس، المصدر نفسه، ص١٠١.

(٣) صبح الأعشى، المصدر السابـق، ص١٨٩، محمد عبدالفتاح إبراهيم: إفريقـية من السنغال إلى نهر جوبا، مرجع سبق ذكره، ص ص٩٩ـ١٠٠، المؤنس المصدر السابق، ص١٠١.

عندما أزالت كثيـرا من المعوقات، وخلاصتها: أنـه في القرن التاسع الميلادي، اتحدت قبائل صنهاجة ولمتونة ومـسوفة وجدالة البربرية. وكان هدف هذا الاتحاد هو العمل على تنظيم تجـارة القوافل عبر الصحـراء، فيما بين أقـصى الشمال حيث منطقـة والاتا، وأقصى الجنوب حيث كانت تـقع مملكة غانا. ولم يكتب لهذا الاتحاد عـمر طويل، فوهن أثره، ثم تلاشى، فانتهزت غـانا تلك الفرصة فازدهرت وتسلطت علـى بعض أجزاء الصحـراء التي يؤمها تجـار القوافل من البربر والعرب.[1]

ومما سبق يظهر لنا جليا مدى أهمية السيطرة على طرق القوافل التجارية، إذ إنها كانت الدعامة الأولى التي يجب ضمانها لقيام أي كيان بربري في شمال منطقة السافنا، وبذلـك كانت هذه التجارة مصدر الـقوة لكل الدول التي قامت سـواء جنوب الصحـراء الكبـرى أو شمـالها. فكانـت الضرائب تفـرض على القـوافل المارة بمنطقة البـربر[2]. ويبـدو أنه في سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م حـدثت خلافات داخليـة بين صنهاجة أدت إلى اضطراب المسالك التـجارية، مما أفسح المجال للسوننكة في غانا أن يسيطروا على مدينة أودغست، وعينوا حاكما زنجيا عليها، مما استـوجب بعد ذلك على صنهاجة أن يستعيدوا هذه المدينـة لأهميتها كنقطة لطرق القوافل التجارية.[3]

وفي سنة ٤١١هـ/ ١٠٢٠م واجـه زعـمـاء لمتـونة وجـدالة ومـسـوفـة الصنهاجيـة قوة غانا النامية، فعـادوا ثانية لتوحيد صفـوفهم لصد هذا الخطر، يقودهم تارسينا الصنهاجي المسلم والذي تشبع بروح الإسلام والإصلاح والجهاد

(١) د. زكي، الإسلام والمسلمون، مرجع سبق ذكره، ص٦.
(٢) Trimingham, Islam in W.A, op. cit, p.52.

بعد حجته إلى مكة. حارب البربر دولة غانا في معارك دامية راح ضحيتها تارسينا نفسه سنة ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م[١]. وكان تارسينا أول من بذر بذور الجهاد في غربي إفريقية وتبعه الرجل الثاني، يحيى بن إبراهيم، شيخ جدالة، وزوج ابنته، ليكمل رسالته.[٢]

وبعد تمحيص وبحث عَمَّن يشاركه حمل أعباء الدعوة وقع الاختيار على عبدالله بن ياسين الجذلي، الذي لجأ إلى رباط في السنغال بعد فشله في الدعوة بين أهله الملثمين المنتشرين في الصحراء، وأخيرا قويت شوكته وتكونت أول نواة لدولة المرابطين التي اتسعت فيما بعد حتى الأندلس. وقضت على غانا سياسيا.[٣]

ونتيجة لقيام الدولة القوية، ولوحدة قبائل الصحراء الصنهاجية في وجه الأعداء، تمكن المرابطون من فتح مدينة أودغست عام ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م، وعاقبوها بدفع الجزية على خضوعها لإمبراطورية غانا واستسلامها لها، وبعد ذلك اتجهوا إلى كومبي صالح عاصمة غانا، واقتحموها سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م، فاقاموا عليها حاكما مسلما، ومنذ ذلك الوقت أضحى ملوك غانا من المسلمين، حتى عندما انفصلوا عن دولة المرابطين سنة ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م،

---

(٣) الإسلام والمسلمون، المرجع السابق، المكان نفسه.

(١) المكان نفسه.

(٢) المرجع نفسه، ص ص٦ـ٧.

(٣) عن ظروف وتطورات هذا التمحيص والبحث انظر: ابن أبي دينار، مصدر سبق ذكره، ص ص١٠١ـ١٠٤. وعن قيام هذه الدولة انظر: د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين، مصدر سبق ذكره. وهو أطروحته للدكتوراه، صبح الأعشى، جـ٥، مصدر سبق ذكره، ص١٨٩، البكري، المغرب، مصدر سبق ذكره، ص ص١٦٥ـ١٦٨.

يلاحظ أن الكعاك في كتابه «مراكز الثقافة» يسمي عبدالله بن ياسين بـ«محمد بن ياسين»، ولعله يقصد «أبامحمد عبدالله بن ياسين»، كما جاء في المصادر والمراجع كلها.

ولكنهم أعلنوا تبعيتهم للخليفة العباسي في بغداد مباشرة.[1]

وبعد سقوط غانا نشطت الدعوة أكثر مما كان في السابق. وبهذا كان دور المرابطين دورا تكميليا لما سبقهم به التجار والدعاة منذ زمن طويل.

(١) انظر: ابن خلدون ـ العبر، جـ٦، مصدر سبق ذكره، ص٤١٣، ٤٣٧.

المبحث الرابع



الفــرقــة الســنوسـية

تنسب السنوسية إلى السنوسي بـن العربي جد مؤسسها مـحمد بن علي ابن السنوسي، وينتـهي بنسبه إلى الأدارسـة. وقد ولد مؤسس السنوسـية سنة ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م في بلدة مستـغانم بالجزائر، وتلقى بها مـبادئ الدراسة، ثم رحل إلى فاس حـيث التحق بجامـعة القرويـين، ورحل بعد ذلك إلى الأزهر فتعلم به وعلـم، ثم سافر إلى الحجاز حـيث التقى بكبار المشايخ واسـتفاد من علمهم وأعجب الكثيرين منهم، وأدرك السنوسي حـاجة الدعوة الإسلامية إلى الإصلاح، فراح يعمل لذلك بحزم وإصرار.[1]

وفي سنة ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م أسس الـسنوسي فـرقـة دينيـة تسـعى إلى الإصـلاح الديني. ولم يمت سنة ١٢٧٦هـ/ ١٨٥٩م حـتى كـان قـد نجح في تأسيس دولة دينية دون إراقة دماء، انتقل مركزها أخيرا إلى واحة جغبوب، في الصحراء الليبية، بين مصر وطرابلس، ومع أنها كانت في البداية حركة إصلاح داخلية في الإسلام نفسه، أصبحت إلى جـانب ذلك حركة لنشر تعاليم الدعوة إلى الإسلام، وأصبحت عدة قبائل إفريقية كانت من قبل وثنية أو مسلمة اسميا من أتباع الإسلام المتحمسين منذ أن حل فيهم دعاة السنوسية[2]، وتغير أسلوب حياتهم وأصبـحوا أكثر رقيا وتحضرا من غـيرهم ممن يحيطيون بهم، وليس أدل على ذلك مما يقرره رحـالة حديث هو (جوزيف تومســون) من أنه عندما دخل السودان الأوسط (يعني منطقة بحـيرة تشاد الحالية) وجد نفـسه في دولة أحسن

---

(١) الدكتور شلبي: مرجع سبق ذكره، ص٢١٦.

(٢) آرنولد، مرجع سابق، ص ص٣٧١ـ٣٧٢. بتصرف.

نسبيا من غيرها في طريقة حكمها، غـاصة بجماعة نشطة من التجار الأذكياء، وأناس مـهرة في صناعـة المنسوجـات والنحاس والجلد، وقـال إنهم في الواقع شعـب تقدم تقـدما عظيـما في مراقـي الحضارة والمدنـية[1]، وكل هذا يرجع الفضل فيه إلـى الطريقة السنوسية، حيث إن هذه المنطقة تقع فـي مركز نفوذها المبـاشر جنوبا، في منطقـة كـانم وبرنو وواداي وباجرمي ودارفـور، وأنه على العموم كانت السنوسـية تنتشر في المنطقة المحصورة بين سـاحل البحر وحوض النيجر، وينشرون زواياهم في واحات هذه الأجزاء.[2]

ومما لاشك فيـه أن قدرة الإدارة المنظمـة لهذه الطريقة في السـيطرة على الطرق التـجارية في هذه المنطقـة، وبسط سيادتـها ونفوذها على هـذا الشريان المهم، جعل من الميـسور على هذه الطريقة أن تمارس رسالتـها. وفي ضوء هذا المفهـوم يذكر الدكـتور شكري[3]، من أنه ليس هناك أدل على مـقدار مـابلغه سلطان السنوسيـة من الطريقة التي توصل لهـا هؤلاء الشيوخ أو الزعـماء إلى تأمين طرق القوافل في قلب الصـحراء الكبرى في إفريقيـة. . . فلم تكن قافلة تأمن على متـاجرها وأموالها ورجـالها إلا إذا أخذت قـبل قيامهـا وتوغلها في الصحراء أذونات أو جوازات مرور حتى تتمكن من اجتياز أرض قبائل الطوارق وغيرها بـأمن وسلام، لأن هذه القبائل كـانت تحترم أذونات شيوخ السـنوسية وتعمل بمقتضاها. ومن المعـروف أنه لم يسبق أن انضوت هذه القبائل تحت لواء أي سلطان آخر قبل ذلك، وعلى هذا فقد أصبحت السبل آمنة فيما بين إفريقية

---

(١) المرجع نفسه، ص٣٧٣. بتصرف.

(٢) الدكتور زاهر رياض: استعمار إفريقية.

(٣) الدكتور محمد فؤاد شكري: السـنوسية دين ودولة. القاهرة ١٩٤٨. الناشر: دار الفكر العربي، ص ص٥١ ـ ٥٢.

الوسطى والشمالية، بل أصبحت القبائل التي كانت صاحبة الجسارة الكبرى على النهب وقطع الطريق هي القوة المحافظة على الأمن بتلك المفاوز والصحاري.

واذا أخذنا مثالاً للمقارنة بين الدولة السنوسية ودولة أخرى لها ظروفها نفسها، أمكننا أن نقول إن دولة الدامر أيام مملكة الفونج الإسلامية كانت أشبه جدا بدولة السنوسية، ففيها يبدو لنا جليا أهمية التجارة في عناصرها الحضارية، إذ إن شؤون دويلة الدامر كان على رأسها الفكي الكبير، وهو زعيم روحي ينال احترام أهل دويلته وجيرانها، فلا يتعرضون لتجارته، خوفا من سطوته وخوارقه، وكانت تسيطر على طرق تجارية مهمة تخدم اقتصاديات سودان وادي النيل الأوسط.(1)

وفوق ما ذكرنا، فقد عمد السنوسي إلى وسيلة مباشرة في بسط نفوذه فيما وراء الصحراء، وخاصة في واداي(2). فقد اشترى قافلة من عبيد البرقو، كان البدو قد استولوا عليها عند حدود مصر، وجاء بأفرادها إلى «جغبوب» حيث تشربوا تعاليم السنوسية، ثم أعتقوا فعادوا إلى بلادهم دعاة مبشرين، وراح أهل واداي منذ ذلك الحين يفدون إلى جغبوب ثم «الكُفْرَة» لطَلَب العلم، كما أقبلوا على الخدمة في الزوايا السنوسية.(3)

وكان السنوسي الأكبر قد التقى أثناء إقامته بمكة الأمير محمد شريف، الذي أصبح سلطانا على واداي في سنة ١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م، فصادقه زمنا ثم

(١) انظر: Grawford, O.G.S.: The Fung Kingdom of Sennar (Gloucester 1951) pp. 56-57.

(٢) موسى المبارك الحسن: تاريخ دارفور السياسي (رسالة ماجستير مطبوعة) الخرطوم، لم تذكر سنة الطبع. الناشر: قسم التأليف والنشر بجامعة الخرطوم، ص ص١٠-١١، ومرجعه:
The Encyclobedia of Islam, (London 1934) Vol. IV. p. 1075.

(٣) محمد فؤاد شكري، مرجع سابق، ص٣٩.

بايعه مريدا من مريديه، فلم يأل السلطان محمد شريف جهدا في تأييد السنوسية بين رعيته[1]، وازداد نشاط السنوسيين في سلطنات إفريقية المسلمة في عهد السنوسي المهدي، الذي انتدب اثنين من كبار أعوانه إلى كانم وباجرمي، فاتخذ منهما مركزين لنشر الدعوة في كل اتجاه، حتى بلغت دارفور شرقا[2]؛ وكذلك قوي نفوذ السنوسية في واداي حتى إن السنوسي المهدي تدخل تدخلا فعالا في نزاع نشب حول عرشها سنة ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م، وفرض مرشحه السلطان محمد يوسف بن محمد شريف الذي أصبح تابعاً وفياً للسنوسي.[3]

---

(١) المرجع نفسه، ص٣٩.
(٢) موسى المبارك الحسن: مرجع سبق ذكره، ص١١، ومرجعه: برتشادر، ص٢٢.
(٣) المرجع نفسه، ص١٠٩.

المبحث الخامس

الهجرات الإسلامية

يلحظ القارئ لهذا الكتاب، وخاصة فيما يتعلق بنشأة المراكز التجارية الثقافية في غربي إفريقية، وجود جاليات من المسلمين العرب والبربر كانوا سبباً في نشأة تلك المراكز، ونواة أساسية في غرس الحضارة الإسلامية العربية فيها. وقد تعددت أسباب هجرة أفراد هذه الجاليات إلى هذه المناطق، منها الأسباب الاقتصادية والدينية والسياسية. وأشار بعض المؤرخين إلى تاريخ بعض هذه الهجرات، ومثال ذلك ماذكره البكري[1] من أن ببلاد غانا قوماً يسمون بالهنيهين، من ذرية الجيش الذي كان بنو أمية أنفذوه إلى غانا في صدر الإسلام، وأن بمدينة (سلى) قوماً منهم يعرفون بالغامان.

وهاجر جماعة من العرب وأهل شمالي إفريقية من قبائل زناتة وبرفجانة ونفوسة ولواتة، ونفزاوة وغيرهم من سائر الأمصار، هاجروا إلى مدينة أودغست، وأصبحوا يشكلون جزءاً كبيراً من مواطنيها.[2]

وهاجرت مجموعات من بطون قبائل صنهاجة الملثمين المسلمين إلى بلدان غربي إفريقية التي حول نهري السنغال والنيجر، وكانت عاملاً مهماً في نشر الإسلام في هذه المناطق.[3]

وهاجرت فروع من قبيلة مسوفة الصنهاجية، إلى غربي إفريقية، واستقر بعضهم بمدينة والاتا (أو أيوالاتن)، وشكلوا غالبية قاطنيها[4]، واستقر بعضهم

(١) المغرب: مصدر سبق ذكره، ص ١٧٩.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٨، ١٦٨. تكلمنا على هذه المدينة عند الكلام عن المرابطين وإمبراطورية غانة.
(٣) انظر: ابن خلدون: العبر، مصدر سبق ذكره، ٦/ ١٨١.
(٤) ابن بطوطة: الرحلة، ص٦٧٧، ٦٨٤.

بمدينة مالي[1]، وأسس بعضهم مدينة تنبكت.[2]

وهاجر بعض المسلمين البربر والعرب إلى مدينة (جني)، واستقروا بها.[3]

وهاجر جماعات كبيرة من المسلمين العرب والبربر إلى مدينة مالي، وعرفوا هناك بالبيضان، واتخذوا لأنفسهم حياً خاصاً بهم في هذه المدينة. وذكر ابن بطوطة[4] أنه كتب إلى نفر منهم ليستأجروا له منزلاً نزل فيه مدة إقامته بالعاصمة المالية. وعندما وصل إليهم وأقام بينهم لاحظ أن ملك البلاد ـ منسا موسى ـ كان يحب البيضان ويحسن معاملتهم.[5]

وهاجر بعض المسلمين البربر والعرب إلى مدينة (كوكو) بغربي إفريقية، واستقروا بها، وبنوا مسجداً في حيهم، يصلون فيه، وينطلقون منه إلى نشر الإسلام وتعاليمه.[6]

وهاجر بعض بني وارث المسلمين الصنهاجيين إلى مدينة (بانكلايين) وأقاموا بها.[7]

وذكر البكري[8] أن بني مداسة الصنهاجيين المسلمين قد وصلوا في هجرتهم إلى شاطئ نهر النيجر واستقروا عليه، وأن بني سغمارة البربر المسلمين، وصلوا في هجرتهم حتى جنوبي منحنى النيجر بثلاث مراحل، وأقاموا هناك.

---

(١) المصدر والمكان نفساهما.

(٢) السعدي: تاريخ السودان، ص٣٠.

(٣) المصدر نفسه، ص١٨.

(٤) الرحلة: ص ص٦٨٠ ـ ٦٨١، ص٦٨٩.

(٥) المصدر نفسه، ص ٦٧٧.

(٦) البكري: المغرب، ص١٦٤.

(٧) المصدر نفسه، ص١٨٠، ١٨٣.

(٨) انظر في هذا، ابن بطوطة: الرحلة، ص٦٨١.

واخـتلط هؤلاء المسلمـون من البـربر والعـرب بأهل البـلاد الأصليين، وتزاوجوا معهم، ومثال ذلك أن أحـدهم تزوج ببنت عم منسا سليمان، حاكم مـالي، كمـا سبق ذكـره، ونشروا الإسـلام وحـضارته بين سكان هذه البـلاد وتحاكموا بشرع الإسلام.[1]

(١) انظر: السعدي: تاريخ السودان، ص١٨.



الفصل الثاني

أسباب نجاح تغلغل الإسلام وتعاليمه
في غربي إفريقية



المبحـــث الأول

الدوافـــع

إن التجار والدعاة والعلماء المسلـمين من كل مذهب وفرقة هم أفراد من المجتـمع الإسلامي، منوط بهم حمل رسـالة الإسلام إلى من يلتـقون بهم أنى حلوا، لأنه، كمـا نعلم، ليس في الإسلام طبـقة متـخصصـة في الدعوة إلى الإسلام مثل طبقة الكهنوت في الديانات الأخرى السماوية(1)، بل إن المسؤولية ملقاة على عاتق الأفـراد من كل الفئات والطبقات، فهم مكلفـون بأمر الدعوة من الله سبحانه وتعالى سلـميا. وفي هذا يقول الله تعالى ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٢٥].

وهناك حـقيقـة واقعـية وهي أن الإسـلام، منذ بدء ظهوره، دين دعـوة من الناحيتين النظرية والتطبيقية. وقـد كانت حياة الرسول عليه الصلاة والسلام تمثل هذه التعـاليم ذاتها. وكان النبي ﷺ نفـسه يقوم على رأس طبـقات متـعاقبـة من الدعاة المسلمين، الذين وفقوا إلى إيجاد سبيل إلى قلوب الكفار، وسارت المسيرة إلى يومنا هذا. وللدعوة جنودها المخلصون الذين ضحوا ويضحون بالنفس والنفيس في سبيل إعلاء كلمة الله وتنكيس راية الشيطان في كل صقع من أصقاع الأرض، وذلك بالطرق السلميـة التي اتبعهـا التجار والدعـاة والعلماء من قبل، وجـاء القرآن

---

(1) انظر: ليس في الإسـلام رجال دين، بل علمـاء، مقال للشـيخ طه الولي، نشر بمجـلة دعوة الحق: العدد الثاني (يناير ١٩٧٠م). ص٤٠ وما بعدها. وفي هذا المقال يقارن الشيخ طه بين تطور المسيحية والإسلام ومـهمة رجـال المسيحـية ورجال الإسـلام وتنظيماتهم. وخلـص إلى أنه ليس في الإسلام كهنوت كالمسيحية، بل علماء.

مشددا في الحض على هـذه الطرق السلمية في كثيـر من آياته، ومن ذلك قوله تعالي: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً﴾ [المزمل: ١٠] وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] وقوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وقوله سـبحـانه وتعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤] وهكذا، ومن واقع القرآن الكريم يكون الدافع إلى الدعوة ابتداء بالرسول عليه السلام، كل من موقـعه الذي هو فيه، ومن جمـيع المهن والحرف، وكل على قدر طاقـته ووسائله سواء بالنفس أو بـالمال أو بالكلمة. وهناك حالات كثـيرة يحفل بهـا تاريخ الدعوة إلى الإسلام في مـشارق الأرض ومغاربهـا تظهر لنا جلياً دور الأفراد في هداية الناس إلى الدخول في الإسلام أكثر مـافعلته الفتوح وأعمق منها.

المبحث الثاني

بساطة العقيدة الإسلامية وسماحتها

مما هو ظاهر ملموس أن انتشار الإسلام بالطرق السلمية في إفريقية وآسيا يعدّ مفخرة للإسلام، ودليلاً ناطقاً على روحه التي تلائم الطبائع البشرية الفطرية، وأن الحروب التي نشبت في بعض هذه البقاع، وفي فترات معينة من تاريخ الإسلام في هذه المناطق، لاتعدو أن تكون مجرد ومضة من ذلك الإشعاع المستمر، الذي أضاء لهذه البقاع وبدد ظلمتها بنور الإيمان. ولو تتبعنا أيضا أسباب تلك الانتفاضات الحربية مثل حركة المرابطين بالذات نجد أن الأصل فيها رد العدوان الذي وقع عليها من البيئة المحلية. ولايخفى أن أمر الجهاد في الإسلام جاء لأمور منها الدفاع عن النفس، وفي هذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠] وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

ومنها تأمين الدعوة الإسلامية أمام من يقف في سبيلها حتى لايخشى من يريد الدخول في الإسلام الفتنة عن دينه. والمتتبع النزيه لملابسات الحروب التي خاضها الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدون من بعده، لايجد أي انتهاك لتلك المبادئ التي من أجلها شرع الجهاد والقتال. وليس الأمر كما يدعيه البعض، لاسيما بعض المستشرقين، من أن الإسلام قد انتشر بحد السيف.(١)

(١) مثال ذلك انظر: دائرة المعارف الإسلامية، مادة جهاد، بقلم المستشرق ماكدونالد، حيث يقول عن الجهاد: «نشر الإسلام بالسيف فرض كفاية على المسلمين كافة، وكاد الجهاد أن يكون ركنا سادسا من أركان الدين أو فرض عين، ولا شك أنه ما زال كذلك عند الخوارج..» وفي مادة جهاد بقلم «طيان» جاء ما يلي «الجهاد أساسا ذو طبيعة هجومية..» ويستطرد ليسد الطريق لمن يفندون هذه الفريه، فيقول: «ونقول أخيرا إنه تقوم في هذه الأيام نظرية طابعها دفاعي محض، تقول إن الإسلام يعتمد في نشره على مجرد الإقناع أو الوسائل السلمية، وإن الجهاد لا يصرح به إلا في حالات الدفاع عن النفس والعون الواجب بذله لحليف أو أخ أعزل. وهذه النظرية، إذ تستبعد كلية المبدأ السابق والرواية

=

إن المسلمين لم يقيموا وزنا لحاجز اللون، إذ إن لون الزنجي لا يحمل إخوانه في الإسلام على أن يتعصبوا عليه، أو يعاملوه على أنه من طبقة دنيا، كما هي الحال في كثير من الأحيان في العالم المسيحي[1]، خاصة في أمريكا

=

التاريخية كما تستبعد الآيات القرآنية والسنة التي قام الجهاد على أساسها، لا تأخذ في اعتبارها إلا تلك النصوص الأولى التي تقول بعكس ذلك وإن كانت تزعم ـ مع هذا ـ بأنها لا تزال داخلة في نطاق السنة الصحيحة» وعن فريتهم انظر أيضاً: فان فلوتن: السيادة العربية (مترجم) طبعة القاهرة ١٩٦٥م، ص ص ٥-١٨، وهناك ردود كثيرة قام بها المخلصون في كل زمان ومكان: ومن المحدثين الدكتوران مصطفى خالدي وعمر فروخ: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، بيروت ١٩٧٠م، الناشر المكتبة المصرية بصيدا، ص٤١. أحمد محمد جمال: مفتريات على الإسلام، نشر دار الشعب، القاهرة ١٩٧٥م، ص٥٢ وما بعدها.. وخلاصة القول في مشروعية الجهاد كما بسطها أحمد محمد جمال: ـ

(١) تأمين الدعوة الإسلامية من عدوان المتربصين بها سواء من العرب أو الفرس أو الروم، كما حدث في محاولة كسرى الفتك بمبعوث الرسول عليه الصلاة والسلام إليه ومحاولة قتل النبي نفسه، وكما حدث عندما أمر هرقل الروم بقتل كل من أسلم من أهل الشام، وكانت موقعة ذات السلاسل نتيجة لاعتداء جماعة من الروم كانت تترصد بعثة نبوية أخرى للدعوة إلى الإسلام يرأسها عمرو بن العاص. ولم تكن موقعة مؤتة إلا بسبب ما علمه الرسول عليه الصلاة والسلام من تجمعات الروم وعرب الشمال وعزمهم الزحف على المدينة والقضاء على الدعوة في مهدها، فبادرهم الرسول بإرسال الجيش الذي عرف بـ«جيش أربعة القواد». وكذلك كانت غزوة تبوك نتيجة لما علمه النبي أيضا من نية العدو الزحف على المدينة وكان غرض جيش أسامة الذي جهزه الرسول ﷺ وأنفذه أبوبكر هو تأمين حدود الجزيرة العربية من خطر الروم المتكرر وخطر أعوانهم من أمراء الغساسنة.

أما عرب قريش فقد اعتدى منهم الحارث بن عمرو الأزدي على مبعوث الرسول ﷺ (شجاع بن وهب الأسدي) وقتله، مع أن الرسل لا تقتل، وكان أول اعتداء، ثم أعقبه اعتداء ثانٍ عندما بعث الرسول عليه الصلاة والسلام خمسة عشر داعية إلى ذات الطلح على حدود الشام، فقتلوا إلا رئيسهم.

(٢) نقض الأعداء للمواثيق المبرمة بينهم وبين المسلمين، والمبادرة بالاعتداء، وقد حدث هذا مع مشركي مكة في نقضهم لصلح الحديبية، ومع يهود بني قريظة في المدينة حين غدروا بالرسول ﷺ في غزوة الخندق ـ الأحزاب. قال تعالى﴿ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهمُّوا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة أتخشونهم فاللهُ أحقُّ أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾ سورة التوبة: آية ١٣.

(١) آرنولد، مرجع سبق ذكره، ص٣٩٤.

وجنوبي إفـريقية وروديسـيا، كـما نراه اليـوم، وفي تاريخ الاستـعمار لـلقارة الإفريقـية كمـا رأينا بالأمس ونراه اليوم. وهذا العامل الـلوني كان له أثره في الحركـات القوميـة التي قامت ضد الاسـتعمـار في إفريقيـة، وأصبح المصطلح «استعمار» «امبريالية» يعني بلاشك حكم البيض للملونين.(١)

ففي الإسلام سـرعان مايصبح الأسود المتـحول إلى الإسلام مع المؤمنين على قـدم المسـاواة، ولا يحـول دون ذلك لونه أو جنسـه أو أي مـلابسـة من ملابسات الماضي.(٢)

ولعل من أبرز خصـائص سرعـة انتشار الإسـلام في إفريقيـة أن البلاد الأولى التي انبثق منها الإسلام، وهي الحجـاز، ومصر، والمغرب، لم يكن لها أي نوع من الإشراف أو السيادة أو الحماية أو السيطرة، فالإسلام في إفريقية قد ترك الوطنيين سادة على أنفسهم وبلادهم، وهو عكس مافـعلته المسيحية، وفي هذا يقول بليدن «BLYDEN»(٣): إن المسيحية قد جاءت إلى الإفريقي معتبرة إياه عبـدا أو على الأقل بوصـفه خاضـعا مملوكـا في بلاد أجنبيـة، فتـعلم الزنجي

---

(١) (1) Horakovits, op. cit. p. 181.

(٢) آرنولد، المرجع السابق، ص٣٩٤.

(٣) E.M. Blyden: Christianity, Islam and the Negro Race, pp. 12 - 13.

إن بليدن من مواطني دولة ليـبيريا المثقفين. وكتابه المذكـور عبارة عن مجموعـة مقالات طبعت لأول مرة بلندن سنة ١٨٨٨م، ثم للمرة الثانيـة سنة ١٩٦٧م. فالمؤلف من عنصر إفريقي ولد سنة ١٨٣٢م بجزر الهند الغـربية. وعندما شب أعجب أحـد رجال الدين الأمريكان بملكاته العقليـة. فأرسلة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن لونه منعه من أن يتعلم تعليـما عاليا كان يتوق إليه، لذا هاجر في سنة ١٨٥١م إلى ليـبيريا. وتفاصيل المناصب التي تولاها حـتى سنة ١٨٨٧م ذكرها صديقـه سامديل لويس في ترجمتـه لسيرة بليدن عندما قـدم لهذا الكتاب. ومن مناصبه الهـامة الخطيرة منصب وزير التعليم الإسلامي في ليبيريا. مات سنة ١٩١٢م، وكان ممن يحاولون التوفيق بين المسيحية والإسلام، وقام برحلة إلى الشرق لدراسة اللغة العربية وجمع المخطوطات العربية (سنة ١٨٦٩م)، زار في رحلته مصر وسوريا، وكتب عدة مقالات عن الإسلام والمسيحية وهي حصيلة كتابه الآنف الذكر.

وأولاده من بعده من خلال تعاليم المسيحية دروسا تشعرهم بأنهم على الدوام عنصر منحط يعتمد على مرشديه من البيض. وغرست فيهم أن المسيحية هي التي منحتهم كل شيء، وأخرجتهم من الظلمات إلى النور، ومن التخلف إلى الرقي.

وبينما يشعر الإفريقي المسلم أن الإسلام لم يقطعه عن ماضيه ومجتمعه، نجد أن الاستعمار الأوروبي قد جعل المسيحي الإفريقي حائرا، فلا هو قريب من مجتمعه، ولا هو مقبول عند المستعمر الأوربي لكي ينتسب إلى الحضارة الأوروبية، فحرمه المستعمر الثقافة المعقولة والحقوق الإنسانية المتاحة للمسيحي الأبيض، وذلك على عكس الإسلام الذي اعترف منذ فجر ظهوره في إفريقية بالمساواة التامة، وكفل للمسلمين جميع حقوقهم دون نظر إلى لون أو جنس.[١]

ولاشك أن ماكان يلقاه السود الوثنيون من ترحيب المسلمين بدخولهم في الإسلام هو الذي كان يرغبهم في الانضمام إلى مجتمع ديني تتطلب حضارته التي تفوق حضارتهم أن يؤثروا التخلي عن كثير من عاداتهم وطبائعهم البربرية. ومما يساعد على تفسير نجاح هذا الدين، أن مجرد الدخول في الإسلام يدل ضمنا على الترقي في الحضارة، وأنه خطوة متميزة في تقدم القبيلة الزنجية عقليا وماديا.[٢]

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أيضا أنه بينما نجد المبشرين المسيحيين لا يتزوجون من الزنجيات حتى لايثيروا شعور أبناء جنسهم عليهم[٣]

(١) آرنولد، ص٣٩٨، لوبون، مرجع سبق ذكره، ص٦٠٥، د. أحمد مختار: النشاط الثقافي في ليبيا منذ الفتح الإسلامي حتى بداية العصر التركي، ص٥٠.

(٢) آرنولد، المكان نفسه.

(٣) ويذكر شلبي أنه قد حدث وأن تزوج منصر مسيحي كان يباشر عمله في إفريقية من إحدى الإفريقيات، ولكن هذا الزواج جعل المسيحيين البيض يضطهدونه ولا يتعاملون معه، فاضطر إلى =

نجد أن الدعاة المسلمين ينفذون إلى قلب إفريقية بسهولة إلى الوثنية، ويحولونها إلى الإسلام، ويتزوجــون من الزنجيات[1]، ويسيرون مع أهل هذه البلاد على المبادئ القائمة على الإخاء والمساواة، لهذا لانعجب إذا نظر الزنوج إلى الإسلام على أنه دين الســود وأن المسـيحـيـة دين البيض، كـمـا مثـل لذلك الدكتـور بخيت.[2]

وللإسلام موقفه المشـهود في مجال الرق والتمييز العنصـري مهما كانت الدعاوى المغـرضة التي يروج لها أعـداء الإسلام وينخدع لهـا السذج من أبناء المسلمين، من أن الإسلام يدعو للرق[3]، ومما ينبغي ذكره أن الاتجاهات الفكرية نحو الرق، كانت من أهم ما حبب أهل إفريقية في الإسلام، فإن البيض عندما اقتحموا إفريقية كانت تجارة الرقيق من أهم أهدافهم، فراحوا يختطفون الأطفال والشبان دون رحمة أو شفقة أو إنسانية، ويحشرونهم حشراً على ظهور البواخر ويتجهــون بهم إلى أمريكا وأوروبا. ومن المعروف كذلــك أن هؤلاء الإفريقيين

=

مغـادرة إفريقيـة، وأغلب الظن أنه ترك زوجتـه هناك، وخوفا من أن يتكـرر عمل هذا القسـيس لجأ البيض إلى اختيار القساوسة الذي يعملون بأفـريقية من أتباع المذاهب التي لا تبيح الزواج للقساوسة، د. شلبي: مرجع سبق ذكره، ص١٦، وانظر: أنور الجندي: الإسلام وحركة التاريخ، ص٤٥٢.

(١) انظر مثلا: ص. . . من الكتاب، Blyden, op. cit. p. 20.

(٢) المجتمع العربي والإسلامي، جـ١، مرجع سبق ذكره، ص٧٢، حيث يقول: «كتب ماركوس جارفي الذي كان يطلق على نفسه «رئيس جمهورية الزنوج»، وهو من فـئة زنوج أمريكا الذين استـعبدهم الأمريكيـون، فأرادوا نشر شـعورهم في القـارة الأفريقيـة بأكملها. ودعـا جارفي إلى التـحرر من المسيحية قائلا: «إن دين البيض لم يوضع للزنـوج. لا يمكن إكراه الإفريقيين على الاعتقاد بإله أبيض ومسيح أبيض وملائكة بيض».

(٣) انظر مثلا: محـمد قطب: شبهات حول الإسلام، موضـوع الإسلام والرق، الدكتور شلبي، سلسلة مقـارنة الأديان، عن الإسلام، موضـوع الرق في الإسلام، جون جـينتز: داخل إفريقـية، ص٩٥، عبدالحميد الصـاوي: الإسلام والمشكلات العنصرية، الدكتور فؤاد محمد الصقـار: التفرقة العنصرية في إفريقية.

التعساء لم توجه إليهم أية عناية إنسانية أو صحية، مما جعل الكثيرين منهم يسقطون موتى في الطريق، وتلقى جثثهم طعاما للأسماك، أما الذين وصلوا منهم إلى القارة الامريكية فقد عرضوا في سوق النخاسة وبيعوا كما تباع الدواب.

أما الأفراد الذين أدت الظروف إلى أن يكونوا رقيقا في أيدي المسلمين، فإنّ حياتهم تختلف عن حياة الذين وقعوا في أيدي الغرب. ويرجع الفرق إلى التربية الإسلامية التي تربى عليها المسلمون، فالسنة تحث منذ البداية بألا يسمى العبد عبدا، بل يسمى فتى، والأنثى تسمى فتاة، وفي القرن الرابع الهجري (١٠م) اتخذ بعض الناس من قوله تعالى: «إنما المؤمنين إخوة» نقدا يوجهونه لمن يضرب عبده، وكذلك قال الشاعر:

إن كنت تطلب فضلا ... إذا ذكرت ومجدا
فكن لعبدك خلا ... وكن لخلك عبدا[1]

وهذه هي الروح الإسلامية التي حيرت الكثيرين والمتصدين لظاهرة ذلك الانتشار السريع، تلك الروح الجديدة، التي قال عنها الدكتور بخيت[2]: «... على أن هذا الانتشار لم يكن قاصرا على الدين الإسلامي أو اللسان العربي فقط، وإنما كان انتشاراً لروح جديدة، روح موقظة منبهة، في وقت كان العالم في حاجة للإيقاظ والتنبيه، وهذه الروح كان يحملها أول الأمر قوم دينهم الإسلام ولسانهم عربي، ثم ظاهرهم قوم آخرون من شتى الأجناس والألسنة... إنه من المستحيل أن نجد علة نفسر بها هذه السرعة على وجه

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ص٢٧٤.
(٢) المجتمع العربي والإسلامي، جـ٢ مرجع سبق ذكره، ص١٧.

يرضي العقل المفكر الهادئ، إن لم نضع في حسابنا تلك المبادئ الحضارية التي قررتها شريعة الإسلام وطبقها في المجتمع من تصدوا للتبشير بعدلها وديمقراطيتها. تلك الروح التي عبر عنها الألوري[1] بقوله : «ولقد كان الإسلام ينتشر في ربوع إفريقية الغربية بقوته الروحية، لا بالقوة المادية. وكانت النفوس تنجذب إليه بمغناطيسه الطبيعي، لا بدعاية الأموال والأسلحة، ولكل ذلك شواهد ناطقة تحت سماء هذه البلاد إلى يومنا هذا».

والإسلام كما ذكرنا دين فطرة ولهذا أثره في ذيوعه، ولم تخف هذه الحقيقة على من أخذوا يبحثون حتى من بين الغربيين، فجون جينتز[2] يقرر أن الإسلام دين فطرة بطبيعته، سهل التناول، لا لبس ولا تعقيد في مبادئه، وسهل التكييف والتطبيق على مختلف الظروف، وأن وسائل الانتساب إليه أيسر، إذ لايتطلب من المرء أكثر من النطق بالشهادتين لإعلان إسلامه.

ويقرر الحقيقة نفسها لوبون[3] وترمنجهام[4] وآرنولد[5].

وقد تميز دخول العرب المسلمين إلى الأقاليم الإفريقية المختلفة في مستوياتها الحضارية بقيامه على أسس تتمشى مع أسمى واجبات السلوك الإنساني، وكانوا في ذلك صورة مناقضة لما جاءت به المدنية الغربية، ومرجع ذلك إلى اختلاف الهدفين: فالعربي والمسلم كان يهدف لتحقيق مصلحته مع المحافظة على حق الإفريقي. أما الغربي فكان يريد تحقيق مصلحة ذاتية، يستخدم فيها الإفريقيين دون أن يعترف بحقوق لاتزيد على المحافظة على

---

(١) موجز تاريخ نيجيريا، ص٣٦.
(٢) داخل إفريقية، جـ١، مرجع سبق ذكره، ص ص٩٤ـ٩٥.
(٣) حضارة العرب، مرجع سبق ذكره، ص٦٠٥.
(٤) The Influenec of Islam, op. cit, p. 42.
(٥) الدعوة إلى الإسلام، ص٤٥٢.

بقائهم على حياتهم البدائية.[1]

إن سرعة هذا النمو نتيجة طبيعية للفرق الواضح الذي لمسه الزنجي في حضارة الإسلام وروحها، وفي حضارة الغرب رورحها تلك الحضارة التي تحمل في طياتها العنصرية والاستعلاء أنى حلت، وتجعل من الإنسان الغربي سيد العالم، وأن كل ماعداه من الأجناس الأخرى في الدرجة الثانية، وأن الزنجي بالذات في درجة الحيوان.

هذه النظرة جعلت أحد أبناء القارة[2] يصرخ في وجهها ـ وليت ذلك كان في القرون الوسطى، ولكنه في العصور الحديثة ـ معبرا عن استيائه قائلا: «إن التبرير النظري للإمبريالية يقوم على إنكار أية قدرة إنسانية للإفريقي الزنجي الذي تعتبر معاشرته مهينة، ولكي يبرهن المستعمر الأبيض على عرقيته البشعة، فقد أوجد لدى الأمم الاستعمارية نوعا من الخوف من الزنوج، ولم يبرأ منه حتى الآن كثير من البيض، ولم يعرف التاريخ حتى أيامنا احتقارا مذهبيا للإنسان كهذا. إن هذه الأيدلوجية العرقية المعادية للزنوج، هذا المرض الذي لايعجز الاستعماريون عن معالجته لشفاء مواطنيهم منه، هذا الاحتقار الدنيء للعلم الذي ولد مع المتاجرة في السود، وانتشر مع الاستعمار.. إن الدول الاستعمارية والإمبريالية قد أخضعت كل شيء لإرادتها الرأسمالية الاستغلالية بغية جمع الثروات وتكديسها، فلم تكفهم الحصون التجارية، فأصبحوا بحاجة إلى «الزنوج التجاريين». وهكذا لم يكن عليهم إلا أن يقروا بأن الزنجي ليس إنسانا ليتمكنوا من إقناع الناس بان الاستعمار ليس استغلال الإنسان للإنسان، بل هو استغلال الإنسان للزنجي.

---

(١) الشاطر بصيلي عبدالجليل: تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط، ص٣٠.

(٢) أحمد سيكوتوري: إفريقية والثورة (مترجم)، ص ص١٨٩ـ١٩١، ٢٠٤.

«إن الزنجي مستعمَر لأنه أهل لذلك. فهو لاينتمي إلى النوع الذي ينتمي إليه البيض، ومن الراجح أنه لو كانت بنية الشعر عند الرجل الأسود أكثر نموا مما هي عند الرجل الأبيض بعكس ماهي عليه الحال، لقامت النظريات البيولجية الطنانة لتثبت بصورة قاطعة أن الرجل الأسود مكانه عالم الحيوان بين الشمبانزي والجيبون».

كما أن هناك علماء ينتمون إلى الدول الاستعمارية ينفقون حياتهم العلمية وفي أيديهم مساطر طولها عشرون سنتيمترا ليقيسوا بها جماجم السود والقردة، آملين أن يثبتوا أن الزنوج والقردة هم أولاد عمومة.. [1]

ومن النصوص السابقة نرى كيف يسخر أبناء إفريقية من روح الحضارة الغربية، كما تعطينا تلك النصوص صورة صادقة لعلاقة الرجل الغربي المسيحي بالافريقيين.

وحتى في مجالات التعليم والثقافة والدين نجد الغربي يحاول تربية الإفريقي ليكون له عبدا، فاتخذ من هذه المجالات وسيلة وسلاحا من أسلحة الاستعمار التي لاتقتصر فقط على الاضطهاد والاستغلال المادي. ومن ذلك

---

(١) المكان نفسه.

في يوم الأربعاء ٢٠/ ٢/ ١٩٧٤م، وفي برنامج «هذا الصباح» الذي يقدمه سامي حداد من إذاعة لندن، الساعة السابعة والربع صباحاً بتوقيت القاهرة، استمعت إلى كلام حول آراء جنسن الأمريكي الذي يرى أن هناك تبلدا عقليا عند السود، أما السيدة «باراتوزان» إحدى العاملات في معهد لندن للتعليم، فقد أجرت اختبارات للأطفال البيض والسود في دار حضانة واحدة، وتوصلت إلى نتيجة هامة وهي أنهم يتساوون في الفرص لتنمية قدراتهم العقلية. وثبت أن البيئة هي التي تجعل الطفل ذكيا أو أقل ذكاء، وليس للون البشرة في ذلك أي أثر.

وهكذا فلو لم تكن هذه الفكرة ـ فكرة الفروق الذهنية بين السود والبيض ـ سائدة، لما كان هناك تجارب ومؤيدون ومعارضون، فالاستعمار كان يجد من يبرر له حكم السود لأنهم قاصرون ومتخلفو العقلية.

يذكر سيكوتوري[1] أنه في كتاب لمنصر مسيحي وضعه للسود، جاء فيه تحت عنوان (صلاة الصباح من أجل الأسياد: «من كل قلبي يا إلهي أصلي من أجل سيدي، تفضل واقبل صلاتي، أتضرع إليك بأن تضفي خيراتك على سيدي، وعلى جميع أفراد عائلته، وبارك كل ما يملك».

تلك كانت روح حضارتهم، قصدنا إبراز جزء منها لمعرفة الفروق بين الذي جاءت به الحضارة الإسلامية إلى أفريقية، وبين الذي جاءت به حضارة الغرب المسيحية.

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٠٦، وعن النظام التعليمي الاستعماري وأغراضه، انظر المصدر نفسه، ص ص٢٠٤ ـ ٢٠٥.

المبحـــث الثالـــث

ريادة المسلمين التجارية والجغرافية

لقد أتيح للمسلمين إبان عزتهم أن يحوزوا قصب السبق في ميدان الرحلات والكشوف والدراسات الجغرافية، فأفادت منهم أوربة في العصور الوسطى[1]. وقد اتسع نطاق تجارتهم اتساعا لم يبلغه عند شعب آخر قبل كشف أمريكا، فانتشرت قوافلهم في الجزء الأعظم من العالم المعروف في ذلك الوقت، ومخرت سفنهم عباب البحار والمحيطات متجشمة كل الأخطار والأهوال، وأدى ذلك إلى أن تزدهر على أيديهم الطرق التجارية بين بحار الصين وآسيا الوسطى، وسواحل بحر البلطيق والأندلس. وشواطئ المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط وساحل إفريقية الشرقي، وجزر المحيط الهندي، وصحاري إفريقية، حاملين السلع بين الأسواق المختلفة في العالم المتمدين وغير المتمدين. وحسبنا في هذا أن نشير إلى الكنوز الوافرة من النقود الإسلامية التي عثر عليها في روسيا والسويد وفنلندة والنرويج، بل وفي سويسرة وجزيرة أيسلندة وبريطانية. وعلى الرغم من أن المصادر تشير إلى وصولهم إلى جنوبي روسيا وأوربا الوسطى فقط، إلا أن وجود عملاتهم في المناطق الأخرى يدل على اتساع نفوذ عملاتهم.[2]

وفي رحلة ابن بطوطة مثال يدل على اتساع مجال حركة التجار المسلمين. فبينما كان يقيم في سجلماسة، اكتشف أن مضيفه أخ لرجل التقى به

(١) د. زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، مرجع سبق ذكره، المقدمة.
(٢) المرجع والمكان نفساهما.

من قبل سنين في الصين[1]. والتقى ابن بطوطة بعده شخصيات إسلامية في الصين وفي غربي إفريقية.[2]

وكان التجار المسلمون الذين يجوبون العالم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا مصدراً أساسيا وأصيلا للرحالة والجغرافيين الذين تعرضوا لتاريخ البلدان والشعوب المختلفة خلال تجولهم. فالإدريسي[3] اعتمد في معلوماته على التجار والمسافرين. وفي هذا يقول: «ولقد أخبر بعض السفار الثقات، وكان قد تجول في بلاد السودان نحوا من ٤٠ سنة..»، ويقول في موضع آخر: «وأخبر بعض الثقات من متجولي التجار في بلاد السودان أن بمدينة أودغشت..»[4] واعتمد ابن سعيد[5] أيضا على التجار في معلوماته، ونراه يذكر دائما عبارة «قال بعض الثقات من المسافرين» أو مايشابهها. والمراكشي[6] أيضا استقى معلوماته عن غربي إفريقية من التجار، إذ يقول: «حدث بذلك من دخل بلادهم من التجار والثقات»، أو يقول: «حدث رجل ثقة ممن دخل تلك المدينة أنه رأى..»[7] أو: «حدث رجل ثقة من المسافرين في ذلك الطريق أن قوما...»[8] وهكذا.. وحتى الرحالة الذين وصلوا مثلا إلى غربي إفريقية كانوا يستعينون بالتجار المقيمين هناك، لأن معرفة هؤلاء بالبلاد تكون أصيلة

(١) رحلة ابن بطوطة، مصدر سبق ذكره، ص٩.
(٢) المصدر نفسه، ص٤٤٤.
(٣) المغرب وأرض السودان، مصدر سبق ذكره، ص١٠.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٢.
(٥) بسط الأرض، مصدر سبق ذكره، ص٤١.
(٦) الإستبصار، مصدر سبق ذكره، ص٢٢١.
(٧) المصدر نفسه، ص ص٢٢١ ـ ٢٢٢.
(٨) المصدر نفسه، ص ٢٢٣.

وبالممارسة والمعايشة، وخير مثال لذلك أن ليو الإفريقي[١] عندما زار برنو التقى ببعض التجار هناك، وأفادوه في بعض المعلومات عن عادات البلاد وتقاليدها. وهكذا تتضح أهمية التجار حتى ولو كان الرحالة في نفس المنطقة التي هم فيها.

ومما يشجع على تلك الأسفار أن الإسلام يحث على السفر بتخفيف بعض الواجبات الدينية على المسافرين مثل قصر الصلاة وترك الصوم وإباحة تعدد الزوجات. فكان بعضهم يتزوج في البلاد التي يحل بها أو يتردد عليها في أسفاره.[٢]

ويلقى المسافر ترحابا ومساعدة أينما حل عبر طول العالم الإسلامي وعرضه، وينتظره طيب المعشر والترحاب في وسط المجتمعات الإسلامية على أرض الكفار.[٣]

ويوجه لوبون النصح إلى السياح المعاصرين الذين يرغبون في دراسة شؤون إفريقية درسا مفصلا من غير أن يرهقوا ميزانية دولهم بأن يحذوا حذو العرب في ارتيادهم، ويذكرهم بأن العرب بلغوا في ارتيادهم إفريقية بقاعا مهمة، منها مدن لم يوفق الأوروبيون المعاصرون لزيارتها كمدينة تنبكت.

لقد جذبت التجارة الكثير من المسلمين والعرب إلى السفر، فوصلوا حتى غربي إفريقية، وقبل وصول المسلمين والعرب لم يكن يعرف شيء عن إفريقية جنوبي الصحراء، وفي ذلك يقول بوفل[٤]: ونحن بالفعل مدينون بكل

---

(١) The History and Description of Af. Vol. 111, p. 833.

(٢) انظر مثلا: رحلة ابن بطوطة، ص٣٨٣.

(٣) مثلا: المصدر نفسه، ص١٦٩، ١٤٥، ٦٥١، إلخ.

(٤) The Caravans of the Old Sahara, op. cit, p. 33.

معلوماتنا عن التاريخ المبكر لداخل إفريقية لمجموعة صغيرة من الكتاب العرب. . وأن مديونيتنا لهؤلاء العلماء عظيمة للدرجة التي لايمكن إغفال الإشارة إليهم. . ».

وفي ميدان الجغرافية كان إسهام العرب والمسلمين عظيما.[1] فالجغرافية علم موروث منذ الجاهلية، إذ كانوا أعرف الناس ببلادهم، وانعكس ذلك على أدبهم وثقافتهم. فقد تكلموا على طبيعة البلاد وصفاتها والعديد من حيواناتها ونباتها وطرقها ومسالك الماء ومواضعه فيها، ومضارب قبائلها وعمائرها وخرابها ومدنها وقراها، إلى غير ذلك من المظاهر. وكانت لهم إلى جانب ذلك كله معتقداتهم الخاصة في الخلق والخليقة والعالم والأرض والسماء، تكللها ماتواتر إليهم من معتقدات دينية جاءت في التوراة والإنجيل، ومانقله التجار والحكماء منهم عن بلاد غير بلادهم، وما تسرب إليهم من أقوال الإغريق والرومان والفرس والهنود في الفلك والجغرافية والنبهاء منهم كانوا يطلبون العلم والثروة خارج بلادهم. فنحن نسمع عن عرب قدماء تعلموا في مدارس رومانية وفارسية وهندية، فحارث بن كلدة الذي ولد بالطائف قبل مولد الرسول عليه السلام ببضع سنين درس الطب في مدرسة «جنديسابور»، ومنها سافر إلى الهند، ومن ثم انتقل إلى صنعاء، حيث قام بتدريس الطب في مدرستها المعروفة في ذلك الحين.[2]

وببزوغ فجر الإسلام وقوة شوكته تحولت شبه الجزيرة العربية إلى ميدان حركة، فاتسعت رقعة الإسلام في مدى ثمانين عاما بعد وفاة الرسول عليه

---

(١) Ibid. p. 33، انظر: م. م. شريف: الفكر الإسلامي منابعه وآثاره، ترجمة وتعليق الدكتور أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص ص٦٢ ـ ٦٤.

(٢) الدكتور عبدالفتاح وهيبة: جغرافية العرب في العصور الوسطى، ص٤٣.

السلام كما لم تتسع دولة من قبل.[1] وعظم في ظل هذه الدولة مكان التجار المسلمين، فامتد نشاطهم التجاري إلى مناطق بعيدة، فحملوا الأخبار عن البلاد الأجنبية، ومنهم من دّون مشـاهداته، ولم تخل مشاهداتهم من ا لتأمل العلمي والطرائف المفيدة.

وكان الحج من أكبر بواعث الـسفر ومن ثم لدراسة الجغرافيـة. فالحجاج المسلمون يأتون من كل فج عـميق، ويلتقون في الأراضـي المقدسة، فيتـبادلون المعلومات عن بلادهم، ويعد ذلك مصدرا هاما من مصادر الجغرافية والتاريخ.

والخلاصة، أن ارتيـاد المسلمين والعرب أماكن بعيدة عن الجـزيرة العربية أدى خدمة كبرى في حَمْلِ الإسلام إلى هذه الأماكن البعيدة.

(١) انظر: وهيبة، المرجع نفسه، ص ص٤٣ ـ ٤٤.



المبحـــث الرابـــع



المعتقدات الروحية في إفريقية

إن الاعتقاد بوجود قوة غيبية عليا لم يكن غريبا عن الإفريقي. وقد زاد هذا الاعتقاد من تيسير جهود الداعية المسلم في الوصول إلى قلوبهم. فالاعتقاد بوجود الله مع إنكار الوحي والأديان، هو أساس الشعور الديني عند كثير من عبدة الأوثان، ولكن يمكن أن يتحول هذا بسهولة إلى عقيدة التوحيد الإسلامية، لإيمانهم بجزء من الرسالة، وكذلك الحال في بعض نواح أخرى من فلسفتهم الدينية، وهكذا نجد أن نظرتهم العامة إلى الحياة وكثيرا من طقوسهم الروحية يمكن أن تصبح شعائر إسلامية، وأن تتحول إلى نظام الدين الجديد دون إجراء تغيير كبير.(١)

والظاهرة التي يلحظها الباحثون في تاريخ إنتشار الإسلام في هذه القارة هي استعانة الوثنيين بالتعاويذ الإسلامية مع تعاويذهم الوثنية، والالتجاء إلى شيوخ المسلمين وزيارتهم، بالإضافة إلى كهنتهم الوثنيين.(٢)

والظاهرة الثانية تتمثل، لافي مجرد تقليد الرقى الإسلامية، وإنما في تقليد الصلوات الإسلامية وحضور الجنائز الإسلامية والاحتفال بالأعياد الإسلامية.(٣)

---

(١) انظر: الديانات في إفريقية السوداء، مرجع سبق ذكره، ص١٢٨.
Trimingham, Islam in w. A., op. cit. p.6.
محمد عبدالفتاح إبراهيم: إفريقية حديث في الطوابع الثقافية الإفريقية، ص١٦٠، إنتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مرجع سبق ذكره، ص ص٥٣ـ٥٤ الدكتور عبدالعزيز كامل: العروبة والحضارات الإفريقية في منظور جديد، ص١٠.

(٢) انظر، الدكتور عبدالعزيز كامل، المرجع نفسه، ص ص٩ـ١١، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، المرجع السابق، ص٥٣.

(٣) المرجع نفسه، ص٥٥.

وليس غريبا أيضا أن نجد الزنوج المسلمين يحلون تقديس القرآن محل تقديس وثنهم القديم، كما نجد أيضاً تشابها في الاعتقاد بأثر السحر في معاقبة الحانث بيمينه وشاهد الزور. وكذلك نجد لصلاة الاستسقاء عند المسلمين نظيرا عند الوثنيين، فهم يصلون من أجل إلههم الكبير الذي يعلو على أوثانهم. ولازال بعض المسلمين هناك يعتقدون في قدرة الكهنة الوثنيين على التحكم في المطر وتغيير بعض الظواهر الطبيعية.[1]

كل هذه العوامل مجتمعة حول طبيعة تغلغل الإسلام في غربي إفريقية، مهدت لقيام دول إسلامية سادت غربي إفريقية منذ فجر الإسلام في إفريقية إلى يومنا هذا.

وفيما يلي نبذة عن هذه الدول الإسلامية الكبرى التي قامت بغربي إفريقية. ويلي ذلك دراسة للحركة التعليمية في ظل هذه الدول.

---

(١) المرجع نفسه، ص٥٦.

الفصل الثالث

الآثار الحضارية لتغلغل الإسلام في غربي إفريقية

المبحث الأول

قيام دولة غانا الإسلامية

تمهيد عن المنطقة عامة:

لقد كانت النتيجة الحتمية لتلك العلاقات التجارية وتعدد وسائل الدعوة الإسلامية وطرقها في شمالي وغربي إفريقية أن دخلت الحضارة الإسلامية بكامل مقوماتها في هذا الجزء من العالم، مرتبطة بالتجارة وما يصحبها من أمور في المقام الأول.

وسنعرض هنا للنتائج السياسية والدينية التي ترتبت عليها تلك العلاقة، وهي قيام دول إسلامية جنوب الصحراء الكبرى فيما عرف عند الكتاب العرب بـ«بلاد السودان». وقد وصلت تلك الدول في مرحلة من مراحل تطورها إلى درجة أقامها الوطنيون الإفريقيون، وكان عمادَها ـ زمن ازدهارها وقوتها ـ الدين الإسلامي عقيدةً، واللغةُ العربية أداتها في الإدارة والثقافة والتجارة.

وتنطبق أوصاف العرب لبلاد السودان على بلاد غربي إفريقية بصفة خاصة، وهي الممتدة جغرافيا من المحيط الأطلسي غربا إلى بحيرة تشاد شرقاً، والتي اصطلح كتاب أوربا في العصور الوسطى على نعتها باسم بلاد نيجرتيا Nigritia، نسبة إلى نهر النيجر، كما سبق أن ذكرنا.

ولهذه الدول أصول وثنية، غير أنها بلغت الذروة والقوة في عهدها الإسلامي، وقامت علاقات قوية ومتنوعة بين هذه الدول والبلاد الإسلامية الأخرى المعاصرة لها في المشرق والمغرب الإسلاميين، وهي علاقات، كما رأينا، قديمة، لكنها ازدادت بانتشار الإسلام في غربي إفريقية، بحيث سادت التقاليد والعادات الشرقية الإسلامية، كما استقر عدد كبير من العرب والبربر المسلمين بتلك الجهات واختلطوا بالوطنيين.

وكانت غانا أقدم الدول التي قامت بغربي إفريقية، ثم تلتها مالي ومن بعدها سنغي، كما وجدت دولة التكاررة في العصور الوسطى، وبعثت مرة أخرى في العصور الحديثة ـ القرن التاسع عشر ـ وكان لها دور كبير في كفاح الاستعمار الفرنسي، كما بعثت مالي أيضا في القرن نفسه ممثَّلَة بمملكة ساموري التوري، جد أحمد سيكوتوري، كذلك قامت دولة بورنو التي قامت أولا في كانم، دولة الفولاينين أو الفلاتا في العصور الحديثة ببلاد الهوسا، وزالت على يد الاستعمار الأوربي، ثم ظهرت حاليا باسم نيجريا، وكان للفولانيين دولة في العصور الوسطى نواتها ماسنة عند النيجر الأوسط.[١]

ويرجح باسيل دافيدسون[٢] أهمية الحديد والتجارة في قيام هذه الدول وقوتها لاسيما غانا، فيذكر أن الحديد قد أثبت في كل مكان من العالم القديم أنه قد كان له تأثير قوي مكن من بناء مجتمعات جديدة أكثر تعقيدا.. والأمر في هذا الصدد لم يكن مختلفا بالنسبة لإفريقية، فمنذ عرفت صناعة الحديد في إفريقية، أمكن الحصول عليه بسهولة أكثر من النحاس أو البرونز، وكان أكثر قيمة من ناحية استخدامه وتصنيعه.. ولهذا السبب قامت شعوب «غانا» كما يشير الزهري بحملات ضد جيرانها في وقت ما بعد سنة ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م، ذلك أن الشعوب الأخرى لم تكن تعرفُ صناعة الحديد. وكانت تحارب بقضبان من الأبنوس، على حين كان أبناء «غانا» يحاربون بسيوف ورماح

(١) انظر: الدكتور إبراهيم علي طرخان: دولة غانة الإسلامية القاهرة ١٩٧٠م. الناشر: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ص ص٧ ـ ٨.

(٢) باسيل دافيدسون: إفريقية القديمة تكتشف من جديد (ترجمة نبيل بدر وسعد زغلول) القاهرة، لم تذكر سنة الطبع، الناشر: الدار القومية للطباعة والنشر، ص ص٤١ـ٤٢.

حديدية، وبهذا يعد قيام الدول بالسودان الغربي نتيجة للتفوق في استخدام الحديد. وإذا كانت هذه الدول بصورتها المنظمة لم تبرز إلى الوجود حتى القرن (٢هـ/ ٨م)، فإن بدايتها ولاشك كانت بداية انتشار الحديد وصناعته في هذه المناطق قبل ظهور المسيح عليه الصلاة والسلام لثلاثمئة سنة على الأقل. . وقد صاحب هذه التطورات تأثير آخر لا يقل أهمية عن انتشار صناعة الحديد. . ألا وهو تأثير التجارة على نطاق عالمي بين هذه المناطق وأجزاء كثيرة من العالم المعروف آنذاك. . وذلك لأن امتلاك هذه الدول للحديد قد مكنها من الغزو والانتصار. . أما التجارة فقد أتاحت لها بناء مجتمع غني. . حيث إن هذه الدول كانت تسيطر على طرق تجارة الذهب من قلب إفريقية إلى الأجزاء الشمالية منها. . وقد ازدهرت في هذه المدن التجارية التي كانت تتجر في كثير من السلع مع وسطاء في الصحراء. . كانوا يبيعونها بدورهم إلى دول البحر الأبيض المتوسط وأوربا. . وكان أبناء هذه الدول الإفريقية يشترون من هذه الدول بضائع أوربا والبحر الأبيض المتوسط. وكانت تجارة الذهب هذه هي التي شيدت قوة غانا ودولة الماندينجو.

ترجع المعلومات الأساسية عن تاريخ دولة غانا وغيرها من الدول التي قامت في السودان الغربي والأوسط إلى ما كتبه العرب المسلمون من الرحالة والجغرافيين والمؤرخين، ومن هؤلاء من زار بلاد السودان مثل ابن حوقل في القرن العاشر الميلادي، وابن بطوطة في القرن الرابع عشر، ومنهم من سمع عنها وبحث واستقصى ودون، مثل البكري في القرن الحادي عشر، وابن خلدون في القرن (٤هـ/ ١٠م)، وربما كان ماكتبه البكري عن غانا بصفة خاصة، من أدق وأحسن ماكتب عنها وعن أصولها، مع أنه لم يزر بلاد السودان، بل دون كتابه «المسالك والممالك» في قرطبة، حيث كانت وثائق وسجلات حكام

الأندلس من بني أمية تحت تصرفه، وهذا فضلا عن الروايات والأخبار المتواترة المشهورة، وهي التي أذاعها التجار والرحالة والمغامرون والحجاج.[1]

ومن أمهـات المصادر العربية عن تاريخ بلاد السـودان، ماكتبـه حسن بن محمـد الوزان المتوفى حوالي سنة ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م، وهو الذي اشـتهر باسم ليو الإفريقي، وما كتبه القاضي الفع محمود كعت، أو كما قلنا ابن المختار في القـرن (١٠هـ/ ١٦م)، والسـعـدي، وابن صـود في القـرن (١١هـ/ ١٧م)، والثلاثة الأخيرون من أبنـاء بلاد السودان، كتبوا تواريخهم باللغـة العربية، لغة الثقـافة والدين والحكومـة والتجارة إبان تلك الحـقيقـة القومـية من تاريخ هذه البلاد. وهناك ماكتبه أحمد بابا التنبكتي، وكان مصدراً للسعدي وغيره ممن نقل عنه من الكتاب المسلمين وغير المسلمين.

ولقد كانت عنـاصر الارتباط بين الشمال الإفـريقي وبلاد السودان، هي التي أمدت هؤلاء الكتاب المسلمين بالمعارف الأصيلة عن تلك البلاد، وجعلتهم المصدر الأول للحـديث والكتابة في تاريخ بلاد السـودان، مما جعل الأوربيين يستقون مـعارفهم من هذا التراث العربي الإسـلامي، الذي كان الينبوع الرئيس لمدرسة الخرائط التي قامت بجزيرة ميورقة في العصور الوسطى[2]، فقد اعتمد علماء تلك المدرسـة على المعلومات والأوصـاف التي دونها كُتَّـاب العرب عن بلاد السودان، أمثال البيروتي والبكـري وابن سعيد والإدريسي وغيرهـم، وذلك

---

(١) الدكتور طرخان، مرجع سبق ذكره، ص٩.

(٢) الدكتور طرخـان، المرجع نفسه، جاء في ص١١ أن هذه المدرسـة التي قامت في جزيرة ميـورقة كان ذلك بعد أن أطاح المسيحيون في مطلع القرن الثالث عشر بالسيادة الإسلامية التي أقامها المرابطون في تلك الجزيرة وغيرها، والفـضل في إقامتها يرجع بعد الله ثم إلى إبراهـيم كرسك، الذي كان يعمل منجما أو فلكيـا في بلاط أراغونة، وبرز في هذه المدرسة عدد من العلماء من آل كـرسك وغيرهـم، مثل يافودا كرسك وفيلادست وجبرائيل نالسكا، وسوليري روسيلي وأوليفيا وغيرهـم.

فيما أصدروه من خرائط عن العالم.[١]

أما الكشوف الأثرية الحديثة، فقد ألقت الكثير من الضوء على التاريخ القومي لتلك الدول، ومما يؤكد أصالة المصادر العربية ودقة معلوماتها أن الآثار التي تم الكشف عنها في غانا مثلا، جاءت مطابقة لأوصاف المؤرخين العرب مما أدهش المكتشفين أنفسهم.[٢]

المطلب الأول : التطور التاريخي لقيام دولة غانا

إن تاريخ دولة غانا هو أول حلقات التاريخ القومي لغربي إفريقية، فهي أول دولة قامت بالسودان الغربي، ولعلها أول تجربة أو أقدم ما عرف من تجارب الحكم الوطني الناجح بتلك البلاد، وقد دل ازدهارها وبقاؤها إلى القرن الثالث عشر الميلادي على قدرة الإفريقيين على تدبير شؤونهم بأنفسهم، وهذا ما حمل القلة من الكتاب الغربيين المنصفين على أن تقرر بأن حضارة هذه البلاد في العصور الوسطى لم تكن دون حضارة البيض، بل فاقت حضارة بعض البلاد الأوروبية.[٣]

وفضلا عن أهمية قيام دولة «غانا» في السودان الغربي بالنسبة للتاريخ القومي الإفريقي، فإن سقوطها لم يقل أهمية في تاريخ غربي إفريقية، من حيث ازدياد إنتشار الإسلام وحضارته، وقيام نظم أقوى وأعظم بتلك الأرجاء بفضل الإسلام الذي لم يقف عند حد غانا بل تعداه إلى فرع آخر من العرق الذي أسس دولة غانا، وهي مالي، وذلك حين ضعفت الوثنية أمام الحماس الديني الغاني مما أفسح المجال لقيام دولة مالي لتؤدي دورها في تاريخ الحضارة

(١) المرجع نفسه، ص١١.
(٢) المرجع نفسه، ص١٢.
(٣) المرجع نفسه، ص١٣.

الإسلامية، وتكون امتداداً لدولة غانا الإسلامية.[1]

بلغت دولة غانا ذروة مجدها وعظمتها من حوالي القرن التاسع الميلادي إلى منتصف القرن الحادي عشر، وهي أقدم دولة عرفت في غربي إفريقية كما قلنا. ومعنى كلمة غانا في لغة السوننكي: «القيادة العسكرية»، ومن هنا أطلقت هذه الكلمة على المدينة التي كانت بها هذه القيادة[2]. ويرى البكري[3] أن كلمة غانا كانت سمة لملوكهم، ربما لأنها تحمل معنى «القائد العسكري» ثم اتسع مدلول الكلمة فأطلقت على العاصمة التي يعيش فيها الملوك، ثم الدولة.

واتسع مدلولها مرة أخرى فصارت علما على المملكة كلها مع بقائها علما على العاصمة.

ويقول جولي Gouilly عن مدينة «والاتا» ـ الواردة في رحلة ابن بطوطة باسم «إيولاتن» ـ أنها ليست سوى تحريف لكلمة «غانا» كما ينطقها السود[4]. والمعروف أن مدينة «والاتا» أنشأها المسلمون الجافلون من أهل غانا، على أثر هجوم الصوصو عليهم سنة(١٢٠٣م).[5]

والملاحظ أن هذه التسمية ليست لها أصول عربية. يقول البكري[6]: «وغانا سمة لملوكهم واسم البلد أوكار» ويقول ياقوت[7]: «كلمة أعجمية لاأعرف لها مشاركا في العربية».

---

(١) المرجع نفسه، ص١٤.

(٢) الدكتور أحمد شلبي: مرجع سبق ذكره، ص١٢، ومرجعه نعيم قداح: «افريقية الغربية في ظل الإسلام، ص٢٢٨.

(٣) أبو عبيد الله عبدالله بن عبدالعزيز البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ـ وهو جزء من كتاب المسالك والممالك. ص١٧٤.

(٤) الدكتور طرخان، مرجع سبق ذكره، ص١٦.

(٥) Bovill: The Goldent Trade; op. cit., p.85.

(٦) البكري، مصدر سبق ذكره، ص١٧٤.

(٧) ياقوت الحموي: كتاب معجم البلدان، المجلد السادس، القاهرة ١٩٠٦م الناشر: مطبعة السعادة، ص٢٦٢.

وتقع غانا القـديمة جنوبي موريتـانيا الحاليـة، وكانت عاصـمتهـا تسمى «كومـبي» وقد عثر الفـرنسيون على أطلال مـدينة بالقرب من كومـبي صالح، يعتقد أنها (كومبي) عاصمـة غانا القديمة، وتقع كومبي صالح على بعد حوالي مائتي ميل شمال باماكو، ويبدو أن الأسـاطير المحلية تربط مابين كومبي صالح وغانا، والخرائب التي عثـر عليها في كومبي ذات أهمية كبـيرة، وتعبر عن فن معـماري على جـانب كبيـر من الإتقان، وكل هذا يجـعلنا نعتـقد في أن هذا بالعواصم أشبه.[١]

وقد بدأ ظهور دولة غانا في القرن الأول الميلادي، وكان ظهورها على يد جماعة من البـيض وفدوا من الشمال، كانوا أكثـر ثقافة من المواطنين الأصليين الذين ينتمون إلى قـبائل السوننكي، ولكن الفقيـه ابن المختار لايقطع في ذلك برأي كما يقول الدكتور شلبي[٢]، ولكنه يرجح أنهم من الصنهاجة، وحدد السعدي أنهم من البيضان، مع عدم الاستطاعـة على الرجوع بنسبهم إلى أي طائفة من البيض. وتعددت الآراء في نسـبتهم[٣]، ونحن نميل مع الدكتور شلبي[٤] إلى

(١) الدكتور شلبي، مرجع سبق ذكره، ص١٠٣.

(٢) المرجع نفسه، ص١٠٣.

(٣) انظر طرخان: دولة غـانا الإسلامية، مـرجع سبق ذكره، ص ص٢٢-٢٣ حيث يقـول: (والمحقق أن حكام غانا الأول من البـيض، يقول السعـدي: «وهم بيضان في الأصل» غيـر أن الشك يدور حول أصولهم الغـامضة، هل هـم من اليهود أم من البـربر، ويقول السعـدي: ص٩ «ولا نعلم أصلهم.. والراجح أنهم من البربر، الـذين اختلطوا بالزنوج، وصلة قبـائل البربر ببلاد السـودان قديمة، ثم إن أهل غانا أنفسهم يقولون إن أسرة بربرية كـانت تحكم في بلادهم منذ زمن بعيد، ويقول «بومان» بأن مؤسس حكومة غانا الأول هم: الـبيض الافريقيون من الفولانيين أو من البربر الـليبيين، ويقول ابن المختار: واخـتلف أي قبيلة هم كانوا منهـا، قيل من الصنهاجة وهو أقـرب عندي لأنهم يقولون في نسبهم أسكع «وهو حم في اصطلاح سـودان لقبا.. والخلاصة أن حكومـة غانا الأولى من البيض، والراجح أنها من البربر، ولها أصول شرقية).

(٤) الدكتور شلبي: مرجع سبق ذكره، ص١٠٣، انظر الدكتور حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ص ص٩٤-٩٧.

ماقاله «فيج» في كتابه تاريخ إفريقية - ص١٤- من أن هذه الدولة قامت امتدادا لقوى مجاورة، وأن الذين وفدوا إليها وأعانوا على قيامها سرعان ما امتزجوا بالسكان الأصليين، واتضح ظهور هذه الدولة للتاريخ في القرن الثالث الميلادي، فقد نشطت التجارة بين شمال الصحراء وجنوبها، أو كما ذكرنا بين البربر وسكان الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط من جهة والزنوج الذين يعيشون جنوب الصحراء من جهة أخرى.

ويذكر الدكتور حسن إبراهيم حسن[1] في سياق حديثه عن الدول الإسلامية التي قامت في غربي إفريقية: أن هذه الدول هي قبائل غازية جاءت من الشمال، أو شعوب زنجية أو شبه زنجية أخذت عن هذه القبائل أسلحتها ونظمها الحربية عن طريق اتصال مستمر خلال الطرق الصحراوية، وأنه إلى الغرب من انحناء نهر النيجر جاءت التأثيرات البيضاء حتى ساعدت على قيام هذه الدول من المغرب والجزائر، على حين أن التأثيرات التي جاءت إلى المنطقة الواقعة بين النيجر وبحيرة تشاد جاءت من برقة ومصر، وأن القبائل الإفريقية التي كانت تقيم على حافة الصحراء وتشتغل بالتجارة أو الرعي استطاعت أن تظفر باستقلالها الذاتي، وتضع لنفسها أسسا اجتماعية وعسكرية سليمة، وكانت إدارة هذه الدول الواسعة تتوقف على بقاء القوة الحربية، إذ يستطيع الزعيم أن يتغلب على صعوبة المواصلات، وأن يكسب دولته لونا من ألوان الوحدة السياسية والاجتماعية، وأن أكبر هذه الدول كانت غانا، التي تختلف كثيرا عن غيرها من الدول السودانية، لأن السبب في تكوينها لم يكن سببا عسكريا، ولذلك بقيت زمنا طويلا، ويرجع السبب في قيامها إلى أنه

(١) الدكتور حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مرجع سبق ذكره، ص ص٩٤-٩٧، بتصرف.

حول القرن الثاني الميلادي خرجت جماعة من سكان إفريقية واستقر بها المقام بين شعوب الماندي الزنجية، وخصوصا بين شعوب السوننكي.

والدكتور حسن إبراهيم لايختلف مع الدكتور شلبي وغيره ممن نقل عنهم هؤلاء، وهو أنه لايعرف أصل هؤلاء المغاربة على التحقيق، ولكن يبدو أنهم تسربوا إلى هذه البلاد تسربا سلميا، ولم يغزوها غزوا، وفي القرن الرابع الميلادي حكم هؤلاء المهاجرون زنوج هذه المناطق وكونوا أسرة حاكمة ظلت تحكم في مدينة «أوكور» حتى نهاية القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي). وقد سقطت هذه الأسرة سنة ١٥٤هـ/ ٧٧٠م حين ثار عليهم حكام السوننكي، وظلوا يحكمون غانا حتى سقطت دولتهم في سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م، وأنه سواء أكان لتلك الأسرة البيضاء وجود أم لم يكن، فالواضح تماما أن شكلا من التنظيم الحكومي والمركزية التجارية أصبح لازما حين بدأ فلاحو الماندي يتجرون مع قوافل الإبل، فيتبادلون بالملح الذهب. وبين القرنين الثاني والخامس، وبمرور الزمن، ومع حركة القوافل دخلت المبادئ الإسلامية والحضارة الإسلامية حتى صبغت هذه الدولة بالسمة الإسلامية البارزة التي كتب عنها البكري في حديثه عن مدينة المسلمين في غانا.

ويبدو أن الأسباب الحقيقية وراء تسرب البيضان حتى كثر عددهم وكونوا دولة هو أنهم كانوا يعرفون مافي هذه المنطقة من ثراء، وكانوا أوعى من سكان الجنوب(١)، كما كانوا يحملون أسلحة لم يعرفها السكان الأصليون، فاستطاعوا

---

(١) انظر: المقريزي: الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، القاهرة ١٨٩٥م الناشر: مطبعة التأليف بمصر، ص٢١، فيه يوضح المقريزي الحالة التي كان عليها أهل البلاد في قوله: «قال ابن سعيد مامعناه: إننا إذا ابتدأنا في بلاد السودان من الغرب فأول مانجد فيه من المدن التي للسودان العراة المهملين الذين هم كالبهائم..».

فرض أنفسهم عن طريق الامتزاج، حتى جاء اليوم الذي ذابت فيه الأقلية البربرية في الأكثرية الزنجية، ونشأ جيل ينتسب إلى السوننكي، وله دربة البربر ومهارتهم، بل لونهم أو شيء منه في كثير من الأحايين، وكما ذكرنا فقد استطاع هذا الجيل أن يستولى على زمام الحكم في غانا سنة ١٥٤هـ/ ٧٧٠م.(١)

ويبدو أن سلطة ملوك غانا من السوننكي كانت أقوى من سلطة من سبقهم، فقد أخذوا يوسعون رقعة بلادهم حتى بلغت أوج عزها في مستهل القرن الحادي عشر الميلادي، حتى صار يشمل المساحات الممتدة بين أعالي نهر السنغال وأعالي نهر النيجر.

وقد جاءت عظمة غانا عن طريق استغلالها واشتغالها بالتجارة وموقعها عند أطراف الصحراء الكبرى، وكان التجار البيض المستقرون يستطيعون التحكم في التجارة السودانية من الذهب والرقيق، وأن يستبدلوا السلع التي تحملها القوافل من المغرب الأقصى(٢)، وأن ملوكها قد بلغوا من القوة والثراء بحيث صاروا يلقبون بملوك الذهب، كما صارت بلادهم تعرف بأرض الذهب، وماتزال حتى اليوم تحتل الصدارة في إنتاج الذهب.(٣)

وربما كانت تجارة الذهب مع غانا قد استقرت تماما قبل مجيء العرب إلى حد أن حاستهم التجارية الحادة التي عملت كثيرا على تطويرها لايمكن الشك فيها أكثر مما تستطيعه الرغبة القوية الكامنة في صدورهم، ففي وقت ما بين سنتي (١١٦ و١٣٣هـ/ ٧٣٤ و٧٥٠م)، في مدى بضعة عقود من احتلالهم لمراكش، أرسلوا حملة عبر الصحراء لمهاجمة غانا، وكانت محاولة أكثر خطورة

---

(١) الدكتور شلبي: مرجع سبق ذكره، ص١٠٥.

(٢) Fage, J.D.: An Introduction To the History of West Africa (Cambridge 1959) p. 143.

(٣) Harisson Church, R.J.: West Africa: op. cit.,

من الحملة التي قادها سبتبمـوس فلاكوس ويوليوس ماترنوس عن طريق فزان، الذي هو أكثر سـهولة من الطريق الآخر، وكان كـشف الذهب الذي يسيل إلى مراكش والاسـتيلاء عـلى مصدره الهـدف الذي لاشك فيه لمـثل هذه المحاولة الطامعة.[1]

كنّا ذكرنا في الفصل السـابق أشياء كثيرة عن أسرار التـجارة، وبالإضافة إلى ذلك يمكن أن نقول: إن طبـيعة الحيـاة العربية والبربرية قـد مكنتهم من أن يكونوا سادة هذه التـجارة عبر الصـحراء، وبذلك نراهم ينفردون بهـذه الميزة، ويتكاثرون لوجود الربح في مثل هذه التجارة الشـاقة، والنظرية الاقتصادية عند ابن خلدون[2] تؤيد ذلك حين يقول: «.. وكذلك نقل السلع من البـلد البعيد لمسافـة أو في شدة الخطر في الطرقات يكون أكـثر فائدة للتجـار وأعظم أرباحا وأكفل بحـوالة الأسواق، لأن السلعة المنقـولة حينئـذ تكون قليلة معوزة لبـعد مكانها أو شـدة الضرر في طريقها، فـيقل حاملوها ويعـز وجودها، وإذا قلت وعزت غلت أثمـانها، وأما إذا كـان البلد قريب المسافـة والطريق سابل بالأمن فانه حينئذ يكثر ناقلوها فتكثر وترخص أثمانها..».

وكانت صـلات غانا التـجارية مع العـالم الخارجي من الأهمـية بمكان، ويرجع ذلك إلى توسط موقعها، فقـد كانت تشغل رقعة الأرض التي تقع عند الطرف الجنوبي لطريق القوافـل الغربية عبـر الصحراء الكبرى التي امـتدت بين سجلماسة في بلاد المغرب مارة بتغازة التي اشتهرت بمناجم الملح كما ذكرنا.

---

(١) الدكتور زاهر رياض: الممـالك الإسلامية في غرب إفـريقية وأثرها في تجارة الذهب عبـر الصحراء، القاهرة ١٩٦٨م الناشر: مكتبة الانجلو المصرية، ص٩٣.

(٢) ابن خلدون: العـبر، المجلد الأول، القـسم الثالث، بيـروت ١٩٥٦م، الناشر: دار الكتـاب اللبناني للطباعة والنشر، ص ص٧١٥ ـ ٧١٦.

وكانت غانا تستورد القماش والمنسوجات الحريرية والنحاس والملح، وتصدر تراب الذهب وربما الجلود أيضا، وفي هذا يقول ابن الوردي[١]: «.. في أقصى جنوب المغرب يسافر التجار من سجلماسة إلى غانا.. ويحملون في سفرهم الماء في مفازة اثني عشر يوما، ويجلبون إليها التين والملح والنحاس والودع، ولايجلبون منها إلا الذهب العين».

ولم يكن معظم ذهب غانا يعثر عليه فيها، لكن كانت منطقة بلاد «ونغارا» أهم المصادر التي أمدتها به، وكان شعب الونغارا يقطن بقعة فسيحة امتدت ثلاثمئة ميل طولا وخمسين عرضا في جنوب منطقة نهر السنغال، وليس من اليسير أن تعرف بالدقة موقع الذهب في ديار ونغارا[٢] ولا يفهم من عبارة ابن الفقيه[٣]: «وبلاد غانا ينبت فيها الذهب نباتا في الرمل كما ينبت الجزر، ويقطف عند بزوغ الشمس» إلا على ضوء ما أثبتته الدراسات بأن هذا المكان لايدخل في نطاق دولة غانا السياسي، بل لها السيطرة في التنظيم والمعاملة.

إذن فقد كان السبب في ازدهار هذه الدولة وبقائها أكبر مدة ممكنة دون غيرها من تلك الدول الإفريقية التي كانت تلمع ثم تنطفئ.. أنها قامت على أسس اقتصادية سليمة، فقد وضعت يدها على شبكة تجارية كبيرة، وعرفت استخدام الحديد، والاستفادة منه، وعرفت كيف تتحكم في مصادر الملح وتصريفه إلى الجنوب، كما عرفت كيف تصدر الذهب من الجنوب إلى الشمال بالتحكم والتفاهم مع مستخرجي الذهب من بلاد الونغارا، بالإضافة إلى

(١) ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر، طبعة المطبعة الوهيبية بالقاهرة سنة ١٢٨٥هـ. ص٨٤، المقريزي: الإلمام، مصدر سبق ذكره، ص٢٢.

(٢) عبدالرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في غرب إفريقية، مرجع سبق ذكره ص١٨.

(٣) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، طبعة مطبعة بريل بليدن سنة ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م، ص٨٧.

التحكم في تجارة النحاس وطرق توزيعه.

وكانت غانا حريصة كل الحرص على استتباب الأمن ووضع الخطة السليمة لضمان استمرار التجارة وعدم تعرضها للفوضى، كل ذلك عن طريق سياسة حكيمة. وفصل التجارة عن السياسة أمر شاذ، ولكنه كان شيئا مميزا لشمالي إفريقية وغربيها؛ فليو الإفريقي يروي كيف كانت بعض قبائل أطلس التي كانت في حالة حرب دائمة بعضها مع بعض تعقد الهدنات المنتظمة من أجل ضمان استمرار أسواقها الداخلية، كما لم تتوقف التجارة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط خلال القرون الطويلة من الصراع بين أوربا المسيحية والولايات البربرية، إذ لم تتأثر بها إلا قليلاً، إلى حد أن كلاً من المسيحيين والمسلمين ظلوا يترددون على أسواق بعضهم البعض دون خوف.[1]

ولقد كان لشعب غانا طريقة غريبة في عملية التبادل التجاري، وذلك لأن التجار كانوا يقدمون على البلد الذي يريدون الاتجار معه، ثم يعرضون سلعهم على شواطئ الأنهار، ثم يتوارون عن الأعين فترة من الزمن ليتيحوا للوطنيين فرصة رؤية السلع، وماهي إلا فترة حتى يظهر الوطنيون، فإذا ما أرادوا شراء شيء وضعوا بجانبه قيمته ذهبا، ثم ينسحبون بدورهم ليظهر الغانيون، فإذا رضوا عن كميات الذهب المقدمة حملوها معهم وإذا لم يرضوا عن مقدار الذهب اختفوا مرة أخرى حتى تزاد الكمية، وهكذا يظهرون ويختفون حتى يرضوا تماما عما يقدم لهم، ثم يعودون إلى بلادهم بهذه القوة الاقتصادية الكبيرة من الذهب، الذي كان يُوجد في تلك المنطقة التي تسمى «غينيا» الآن.[2]

---

(١) الدكتور زاهر رياض: مرجع سبق ذكره، ص١٠٧.

(٢) الدكتور عبده بدوي: مع حركة الإسلام في إفريقية، القاهرة ١٩٧٠م، الناشر الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر، ص١٥٠.

ولا يعرف أحد اللغة التي كانت تستعمل في هذه الدولة السودانية في مراحلها الأولى، ولكن علماء الآثار كشفوا عن مدن كانت تعتمد على تجارة واسعة النطاق، كما يشهد الرحالة بوجود ملكية قديمة، ونظام ضرايبي وإداري مستقر الدعائم، ومحلات لإقامة التجار البربر والرعايا الزنوج.[1]

وكما قلنا لم تكن غانا تسيطر على مناجم الذهب التي كان يعتمد عليها ثراؤها، وكذلك لم يسيطر عليها المرابطون أو دولة مالي. ففي الحالات الثلاث جميعا تمثلت الثروة في التجارة التي جعل منها المنظم عملا مجزيا، غير أن هذا الموقف ذاته كان يجتذب أي فاتح يستطيع أن يوفر تنظيما أفضل، أو طريقا مباشرا إلى المناجم، والشاهد القوي على معرفة الغانيين لفنون التجارة تنظيمهم للجمارك تنظيما لايختلف في مبادئه العامة عن تنظيم الدول الحديثة لهذه الأداة التي تؤثر كثيرا في التجارة؛ يحدثنا البكري[2] عن خدمة الملك ومهارة مرشديه لهذه الفنون فيقول: إن غانا كانت تفرض دينارا من الذهب تجبيه على كل حمار من الملح يدخل المدينة، وديناريين على كل حمل يخرج منها، لعلمه أن الملح والذهب يحفظان قيمتهما دائما، على أن السلع الأخرى كانت مهمة أيضا، فقد كان كل حمل من النحاس القادم لغانا من مناجم في الصحراء الجنوبية يدفع للملك خمسة متشالات (عملة ذهبية كانت تساوي ثُمن أوقية) بينما كانت السلع الأخرى يُدفع عنها ضعف هذا المقدار. فهذه أمور تدل كلها على أن غانا استمدت ثراءها من التجارة والضرائب، وأنها استمتعت بفترة طويلة من الاستقرار والحكم المركزي القادر[3].

---

(١) دونالد ويدنر: مرجع سبق ذكره، ص٤٧.

(٢) البكري، المغرب، مصدر سبق ذكره، ص١٧٦.

(٣) بازل دافيد سون: مرجع سبق ذكره، ص١٤٢.

وكانت تجارة الذهب تلعب دورا هاما في اقتصاديات العصور الوسطى بصفة عامة، فكانت تصدر إلى بلاد المغرب وإلى غربي أوربا، وفي الوقت الحاضر يستخرج الافريقيون من هذه المناجم ١٤٠٫٠٠٠ أوقية في السنة.[١]

وقد تمتعت غانا في ظل ملوكها من السوننكي بحكومة مستقرة وأمن مستتب مدة قرنين من الزمان، وازدهرت تجارة الذهب، وطبقت شهرة غانا الآفاق، وجاءها كثيرون من مسلمي إفريقية، فاستقروا فيها وزاولوا التجارة أو الاشتغال في الوظائف، وبنوا لأنفسهم مدينة من الحجر بعيدة عن المدينة الوطنية المبنية من الطين والقش.[٢]

وكان في المدينة الإسلامية اثنا عشر مسجدا، وقد عاش فيها كثير من المعلمين وعلماء الدين والأدب والطلاب، وكانت اللغة العربية لغة التدريس، ليس عند المسلمين فحسب، بل في جميع أنحاء الدولة، وكان في المدينة الوثنية مسجد واحد يؤدي فيه ضيوف الملك من المسلمين الصلاة، ويقع إلى جوار دار القضاء.[٣]

وقد شغل مناصب الدولة المسلمون والوثنيون على السواء. ويذكر البكري[٤] أن غالبية الوزراء كانوا من المسلمين، وأن القائم بشؤون الترجمة في بلاط الملك ووزير الخزانة كانا من المسلمين أيضا.

وقد استمد البكري وصف كومبي حاضرة غانا من المعلومات التي كان يحصل عليها من تجار البربر الذين عرفوا المدينة جيداً، وتتحدث معظم هذه المعلومات عن رخاء كومبي ونشاطها التجاري وروعة القصر الملكي.[٥]

---

(١) انظر: Harisson Church, R.J.: op. cit., p. 143.

(٢) الدكتور حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في إفريقية، مرجع سبق ذكره ص ص٩٨-٩٩.

(٣) البكري، مصدر سبق ذكره، ص١٧٥.

(٤) المصدر نفسه، ص١٧٥.

(٥) البكري، المصدر نفسه، ص١٧٦.

ووجود طائفة إسلامية في غانا منذ زمان مبكر يدل على قدم الإسلام في هذه الدولة التي ظلت تنمو بالتدريج، وأن الإسلام قديم في السودان الغربي والأوسط، ولم يكن المرابطون الذين قاموا بنشر الدعوة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي، هم الذين أدخلوا الإسلام في تلك البلاد لأول مرة، بل إن حركتهم أدت إلى ازدياد عدد الداخلين في الإسلام، وماذكره بعض المؤرخين يثبت ذلك، فمما أورده صاحب الإلمام[1] عن ابن سعيد قوله: «وغانا مدينتان إحداهما يسكنها المسلمون، والأخرى الكفار». بل إن ملك غانا يدعي أنه من نسل الحسين بن علي رضي الله عنهما.[2]

ويذكر البكري[3] أنه كان بمدينة (غيارو) - التي تبعد عن النيجر اثني عشر ميلاً - كثير من المسلمين، وأن بغربيها على نهر النيجر مدينة(يرسني) التي يسكنها مسلمون[4]، وأن أهل مدينة (كوغة) مسلمون[5]. وهناك مدينة (الوكن)، يقال إن حاكمها مسلم يخفي إسلامه[6]. وأقام بنو مداسة البربر المسلمون على منحنى نهر النيجر منذ بداية القرن الخامس الهجري[7]، وأقام بنو سغمارة المسلمون البربر جنوبي منحنى النيجر بثلاث مراحل.[8]

---

(١) المقريزي: الإلمام، مصدر سبق ذكره، ص٢٣.
انظر: ابن خلدون: العبر جـ٦، بيروت ١٩٥٧م، الناشر دار الكتاب اللبناني، ص٤١٢. انظر أبوالفداء: تقويم البلدان، باريس ١٨٥٠م الناشر: دار الطباعة السلطانية، ص١٥٧.

(٢) المصدر نفسه، ص١٥٧، انظر، القلقشندي: صبح الأعشى جـ٥، مصدر سبق ذكره، ص٢٨٤.

(٣) المغرب، مصدر سبق ذكره، ص١٧٧.

(٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٥) المصدر نفسه، ص١٧٩.

(٦) المصدر نفسه، ص١٧٩.

(٧) المصدر نفسه، ص١٨٠.

(٨) المصدر نفسه، ص١٨١، ١٨٢.

فالصلة التجارية والثقافية قديمة منذ الأزمنة السحيقة مابين بلاد السودان وبلاد البحر المتوسط، وقد كثرت هجرة المسلمين بعد ظهور الإسلام من العرب والبربر إلى بلاد السودان، واحتكر المسلمون الاتصال ببلاد السودان لأسباب دينية وتجارية، واستقرت أعداد كبيرة منهم في تلك البلاد.

وهناك جهود أودغست الإسلامية، وتفاني ملوكها في نشر الإسلام بين الزنوج بغربي افريقية بصفة عامة، وقد بلغت هذه ذروة قوتها وعظمتها خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، وقامت بدور كبير في الدعوة إلى الإسلام قبل حركة المرابطين.[1]

وذكر الحموي[2] أن أهل أودغست قد أسلموا على يد المهدي عبيدالله (٢٩٧ـ٣٢٢هـ/ ٨٨٤-٩٣٣م) وقال البكري[3]: «وكان صاحب أودغست في عشر الخمسين وثلاثمئة (تين يروتان بن ويسنو بن نزار) رجل من صنهاجة وكان قد دان له أزيد من عشرين ملكاً من ملوك السودان، كلهم يؤدي إليه الجزية. وكان عمله مسيرة شهرين في مثلها في عمارة يعتد في مئة ألف نجيب..» ويذكر القلقشندي[4]... وابن أبي دينار[5]: أول من تملك منهم الصحراء (بربر صنهاجة) تيولثان بن تيكلان، ملك الصحراء بأسرها، ودانت له ملوك السودان، وأدوا له الجزية، وكان يركب في مئة ألف نجيب، وكان في أيام عبدالرحمن الداخل (ت ٢٢٢هـ/ ٨٣٦م).

---

(١) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، سبق ذكره، جـ٥/ ١٨٩، البكري: المغرب، سبق ذكره، ص١٥٩؛ ابن أبي دينار: المونس، سبق ذكره، ص١٠١؛ الدكتور إبراهيم علي طرخان، مرجع سبق ذكره، ص٤١ـ٤٢.

(٢) معجم البلدان: جـ١، ص٣٧٠.

(٣) المغرب، ص١٥٩.

(٤) صبح الأعشى، جـ٥، ص١٨٩.

(٥) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص١٠١.

والمعروف أن أودغست مدينة سوننكية الأصل، ولو أن حكامها من البربر البيض من قبيلة لمتونة، جـاهدت هذه الدولة في نشر الإسلام، جنبا إلى جنب مع تنشـيط حركة التـجارة بين بلاد السـودان وشمـالي إفريقـية، عبـر الطرق الصحراوية. فلا غرو فقد كانت أيضاً في منطقة تجارية مهمة، كانت تجاور غانا كما هو واضح من وصف المؤرخين وعلى رأسهم ابن حوقل[1]، الذي قال في ذلك: «وملك أودغست هذا يخالط ملك غانا».

كان لكل تلك الجـهود والصلات المباشـرة بين المسلمين بشمالي إفريـقية وبلاد السودان، أثرها بلاشك فـي دخول أعداد كبـيرة في الإسلام قـبل القرن الحادي عـشر الميلادي. ولما كـانت غانا جزءًا من بلاد السـودان، فلا ريب أن الإسلام دخلها وانتشر بين بنيها بدرجـات متفاوتة، لكن لا نستطيع أن نقول إن البلاد كلها، حكومـة وشعبا، أو حكاما ومحكومين، قـد اعتنقت الإسلام، أو إن الإسلام صـار الدين الرسـمي لدولة غانا، ولكن نقـول إن حركـة المرابطين كانت عاملا تنشيطيـاً وتوسيعياً لحركة الدعوة الإسلامية في أفـريقية الغربية في ذلك الزمان كما ذكرنا من قبل.

واشتهر أهل غانا، وأغلبهم كما ذكرنا من السوننكة، بحماستهم الشديدة للإسلام، واشتهروا بالدور الكبيـر الذي نهضوا به في الدعوة إلى الإسلام، إذ كانت هذه العـقيدة ذات أثر عـميق في حـياتهم الاجتـماعيـة، حتى إن بعض عشائر السوننكة تكاد تختص بالعمل في الدعوة إلى الإسلام فقط، بل إن كلمة «سوننك» في أعـالي نهر غمـبيا، استـخدمهـا الماندنكا الوثنيون مرادفـا لكلمة

---

(١) صورة الأرض، بيروت، لم يذكـر سنة الطبع الناشر: دار الحياة ببـيروت: ص٩٨. وابن حوقل هذا تاجر ورحالة عاش في القرن العاشر الميلادي، وقد اتخذ من التجارة وسيلة لتفهم خصائص الأقاليم.

«داعية»، مما يدل على الدور الكبير الذي لعبه السوننك في نشر الإسلام.[1]

لقد كانت التجارة كما رأينا عاملاً حاسما في قيام دولة غانا قبل الإسلام، واستمرارها بعد ذلك في ظل الإسلام لفترة طويلة، وأن التجارة كانت العامل الأساسي الذي أوجد جماعة إسلامية وحضارة إسلامية في غانا في العصور الوسطى، ولا تعجب إذا كانت التجارة نفسها عاملا حاسما في ضعف غانا الإسلامية وسقوطها، وذلك لما جلبته المنافسة التجارية والسيطرة على الطرق التجارية من صراع طويل بين قبائل البربر قبل الإسلام وبعده، وبين ملوك هذه الدولة التجارية الغنية.. ولمعرفة هذا فسنتعرض في المطلب التالي إلى نتيجة هذا الصراع.

المطلب الثاني: المرابطون ودولة غانا

لقد تطرقنا في أول هذه الدراسة إلى إسلام البربر حتى أصبحوا جزءاً مهماً في الحركة الإسلامية في الشمال الإفريقي، وجنداً لطارق بن زياد ـ الذي نبغ منهم ـ في فتح الأندلس سنة ٩٣هـ/ ٧١١م.

منذ ذلك الحين أصبح المغرب القاعدة الأمامية لنشر اللغة العربية والإسلام في غربي أفريقية، وفي الأجزاء الجنوبية من الصحراء الكبرى. ولم يكن نفوذ البربر مقصورا على الأقاليم التي تمتد على ساحل البحر الأبيض المتوسط، فالمعروف أن أول من ملك منهم الصحراء زعيم اسمه (تيولثان)، (ت ٢٢٢هـ/ ٨٣٦م) كما جاء في صبح الأعشى[2] وملك بعده حفيده، «بلثان» (ت ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م) ثم ابنه تميم إلى عام ٣٠٦هـ/ ٩١٨م. ثم افترق أمرهم

---

(١) Trimingham: Islam in W.A, op. cit, pp. 13-14.، الدكتور طرخان، مرجع سبق ذكره، ص٤٨.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥، مصدر سبق ذكره، ص١٨٩ وعبارته «إن أول من ملك الصحراء من لمتونة (بتلوثان)، وقد اعتمدنا رسم ابن أبي دينار «تيولثان».

مئة وعشرين عاما إلى أن قـام فيهم أبوعبدالله، وحج ثم توفي بعد ثلاثة أعوام من رياسته، وقام بأمرهم من بعده صهره يحيى بن إبراهيم.[١]

وكان لهؤلاء البربر، وبخاصـة تجارهم، الفضل في الدعوة إلى الإسلام بين القبـائل الزنجية التي تقطن الصـحراء، كمـا يرجع الفضل أيضا إلى مـركز تجارتهم الموجـودة في السهول التي تلي تخـوم الصحراء، وأول مـا يقابلنا من القبائل البربرية التي عملت في سبيل نشر الدعوة: صنهاجة، وقد سكن أفرادها ديار الصحراء الممتدة بين موريتانيا (شنقيط) إلى جبال حجار، وإلى الجنوب إلى حدود السودان الغربي - أي غربي إفريقية.

وفي القرن التـاسع اتحدت صنهاجـة من قبائل لمتـونة ومسوفـة وجدالة، وكان هدف هذا الاتحاد العمل على تنظيم تجارة القوافل عبر الصحراء، فيما بين أقصى الشمال حيث تنزل قـبيلة ولاتة، وأقصى الجنوب حيث كانت تقع مملكة غانا، لم يكتب لهذا الاتحاد العمر الطويـل، فوهن أثره وتفرقت كلمة القبائل، وانتهزت غانا تلك الفرصة فازدهرت وتسلطت على بعض أجزاء الصحراء التي يؤمها تجار القوافل من البربر والعرب[٢]. وقد ذكرنا هذا من قبل.

ومما سـبق يظهـر لنا جليـا مدى أهـميـة السـيطرة على طرق القـوافل التجارية، إذ إنها كانت الدعامة الأولى التي يجب ضمانها لقيام أي دولة بربرية في شمال منطقة السافنا السودانيـة، وبذلك كانت هذه التجارة هي مصدر القوة لكل الدول التي قامت جنوب الصـحراء الكبرى أو شمالهـا على السواء، وفي هذا المعنـى الـذي نؤكده، يقـول ترمنجهام[٣] إن صنهاجة أخذت قوتها من سيطرتها

(١) المصدر نفسه، ونفس الصفـحة، انظر محمد عبدالفتاح إبراهيم: إفريقـية من السنغال إلى نهر جوبا، مرجع سبق ذكره، ص ص٩٩-١٠٠.

(٢) الدكتور عبدالرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في غرب إفريقية، مرجع سبق ذكره ص٦.

(٣) Trimingham: Islam In West Africa, op. cit., p. 52.

على المسالك التجارية، إذ إنها فرضت ضرائب على كل القوافل المارة بمناطقهم، ولكنه في سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م يبدو أنه من المحتمل أن خلافات داخلية بين قبائل صنهاجة أدى إلى اضطراب المسالك التجارية، مما أتاح الفرصة للسوننكة في غانا أن يسيطروا على مدينة أودغست، وعينوا عليها حاكما زنجيا. مما استوجب بعد ذلك على صنهاجة أن يستعيدوا هذه المدينة لأهميتها كنقطة لطرق القوافل التجارية.[١]

ولما اعتنقت صنهاجة الإسلام في القرن العاشر، تسرب الدين الحنيف ـ كما رأينا ـ عبر الصحراء، وبدأت المراكز التجارية في الصحراء[٢] ومنها أودغست ـ المركز الأمامي لتجارة غانا على حافتها الشمالية ـ تتسم بالطابع الإسلامي، ولعل أبرز دور لهذه المراكز التجارية هو أنْ تسرَّبَ عبرَها الإسلام إلى غانا خاصة، وغربي افريقية عامة، للمرة الأولى، وذلك بفضل ماخلفته العلاقات التجارية بين بربر الشمال وزنوج الجنوب.

وفي عام ٤١١هـ/ ١٠٢٠م واجه زعماء لمتونة وجدالة ومسوفة، وهي قبائل صنهاجة، واجهت قوة غانا النامية، ولذلك عادوا ثانية إلى توحيد كلمة القبائل أمام الخطر المحدق، وكان تارسينا، زعيم لمتونة، أول زعيم صنهاجي مسلم أدى فريضة الحج، وفي مكة امتلأت جوانحه بفكرة الجهاد ضد الزنوج الوثنيين ودعوتهم للإسلام، وقد استشهد وهو يقاتلهم سنة ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م[٣].

---

(١) الدكتور عبدالرحمن زكي، المرجع السابق، ص٦.
انظر: أبوالفداء، مصدر سبق ذكره، ص١٢٥ عن وصف أودغست.
الدكتور عبدالهادي شعيرة، مرجع سبق ذكره، ص٢٢.

(٢) للوقوف على مواقع هذه المراكز التجارية وصفها انظر: الدكتور عبدالهادي شعيرة، مرجع سبق ذكره، ص ص١٦ـ٢٣.

(٣) الدكتور عبدالرحمن زكي، مرجع سبق ذكره، ص٦.

ويمكن القول بأنه كان الرجل الذي غرس بذرة الكفاح الإسلامي في غربي إفريقية وتبعه الرجل الثاني، وهو يحيى بن إبراهيم، زوج ابنته، ليكمل رسالته، وكان يحيى شيخ قبيلة جدالة.(١)

وبعد تمحيص وبحث فيمن يحمل معه أعباء الدعوة وقع الاختيار على عبدالله بن ياسين الجذلي، الذي لجأ إلى رباط في السنغال بعد فشله في الدعوة إلى الإسلام بين أهله الملثمين في الصحراء، وأخيرا قويت شوكته وتكونت أول نواة لدولة المرابطين التي اتسعت فيما بعد حتى الأندلس وقضت على غانا سياسيا.(٢)

ويذكر رولاند أوليفر وجون فيج(٣) بأن المسؤولية الأساسية لمهمة ابن ياسين إنما جاءت كرد فعل للتطورات الضارة بمصالح الصنهاجة سواء في مراكش أو في غربي إفريقية. ويعنى بذلك الظروف السياسية والاقتصادية الصعبة التي أحاطت بالمنطقة الغربية من الصحراء الكبرى آنذاك. فمراكش كانت من قبل مملكة تدب فيها الفوضى والاضطراب، فعلى الرغم من نجاح غزوات الفاطميين عسكريا إلا أنها لم تلحق بالبلاد هزيمة حقيقية، ومن أسباب ذلك العداء الفطري للقبائل الرحل ضد أي حكم أجنبي، ومن الأسباب الأخرى أيضاً أنهم استعدوا الأمويين في أسبانيا، ولم يكن النصر الحقيقي للفاطميين أو الأمويين، وإنما كان لقبائل زناتة في الغرب، وقد كان لتفوق زناتة وتغلغلهم نتيجتان مهمتان: الأولى أن معظم امتدادها كان يشمل مناطق مشيخات الصنهاجة في جنوب مراكش. ومن هنا استعانوا بأقربائهم الطوارق

---

(١) المرجع نفسه، ص ص٦-٧.

(٢) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٥، مصدر سبق ذكره، ص١٨٩.

(٣) رولاند أوليفر وجون فيج، مرجع سبق ذكره، ٩٢-٩٣.

في الصحراء الكبرى. والثانية أن مجيء زناتة قد زعزع اقتصاديات نهاية الطرق الصحراوية التجارية المراكشية التي كانت تجوبها الصنهاجة الطوارق، وفي الوقت نفسه كانت الصنهاجة في الصحراء الكبرى قد بدأت تعاني من نمو غانا التي نجحت في نهاية القرن العاشر كما قلنا في فرض الجزية على أودغست التي تمثل مركزهم التجاري الرئيس في الجنوب، لذا لانخطئ إن قلنا إن من أهداف هذا الحلف الجديد الهجوم على ملك غانا، والسيطرة على طرق التجارة واسترداد ما فقده الحلف من مصالح تجارية.[١]

وقد أشار إلى وجود العامل الاقتصادي في حركة المرابطين كثير ممن كتب في هذا الموضوع، فقال ديفدسون[٢]: إنه في سنة ١٠٥٤م اتجه المرابطون جنوبا لنشر الدعوة الإسلامية في هذه المناطق بين الوثنيين.. ولكنهم كانوا ينشدون أيضا المغانم التي قد تعود من وراء هذا الغزو.. كانت مصادر الملح تحت سيطرتهم في ذلك الوقت.. فسعوا إلى السيطرة أيضا على مصادر الذهب، وكان قدومهم سريعا، وأدى إلى انهيار دولة غانا. وللوقوف على الأسباب السياسية والدينية والاقتصادية في تحركات المرابطين جنوبا وشمالا من الصحراء الكبرى، فإننا نجد ذلك مبسوطاً في كتاب للدكتور عبدالهادي شعيرة[٣]. وما يهمنا هنا أن مما ذكره حول الدافع الاقتصادي في هذه الحركة هو قوله: إن الأسباب المباشرة إنما تؤثر بفعل أسباب أخرى مهيئة للعمل دافعة إليه، ومن هذا النوع من الأسباب ـ يقول شعيرة ـ السبب الاقتصادي.[٤]

(١) الدكتور عبدالرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في غرب إفريقية، مرجع سبق ذكره، ص٢٢.
(٢) بازل ديفدسون: مرجع سبق ذكره، ص ص٤٤ـ٤٥.
(٣) مرجع سبق ذكره، ص ص٥٦ـ ٥٨..
(٤) المرجع نفسه، ص٥٨.

لقد فتح المرابطون مدينة أودغست عام ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م وعاقبوها على خضوعها لدولة غانا واستسلامها لها بدفع الجزية، وقبول سيادة السوننك فترة من الزمن، وبعد أن فرغ المرابطون من أودغست اتجهوا إلى كومبي صالح عاصمة غانا نفسها، واقتحموها عام ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م، وأقاموا عليها حاكما مسلما، ومنذ ذلك الوقت صار ملوك غانا مسلمين، سواء كانوا تابعين للمرابطين حتى عام ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م، أو أنهم انفصلوا عنهم بعد ذلك العام، وهو سنة وفاة أبي بكر زعيم المرابطين، وأعلنوا تبعيتهم للخليفة العباسي في بغداد مباشرة كما ذكرنا.[١]

وقد كان سقوط غانا نهائيا على يد قبائل الصوصو سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م، وفر مسلمو غانا إلى والاتا حيث أقاموا بها مركزا تجاريا لهم، سرعان ما ازدهر حتى صارت من أعظم المراكز التجارية في السودان الغربي.[٢]

وذِكْرُنا للجانب الاقتصادي في حركة المرابطين لايعني إغفال الجانب الديني في الحركة، لأن أساسها الأول ديني، وكان العامل الاقتصادي عامل تهيئة على حد قول الدكتور شعيرة الآنف الذكر ـ وذلك ليكسروا شوكة العناصر الإسلامية المتعصبة في المغرب من جهة، ومحاربة البدع والخرافات وكل ما لصق بالدين من شوائب، ولتحويل الزنوج عن عبادة الأوثان في السودان من جهة أخرى، وهنا يجب أن نقف قليلا لنقرر حقيقة تاريخية مهمة، وهي أن بعض المؤرخين بالغوا في وصف الجهد الذي اضطلع به المرابطون في نشر الإسلام بين

---

(١) الدكتور طرخان، مرجع سبق ذكره، ص٥٣، انظر: ابن خلدون: العبر، جـ٦، بيروت ١٩٥٧. الناشر: دار الكتاب اللبناني، ص٤١٣ حيث يذكر سقوط «غانية» كما يسميها على يد الملثمين والصوصو، وفي ص ٣٧٣ يتكلم عن المرابطين وجهادهم.

(٢) الدكتور طرخان، المرجع السابق، ص٥٣.

أهل السودان الغربـي، وقالوا إنه بفضلهم وحدهم تم دخـول الإسلام، وفاتهم أن الإسلام قد تسرب في هـدوء بصحبة تجار قوافل الصحـراء من الشمال إلى الجنوب قبل أيام حركة المرابطين في أثناء القـرنين التاسع والعاشر. وكان هؤلاء التجـار يمنحون كامـل الحرية في مزاولة تجـارتهم وتأدية واجباتهـم الدينية، بل والدعوة إلى دينهم أيضاً في حرية مطلقة.[١]

ومما يؤيد هذا وجـود مدن إسلامـية وأحيـاء يسكنها المسلـمون في المدن الوثنية كـما أثبتناه في مكانه من هذا الكتـاب. والواقع أن المرابطين عملوا على الإسراع في مهـمة تحويل الزنوج إلى الإسلام بدلا من سـيرها ببطء تدريجي. وبعد زوال غـانا تسلمت راية الإسلام دولة مـالي الإسلاميـة التي سرعـان ما أصبحت أعظم الدول الزنجية الإسلامية في غربي افريقية.

وبعـد أن فرغنا من طبـيعـة التسـرب الإسلامي إلى دولة غـانا وظروف سقوط هذه الدولة، علينا أن نلقي نظرة في السطور التـالية على الأثر الحضاري للإسلام في دولة غـانا، والذي كان نتـيجة للـعلاقات السلمـية التـجارية بين الشمال الإفريقي ودولة غانا خاصة.

المطلب الثالث : الأثر الحضاري للإسلام في غانا

أولاً ـ الناحية الثقافية :

لقد كان انتشار الإسلام في دولة غانا يعني من بين ما يعني انتشار الثقافة العربية الإسلامـية، ومن ذلك اللغة العربية كلغة للحـديث والمخاطبة والكتابة، فمـا لبثت هذه اللغـة أن نافست اللـغات السائدة فـي العالم القديم، نـافست الفارسيـة في إيران والإغريقية في بلاد الشـام والقبطية في مصـر والقوطية في

(١) الدكتور عبدالرحمن زكي، مرجع سبق ذكره، ص١١.

بلاد الأندلس ولغات أفريقية أخرى.

ولكن اللغة العربية خرجت على مر الأجيال من هذا الصراع ظافرة متغلبة، حيث غلبت تلك اللغات التي ذكرناها. ويتساءل الدكتور حسن محمود[1] عن العوامل التي ساعدت على تغلب لغة العرب على هذه اللغات كلها. ويجد الرد في الدراسة التي قام بها وولنر WOOLNER، فيقول: «درس وولنر هذه الظاهرة في كتابة «Language in History and Politics» وردها إلى عوامل منها:

العامل الأول، الديني : . . فحيثما انتشر الإسلام واستقرت قواعده، انتشرت اللغة العربية.

ولعل مما ساعد على انتشار اللغة العربية على هذا النحو ما أجمع عليه أغلب الأئمة المسلمين من عدم جواز ترجمة القرآن، فعلى من يريد معرفة أسراره أن يقبل على تعلم اللغة العربية، وكذلك عدم جواز كتابته بغير العربية، وعدم جواز القراءة بغير العربية في الصلاة على الرغم من أن الإمام أبا حنيفة قد أجاز في بعض الحالات القراءة في الصلاة بالفارسية، إلا أن كل الفقهاء تقريباً قد نهوا عن ذلك.[2]

فكان كل داخل في الإسلام يتعلم حفظ ما يستطيع أن يقيم به صلاته، ثم يمضي في تعلم اللغة العربية ليزداد تفقهاً في الدين، ولعل الإحجام عن ترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية من أهم الأسباب التي أبقت على اللسان العربي وصانت التراث العربي.

(١) الدكتور حسن أحمد محمود، مرجع سبق ذكره، س ٥١ .
(٢) المرجع نفسه ، ص ٥١ .

العامل الثـاني، القرابة السامـية : لأن الدين وحده ليس كافـياً في تعليل سرعـة هذا الانتشـار، لأن انتشار الإسـلام كان أسـبق من تعلم العربيـة بعدة قرون، بل يعلل انتشار العـربية بالقرابة بينها وبين أخواتها الساميـة في كثير من المظاهر الصوتية واللفظية والنحوية.

العامل الثالث، القرابة الحامية : فعلماء اللغات يجمعون على التشابة بين اللغات السامية والحامية، مثل ذلك التشابه بين اللغات السامية والقبطية مثلاً في الضمائر وأسـماء العدد والتثنيـة وقواعد الصرف والأصـوات الساكنة، مما دفع بعض الباحثين وعلـى رأسهم أرمان، الذي يعد حجـة في الدراسات المصرية، إلى القول بأنها لغة الغزاة من الساميين.

العامل الرابع، العامل الحضاري : فعلماء اللغة يقولون بأنه إذا التقت لغة ذات تراث حضـاري متفوق مع لغـة أخرى حظها من التراث الحـضاري قليل، ينتهي الأمر بتغلب اللغة ذات التراث الحضاري المتفوق.

وعندي أن العـامل الأول هو أقوى العـوامل، فـقد لمست ذلك بنفـسي عندما التقـيت ببعض زملائنا في الدراسة بمصر وهم بخاصـة من السنغال وغانا ونيجيريا وداهومي، يحفظون القرآن ويتلونه تلاوة صحيحة على الرغم من أن بعضهم وخاصة الغانيين لا يستطيع التعـبير عن نفسه باللغة العربية، ومنهم من يحفظ القرآن ولا يفهمه مما كان مـوضع دهشتي وعندما أتيحت لي فرصة زيارة السنغال وجامبيـا عامي ١٣٩٧ و١٣٩٨هـ/ ١٩٧٧و ١٩٧٨م وقفت أيضاً على هذه الظاهرة. وكل هذا إن دل على شيء فإنما يدل على قـوة العامل الديني في نشر اللغة العربية، لا سيما حفظ القرآن والحديث، وكانت هناك بعض العقوبات للأبناء الذين لا يحفظون القرآن كما رأينا، وذلك من واقع رحلة ابن بطوطة.

وقد ضمت غانا منذ فـجر تاريخها وحتى قبل أن تتحـول حكومتها إلى الإسلام، نحـو اثني عشر مسـجداً، ألحق بكل مسـجد مدرسة لتـعليم القرآن وقواعد الدين واللغة العربية، كمـا أن القسم الإسلامي من العاصمة كان مملوءاً بالعلماء والفقـهـاء والأئمـة، وكذلـك كانـت والاتا ونيمـة وأودغـشت مراكز ثقافيـة عربية إسلاميـة، كما كانت مراكـز لنشر الدعوة الإسلامـية، وإن كانت أصلاً مراكز تجارية(١).

كانت اللغـة العربية هي لغـة العبادة والثقـافة الوحيـدة في البلاد، وهذا بجانب كونها لغـة التجارة المستعملة في التبادل التـجاري والمكاتبات، واحتلت هذه اللغة في غـانا وفي غيرها من بلاد السـودان الغربي والأوسط المكانة التي احتلتـها اللغة اللاتينية في العـصور الوسطى، بل زادت عليها، إذ بقـيت اللغة العربية بتلك البلاد لغة للدين والثقافة في العهد الاستعماري، بينما زالت اللغة اللاتينيـة تدريجيـاً أمام زحف اللغـات الجرمـانية القـوميـة بأوربا في العـصور الوسطى، وقد بلغت العربية حداً يفوق كل وصف من الغنى والجمال. وإذا ما تعلموا هذه اللغـة أصبحت لغـة التخاطب بين قبـائل نصف القارة وتستـخدم كمـقدمـة لدراسـة الأدب بل هي أدب في ذاتها. وهي إلى ذلك لغـة شريعـة وقانون مكتوبة، وهذا تغيير يعتبر في ذاته تقدماً هائلاً في الحضارة.(٢)

وفيما يختـص بانتشار حضارة الإسلام يقول الدكتـور حسن محمود(٣) بأن كل الحضارات الإنسانية عموماً تلتـقي وتختلط وتتبادل التأثيرات، وذكر أن هذه الظاهرة قد درسـها الدارسون وعـرض لها فلاسفـة التاريخ ووضعـوا لها

---

(١) انظر: الدكتور طرخان، إمبراطورية غانا الإسلامية، مرجع سبق ذكره، ص ٨٢ .

(٢) السير توماس آرنولد، مرجع سبق ذكره، ص ٣٩٨ .

(٣) الدكتور حسن أحمد محمود، مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٢ـ ١٣ .

القواعـد والأصول، وأن ممن عرض لهذا الموضـوع المؤرخ توينبي، الذي انتهى لقوانين معينة لهذا الالتقاء الثقافي، وهي:

أولاً: الخصائص الفردية للشـقافة الأجنبية أكثـر قبولاً من الثقافة في مجـموعها ومعـنى هـذا الـقول أن الثـقافـة قـد لا تقبـل كـكل، إنـما قـد تقـبـل بعـض أجزائها.

ثانياً: قوة النفاذ لأي إشعاع ثقافي تكون على نسبة عكسية للقيمة الثقافية لذلك الإشعـاع، معنى ذلك أن أتفه الجـوانب الثقافية أعظمها نفـاذاً، وأعمقها أقلها نفاذا.

ثالثاً: قبول عنصر من ثقافة أجنبية سيجر وراءها سائرها.

رابعاً: هذا العنصر المفـرد أكثر إزعاجـاً للمدنية المسـتعيرة مما لو تبنت الثـقافة الأجنبية كلهـا؛ بمعنى أن أخذ عنصر من عناصر أي ثقـافة دون فهم كنه الثقافة كلها قد لا يستطاع هضمه، ومن ثم يصبح عامل إزعاج.

ويذكر الدكـتور حـسن محـمود[1] بأن الوطن الزنجي الصـميم شـهد هذه الظاهرة حينما دخـل إليه الإسلام وفي ركابه الثقـافة العربية الإسلامـية، فأهل البلاد حينما أسلموا وتشربوا الثقافة لم يهملوا تقاليدهم القديمة، إنما قاموا بنوع مـن الملاءمـة بـين تقاليدهـم المحلـيـة الموروثة وثقافتهم الإسلاميـة المكتسبة[2]، كـمـا شهـد بذلك الـرحالة والمؤرخـون العرب الـذين زاروا هذه المنطقة مـثل البكري وابن بطوطة.[3]

---

(١) الدكتور حسن أحمد محمود، مرجع سبق ذكره، ص ١٣ .

(٢) انظر: الدكتـور حسن إبراهيم: انتشـار الإسلام والعروبة فـيما يلي الصـحراء الكبرى، مـرجع سبق ذكره، ص ٢٨ .

(٣) انظر، ابن بطوطة، تحفة النظار، مصدر سبق ذكره، مطبعة التحرير ص ص ٤٤٧ ـ ٤٤٨ .

ثانياً ـ الناحية الاجتماعية :

لقد اتضح ما تقدمه حضارة إفريقية الإسلامية إلى الزنجي الذي تحول الى الإسلام اتضاحاً يبعث على الإعجاب في العبارات الآتية: «إن أقبح الرذائل وهي أكل لحوم البشر، وتقديم الإنسان قرباناً، ووأد الأطفال أحياء، تلك الرذيلة التي نجد ما يبرر الاعتقاد بأنها كانت في وقت ما منتشرة في كل أفريقية، ولاتزال في بقاع كثير منها، حتى تلك الجهات التي لا تبعد عن ساحل الذهب وعن مواطننا، قد اختفت فجأة وإلى الأبد. والساكنون الذين كانوا يعيشون حتى ذلك الوقت عراة بدؤوا يرتدون الملابس، بل يتأنقون في ملابسهم، والساكنون الذين لم يغتسلوا قط من قبل، بدؤوا يغتسلون، بل يكثرون من الاغتسال، لأن الشريعة الإسلامية المقدسة تأمر بالطهارة، وهو فرض لا ينطوي على تأثير قوي جداً في غرائزهم التي جبلوا عليها. ويميل النظام القبلي إلى فتح المجال لأساس أوسع نطاقاً، وبعبارة أخرى إلى اندماج القبائل بعضها في بعض لتصير أمما، وبازدياد النشاط والمعرفة تصير الأمم إمبراطوريات». [1]

لقد قام البناء الاجتماعي في غانا على النظام القبلي شأن غيرها من الدول التي قامت بالسودان الغربي الأوسط، غير أن قيام حكومة مركزية مسيطرة، ساعد على إضعاف التناحر بين القبائل، كما أن الإسلام وتعاليمه كانت أكبر عامل في إضعاف العصبية القبلية وإن لم تمحها، وبفضل الإسلام والثقافة العربية الإسلامية، اتصل الغانيون بأرقى الحضارات الإنسانية المعاصرة،

(١) السير توماس آرنولد، مرجع سبق ذكره ،ص ٣٩٧ .

وهي الحضارة الإسلامية.[1]

ومن عادات الدفن في العهد الوثني، دفن الملك ومعه خدمه والمقربون إليه، فضلاً عن طعامه وشرابه وحليه، وقد أفاض البكري[2] في وصف هذا التقليد، قائلاً: «يؤدون ديانتهم المجوسية وعبادة الدكاكير - أي الأصنام - إذا مات ملكهم عقدوا له قبة عظيمة من خشب الساج ووضعوها في موضع قبره، ثم أتوا به على سرير قليل الفرش، فأدخلوه في تلك القبة، ووضعوا معه حليه وسلاحه وآنيته التي كان يأكل فيها ويشرب، فأدخلوا فيها الأطعمة والأشربة، وأدخلوا معه رجالاً ممن كانوا يخدمون طعامه وشرابه وأغلقوا عليه باب القبة وجعلوا فوق القبة الحصر والأمتعة، ثم اجتمع الناس فردموا فوقها التراب حتى تأتي كالجبل الضخم، ثم يخندقون حولها حتى لا يوصل إلى ذلك الكوم إلا من موضع واحد، وهم يذبحون لموتاهم الذبائح ويقربون لهم الخمور».

ويظهر وضوح الأثر الشرقي القديم في هذا التقليد، فقد وجد عند ملوك كاتسنا من دول الهوسا وذلك قبل اعتناقهم الإسلام.[3] غير أنه عندما صارت الحكومة الغانية إسلامية منذ نهاية القرن الحادي عشر، اختفى هذا التقليد وحلت التقاليد الإسلامية، وعثر على شواهد لقبور عليها بعض آيات القرآن الكريم، فضلاً عن دعوات لصاحب القبر، وذلك باللغة العربية.[4]

أما فيما يتعلق بالفرد: فمن المسلم به من كل الوجوه أن الإسلام يمد السود الذين تحولوا إليه بالنشاط والعزة، والاعتماد على النفس واحترام الذات،

---

(١) الدكتور طرخان، مرجع سبق ذكره، ص ٧٥ .
(٢) البكري، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٦ .
(٣) الدكتور طرخان، المرجع السابق، ص ٨١ .
(٤) المرجع نفسه ، ص ٨١ .

وهذه كلها صفات يندر جداً أن نجدها في مواطنيهم الوثنيين أو المسيحيين.[1]

ولما كان الحج ركناً من أركان الإسلام الخمسة، فقد مارس الغانيون المسلمون كل هذه الأركان، فكانوا يأتون الحج في قوافل على الطرق التجارية التي تتجه عبر السودان الحالي، أو عبر الطرق التجارية المتجهة إلى مصر عن طريق الشمال الأفريقي الشرقي، وفي أثناء مرورهم يمكثون أوقاتاً طويلة في البلدان التي يمرون عليها، ومنهم من يكسب زاد بقية رحلته من عمل يده خلال هذا المكث.. وعن طريق هذه الرحلة يكتسب الحاج بعض عادات الشعوب الإسلامية التي يحط رحاله فيها، ونتيجة لهذا الاحتكاك الروحي مع إخوانهم في العقيدة على طول الطريق من غانا عبر الصحراء ثم إلى مصر ثم إلى الحجاز، اكتسب الغانيون خبرة عن العالم الإسلامي وبعض العادات الإسلامية الاجتماعية، وهذه نتيجة لاشك فيها في علم الاجتماع.

ثالثاً ـ الناحية الاقتصادية:

من هذه الناحية فقد ظهرت صناعات وتجارة، لا كالتجارة الصامتة التي تقوم الإشارات فيها مقام اللغة في التفاهم، ولا كالمبادلة البدائية في الخامات، تلك المبادلة التي نعرف من المؤرخ هيرودوت أنها وجدت في إفريقية منذ أقدم العصور، ولا كالمقايضة بالودع، أو البارود أو الطباق أو الخمر، تلك المقايضة التي لا تزال تستخدم على طول الساحل وسيلة أساسية في التبادل، ولكنها صناعات تنطوي على مهارة فائقة، وتجارة منظمة نظاماً محكماً، وظهرت هذه المدن الكبيرة في أرض الزنوج بتأثير هذه الصناعات والتجارة، وتأثير الحكومات الأكثر استقراراً، التي جاء بها الإسلام، وهي مدن نجد أن الرحالة الأوروبيين

---

(١) السير توماس آرنولد، مرجع سبق ذكره، ص ٣٩٩ .

حين وصفوها أول الأمر لم يستطيعوا إلا أن يهملوا مجرد وجودها.(١)

لقد أضحت مدينة كومبي صالح، أكبر سوق للتجارة في بلاد السودان، زمن ازدهار غانا، وقد استقر فيها عدد كبير من التجار البيض وتحكموا في التجارة السودانية، وأهمها الذهب، وكان من بين التجار عدد كبير من التجار المصريين، ويقال إن أحد التجار المصريين هو الذي اشترى كتلة الذهب الكبرى التي كان ملوك غانا يحتفظون بها في قصورهم.(٢)

حصلت غانا على ثروة طائلة من الضرائب التي فرضتها على السلع الداخلية إلى بلادها والخارجة منها كما ذكرناه في محله، وقد أقامت نظاماً دقيقاً للجمارك، وكان للمسلمين في غانا خبرة واسعة بالشؤون المالية، ولذلك استعان بهم ملوك غانا منذ العهد الوثني، حتى كان منهم من أشرف على الشؤون المالية الحكومية.(٣)

وقد كانت العلاقة التجارية أبرز ما ربط غانا ببلاد البحر الأبيض المتوسط؛ فقد كان ذهب غانا ووارثتها مالي عنصراً أساسياً في اقتصاديات شمالي إفريقية بصفة خاصة، وكذلك بالنسبة لأوربة، وعلى الأقل قبل كشف أمريكة. وبفضل هذه العلاقة تسرب الإسلام لغانا أول مرة كما ذكرنا. ومن البيوت التجارية التي ساهمت في تنشيط هذه العلاقة على نحو منظم، شركة المقَّري، جد الكاتب المعروف أحمد بن محمد المقري المتوفي سنة ١٠٤١هـ/ ١٦٢٣م، صاحب كتاب «نفح الطيب» كما سبق أن ذكرنا. ويحتمل أن هذه

---

(١) السير توماس آرنولد، مرجع سبق ذكره، ص ٣٩٥،

(٢) Bovill: The Golden Trade; op. cit., p.82 .

(٣) انظر البكري، المغرب، مرجع سبق ذكره، ص ص ١٧٥ ـ ١٧٦ .

الأسرة بدأت أعمالها التجارية منذ القرن الثاني عشر، أي قبل نهاية دولة غانا بما يقرب من قرن، وكان لها ممثلون في والاتا عند نهاية دولة غانا على يد الصوصو عام ١٧٨٨هـ/ ١٢٠٣م، كما شهدوا هجرة العلماء والتجار المسلمين من كومبي صالح إلى والاتا، بعد دخول الصوصو.[١]

رابعاً ــ الناحية السياسية :

كان نظام الحكم في دولة غانا ملكياً استبدادياً شأن جميع النظم القائمة في الدول والممالك التي ظهرت في السودان الغربي والأوسط، سواء أكانت في عهدها الوثني أم في عهدها الإسلامي.

والنظام السائد في وراثة العرش في دولة غانا هو توريث ابن الأخت. يقول البكري[٢]: «وسنتهم أن الملك لا يكون إلا في ابن أخت الملك، لأنه لايشك فيه أنه ابن أخته، وهو يشك في ابنه، ولا يقطع على صحة اتصاله به». ويذكر البكري في مكان آخر: «ولا يلبس المخيط من أهل دين الملك غيره وغير ولي عهده، وهو ابن أخته.[٣]

وعلل البكري هذه الظاهرة، بتوفر اليقين في أن الوليد هو ابن أمه، وهذا صحيح، لكن من المعروف أيضاً، أن لهذه الظاهرة أصولاً ترجع إلى التقاليد الوثنية القديمة، وهي التي تعلي من شأن المرأة عند أغلب القبائل الإفريقية الوثنية.[٤]

---

(١) الدكتور طرخان، مرجع سبق ذكره، ص ٨٣ ، انظر:
Bovill: The Golden Trade; op. cit., pp. 98-99.

(٢) البكري، مصدر سبق ذكره ، ص ٧٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٥ .

(٤) الدكتور طرخان، مرجع سبق ذكره، ص ٥٨ .

وظهرت عند السـونك ـ فرع من الماندنجـو ـ والتقليد عـام عند الأصول والفروع، كذلك وجدت هذه الظاهرة عند قبائل البربر خاصة الطوارق، وصلة هؤلاء ببلاد السودان قديمة جداً كما سبق أن ذكرنا.[1]

وقد أضعف الإسلام ظاهرة التوريث لابـن الأخت، وشبيهه ابن البنت، ولكنه لم يقض عليـها قضـاء تاماً في جمـيع الدول والممالك الإسلامـية التي قامت بالسـودان الغربي والأوسط، بدليل بقائهـا في بعض الممالك الإسلامـية التي قامت بالسودان الغربي والأوسط، وقد شهدها ابن بطوطة في القرن الرابع عشر في مدينة تكـدة فلم تعجبه وعلق عليها بقوله: «وذلـك ما رأيته في الدنيا إلا عند كفار بلاد الملبار من الهنود، وأما هؤلاء فهم مسلمون محافظون».[2]

والذي حدث في دولة غـانا في عهدها الإسلامي، أي منذ أواخـر القرن الحادي عشر الميلادي إلى نهايته في مطلع القرن الثالث عشر، أن ظاهرة توريث العــرش لابن الأخت قـد اخـتـفت وصـار الملوك يورثون الحكم لأبـنائهم الذكور.[3]

أما كبار المـوظفين في البلاط الملكي ومستشاروه ووزراؤه فـقد كا نوا من المسلمين حتى في العهد الوثني، إذ كان المسلمون أكبر طبقة مثقفة، وينطبق هذا على المسلمين مـن الوطنيين السـوننك، وعلى من هاجـر من العـرب والبـربر واستـقر في غانا، وشجع على ذلـك نشاط التجارة وازدهارها، وتوفـر فرص العمل في دولة غـانا، فضلاً عن توفـر الأمن لمدة تقرب من قرنين، فقـد كان

(١) انظر السعدي: تاريخ السودان، طبعة انجي سنة ١٨٩٨م، ص ص ٢٠ ـ ٢١ .
(٢) ابن بطوطة، مرجع سبق ذكره، طبعة التحرير ، ص ٤٥٢ .
(٣) نقيم قداح: إفريقية الغربية في ظل الإسلام»، ص ٤ .

لدولة غانا فـرق من الحرس تجوب الصـحراء، ولهذا أكـبر الأثر في نمو المدينة الإسلاميـة وازدحامها بـالصفوة من العلماء والمثـقفين، وقيام المدارس العـربية الإسلامية فيها.[1]

ونتـيجـة لوجود المسلمـين في المناصب الإدارية وفي الجيش والحـرس، أصبحت القوة الإسـلامية تسير قدماً نحو السـيطرة على السلطة، وقد كان من جلال الإسلام أن ترفع بأتبـاعه عن الركوع أمام الملك، وهو ما كان يفـعله غير المسلمين، وفي هذا يقول البكري: «إن أهل دين الملك كـانوا إذا دنوا منه جثوا على ركبهم ونثروا التراب على رؤوسهم، فتلك تحيتهم له، وأما المسلمون فإنما كان سلامهـم عليه تصفيقاً باليدين».[2] «ولعل ذلك قد دفع بالكثير من صفوف الوثنيـين إلى صفـوف المسلمـين، لينعموا بهذه المكـانـة فـي قصـور الملـك، إلـى أن كان الدَّفْع الإسلامي يسير بقوة ليجعل من الملك نفسه مسلمـاً، فيتخلى عن هذه العـادة.

(١) الدكتور طرخان، مرجع سبق ذكره.

(٢) البكري، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٦ .

المبحث الثاني

دولة مالي الإسلامية

المطلب الأول : التطور التاريخي لقيام دولة مالي

مالي، هي المعروفة عند العامة ببلاد «التكرور[1]»، تعد أقوى وأغنى الدول الإفريقية التي ظهرت في إفريقية الغربية، ويميزها عن غيرها ذلك الدور الكبير الذي نهضت به من أجل توحيد القبائل الزنجية داخل ولايات أو وحدات أو ممالك. وكذلك الدور البارز في نشر الإسلام والدعوة له في بلاد غربي أفريقية.

ولا نريد هنا أن نعرض للحروب والغزوات التي قام بها سلاطين مالي، ولا أن نتتبَّع تاريخ الملوك الذين تعاقبوا على دست الحكم في هذه الدولة، ولكننا سنعرض لما يهمنا في موضوع هذا البحث، وهو دور التجارة والطرق التجارية والتجار في قيام هذه الدولة الإسلامية.

إن مؤسسي دولة مالي هم قبائل الماندنجو التي سادت لبضعة قرون في المنطقة الفسيحة الممتدة بين نهر النيجر والمحيط الأطلسي، أي في الوديان العليا لنهر السنغال، وامتدت نحو الجنوب إلى حوالي خط عرض ٥٩ْ شمالاً، ولا توجد منها جماعات مبعثرة في مناطق أخرى بحوض النيجر وما حوله.[2]

ولقد أشار الكتاب العرب من المؤرخين والجغرافيين إلى دولة مالي باسم مل أو مالي أو ملي ونحوها، ومن هؤلاء الكتاب: البكري، الإدريسي، ابن سعيد، أبو الفداء، العمري، ابن بطوطة، ابن خلدون، القلقشندي، ليو الإفريقي، ابن إياس، السعدي وصاحب الفتاش،[3] ابن المختار.

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٥، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٢ .

(٢) الدكتور طرخان: دولة مالي الإسلامية، القاهرة ١٩٧٣م. الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص ٢٧٢

(٣) المرجع نفسه ، ص ٣٠ .

أما ظهور قبائل الماندنجو السياسي على مسرح التاريخ الإفريقي لأول مرة فهذا يرجع إلى زمن بعيد، ومعلوماتنا قليلة عن التاريخ القديم لدولة الماندنجو، وذلك بسبب ندرة المصادر واختلاط الروايات الشفوية بالأساطير، ثم إن السجلات والوثائق الخاصة بدولة الماندنجو لم تدون إلا بعد مرور نحو سبعة قرون أو ثمانية قرون من ظهورها، علماً بأن هذه الوثائق والسجلات لم تعن إلا بأخبار الأسر الحاكمة دون الرعايا، مع نقص أيضاً في هذه الأخبار.(١)

هناك رواية تقول إن ظهور هذه الدولة يرد إلى الفترة التي تكونت خلالها دولة غانا، وذلك قبل البعثة النبوية بزمن طويل، وإنه خلال تلك الفترة التي يقدر مداها الزمني بعهود حوالي اثنين وعشرين ملكاً في غانا(٢)، حيث كانت دولة الماندنجو تنمو وتتسع تدريجياً في إقليم كانجابا بأعالي نهر النيجر، وكان ذلك الإقليم تابعاً لدولة غانا(٣). وقد بدأ المعروف عن تاريخ هذه الدولة يتضح منذ القرن السابع الميلادي، على أنها بلغت ذروة مجدها خلال القرن (٨هـ/ ١٤م).(٤)

ولهذه الدولة منذ فجر ظهورها ما لا يقل عن ثماني أسر حاكمة، لا يعرف عنها إلا القليل، مثل أسرة كوروما وأسرة ديارا وأسرة مركو وأسرة كامارا وأسرة باكابوكو وأسرة الترورين وأسرة الكونانتيين وأسرة كيتا. . إلخ.(٥)

---

(١) الدكتور طرخان، دولة مالي الإسلامية، مرجع سبق ذكره، ص ٣٢، ناقلاً عن مراجع أجنبية.

(٢) السعدي، مصدر سبق ذكره، ص ٩ .

(٣) انظر، الدكتور شلبي، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤١ ، انظر أيضاً الدكتور حسن محمود، الإسلام والثقافة، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٠ .

(٤) Harisson Church, R.J.,: op.cit ., P. 238.

(٥) انظر، طرخان، دولة مالي، مرجع سبق ذكره، ص ٣٣ ، ٣٥ .

بعد مـهاجـمة المرابطين لدولة غـانا سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م كمـا ذكرنا، وجعلهـا جزءاً من دولتهم، وإعطائهم دفعـة قوية للإسلام في ربوعهـا، وبعد موت القـائد المرابطي أبي بكر سنة ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م اخـتلف أتباعـه في هذه البقاع، فـفتح هذا الخلاف الباب للسوننكـي، حكام غانا السابقين، ليستـعيدوا نفوذهم، ولكن صـراعاً دب بين المقـاطعات التي كانت خـاضعـة لدولة غانا، وكان النصر في هذا الصراع لقبائل الماندنجـو المسلمة، الذين كانوا سادة مقاطعة كانجابا، وكان يقودهم ملكهم سنديـاتا، وقد أتاح لهم ذلك النصر أن يستولوا على أكثـر الأجزاء التي كانت تابعة لدولة غـانا، وأن يقيموا على أنقـاض غانا دولة جديدة إسـلامية عرفت بدولة ملي، أو مـالي، وكان ذلك سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م[١] ولعل التسمية مالي جاءت من اسم أقدم مدينة في هذه المنطقة.[٢]

وكان تـوسع هذه الدولة يستـجيب للأحـداث السيـاسيـة المعاصرة لـها ولنصيب الدول المحيطة بها من القوة أو الضعف. ذلك أن توسـعها واستهلالها لحركـة دافعـة من الفـتح أو التوسع وقع في القـرن (٧هـ/ ١٣م)، في الوقت الذي تفكك فيه ملك غانا بعد صـراعها مع المرابطين، وبعد أن تسرب الإسلام إلى صفـوفهـا على نطاق واسع، وفي الوقت نفـسه الذي كانت دولـة المغرب الإسلامي قد شغلت بـشؤونها الخاصة وبأحداثها المحليـة، ودولة الموحدين كان قد دهمهـا الانحلال والتفكك، وانقســمت إلى دويلات صغرى متـصارعة من أجل القوة والنفوذ.[٣]

وفيمـا يذكر القلقشندي[٤]، يتبيين لنا كيف أصـبحت مالي وارثة لدولة

(١) الدكتور شلبي، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤١ .

(٢) Triminghan, J.S.: The History Of Islam In W.A., op. cit., 62 .

(٣) الدكتور حسن محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقية ، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤٠ .

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى ، جـ٥ مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٦ .

غانا، حين قال: «وذكر في مسالك الأبصار: أن هذه المملكة تشتمل على أربعة عشر إقليماً، وهي غانا، وزفاون وترنكا وتكرور، وسنغانا، وبانيغو، وزرنطابا، وبيترا، ودمورا وزاغا، وكابرا، وبراغودي، وكوكو، ومالي». ومن هنا نلاحظ أن ما يتداوله العامة من أن مالي هي تكرور ما هو إلا جزء من الحقيقة التاريخية؛ أما الحقيقة الكاملة فهي أن التكرور جزء من مالي، ومما يذكره المؤرخون العرب أن مالي يأنف أن يدعى بصاحب التكرور، بل يجب أن يقال له: «صاحب مالي»، لأن التكرور كما رأينا جزء من مملكته.[1] وتأكيداً لهذا القول ما يورده العمري[2] في أن مالي عبارة عن اسم إقليم والتكرور مدينة من مدنها، ولكن عندما تكلم عن مالي كان عنوان كلامه «ملك التكرور، مما يدل على معرفته بما تنطوي عليه التسمية.

وأول ملك قادهم في هذه الانتصارات ضد غانا والصوصو ملك اسمه «سندياتا»، وهو الذي بنى عاصمة جديدة في نفس السنة التي هزم فيها غانا لتتوسط ملكه الكبير بدلاً من عاصمته القديمة «جارب».[3] واختار لعاصمته الجديدة مكاناً غير بعيد من نهر النيجر، وسماها «نيامي، في موقع يتحكم في الناحية الاقتصادية والحربية والسياسية للدولة ، وتلقب هذا الملك، بـ «ماري جاطة».[4]

(١) انظر القلقشندي، صبح الأعشى جـ٥ مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٢ .
انظر أيضاً العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مخطوطة مصورة بدار الكتب، الفن: تاريخ، والرقم ٢٥٦٨، معارف عامة ٥٥١، الباب العاشر، جـ٣ .

(٢) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة ١٣١٢هـ، طبعة مطبعة العاصمة، ص ٢٧ .

(٣) انظر محمود كعت: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان وأكابر الناس، طبعة باريز بردين بمدينة أنجي، ص ٣٨ .

(٤) انظر ابن خلدون العبر ، جـ٥، ص ٤٣٣ .

وكان الملك سندياتا مؤسس دولة مالي يقود جيوشه بنفسه في المرحلة الأولى لتكوين الدولة، حتى تم له الانتصار على غانا، وبني عاصمته الجديدة، ثم توقف عن حمل السلاح وترك ذلك لقواده الذين لم يقنعوا بهذا الانتصار، وتخطوا باسمه حدود بلادهم، يحاربون وينتصرون في كل الاتجاهات، حتى أدخلوا ضمن مملكتهم بلادا وراء السنغال لم يسبق أن هزمتها دولة غانا، كما وصلوا إلى نهر جامبيا، واندفعوا إلى مسافات بعيدة جنوب السنغال حتى حدود «تكرور». وبدأت مالي تمارس نشاطها في السودان الغربي كله، وحققت آمالها في ميادين السياسة وميادين الاقتصاد، وامتدت من جبال الأطلس غرباً إلى بلاد الهوسا شرقاً، ومن المحيط الأطلسي جنوباً حتى الصحراء الكبرى شمالاً. وحج «ماري جاطة» شكراً لله على هذا الانتصار العظيم والتوفيق الذي حالفه وحالف جيشه، وأعان العلماء في ظل الدولة الجديدة على نشر العلم والإسلام.(١)

ومن هنا أصبح لملك مالي العزة والمهابة في جميع أنحاء أفريقية الغربية، مما شجع رحيل التجار إلى بلاده من جميع أنحاء العالم الإسلامي.(٢)

وليس أدل على عمق الإسلام في نفس هذا الفاتح الكبير ـ سندياتا ـ من موقفه من المسلمين حين أحجم عن التقدم نحو مدينة والاتا walata المعروفة في رحلة ابن بطوطة باسم «إيولاتن»(٣)، رعاية لحقٍّ من لجأ إليها من المسلمين الذين جفلوا من قبل أمام خطر الصوصو، وكان بين هؤلاء المسلمين عدد كبير من التجار والعلماء.(٤)

---

(١) Trimingham: AHistory of Islam in W.A., op. cit., P.P. 46-65.

(٢) ابن خلدون، العبر، جـ٦، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٠ .

(٣) ابن بطوطة، تحفة النظار، طبعة التحرير، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤١، ٤٤٢ ، ص ٢٤٣ .

(٤) Bovill: op. cit., P. 87.

صبح الأعشى ، جـ٥ ، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٣ .

ويقال إن «ماري جاطة» قد فتح مدينة (جني) عاصمة النيجر، وهي عاصمة دولة جني الإسلامية المشهورة بكثرة علمائها من المسلمين، وتخضع في ذلك الوقت لدولة سنغي التي لم تكن قد قويت بعد. وكان استيلاؤه عليها في العام نفسه الذي حطم فيه إمبراطورية الصوصو. وفي عام ٦٤٨هـ/ ١٢٤٠م نجح ماري جاطة في تدمير ما بقي من مدينة كومبي صالح، عاصمة دولة غانا، وهي التي أفل نجمها منذ هجرها العلماء والتجار المسلمون إلى والاتا، عندما هاجمها إمبراطور الصوصو عام ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م.[١]

وبعد أن رأينا كيف توسعت دولة مالي الإسلامية، وحكمت السودان الغربي، وبدأ التجار من شمالي إفريقية يتجهون إليها بثمرة، ويستقرون في عاصمتها، نود هنا أن نقرر حقيقة واضحة وهي أنه متى ما توفر الأمن واهتمت الدولة بالتجارة الخارجية كان ذلك عاملاً منشطاً لحركة التجارة وإقامة المتاجر الدائمة واختلاط الناس، سواء منهم الوافد أو السكان الأصليون.

وبضم دولة مالي لكل أقاليم غانا أصبحت دولة مالي أقوى وأغنى مركز اقتصادي في غربي إفريقية، فقد أصبحت تتحكم في تجارة المنطقة، وتضع يدها على مناجم الذهب التي كانت تعج بجماعة «وانجارا». وقد جاء في صبح الأعشى[٢] عن هذا أن في طاعة سلطانها بلاد مغارة الذهب، وهم بلاد همج وعليهم إتاوة من التبر تحمل إليه في كل سنة، ولو شاء أخذهم، ولكن ملوك

---

(١) الدكتور طرخان، دولة مالي الإسلامية، مرجع ذكره، ص ٤٢ ، نقلا عن كتاب آخر له بعنوان «غانة في العصور الوسطى» ص ٧٦ . انظر أيضاً صبح الأعشى ، جـ٥ ، مصدر سبق ذكره ، ص٢٩٣ .

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٥ ، ص ٢٨٧ .

هذه المملكة قد جربوا أنه ما فتحت مدينة من هذه المدن وفشا فيها الإسلام ونطق بها داعي الأذان إلا قل بها الذهب ثم يتلاشى حتى يعدم ، ولذا تحاشوا حكمها مباشرة. وقد أثبت هذه الحقيقة كذلك العمري.(١)

وكما كانت عظمة وشهرة غانا وقوتها في السيطرة على هذه المنطقة الغنية، كان الحال أيضاً بالنسبة لدولة مالي الإسلامية وارثة غانا. فقد كانت هذه المنطقة ـ وانجارا ـ سخية في إنتاج هذا المعدن النادر إلى يومنا هذا، ولم تفت كل من كتب عن هذه المنطقة أن يعطي وصفاً دقيقاً لعملية إنتاج الذهب ومكانه وطريقة استخدامه وأوقات استخراجه، وطريقة المقايضة فيه، ومنهم من وصفه كأنه الحجارة والحصى.(٢)

وبجانب التحكم في تجارة الذهب كان التحكم في تجارة النحاس الأحمر الذي يجلب منه قضبان من مدينة «تكوا» الحالية إلى مدينة بنبى قاعدة مالي.(٣) فيبعث منه إلى بلاد السودان الكفار فيباع وزن مثقال بثلثي وزنه من الذهب.(٤)

ومن رواية العمري يبدو لنا أن غانا، بعد أن دخلت سياسياً في سيادة دولة مالي، إلا أنها أصبحت تتمتع بشيء من الاستقلال الذاتي على نوع ما كما سبق الإشارة إلى ذلك من رواية للقلقشندي، ويوضح العمري(٥) هذا، فيقول: «وأما غانا فإنه لا يملكها (يعني ملك مالي) وكأنه مالكها، يتركها على

---

(١) التعريف، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٧ .
(٢) انظر القلقشندي، المصدر نفسه، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠ .
(٣) المصدر نفسه والجزء، ص ٨٣ .
(٤) المصدر نفسه، نفس الجزء، ص ٢٩١، انظر ابن بطوطة، تحفة النظار، طبعة التحرير، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥٣، العمري، التعريف، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٧ .
(٥) التعريف، المصدر نفسه، ص٢٧.

قدرة عليها لأنه بها وبما وراءها جنوباً منابت الذهب. وقد جرى أن بلاد منابت الذهب متى أخذت وفشا فيها الإسلام والأذان عدم نبات الذهب فيها. فصاحب مالي يتركها لأنه مسلم وله عليها إتاوة كبيرة مقررة تحمل في كل سنة». [(١)]

وبهذا تكون هذه المملكة الإسلامية قد توافرت لها مقومات الملك وأصبحت مستقرة اقتصادياً. وكانت القوافل الآتية من مراكش وبرقة ومصر تزور مالي بانتظام.

المطلب الثاني : الإسلام في دولة مالي

إن المرابطين، كما قلنا في السابق، لم يكونوا أول من أدخل الإسلام إلى بلاد السودان الأوسط والغربي في القرن نفسه الذي ظهر فيه وهو القرن السابع الميلادي، فقد أشار «أحمد بابا» المؤرخ لدولة صنغي إلى وجود اثني عشر مسجداً في مدينة غانا (كومبي صالح) حوالي عام ٦٠هـ/ ٦٧٩م[(٢)]. والقلقشندي أيضاً يذكر أن ملوك مالي دخلوا في الإسلام من زمن قديم،[(٣)] كما أن دولة أودغست الإسلامية، وهي التي كونها السوننك، أحد فروع الماندنجو، قامت مبكرّةً بدور كبير في نشر الإسلام منذ القرن التاسع الميلادي. ومع أن حكام أودغست من البربر البيض من قبيلة صنهاجة، إلا أن سكانها ومؤسسيها من السوننك السودان، وتقع شمالي غربي كومبي صالح.[(٤)]

(١) العمري، التعريف، المصدر السابق، ص٢٧.

(٢) الدكتور طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص ٤٧ نقلا عن كتابه «غانا في العصور الوسطى، "دولة مالي الإسلامية" ، ص ٤٧ نقلاً عن كتابه «غانا في العصور الوسطى، ص ٥٣ وكتابه "الإسلام واللغة العربية في السوادان الأوسط والغربي" ص ١٠.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٥ مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٣ .

(٤) الدكتور طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص ٤٧ .

ويذكر أبو الفداء[1] أنه قد أسهم في نشر الإسلام في بلاد السودان التجار المسلمون والدعاة الذين جاؤوا من وادي النيل ومصر بصفة خاصة، ومن بلاد المغرب، ونشطت العلاقات المتنوعة طوال عصور التاريخ المختلفة، بحيث لم يحدث أن انعزل قلب إفريقية تجاريا أو ثقافيا عن بقية أجزاء القارة وعن آسية وأوربة في أي فترة من فترات التاريخ، وزاد الاتصال وسهلت الرحلة والتنقل منذ استخدم الجمل في إفريقيا، مما ساعد على انتشار الإسلام واتساع رقعته.

وفي الحركة المرابطية التي كانت نتيجتها ضم غانا إليهم، لم يكتف المرابطون بالتحول الاسمي للإسلام، بل أرسلوا العلماء بين القبائل السودانية - الغربي إفريقية - لبث العقيدة الصحيحة، لأنه من المعروف أن المرابطين لم يقتصر دورهم على نشر الإسلام بين الوثنيين، بل شمل أيضاً إصلاح عقيدة المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام، ولكن لم يتشربوه تماماً، ولم يلتزموا كل أحكامه، بل جعلوه عضين، وخلطوه بعقائدهم المحلية، فأصبحوا بذلك في نظر المسلمين المرابطين غير مسلمين كما ينبغي. ومما هو معلوم أن معظم حركات الجهاد التي حفل بها تاريخ إفريقية الإسلامي قامت لتنقية العقيدة الإسلامية مما علق بها من رواسب الجاهلية وخرافات ليست من الدين في شيء، وحتى في الجزيرة العربية نفسها كانت حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب تسعى إلى الغرض نفسه.

وبفضل حركة المرابطين نشطت الاتصالات التجارية والثقافية بين بلاد السودان والعالم الإسلامي، ولا سيما شمالي إفريقية وأسبانية الإسلامية التي انضوت في نفس الوقت تحت لواء المرابطين. كل هذا أتاح الفرصة لنشر

(١) أ تقويم البلدان، باريس، ١٨٥٠م، طبعة دار الطباعة السلطاني، ص ٧٢،

الأفكار المتطورة والمدنية الإسلامية بين السود. هذا والمرابطون هم الذين أنشؤوا مدينة تنبكت على منحنى نهر النيجر. وسرعان ما أصبحت مركزاً إسلامياً وثقافياً وتجارياً في بلاد السودان.[1]

ونخلص من ذلك إلى أن مالي عرفت الإسلام قبل دخول المرابطين إلى غربي إفريقية وذلك كله بفضل العلاقات التجارية القديمة بين شمالي القارة وغربيها. ولما كان غربي القارة كله شبه مجموعة واحدة فلابد من أن يكون للتجارة التي تقف أمامها الحواجز دور رئيس في تبادل الأفكار الجديدة الصالحة.

وعندما يتطرق الباحث لدخول الإسلام إلى دولة مالي يتبادر سؤال إلى الذهن، وهو: من هو أول من أسلم من ملوك مالي؟ وهنا يمكن تمحيص الروايات التي وردت بهذا الصدد حتى يمسك برأس الخيط. ففي رواية للبكري مفادها أنّ بلاد مالي أجدبت في عام من الأعوام، حتى كاد الزرع والضرع أن يهلكا، مما دعا الملك أن يلجأ إلى أحد الشيوخ المسلمين لما عهد فيه من الصلاح، فصلى الشيخ مع الملك صلاة الاستسقاء حتى هطل المطر، وذلك بعد أن طلب الفقيه المسلم من الملك أن يسلم أولاً، فأسلم، وحطم الأصنام، ويقول البكري: «وصح إسلامه وإسلام عقبه وخاصته، وأهل مملكته مشركون، فوسموا ملكهم منذ ذلك الحين بالمسلماني.[2]

ورواية البكري لا تذكر اسماً للملك كما رأينا، أما القلقشندي[3] فقد سماه برمندانه. وكان ابن خلدون دقيقاً حين قال بأن برمندانه هذا كان أول من

(١) السعدي، مصدر سبق ذكره، ص ص ٢٠ ـ ٢١ .

(٢) البكري، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٨ .

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٥، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٣ .

حج من ملوك مالي، ولم يقل أول من أسلم، وعبارته: «وتحولت الأحوال باستمرار العصور، فاستولى أهل مالي على ما وراءهم، ودخلوا في دين الإسلام منذ حين من السنين، وحج جماعة من ملوكهم، وأول من حج منهم برمندار وسمعت في ضبطه برمندانه.[1]

ففي عبارة ابن خلدون إيحاء بأن الإسلام كان مبكراً في مالي وأن الملك الذي حج ربما لم يكن أول من أسلم، بدليل أن هناك رواية شفوية تفيد بأن مؤسس أسرة الترورين في حكم مالي واسمه «منسا نوفرن تراورا» قد اعتنق الإسلام، وربما كان هو نفسه أو آخر سبقه هو المعني في عبارة البكري، إذ المعروف أن اعتناق الإسلام في غربي إفريقية كان سطحياً، وعلى الأقل في أول انتشاره.

وليس هناك ما يمنع أن يوجد ملوك أسلموا، وجاء بعدهم ملوك ظلوا على الشرك قل عددهم أو كثر، والمعروف كذلك أنه حتى من الملوك المسلمين في مالي وغيرها فضلاً عن الرعايا المسلمين من كان يمارس التقاليد الوثنية الموروثة مع إسلامهم.[2]

ومهما يكن الاختلاف حول أول من أسلم من الملوك ولكن المهم هو أن الماندنجو من أكثر شعوب غربي إفريقية تمسكاً بالإسلام وتحمساً له، وازداد انتشاره بينهم وأصبح دين الدولة الرسمي، ولم يكتفوا بالمظهر الخارجي للإسلام، ذلك لأنهم يريدون تلك القوة الروحية التي تحرك وجودهم والتي تجعلهم يستطيعون بوساطتها أن يهزوا الحياة عند جيرانهم، وقد تمّ لهم هذا

(١) ابن خلدون، العبر، جـ٦، طبعة بيروت، مصدر سبق ذكره، ص ٤١٣ .
(٢) الدكتور طرخان، دولة مالي، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٢ .

بصورة تكاد تكون حاسمة في عصر «منسا علا» الذي تولى الملك بعد موت أبيه «سندياتا» عام ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م، ثم في عهد سبعة ملوك تولوا حكم البلاد من بعده أشهرهم «منسا موسى» (١٣٠٧ ـ ١٣٣٢م) الذي تعتبر قافلة الحج التي مرت بمصر بصحبته، من أروع مظاهر ثراء هذا العاهل الإفريقي[1]. وفي أثناء إقامته في مصر هبط سعر الذهب عن ثمنه العادي لوفرة ما وجد منه، وظل منخفضاً مدة طويلة، وابتاع جملة من الكتب الدينية ليوفر لأهل بلاده مناهل الثقافة الإسلامية، وظل الناس في مصر يذكرون ما أحاط بتلك الزيارة كأنها من الأحداث العالمية، ويتناقلون أخبارها سنين طويلة.

ذلك هو «منسا موسى» الذي أشاد به ومجَّده معظم الذين كتبوا عن تاريخ هذه الدولة العظيمة، وعلى رأس هؤلاء الكتاب، ابن بطوطة، الذي حفلت رحلته إلى غربي إفريقية بأخبار هذه الدولة، لأنه زارها ووقف على الحالة فيها، ويعد مصدراً أصيلاً وأوليا في تاريخ هذه الدولة، ثم ابن خلدون والقلقشندي. ومما قاله عنه ابن خلدون: «وكان رجلاً صالحاً، وملكاً عظيماً، له أخبار في العدل تؤثر عنه، وعظمت المملكة في أيامه إلى الغاية، وافتتح الكثير من البلاد.[2]

وذكر عن ابن أمير حاجب والي مصر أنه كان معه مئة حمل ذهباً أنفقها في سفرته تلك على من بطريقه إلى مصر من القبائل ثم بمصر، ثم من مصر إلى الحجاز توجهاً وعوداً حتى احتاج إلى القرض فاستدان من تجار مصر بما

(١) انظر المرجع نفسه، ص ٨١ .

(٢) ابن خلدون، العبر، جـ٦، مصدر سبق ذكره، ص ٤١٤، انظر القلقشندي، صبح الأعشى جـ ٥، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٤ .

لهم عليه فيه المكاسب الكثيرة، بحيث يحصل إليهم بذلك بعد توجهه إلى بلاده[١]. وفي هذا دلالة عظمية على مدى العلاقة التجارية بين مصر وغربي إفريقية، وعلى مدى عائدات هذا العاهل من الذهب.

وفي أيام منسا موسى انتعشت التجارة والعلوم، وسرعان ما أصبحت أهم أسواق السودان الغربي، ولا سيما بعد انتقال سوق الذهب إليها، كما اجتذبت التجار من درعة وسوس وسجلماسة وفزان ومن مصر أيضاً.[٢]

واستطاع قواد منسا موسى أن يفتحوا والاتا وتنبكت وأن يضموا (جوا) في أواسط النيجر. وفي عهده امتدت رقعة مملكته من بلاد التكرور غرباً إلى دندي شرقاً ومن والاتا في الصحراء إلى مرتفعات فوتاجلون جنوباً. ولم تنج من أطماعه في السودان الغربي سوى مدينة جني التجارية ومملكة موسى المستقلة.[٣]

وليس أدل على قوة العلاقات والمصالح مع الشمال الإفريقي أكثر من وجود سفراء لهذا العاهل في مدينة فاس، وليس أدل على قوة تمسكهم بالدين أكثر مما يروي ابن بطوطة[٤] حينما دخل على قاضي مالي يوم العيد فوجد أولاده في القيود فقال: «ألا ترحمهم؟ فأجابه القاضي: لا أفعل حتى يحفظوا القرآن» فكانت هذه غايتهم في حفظ القرآن.

ويذكر ابن بطوطة أنه مر يوماً بشاب حسن الصورة عليه ثياب فاخرة، وفي رجله قيد ثقيل، فقال لمن كان معه: ما فعل هذا، أقتل؟ ففهم عني الشاب

---

(١) القلقشندي، جـ٥ ص ٢٩٦ .

(٢) الدكتور زكي: الإسلام والمسلمون في غرب إفريقية، مرجع سبق ذكره ص ٣٧ .

(٣) الدكتور حسن إبراهيم: انتشار الإسلام في إفريقية، مرجع سبق ذكره ص ١٠٤ .

(٤) ابن بطوطة : تحفة النظار، كتاب التحرير، مصدر سبق ذكره ص ٤٥٠ .

وضحك. وقيل له (ابن بطوطة): إنما قيد حتى يحفظ القرآن[1].

على أن دولة مالي لم تكتف باعتناق الإسلام والحرص على مظاهره وعلومه، وإنما أخذت تدعو له بين الوثنيين، حتى إن الدور الذي قامت به في نشر الإسلام، يعد من أهم مراحل انتشار الإسلام في إفريقية جنوبي الصحراء، واقترنت جميع فتوحها الحربية بالدعوة الإسلامية، يقول العمري: «وملك مالي في جهاد دائم وغزو، ملازم لمن جاوره من كفار السودان[2]». وحتى إن كلمة سوننك ـ فرع من الماندنجو ـ صارت مرادفة لكلمة داعية كما سبق ذكره.

وبفضل علماء مالي استقامت أمور الإسلام في كانو، وكان العلماء والدعاة المسلمون القادمون من مالي إلى بلاد الهوسا يحضرون معهم الكتب الإسلامية في الدين واللغة.[3]

وليس من شك في أن وجود نحو ٤٢٠٠ عالم مسلم في القرن الثاني عشر الميلادي في جني التي يحكمها ملك من الماندنجو[4]، يدل بوضوح على نشاط الدعوة الإسلامية في دولة مالي وجيرانها. وذلك إذا تجاوزنا التحقيق في مدى صحة هذا الرقم، وما قد يكون فيه من مبالغة، ولكن لا مندوحة لنا عن أن نقر أن هذا الرقم يعكس ضوءًا على ازدهار الدعوة الإسلامية ومدى التسامح والترحيب اللذين ظفر بهما دعاة الإسلام في تلك البلاد.[5]

وأهل مالي أكثر زنوج إفريقية رقيًا وأشدهم ذكاءً، ويمتدح الرحالة المحدثون صناعاتهم ومهارتهم وأمانتهم ونظافة قراهم وشدة تمسكهم بالإسلام.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٥٠ .

(٢) العمري، مسالك الأبصار، مصدر سبق ذكره، ج٢ ، ص ٥٠٧ .

(٣) الدكتور طرخان، دولة مالي ، ص ٥٦ ، ومصدره بالمر.

(٤) السعدي، تاريخ السودان، مصدر سبق ذكره، ص ص ١٢ ـ ١٣ .

(٥) الدكتور طرخان، دولة مالي، المرجع السابق، ص ٥٦ .

وقد ذكر ابن بطوطة أنهم يشتهرون ببسط العدل واستتباب الأمن في بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب، ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان، ولو كان القناطير المقنطرة، إنما يتركونه بيد ثقة حتى يأخذه مستحقه، ومنها مواظبتهم على الصلاة، والتزامهم إياها في الجماعات، وضربهم أولادهم عليها. وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام، ولباسهم الثياب البيض يوم الجمعة، ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خَلَق غسله ونظفه وشهد به صلاة الجمعة.[1]

وفي عهد منسا موسى اتجهت عناية مالي لنشر الإسلام حتى غمر أكثر بلاد نيجيريا كما ذكرنا، وأصبح أهل بلاد يوربا يدعون الإسلام بدين مالي، ظلوا على ذلك حتى العهد الحاضر، ويقرر ترمنجهام[2] أن منسا موسى قد صبغ مالي بصبغة إسلامية واضحة بما شيده بها من مساجد، وبالاحتفالات الباهرة في المناسبات الإسلامية المختلفة، وبرعايته للعلم والعلماء.

لقد كانت دولة مالي في عهد منسا موسى في قمتها التي ما بعدها قمة، ولكن بدأ الضعف يدب في أوصالها بعد وفاة هذا العاهل العظيم. وخلفه شقيقه منسا سليمان الذي حاول رأب الصدع، ولكن بوفاته بدأ الانحدار الذي لم يمكن رأبه، إذ كان خليفته ماري جاطة الثاني مسرفا ومستبدا. وجاء بعده ابنه موسى الثاني[3]. وكان الأمر قد أفلت واتجهت الدولة إلى الانحدار، واضطربت أحوالها، وتفكك جيشها نتيجة للاضطراب، وأصبح أداة فوضى، ومن هنا فتح

---

(١) ابن بطوطة، تحفة النظار، كتاب التحرير، مصدر سبق ذكره، ص٤٥.

(٢) Islam in W. A., op. cit., p. 70.

(٣) انظر ابن خلدون، العبر جـ٦، ص ص ٢٠١ ـ ٢٠٢.

الباب لاستقلال الدول والإمارات التي كانت أجزاء من الدولة، وتمزقت أوصالها، وجاءتها الضربات من كل جانب. ففي الشمال هب الطوارق في حركة استقلالية واسعة شملت والاتا وتنبكت ومعظم الأقاليم الشمالية. وفي الجنوب الغربي وجه التوكولور والولوف ضربات قوية إلى الدولة واستقلوا بأجزاء منها، وفي الجنوب ضمت قبائل موسي جزءًا كبيرا من أملاك الدولة المتداعية، وفي الشرق تعرضت الدولة لهجمات دولتي سنغي وكانم. على أن أكبر الضربات التي وجهت لدولة مالي كانت من سنغي التي تحررت من سلطان مالي، ثم قويت قوة عظيمة جعلتها تثأر لكبريائها وتمد نفوذها إلى الدولة التي كانت يوما ما صاحبة النفوذ فيها، وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر كان جلال مالي قد آذن بالزوال، ولم يبق لحكامها إلا الإمارة الضئيلة التي نشؤوا فيها: «كنجابا»، وقد دهمهم الاستعمار الأوربي وهم في هذه الإمارة الصغيرة.[1]

ومن تَتَبُّعِ الأحداث السابقة يبدو لنا جليا أن أصل إسلام مالي جاء من المؤثرات الشمالية عبر الطرق التجارية. وكان دور مالي يمثل حلقة في سلسلة الدول الإسلامية التي قامت في غربي افريقية، إذ كانت كل دولة تعتمد في قيامها على السيطرة على هذه الطرق والإفادة منها اقتصاديا، واتخاذ الإسلام نظاما دافعا إلى الأمام مع الملاءمة مع تقاليدهم المحلية الموروثة. وكانت التجارة توأم الإسلام، وبواسطتها تصل الدولة إلى قمتها ولا تنحدر إلى الدرك الأسفل إلا عندما تفلت قبضتها عن هذا المصدر الحيوي الذي يمثل عصب الحياة فيها ومصدر قوتها السياسية. ورغم الاطّراد في نمو الإسلام فقد كانت هذه الدول

(١) الدكتور شلبي ص ص٢٤٧ـ٢٤٨.

تتبادل الاضطلاع بدور كبير في الحياة الإسلامية. ولم يكن سقوط إحداها يعني ضعف الإسلام، بل العكس، فإن العلة لم تكن في الإسلام، ولكن كانت العلة في الجهاز الإداري للدول، والذي تحرسه الجيوش. فمتى ماكان الملك أو الحاكم ضعيفا كان الجيش أداة تقويض بدلا من أن يكون أداة تقدم وازدهار. لذا فلا غرابة إذا رأينا غانا قد أفل نجمها وورثتها مالي، ثم نجد دولة مالي بدورها تسلم الراية إلى دولة سنغي، ثم بعد ذلك كانم وبورنو. وكان النمو في المنطقة كلها نموا في وسائل الحكم تتخلله منافسة بين مختلف الأسر الحاكمة والغزو الأجنبي وعوارض التاريخ، وهو الشيء نفسه الذي كان يحدث في أوربة التي عاصرت هذه الحقبة من التاريخ، تطور حكومات مركزية واعتماد على الزراعة والرعي، وتوسع في استخدام المعادن من الناحية الاقتصادية.. ودور تؤديه التجارة مما دفع عجلة التطور[1]. إذن فهي سلسلة متصلة يبرز فيها دور التجارة واضحا متى ما اضمحلت القوة السياسية لدولة قامت على أعقابها دولة أخرى دونما خلل في حركة التجارة إلا لمدة يسيرة من الزمن. ويقول دافيدسون في هذا المعنى عند التعرض لسقوط غانا على يد المرابطين، يقول: إن هذا الغزو لم يؤد إلى انهيار أساليب التجارة والإدارة التي جعلت من غانا دولة قوية خلال عدة قرون.. فقد ظهرت دولة أخرى مع دولة غانا وبعدها، ولم يكن الغزو من الشمال أكثر من حالة عارضة، ثم عادت التجارة في الصحراء إلى سابق عهدها في أمن وسلام لم يهددها إلا وسطاء التجارة في الصحراء مثل قبائل الطوارق المستقلة،.. ولم تتعرض هذه التجارة لتهديد العرب أو المرابطين بالشمال الإفريقي.[2]

(١) باسيل دافيدسون، مرجع سبق ذكره، ص٤٥.

(٢) المرجع والمكان نفساهما.

المطلب الثالث : الأثر الحضاري للإسلام في دولة مالي

أولاً ــ الناحية السياسية :

من الملاحظ، لأول وهلة، أن الإسلام في إفريقية جنوبي الصحراء ظفر بأقوى القبائل وأعظمها شأنا[1]، وأنه هو الذي دعم مركز الدول الإسلامية الكبرى في جميع بلاد السودان، من المحيط الأطلسي غربا إلى مملكة الفونج الإسلامية شرقا في حوض النيل الأوسط.

لقد جاء الإسلام إلى الزنوج وهم سادة في أوطانهم، يتمتعون بكامل الحرية والسيادة والاستقلال والقوة، ويمارسون حكمهم وينظمون شؤونهم الخاصة ومجتمعاتهم، فلم يكن لدعاة الإسلام من المسلمين العرب والبربر أو ناشريه من أي جنسية أخرى أدنى قسط من السيطرة، وإن كان نفوذهم الروحي عظيما، لكنه مقبول عن رضى واقتناع.

وقد استطاع منسا موسى أن يحرز نجاحا كبيرا في ميدان السياسة الخارجية أو العلاقات الخارجية، فعندما توجه مع أتباعه إلى مكة لأداء فريضة الحج كان هذا دليلا يقدمه للعالم على سعة انتشار الإسلام.. وعلى قيمة الحضارة السودانية الغربية.[2]

وزاد تطور نظم الحكم مع ازدهار دولة منسا موسى، فكانت المدن تزدهر وتزداد رخاء بازدياد النفوذ السياسي والسيطرة التامة على طرق القوافل وبث المهابة السياسية في نفوس الأعداء.

ومما هو جدير بالملاحظة أن التجار البنادقة بالقاهرة شهدوا موكب

---

(١) كما كان الحال بالنسبة لقبيلة قريش في الدعوة الإسلامية والدولة الإسلامية الأولى.

(٢) باسيل دافيدسون، مرجع سبق ذكره، ص٤٦.

السلطان موسى ومروره بالقاهرة، وكتبوا تقارير عنه إلى بلادهم.[1]

ولموكب الحج التاريخي الذي قام به منسا موسى أكبر الأثر في أن تطبَّقَ شهرة هذه الدولة الآفاق، وذلك للترف والبذخ الذي صاحب هذا الموكب. فقد وصلت شهرة مالي وأخبار موكب حج السلطان منسا موسى ودلالته إلى أوربة، ومنذ ذلك الوقت ازداد التفكير الأوربي في محاولة تعرف قلب افريقية والوصول إليه، وفي ذلك الوقت، وهو القرن الرابع عشر الميلادي، تأسست مدرسة في جزيرة ميورقة بالبحر الأبيض المتوسط لدراسة وتعليم فن الخرائط وإصدار الخرائط، ومن أهدافها الرئيسة التعرف على قلب إفريقية لأغراض تجارية، وعلى الأقل في أول أمرها[2]. وقد ذكرنا ذلك من قبل.

ظهرت صورة منسا موسى في أغلب الخرائط التي صدرت في ذلك القرن، إذ عدت بلاده قلب المنطقة أو الهدف الأقصى الذي ينبغي السعي للوصول إليه، فمن هذه المنطقة تتدفق السلع الإفريقية، كما يتدفق الذهب. وأقدم خريطة ظهرت في ذلك الوقت ترجع إلى عام ٧٩٣هـ/ ١٣٣٩م، أي بعد وفاة منسا موسى بقليل. وهي خريطة العالم التي رسمها العالم الميورقي «انجلينو دلكرت». وأشارت هذه الخريطة إلى قلب إفريقية، حيث أظهرت ملك مالي جالسا على عرشه في زيه الملكي وعلى رأسه التاج وفي يده الصولجان الملكي.[3]

وتدل خريطة دلكرت على مدى الرغبة الشديدة في حب الاستطلاع لمعرفة بلاد منسا موسى والطرق المؤدية إليها. فقد ظهرت في الخريطة جبال

---

(١) الدكتور طرخان، مالي، مرجع سبق ذكره، ص٨٣.

(٢) المرجع نفسه، ص٨٣.

(٣) المرجع نفسه، ص٨٧.

أطلس ويقطعها وادي السوس المؤدي إلى بلاد الزنوج.[1]

وظهرت بعد ذلك عـدة خرائط تدل على أهمية وعظمة مـالي وعاهلها. والذي يمكن أن نقوله، إن عظمة مالي زمن منسـا موسى كانت من بين الحوافز التي أدت إلى زيادة المعروف عن قلب إفريقية تمهيـدا لحركة الكشف والاستعمار الأوروبي.

وهكذا كانت مكانة مالي السياسية والاقتصادية في عالم العصور الوسطى عطاء من أعطيـات الإسلام لهـذه الدولة ـ إذ إنه لولا خروج هذا العـاهل إلى العالم الخارجي في طريقه إلى الحج، لما عرف عنه عالميا مثل الذي عرف.

ولولا قوة الدفع الإسـلامية والركـائز القوية من الحـضارة الإسلامـية لما استطاع أن يبلغ هذا الشأن العظيم من القوة والنفوذ الـسياسي، فعندما انصرف خلفه إلى العـبث والخروج على القواعـد الإسلاميـة الكريمة، كان ذلك إيذانا بزوال هذه الدولة العظيمـة.. وأصبح من الصعب على منـسا سليمان خليـفة مغان بن منسا موسى أن يعيد السلطة إلـى قوتها بعد النكسة التي وقعت خلال عهد ابن أخيه (مغان). وإذا نجح منسا سليمان[2] في استرجاع بعض البلاد التي فقدت، لكنه فشل في اسـترجاع جاو عاصمة سنغي. ومنسا سليمـان نفسه كان متفـقها في الدين معروفـا بالصلاح والتقوى، أدى فـريضة الحج عام ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م، وقـد مكنته رحلتـه هذه من إعـادة بسط نفوذ الماندنجـو على أطراف

---

(١) المرجع نفسه، ص٨٧، ومرجعه: بوفل: «تجار الذهب»، ص٧٦ـ٧٧.

(٢) انظر القلقـشندي، صبح الأعـشى، جـ٥، مصـدر سبق ذكـره، ص٢٧٩، ومما جاء فـيه نقـلا عن (مسالك الأبصار): «واجتمع له ماكان أخوه افـتتحه من بلاد السودان وأضافه إلى يد الإسلام، وبنى به المساجـد والجوامع والمنارات وأقـام به الجمع والجـماعـات والأذان، وجلب إلى بلاده الفقـهاء من مذهب الإمام مالك رضى الله عنه، وتفقه في الدين».

البـلاد التي مر بهـا في طريقـه، لكنه لم يسـتطع أن يعيـد سلطان مـالي على سنغي. وخلفه بعد ذلك ملوك ضعاف.(١)

أما من الناحيـة السياسية في الإدارة، فقد نجـحت حكومة مالي في إدارة شؤونها وفي تنظيم دولتـها المتسعة الأرجـاء. وعلق بعض الكتاب العرب على نجاح حكومـة مالي، كنمـوذج لحكومات الدول الإفـريقية القـوميـة في غربي إفريـقية، بأنـه دليل واقعي على قـدرة الإفريقـيين السود على تنظيم شـؤونهم وإدارة حكوماتهم ذات المسؤوليات الضخمة، ولعله من أبرز الدلائل على قدرة الأجهزة الإدارية المركـزية والمحلية على ضبط وتنظيم الاسـتثمار، ووضح الأثر الشرقـي الإسلامي في الإدارة وتقـاليدها، كـما برز في المظاهر السلطانيـة من مواكب وحفلات.(٢)

أما نظام القضاء في مـالي، فقد كان دقيقا، كما كـان محل عناية كبرى من السلطان، ويكاد يكون منقولا عن الشرق الإسلامي، ولا سيما مصر. فقد وجد القضاة السود بجـانب القضاة البيض، واحتل هؤلاء جميعا مـراكز سامية في المجتمع، ويعتبر القاضي مستشارا للسلطان ومعه خطيب المسجد الجامع.(٣)

ويزودنا القلقشندي(٤) والعمري(٥) بصورة جلية للتنظيم الإداري في هذه البلاد فيقولان: إنه كان بهذه المملكة الوزراء والقضاة والكتاب والدواوين. وإن

---

(١) لمعرفة تفـاصيل ذلك انظر المصدر السابق، ص ص٢٩٧ـ٢٩٨ ومنسا سليـمان هذا هو الذي قابله ابن بطوطة ووصفه بالبخل أولا ثم رجع وأثنى عليه بعد أن أكرم وفادته، انظر تحفة النظار، كتاب التحرير ص٤٤٥. وكل مشاهداته كانت في عهد هذا العاهل.

(٢) الدكتور طرخان، مالي، ص ص١٢٨ـ١٢٩.

(٣) المرجع نفسه، ص١٣١.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٥، مصدر سبق ذكره، ص ص٢٩٨ـ٢٩٩.

(٥) العمري، مسالك الأبصار جـ٢ مصدر سبق ذكره، ص٥٠٦.

السلطان لايكتب شيئا في الغالب، بل يكل كل أمر إلى صاحب وظيفته من هؤلاء، فيفعله. وكتابتهم بالخط العربي على طريقة المغاربة.

والمتمعّن في جميع مظاهر الحياة في دولة مالي من خلال كتابات الرحالة والمؤرخين العرب يلاحظ أثر الإسلام الحضاري في تكوين هذه الدولة من قمة الهرم إلى قاعدته.

ثانياً ـ الناحية الاقتصادية :

إن أهم موارد دولة مالي، كما هو واضح من هذه الدراسة، كان من التجارة، فقد نمت العلاقات التجارية عبر العصور. ويكفي دليلا على أهمية التجارة، أن الضرائب التي كانت تحصل في سجلماسة ـ أهم مداخل القوافل ـ بلغت في أوائل القرن العاشر الميلادي نحو ٤٠٠ ألف دينار، وأن عبدالرحمن الأموي خليفة قرطبة، بعث بأسطول إلى سوتا عام ٣١٩هـ/ ٩٣١م، لحماية الطرق التجارية المؤدية إلى السودان الغربي، حتى إذا تحكمت مالي في طرق القوافل الصحراوية، عملت على ازدياد حركة التبادل وحمايتها، فاستوردت السلع والمصنوعات المختلفة من بلدان البحر الأبيض المتوسط[١]، مثل السيوف الدمشقية والحرير والخيول من الشرق بكميات كبيرة، كذلك جلبت أنواع الثياب من مصر، يقول ابن بطوطة عن أهل تكدة إحدى ولايات مالي: «شغلهم التجارة، يسافرون كل عام إلى مصر، ويجلبون كل ما بها من حسان الثياب.[٢]

ومن بين المدن المالية التي اشتهرت بالتجارة أيضا ـ لا سيما في تبادل الملح بالذهب ـ مدينة جني، التي وصفها السعدي بقوله، إنها مدينة ميمونة

(١) الدكتور طرخان، دولة مالي، ص١٣٨ نقلا عن «بوفل».

(٢) ابن بطوطة، كتاب التحرير، مصدر سبق ذكره، ص٤٥٣.

مباركة ذات سعة وبركة، وطبيعة أهلها التراحم والتعاطف والمواساة.. وهي سوق عظيمة من أسواق المسلمين، وفيها يلتقي أرباب الملح من معدن تغازة وأرباب الذهب من معدن بيط[1]، وكلا المعدنين المباركين، ما كان مثلهما في الدنيا كلها، فوجد الناس بركتها في التجارة إليها كثيرة، وجمعوا فيها من الأموال ما لا يحصيه إلا الله سبحانه وتعالى، ومن أجل هذه المدينة المباركة يأتي الرفاق من جميع الآفاق.[2]

ويذكر السعدي بصدد ملكها جنجي وإسلامه وحرصه على تنشيط الحركة التجارية بها وتحسين أحوالها الاقتصادية وتعميرها، أنه بعد إسلامه على أيدي العلماء، طلب منهم أن يدعوا الله تعالى بثلاث دعوات: «أن كل من هرب إليها من وطنه ضيقا وعسرا، أن يبدله الله له سعة ويسرا حتى ينسى وطنه، وأن يعمرها الله بغير أهلها، أكثر من أهلها، وأن يسلب الصبر من وارديها من التجار حتى يملوا، فيبيعوا ما معهم بناقص الثمن، فيربحوا فيها، فقرؤوا الفاتحة على هذه الدعوات، تقول الرواية، فكانت مقبولة.[3]

ومما حتمته العلاقات التجارية بين شمالي القارة الإفريقية ودولة مالي، وجود التجار المسلمين الذين يقومون بمعاملاتهم التجارية في شكل بييتات تجارية، ومن هذه البييتات أسرة المقّري التجارية التي اتفق معها (ماري جاطة) على توفير ما يحتاج إليه ماري جاطة من السلع الأجنبية، مقابل الحماية لهذه الأسرة حتى تعمل في مناخ آمن[4]. وقد ذكرنا ذلك من قبل.

---

(١) يعني وانجارا.

(٢) السعدي، تاريخ السودان، مصدر سبق ذكره، ص ص١١-١٢.

(٣) المصدر نفسه، ص١٣.

(٤) طرخان، مالي، ص١٤٤.

ووجود بيـيتات تجـارية وتنظيم تجاري دقـيق دليل ناصع على تطور هذه الدولة من الناحـية الاقتـصادية، ويؤكد ذلك مـا جاء في أحـداث رحلة منسا موسى المشهورة للحج، إذ أن هذا السلطان أنفق كل مـا كان معه من مال حتى اضطر في النهاية إلى الاستدانة من التجار الذين لهم علاقات تجارية ببلاده كما ذكرنا، وسرعان ما سدد هذه الديون.[1]

وتدلنا هذه الحادثة عـلى مدى الصلات التـجارية مع البلدان الإسلامـية ومـصر خـاصة، في النـواحي الاقتـصادية، إذ كـانت القـوافل لا تنقطع بين البلدين، واتسعت العلاقة بعد رحلة منسا موسى للحج.

ثالثاً ـ الناحية الثقافية والروحية :

تظهر أهمية الموقع الجغرافي والتجاري للمدينة في تطورها التاريخي. فقد كانت مدينة تنبكت في مبدأ أمرها نقطة في طريق القوافل على النيجر، وكانت مكانا للقاء هؤلاء الذين كانوا يسافـرون برا والذين يسافرون بحرا سواء من بدو الصحراء أو من الذين يقطنون جانبي نهر النيجر. إذ كـانوا يتقابلون فيها لمبادلة الملح والبلح وتجـارة المغرب الأخرى بالقـمح وحبوب الكـولا وتبر الذهب من السودان الغـربي، وفي سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م بدأت خيام البـدو تخلي مكانها لأكواخ الحشائش، وهذه بدورها لمساكن مـستديمة من اللبن كتلك الموجودة الآن هناك. وبعـد قرنين أصـبـحت مركـزا للتـجارة المارة بـين جني ووالاتا، كمـا أصبحت قرية الصيد «كبارا» المجاورة ميناء لها، وكان موقعها بالقرب من طريق مائي يتحكم في جـزء من السودان الغربي، قد أعطى تنبكت ميزة كـبيرة على الأسواق المجاورة، التي أخذت تجارتها في الوهن.[2]

---

(١) انظر القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٥، ص ص٢٧٩ـ٣٠٠، السعدي ص٨.

(٢) الدكتور زاهر رياض، مرجع سبق ذكره، ص١١٩.

وكان طبعيًا أن تأتي العلاقة التجارية معها بكل من الثروة والثقافة، فتحكمت تنبكت في تجارة والاتا ثم ثقافتها، وكلتاهما كانتا في يد رجال جدالة ومثقفي الصحراء، وكانوا قد جاؤوا أصلا من أدرار في موريتانيا، ولكنهم هاجروا إلى كومبي حين أصبحت سوقا هامة. وحين احتل الصوصو كومبي في بداية القرن الثالث عشر انضمت جدالة المهاجرة إلى المكان الجديد في والاتا، فأنشأؤوا هناك مركزا للعلم، وحين بدأت والاتا تفقد تجارتها إلى تنبكت تبعتها جدالة. وظلوا هناك طويلا معلمين كما كانوا تجارا، فكانوا أول من أعطى المدينة سمتها كمركز من مراكز العلم، كما زودوها بالأئمة المتعلمين بصفة منتظمة من أجل مسجدها.[١]

وفي أيام منسا موسى استقرت التجارة والأدب في تنبكت واستفاد كلاهما من تغير الحاكم، فبدأ الساحلي[٢] في ذلك الوقت في بناء مسجد جديد وقصر للملك، وأصبحت المدينة بسرعة أهم أسواق الداخل، وذاعت شهرتها كمركز رئيس لتبر الذهب، وجاءها التجار من جميع الأنحاء، من درعة وسوس وفاس، ومن المغرب الأقصى ومن وات وغدامس وفزان وعجيلة في الصحراء. وأيضاً من مصر، وهي التي كانت تجارتها مع السودان قد تعززت منذ رحلة منسا موسى للحج، وقدم مع التجار المعلمون وعلماء الدين من بلاد كثيرة ليجتمعوا حول مشهوري علماء جدالة في جامع سنكور[٣]. واشتهرت بعد ذلك بكثرة علمائها حتى إنه عندما تدهورت دولة مالي سياسيا

---

(١) المرجع نفسه، ص ص١١٩ـ١٢٠.

(٢) شاعر ومهندس أندلسي، التقى به منسا موسى في طريقه للحج، وأحضره معه لمالي، حيث قام ببناء مسجد عظيم، وأدخل الطراز الأندلسي المعماري في إفريقية الغربية.

(٣) الدكتور زاهر رياض، مرجع سبق ذكره، ص١٢٠.

بقيت هذه المدينة ورصيفاتها ـ مثل جني وجاو ـ محتفظة بمكانتها العلمية كمركز كبير للثقافة الإسلامية في قلب غربي إفريقية.

وقد اشتهرت تنبكت وجاو بصفة خاصة، بأنهما مركزا الدين والتجارة.

ويذكر ليو الإفريقي، عندما زار تنبكت في القرن السادس عشر الميلادي، أي بعد تدهور مالي وزوالها كدولة كبيرة وخلال العهد الأخير من سنغي الإسلامية التي ورثت دولة مالي، يقول ليو إن تنبكت، في وقت زيارته لها، مملوءة بالعلماء والفقهاء والأئمة، وإن هؤلاء يتمتعون برواتب سخية ويعاملون باحترام وتعظيم، وأشار كذلك إلى شدة الطلب على الكتب، وهي مخطوطة، إذ كانت تجارة الكتب تدر أرباحا طائلة، بحيث فاقت الأرباح الناتجة عن العمل في أي تجارة أخرى، وهذا دليل على عظم الإقبال والتلهف على اقتناء الكتب وعلى كثرة العلماء والمتعلمين.

وانصب الاهتمام في مناهج التعليم في مالي، وكذلك في غيرها من بلاد السودان الغربي، على حفظ القرآن أولا، وقد ذكرنا تشددهم في ذلك. وبجانب ذلك هنالك الاهتمام بلغة القرآن، وهي اللغة العربية، التي اكتسبت مسحة من التقديس عند مسلمي غربي إفريقية عامة، وكانت جميع الوثائق المهمة تكتب باللغة العربية، كما كانت العربية لغة الحكومة والمراسلات الدولية ولغة التجارة، أي إنها كانت اللغة السائدة.[١]

ولم تكتف قبائل الممالك الإفريقية بدخول الإسلام، بل طبعت بطابع عربي بسبب انتشار اللغة العربية في تلك البلاد.[٢]

---

(١) المرجع نفسه، ص١٥٣.

(٢) المرجع نفسه، ص١٥٣ ـ ومرجعه ديشان، سبق ذكره.

ومن الآثار الثقافية في طريقة الكتابة يقول القلقشندي: «وكتابتهم بالخط العربي على طريقة المغاربة، وقد ورد إلى السلطان الناصر كتاب من موسى بالخط المغربي.[1]

لقد تركت اللغة العربية أثرها في اللغات المحلية، ولا يزال إلى اليوم آلاف الكلمات العربية المستخدمة في بلاد غربي إفريقية في شتى مظاهر الحياة، أي إن اللغة العربية، وهي لغة عقيدة وحضارة، قامت بالدور الذي قامت به اللغة اللاتينية في أوربة الوسيطة، لكنها تفوقت على اللاتينية من حيث سعة الانتشار والبقاء بسبب مكانتها المقدسة، لأنها لغة القرآن والعقيدة الإسلامية، فلم تَزُل أمام اللغات المحلية كما حدث للغة اللاتينية، وبقيت كذلك حتى في عصر الاستعمار الأوربي، على الرغم من زوال السلطة للدولة الإسلامية في إفريقية الغربية.[2]

ومما أفسح المجال لروافد الحضارة الإسلامية في مجال الثقافة تلك العلاقات الواسعة لدولة مالي بالعالم الإسلامي، إذ اتسعت صلات مالي فشملت الدول الإسلامية المهمة آنذاك، وشملت مصر التي كانت بها الخلافة العباسية حينذاك، والتي كانت تعدّ مركز الثقافة الإسلامية، وشملت المغرب، الوثيق الصلة بالمناطق التي شغلتها مالي، وشملت الأندلس الإسلامية التي كانت غرناطة تمثلها في ذلك الحين.

وكانت علاقة مصر ببعض المناطق التي تكونت منها مالي علاقة قديمة تسبق قيام دولة مالي، ومن أشهر هذه المناطق منطقة تكرور التي كانت تعيش

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٥ مصدر سبق ذكره، ص٢٩٨.

(٢) انظر: طرخان، مالي، ص١٥٤.

منها جالية كبيرة في بولاق بالقاهرة حتى عرفت ببولاق التكرور، وحرفت إلى «الدكرور». وكان ضمن هذه الجالية رجل من الصلحاء اسمه الشيخ أبومحمد يوسف بن عبدالله التكروري، وقد توفي في بولاق وبُني له مسجد وقبة، وعرف مسجده باسم جامع التكروري، وكان يعاصر الخليفة العزيز الفاطمي.[1]

وفي ظل دولة مالي الإسلامية نمت هذه العلاقات نموا واسعا وشملت اتجاهات متعددة، ولعل الصلات الثقافية كانت أوسع هذه الصلات، فقد كان لطلاب مالي رواق عظيم في الأزهر عرف أيضا برواق التكاررة، ورحل كثير من علماء مصر إلى تنبكت ليعلِّمُوا بها، ورحل من تنبكت بعض العلماء ليتصلوا بعلماء مصر ويتدارسوا معهم بعض المسائل، وقد جلس بعضهم يعلم في الأزهر، ومن الصلات الثقافية كذلك اهتمام أهل مالي بالكتب الإسلامية التي تنشر في القاهرة[2]. وسيأتي تفصيل هذا الجانب.

واستطاع ممن مكث بين ظهرانيهم من البيضان أن يتقن اللغة السودانية، وقد شهدنا ذلك في رحلة ابن بطوطة، عندما روى حكاية الفقيه الذي تكلم عن الجراد وفتكه أمام السلطان، فترجم أحد البيضان ما يقوله هذا الفقيه السوداني لابن بطوطة ففهمه.[3]

كانت علاقة مالي بالدول الإفريقية المجاورة تجارية في أساسها - كما رأينا - عمادها تبادل المنفعة، ولكن وجدت العلاقات السياسية والحربية، وأساسها مطامع مالي في التوسع الحربي على حساب جيرانها، ونشر الدين

(١) انظر: الدكتور عبدالرحمن زكي، مرجع سبق ذكره، ص٤٣.
(٢) الدكتور أحمد شلبي، مرجع سبق ذكره، ص٢٥٥.
(٣) ابن بطوطة، تحفة النظار، كتاب التحرير، ص٤٤٨.

الإسلامي بين الوثنيين. ومن الممالك المهمة ذات العلاقات التجارية والثقافية مع مالي، مملكة جني، التي فشلت مالي في إخضاعها وضمها إلى أملاكها، إلا أنها لم تكن منعزلة عن مالي، ولاسيما أن ملوك جني كانوا من أبناء عمومة الماندنجو ملوك مالي، وكانت جني من الممالك المزدهرة تجاريا وثقافيا.[1]

ولعل أهم العلاقات التجارية والثقافية والسياسية، ما قام بين مالي ودول المغرب ومصر، فقد وفد المغاربة على مالي وجميع بلاد السودان الأوسط والغربي بأعداد ضخمة للتجارة ونشر الثقافة العربية والإسلامية. وكثيرا ما أوفد الملوك السفارات لتدعيم هذه العلاقات.[2]

ومما هو واضح أن كل المظاهر الحضارية الإسلامية التي وفدت بدخول الدين الإسلامي إلى بلاد السودان كان أهم العوامل التي حملتها هم التجار. وأن التجارة هي عماد الاقتصاد السوداني، وهي أساس علاقاته السياسية والاقتصادية والثقافية مع الجيران، وأساس الحكم في الداخل. وهي المغنطيس الذي جذب إليه العاملين في كل حقول المعرفة، مما أدى حتى إلى الاختلاط العنصري بين الشعوب السوداء والشعوب البيضاء.

تلك كانت دولة مالي الإسلامية التي أضاءت بالإسلام في غربي إفريقية، والتي ظلت فترة كبيرة من الزمن تحمل عبء توصيل الإسلام إلى البلاد المجاورة. ولكن حماسة الناس هناك بعد منسا موسى قد ضعفت، فقد استكانوا للراحة، ثم قامت عملية التقاتل في الداخل على كراسي الحكم.

على أن السبب الحقيقي لتدهور هذه الدولة أنه لم يعد لديها هدف محدد تسعى إليه، وتتحرك باسمه في جسارة، ومن هنا كان لابد لهذه الدولة أن

---

(١) السعدي، مصدر سبق ذكره، ص ص١١ـ١٦.

(٢) الدكتور طرخان، مالي، ص١٦٧.

تتصدع من الداخل، وأن يتخطفها الجيران، ثم تستحيل إلى إمارات صغيرة متناحرة. تلك كانت حالة الدول في الإسلام.. تقوى بالإسلام وتضعف عند الابتعاد عنه في شؤون الحياة السياسية والاجتماعية والالتزام الأخلاقي. وقد بلغ بدولة مالي الضعف حدا جعلهم يستعينون بالبرتغاليين على إخوان لهم في القرن السادس عشر الميلادي. وكانت في عهدها الأخير منزوية في إقليم كانجابا الذي بدأت منه سيرتها إلى دولة عظمى، فها هي ذي تعود إلى حجمها الأول بعد أن تقطعت أوصالها، وابتلعها الاستعمار الفرنسي أخيرا.

أما جمهورية مالي الحديثة، فهي بعض دولة مالي الإسلامية القديمة ووارثة اسمها، ولكن المساحة الحالية أقل من المساحة التي كانت عليها دولة مالي في أوج عظمتها في القرون الوسطى. وقد استقلت هذه الجمهورية عام ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م، وكانت تعرف في العهد الاستعماري بـ«السودان الفرنسي». وأخذت اسم مالي بعد الاستقلال، إحياء وتمجيداً لذكرى ذلك التاريخ القديم.

المبحث الثالث



دولة سنغي الإسلامية

المطلب الأول : تطورها التاريخي

حول منتصف القرن السابع الميلادي بدأت بعض قبائل لمطة المغربية الوثنية تحرز نفوذا سياسيا على الزراع من سنغي الذين استقروا على الضفة اليسرى لنهر النيجر عند مدينة دندي. واستطاع هؤلاء البربر أن يؤسسوا أسرة حاكمة تسمى أسرة (ديا)، التي ظلت تحكم هذه البلاد حتى سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م. وقد اتخذوا «كوكيا» حاضرة لهم. ولا يعرف موقعها بالضبط، وإنما يمكن أن يقال إنها تقع في المنطقة الشمالية الغربية من حدود نيجريا الحالية. وقد قدر لشعب هذه الدويلة أن يؤدي نفس الدور الذي أداه شعب الماندنجو، وأن يؤسس دولة تشبه الدولة السابقة في كثير من مظاهر قيامها ثم توسعها ثم انحدارها؛ وتشبهها أيضا في مشاركتها في الحياة الإسلامية العامة. وقد نمت علاقات هذه البلاد التجارية مع غانا وتونس وبرقة ومصر عن طريق «تادمكة» (أي مكة الجديدة) التي تعد مركزا مهما لطرق القوافل. وكانت هذه العلاقات التجارية ذات أثر بعيد في تحول ملوك هذه البلاد إلى الإسلام في القرن الحادي عشر الميلادي عن طريق شمالي إفريقية، وإن كان كثير من رعاياهم ظلوا على وثنيتهم. وفي ذلك الوقت نقلت حاضرة هذه البلاد فغدت على مقربة من طرق القوافل الرئيس، إلى مدينة «جو» عند منحنى نهر النيجر، وقد أصبحت من أهم مراكز التجارة في السودان الغربي، وهي تشبه مدينة غانا بالنسبة إلى البلاد الواقعة في أعالي النيجر.[1]

(١) انظر: الدكتور حسن إبراهيم: انتشار الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص١٠٩.

لعل دولة سنغي (أو صنغي ـ سغي ـ سونقهـاي ـ صونغهاي ـ صنغاي ـ سنغاي. . .) من أطـول الدول عمرا، فـقد بدأت بذورها في القـرون الميلادية الأولى، وعاصرت دولة غانا ودولة مالي، وانتـهت غانا ومالي، وبقيت سنغي حـتى سنة ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م، وينقـسم تاريخهـا إلى قـسمين فـيـما يتـعلق بالإسلام، فـقد عاشت وثنيـة حتى سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م، ثم اعـتنق ملكها الإسلام في هذا التاريخ، وأصبحت منارة لحضارة الإسلام ومبادئه.[1]

كانت سنغي جـارة لإمارة كانجابا التـي كان الماندنجو المسلمون سـادتها، وحدث احتكاك ومنافسة بين سنغي وكـانجابا، وكانت كفة سنغي أرجح آنذاك، فـاستطاع ملكهـا زايمكوري أن يمد نفـوذه إلى كانجـابا وأن يقـتل أبناء السلطان جمـيعـا. ثم دار الزمان دورته واسـتعـادت كانجابا مكـانتها، وتطـورت حتى أصبـحت دولة مالي العظيمة. وعندمـا كان منسا مـوسى في طريق عودته من مكة سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م رأى أن يثأر من سنغي، فعرج على عاصمتها جاو، وكان ملكها قد مـات حديثا وخلف ولدين صغيرين همـا كولن وسليمان نار، فأخـذهما منسا مـوسى معه إلى عاصـمته. ويعلل السـعدي[2] ذلك بقوله إنه أخذهما للخدمة عنده على عادتهم فيما يختص بأبناء الملوك الذين في طاعتهم. ويقول شلبي[3] إن تلك العادة جارية عند سلاطين السودان كلهم، والمعتقد أنها

=

الدكتور حسن محمود: الإسلام والثقافة، مرجع سبق ذكره، ص٢٤٦.
الدكتور عبده بدوي: مع حركة الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص١٦١.
الدكتور عبدالرحمن زكي: الإسلام في إفريقية الغربية، مرجع سبق ذكره، ص٤٧.
(١) الدكتور شلبي، مرجع سبق ذكره، ص١٢١.
(٢) السعدي، مصدر سبق ذكره، ص٦، انظر ص٣ عن ذكر اسمي الولدين.
(٣) الدكتور شلبي، المرجع السابق، ص٢٥٧.

مجرد أخذ رهينة وليس للخدمة فقط. ومهما يكن الأمر فإن نفوذ مالي قد امتد إلى سنغي. ويذكر السعدي أن منسا موسى هو أول من ملك سنغي من سلاطين مالي.[1]

وسارت عجلة الزمان في دورتها الطبيعية، فأخذ نجم دولة مالي يأذن بالأفول بعد عظيمها منسا موسى، وإن كان قد تخللته ومضات سرعان ما انطفأت، فاستطاع الصبيان الأميران أن يفلتا من مالي عندما بلغا مبلغ الرجال، ولجأ كلاهما إلى عاصمة سنغي بعد تدبير وخطط وحيل سردها السعدي في الباب الثاني من تاريخ السودان[2] وقابلهما شعبهما بالحفاوة والتكريم، وقاموا بثورة ضد الوجود المالي في سنغي. وكان من جراء ذلك طرد الجنود الماليين وإعلان الاستقلال وتأسيس دولة سنغي المستقلة من جديد، وإعلان علي كولن سلطانا لها باسم «سني علي». وقد تم ذلك حوالي سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م.[3]

لم تستكن مالي لهذا الوضع الجديد. فأخذت تحاول إعادة سيطرتها السياسية على سنغي، فدخلت الدولتان في سلسلة من الصراعات والحروب، ولكن شاء الله أن تسير دولة مالي في انحدار إلى نهايتها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي، مما جعل كفة سنغي تعلو ثم تظفر على مالي، وتثبت استقلالها. وبدأت خطواتها نحو تأسيس دولة كبيرة سنة ٨٦٩هـ/ ١٤٦٤م بقيادة ملكها الذي عرف في التاريخ باسم (سني علي الكبير)، للتفريق بينه وبين سني علي الذي هو علي كولن، وبين هذين العاهلين مجموعة من الملوك ذكرهم السعدي يبلغون الاثني عشر ملكا، آخرهم آسكيا نوح.[4]

---

(١) السعدي، ص٧.

(٢) نفسه، الباب الثاني، ص ص٥-٦.

(٣) نفسه، ص٦.

(٤) المصدر والمكان نفساهما.

كانت المعركة التي دارت سنة ٨٦٩هـ/ ١٤٦٤م بين مالي وسنغي هي بداية التحرر الكامل، وبذلك يعد سني علي الكبير المؤسس الحقيقي لدولة سنغي، واستولى بعد ذلك على كل المدن التجارية والثقافية الهامة حتى تكتمل لديه مقومات الدولة القوية، فكان أول هدف له مدينة تنبكت العظيمة سنة ١٤٦٨م، تلك المدينة التي تعد الصورة الحقيقية لتاريخ العلاقات التجارية والثقافية بين إفريقيا شمالي الصحراء وجنوبي الصحراء، والتاريخ لهذه المدينة يعد سجلا حقيقيا وكاملا لتاريخ تلك الثقافة. لذا كان الاستيلاء عليها يعني ضم أكبر عنصر حضاري إلى دولة سنغي. وبعد الاستيلاء عليها طرد الطوارق، وامتد سلطانه فشمل كل الأراضي التي تحيط بمنحنى النيجر، وبسط نفوذه في سهول غربي إفريقية، فشملها جميعا، ثم احتل مدينة جني سنة ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م، تلك المدينة الهامة، التي لا تقل أهمية عن تنبكت، ولم يسبق لها أن خضعت لمالي، ولأهميتها الكبرى نرى أن السعدي قد أفرد لها بابا خاصا كاملا متكلما على أهميتها الاقتصادية «سوق عظيم من أسواق المسلمين وفيها يلتقي أرباب الملح من معدن تغازا وأرباب الذهب من معدن بيط، وكلا المعدنين المباركين ما كان مثلهما في الدنيا كلها، فوجد الناس بركتها في التجارة إليها كثيرة، وجمعوا فيها من الأموال مالا يحصيه إلا الله سبحانه وتعالى. ومن أجل هذه المدينة المباركة تأتي الرفاق من جميع الآفاق. . .»(١)

وبعد القضاء على نفوذ جني السياسي اتجه إلى مملكة الموسي الزنجية، وكانت أيضا قد استعصت على سلطان مالي، ففتحها وضمها إلى سلطانه، وتقدم شرقا فهاجم بعض إمارات الهوسا، فخضعت له كاتسينا وجوبر وكانو

(١) المصدر نفسه، ص ص١١-١٢، الباب الخامس.

وزنفره وزاريا، وانساح غربا حيث أخضع كل بلاد الماندنجو والفولاني، وشمالا حتى مواطن الطوارق. وبهذا نقل دولته من مملكة صغيرة إلى دولة عظمى، وكان هو أول سلاطينها العظام.(١)

المطلب الثاني : الإسلام في سنغي

إن حركة الإسلام في دولة سنغي صورة أخرى لحركة الإسلام في كل من دولتي غانا ومالي، نتيجة للعلاقات التجارية التي تربط الشمال الإفريقي ببلاد السودان، والعلاقات الداخلية بين هذه الدول الإفريقية. إذ إن طرق القوافل لا يقف تأثيرها عند حد التبادل التجاري كما قلنا، وأنما سرعان ما كان يتحول إلى ما يمكن تسميته بطريق ثقافي يتدفق عبره العلماء إلى هذا المكان من إفريقية. وهكذا لم تمر من القرن الحادي عشر الميلادي سنوات حتى كان الملوك المحليون على هذا الطريق التجاري الذي كانت تسيطر عليه دولة مالي، قد اعتنقوا الإسلام وحملوا أمانته لشعوبهم التي استقبلته هي الأخرى بحماسة لا تقل عن حماسة ملوكهم له. وقد اشتدت الحماسة للإسلام في الفترة التي نقلت فيها عاصمة الملك من كوكيا إلى جوا التي تستقر تماما عند منحنى النهر. ومع أن الانتقال كان لأسباب اقتصادية تتعلق بمراكز التجارة، إلا أن الإسلام كسب عن طريق هذا التحول قلوبا جديدة ونفوسا كانت عطشى للمعرفة. ثم كان المكسب الأخير حين ضم سني علي مدينتي تنبكت وجني إليه. الأولى متفوقة في المجال الثقافي، والثانية متفوقة في المجال التجاري، وكلتاهما تمثلان الشخصية الإفريقية التجارية والثقافية في أعلى المستويات. فقد كانت جوامع تنبكت ـ بحق ـ جامعات للمسلمين الذين يرغبون في الثقافة الإسلامية في

(١) الدكتور شلبي، مرجع سبق ذكره، ص٢٦٢.

غربي القـارة الإفريقيـة. كما كانت تحـتضن كافـة القوى الإسلامـية التي تريد الطمأنينة في ربوعها كما حـدث لجماعة من العلماء حين طردوا من والاتا، لم يجدوا أمامهم إلا تنبكت، فقد كانت جديرة بقـول السعدي عنها حين قال فيها «مادنستها عبادة الأوثان ولا سجـد على أديمها قط لغير الرحمن، مأوى العلماء والعـابدين، ومألف الأوليـاء والزاهدين وملتقى الفلـك السيـار، وسكن فيـها الأخيار من الـعلماء والصالحين وذوي الأموال من كل قـبيلة ومن كل بلاد من أهل مصر وفزان وغدامس وتوات ودرعة وتفلاتة وفاس وسوس وبيط[١]».

إن الاستيلاء والاستحواذ على مدينتي تنبكت وجني كان له أهمية عظمى في تاريخ الثقـافة الإسلامـية في دولة سنغي، وذلك لعراقـة هاتين المدينتين في مضمار الحضارة الإسلامية. فـقد أسستا على النيجر الأعلى، الأولى في القرن (٦هـ/ ١٢م) (حوالي سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م) والثـانية في القرن (٥هـ/ ١١م) (٨٣٥-٨٣٦هـ/ ١٠٤٣-١٠٤٤م) وقـدر لهما فـي القرون المتـعاقبـة أن تؤثرا تأثيرا قويا في تقـدم الإسلام في السودان الغربي. فقـد أسلم كنبرو ملك جني حول نهـاية القرن (٦هـ/ ١٢م) (أي حـوالي سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، فـحذا حذوه سكان المدينـة، ويقال إن كنبرو لما عـزم على اعتناق الإسـلام جمع كل العلماء في مملكتـه وكان عددهم ٤٢٠٠ كما يذكـر السعدي[٢] «فحصّل منهم أربعة ألاف ومئتي عالم»[٢]. وهذا العدد بصرف النظر عن دقته ـ كما سبق أن قلنا ـ فـهو يعكس تـقدم الإسـلام العظيم في هذه البـقعـة. وبعد أن جـمع السلطان هؤلاء العـلماء طلب مـنهم أن يدعوا إلـيه الله كـي ينصر مـدينتـه،

---

(١) السعدي، مصدر سبق ذكره، ص٢١.

(٢) المصدر نفسه، ص١٢.

فاستجاب الله لذلك فيما يفهم من تعبير السعدي «فكانت مقبولة».[(١)]
وبإسلامه جعل دار السلطنة وماحولها مسجدا لله تعالى، وهو الجامع. وصارت ذات شأن عظيم كمركز للتعاليم الإسلامية، وتوافد عليها الطلبة وعلماء الدين في جموع كبيرة، مدفوعين بما كانوا يلاقونه فيها من تشجيع ورعاية.[(٢)]

أما عن دخول الإسلام في دولة سنغي القديمة بصفة عامة فيقال إنه وجد في عهد مبكر يرجع إلى سنة ٨١هـ/ ٧٠٠م. ولم يذكر لنا التاريخ الذي بين أيدينا شيئاً مفيداً، إلا أن أول ملك مسلم كان يسمى زاكسي، كما جاء في كتاب تاريخ السودان للسعدي، حين قال: «أول من تملك فيها من الملوك زاالأعين ثم... ثم زاكنكن، هؤلاء أربعة عشر ملكا ماتوا جميعا في جاهلية وما آمن أحد منهم بالله ورسوله ﷺ، والذي أسلم منهم زاكسي، يقال له في كلامهم مسلم دم، ومعناه: أسلم طوعا بلا إكراه، وذلك في سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م[(٣)]. ولكن لم يرد أي ذكر عن المؤثرات التي دان لها بإسلامه في كلام السعدي. أما صاحب الفتاش فقد رد السبب في تحول مملكة سنغي إلى الإسلام إلى تأثير تجار جوا الذين أتاح لهم وجودهم على طرق القوافل التجارية بالشمال مركزا تجاريا ممتازا، وقدرة على إجراء هذا التغيير في عقائد شعوب سنغي.[(٤)]

ويذكر باسيل دافيدسون[(٥)] أن الملك الأول الذي اعتنق الإسلام سمى ضياء كوسوى سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م وأن ذلك كان قبل غزوات المرابطين.

---

(١) المصدر نفسه، ص١٣.

(٢) توماس آرنولد، مرجع سبق ذكره، ص ص٣٥٠-٣٥٦.

(٣) السعدي، المصدر السابق، ص٢، الباب الأول.

(٤) محمود كعت: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان وأكابر الناس، بردين، أنجي ١٩١٣م، ص١٧.

(٥) باسيل دافيدسون، مرجع سبق ذكره، ص٤٩٠.

ويذكر كذلك أنه قد سبق غزوات المرابطين لهـذه المناطق في غربي افريقية قدوم بعض رجال المرابطين من الطلائع سواء أكانوا من التـجار أم من الدعاة، ويذكر أنه قد تم العـثور سنة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٩م في بـلدة «ساني» على بعـد حوالي أربعة أميال من مـدينة جوا الحالية على شواهد لقبور ملكيـة يعود تاريخها إلى نهاية القـرن (٥هـ/ ١١م). وقد كـتب على إحدى هذه الشواهد مـايلي: «هنا جـثمـان الملك الذي دافع عن دين الله، ويرقـد الآن في رعايتـه، أبوعبـدالله محمد سنة ٤٩٤هـ (سنة ١١٠٠م).

ومما سـبق يتضح أن تـاريخ الإسلام بدولة سنغي لـم يكن حديثـا، ولم يدخل دفعـة واحدة، فإن هناك مـجموعـات دخلت الإسلام قـبل إسلام الملك زاكوسي وجـموعا أخرى دخلت الإسـلام مع الملك، ثم جاء انتشـار الإسلام بصورته الواسـعة إبان حركـة المرابطين التي خدمت البـلاد في مضمـار الدعوة الإسلامية في البلاد التي اقتحموها والبلاد المجاورة لها. وإن لم يكن المرابطون قـد دخلوا سنغي، إلا أن حركـتهم دفـعت الإسـلام للتقـدم حتى في خـارج حدودهم، خـاصة سنغي التي تدرجت في مـضمـار الحياة الإسـلاميـة ـ كمـا ذكرنـــا ـ حتـى أخذت مـكانهـا كأعظم دولـة في المنطقـة على عهـد السلطان «السني علي».

لقد تولى أمور هذه المملكة بعد سني علي عاهل آخر هو آسكيا محمد، الذي خـرج من صفـوف الشـعب، وليس من صـفوف العـائلة المالكة. كـان مشهورا بالتقوى، وكان ممتلئا بالحـماسة لنشر الإسلام بين جيرانه، حتى إنا نراه ما يكاد يعود من مكة بعد أداء فريضة الحج التي قام بها، حتى يأخذ في إدخال الإسلام إلى قلوب الماندنجو والفلاني في الغـرب وإلى قلوب الهوسا في الشرق والموسي في الجنوب والطوارق في الشمـال. وقد عقد السـعدي بابا طويلا عن

الحاج آسكيا محمد، ووصفه فيه بأنه: «الأسعد الأرشد، أمير المؤمنين وخليفة المسلمين، الذي فرج الله به عن المسلمين الكروب، وأزال به عنهم البلاء والخطوب، واجتهد بإقامة الإسلام وإصلاح أمور الأنام وصاحب العلماء..»[1]. وامتدحه أيضاً صاحب الفتاش ووصفه بأنه الإمام العادل والسلطان الفاضل.[2]

وفي عهد آسكيا محمد حوالي سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م، أو بعدها بقليل، بدأت علاقة ليو الافريقي بسنغي، وارتبطت بآسكيا محمد. ويختلف ليو الإفريقي (حسن الوزان) عن سابقيه من الجغرافيين والرحالة، إذ إن معظم المادة العلمية الخاصة بإفريقية عنده مصدرها ماشهده بعينيه أو سمعه بأذنيه في بيئته الأصلية. ولقد أدرك الحسن الوزان بعد رحلاته العديدة في شمالي إفريقية أهمية الدور الذي تلعبه التجارة السودانية في الحياة الاقتصادية والاجتماعية لبلاد المغرب الممتدة من طرابلس إلى الشرق إلى البحر المحيط في الغرب، فعزم على زيارة مصدر هذه التجارة السودانية ودراستها على الطبيعة في موطنها الأصلي. وأتيح له زيارة بلاد السودان مرتين في أوائل القرن (١٠هـ/ ١٦م)، استطاع بعدهما أن يمد المعاصرين بصورة واضحة عن قلب إفريقية، بحيث أمكن التمييز - وقتذاك - بين ما هو من الحقيقة التاريخية، وبين ما هو من الأساطير الخيالية.[3]

ولعل سر اهتمام العالم بما أورده الحسن الوزان عن بلاد السودان الغربي عامة هو أن رحلته التي جمع فيها بياناته عن هذه البلاد، وافقت ظهور دولة

(١) السعدي، ص ص٦٤-٦٥.
(٢) محمود كعت، مصدر سبق ذكره، ص١١.
(٣) الدكتور مصطفى مسعد: الحسن بن محمد الوزان، أضواء على رحلته ص ص٤٨-٥٣.

زنجية إسلامية في قلب إفريقية، هي دولة سنغي، وازدهار هذه الدولة الإسلامية في عهد آسكيا أبوبكر الذي نجح في إخضاع كثير من الممالك السودانية، وتأسيس دولة واسعة تتحكم في مصادر التجارة السودانية مع الدعم عبر الصحراء الكبرى. وبلاد السودان، المعروفة للحسن الوزان والتي زارها بنفسه، خمس عشرة مملكة، يقع معظمها على ضفاف نهر النيجر أو قريبا منه أو قريبا من غيره من الأنهار، وهي ممالك والاتا، غينيا، مالي، تنبكت، جاجاو، جوبير، أغاديس، كانو، كاتسنا، زجزج، زنفرا، ونجارة، برنو، النوبة.[1]

ولقد كان آسكيا محمد ـ بحق ـ حاكما فريدا في تاريخ الحكام المسلمين السودانيين من حيث النزاهة والإخلاص للدين الإسلامي قولا وعملا. وقد ظهرت الحركة التوسعية في صورة قوية واضحة في عهده، فقد استكملت الدولة استعدادها العسكري الموفور، وأفادت من الخبرات السابقة، واتخذت هذه الحركة الجديدة مظهرا إسلاميا واضحا، حيث اتجه هذا الفاتح إلى مملكة موسي الزنجية. فأعلن عليها الجهاد بعد استشارة أهل العلم والورع.

بدأ آسكيا محمد بأن طلب إلى ملوك هذه الدولة الدخول في الإسلام ودفع الجزية، فلما أبوا حاربهم في ديارهم، قتل رجالهم وخرب أرضهم وسبى نساءهم. وبسط نفوذه غربا إلى بلاد الماندنجو والفولاني وشمالا حتى مواطن الطوارق، وامتد نفوذه جنوبا بعد إخضاعه مملكة موسى الوثنية. وتجاوزت سنغي الآفاق التي وصل إليها سلاطين مالي، إذ تسرب نفوذهم إلى شمال نيجيريا، حيث خضعت له إمارات الهوسا. وكان هذا الخضوع بداية لظهور الثقافة الإسلامية في هذه الجهات، فظهرت مدن كانو وكاتسينا كمراكز للثقافة في هذا الجزء من نيجيريا.[2]

---

(١) المصدر نفسه، ص ص٤٨ـ٥٣. بتصرف.

(٢) الدكتور حسن محمود، الإسلام والثقافة العربية، مرجع سبق ذكره، ص ص٢٤٧ـ٢٤٨.

المطلب الثالث : المراكشيون ونهاية دولة سنغي

في الأجيال التي تلت آسكيا محمد على دست الحكم ينقضي عهد الفاتحين المجاهدين المؤسسين ويأتي جيل من الخلفاء الذين ينقصهم هذا الإخلاص وهذه الرغبة في الجهاد، بل يجنحون إلى الراحة والإغراق في الترف والنعيم والنزاعات العائلية حول السلطة، والمؤامرات، مما جعل قوة المغرب بشمالي إفريقية تطمع في هذه الدولة، حيث تطور هذا النزاع إلى عدوان متبادل واشتباك مسلح. ورأى المنصور، سلطان مراكش الذي كان قد أبطره انتصاره على البرتغاليين عند القصر الكبير، رأى أن يحسم هذا النزاع بفتح بلاد سنغي، مستغلا ما أصابها من ضعف وتمزق.

لقد أغرى المغاربة ما كان لسنغي من ثراء نتيجة استغلال هذه الدولة للتجارة المتصلة بين شمالي إفريقية وغربيها، وهذه التجارة لا تنمو ولا تدر الربح إلا إذا هدأت الأحوال، واستتب الأمن[1]. فقد كانوا منذ عهد بعيد يتطلعون إلى مناجم الملح في تغازا وإلى السيطرة على تجارتهم مع السودان الغربي. وظل ملوك سنغي يصدون سلاطين المغرب حتى سنة ١٥٨٥م حين انقسمت البلاد على نفسها، فكانت فرصة لتحقيق تلك الأطماع. ولم تفلح جهود إسحاق الثاني وخلفائه في وقف تقدم الجيش المغربي، ووقفت حدود مملكته عند بلاد دندي، وكانت موقعة (توديبي) المعركة الفاصلة في تاريخ مملكة سنغي واندحار الجيش السوداني. ولكن هذه الموقعة لم تكن نصرا للمغاربة إلا من الناحية العسكرية. إذ إنهم لم يحققوا الأغراض التي قاتلوا من أجلها، وهي السيطرة على مناجم الذهب في غربي إفريقية، فقد اكتشفوا أن ثروة

(١) المرجع نفسه، ص٢٥٠.

سنغي لم تكن نتيجة امتلاكهم لمناجم الذهب، وإنما كانت نتيجة لسيطرتهم على تجارته مع مواطن إنتاجه في وانجارا وبندوكو وأسنتي. وهي تجارة كما ذكرنا، لا تزدهر إلا في ظل الأمن الذي نجح ملوك سنغي في إقامته في غربي بلاد السودان.

وهنا نقطة جديرة بالإشارة، وهي أن هذه الحرب كانت حربا اقتصادية وليست دينية، بدليل ما يروى عن الملك المغربي قبول خمس عشرة عذراء من بين الهدايا التي قدمها له قائده في السودان، جودر باشا، ليكن عشيقات الملك، وليس هذا من الإسلام، إذ إن دولة سنغي كانت دولة مسلمة، ولا يجوز شرعا سبي المسلم للمسلمة، بل يكون الاسترقاق بين أهل الكفر وأهل الإسلام، وفي ميادين الحرب الشرعية. هذا مما يجعلنا نؤكد أن الحرب المراكشية السودانية كانت من أجل المغانم والسيطرة الاقتصادية على عائدات التجارة ومواطنها الأصلية.

وبعد النجاح العسكري فشل المغاربة في حكم البلاد وفي السيطرة السياسية، وبمجرد تمزق جيش سنغي، تقطعت أوصال المملكة وقامت الثورات في البلاد من قبل الفُلاني والبمبارا والطوارق، ينهبون ويسلبون ويخربون. وكانت الفرصة المواتية للأوروبيين الذين بدؤوا يظهرون على مسرح الأحداث، ينزلون على سواحل إفريقية الغربية ويطمعون في مناجم الذهب.(١)

ولقد كان فتح السودان بأمر المنصور المراكشي الذي لم يكن جمهور التجار على رأيه، بل كانوا يعتقدون أن موارده وإن عظمت لا تعدل تجارة المغرب مع السودان، التي لابد لها أن تقل شيئا فشيئا، وقد صدق ظن هؤلاء

(١) الدكتور حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام، ص١١٣.

التجار بعد وفاة المنصور حين عدلوا عن مشروع فتح بلاد السودان سنة ١٠٢٨هـ/ ١٦١٨م.[١]

لم يستطع المراكشيون أن يمدوا نفوذهم إلى ما وراء المدن الرئيسة: جني وتنبكت وجاو، وكفوا بعد حين عن إرسال الجند أو المؤونة. وتركوا قواتهم هناك تقرر مصيرها بنفسها، فنشأت أسر محلية من باشوات تنبكت تدين بالتبعية الاسمية لسلطان مراكش، وتعتمد على عنصر خليط من البربر وأهل البلاد. وقد تغلب منهم على حكم تنبكت في المدة من سنة ١٠٧١هـ/ ١٦٦٠م إلى سنة ١١٦٤هـ/ ١٧٥٠م مائة وثمانية وعشرون باشا.[٢]

على أن النهاية لم تكن لهؤلاء المراكشيين فقط، وإنما لمملكة سنغي هي الأخرى، بحيث يمكن القول بأنها لم تصبح في عام ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م إلا ذكرى في نفوس الإفريقيين. أما الباشوات المراكشيون فقد ظل اعترافهم بالتبعية للسلطان المراكشي حتى سنة ١٠٧١هـ/ ١٦٦٠، ثم قطعت السلالات الجديدة هذه الصلة. ثم أخذ هؤلاء الباشوات ينحدرون من ضعف إلى ضعف حتى أصبح الباشوات في تنبكت يدفعون الجزية لبعض الحكام الوثنيين، نتيجة لذلك استقلت عن تنبكت المدن التي كانت تابعة لها من قبل، وقطعت عنها الجزية. وعاشت هذه المناطق في ضعف وتمزق استغله الاستعمار الأوربي ليمد نفوذه إلى هذه الأرجاء.[٣]

---

(١) المرجع نفسه، ص١١٤.

(٢) الدكتور حسن محمود، مرجع سبق ذكره، ص ص٢٥١، ١٥١، ومرجعه فيه الذي سبق ذكره.

(٣) للوقوف على المزيد من هذا انظر، السعدي (الباب الحادي والعشرون) خاصة ص ص١٣٧ـ٢٢١، التي فيها أخبار الحملة المراكشية ونتائجها.

المطلب الرابع : أثر الإسلام الحضاري في دولة سنغي

أولاً ـ الناحية السياسية والإدارية :

يذكر ترمنجهام[1] أن آسكيا محمد قد انتفع بالإسلام انتفاعا كبيرا للتمكين لسلطانه. ويقول دافيدسون[2] إن معظم ما قام به آسكيا الحاج محمد من أعمال أنه طور النظام الإداري في سنغي بحيث دفع الدولة دفعة قوية نحو الحكم المركزي القوي. ويعطي توماس هودكير[3] بعض التفاصيل عن هذا النظام، فيقول: إن عبقرية آسكيا محمد لم تتجل فيما قامت به من أعمال عسكرية مثلما تجلت في التنظيم الإداري الممتاز الذي وضعه هذا الرجل بتأييد الزعماء المسلمين، وبتأييد التجار كوسيلة من وسائل توحيد هذه الدولة المترامية الأطراف وربطها، وقد تضمن هذا التنظيم إنشاء نظام حكام الأقاليم، وإنشاء عدد من الوزارات المركزية للشؤون المالية وشؤون الجيش، وشؤون القضاء والشؤون الداخلية، وشؤون الزراعة والغابات، وكذلك إنشاء وزارة خاصة للشعب الأبيض، أي المغاربة والطوارق الذين كانوا يعيشون على الحدود الصحراوية للدولة.

إن كل المصادر التي بين أيدينا تكاد تجمع على أن سنغي في أوج عظمتها كانت تحظى بنظام إداري رائع، وأن آسكيا محمد أعاد تنظيم الدولة، وأن النظم الدقيقة التي وضعها شملت الناحية المالية والعسكرية والعلاقات القبلية، وكانت كلها ترمي لخلق وحدة قوية من الأجزاء المختلفة للدولة، والقضاء على السلطة القبلية، وكان عماد التنظيم الجديد هو المركزية في مجال الشؤون الرئيسة

---

(١) Islam in W.A., op. cit., p. 93.

(٢) An Introduction to the History of West Africa, op. cit., p. 50.

(٣) ممالك السودان الغربي، مرجع سبق ذكره، ص٣١.

والتشريع واللامركزية أو الحكم المحلي في الأمور الثانوية والتنفيذية.

والحج، كما هو معروف، أن من منافعه تعرف المسلمين أحوال بعضهم بعضا في كل الأمور التي تهم الإسلام والمسلمين، فقد أفاد الزعيم المسلم آسكيا محمد من حجته الشهيرة في عام ٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م، حيث اجتمع في موسم الحج بزعماء المسلمين وتأثر بما رآه في مصر من نظم في الحكم راقية، ومن ثقافة عربية مزدهرة، فاتصل بالإمام السيوطي وغيره من علماء العصر، وتلقى تقليدا من الخليفة العباسي، وعاد إلى بلده متأثرا بما رآه من روح إسلامية خالصة، وعمل على تطبيق ما تعلمه من آراء وتجارب. ويقال إنه استهدى في تنظيماته الإدارية بالنظم التي شهدها في مصر.(١)

وليس بغريب على الرجل أن يستهدي بتعاليم الإسلام في نظم حكمه، فقد كان مسلما مخلصا وتقيا ورعا، وأمعن في إحاطة نفسه ببطانة من العلماء، يأكلون ويشربون معه ويستشيرهم في كل الأمور عن رأي القرآن والسنة حتى أصبحت هذه السياسة الإسلامية سياسة مقررة لخلفائه.

وقد أفاض كعت في الثناء عليه حين ذكر بعض مناقبه، منها: «حسن السياسة والرفق بالرعية والتلطف بالمساكين مالا يحصى ولا يوجد له مثل لا قبله ولا بعده، وحب العلماء والصالحين والطلبة، وكثرة الصدقات وأداء الفروض والنوافل. وكان من عقلاء الناس ودهاتهم، والتواضع للعلماء وبذل الأموال لهم مع القيام بمصالح المسلمين وإعانتهم على طاعة الله وعبادته. وأبطل جميع ما عليه شيء من البدع والمنكر والظلم وسفك الدماء، وأقام الدين أتم قيام، وأطلق كل مسترقّ ادعى الحرية، ورد كل مال غصبه إلى

(١) الدكتور حسن محمود: الإسلام والثقافة، مرجع سبق ذكره، ص٢٥١.

مواليـه، وجدد الدين وأقام القـضاة والأئمـة، جازاه الله عن الإسلام خـيرا، ونصب في تنبكت قاضيـا وفي بلده جنى قاضيا وفي كل بلد يسـتحق القاضي من بلاده قاضيا، من كنت إلى سبروك»[1].

إن شعب آسكيا محمد يدين له بتعليـمه إياه الحكومة المنظمة التي بها ضمن النجاح الذي حققه أكثر مما يدين له بهذه الدولة الكبيرة التي أعطاها إياهم.[2]

ثانياً ـ الناحية الاقتصادية والثقافية والاجتماعية :

قلنا فيما يتعلق بالناحية الاقتصادية إن سنغي سيطرت على مصادر الثروة في هذه البقاع من غربي إفريقية، وهو الذهب والملح، كما سيطرت على طرق التجارة الرئيسة بين الشمال والجنوب بما تدره من ضرائب، وهي بهذا تعد أغنى من دولة مـالي التي تحدثنا عـن رخائهـا من قبل. ووراء كل هذا نجـد أن هذه الناحية الاقتصادية كانت النواة التي تبلورت بها دولة سنغي إلى دولة إسلامية، والدليل على ذلك ما قلناه في مكان آخـر، وهو أن مملكة سنغي قد تحولت إلى الإسلام بتأثير تجار «جاو» الذين أتاح لهم وجـودهم على طرق التجارة إلى الشمال مركزا تجاريا ممتازا وقدرة على إجراء هذا التغيير في عقائد شعوب سنغي.[3]

وفي ظل الأمن الذي نعمت به سنغي في عهودها الأولى، كانت التجارة ناجحـة، وكانت تدر الرخاء والثراء على الحكومـة والشعب جميـعا، ومما يدل على مـا وصلت إليـه من غنى رحلة آسكيـا محـمـد إلى الحج سنة ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م، والتي نافست في أبهتها وجلالها رحلة منسا موسى.

لقد بلغت التجارة عـبر الصحراء درجة عظمية، أسـمى مما بلغته في أيام

(١) محمود كعت، مرجع سبق ذكره، ص٥٩.

(٢) الدكتور زاهر رياض: الممالك الإسلامية، مرجع سبق ذكره، ص١٤١.

(٣) محمود كعت، مصدر سبق ذكره، ص١٧.

دولة مـالي، إذ كانت مملكـة السنغي أكبـر وأعظم، وكـانت تضم مناطق ذات أجواء ومحـاصيل أكثـر تعددا مما كانت عليه دولة مـالي، وكانت فيهـا نحاس وذهب، كمـا كانت مناجم المـلح خاضعـة لها. وهكذا تدفـقت الأرباح على حكومة سنغي وشعبها، نابعة من المناجم وخصب الأرض أو وافده مع التجارة الصاعدة والهابطة، فلا غرو إذا سمعنا أن عاصمة سنغي كان يقطنها أغنى تجار السودان وأكثرهم قـوة ونفوذا، ويغشى أسواقها أفواج كـبيرة من الزنوج لشراء حاجتهم من الأقشمة خاصة، وغيرها من الضروريات والكماليات.[1]

ومن الطبـعي أن يكون في ظل هذا الانتعـاش الاقتـصادي انتـعاش في جانب الدعوة إلى الإسلام، وذلك لكثرة الحركـة التجارية وكثرة التجار من كل أنحاء العالم الإسلامي، يجوبون البلاد حاملين سلعهم ودعوتهم الإسلامية إلى الناس، ويلتـقون في المدن الـتجـارية الكبيـرة، ويتـبادلون الأفكار ويقـيمـون الصلوات الجامعة، وينفقون على أعمال البر والخير، ويحظون بثقة الحكام. كل هذا النشاط يعطي الإسلام مركزا قويا واستعدادا نفسيا لمواصلة الكفاح لمحو الوثنية.

وليس أدل على قوة هذه الدولة الاقتـصادية أكبر من الأشيـاء التي فعلها الحاج آسكيا محمد في حجتـه إلى مكة؛ فالسعدي يذكر أنه تصدق في الحرمين بمئة ألف مثقال من الذهب، واشتـرى بساتين في المدينة المنورة حبسها على أهل تكرور، واشترى هدايا وسلعا بمئة ألف.

أما من الناحية الثقافيـة فقد كانت دولة سنغي ذات طابع تجاري وثقافي، فمثلا نجد أن مدينة تنبكت، إلى جانب شهرتها التجارية، مركز مهم من مراكز الثقافة الإسلامـية في قلب إفريقية، سكن فيها الأخـيار من العلماء والصالحين[2].

---

(١) السعدي، مصدر سبق ذكره، ص٧٣.

(٢) انظر السعدي، ص٢١.

فيشيـر الحسن الوزان إلى طوائف العلماء والفقهاء والقـضاة وغيرهم من طلاب العلم الذين تزخـر بهم مدينـة تنبكت، وهؤلاء جمـيعـا موضع رعـاية الملوك وتشجـيعـهم. ويبدو مـدى اهتمـام ملوك سنغي بالحركـة العلميـة في تنبكت وتشجيعها في استيراد المخطوطات المتنوعة من بلاد المغرب، حيث تدفع مقابلها مبـالغ تفوق مـا يدفع مقابل أي سلـعة أخرى، إذ لا تخلو قـافلة مسـافرة من المغرب إلى تنبكت من وجود هذه المخطوطات.[1]

فلم تكن المدن بهذا مراكـز للتجارة فقط بل كانت مراكز للـثقافة والعلم ونشر الحـضارة الإسـلاميـة بكل مظاهرها. فقـد ظلت تنبكت مركـزاً للثقـافة والحضارة بالسـودان الغربي طيلة مايقـرب من مئة عام، في الفتـرة التي كانت أوربة تحترق بحرب المئة عام.[2]

ولمدينة تنبكت في إفريقيـة الغربية ميزتان: الأولى أنهـا دليل على انتشار الإسلام ناحية الجنوب، والثـانية أنها كانت إحدى الحواضر الإسلامـية المهمة، وكانت لها جامعة شهيرة تخرج فيـها علماء ومؤرخون كان لهم فضل كبير في نشر الإسلام والحـضارة الإسلامية العربيـة. وقد ساعد آسكيا محـمد وخلفاؤه على رقي هذه المدينة حتى بلغت شأوا بعيدا. فقد شيد فـيها آسكيا محمد كثيرا من معاهد العلم، وجذب لها العلماء من المغرب والبلدان المجاورة، وعمل على نشر الإسلام بين الوثنيين من قـبائل الهوسا والفوله والموسي، مهتـديا بنصيحة هؤلاء العلماء الذين كثروا في دولته، وظهرت في عهـده مدن إسلامية شمالي نيجيريا، مثل كانوا وكاتسينا، وجذبت هذه المدن طبقات العلماء مثل أحمد بابا التنبكتي الذي عرج على كانو عنـد عودته من الحج، وجلس بها يعلم الناس،

---

(١) الدكتور مصطفى مسعد، مرجع سبق ذكره، ص٥٢.

(٢) المرجع نفسه، ص٥٣.

ووصل انتشار الإسلام في ظله إلى منطقة بحيرة تشاد، ولهذا يطنب السعدي، كما رأينـا، ومحمود كعت الـتنبكتي في ذكر محاسنه وفـضله، ويرقون به إلى درجة الأولياء وأصحاب الكرامات والخوارق.[١]

ويعقـد السعدي بابا خـاصا (الباب التـاسع) من كتـابه «تاريخ السودان» للكلام عن بعض العلمـاء والصالحـين الذين سكنوا تنبكت[٢]. ويعطينا كعت وصفا كاملا لمعـاملة السلطان آسكيا الحاج محمد لرعيته والعلمـاء خاصة، فهو لا يقوم لأحد إلا العلماء والشرفاء وأولادهم، ويذكر لنا بعض الأعيان العلماء الذين اتصلوا به، ومنهم الشيخ عبـدالرحمن السيوطي والشيخ محـمد بن عبدالكريم المغيلي والشيخ شمهروش الجني والشريف الحسني مولاي العباس أمير مكة.[٣]

وسار كثير من ملوك سنغي سيرة آسكيا محمد في هذا المضمار، فشجعوا العلماء وأكـرموهم، وبذلوا أقصى الجـهد في خدمة الإسـلام ونشره، والعناية بالكتب والمكتبـات، وكان بعضهم يحـفظ القرآن، ويجلس أمام الشـيوخ يتلوه عليهم ويستمع إلى شرحهم وتفسيرهم.[٤]

وسيأتي الكلام مفصلاً عن الناحية الثقافية في تنبكت في الفصول التالية.

أما من الناحية الاجتمـاعية فقد كان لآسكيا محمد مـواقف شهيره. فهو أول حاكم في غـربي افريقيـة يرغم النساء على اتباع قـواعدالإسلام في ناحـية الزي والاختلاط، وكان أول من حكم بحرية ابن الرجل الحر من زوجة رقيقة، وكان يعدّ قبـل آسكيا محمد عبـدا تبعا لأمه[٥]، وكان الناس في عـهد آسكيا

---

(١) الدكتور شلبي، ص٢٧٨.

(٢) السعدي، ص ص٢٧ـ٣٧.

(٣) محمود كعت، ص٢١.

(٤) الدكتور شلبي، ص٢٧٨.

(٥) المرجع نفسه، ص٢٦٦.

محمد أمناء شرفاء، وكان القضاة عدولاً، ولا أثر للرشوة في مملكته، وكانت الشرطة ذات أثر فعال، حتى كان الطفل يذهب إلى السوق فلا يغشه ولا يسرقه أحد، وكانت حكومته أكثر تمسكا بالشدة من حكومة مالي. ويمكننا هنا أن نقرر أن أكثر العادات الاجتماعية التي ذكرها ابن بطوطة في وصفه لمالي، كالمحافظة على الصلاة في جماعة والتسابق عليها يوم الجمعة، واستعمال الملابس البيضاء، والعناية بحفظ القرآن، وشدة إجلال الرعية للملك، والتمسح بالتراب أمامه كل هذه العادات ظلت في دولة سنغي كما كانت في دولة مالي، إلا أنها قد انحصرت في نطاق ضيق، لأن العادات الاجتماعية الوثيقة الصلة بالإنسان والتحول عنها عسير وبطيء، وهذه العادات يرتبط أكثرها بالدين وآدابه، وقد اهتم آسكيا محمد بالذات وأكثر ممن جاءوا بعده، اهتموا بتعاليم الإسلام وسلوكه.[1]

(١) انظر الدكتور شلبي، ص٢٧٧.

المبحث الرابع

دولة الفولاني الإسلامية

المطلب الأول: الفولاني ـ دراسة تعريفية عن الأصل

لشعب الفولاني عدة أسماء يطلقها عليهم المؤرخون، منها: البوهل، الفولا، الفلان[1]، التكولور[2]. ويذكر بارث[3] بأن الهوسا يسمونهم الفلبي، والبرنو يسمونهم فلاتة، والعرب يسمونهم فلان، والماندنجو يسمونهم فولا.

وعندما عظم أمر الفولاني وكثر عددهم سيطروا على معظم بلاد غربي إفريقية تجاريا وثقافيا، وذلك بشجاعتهم وحماستهم للدين الإسلامي والدعوة إليه.

كانوا يسكنون في إقليم فوتا تورو بالسنغال، وكانوا يشكلون في القرنين (٨ و٩هـ/ ١٤ و١٥م) حاجزا وثنيا ضد تقدم الإسلام، ولكنهم عندما اعتنقوا الدين الإسلامي في القرن السادس عشر أصبحوا متحمسين لنشره وحمل لوائه والذود عنه. وقد قاموا بحركة اجتماعية ودينية وسياسية وثقافية، هدفها نشر الإسلام، والقضاء على تجارة الرقيق، وتوحيد البلاد في ظل خلافة إسلامية، ثم العمل على نشر الثقافة الإسلامية العربية والتعليم الديني. وقد توجهوا من أجل ذلك شرقا إلى إمارات الهوسا التي أصبحت فيما بعد تعرف باسم نيجيريا، وتمخض نشاطهم في بلاد الهوسا عن الحركة الإصلاحية الكبرى التي تزعمها عثمان بن فودي في مطلع القرن (١٣هـ/ ١٩م).

وتوجهوا جنوباً إلى فوتاجلون حيث أنشؤوا في القرن (١٩م) (سنة ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠م) تسع إمارات إسلامية في الفوتا، تديرها النخبة المثقفة التي أضحت إقطاعية محاربة يحكم كلا منها إمام منتخب لمدة سنتين دوريا بين

---

(١) انظر: الفوتي، تعريف العشائر والخلان بشعوب وقبائل الفلان، العنوان، وصفحات أخرى متفرقة.

(٢) A. H. M. Kirk-Green's Travels in Nigeria, p. 95, 248.

(٣) Loc. cit.

عـائلتي سـوري وألفا. وقـد سـاد مثـل هذا النظام في مـوطنهم الأصلي في السنغال، حيث قضوا على الوثنية هناك عام ١١٩٠هـ/ ١٧٧٦م كما تمكنوا من تأسيس مملكة بين النيـجر والسنغال عرفت باسم مملكة ماسـينا في أواخر القرن الثامن عـشر، وقد اشـتهر من ملوكـها أحمد باري، الذي سـيطر على تنبكت وجني، وبنى عاصمة جديدة عرفت باسم «حمد الله».

ويعتبر أصل الفـولاني اليوم لغزا من الألغاز التاريخيـة لم تفك طلاسمه بعد على يقين، وقد اختلف علماء الأجناس والمؤرخون حول ذلك، فمنهم من يقـول بأنهم من أصـل هندي، ومن هؤلاء لوجـارد[١]. ويذكـر بانكر[٢] رأيا لدلافوس بأنهم من اليهود، هاجروا إلى منطقة غانا القديمة وأصبحوا حكام غانا البيض من القرن الرابع إلى القرن الثـامن أو التاسع الميلادي، وبالتالي تزاوجوا من أهل المنطقة ثم طردوا أخيرا ولجؤوا إلى شعب التكرور الذين أخذوا لغتهم.. ومنهم[٣] من يرى أنهم من المصريين الحاميين القدماء، ففي كليهما شكل الرأس نفسه أو الوجه عينه، وطريقتهم في تصنيف الشعر والختان. وهناك من يجعلهم من نوبة النيـل الأعلى، وذهب آخـرون إلى وجـود عـلاقـة بين الفـينيـقـيين والفولانيين، والسـبب كما يقـول ميك[٤] هو أن الفولاني حـمر الألوان، وأن الإغريق يسمون الفينيقيين بالرجـال الحمر. وهناك من يرى إمكانية علاقة قديمة مع شـعب فرجـيني[٥]. ويعـتقـد بالمر[٦] بأنهم من نتـاج نساء البـربر وجنود الأمويين الذين قدموا إفـريقية في أوائل الإسلام. ويرى البكري[٧] أنهم أحفاد

---

(١) A Tropical Dependency, op. cit., p.

(٢) The Serpent and the Crescent, op. cit, pp.25-26.

(٣) The Northern Tribes of Nigeria, p. 94.

(٤) Ibid, p. 95.

(٥) Loc. cit.

(٦) Loc. cit.

(٧) المغرب، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٩ وما بعدها.

عقبة بن ياسر أو نافع، وهو عربي جاء من الشرق وأقام وسط القبيلة التي تتكلم العربية، وهم التورودو أو تورودي في بلاد فوتا، فَعَلَّمَ التورودو الدين الإسلامي، وتزوج امرأة منهم أنجب منها أربعة أطفال ثم عاد إلى مصر. وقد ردد الفوتي[١] هذا الرأي. ولعبدالله بن فودي[٢] رأي كهذا. وغير هذا الذي ذكرنا كثير من الآراء[٣]، مما يدل على أن الأمر مازال في مرحلة الحدس أو التخمين.

إن كلمة الفصل في هذا الموضوع كما يرى أحد الباحثين[٤] تتلخص فيما أجمع عليه علماء الأجناس أخيراً من أن أصول هذا الشعب ترجع إلى أرومة مصرية، بدليل شبههم القريب بما وجد من صور المصريين المنقوشة على القبور منذ عهد الهكسوس. وهاجروا من صعيد مصر واتجهوا إلى الغرب عن طريق بلاد المغرب، ثم انحدروا إلى المحيط الأطلسي حيث استقر بعضهم هناك، بينما واصل بعضهم الآخر سيره حتى بلاد السنغال، وهم ينقسمون إلى قسمين: فولاني جدا، وهم الذين امتزجوا بغيرهم، وفولاني كاو، وهم الذين احتفظوا بخصائصهم القومية.

ولقد بدأ شعب الفولاني يهاجر في أعداد كبيرة إلى مناطق منحنى النيجر في تاريخ مبكر، ودفعت هجراتهم السلمية ومعهم قطعانهم من الماشية، دفعت بعضهم إلى الوصول عن طريق بلاد الهوسا إلى منطقة بحيرة تشاد، بل وإلى أبعد منها، وكان ذلك في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي على الأقل. وبقي

---

(١) تعريف العشائر، المرجع نفسه، ص ٦.

(٢) إيداع النسوخ، ص٢، ونصه: «وأصلهم فيما نسمع من نصارى الروم وصلت إليهم جيوش الصحابة فآمن ملكهم وتزوج بنته عقبة بن عامر (هكذا) المجاهد الصحابي أمير العرب» فولد قبيلة فلان المشهورة وجدهم الرومي أبوه عيص بن إسحاق بن إبراهيم بن خليل وأمه نسمة بنت إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، والله أعلم.

(٣) انظر مثلا: تعريف العشائر، ص٦ ومابعدها.

(٤) انظر، د. هـ. جونز، مرجع سبق ذكره، ص٤٧، وانظر كذلك كلمة المترجم عبدالواحد الأمبابي.

الكثيرون منهم على الوثنية وأعمال الرعي، يسيرون على طريقة الحياة التي لاتزال قائمة حتى اليوم بين شعب البورورجي؛ أما الآخرون فقد سكنوا المدن واشتغلوا بالتجارة، وحظي العلماء والأساتذة المسلمون بينهم بمكانة التجلة والتقدير، نظراً لمعرفتهم الواسعة بثقافة الدين وقواعده، وكانوا شعباً نشطاً قوياً يدفعهم بلاشك طموح كبير في جعل كلمة الإسلام هي العليا.(١)

المطلب الثاني : دور الفولاني في إسلام بلاد الهوسا

يوجد أول سجل لدخول جماعات قبائل الفولاني إلى بلاد الهوسا في حوالي عام ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م، في عهد السلطان المالي منسا موسى، حيث مارست جماعة منهم التجارة والزراعة مثل جيرانهم من الهوسا، وذلك على الرغم من أن الذين هاجروا إلى بلاد الهوسا في هذه الفترة كانوا من رعاة الماشية، واضطروا إلى دفع الجزية لأمراء تلك المناطق.(٢)

ودخلت دولة سنغي في صراع عسكري مع جماعات الفولاني، وهزمها سني علي الثاني في موقعة جورما عام ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م، مما اضطرهم للتفرق في البلاد، وكثر عددهم بإمارات الهوسا بمرور الزمن، حتى أصبح لهم أحياء خاصة بهم في هذه الإمارات في القرن الثامن عشر، كما ارتفعت مكانة الفئة التي شاركت منهم في الحكم والإدارة.(٣)

وعند الغزو المراكشي لدولة سنغي، كان الفولاني قد أصبحوا قوة فتية ناشئة بغربي إفريقية، فاستطاعوا أن يؤدوا دوراً هاماً في المجال السياسي

---

(١) المرجع نفسه، ص٤٨.

(٢) Croix, F.W. The Fulani of Northern Nigeria, op. cit, p. 8.

نقلا عن د. عبدالله عبدالرازق إبراهيم: الإسلام والحضارة الإسلامية في نيجيريا ص ص١٣ـ١٤.

(٣) انظر: د. عبدالله عبدالرازق، المرجع نفسه، ص١٤.

والثقافي للدويلات التي قامت على أنقاض دولة سنغي، واستطاعوا الحفاظ على استقلالهم وذاتيتهم، ووسعوا من أفق هجرتهم، حتى استطاعوا أن يشكلوا القوة المسيطرة على غربي إفريقية في مطلع القرن التاسع عشر.[1]

والمتتبع لحركة الشيخ عثمان بن فودي الإصلاحية يلحظ أن جماعات الفولاني التي كانت تعيش في إمارات الهوسا قد قامت بدور بارز في الدعوة الإسلامية وسط الوثنيين ومقاومة استبداد أمراء الهوسا، والقضاء على حكم بعضهم، وإدخال بعض الإمارات تحت سلطة دولة سوكوتو الإسلامية التي أسسها الشيخ المجاهد عثمان بن فودي. ومن أبرز الأدلة على ذلك ماذكره آدم عبدالله الألوري:[2]

أولاً ـ وجد في مقاطاعات كاشنة عدد لا يستهان به من الفولانيين، وكان يرأسهم الشيخ الفولاني عمر دلاج، وهو من أصحاب الشيخ عثمان بن فودي وتلاميذه. ولما سمع بقيام حركة الجهاد قدم إلى الشيخ عثمان بن فودي وطلب منه لواء، فعقده له، فرجع إلى بلاده ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويدعو إلى نصرة الحق والإسلام ومناصرة ابن فودي في جهاده، فأغضب ذلك سلطان كاشنة، فحرض عليه الغوغاء، فأساؤوا إليه كثيراً، ولكن الله نصر الشيخ عمر دلاج، فتغلب عليه وألجأه للفرار إلى مدينة (مرادي)، وجلس على عرشه، وأنشأ جيشاً قوياً لحماية الدعوة، وجرد كتيبة كبيرة لنصرة شيخه ابن فودي، فساعدت في محاصرة حصن (قالاوي) ثم فتحه.

وضم الشيخ عمر دلاج مقاطعات كاشنة جميعها إلى نفوذ وسلطان الشيخ بن فودي، وكانت إمارته هذه أول إمارة خضعت لدولة سوكوتو،

---

(١) انظر: السعدي: تاريخ السودان، ص ص١٣٧ ـ ١٤٩؛ د. عبدالله عبدالرازق، المرجع نفسه، ص١٦.

(٢) الإسلام في نيجيريا، مرجع سبق ذكره، ص١١٧ وما بعدها.

وعاش أميرها عمر دلاج إلى عام ١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م.

ثانياً ـ عندما شعر أمير إمارة غوبير بالهزيمة أمام جيش الشيخ عثمان، أرسل إلى حلفائه مستنجداً للوقوف في وجه الفولانيين قبل أن يتفاقم أمرهم. وكان ممن تجاوب معه الملك (كادو) صاحب «زوزو» وأميرها بمقاطعة زاريا.

وكان من رعايا (كادو) عالم فولاني يدعي مالم [أي المعلم] موسى، قدم إلى ابن فودي عام ١٢١٩هـ/ ١٨٠٤م، وأخذ منه اللواء وعاد إلى بلاده، وأعلن هناك الحرب الجهادية على كادو. وكانت النتيجة انهزام كادو وهروبه إلي أبوجا، وحل محله الشيخ العالم موسى على عرش زوزو، ليصبح أميرها تحت سيادة دولة الشيخ عثمان بن فودي الفولانية في بلاد الهوسا.

ثالثاً ـ كان سلطان كانو المدعو «الوالي» من جملة السلاطين الذين استنجد بهم ملك غوبير، فتحرك الوالي لنصرة حليفه، وشعر به الفولانيون، فأوفدوا زعيمهم ابن صبوة إلى الشيخ عثمان بن فودي ليعقد لهم لواء الجهاد، فعقده لهم، ورجع به ابن صبوة إلى قومه للقيام بأعباء الدعوة والجهاد. وقامت بينه وبين الوالي مناوشات حربية، استعان ابن صبوة فيها بزعيم آخر من إخوانه الفولانيين، فتمكنا من القضاء على الوالي ـ آخر ملوك هابي ـ عام ١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م. وكان ذلك بداية دخول إمارة كانو في سلطان دولة الشيخ عثمان بن فودي ببلاد الهوسا.

رابعاً ـ نشأ في منطقة أعالي بنوي رجل فولاني يدعى مودبو آدم، تلقى العلم الشرعي في برنو، واتصل بدعوة الشيخ عثمان بن فودي الإصلاحية، وانخرط في صفوفها، وحث جماعته وأهل بلاده على المسابقة إلى قبولها ومناصرتها، فاستجابوا له وبعثوه إلى مبايعة الشيخ عثمان، فذهب وبايع ثم عاد باللواء، وأخذ في إعداد جيش كبير للدفاع عن الدعوة، وأصبح يدعو

القبائل الوثنية إلى الإسلام، وحالفه النصر ضد من تصدى له، حتى تمكن من تأسيس مدينة «يولا» سنة ١٢٥٧هـ/ ١٨٤١م. وأصبحت هذه البلاد تعرف بـ«أدماوا» نسبة إليه، ودخلت تحت سيادة دولة الشيخ عثمان بسوكوتو.

خامساً ـ عندما علم سلطان قبائل «نوفي»[1] بما كان يجري في بلاد الهوسا بين الفولانيين وملوك الهوسا، انضم إلى إخوانه الملوك، وأخذ يضطهد الفولانيين القاطنين في بلاده، فاستنجدوا بالشيخ عثمان بن فودي، فأرسل إليهم ابنه محمد بلّو لإعانتهم، فتم لهم ذلك، فاستأمنوا.

وقدم من سوكوتو إلى مدينة «رابا» ـ إحدى عواصم نوفي ـ العالم الفولاني «دندو»، وانضم إلى الأمير ماجيا ضد منافسه المقتول، الذي فر أنصاره إلى إلورن استعداداً للانتقام. وتمكن ماجيا من اعتلاء عرش رابا نتيجة لمساعدة هذا العالم، ممثلاً لسلطة وسيادة سوكوتو على إمارة رابا النوفية. ونقل عاصمته إلى مدينة «بدا». وتزوج مالم (معلم) دندو من سيدة من أسرة ماجيا، وأنجب منها ولدين، هما عثمان زاك ومحمد سابا، وتعاقب كلاهما على عرش إمارة بدا بعد وفاة أبيهما عام١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م.

لقد عاشت الدولة التي أسسها الفولاني بقيادة الشيخ عثمان بن فودي ببلاد الهوسا طوال القرن التاسع عشر الميلادي، وقضى عليها سياسيا وعسكرياً الاستعمار البريطاني سنة ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م.[2]

ولعل هذه الحركة الإسلامية كانت من أهم العوامل في سرعة انتشار الإسلام واستقراره في نيجيريا الحديثة وفي منطقة ايجيبو خاصة، على الرغم

(١) تسكن هذه القبائل على ضفاف نهر النيجر الشمالية في المناطق المحاذية لبلاد يوروبا على الضفة الجنوبية، وهم من بقايا قبائل النوبة الذين نزحوا من أعالي مصر وسكنوا هذه البلاد من قديم الزمان.

(٢) انظر: آرنولد: الدعوة إلى الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص٣٦٢، وانظر ترجمة الشيخ عثمان في مكانها من هذا الكتاب، ص ص....

من دخول الإسلام إليها - أي ايجيبو - في وقت متأخر، وهو حوالي سنة ١٣١١هـ/ ١٨٩٢م، على أن القرن العشرين ما كاد برأسه حتى كان للإسلام ركائزه القوية في هذا الجزء من العالم، وحتى أصبحت القرى تزدحم بالمساجد والمدارس. ويذكر آرنولد[١] أنه في سنة ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م، كانت هناك بلدة بها عشرون مسجداً، وأخرى بها اثنا عشر مسجداً، وأنه يمكن أن نلحظ سرعة انتشار الإسلام على طول ضفتي نهر النيجر في نيجيريا الجنوبية بوجه خاص. ويقرر أحد المنصرين أنه عندما غادر هذه البلاد سنة ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م، كان هناك قليل من المسلمين بأسفل «أده»، ولكنهم الآن منتشرون في كل مكان، ماعدا أسفل «أبو» (Abo)[٢]، وعلى هذا النحو من السرعة التي نلحظها في تقدم الإسلام، سيكون من النادر أن نجد قرية وثنية على ضفتي النيجر سنة ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م. ولم يقف نشاط الفولاني عند الهوسا، بل تعداهم إلى شعب اليوروبا الذي يسكن بمناطق جنوبي غربي نيجيريا[٣]. وسوف تتطرق هذه الدراسة إلى هذا الجانب عند الكلام عن حركة الشيخ صالح جننا ببلاد اليوروبا.[٤]

وانبثقت بتأثير من الفولاني ببلاد الهوسا (بنيجيريا) دعوة فولانية أخرى في أقصى غربي إفريقية، بين السنغال والنيجر، وإن اختلفت في المنهج الإصلاحي للشيخ عثمان بن فودي. فراعيها الشيخ أحمد لوبو، اتخذ المهدية شعاراً له في الدعوة التي انطلقت من ماسينا، وتطلع إلى العالم الإسلامي حوله، كما فعل الشيخ محمد أحمد المهدي في سودان وادي النيل.[٥]

---

(١) المرجع نفسه، ص٣٦٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ص٣٦٣-٣٦٤.

(٣) انظر ص: ٥٥١ من هذا الكتاب.

(٤) انظر: الموضع السابق من هذا الكتاب.

(٥) انظر: د. حسن إبراهيم، مرجع سبق ذكره، ص١٢٥.

أما في مجال الدعوة الإسلامية والثقافة الإسلامية تحت راية هذه الدولة، فقد كان أمراً عظيماً، وسيكون الكلام عنه في الفصل الخاص بالتعليم الإسلامي في بلاد الهوسا.[1]

المطلب الثالث: الأثر الحضاري للإسلام في دولة الفولاني الهوساوية

أولاً ـ الناحية السياسية:

كانت الدولة التي أنشأها الفولاني بقيادة الشيخ عثمان مترامية الأطراف، وكان من الصعب حكمها حكماً مركزياً، لذا نجده منذ البداية يعتمد على عدد من المساعدين والنواب. وقسم الدولة إلى عدة إمارات، أشرف بنفسه على إمارات سوكوتو وكاتسينا وكيبي. أما وزيره فقد تولى الإشراف علي إمارات كانو وزاريا وأدماوا وجومبي وكاتاجم وهاديجيا وجماري وميسو، وأشرف أمير من قبله على بوشي وآخر على موري.[2]

واتبع الشيخ نظام الدواوين وسماها الولايات، فأنشأ عشرين ولاية لإدارة الدولة، أهمها: الخلافة العامة والوزارة والقضاء، ورد المظالم، والجهاد، وقسم للغنيمة وقسم للفيء، والكتابة، وقسم وضع الجزية، وقسم للصلاة، وقسم للصدقة، والحج، والسنة وغيرها. وحدد لكل ولاية اختصاصاتها وأسلوب عملها.[3]

وقد تناول الشيخ عثمان بن فودي في كتابه «بيان وجوب الهجرة على العباد وبيان وجوب نصب الإمام وإقامة الجهاد»[4] أقسام الولاية الشرعية.

---

(١) الفصل السابع، ص ص ٣٧٧-٤٦٥، وانظر: د. علي أبوبكر، سبق ذكره.

(٢) انظر: د. عبدالله عبدالرازق: الإسلام والحضارة الإسلامية في نيجيريا، سبق ذكره، ص١١٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ص١١٣ـ١١٤.

(٤) انظره بتحقيق الدكتور فتحي حسن المصري، الخرطوم، ١٩٧٧م.

وكانت كل تنظيمات دولته وفق مبادئ الشريعة الإسلامية، وذلك واضح من كتاباته الكثيرة في هذا الشأن، مثل كتابه «الفرق بين ولاية أهل الإسلام وأهل الكفر»، الذي وضح فيه نظام الحكم في الدولة. ووُجِد تشابه بين نظام حكومة سوكوتو ونظام الحكم العباسي، مع بعض الاختلافات في الجوانب التطبيقية وفقاً لظروف البيئة المكانية.(١)

ولعل من أبرز آثار الإسلام الحضارية هنا أن الإسلام ساعد على اتحاد إمارات الهوسا في دولة واحدة، بعد أن كانت إمارات متناحرة.

ثانياً ـ الناحية الاقتصادية:

عندما استقام السلطان للفولاني ببلاد الهوسا، وجدوا في البلاد نظماً اقتصادية، احتفظوا بالصالح منها. فلم يغيروا كثيراً من نظم الضرائب التي سارت على وفق النظم الإسلامية المستمدة من تعاليم القرآن، فكانت الزكاة تدفع لبيت المال. وهناك ضريبة العشر، وضريبة تفرض على الماشية تسمى «جانجالي»، وضريبة الخراج على الأرض، وتسمى بلغة الهوسا «كوردين كاسا»، وضريبة الجزية التي تفرض على الوثنيين الذين يرفضون الدخول في الإسلام، وتسمى «جاندو»، وضريبة على أرباب الحرف والصناعات.

واعتمد اقتصاد دولة سوكوتو في هذه الفترة بصفة رئيسة على الزراعة والرعي إلى جانب قيام بعض الصناعات المحلية. وأسهمت الضرائب المختلفة بنصيب وافر في هذا الاقتصاد الذي انتعش أيضاً بسبب التجارة المارة عبر أراضي الدولة.(٢)

لقد ازدهرت الزراعة في دولة سوكوتو، ولاحظ هذا الازدهار في عهد الخليفة محمد بلّو (١٨١٧ ـ ١٨٣٧م) الرحالة كلابرتون، حيث شاهد المزارع الضخمة حول

---

(١) د. عبدالله عبدالرازق، المرجع السابق، ص ١١٧.

(٢) انظر: المرجع نفسه ص ص١٥٥ـ١٥٦.

إمارة زاريا، وشاهد الماشية والخيول منتشرة في تلك المزارع المحيطة بالمدن الكبرى.[١]

واهتم محمد بلّو بإنشاء مدن الرباط لتكون مراكز دفاعية عن حدود الدولة، ولذا انتشرت المزارع حول هذه المدن. وساعدت هذه السياسة على انتشار العمران في مناطق كثيرة بين سوكوتو العاصمة ورباط ورنو الذي عاش فيه الخليفة محمد بلّو نفسه.[٢]

وأسهمت السياسة الزراعية للدولة في استقرار الفولاني، حيث استطاعوا أخذ كل ما يحتاجون إليه من أراضٍ من السكان المحليين حسب مذهب مالك الذي سمح للمؤمنين بالاستيلاء على الأراضي التي وقعت في أيديهم أثناء حركة الجهاد.[٣]

وتطورت الصناعة في ظل الدولة الفولانية، فقد اعتمد الاقتصاد في الدولة ـ إلى جانب الزراعة والرعي ـ على قيام بعض الحرف والصناعات التي قامت أساساً على الإنتاج المحلي من الغلات الزراعية والمحاصيل النقدية أو على بعض المعادن المتوافرة في الدولة. وتركز هذا النشاط الصناعي في حزام عريض من المدن الصناعية امتدت من مدينة كانو جنوباً حتى الجزء الشمالي من إمارة زاريا، وكانت صناعة الملابس من أكثر الصناعات انتشاراً، وتركزت في مدن مثل كانو وكورا ورانو وتاريا وبوروم وبوكور وجاركو وروجو وبيلي، وتمتد في إمارة زاريا.[٤]

---

(١) Clapperton and Others: Narrative of Travels and Discoveries in Northern and Central Africa 1822-23 and 1824, London 1926, p. 343.

نقلاً عن د. عبدالله عبدالرازق، المرجع نفسه، ص١٦٠.

(٢) Lovejoy, Paul: Plantations in the Economy of the Sokoto Caliphate, J.A.H. XIX, 3, 1978, P. 341.

نقلاً عن د. عبدالله عبدالرازق، المرجع نفسه، ص١٦٠.

(٣) Azarya, Victor: Aristocrates Facing Change In The Fulbe In Guinea, Nigeria And Cameron, London, 1978, P. 36.

نقلاً عن د. عبدالله عبدالرازق، ص١٦١.

(٤) Lovejoy, Paul: op. cit., p. 356 نقلاً عن د. عبدالله عبدالرازق، ص١٦٨.

وأدّت الأسـواق التي ازدهرت في ظل هذه الدولة دوراً هامـاً في تنميـة التجـارة والثروة. وقـد لاحظ الرحالة كـلابرتون[1] الذي زار مدينة كـانو عام ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٤م، أن سوق هذه المدينة يعدّ من أحسن أسـواق إفريقية، وله أنظمة خاصة تنظم حركة البيع والشراء وتحديد الأسعار وإيجارات الأكشاك.

ثالثاً ـ الناحية الاجتماعية:

ترتب على قيام دولة الفولاني بنيجيريا أن أصبح الدين الإسلامي أساس أنظمة المجتمع المختلفة، ومنهـا النظام الاجتماعي، وبناء على هذا تمتع العلماء وطلاب العلم بمكانة اجتماعية عالية، وتولوا مناصب التدريس والقضاء والدعوة والإفتاء وقيادة المجالس الاستـشارية والوعظ والإرشاد والإمامة وغيرها من المناصب ذات الصلة بثقافتهم الإسلامية المتميزة، وأصبحوا يشكلون مجموعة من الصفوة الإسلامية التي ربطت نفسها بالدفاع عن الدين الإسلامي والعمل على نشره.

ولما كان الفـولاني يشكلون غالبـية طبقـة العلماء، فقـد ترتب على هذا انتشار لغتهم وبعض عاداتهم وتقاليدهم التي سادت مع المفهوم الإسلامي.

وألف الإسلام بين فـئات الشعب المختلفـة، فاختـفت مظاهر التنافر بين جماعات الفولاني وجماعات الهوسا وغيرهم من فئات المجتمع الأخرى.

وحلت قيم الإسلام محل العادات والتقـاليد الجاهلية، التي كانت سائدة في مجتمع الهوسـا قبل قيام الشيخ عثمان بن فودي بحركـته الإصلاحية. وقد أشار الشيخ عثمان في كـتابه: «الفرق بين ولاية أهل الإسلام وأهل الكفر» إلى الكثير من العـادات الجاهلية السيـئة التي كانت سائدة في بلاد الهـوسا، مثل وضع التراب على الرؤوس عند التحـية، وضرب الطبول والمزامير وشـرب الخمر.[2]

(١) op. cit, p.p. 253-254، نقلاً عن د. عبدالله عبدالرازق، ص ص١٧١ـ١٧٢.

(٢) انظر: د. عبدالله عبدالرازق، المرجع نفسه، ص٢٠٣.

وأشار كذلك ابنه محمد بلّو(١) إلى إحدى هذه العادات السيئة التي كان يمارسها مسلمو الهوسا، وأفتى أحد العلماء، وهو الشيخ البكري، بتكفير فاعلها، لأن فيها التعظيم للنار التي كانوا يطوفون بها هم وأولادهم، وهم يقولون: «نحن وداعة الله، ثم وداعتك أيتها النار، وأنت أبونا وأمنا».

واختفت الأعياد الجاهلية لتحل محلها الأعياد الإسلامية المعروفة: عيد الفطر وعيد الأضحى.

وسادت التقاليد الإسلامية في الزواج والطلاق والميراث(٢) والمآتم(٣) والعقيقة.(٤) ومن التقاليد التي ينفرد بها هذا المجتمع والدالة على أثر الإسلام فيه أن الزوجة لا تخاطب زوجها باسمه، بل تخاطبه بكلمة «مالم»، وهو تحريف للكلمة العربية «المعلم».(٥)

وقضى الإسلام على كثير من الاعتقادات السائدة في المجتمع عن السحر والحسد والجن والعرافة، وكلما رسخت قدم الثقافة الإسلامية في منطقة من المناطق وجدنا أثراً ضئيلاً لهذه الممارسات، ويحاول المسلمون استبعاد أثر الجن بقراءة القرآن الكريم.(٦)

---

(١) إنفاق الميسور، سبق ذكره، ص٥٠.

(٢) Anderson, J.N.D. Islamic law in Africa, London, 1970, p. 207.

د. عبدالله عبدالرازق، ص ص٢٠٤ـ٢٠٥.

(٣) الشعيبي، محمد مصطفى: نيجيريا، الدولة والمجتمع، ص١٢٥ـ نقلاً عن د. عبدالله عبدالرازق، ص٢٠٧.

(٤) د. عبدالله عبدالرازق، المرجع نفسه، ص٢٠٧.

(٥) انظر: د. علي أبوبكر، مرجع سبق ذكره، ص١٥٣.

(٦) St. Croix, F.: The Fulani of Northem Nigeria, Lagos, 1944, Reprinted W.de in 1981, p.p. 54-65.

نقلاً عن د. عبدالله عبدالرازق، ص٢٠٩.



القسم الثاني

حركة التعليم الإسلامي في معاهد غربي إفريقية قبل الاستعمار

الفصل الرابع

أماكن التعليم الإسلامي
في غربي إفريقية

المبحث الأول

المسجد [1]

يعدّ المسجد أول معهد في تاريخ التعليم الإسلامي منذ انبثاق فجر الإسلام، وأول مسجد بني في الإسلام كان بقباء، قرب المدينة المنورة، حيث قامت به حلقات الدراسة[2]، وتلاه قيام المسجد النبوي الشريف. واستمرت تقام في المساجد منذ ذلك التاريخ إلى يومنا هذا على الرغم من وجود ما يعرف بالمدرسة منذ القرن الرابع الهجري. ولم يكن المسجد معهدا تعليميا فحسب، بل كان في البداية مكانا للعبادة، ودارا للقضاء وساحة تجيش منها الجيوش، ومكانا لاستقبال الضيوف الرسميين كالسفراء.[3]

بعد مسجد قباء والمسجد النبوي بالمدينة المنورة كثرت المساجد وزاد انتشارها باتساع انتشار الإسلام، وأصبح من المتبع أن يبنى مسجد أو أكثر في كل مكان فتحه المسلمون، أو في كل قرية أو مدينة أسسوها[4]، فلقد روى المقريزي[5] أن عمر لما فتح البلاد كتب إلى عماله على البصرة والكوفة ومصر أن يتخذوا مساجد للجماعة، ويتخذوا للقبائل مساجد، فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة.

وكانت المساجد على عهد الرسول عليه السلام والخلفاء الراشدين من

---

(١) انظر: المسجد: المعهد الأول للتعليم عند المسلمين، بحث للدكتور حسين أمين، نشر بمجلة كلية آداب الإسكندرية. العدد الثاني والعشرون (١٩٦٨م)، ص١٥ وما بعدها؛ الدكتور حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، جـ٤، ص ص٣٣٦ـ٣٣٧.
ابن هشام: السيرة النبوية، المجلد الأول، جـ٢، ص٤٩٤؛ الدكتور شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ـ رسالة دكتوراه منشورة، ص ص١٠٣ ـ ١٠٤.

(٢) انظر: دائرة المعارف الإسلامية، مادة مسجد ومادة تعليم.

(٣) تاريخ التربية، المرجع السابق، ص١٠٤.

(٤) انظر: المرجع والمكان نفسيهما.

(٥) الخطط، جـ٢، ص٢٤٦.

بعده مـراكز تهذيبـية وتعليمـية، كان لهـا الأثر الكبير في نـشر الوعي الديني الصحيح وبث روح المعرفة في نفوس المسلمين. وقام الصحابة رضي الله عنهم بعد الرسول ﷺ بتـعليم المسلمين وتفقيههم في شـؤون الدين، وكان المسلمون يتحلقون حولهم في المساجد، يتلقون عنهم العلم. وممن عرف بهذا عبدالله بن عباس رضى الله عـنهما، حيث كان يجلس بفـناء الكعبة يعلم الناس التفـسير ويجيـب على أسـئلتهـم في أمـور الدين المختلـفة. وقد قصـده المسلمون من كافة الأمصار ومن مختلف المذاهب الفكرية. وحتى الشعراء من أمثال عمر بن أبي ربيعة.(١)

وسار الـتابعـون على نهج الصحـابة في جعل المـساجـد مراكـز مهـمة للدراسات الفقهية وأصول الدين. وتبـعهم تابعو التابعين والعلماء المسلمون في كل مصر وعصر.

ولم يبق المسجد مـقتصرا على الوعظ والإرشاد وتعلـيم المواضيع الدينية الفقـهية البحـتة، بـل أخـذت العلـوم الأخـرى التي تعـرّفهـا المسلمون نتيـجة الفتوحـات الإسـلامـية طريقـها إلى المسـجـد، كالدراسات اللـغوية والفلسـفية والتاريخية.(٢)

واستمرت المساجـد الإسلامية في أداء رسالتها التعليـمية، وأخذت تعمل على تخريج عناصر علمـية طيبة، عملت على ترسـيخ وتطوير العلوم وخدمة الإنسانية. وتخرج في تلك المعاهد الإمـام جعفر الصادق رضي الله عنه، وكان

---

(١) الأصفهاني: الأغاني، جـ١، إشراف عبدالله العلايلي وآخرين، ط٣، بيروت، ص٨١.
الدكتور حسين أمين، مرجع سبق ذكره، ص١٧.

(٢) عن أحوال الحركـة التعليمية الإسـلامية. انظر: الدكتـور محمد عبدالـرحيم غنيمة: مقـدمة لتاريخ التعليم الجـامعي في الإسلام، رسـالة ماجسـتير غـير منشورة من جـامعة فـؤاد الأول(القاهرة) سنة ١٩٥٣م، ص٨ ومابعدها.

ملازما التعليم والتعلم في مسجد المدينة حتى توفي سنة ١٤٨هـ/ ٧٦٥م، وأخذ عنه الفقه أبوحنيفة النعمان بن ثابت المتوفى سنة ١٥٠هـ/ ٧٦٧م ومالك ابن أنس المتوفى سنة ١٧٩هـ/ ٨١٢م.[١] واشتهر الشافعي في مسجد الفسطاط بمصر، وتعلم أحمد بن حنبل في مساجد بغداد، وغيرهم كثير من جهابذة الفقهاء العلماء الذين تخرجوا في مساجد العالم الإسلامي المختلفة.[٢]

ومن المساجد التي اشتهرت بحلقات العلم وأدت رسالتها التعليمية على أحسن وجه: المسجد النبوي الشريف، ومسجد البصرة، ومسجد الكوفة، ومسجد الفسطاط[٣] ومسجد القيروان[٤] والمسجد الأموي بدمشق[٥]، ومسجد الزيتونة[٦] وجامع المنصور ببغداد[٧] ومسجد قرطبة[٨] ومسجد ابن طولون[٩] والأزهر الشريف[١٠] ومسجد القرويين بفاس،[١١] ومساجد غربي إفريقية التي هي محور بحثنا.

---

(١) الدكتور حسين أمين، المرجع السابق، ص٢٢.

(٢) المرجع نفسه ص٢٢ وما بعدها.

(٣) ابن جبير، الرحلة، تحقيق الدكتور حسين نصار، ص٢١، تاريخ التربية مرجع سبق ذكره، ص١٠٩، أسماء فهمي: مبادئ التربية الإسلامية، ص٢٦. تاريخ الإسلام السياسي، مرجع سبق ذكره، ص٤٢٢.

(٤) انظر: محمد محمد شتا: الحياة الفكرية في القيروان، منذ نشأتها حتى رحيل الفاطميين إلى مصر سنة ٣٦٢هـ، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية اللغة العربية بالأزهر سنة ١٩٧٢م.

(٥) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٦٠، تاريخ التربية ص١٠٧.

(٦) انظر: حسن حسني عبدالوهاب: ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، ص١١٥، ١٢٥.

(٧) ياقوت: معجم الأدباء، جـ٤، ص٢٤٣، معجم البلدان، جـ٢، ص٢٣٢.

(٨) انظر: د. شلبي التربية، مرجع سبق ذكره، ص١١١.

(٩) المقريزي، الخطط، جـ١، ص ص ٣٧ـ٤٢، الدكتور غنيمة، مرجع سبق ذكره، ص٢٧.

(١٠) السيوطي: حسن المحاضرة، ص١٨٣. الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي: الأزهر في ألف عام، ص١٦ وما بعدها، الخطط، المصدر السابق، ص٤٩.

(١١) انظر: الدكتور أحمد البهي: جامعة القرويين ودورها في حفظ ثقافة الإسلام، رسالة دكتوراه غير منشورة، الأزهر، كلية اللغة العربية، ١٩٧٣م.

أدت هذه المساجد رسالتها التعليمية والثقافية خير أداء، وكانت النواة الأولى للتعليم الجامعي في الإسلام. وكانت المكتبات الملحقة بها تضم عددا كبيرا من الكتب في مختلف العلوم والفنون التي كانت توقف في العادة على المساجد حتى لا تبددها الأيدي، وقد شاركت غربي إفريقية في هذه السمة البارزة.[١]

وكانت هذه المساجد خير أمكنة انتشرت منها بحوث العلماء والفقهاء والأدباء ومؤلفاتهم، ومعظم المصادر الإسلامية والعربية المخطوطة والمطبوعة كان المسجد مكان كتابتها ونشرها، فقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يملي على أصحابه القرآن الكريم، وصار الناس يستنسخون القرآن الكريم، فانتشرت نسخ منه في المساجد الإسلامية. وفي مسجد المدينة صنف مالك بن أنس كتابه «الموطأ»، وفي مسجد الفسطاط ألف الشافعي كتابه «الأم»، وفي مسجد البصرة كتب الخليل بن أحمد كتبه المعروفة في اللغة، ومن أشهرها كتاب «العين»، وغير ذلك مما تزخر به كتب التاريخ والتراجم.

وفي أواخر القرن الرابع الهجري بدأت المدارس الإسلامية في الظهور خاصة في منطقة نيسابور، ثم انتشرت في العراق وسورية ومصر وسائر بلاد المسلمين، وفي هذا يقول المقريزي[٢]: «.. وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور. فبنيت بها المدرسة البيهقية، وبنى بها أيضا الأمين بن سبكتكين مدرسة، وبنى بها أخوه السلطان محمود بن سبكتكين مدرسة، وبنى بها أيضا المدرسة السعيدية، وبنى بها أيضا مدرسة رابعة، وأشهر ما بُني في

(١) الألوري: موجز تاريخ نيجيريا، مرجع سبق ذكره، ص١٥٠، وعن مثال مكتبات مساجد المغرب، انظر: ابن أبي دينار. مصدر سبق ذكره، ص٤٥.
(٢) الخطط، جـ٤، ص١٩٢.

القديم المدرسة النظامية ببغداد: لأنها أول مدرسة قرر بها للفقهاء رواتب معلومة. وهي منسوبة إلى الوزير نظام الملك، وزير ملك شاه، وشرع في بنائها في سنة ٤٥٧هـ «فاقتدى الناس به من حينئذ في بلاد العراق وخراسان..».

وأول مدرسة أحدثت بمصر المدرسة الناصرية[(١)]، بجوار الجامع العتيق بمصر، ثم المدرسة القمحية[(٢)] ثم السيوفية[(٣)]، ثم اقتدى بالسلطان صلاح الدين في بناء المدارس أبناؤه وأمراؤه، ثم حذا حذوهم من حكم مصر من بعدهم.[(٤)]

وكان للحركة المدرسية في المشرق صداها القوي في الجناح الأيسر من العالم الإسلامي، ولم تلبث بلاد المغرب أن شهدت حركتين مدرسيتين كبيرتين حمل لواءهما الحفصيون في تونس، والمرينيون في المغرب الأقصى، وإلى هاتين الدولتين يرجع الفضل في إنشاء المدارس وانتشارها في شمالي افريقية.[(٥)] وأشهر هذه المدارس: المدرسة الشماعية (نسبة إلى سوق الشماعين بتونس) التي أنشئت سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م[(٦)]، وهي أول ما أنشئ من المدارس بتونس[(٧)]، والمدرسة التي أنشأها الأمير أبو عبدالله المنتصر المتوفى سنة ٨٣٩هـ/ ١٤٣٥م بالقرب من سوق القلعة بتونس[(٨)]، والمدرسة التي أنشأها أبوعمرو عثمان المتوفى سنة ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م. وجعل فيها مسجدا للصلاة ومأوى لسكنى

---

(١) نسبة إلى الناصر صلاح الدين الأيوبي.

(٢) سميت بذلك لأن الوقف الذي كان عليها ضيعة قمح بالفيوم خطت سنة ٥٦٦هـ. انظر: الخطط، جـ١٠ ص١٩٤.

(٣) لأن سوق السيوفيين كان حينئذ على بابها، وخطت سنة ٧٢هـ، انظر: الخطط، جـ٤، ص١٩٦.

(٤) الخطط، جـ٤، ص ص١٩٢-١٩٣.

(٥) انظر: الدكتور غنيمة، مرجع سبق ذكره، ص٥٩، فقد أورد أسماء وتواريخ هذه المدارس.

(٦) ابن أبي دينار، مصدر سبق ذكره ص ص١٢٦-١٢٧.

(٧) المصدر نفسه، ص١٢٧.

(٨) المصدر نفسه، ص١٤٦.

الطلبة، وأوقف عليها مايكفيها من العمال والمشرفين على الصدقات.[1]

ويعد العصر المريني بالمغرب الأقصى أزهى عصور المدارس في تلك الديار، فقد كان السلطان يعقوب بن عبدالحق المريني المتوفى سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م أول من أنشأ المدارس بمراكش[2]، وسار على سنته بنوه من بعده. ومن ذلك مدرسة فاس الجديدة بالحي الجديد من فاس، أقامها ابن السلطان يعقوب[3]، والمدرسة الكبرى التي أنشأها حفيد السلطان يعقوب[4]، وغير ذلك من المدارس الكثيرة الأخرى.[5]

لم تختلف المدرسة عن الجامع أو المسجد، لا من حيث الشكل ولا من حيث المضمون، إلا أنها كانت أكمل استعدادا للدراسة المتصلة، ولسكنى الطلاب المنقطعين للعلم، واستخدمت لأغراض المسجد نفسها. فأقيمت فيها الصلاة، ومجلس القضاء. وبجانب ذلك كان غرضها الرئيس هو تدريس الفقه وفق واحد أو أكثر من المذاهب السنية الأربعة. وفي بعضها كان يدرس الطب مع الفقه والعلوم العقلية واللسانية الأخرى[6]، بطريقة تستدعي انقطاع الطلاب للدراسة وتفرغ المدرسين للعمل، حيث كانت ترتب لهم أجور ثابتة. وقد استدعى ذلك بالضرورة تخصيص بناء المدرسة في غير أوقات الصلاة لطلبتها ومدرسيها.[7]

---

(١) المصدر نفسه، ص١٤٧.

(٢) الاستقصاء، جـ٢، ص٣٢.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وطرابلس ومدينة فاس، ص٢٨٠.

(٤) المكان نفسه.

(٥) انظر المصدر نفسه، ص١٨١؛ روجيه لوتورنو، فاس في عصر بني مرين، ص١٧٥، ص ص ١٧٣ـ١٧٤.

(٦) الخطط، جـ٣، ص٢١٨، أسماء فهمي، ص٣٣.

(٧) ابن جبير، ص١٦٨ وما بعدها.

أما الأندلس فلم يظهر فيها هذا النوع من معاهد التعليم إلا متأخراً جدا. وكانت أول مدرسة بها في غرناطة سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م، في عصر يوسف الأول، من ملوك بني الأحمر.[١]

أما غربي إفريقية فقد ظهر فيها ما يقرب من مثل هذه المدارس ببلاد الهوسا، ولكن في فترة متأخرة، حوالي نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وعرفت باسم المعاهد العلمية، وهي في مبان منفصلة عن المسجد[٢]. ولكن وردت كلمة مدرس ومدرسة في مصادر تاريخ غربي إفريقية في وقت مبكر، أي منذ القرن السادس عشر. فنلاحظ أن السعدي[٣] في ترجمته للفقيه عبدالله بن الفقيه محمود بن عمر بن محمد أقيت، استعمل كلمة مدرس حين قال: «وأما عبدالله فهو عالم فقيه مدرس»، وفي ترجمته للفقيه عبدالرحمن بن القاضي محمود أقيت السالف الذكر نرى السعدي[٤] يذكر كلمة مدرسة حين قال: «وكان ذا مكاشفات، وأصحاب مدرسته يحكون عن ذلك حكايات كثيرات..».

ويبدو لنا أن كلمة «مدرسة» هنا تعني مكان الدراسة أو مجلس العلم وحلقته، سواء في المسجد أو خارجه، والدليل على ذلك قول السعدي[٥] في معرض كلامه عن عبدالرحمن الآنف الذكر «فلما صلى بالناس الظهر جلس في مدرسته قال بالله بالله لتسمَعُنّ في هذا العام[٦] ما لم تسمعوا بمثله قط..»

---

(١) الدكتور غنيمة، مرجع سبق ذكره، ص٦٢.

(٢) انظر الفصل الخاص بالتعليم في كانو وكاتسينا.

(٣) تاريخ السودان، مصدر سبق ذكره، ص٣٤، ٤٧.

(٤) المكان نفسه.

(٥) المكان نفسه.

(٦) يعني عام ٩٩٩هـ/ ١٥٩١م، وهو عام الغزو المراكشي لدولة سنغي الإسلامية.

وأصحاب المدرسة الذين يعنيهم السعدي هم الذين يتحلقون حول العالم لتلقي العلوم الدينية. وكلمة مدرس تعني العالم الذي يلقى الدروس على طلاب العلم في مختلف الأعمار، غير تلاميذ الكتاب الذين سنتكلم عنهم فيما بعد. وقد وردت إشارات كثيرة في «تاريخ السودان» بهذا المفهوم، مثل، «فتكلم الشيخ في مدرسته وقال»[1]، ومثل قوله في ترجمته للشيخ الفقيه يحيى بن عبدالرحيم «وروي أنه كان في مدرسته ذات يوم تحت الصومعة من خارج يقرأ وحوله عصابة من الطلبة..»[2] ومثل قوله عن الفقيه عبدالرحمن بن الفقيه محمود أقيت عند ترجمته للشيخ مسربوب الزغراني، أستاذ الفقيه عبدالرحمن ابن الفقيه محمود أقيت: «وقيل إنه كان في مدرسته ذات يوم فأذن الناس بجنازة فقال من هو؟ قيل زغراني، قال: نصلي عليه لأجل الشيخ مسربوب فخرج وصلى عليه»[3] وفي كلامه عن الفقيه مور صالح جور قال: «ثم خرج فلما جلس في المدرسة قال للطلبة..»[4]، ومثل قوله: «وروي أن.. الفقيه عبدالرحمن بن الفقيه محمود حكى هذه القصة في مدرسته في المسجد»[5]. وهذا النص الأخير أكبر دليل على أن المدرسة تعني الحلقة الدراسية العلمية.

وقد وردت كلمتا المدارس القرآنية أو كلمة مدارس في كتابات الكثير من الرحالة والمؤلفين المحدثين من شرقيين[6] وغربيين[7]، وهم يعنون بذلك التعليم

(١) السعدي، المصدر نفسه، ص٤٧.

(٢) المصدر نفسه، ص٥١.

(٣) المصدر نفسه، ص٥٢.

(٤) المصدر نفسه، ص٧٧، ٥١، ٥٢.

(٥) المصدر نفسه، ص٤٧.

(٦) Trimingham, A History of Islam in. W. A. op. cit.

(٧) قداح مرجع سبق ذكره، ص١٤٤، بوركهارت: رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان ص٣٢٢.

في الكتاب والزوايا، وهو بمثابة تعليم ابتدائي، ولا نظن أنهم يعنون تلك المدارس التي تدرس فيها العلوم العقلية والعملية بجانب الدراسات الإسلامية والعربية مثلما كان سائدا في الشرق والغرب الإسلاميين.[1]

إن من أبرز خصائص انتشار الإسلام في العالم هي انتشار التعليم المسجدي كأول خطوة يقوم بها أنصار الدعوة الإسلامية. وهذا ماحدث بالفعل في تاريخ التعليم الإسلامي في غربي إفريقية؛ ففي دولة غانا وقبل دخول المرابطين فيها وإسقاطها روى لنا البكري[2] ـ كما سبق أن ذكرنا ـ وجود اثني عشر مسجدا في المدينة الإسلامية، فيها الفقهاء وحملة العلم. وحتى في مدينة الملك الوثنية المعروفة بالغابة يوجد مسجد لوفوده ومستشاريه من المسلمين[3]. ووجود فقهاء وحملة علم في مثل هذه المساجد دليل واضح على قدم تاريخ التعليم الإسلامي المسجدي في هذه البلاد حتى استوى على سوقه فيما بعد القرن الرابع عشر الميلادي، وظهر الإنتاج العلمي لهؤلاء الفقهاء في مناطق متفرقة من بلدان غربي إفريقية.

أما مادة بناء هذه المساجد فمن الحجارة وخشب السنط واللبن، لأن هذه كانت بعض مواد البناء المعروفة عندهم[4]، وعلى الطراز المغربي من حيث الشكل والتصميم[5] والبساطة، أو على غرار المسجد الحرام المكي المغطى

(١) المدارس القرآنية تقابلها كلمة (المِسِيد) في السودان النيلي، وهي كلمة محرفة عن المسجد، إذ غالبا ما تكون نار القرآن إلى جوار مسجد، أو يستخدم موضعها كما يستخدم له المسجد في القرية (وانظر ص: ٢٨٢ من هذا الكتاب ج: ٤).

(٢) المغرب، ص١٧٥.

(٣) المكان نفسه.

(٤) السعدي، الصفحات: ١٧٥، ١٠٩، ١١٠، ٢١٩، ٢٧٥، الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص٦، قداح، ص ص١٦٥-١٦٦، ١٥٣.

(٥) قداح، ص٣٢، ١٦٠، جوليان، مرجع سبق ذكره، ص٨٣.

بالقماش مع تبييضه بالجير وتسقيفه بالطين وبنائه من الطوب كما كان يحدث في مساجد برنو[1]. وكانت المساجد التي تبنى في القرى من دون مآذن. وقد انتقل هذا الأثر من المعابد الوثنية إلى دور العبادة الإسلامية، أما في القرن الرابع عشر فقد أصبحت المآذن هرمية يعلوها مكان صغير يقف عليه المؤذن[2]. ومن هنا أمكن القول بدخول الأسلوب المحلي السوداني في العمارة، وقد تمثل هذا الأسلوب في مآذن مساجد تنبكت، واحتفظ البعض بالأسلوب المغربي في مئذنته المضلعة العالية[3]. وكانت المساجد في شكلها العام هرمية أيضا، وما يزال لهذا الأسلوب آثاره في غربي إفريقية لاسيما منذ عهد دولة سنغي الإسلامية.[4]

ومن أشهر المساجد التي قامت بدور تعليمي بارز في غربي إفريقية في هذه الحقبة التاريخية: مسجد سنكري بتنبكت، والمسجد الجامع بتنبكت، والمسجد الجامع بجني، ومساجد جاو، عاصمة دولة سنغي، التي سبقت مساجد تنبكت في دورها التعليمي[5]، ومسجد هيب Habe بكاتسينا، والذي بني على طراز مساجد سنغي وجني في الحارة المسماة بأنتارا، والمساجد الجامعة بكانو ومدن الهوسا الأخرى[6]، والمساجد الجامعة ببرنو، مثل مساجد غسرغمو - عاصمة برنو - المشهورة، وهي: مسجد غريبايا ومسجد تالي ومسجد ايامو ومسجد ديامو. ويضم كل مسجد من هذه المساجد الأربعة البرنوية اثني عشر

(١) Palmer, The Bornu Sahara and Sudan, op. cit., p. 19.
ابن يونس، مرجع سبق ذكره، ص٩١.
(٢) قداح، ص٣٥، ١٦٠، ١٦٥.
(٣) المرجع نفسه، ص١٦٠، ١٦٥.
(٤) زبادية: سنغي في عهد الأسيقيين، ص ص ١٦٧ـ١٦٨.
(٥) K.M. Paniker: A History of the Negro Empires, op. cit., p. 261.
(٦) عبدالله بن فودي: إيداع النسوخ، مصدر سبق ذكره، ص٩.

ألفا من المسلمين كل جمعة.(١)

وقد خرجت هذه المعاهد علماء أفذاذاً أناروا الطريق أمام مواطنيهم، وقاموا بدور مهم في إرساء قواعد الحضارة الإسلامية في غربي إفريقية، وسيأتي الكلام عنهم وعن مؤلفاتهم في موضع آخر من هذا الكتاب.

وكما كان المسجد في المشرق والمغرب على السواء، مكانا للاجتماعات العامة في الأمور الكبيرة، فقد كان كذلك في غربي إفريقية، والدليل على ذلك الاجتماع الذي عقده كبراء مدينة تنبكت بجامع سنكري، للتشاور في أمر الغزو المراكشي لمدينتهم ودولتهم في نهاية القرن (١٠هـ/ ١٦م)(٢)، ولقاء آسكيا داود (٩٥٦-٩٩٠هـ/ ١٥٤٩-١٥٨٢م) مع العلماء والأعيان في المسجد الجامع بتنبكت بعد عودته من إحدى غزواته.(٣) وكذلك كان الأمر بالنسبة للمساجد الأخرى في غربي إفريقية. ويتفاوت حجم المساجد في غربي إفريقية بحسب المدينة أو البلدة التي يوجد بها المسجد. وحتى في المدينة الواحدة فهناك مساجد كبيرة وأخرى صغيرة. وكان طلاب المرحلة الثانية(٤) يتلقون دروسهم في المساجد الصغيرة. ففي تنبكت مثلا كان التدريس في مسجد الونكريين من النوع الثانوي، الذي ينتقل إليه الطالب مباشرة بعد أن يكون قد أكمل تعليمه بالمرحلة الابتدائية ـ الكتّاب ـ أما في مسجد سنكري أو المسجد الجامع فقد كان التعليم من النوع العالي، حيث تدرس المواد على طريقة التخصص.(٥)

---

(١) H. R. Palmer: "Two Sudanese Manuscripts of the 17th C." , B.S.A. S., 5 (1928-30), p. 547.
إبراهيم بن صالح بن يونس: تاريخ الإسلام وحياة العرب في إمبراطورية كانم/ برنو، مرجع سبق ذكره، ص٨٣، ٩١.

(٢) تاريخ الفتاش، مصدر سبق ذكره، ص ص١٧٢-١٧٣.
تاريخ السودان، مصدر سبق ذكره، ص١٦٩.

(٣) تاريخ السودان، ص١١.

(٤) سوف نتكلم على المراحل التعليمية في الفصل الخاص بالتلاميذ.

(٥) انظر: تاريخ السودان، ص٣٣؛ سنغاي في عهد الأسيقيين، ص١٤٤.

المبحـــث الثانـــي

الكتّاب

لقد عُرِف الكتّاب عند العرب منذ الجاهلية على الرغم من قلته، ثم بدأ ينتشر بانتشار الإسلام[1]. وقد قام المسلمون الأوائل من أهل الحجاز والشام والعراق ومصر بدور كبير في إيجاد هذه الكتاتيب حينما انتقلوا إلى البلاد المفتوحة في خراسان والمشرق والمغرب ليعلموا أولادهم القراءة، وليلقنوا أبناء المسلمين من أهل هاتيك الديار آيات كتاب الله البينات. وهكذا وجدت الكتاتيب بكثرة في عواصم الأمصار.[2]

كان الطفل يرسل إلى الكتاب، والذي كان في الغالب يلاصق المسجد، وقد يكون بعيدا عنه، ونادرا مايكون في المسجد خشية عبث الأطفال بنظافة المسجد وتجنبا للضوضاء[3]. وكان يشرف على الكتاب معلم قارئ حافظ مثقف، يتخذ التعليم حرفة. وقد يشترك أكثر من معلم واحد في كُتَّاب واحد إذا كان عدد الأطفال كثيرا، ولم تكن للحكومة أية رقابة على هذه الكتاتيب إلا

---

(١) انظر: الدكتور محمد أسعد أطلس: التربية والتعليم في الإسلام، ص٦٥ وما بعدها؛ الدكتور شلبي: تاريخ التربية، مرجع سبق ذكره ص٤٤ وما بعدها. والدكتور شلبي في كلامه عن الكتاب ناقش بعمق ووضوح تطور مفهوم الكتاب وفرق بين الكتاب لتعليم القرآن ومبادئ الدين الإسلامي، والكتاب لتعليم القراءة والكتابة، وأن النوع الأول هو المبكر، وفيه كان الكبار يتلقون مبادئ الدين، بينما الأطفال يندسون وسط الكبار في هذه الكتاتيب كما كان يفعل عبدالله بن عباس رضي الله عنهما. أما جمهور الأطفال فكانوا يتلقون القرآن عن آبائهم وذويهم، أو عن معلمين خصوصيين، ومن هذا نشأ مايعرف بالكتاتيب العامة لتعليم الأطفال مبادئ الدين والكتابة والقراءة. وقد ناقش شلبي هنا من خالفوه الرأي، وأورد أدلتهم وأدلته، ولعل حجته كانت قوية. انظر: الدكتور أحمد فؤاد الأهواني: التربية في الإسلام، ص ص٧٥ـ٧٧، وأسماء فهمي، مرجع سبق ذكره، ص ص٢٣ـ٢٤، والدكتور عبدالعزيز أمين عبدالمجيد: التربية في السودان ص ص٨١ـ٨٢ وص ٢٨٥ وما بعدها، من هذا الكتاب حول أنواع الكتاب ـ الكتاتيب.

(٢) انظر: الدكتور أطلس، المرجع السابق، ص١٦٨.

(٣) شلبي، التربية، ص٥٣، ٥٤.

متأخـراً، وعندما وجدت وظيفـة المحتسب[١]. وكان الآباء يتخـيرون لأبنائهم الكتاتيب التي يرونها مناسبة، ويتفـقون مع معلميهم على الأجر وعلى مايجب أن يتعلمه أبناؤهم.[٢]

ولم يكن الكتّاب في الغالب دارا متعـددة الغرف كما هو الحال اليوم في دور الحضانة أو رياض الأطفال أو المدارس الابتدائيـة أو الأولية، فإنما هي غرفة متسـعة أو ضيقة أو غـرفتان على الأكثر مـتواضعة الأثاث تتـسع لعدد الأطفال الذين يشرف عليهم المعلم أو النقيب.[٣]

وكان الطفل يـذهب في العادة إلى الكتّـاب مبكرا، فيـبدأ يومـه بحفظ حزب من القرآن الكريم، وبـعد أن يحفظه يبدأ بالنسخ والكتـابة والتمرن على تجويد الحفظ إلى وقت الظهر، ثم يعود إلى بيـته للغداء أو يتغذى في الكتاب، ثم يبدأ عمله ثانيـة بعد صلاة الظهر حتى فترة العـصر، يقرأ ويكتب إلى حين الانصراف إلى أهله بعد العصر.[٤]

وكانت مدة بـقاء الطفل في الكتاب خمـسة أعوام أو ستة عـلى الأكثر، وتكون في الغـالب ابتداء من السنة الخـامسة أو الســادسة من عمـره إلى السنة العاشرة أو الحادية عشر، يحـفظ الطفل خلالها القرآن الكريم كله أو بعضه عن ظهـر قلب أو رواية وإتقانا، ويـتقن فن الكتـابة والخط، ويلم بمبـادئ العربيـة

(١) د. شلبي، التربية، ص ص٧٧ـ٧٨، أسماء فهمي، المرجع السابق، ص٢٥.

(٢) الدكتور أطلس، المرجع السابق، ص٧٨.

(٣) المكان نفسه.

(٤) المكان نفسه. في السودان النيلي تبدأ الفترة الثانية من بعد العصر إلى جزء من الليل، ومن هنا نشأت نار القرآن إشارة إلى الدراسة الليلية على ضوء نار الحطب، وكذلك هناك فترة لكبار الطلاب تبدأ بعد صلاة الفجر إلى شروق الشمس وتنار فيها أيضا (نار القرآن).

والحساب[١]، ويعلم رواية الشعر الخالي من العشق وأهله.[٢]

أما المنهاج المبكر الذي وضع لتعليم الأطفال فقد نص عليه الخليفة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في رسالة منه إلى أهل الأمصار حين أمرهم بتعليم أولادهم السباحة والفروسية وما حسن من الشعر.[٣]

والذي ذكرناه هو المنهاج العام ولكن اختلافا جزئيا كان يحدث تبعا لاختلاف البلدان. وقد أوضح ابن خلدون[٤] ذلك في فصل خاص من المقدمة بعنوان: «تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه»، ومما جاء فيه: «وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعض الملكات، واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان، فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط مع العناية برسمه، واختلاف حملة القرآن فيه، ولايخلطون ذلك بسواه في مجالس تعليمهم، لا من حديث، ولا من فقه ولا من شعر، ولا من كلام العرب.

«وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو، وهذا الذي يراعونه في التعليم، فلا يقتصرون على القرآن، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر، والترسل، وأخذهم بقوانين العربية، وتجويد الخط. ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من هذه جميعها.

«وأما أهل إفريقية،[٥] فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في

---

(١) انظر: ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص٣٤.

(٢) المكان نفسه، الغزالي: إحياء علوم الدين، جـ٣، ص٥٧.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين، جـ٢، ص٩٢.

(٤) مقدمة ابن خلدون، ص ص١٠٣٨-١٠٤٢.

(٥) يعني تونس.

الغـالب، ومدارسـة قوانين العلوم (الدينيـة) وتلقين بعض مسـائلهـما، إلا أن عنايتهم بالقرآن، واستظهار الولدان إياه، ووقـوفهم مع اختلاف رواياته وقراءاته أكثر، وعنايتهم بالخط تبع لذلك.

«وأما أهل المشرق فيخلطون في التعليم كذلك..»

أما أهل غربي إفريقية، فقـد جرت العادة أن تقتصر الدراسة عندهم على حفظ القرآن وتلاوته وتعلم القراءة والكتابة إلى جـانب معرفة فروض الدين من عقائد وعبادات.(١)

ومما تجـدر الإشارة إليـه أن علمـاء المسلمين لم يغـفلوا الجانب التـربوي للطفل، وفي ذلك كتب ابن سـينا وابن مسكويه ومحمد بن سـحنون والقابسي والغزالي. ولابـن سينا في هذا المجـال كتاب «السـياسـة»، وهو يعني سيـاسة الرجل ولده، وسياسة المؤدب الصبيـة. ومما جاء فيه: «وينبغي أن يكون مؤدب الصبي عاقلا ذا دين، بصيرا برياضة الأخلاق حـاذقا بتربية الصبيان وقورا رزينا بعيدا من الخفة والسخف، قليل التبذل والاسترسال بحضرة الصبي..»(٢)

ولابن مسكويه كـتاب «تهذيـب الأخلاق وتطهيـر الأعراق»، وهو يدور حول المفـاهيم التربوية عند ابن سينا نفـسها، حول مـا ينبغي تركه ومـا ينبغي تعلمه، حتى يصل بنا إلى قـوله «ثم لايزال به التأديب (يعني الصبي) والسنون والتجـارب حتى يتنقل في أحـوال بعد أحـوال، فلذلك ينبغي أن يؤخـذ مادام طفلا بما ذكرناه ونذكره. ثم يطالب بحسن محاسن الأخبار والأشعار التي تجري مجرى ما تعوده بالأدب، حتى يتأكد عنده بروايتها وحفظها والمذاكرة بها جميع

---

(١) انظر: الألوري، مرجع سبق ذكره، ص٩٤.

(٢) ابن سينا: كتـاب السياسة. ضمن مـجموعة مقـالات فلسفية قديمة لبـعض مشاهير فلاسـفة العرب المسلمين والنصارى، ص ص١٢ـ١٣.

ماقـدمنا ذكره، ويحـذر النظر في الأشعار السـخيفـة ومافيـها من ذكـر العشق وأهله.. فإن هذا الباب مفسدة للأحداث جدا...»[1] ولأبي عبدالله محمد بن سحنون في هذا المجال كـتاب «آداب المعلمين»، الذي قام بنشره الدكتـور أحمد فؤاد الأهواني ملحقا لكتابه «التربية في الإسلام»[2]. والملحق الثاني لهذا الكتاب هو الرسالة المفـصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتـعلمين، لأبي الحسن علي بن محمـد بن خلف القابسي. وفي كتابي ابن سحـنون والقابسي مايعكس دور علماء المغرب في المساهمة الفعالة في مجال التربية الإسلامية للطفل.

وفي ضوء ماذكرناه من تاريخ الكتّاب في التـعليم الإسلامي عامة سوف نحاول أن نتلمس طريقنا لمعرفة نوع الكتاتيب التي ظهرت في غربي إفريقية.

يذكر صاحـب الفتاش[3] أنه كانت بتنبكت «مـئة وخمسـون أو ثمانون مكتبا[4]» لتعليم الصـبيان القرآن. ويلاحظ أن ابن المخـتار[5] يسمـيها أحـيانا «مدارس معلمي الصبـيان». وأما السعدي[6] فقد سماهـا مَحْضَراً». وقد ورد هذا اللفظ في معرض الكلام عن الفقيه أبي القاسم التواتي، أحد علماء تنبكت وأئمة مـسجدها الـكبير الجـامع، فقال عنه: «..قـد سكن في جوار المسـجد الجامع من جهة القبلة ليس بينها وبين داره إلا الـطريق العتيق النافذ بعدما ابتنى محضرا في قبـالة المسجد لاصقا بها وفيها يقـرئ الأطفال، وبعدما توفي خلفه فيه تـلميذه السيـد منصور الفزاني وبعده السـيد الفاضل الصالح الخـير الزاهد

(١) ابن مسكويه، مصدر سبق ذكره، ص ص٣٤ـ٣٥.
(٢) مرجع سبق ذكره.
(١) تاريخ الفتاش، ص١٨٠.
(٤) يلاحظ أن ابن المختار أو (كعت) يسميه مكتبا، والآخرون يسمونه كُتَّاباً، والمعنى واحد.
(٥) المكان نفسه.
(٦) تاريخ السودان، ص٥٨.

المقرئ عالم التجويد الفقيه إبراهيم الزلفي..».

وواضح من النص أن كلمة «محضر» تعني الكتاب أو مدرسة تعليم وتحفيظ القرآن. وربما يتساءل المرء عما إذا كانت كلمة «محضر» قد عرفت في مكان آخر غير غربي إفريقية. والجواب هو بالإيجاب، فالدكتور عبدالعزيز أمين[1] يذكر بأن هذه التسمية معروفة في المغرب وأن التلميذ في المسيد (الخلوة) يسمى عندهم «المحضري». أما في المشرق فالدليل على وجود هذه التسمية قول ابن جبير[2]: «وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد، لها وقف كبير، يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به، وينفق منه على الصبيان ما يقوم به وبكسوتهم» وذلك عندما تكلم على مدينة دمشق.

وفي منطقة الهوسا «نيجيريا الحالية» دخل مثل هذا النوع من المعاهد التعليمية مع دخول الإسلام، وإن كنا نلحظ أن الباحث النيجيري آدم الألوري[3] يستخدم تعبير «المدارس القرآنية» عندما يتكلم عن التعليم في نيجيريا قائلا «أما القراءة والكتابة فكانتا تعلمان مع القرآن في المدارس القرآنية التي يرتادها أطفال المسلمين ليدرسوا كلام ربهم وليستظهروه، إلى جانب ما يضيفون إليه من معرفة فروض الدين الإسلامي من عقائد وعبادات. ثم يندمج من شاء منهم بعد ذلك في ميدان الحياة الصناعي أو التجاري، وهم الأكثرون، أو يلتحق من شاء منهم بمدارس العلوم ليتنور بالثقافة الإسلامية التي تعتمد على تفسير القرآن والحديث والفلسفة والعقائد التوحيدية والتي تقوم على قواعد النحو والصرف والشعر العربي وعلوم النقد والتاريخ والفلك والمنطق، ويقل

---

(١) مرجع سبق ذكره، ص٨٢ـ الحاشية.

(٢) الرحلة، مصدر سبق ذكره، ص٢٦٠.

(٣) موجز تاريخ نيجيريا، مرجع سبق ذكره، ص٩٤.

الذين يثابرون على التعليم حتى يصلوا إلى هذه الغاية».

ولكن الباحث النيجيري علي بن أبي بكر[١] يقسم مدارس تعليم القرآن نفسها إلى نوعين، الأول هو الذي يتعلم فيه الصبيان قراءة القرآن فقط من غير حفظ، والثاني هو الذي يحفظون فيه القرآن. ويسمى النوع الأول «الكتاتيب».[٢] وأن الطفل أو الطفلة يلتحق بالنوع الأول عندما يبلغ أو تبلغ من العمر خمس سنوات، ويطلق عليها في العرف المحلي «مدرسة اللوح»، لأن الصبيان يتعلمون فيها قراءة القرآن وهو مكتوب على الألواح. وهذا النوع من المدارس القرآنية لا حصر له.[٣] أما النوع الثاني فعدده قليل بالنسبة إلى الكتاتيب (النوع الأول)، ولا يلتحق بها الصبي في الغالب إلا إذا أتم مرحلة الكتاتيب. وتقع هذه المدارس القرآنية خارج المدن أو القرى، حيث يبنون بيوتا من المواد المحلية يسكنونها بالقرب من فقيههم. والذي يتخرج فيها يمتحن في حفظ القرآن كله.[٤] أما بقية أمكنة التعليم في نيجيريا فيسميها الباحث بالمعاهد الدينية.[٥]

وأما الباحث شيخو أحمد سعيد[٦]، فيسمى «الكتاب» بالمرحلة الأولية وبالمدارس القرآنية في آن واحد، وإن لم يعط تفصيلا كبيرا لأمكنة التعليم ومعاهده الأخرى، وشملها جميعا بكلمة «المدارس».

ومنذ القرن السادس عشر عرفت الأماكن الخاصة لدراسة القرآن في بلاد

---

(١) الثقافة العربية في نيجيريا ـ رسالة دكتوراه غير منشورة، آداب القاهرة ١٩٦٧م، ص٩٤ (نشرت).
(٢) المرجع نفسه، ص٩٦.
(٣) المكان نفسه.
(٤) المكان نفسه.
(٥) المرجع نفسه، ص٩٧ وما بعدها.
(٦) حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، رسالة دكتوراه، كلية دار العلوم ١٩٧٤م، ص ص٦٩ـ٧٠.

الهوسا عامة وفي كانو خاصة، ويمكن أن نطلق عليها كُتَّابا، ومثال لتلك الكتاتيب مابناه العاهل الكانوي أبوبكر بن رمفا (٩٧٣ـ٩٨٠هـ/ ١٥٦٥ ـ ١٥٧٣م) لتعليم القرآن وسماه: جورون بوجاشي[1]. وعندما قوي الإسلام واستوى على سوقه وتأسست الإمارات الإسلامية في شمالي نيجيريا في مطلع القرن التاسع عشر (١٣هـ) كثر سواد طلاب العلم، فاتسع نطاق الكتاتيب في مدنها المهمة، كما اتسعت أماكن التعليم الأخرى وأهمها المعاهد العلمية التي خرجت علماء ألفوا في شتى الموضوعات الدينية والأدبية، ولا يسع الواقف على تلك المؤلفات إلا أن يعترف ببراعتهم ونبوغهم على الرغم من كون العربية هي اللغة الثانية.

وخلاصة القول إن الكتّاب قد عرف باسمه ومفهومه وهدفه في غربي إفريقية مثلما كان في المشرق والمغرب الإسلاميين.

(١) Palmar, Kano Chronicle, op. cit., p. 81.

المبحث الثالث



منازل العلماء وقصور الحكام

المطلب الأول: منازل العلماء

إن منزل العالم امتداد لحلقته التي يعقدها في المسجد أو في أي مكان آخر. فالسعدي[1] - في ترجمته لمحمد بن محمود بن أبي بكر الونكري التنبكتي المعروف ببَغَيُّغ (باء مفتوحة فغين معجمة ساكنة فياء مضمومة فغين مضمومة) المتوفي سنة ١٠٠٠هـ/ ١٥٩٣م - يعطينا نموذجا لعالم تنقل في تعليمه بين المسجد والمنزل وأماكن أخرى حين قال عنه «.. لازم الإقراء سيما بعد موت سيدي أحمد بن سعيد، فأدركته أنا (أحمد بابا) يقرئ[2] من صلاة الصبح أول وقته إلى الضحى الكبير دولا مختلفة، ثم يقوم لبيته ويصلي الضحى مدة، وربما مشى للقاضي في أمر الناس بعدها، أو يصلح بين الناس، ثم يقرئ في بيته وقت الزوال، ويصلي الظهر بالناس، ويدرس إلى العصر، ثم يصليها ويخرج لموضع آخر يدرس فيه للاصفرار أو قربه. وبعد المغرب يدرس في الجامع إلى العشاء ويرجع لبيته..».

وليس بالغريب أن تتعدد أماكن التعليم في غربي إفريقية، فقد كانت هذه السمة عامة في تاريخ التعليم الإسلامي في شتى الأقطار الإسلامية المشرقية منها والمغربية، حتى إن بعض العلماء كان يقوم بالتدريس في مكان عمله، وذلك مثل إبراهيم بن شريف البكري الأندلسي (ت ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م)، الذي

---

(١) تاريخ السودان، مصدر سبق ذكره، ص٤٥.

(٢) مكان الإقراء هنا هو المسجد.

كان يدرس في دكانه قرب المسجد الجامع بقرطبة[1]، بل كان منهم من أقام خيمة بين القبور للتدريس، مثل المهدي بن تومرت عندما ضايقه السلطان وأمره بالخروج من فاس[2]. وقد عقد النعيمي[3] فصلا كاملاً عن الترب بدمشق كمواضع للتعليم.

وكان بعض العلماء يقوم بتدريس بعضهم بعضًا بجانب تدريس الأبناء في المنازل حسب قوة كل واحد منهم في فنه. ولابد لمثل هذا النوع من التعليم أن يكون إما في منزل المتلقي أو المتلقى عنه. وهناك إشارات لمثل هذا النوع من التدريس، وهو أشبه بالتعليم الخصوصي، ويفهم هذا من كلام السعدي[4] حين قال في معرض كلامه عن زيارته الثانية للفقيه أبي بكر المعروف بموركيتا ببلدة قريبة من تنبكت تسمى شبل، قال: «رجعت عند الفقيه المذكور لسرد كتاب الشفا له في بيته فاستهل عليَّ رمضان فيه ليلة الجمعة فشرعنا في السرد بعون الله تعالى وإرادته، وفي الشهر ختمته، فواساني بما أمكن له، تقبله الله تعالى له، ثم طلب مني أن أفسره لأولاده، فشرعنا فيه حتى اختتمناه بفضل الله تعالى وحسن عونه». بل هناك من السلاطين من يذهب إلى الشيخ في منزله لتلقي العلم، ومن أولئك السلطان أبوبكر كادي بن رمفا، السلطان الخامس والعشرون في سلسلة سلاطين كانو، والذي حكم في الفترة ٩٧٣ـ ٩٨٠هـ/ ١٥٦٥ ـ ١٥٧٣م. لقد كان يذهب لدراسة الشفا في منزل شيخه.[5]

---

(١) ابن بشكوال: الصلة، ص٨٩. ومن الظواهر الملاحظة في تشاد أن كثيراً من التجار العلماء يقومون بتدريس الأطفال أمام دكاكينهم أثناء عملهم التجاري في دكاكينهم.

(٢) ابن أبي دينار، المونس، مصدر سبق ذكره، ص١٠٨.

(٣) الدارس في تاريخ المدارس، جـ٢، ص٢٢٣، ومابعدها.

(٤) تاريخ السودان، ص ص ٢٦٦ـ٢٦٧.

(٥) K. C. op. cit, p 81.

ومن الملاحظ في التعليم عامة أنه إذا كان في الأسرة علماء فإنهم يقومون بتدريس أقاربهم في منازلهم، وهناك نماذج كثيرة لعلماء تخرجوا على أيدي أقاربهم بجانب تلقيهم الدراسة على فقهاء آخرين، سواء في منازلهم أم في المسجد. ومن العلماء الذين تتلمذوا على أقاربهم وفي منازلهم، القاضي محمد ابن أحمد بن أبي حمد التاذختي (ت حوالي ٩٣٦هـ/ ١٥٥٥م)، الذي قرأ على جده الفقيه الحاج أحمد بن عمر، وعلى خاله الفقيه الصالح علي[١]، وعبدالله بن محمد بن فودي الذي تتلمذ على أخيه الشيخ عثمان بن محمد بن فودي وغيره من الأقارب[٢]. وقد ذكر ذلك عبدالله نفسه في مؤلفه «إيداع النسوخ»، وذكر أن الشيخ عثمان بن فودي أيضا تلقى تعليمه أولا على أقاربه، ابتداء من والده محمد بن فودي.[٣]

المطلب الثاني: قصور الحكام

لم يكن كل طالب علم يذهب إلى المسجد أو دار العلم أو غيرها من معاهد التعليم. فهناك من جعل لنفسه المعلمين الذين يقومون بتعليمه في قصره. وقد كان هذا أمراً مألوفا في تاريخ التعليم الإسلامي في كل الأقطار الإسلامية، ولم تشذ غربي إفريقية عن هذه القاعدة، فقد رأينا الشيخ محمد بن ماني، الذي اقترن اسمه بدخول الإسلام إلى برنو في القرن الخامس الهجري (١١م) ـ كما سيأتي ذكره في مكانه من الكتاب ـ يقوم بتدريس سلاطين هذه المملكة. وقد كان من المعمرين، إذ عاش مئة وعشرين عاما.

ومن الذين تتلمذوا عليه في قصورهم السلطان أومي جلمي

(١) محمد بلّو: إنفاق الميسور في تاريخ التكرور، ص٥١.
(٢) إيداع النسوخ، مصدر سبق ذكره، ص ص١ـ٥، ص ص٧ـ٩.
(٣) المصدر نفسه، ص ص٤ـ٧.

(٤٩٧-٤٨٩هـ/ ١٠٨٦-١٠٩٦م)، وأعجب السلطان بهذا العالم، فاستصدر مرسوما خصه فيه بامتيازات طويلة الأجل، تسرى عليه وعلى أحفاده إلى يوم البعث.[١] إذ جعل كل ما يمسه ويمس عقبه حراما على الناس أجمعين.

وقد عرف مايات (سلاطين) برنو بمثل هذه الأعمال التي تجعل من رجال العلم الديني ذوي مكانة عالية في المجتمع البرنوي، لما يقومون به من تعليم للسلاطين أو لأبنائهم. ومثال آخر لهذا ما أصدره السلطان نجالما دوكو (٥٩١-٦١٨هـ/ ١١٩٤-١٢٢١م) بشأن العالم الإمام عبدالله دلي بن بكورو، الذي درس ما يرادو بن سالما بن السلطان نجالما دوكو مئة وخمسين كتابا.[٢] وعلى الرغم من أن مصدرنا[٣] الذي نستقي منه لم يصرح بمكان الدراسة إلا أننا نرجح بأنه كانت قصر السلطان.

وكان سلاطين البرنو يقيمون المساجد داخل قصورهم للتعليم والصلاة، ولا يدعون فرصة لاستجلاب مشاهير العلماء إلا استغلوها حتى يستفيد من علمهم أهل القصر، ويفيد هو في المقام الأول. وهناك نماذج لهذه الظاهرة في المخطوطات الخاصة بسلاطين البرنو، والتي نشرها بالمر في كتابه الذي ذكرنا[٤]، وفي بعض المجلات العلمية.[٥]

ومن هذه النماذج القصة التي تروى عن العالم عمر بن عثمان (ماسباراما) والسلطان البرنوي آنذاك علي بن الحاج (١٠٠٥-١٠٤٩هـ/ ١٦٤٥-١٦٨٢م) وخلاصتها أن السلطان سمع بعلم هذا العالم الفذ، فأرسل

---

(١) Palmer, Bornu Sahara, op. cit., pp. 14-15.

(٢) Ibid, p. 19.

(٣) Bornu Sahara.

(٤) See: Palmer, B.S.O.A.S., 5 (1928-30), pp. 541-60.

(٥) Ibid, p. 546.

في طلبه من بلدة قريبة تسمى «ديف»، وجعله إماما لمسجد قصره ليصلي مع أهله وراءه، وليعلمهم أحكام الدين. وكان عدد الذين يصلون وراءه في هذا المسجد ستة وسبعين بينهم نساء القصر[١]، وذلك في العاصمة البرنوية غسرغمو. وأصدر السلطان مرسوما يجعل كل أملاك هذا العالم حراما على الناس وعقبه إلى يوم الدين.

وقد كان قصر هذا السلطان (علي بن الحاج) منتدى علميا كبيرا يجتمع فيه العلماء والأئمة ليعقدوا مناقشات في حضرته تتعلق بالنقاط التي يريد إيضاحها في الشريعة الإسلامية، فكان بذلك تلميذا لعدة أساتذة، ليتمكن من علوم دينه[٢]، وأصبح في النهاية من السلاطين الصالحين الذين يصلون كل يوم مئة ركعة نفلاً دون الفريضة. ويحرص على أن يتولى هو شخصيا إطعام مئة فقير كل يوم أيضا.[٣]

وغير ماذكرنا نماذج أخرى لعلماء قاموا بإرشاد وتعليم السلاطين، وصدرت بيانات رسمية في حقهم، مما يدل على الإعجاب بهم.

وفي الفصول التالية سوف نذكر بالتفصيل كل مايتعلق ببعض هذه الأماكن، وسوف تتضح بعد ذلك الصورة العامة لأماكن التعليم في غربي إفريقية.

---

(١) Ibid, p. 546.

(٢) Palmer, The Bornu, op. cit, p. 35.

(٣) Palmer. B.S.O.A.S., op. cit., pp. 547-555.

الفصل الخامس

حركة التعليم الإسلامي
في معاهد تنبكت



المبحث الأول



تاريخ مدينة تنبكت

هناك عدة صور يكتب بها اسم تنبكت، ولكننا اعتمدنا على الاسم الذي جاء في «تاريخ السودان»[1] و«تاريخ الفتاش»[2] و«نيل الابتهاج[3] وغيرها من المصادر الأصيلة لتاريخ غربي إفريقية. وقد درجت بعض المصادر والمراجع الأخرى على استعمال صور أخرى لرسم هذا الاسم «ومن تلك الرسوم: تمبكتو[4]، تنبكتو[5]، طومبكتو.[6]

لقد عقد السعدي بابا كاملا[7] عن تنبكت (بضم التاء الأولى والثانية) ونشأتها، ويكاد يكون محور الكتاب كله هو هذه المدينة العظيمة التي لم يخل مؤلف أو مقالة عن غربي إفريقية من الإشارة إليها.

وعن نشأة هذه المدينة المشهورة ـ كشهرة القاهرة وبغداد وقرطبة وفاس والقيروان ودمشق ـ قال السعدي[8]: «.. نشأت على أيدي توارق مغشرن في أواخر القرن الخامس من الهجرة فنزلوا فيها راتعين. وفي وقت الصيف في ساحل[9] البحر في قرية أمظغ[10] ينزلون، في وقت الخريف يرتحلون ويصلون

---

(١) انظر فيه مثلا، ص٢٠، ٢١ «وقد درج المتخصصون المحدثون على كتابتها بالصورة التي ارتضيناها، «تنبكت».

(٢) انظر فيه مثلا، ص١٢١.

(٣) انظر فيه مثلا، ص٣٢٤.

(٤) انظر: دائرة المعارف الإسلامية مادة «تمبكتو»، بقلم الفرنسي كاراده فو.

(٥) انظر: الدكتور عبدالرحمن زكي، الإسلام والمسلمون في غربي إفريقية، ص١٤٨؛ ١٥٢. ابن بطوطة، الرحلة، ص٤٤٣. وضبطها هنا بضم التاء وسكون النون وضم الباء الموحدة، وسكون الكاف وضم التاء الثانية وواو في النهاية.

(٦) انظر: قداح، ص٧٥ـ حاشية.

(٧) تاريخ السودان، ص٢٠ وما بعدها.

(٨) تاريخ السودان. ص٢٠.

(٩) يعني ضفاف النيجر، انظر: دائرة المعارف الإسلامية، مادة تمبكتو.

(١٠) دائرة المعارف، المكان نفسه، ويذكر كاراده فو أن اسم هذه القرية «اقتراغة».

أروان منازلا ويبدلون وهي حـدهم في العوالي، ثم اختـاروا موضع هذه البلدة الطيبة. . ».

إذن فقد أنشأ هذه المدينة فئـة من قبائل البربر وهم التوارق (أو الطوارق، التوارك) في نهاية القرن الخامس الهجري[1] (نهاية الحادي عشر الميلادي)، وهم قوم من البـدو الرحل قدموا إلـى هذه البلاد لرعي أغنامهم، فكـانوا يصطافون على ضفاف النيجر ثم يرجـعون في فصل الخريف إلى أوطانهم في أروان، ثم إنهم استقروا في موضع هذه المدينة «فجـعلوها خزانة لمتاعهم وزروعهم إلى أن صار مـسلكا للسالكين في ذهابهم ورجـوعهم»[2]. ثم أخذت هذه البلدة اسم تنبكت. ومعنى هذه الكلمـة في لغة توارق مغشرن تعني «العجـوز»، نسبة إلى امرأة عـجوز كانت تقـيم في هذا المكان، فسـمي المكان بها.[3] ثم أخذ الناس يسكنون هذا المكان ويزداد عددهم وتزداد عمائرهم، حتى صار المكان سوقا للتجارة، يلتقي فيه البائع والمشتـري من أهل المناطق المجاورة، وقبل ذلك كان التسوق في بلدة والاتا التي يسميها السعدي[4] بـ«بير». وعن هذا النمو التدريجي التجاري والثقافي يقـول السعدي[5]: «وإليه يرد الرفاق من الآفاق. وسكن فـيه الأخيار

(١) وبالتحديد سنة ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م. انظر في هذا : History of Africa, op. cit., p. 54.

(٢) السعدي، ص٢١.

(٣) المكان نفسه. ولجون بوري، "John Pory" رأي آخر في هذه التسمية. ففي حـاشيته التي وضعها مع ترجمته لكتاب لـيون الإفريقي، صفحة ٤٤٢، يقول بأن «تنبكت» تعني في لغة السنـغاي التجويفة، ويقول بأنه ربما أخذت هذا الأسم من كـونها بنيت في التجويفة للتلال الرمليـة في تلك المنطقة. أما قداح (ص٧٥ حاشيـة) فيقول بأن الاسم يرجع إلى امرأة عجوز كـانت تسمى «بوكتو» من الطوارق. وتروي الأساطيـر بأن بوكتو كـانت تقوم بحـراسة البئـر التي يسقون منـها في هذه الجهـة في فصل الجفاف. وبعد مـضي مدة من الزمن أصبح المكان يدعى تنبوكتو، أي مـكان بوكتو، ثم تحول الاسم في اللفظ العامي إلى تمبكتو.

(٤) تاريخ السودان، ص٢١.

(٥) المكان نفسه.

من العلماء والصالحين وذوي الأموال من كل قبيلة ومن كل البلاد، من أهل مصر، وفزان، وغدامس، وتوات، ودرعة وتفلاته[١] وفاس، وسوس، وبيط، إلى غير ذلك. ثم انتقل الجميع إلى تنبكت قليلا قليلا حتى استكملوا فيه وزيادة على جميع قبائل الصنهاجة بأجناسها، فكانت عمارة تنبكت خراب بير. ولم تأته العمارة إلا من المغرب لا في الديانات ولا في المعاملات، فأول الحال كانت مساكن الناس فيه زريبات الأشواك. . .» ثم تطور الحال من البناء بالشوك إلى البناء بالقش والأخشاب، ثم أخيرا ظهرت منازل الطين وبناء الأسوار.[٢]

وواضح من نص السعدي السابق أن موقع تنبكت التجاري جعلها تحجب تدريجيا غيرها من المراكز التجارية الأخرى مثل والاتا[٣]، ولا عجب في ذلك، فقد امتازت تنبكت بأنها ملتقى طرق برية وبحرية[٤]. فالطريق البحري بين تنبكت وجني[٥] يربط طريقين بريين: من تغازا[٦] إلى تنبكت ومن جني إلى الغابة الواقعة جنوبيها[٧]. وفي الفترة ١٥١٢ـ ١٥١٤م زار ليو الإفريقي[٨] (حسن الوزان) منطقة غربي إفريقية، وتكلم عن التجار التنبكتيين الذين كانوا يحملون بضائعهم في قوارب صغيرة إلى مدينة جني. ولمدينة تنبكت ميناء بحري يقوم على خدمة هذه التجارة البحرية، ويسمى هذا الميناء بـ«كابرا»[٩].

(١) تاميلات.

(٢) تاريخ السودان، ص٢١.

(٣) وهي مدينة مزدهرة في موريتانيا. . وتقع إلى الشمال من كومبي صالح عاصمة غانة القديمة. انظر قداح، ص٤٠ ـ الحاشية. وقد أنشأها بنوحسان من موريتانيا في القرون الهجرية الأولى. وبلغة سنغي تسمى «بير»، انظر السعدي، ص٢١.

(٤) See: E.W. Bovill, Garavans, op. cit., p. 250.

(٥) نرجئ الكلام عن هذه المدينة إلى الفصل الخاص بها.

(٦) مدينة صحراوية اشتهرت بالملح. انظر: ابن بطوطة، ص٤٤١.

(٧) N. Levtzion, Muslims and Chiefs, op. cit., p. 5.

(٨) History and Description of Africa, Vol. 11, op. cit., p. 465.

(٩) G.F. Lyon: Anarative of Travels in Northern Africa: p. 145

ويقع على بعد حوالي اثني عشر ميلا جنوبي تنبكت[1]. والسكان المقيمون بهذا الميناء يعملون في الإشراف على قوارب البضائع والمراكب الكبيرة التي تأتي محملة من جني لتفرغ حمولتها في هذا الميناء.[2]

وكانت أهم السلع التجارية الملح الذي يأتي من الصحراء الكبرى فيحمله تجار تنبكت إلى جني، ومن جني يحمله تجار الوانجارا إلى مناجم الذهب[3]. ويشير السعدي[4] إلى هذه التجارة في معرض كلامه عن تنبكت بقوله: «وهي سوق عظيم من أسواق المسلمين، وفيها يلتقي أرباب الملح من معدن تغازا، وأرباب الذهب من معدن بيط، وكلا المعدنين المباركين ما كان مثلهما في الدنيا كلها».

إن نهايات الطرق البرية الصحراوية التي قامت في زمن مبكر مثل غانا وأودغست وولاتا، كانت مربوطة بطرق برية فقط، أما تنبكت فقد كان الوصول إليها يتم عن طريق البر والماء. ونتيجة لهذه الميزة الكبرى نمت تنبكت وترعرعت بسرعة فائقة حتى فاقت والاتا كما ذكرنا. وقد تم هذا التفوق حول نهاية القرن (٨هـ/ ١٤م)[5] وذلك بدليل أن ابن بطوطة[6] في رحلته سنة ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م رافق قافلة تجارية أخذت الطريق القديم: سجلماسة ـ تغازا ـ والاتا. وإن وصف هذا الرحالة الكبير يترك انطباعا بأن والاتا كانت في ذلك الوقت مركزا تجاريا أكثر نشاطا من تنبكت. ثم بعد ربع قرن من الزمان نجد

---

(١) Denham, op. cit., p. 179.

(٢) Loc. cit.

(٣) Levtzion, Muslims Chiefs, op. cit., p. 4.

(٤) تاريخ السودان، ص ص١١ـ١٢.

(٥) Levtzion, Muslim Chiefs, op. Cit., p. 5; Levtzion, Ancient Chanah and Mali, op. cit., p. 203.

(٦) الرحلة، ص ص٤٤٠ـ٤٤١؛ وإن ابن بطوطة يسمي والاتا بـ«والاتن»، والعمري يسميها «أولاتن» انظر: مسالك الأبصار، مصدر سبق ذكره، ص٥٥٤.

على خريطة أ. كرسكو A. Gresques المؤرخة بسنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م، أن الطريق الصحراوي مرسوم: سجلماسة ـ تغازا ـ تنبكت[١]. وفي مطلع القرن (١٠هـ/ ١٦م) نجد أيضا أن الرحالة حسن الوزان[٢] يسلك الطريق نفسه الذي رسمه كرسكو.

وهكذا فقد حلت تنبكت محل والاتا من الناحيتين التجارية والعلمية. وينوه السعدي[٣] بظاهرة الصلة الوثيقة بين المراكز التجارية والمراكز التعليمية. فقد كان العلماء دائما في أثر التجار، فحيثما أقاموا مركزا تجاريا سرعان ما يزدهر هذا المركز من الناحية الثقافية، وكانت تنبكت كذلك عندما رحل جميع التجار والعلماء إليها من والاتا وغيرها.

وتوجد بعض الشواهد الزمنية عن هجرة العلماء من والاتا إلى تنبكت، لاسيما في النصف الأول من القرن (٩هـ/ ١٥م)[٤]، من ذلك أن الفقيه العالم الحاج، جد القاضي عبدالرحمن بن أبي بكر بن الحاج، جاء هو وأخوه السيد الفقيه إبراهيم من والاتا فسكن في بنك[٥]. وتولى القضاء بتنبكت في أواخر عصر دولة مالي[٦]. ومن أهم الذين هاجروا من والاتا إلى تنبكت جد أسرة أقيت[٧]، المشهورة بالعلم والنفوذ، المسمى بـ«محمد بن عمر الصنهاجي المسوفي». جاء إليها في عهد «آكل» زعيم التوارق[٨]، ومن رواية

(١) Levtzion, Muslims, op. cit. p. 5.
(٢) History and Description, pp. XXXVII, Loc. cit.
(٣) تاريخ السودان، ص٢١.
(٤) Levtzion, Ancient Ghana, op. cit. p. 203.
(٥) ضاحية من ضواحي تنبكت.
(٦) تاريخ السودان، ص٢٧.
(٧) المصدر نفسه، ص٣٦.
(٨) المكان نفسه.

السعدي[1] لخبر مجيء هذا العالم إلى تنبكت يفهم بأنه كان في عداوة وحرب مع هذا الزعيم، لأنه أخرج للوسيط الذي سعى للصلح بينهما ورقة مشقوقة من أثر الطعن بالرمح والضرب بالسيف قائلا له: «انظر ماعمل لي محمد أقيت وكيف يسكن المرء في بلدة مع عدوه الذي عمل له هذا العمل. وقال له (الوسيط): هيهات، الذي عرفته فيه قد فات، صار اليوم مسكينا ذا عيال لايريد إلا العافية».

وخبر حكم آكل يسوقنا إلى معرفة أول من حكم هذه المدينة عندما أصبحت ذات شأن، وتطور البناء فيها وتعاقبت الدول والسلاطين عليها. وعن هذا يقول السعدي[2]: «والبنيان ماثبت عمارته إلا في أواخر القرن التاسع وما تكاملت البناء في الالتصاق والالتئام إلا في أواسط القرن العاشر في مدة آسكيا داود ابن الأمير آسكيا الحاج محمد. فأول من ابتدأ فيه الملك كما تقدم أهل ملي ودولتهم فيه مئة عام، وتاريخه من عام سبعة وثلاثين في القرن الثامن[3]، ثم توارق مغشرن ودولتهم أربعون عاما، وتاريخه من عام ثلاثة وسبعين في القرن التاسع، ومدة ملكه فيه أربعة وعشرون سنة[4]، ثم أمير المؤمنين آسكيا الحاج محمد ودولته مع عقبه مئة عام وعام واحد، وتاريخه رابع عشر من جمادى الآخرة في العام الثامن والتسعين في القرن التاسع وآخرها سابع عشر من جمادى الآخرة في العام التاسع والتسعين في القرن العاشر، ثم الشريف الهاشمي السلطان مولاي أحمد الذهبي وتاريخه انقراض دولة أهل سنغي،

---

(١) المكان نفسه.

(٢) تاريخ السودان، ص ص٢٢ـ٢٣.

(٣) من عام ٧٣٧هـ إلى ٨٣٧هـ (١٣٣٦ـ١٤٣٣)، وزارها في هذه الفترة ابن بطوطة.

(٤) ٨٣٧هـ ـ ٨٧٦هـ/ ١٤٣٣ـ١٤٧١م.

وهو السابع عشر من جمادى الآخرة، في العام التاسع والتسعين في القرن العاشر.[1] وكان ملكه من اليوم خمساً وستين سنة..».[2]

وفي النصف الأول من القرن (١٣هـ/ ١٩م) (سنة ١٢٤٣هـ/ ١٨٢٧م) استولى عليها أحمد لوبو صاحب الدعوة المهدية في منطقة ماسينا التي أصبحت حد دولته الشمالي. وفي مطلع القرن (١٤هـ) نهاية القرن (١٩م) (١٣١١هـ/ ١٨٩٣م) استولى عليها الفرنسيون[3]، ودخلت تاريخا جديدا.

أما فيما يتعلق بصلة الأوروبيين بمدينة تنبكت، فقد كان ذلك في القرن التاسع الهجري (١٥م)، عندما أخذت هذه المدينة تتعامل تجاريا مع إيطاليا، وخاصة فلورنسة، عن طريق تونس وطرابلس. وكانت تخرج منها أربعة طرق قوافل كبيرة: أحدها إلى مصر، ويمر بجاو وكانم. والثاني إلى تونس، ويمر بهجار. والثالث يقصد مراكش ويمر بسجلماسة وتافيلات وتوات. والرابع يتجه إلى غربي إفريقية، ويمر بمالي[4]. ووصف أحد الأوروبيين (فلورنتين) المدينة في ذلك الوقت ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م، ويستفاد من عباراته بأنها كانت من الأماكن المشهورة، وترجمة قوله عنها وعن تجارتها «... يباع فيها ملابس خشنة وأصواف غليظة وما شابه ذلك من الأقمشة المحلوجة التي تصنع في لمبارديا».[5]

ونلاحظ أن كاراده فو[6] جعل الوزان (ليو الإفريقي) من الأوروبيين. ويقول

(١) ٨٧٣ـ٨٩٨هـ/ ١٤٦٨ـ١٤٩٣م.
(٢) ٩٩٩ـ١١٦٤هـ/ ١٥٩٠ـ١٧٩٠م.
(٣) محمد جمال الدين السيد: انتشار الإسلام في غربي إفريقية، ص٧٣، قداح ص٧٥ حاشية.
(٤) دائرة المعارف الإسلامية، مادة «تمبكتو».
(٥) المكان نفسه.
(٦) المكان نفسه.

بأنه الأوربي الثاني، بعد فلورنتين السالف الذكر، الذي يتصل بتنبكت مباشرة.

ولكن من المعروف أن ليو الإفريقي، ليس أوروبيا، ولكنه عربي مسلم من مدينة فاس. والصحيح أنه من أوائل العرب الذين أعطوا معلومات عن هذه المدينة للغرب. فقد زارها بعد فلورنتين ببضع سنين، فكان أكثر إعجابا بها، وقال عنها ماترجمته: «إن المدينة عامرة بالحوانيت، وبها مسجد من الحجر والكلس بناه مهندس بارع من أهل غرناطة، وقصر رائع يقيم فيه الملك، حلي بصور كثيرة وقضبان من الذهب يزن بعضها ألف وثلاثمئة رطل»[١]. وتكلم الوزان عن المواطنين، وخاصة الغرباء، وعن غناهم وغنى السلطان.[٢]

وبعد رحلة الوزان في مطلع القرن السادس عشر، انقطعت الصلة بين تنبكت وأوربة، فكان الأوروبيون يتحدثون عنها آنئذ حديثهم عن مدينة عزيزة المنال تكتنفها الأسرار، وخاب سعي الكثيرين في جلاء سرها، وقتل في سبيل ذلك الميجور «لينكه». ثم أفلح الرائد الفرنسي رينيه كابيه في رفع الحجاب عنها عام ١٢٤٤هـ/ ١٨٢٨م[٣]، فاتضح له أنه كان واهما في تقدير شأنها. ومن ثم فضل عليها مدينة جني كثيرا[٤]. أما في تقديرنا فلا مكان لهذا الوهم لأن تنبكت في هذه الفترة اضمحلت بالفعل[٥]، بعد أن تحولت التجارة إلى اتجاه المحيط الأطلسي، فأصبحت جني من المراكز الداخلية المهمة لتجميع تجارة غربي إفريقية المتجهة إلى موانئ غربي إفريقية البحرية، ثم زار الرحالة بارث تنبكت في سنة ١٨٥٣م. وأصبحت بعد ذلك معروفة.

---

(١) History and Description of Afr., op. cit., p .824.

(٢) Ibid, pp. 824-25.

(٣) دائرة المعارف، مادة تمبكتو.

(٤) المكان نفسه.

(٥) المرجع نفسه، مادة: جني.

المبحث الثاني



تاريخ معاهد تنبكت العلمية

كانت تنبكت منذ أول نشأتها مدينة إسلامية، «مادنستها عبادة الأوثان، ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن، مأوى العلماء والعابدين ومألف الأولياء والزاهدين..»[1]، وذلك لأن طوارق مغشرن الذين أنشؤوها كانوا مسلمين. وكانت تمر عليها منذ ذلك الحين قوافل التجار المسلمين، ثم أقام فيها المسلمون من كل مكان، وتبعهم العلماء والفقهاء، وتتابع العمران إلى أن أضحت أعظم مدينة إسلامية في غربي إفريقية، وأعرق مركز ثقافي وتجاري، وأشهر مركز تعليمي إسلامي فيها.

وبهذه المدينة العتيقة ثلاثة مساجد مهمة، كانت هي جامعاتها ومعاهدها التعليمية. وتلك المساجد المعهدية هي: الجامع الكبير، ومسجد سنكري ومسجد سيدي يحيى. وما تزال هذه المساجد الثلاثة حتى اليوم من آثار تنبكت الإسلامية[2]. وكان دورها التعليمي مثل أدوار مساجد القاهرة الكبرى: مسجد عمرو بن العاص ومسجد أحمد بن طولون والجامع الأزهر. وسنعرض فيما يلي لأهم ما يتعلق بهذه المساجد التعليمية.

المطلب الأول: الجامع الكبير[3]

يعتبر هذا المسجد من أقدم مساجد تنبكت وأكبرها، ولا يعرف على وجه

---

(١) هكذا قال السعدي في: تاريخ السودان، ص٢١.

(٢) انظر: الدكتور عبدالرحمن زكي، الإسلام والمسلمون، مرجع سبق ذكره، ص١٥٢.

(٣) عن هذه التسمية انظر: تاريخ السودان، ص٥٦، تاريخ الفتاش، ص١٢٢. فالسعدي يسميه تسمية ثانية، وهي: المسجد الجامع. «ويتفق معه صاحب الفتاش في هذا، وغلب عليهما استعمال التسمية الأولى ولذا رجحناها. أما نعيم قداح فقد سماه «مسجد جانكوبر» وسماه الدكتور عبدالرحمن زكي بـ«مسجد جنجوربر. انظر قداح، ص١٤٢، ١٥٩، والدكتور زكي، المرجع السابق، ص١٥٢. ويبدو أن الاسم «جانكوبر» أقدم اسم أطلق على هذا المسجد الجامع.

التحديد تاريخ التشييد الأول له، بيد أن المعروف أنه كان هناك مسجد أقيم على موقعه في القرن الثالث عشر. فالسعدي، مثلا، عندما تطرق لعمارة مدينة تنبكت ابتداء من توارق مغشرن، لم يحدد لنا تاريخا ولو تقريبيا عن بناء أول مسجد بهذه المدينة، بل اكتفى بقوله: «ثم بنوا مسجد الجامع على حسب الإمكان ثم مسجد سنكري كذلك».[1]

وفي ضوء نص السعدي المذكور يمكننا أن نقرر بأن بناء هذا المسجد الجامع قد تم لأول مرة في مطلع القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) على وجه التقريب، لأن المسلمين جروا على عادة إنشاء المساجد الجامعة متى ما استقر بهم المقام في أي مكان ولو وسط المجتمعات الكافرة. وتلك ظاهرة بارزة في قيام المجتمعات الإسلامية صغيرةً كانت أم كبيرة. وفي أي جزء من أجزاء العالم الإسلامي قاصيها ودانيها.

وتعبير السعدي «حسب الإمكان» يدل على أن بناء المسجد الجامع كان أولا على صورة متواضعة تتناسب مع حجم السكان بالمدينة في تلك الفترة، لأن العمران في المدينة مر أيضاً بثلاثة أطوار متواضعة كما رأينا.

وفي نص آخر للسعدي يقول فيه «أما الجامع الكبير فالسلطان الحاج موسى (٧٠٧-٧٣٣هـ/ ١٣٠٧-١٣٣٢م) صاحب ملي هو الذي بناها (يعني بناه) وصومعتها على خمسة صفوف والقبور لاصقة بها من خارجها في جهتي اليمين والمغرب»[2] ويبدو لنا أن هذا هو البناء الثاني، والذي يدعونا للقول بهذا

(١) تاريخ السودان، ص٢١.

(٢) المصدر نفسه، ٥٦. ويلاحظ في هذا النص وغيره أحياناً أن السعدي يستعمل ضمير المؤنث للمذكر. وربما يكون ذلك لتأثره بلغته الأولى المحلية غير العربية، ومن المألوف جدا في المجتمعات الأعجمية أن تسمع الناس يفعلون مثل السعدي، وحتى بعض المثقفين منهم.

هو أن عمارة المدينة بدأت في نهاية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، وأن ولاية منسا موسى، سلطان مالي، كانت في مطلع القرن الثامن الهجري (مطلع الرابع عشر الميلادي) ويستبعد أن تظل مدينة إسلامية بدون مسجد جامع طوال هذه الفترة، وهي أكثر من قرنين.

أما تاريخ تجديد بناء هذا المسجد الجامع على يد السلطان موسى، فقد كان بعد عودته من حجته المشهورة سنة أربع وعشرين وسبعمئة بعد الهجرة (أربع وعشرين وثلاثمئة وألف من السنة الميلادية)[١]. والذي يحفزنا لهذا القول هو أن ضم هذه المدينة إلى دولة مالي الإسلامية كان بعد قدوم هذا العاهل من الحج[٢]. ومن المرجح أن الذي قام ببناء هذا المسجد هو المهندس والشاعر الأندلسي أبو إسحاق إبراهيم الساحيلي، المعروف عند البعض بـ«الطويجن»، والذي قدم مع منسا موسى من المشرق عند عودته من الحج[٣]، ودليل ترجيحنا هو أن الساحيلي قام ببناء عدة عمائر في دولة مالي، منها القصر الأميري[٤]، أو دار السلطنة.

وعندما زار الرحالة العربي حسن الوزان تنبكت في مطلع القرن السادس عشر، ذكر أنه شاهد مسجداً مشيدا من الحجارة والجير[٥]، ولكنه لم يذكر إن كان هذا هو المسجد الجامع القديم المعروف بـ«جانكوبر» أم هو مسجد سنكري أم مسجد سيدي يحيى. وعدم جزمنا بما يعنيه الوزان هو أن هذه المساجد الثلاثة

---

(١) المصدر نفسه، ص٧، تاريخ الفتاش، ص٣٢، العبر، جـ٦، ص٤١٥.

(٢) تاريخ السودان، ص٧.

(٣) المصدر نفسه، ص٨ وص ص٥٦ جـ٥٧، العبر، جـ٦، ص٤١٥، الفتاش ص٣٢.

Lady Lugard, op. cit., p. 125.

Davidson, The Lost Cities, op. cit., p. 92.

(٤) السعدي، ص ص٧ـ٨، والساحيلي من الذين استضافوا ابن بطوطة عندما زار مالي.

(٥) Leo Africanus, p. 824.

أسست قبل مـجيء هذا الرحالة إلى تنبكت. ولكن الراجح هو أن الوزان يعني هذا المسجد الجامع، لأنه مازال من أبرز آثار تنبكت الإسلامية، وإن فاقه مسجد سنكري شهرة.

ظل هذا المسجد مـوضع عناية كثير من السلاطين والحكام الذين تعـاقبوا على حكم تنبكت، فقد مر بعدة إصلاحات، ومن حسن إلى أحسن، شأنه في ذلك شأن كل المـساجد العـريقة في العـالم الإسلامي، ابتداء مـن الحرم المكي والمدني ومساجد العراق والشام ومـصر والمغرب. وكانت كل هذه المساجد منذ إنشائهـا حتى يومنا هذا تخضع لإصـلاحات وترميـمات وتوسعـات تقتضيـها الظروف وزيادة السكان والثروات وتطور العمران. وحرص المسلمون على اتباع السنة الغراء في جعل مساجدهم أجمـل البقاع وعلى أحدث فنون المعمار. فلا عجب إذا رأينا الجامع الكبير يمر بهذه الإصلاحات.

ويذكر السـعدي[1] جـانبا من تلك الإصـلاحـات التي خضع لهـا هذا المسجد. ومن هذه الإصلاحات أن الفقيـه القاضي العاقب ابن القاضي محمود ابن عمر بن محمد أقيت (٩١٣ـ٩٩١هـ/ ١٥٠٧ـ١٥٨٣م) قام بهدم هذا المسجد وضم إليه المساحة التي كانت تشغلها القبور المجاورة، وزاد فيه زيادة كبيرة عما قبل. وكان ذلك حوالي بداية الثلث الثالث من القـرن السادس عشر، وبالتحديد سنة ٩٧٦هـ/ ١٥٧٠م كما يذكـر السعدي[2]، في عصـر السلطان آسكيا داود (٩٥٦-٩٩٠هـ/ ١٥٤٩-١٥٨٢م)، وبعد رجوع الشـيخ العاقب من الحج[3]. ولم يكن الشيخ العاقب هو وحده الذي قام بالإنفاق على بناء هذا المسجد، بل

(١) تاريخ السودان، ص٥٧، ١٢١، نيل الابتهاج، ص ص١٨٠ـ١٨١.
(٢) تاريخ السودان، ص١٠٨.
(٣) المصدر نفسه، ص١٢١.

اشترك معه علماء آخرون مثل الحاج الأمين، ولكن بعد إلحاح، ولم يتعد إنفاقه ثلاثة أيام[1]. ولا يعد هذا إلا مساهمة رمزية بالمقارنة بما أنفقه الشيخ العاقب في البناء الذي كان يكلف يوميا سبعة وستين مثقالا[2] إلا ثلثا[3] من الذهب، واستمر في ذلك قرابة ثلث العام[4]. وقد كان ـ رحمه الله ـ لا يحب أن يزاحمه أحد في الإنفاق على أوجه الخير والبر. وليس هذا غريبا عنه، فقد كان من حفاظ القرآن الكريم ومن شهد له بالصلاح والتقوى.[5]

وشارك في بناء هذا المسجد أيضا آسكيا داؤود. وتمثلت مشاركته في دفع جزء من نفقة البناء مع أربعة آلاف قطعة من الخشب حسب رواية السعدي.[6] أما ابن المختار[7] فيذكر أنه كانت هناك منازعة بين آسكيا داؤود والقاضي العاقب في بناء ذلك المسجد. وهي منازعة على فعل الخير، لأن آسكيا داؤود كان يصر على المساهمة. ورضي القاضي العاقب بأن يبني سهمه على موضع كانت به القبور. وجوز له ذلك شرعا. ففرح آسكيا داؤود بذلك، وفعل ما أشار عليه به القاضي العاقب. وأمد المسجد أيضا بعدد من الأرقاء لأعمال البناء، وترك للإمام أمر تقسيم اختصاصات العمل بينهم، مثل حمل الطين وقطع الخشب وغير ذلك. وجعل النسوة من الإماء يقمن بنسج حصر المسجد وفرشه.[8]

---

(١) تاريخ الفتاش، ص١٢٣.
(٢) المثقال من الذهب يساوي ستة غرامات.
(٣) المصدر السابق، ص١٢٢.
(٤) تاريخ السودان، ص ص١٠٨ـ١٠٩.
(٥) الفتاش، ص١٢٣، نيل الابتهاج، ص١٨١، تاريخ السودان، ص٥٧.
انظر ترجمته في الفصل الخاص بأشهر علماء تنبكت.
(٦) تاريخ السودان، ص١١٠.
(٧) تاريخ الفتاش، ص١١٠.
(٨) المصدر نفسه، ص١٠٦.

وذكر ابن صود[1] بعض الإصلاحات التي أدخلت على المسجد في الأعوام: ١٠٨٩، ١١٢١، ١١٤٩هـ/ ١٦٧٨، ١٧٠٩، ١٧٣٦م. وعلى ذلك يمكن القول بأن المسجد القائم اليوم لايشتمل على أية أجزاء يمكن نسبتها إلى ماقبل عام ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م وهو التاريخ الذي أعاد فيه العاقب بناء هذا المسجد.[2]

ويشتمل المسجد من الداخل على خمسة وعشرين صفا من العمد، تمتد من شمال المسجد إلى جنوبه، وعلى ثمانية صفوف ممتدة من الشرق إلى الغرب، وأهم أجزاء المسجد مشيدة بالحجر، كالعقود، والجانب الغربي والمحراب وبعض أجزاء الكساء الخارجي. وشيد السقف من الخشب المتين. وللمسجد صحنان: أحدهما واسع والآخر صغير متصل بالمئذنة. وبأحد الصحنين عدة قبور ليس عليها نقوش تحدد تواريخها.[3]

والآن، يعتبر هذا المسجد من المعالم الأثرية لمدينة تنبكت الإسلامية.

المطلب الثاني : مسجد سَنْكُرَي[4]

لم يبين لنا السعدي وابن المختار تاريخا لبناء هذا المسجد. بل إن النصوص الواردة في هذا الخصوص مضطربة. فابن المختار في ترجمته للقاضي

---

(١) اسم المؤلف غير معروف، والمعروف اسم جده فقط وهو: محمد بن الأمين بن محمد بن صود. ولذلك درج الكتاب على إسناده إلى لقب الأسرة أو آخر أجداده المشهورين.

(٢) انظر: الدكتور زكي، الإسلام والمسلمون، ص١٥٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ص١٥٢ـ٥٣.

(٤) هكذا رسمه السعدي وابن المختار كما نلاحظ في النصوص التي أوردناها وسنوردها في هذا الكتاب، وهو بفتح السين وتسكين النون وضم الكاف مع فتح الراء وتسكين الياء الأخيرة، كما ذكره ابن المختار في صفحة ١٧٢ من تاريخ الفتاش. أما الكتاب المحدثون فمنهم من يرسمه «سنكوري» مثل الدكتور زكي: الإسلام والمسلمون. ص١٥٣، ومن يرسمه «سانكوري» مثل قداح، في ص١٦٠. أما كاراده فو فقد رسمه «سنكورة»، ولعل هذا خطأ من المترجم الذي نقل مادة تنبكت إلى العربية بدائرة المعارف الإسلامية.

العـاقب يقـول: «وفي سنة تسع وثمـانين وتسـعمـاية شـرع في بناء مـسجـد سنكري». [1]

والمتـأمل لهذا النص وحـده يفهم أن بناء هذا المسـجد قـد تم على يدي القـاضي العاقب، ولكن هـذا المفهـوم لايستـقيـم مع مفـهوم بعض نصـوص للسعدي، جـاء في أولها: «وأما مسـجد سنكري فقد بناها (يعني بنتـها) امرأة واحدة اغلالية ذات مال كثير، . . ولكن لم نجد لبنائها تاريخا»[2]. وثانيها يلقي ضوءا على نص حفيد كعت (ابن المختـار) المذكور آنفا ويشير بصراحة إلى أن القاضي العاقب كان مجددا لبناء مسجد سنكري، ولم يكن المشيِّد الأول. وهو قوله: «وفي يوم الخميـس ثاني عشر من المحرم سنة ست وثمانين بعد تسـعمئة شرع القـاضي العاقب في تجـديد بناء مسـجد سنكري.[3] وثالثهـا يزيد الأمر إيضاحا ويفيد بقدم مسجـد سنكري وبأنه شيد بعد المسجد الجامع، وأن تكامل البناء عامـة كان في أواسط القرن العـاشر الهجري، في عـهد السلطان داؤود، وذلك في معرض الكلام عن تطور عمارة مدينة تنبكت. وهذا النص هو: «ثم بنوا مسجد الجامع على حسب الإمكان ثم مسجد سنكري كذلك، ومـن وقـف فـي بابه يومـئـذ يرى من يدخل في المسـجـد الجـامع لأجل تخليـة البلد عن الحيطان؛ والبنيـان ماثبتـت عمارته إلا في أواخـر القرن التاسع في مـدة آسكيا داود». [4]

(١) الفتاش، ص١٢١.

(٢) تاريخ السودان، ص٦٢.

M. Levtzion, Ancient Ghanah and Mali, op. cit., P. 204.

يذكر هذا المصدر أن هذه المرأة ربما تكون من قبيلة الطوارق.

(٣) المصدر نفسه، ص١١١.

(٤) المصدر نفسه، ص ص٢١ـ٢٢.

ونحن نطمئن إلى مضمون النصوص التي أوردها السعدي، ونقول بأن بناء هذا المسجد لأول مرة كان قبل عهد القاضي العاقب، وعلى يد امرأة ثرية كما يقول ابن المختار، ثم كان تجديده على يد القاضي العاقب في عهد السلطان داود، ومن المحتمل أن يكون تاريخ تشييده بعد عام ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥ وقبل عام ٨٦٩هـ/ ١٤٦٤م. ومما يحفزنا إلى ترجيح تشييده بعد عام ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م هو أن منسا موسى أمر الساحيلي بتشييد المسجد الجامع بعد عودته من الحج، وكان تشييد مسجد سنكري بعد ذلك.[1] والسعدي في ترتيبه للأحداث وترجمته لأئمة أهم مسجدين بتنبكت ـ المسجد الجامع وسنكري ـ نراه يقول في عنوان هذا الباب مانصه «ذكر أئمة المسجد الجامع ومسجد سنكري على الترتيب»[2]. وإذا علمنا بأنه يتبع في هذا الترتيب الزمني فإننا نطمئن إلى ماوصلنا إليه بأن هذا المسجد شيد بعد حجة هذا العاهل، والتي كانت في سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م، وذلك قياسا على أن المسجد الجامع الكبير قد شيد بعد عودة السلطان من الحج مباشرة. أما احتمال تشييده قبل عام ٨٦٩هـ/ ١٤٦٤م فهو أن تجديده قد تم في عهد دولة سنغي وفي أيام السلطان داود، والمؤسس الحقيقي لهذه الدولة هو السلطان سني علي (٨٦٩-٨٩٨هـ/ ١٤٦٤- ١٤٩٢م)، الذي استولى على تنبكت سنة ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م. فإذن لا يمكن أن يكون هناك تجديد لشيء غير موجود أصلا، والنصوص التي بين أيدينا لا تذكر تشييد هذا المسجد في عهد سلاطين سنغي بعد أن توطدت أركان الدولة.

ويذكر قداح[3] بان الذي صمم هذا المسجد وبنى جزءا منه، المعماري

---

(١) يرى جون بوري في حاشيته لكتاب الوزان، (ص٨٤٣) بأن مسجد سنكري هو الأقدم، ولم نجد لهذا الرأي تعضيدا من المصادر التي بين أيدينا فاستبعدناه.

(٢) تاريخ السودان، ص٥٦.

(٣) إفريقية الغربية في ظل الإسلام. ص١٦٠، ويلاحظ أن محمد فودي أول قضاة مدينة جني في عهد آسكيا الحاج محمد.

الإفريقي محـمد فادي في القرن الخامس عشـر، ثم أنفق على إتمام بنائه قضاء تنبكت والملك داؤود عـاهل سنغي في القرن السـادس عشـر. ولكننا لم نهـتد حتى الآن إلى المصدر الذي اسـتقى منه قداح هذا الرأي المتعلق بمحـمد فادي. ولم نعرف من هو محمد فادي وتاريخ حـياته. ولكن رأي قداح يفيد أيضا بأن المسجد قد شيد بعد عام ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م.

وجاء في الفتاش[١] أن مقاييس بناء هذا المسجـد كانت على غرار الكعبة الشريفـة؛ وحول هذا تقـول الرواية التي جاءت في الفـتاش وتتعلـق بالقاضي العاقـب: «وأخبرني بعـض الشيوخ أنه لمـا حج وأراد الانصراف والقـفول إلى تنبكت، استأذن خدم الكعبة المشرفة أن يحد الكعبة ويكيله بقدمه طولا وعرضا فأذنوا لـه وكاله بالحبل طـولا وعرضا. . وجـاء بالحبل المكيل. فلمـا أراد بناء مسـجد سنكري أخرج ذلك الحـبل وكال تلك العـرضة[٢] التي أراد بناءها فيه على الأوتاد على جهاتها الأربع. وبنى عليها وهو على مقدار الكعبة، مازادت ومانقصت عليها بشيء».

وشيـدت معظم أجزاء هذا المسـجد من الحجـر. وعندما مـر به الرحالة الفرنسي رينيه كابيه في عام ١٢٤٤هـ/ ١٨٢٨ كان في حالة جيدة.[٣]

أما فـيمـا يتعلـق بالاسم سنكري، فمن الملاحظ، في ضـوء معلـومات السعدي،[٤] أنه أطلق على حي من أحياء تنبكت، كـان به المسجد الذي عرف بهـذا الاسم: مسجـد سنكري، ومن ذلك قـوله: «. . والفقـيه مـحمد بغـيغ

---

(١) ابن المختار، ص ص١٢١ـ١٢٢.

(٢) هكذا، ربما يقصد العرصة، ولعل التحريف من الكاتب عند الإملاء.

(٣) الإسلام والمسلمون، مرجع سبق ذكره، ص١٥٣.

(٤) تاريخ السودان، ص١١٨.

See, Levtzion, Ancient Ghanah.., op. cit., p. 204.

الونكري هو الذي يفصل بين المولدين المسافرين، والمفتي الفقيه أحمد معيا هو الذي يفصل بين أهل سنكري». وكان ذلك بعد وفاة القاضي العاقب. والشاهد في هذا النص هو أن التعبير «أهل سنكري» يدل بوضوح على أن السعدي يعني بهم أهل حي سنكري. وللسعدي نصوص أخرى تقوي هذا الرأي، منها «وحدثني بعض الإخوان من أهل سنكري»[1]، ومنها ماجاء في معرض الحديث عن سيدي يحيى التادلسي، ونصه «وروي أن طلبة سنكري إذا جاؤوه[2] لأخذ العلم يقول: يا أهل سنكري كفاكم سيدي عبدالرحمن التميمي»[3]. وبجانب هذا عدة إشارات أخرى في تاريخ السودان.[4]

ويلاحظ أن ترمنجهام[5] يحاول التقليل من أهمية هذا المسجد كمعهد أو جامعة إسلامية، فيقول ماترجمته: «إن جامعة نسكري التي قورنت بالأزهر، لم يكن لها وجود. إن سنكري ببساطة هو الحي الذي كان يقطن فيه معظم المدرسين المدينيين في منازلهم، علما بأن بعض الفقهاء درسوا هنا في المسجد». وفي ضوء ما أثبتناه من وجود مسجد سنكري كمعهد تعليمي هام، يظهر خطل الرأي الذي ذهب إليه ترمنجهام؛ فقد كانت مساجد تنبكت هي المعاهد الإسلامية الكبرى في المدينة، مثلما كانت المساجد الكبرى في العالم الإسلامي في تلك الفترة ومنذ فجر الإسلام. وهناك نصوص وإشارات كثيرة تدل بما لا يدع مجالا للشك على أن سنكري كان مسجدا ومعهدا إسلاميا كبيرا، وحيًا من أحياء تنبكت، ومقراً هاما لمناقشة الأمور الخطيرة.[6]

---

(١) تاريخ السودان، ص١٦٩.

(٢) الضمير هنا راجع إلى سيدي يحيى التادلسي.

(٣) تاريخ السودان، ص٥١.

(٤) انظر مثلا الصفحات: ٥٣، ٥٥.

(٥) A Histoty of Islam in W.A., op. cit., p. 98.

(٦) تاريخ السودان، ص١٦٩، وأماكن أخرى متفرقة.

ومن خـلال ما ذكـرناه عن هذا المسـجد يبـدو جليـا أنه كان في مـدينة تنبكت، ولكن هناك من يشك فـي هذا. فالدكـتور زكي[١] يذكر بأن مـسجد سنكري كـان في مدينة جنـي، على الرغم من أن السعـدي[٢]، وهو من أهم مـصـادرنا، يذكـر أنه كـان في تنبكـت. وربما كـان خطأ الدكـتـور زكي في الاستنـتاج، وإن لم يذكر لنـا مصدره في هذا الـزعم. ولكن باحثـا أخر، هو الدكتـور أحمـد فؤاد بليغ[٣] يرى رأي الدكتـور زكي نفســه، ولكنه دلنا على مرجعيه للذين استقى منهما، وهما: دائرة المعارف الإسلامية، مادة «السعدي»، ومقـدمة المستـشرق هوداس للنص الفرنسي لكتـاب «تاريخ السودان» الصفـحة الثامنة، فيذكـر الدكتور بليغ أن المرجعين يفيدان بوجـود مسجد سنكري بمدينة جني، وأن السعدي نفسه ولي إمامة هذا المسجد بعد رحيله من تنبكت إلى جني.

والغريب أن الدكتور بليغ[٤] يعترف بأن السعدي هو مصدره الذي يعول عليه، ويعـترف بإشارة السـعدي في عدة مـواضع إلى أن المسجد مـوجود في تنبكت، ولكنه يميل مع دائرة المعـارف، وهي مرجع، ومقـدمة هوداس، وهي مرجع أيضا، والمرجعـان ليسا مما يعتد برأيهما فـي أمور ثبت قطعيا ورودها في المصادر الأصيلة، مـثل تاريخ السودان[٥] وتاريخ القتاش[٦]. والمتصفح لهذين المصدرين فقط يغنيانه عن كل تأويل أو اجتهاد.

---

(١) المراجع العربية للتاريخ الإسلامي في غرب إفريقية، ومرجع سبق ذكره، ص٢٧.

(٢) تاريخ السودان، ص٢١، ٢٧ وأماكن أخرى متفرقة.

(٣) عبدالرحمن السعـدي، عصره ـ وكتابه تاريخ السودان، مقال نشر بالمجلـة التاريخية المصرية: المجلد العشرون (١٩٧٣م)، ص١٠٣.

(٤) المكان نفسه.

(٥) السعدي، مثلا ص٦٥، زيادة على ماسبق من نصوص للسعدي في هذا الخصوص.

(٦) ابن المختار، انظر مثلا الصفحات: ١٢١، ١٧٢، ١٧٣، والنصوص في هذه الصفحات صريحة.

المطلب الثالث: مسجد سيدي يحيى التادلسي

شيد هذا المسجد محمد نفي، من قبيلة اجر الصنهاجية، وحاكم تنبكت من قبل سلطان التوارق آنذاك السلطان آكل[1]. ولا نعرف تاريخا محددا لإنشاء هذا المسجد، ولكن من المحتمل تشييده حوالي منتصف القرن التاسع الهجري (الخامس عشر). والذي يجعلنا نقول بهذا هو أن فترة حكم التوارق لهذه المدينة كانت أربعين عاماً، من سنة ٨٣٧هـ إلى سنة ٨٧٦هـ[2] ـ (حوالي سنة ١٤٣٣ ـ ١٤٧١م).

وعندما اكتمل تشييد هذا المسجد عين محمد نفي صاحبه وحبيبه الفقيه العالم سيدي يحيى التادلسي المتوفى ٨٦٦هـ/ ١٤٦١م[3] إماماً له.[4]

أما تجديد بناء حرم هذا المسجد فقد تم في عهد السلطان داوود وعلى يدي القاضي العاقب بن محمود أقيت. وتاريخ ابتداء ذلك هو أواخر سنة ٩٧٦هـ/ ١٥٨٣م[5]، وختمه في السنة السابعة والسبعين[6] (١٥٨٤م)، وبعد ذلك مباشرة شرع في حمل اللبن لبناء الجامع الكبير بتنبكت، أي في سنة ٩٧٧هـ/ ١٥٦٩م.[7]

ولقد وصف الرحالة كابيه هذا المسجد حينما مر بتنبكت سنة ١٢٤٤هـ/ ١٨٢٨م.[8]

---

(١) السعدي، ص٢٢، ٥٠ وكثيرا ماعرف بـ«جامع محمد نفي» انظر: المصدر نفسه، ص٢٥٦، ٢١٥، ٢٣٩.
(٢) المكان نفسه.
(٣) المصدر نفسه، ص١٠٨.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٣، ٥٠ وترجمة هذا العالم تجدها في الفصل الخاص بعلماء تنبكت.
(٥) المصدر نفسه، ص٥١.
(٦) المصدر نفسه، ص١٠٩.
(٧) المكان نفسه.
(٨) الإسلام والمسلمون، ص١٥٣.

لم تكن تنبكت تضم هذه المساجد العلمية الثلاثة المشهورة فقط، فقد ذكر لنا السعدي[1] بأنه «في سنة خمس وثمانين وتسعمئة، جدد القاضي العاقب بناء المسجد الذي في سوق تنبكت». وذكر ابن المختار[2] ما يفيد ذلك في قوله: «ثم رجع ـ العاقب ـ لبناء مسجد سوق تنبكت، وهو آخر بنيته رضي الله عنه». وابن المختار يعني هنا بكلمة «بناء» تجديد بناء، وذلك في ضوء النص السابق للسعدي. وهناك مسجد رابع عرف بـ«مسجد خالد». وكان هذا المسجد قائما عندما دخل جودر قائد الجيش المراكشي مدينة تنبكت[3]. ومسجد خامس هو «مسجد القصبة» الذي ولي إمامته الفقيه سعيد بن الإمام محمد كداد سنة ٩٩٩هـ/ ١٥٩٠م بأمر الباشا المراكشي جودر[4]. وجامع سادس هو جامع التواتيين الذي تولى إمامته في فترة ما محمود بن محمد الزغراني التنبكتي[5]. والمسجد السابع هو «مسجد الهناء»، الذي بناه المراكشيون في تنبكت سنة ١٠٣١هـ/ ١٦٢١م[6]. ومسجد ثامن هو «كبر»[7]. وجامع تاسع هو تندرم[8]، وغيرها من المساجد والجوامع.

وهكذا نلاحظ أن القاضي العاقب وحده قام بتجديد أربعة مساجد رئيسة في مدينة تنبكت، وربما جدد أحد غيره من بعده مساجد أخرى كانت أيامه جديدة، ولكن لم تشر إليها الحوليات والمصادر.

---

(١) المصدر السابق، ص١١٠.
(٢) تاريخ الفتاش، ص١٢٢.
(٣) المصدر نفسه، ص١٥٦.
(٤) تاريخ السودان، ص١٤٦.
(٥) المصدر نفسه، ص٢١٥.
(٦) المصدر نفسه، ص١٥٢.
(٧) المصدر نفسه، ص٩١، ١٨٦.
(٨) المصدر نفسه، ص٩١.

وقد أهمل المؤرخون المحدثون ذكر هذه المساجد التي كانت منبثة كالنجوم لتضيء شموع الحضارة الإسلامية في مدينة تنبكت خاصة، وغربي إفريقية عامة، مؤدية رسالتها كاملة بجانب تلك الأقمار الثلاثة.

كانت هذه المساجد الثلاثة التي ذكرناها معاهد تعليمية كبرى ومراكز ثقافية مهمة، مثل الأزهر ووصفائه من المساجد الكبرى الأخرى. فالمرحلة العليا من التعليم في هذه المساجد يشبه ما كان بالأزهر قديماً وما هو كائن اليوم. فما زالت حلقات الدراسة تعقد في الجامع الأزهر وينتظم فيها طلاب معهد الدراسات الإسلامية. والمتخرج في معهد الدراسات الإسلامية يمنح شهادة الإجازة العالية (الليسانس) مثل زميله الذي يتخرج في كلية اللغة العربية أو الشريعة أو أصول الدين أو غيرها من الكليات الأخرى في جامعة الأزهر والجامعات الأخرى.

هذا النوع من التعليم المسجدي يسميه البعض بالجامعات العامة، لانعدام فكرة التخصص الدقيق بها، وهو تعليم إسلامي أصيل، وضعت بذرته الدعوة الإسلامية، ونما تحت ظلالها وفي أحضانها. ولكنني آثرت في بحثي هذا أن أطلق على التعليم المسجدي في غربي إفريقية: «التعليم المعهدي». وفي ضوء هذا المفهوم جعلت عنوان هذا القسم من البحث «تاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غربي إفريقية» لأن المعهد يمكن أن يكون مكانا لتخريج علماء متوسطي الثقافة، وعلماء ذوي ثقافة عليا تعادل ثقافة حملة العالمية (الدكتوراه) اليوم، أو الأستاذية. وسنرى رجالا علماء تخرجوا في معاهد غربي إفريقية الإسلامية، لا يقل مستواهم في التأليف والتحصيل العلمي عن حملة أعلى الشهادات اليوم. ولو عُرِفَتْ هذه الألقاب التي يحملها العلماء اليوم لكانت من نصيبهم عن جدارة واستحقاق، وفي تاريخ التعليم الإسلامي عامة الكثير من الأفذاذ

الذين أغنوا الفكر الإنساني، ولم يحملوا غير لقب فقيه أو شيخ أو عالم؛ أمثال فقهاء المذاهب الإسلامية الأربعة، وغيرهم ممن كانوا أصحاب مذاهب ولم يشتهروا إلا على مستوى الخاصة كالحسن البصري والطبري، وشيوخ الإسلام أمثال ابن تيمية وابن القيم وابن كثير وابن الأثير وابن خلدون. . شيوخ وعلماء لا يمكن حصرهم. لهم باعهم الطويل في الدراسات الفقهية الإسلامية والفلسفية والتاريخية والاجتماعية وغيرها.

ولأهمية دور معاهد غربي إفريقية الإسلامية نلاحظ أن بعض المؤرخين(١) يطلق عليها اسم الجامعات تقديرا لدورها الحضاري في هذه المنطقة، وهناك من أطلق على مدرسيها لقب «دكاترة»(٢). وعن هؤلاء الدكاترة سوف يكون كلامنا في المبحث التالي.

---

(١) W.E.F. Ward, A History of Africa, op. cit., p. 55.

S.J. Hogben, The Muhamadan Emirates:, op. cit. P.46., P. 46, 50.

Lady Lugard, op. cit., p. 202.

R.Oliver, The Dawn of Af. Hist., op. cit., p. 34.

الدكتور حسن محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، مرجع سبق ذكره ص٢٧١.

(٢) Leo Africanus, Vol. 111, op. cit., p. 824.

المبحث الثالث



أشهر علماء معاهد تنبكت

مدخل :

إن أول من أورد ذكره السعدي[1] من العلماء بتنبكت هو الفقيه الحاج جد القاضي عبدالرحمن بن أبي بكر بن الحاج. تولى القضاء بتنبكت في أواخر دولة مالي، وهو أول من أمر الناس بقراءة نصف حزب من القرآن للتعليم في جامع سنكري بعد صلاة العصر وبعد صلاة العشاء. وقد كان مقدمه من والاتا مع أخيه السيد الفقيه إبراهيم. وآثر إبراهيم أن يسكن في بنك[2] إلى أن قبر بها، وله مواقف مشهودة في صد قبائل الموسي عن هذه البلدة.[3] ومن نسل هذا الفقيه علماء آخرون، تولوا مناصب القضاء في مناطق أخرى غير تنبكت، مثل ناحية يندبغ.[4]

ولم نجد مايشير إلى أن الفقيه الحاج من أسرة أقيت، بل وجدنا ما يشير إلى أنه كانت هناك بعض الأمور التي أدت إلى جفاء مؤقت بين أسرة الحاج الذين كانوا قضاة في الأقاليم، وبين الفقيه محمود بن عمر أقيت[5]. لذا لم تضم هؤلاء إلى أسرة أقيت. وأفراد أسرة أقيت يضاف إلى اسمهم «أقيت، أو آندغمحمد»[6]. ويذكر ابن الطيب[7] بأن لفظ «غمحمد» من الألفاظ الدالة

(١) تاريخ السودان، ص٢٧.

(٢) المكان نفسه.

(٣) المكان نفسه. وبنك بلدة قريبة من تنبكت في جهة الجنوب كما يبدو من رواية السعدي عن هجوم قبائل موسي عليها. وقبائل موسي هذه جنوبية.

(٤) المكان نفسه.

(٥) المصدر نفسه، ص٢٨.

(٦) المصدر نفسه، ص ص٢٧ـ٢٨.

(٧) نشر المثاني، مصدر سبق ذكره، ص١٦.

على التعظيم عند أهل غربي إفريقية.

ومن الملاحظ أن الأسماء التي ورد فيها اسم «آندمحمد» لم يرد فيها اسم أقيت على الرغم من أن الأسرة واحدة. وتفسير ذلك أن أسرة أقيت تنقسم إلى فرعين: فرع من جهة الأمهات، وفرع من جـهة الآباء: وفرع «آندغمحمد» من جهة الأمهات. وهناك إشارة لأحمد بابا أوردها السعدي[1] لهذه العلاقة عندما تكلم عن الفقيـه أبي عبدالله آندغمحـمد، فقال: «ومنه تنسل كثيـر من شيوخ العلم والصلاح منهم من جهة الآباء ومنهم من جهة الأمهات».

إن العلماء الذين ينحدرون من أسـرة العالم الفقيه محمـد أقيت بن عمر ابن علي بن يحـيى بن أكـدالة بن بكي بن نيـق بن لق بن يحـيى بن تشت بن تنفرا بن جيراي بن أكنجـر بن أنص بن أبي بكر بن عمر الصنهاجي الماسني[2] يعدّون من أعظم العلمـاء في غربي إفريقيـة في القرون (٩ و١٠ و١١هـ/ ١٥ و١٦ و١٧م). لذا سوف نولي اهتـمامنا الأول في هذا البحث مـبتدئين بجـهد هذه الأسرة المشهورة في التاريخ باسم أسرة أقيت.

محمد أقيت:

هاجر مـحمد أقيت، جـد أسرة أقيت من مـوطنه ماسنة إلى بلدة والاتا

---

(١) تاريخ السودان، ص٢٨٠.

(٢) إن نسب هذا الفقيـه مأخـوذ من مؤلف لم ينشر كـاملاً بعد، وهو قـاموس التراجم المسـمى بـ«فتح الشكور في معرفة أعـيان علماء التكرور»، كتب سنة ١٢١٤هـ/ ١٧٩٩م بواسطة محـمد بن عبدالله ابن أبي بكر الصـديق بن عبدالله بن مـحمد بن الطالـب على الباناتي البارتلي الوالاتـي المتوفى سنة ١٢١٩هـ/ ١٨٠٥م. وقد قام بنشر جزء من هذا المخطوط الأستاذ جون هنوك:

J.O. Hunwick: "A New Source for the Biography of Ahmmed Baba Al-Tunbukti (1956-1627)" B. S. O. A. S. Vol. XXV11 (1904) pp. 574-581.

وهذا النسب يعتـبر أكثر اكـتمالا مما أوردته بعض المصـادر الأخرى مثل: تاريخ السودان للسـعدي،

=

(بير). وسبب هجرته كما يرويه السعدي[1]، حسبما سمعه من حفيد هذه الأسرة الشيخ أحمد بابا التنبكتي، هو بغض محمد أقيت للفلاتة (الفولانيين) الذين كانوا يجاورونه في السكن، فلم يشأ لأبنائه أن يتناسلوا مع هؤلاء الفولانيين.

وبعد هجرته إلى والاتا رغب في السكن بتنبكت، ولكن واجهته مشكلة خلافية قديمة مع حاكمها الاسمي من قبل الطوارق، المدعو آكل أكملول[2]، كما ذكرناه في مكانه. فأقام في مكان خارج المدينة. حتى نجحت الوساطة في التوفيق بينهما، فدخل المدينة[3]، وكان ذلك حوالي منتصف القرن التاسع الهجري[4] (الخامس عشر الميلادي). وأشهر العلماء الذين انحدروا من هذه الأسرة العريقة هم:ـ

وخلاصة الأثر لابن محب الدين، ونشر المثاني للقادري، وصفوة من انتشر للأفراني، وتعريف الخلائف للحفناوي، وإنفاق الميسور لمحمد بللو، وعمدة هذه المصادر الخاصة بالتراجم هو ما حفظه أحمد بابا التنبكتي، سليل هذه الأسرة، عن حياته. في مؤلفه المشهور «كفاية المحتاج». ومن ذكره لنسبه عرفنا سلسلة نسب هذه الأسرة العلمية.

(١) تاريخ السودان، ص٢٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٩.

وكان الحاكم الفعلي للمدينة في هذه الفترة من حكم طوارق مغشرن هو محمد نض، وهو صنهاجي من القبيلة الشنقيطية آجر. وهو الذي بنى مسجد تنبكت وجعل إمامته لصديقه يحيى التادلسي كما ذكرنا. أما آكل فقد بقي على الحال القديمة متنقلا في البراري مفوضا الأمر لمحمد نض، وهو أيضا صنهاجي آجري شنقيطي كما ذكر السعدي ـ في الصفحة الثانية والعشرين ـ وقد لاحظت أن كثيرا من المراجع الحديثة والتي ربما لم تأخذ مباشرة من السعدي وابن المختار تذكر اسم محمد نض محرفا. فتذكره بـ«محمد نادي» ولعل ذلك نتيجة للترجمة من الفرنسية إلى العربية. ومن هؤلاء الدكتور زكي، الإسلام والمسلمون، صفحات: ١٥٣، ١٤٥. ويسمي الدكتور زكي السلطان آكل بـ«عقيل». المرجع نفسه. ص٤٥، وواضع من هذا نقله عن مراجع غير عربية.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٦.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٢.

١ ـ أبوعبدالله آند غمحمد :

بدأت شمس هذه الأسرة تسطع عندما تقلد منصب القـضاء الفقيه العالم أبوعبدالله آند غـمحمد بن محمـد بن عثمان بن محمـد بن نوح، الذي يصفه السعدي[١] بأنه «معدن العلم والفضل والصلاح». وكان تقلده لهذا المنصب الرفيع في فترة حـكم التوارق لمدينة تنبكت في أواسط القرن التاسـع الهجري[٢] (١٥م) وهو جد المؤرخ أحمد بابا التنبكتي. وأول من خدم العلم بهذه المدينة من أجداد هذا المؤرخ.[٣] ومن ذرية هذا الفقيه انحدر كثير من شيوخ العلم والصلاح.

٢ ـ عمر بن أحمد :

هو والد جد أحـمد بابا. وكان عـالما صالحا تتلمـذ على الفقيـه الصالح القاضي مودب محمد الكابري[٤]. وكان حيا حول بداية الثلث الثاني من القرن التاسع الهجـري (الخامس عشر)، لأن شيخ الفقيـه مودب الكابري أدرك علماء من تنبكت في أواخر دولة مالي.[٥]

٣ ـ المختار النحوي :

هو المختار بن عمـر بن أحمد السالف الذكر. اشتـهر بلقب النحوي[٦]، لتضلعه هذا الفن بجانب علمـه بكل فن من فنون العلوم الإسلامية.[٧] عاصر هو ووالده، الفقيه سيدي يحيى التـادلسي. وتوفي أواخر العام الثاني والعشرين بعد تسعمئة[٨] (حوالي سنة ١٥١٦م).

---

(٢) تاريخ السودان، ص٢٨.
(٣) المكان نفسه.
(٤) كفاية المحتاج. ترجمة: أبوعبدالله آندغمحمد.
(٥) السعدي. ص٢٨؛ كفاية المحتاج.
(٦) المصدر نفسه، ص٢٧.
(٧) المصدر نفسه، ص٢٨.
(٨) المكان نفسه.

٤ ـ عبدالرحمن بن عمر :

هو الفقيه العالم عبدالرحمن بن عمر بن أحمد، أخو الفقيه مختار النحوي. كان من الفقهاء المتخصصين في تدريس كتاب «التهذيب للبرادعي[١]»، وقد وصفه السعدي[٢] بالتقوى والحلم.

٥ ـ أحمد بُرْيُ :

هو أبو العباس أحمد بري بن أحمد بن آندغمحمد. كان من العلماء والأتقياء المترفعين عن أغراض الدنيا، المتواضعين لله وللناس[٣]، وتخرج على يديه جماعة كثيرة من شيوخ العلم المتأخرين من أهل سنكري.[٤]

٦ ـ أبو عبدالله بن المختار النحوي :

هو أبو عبدالله آندغمحمد بن الفقيه المختار النحوي بن آند غمحمد، حفيد عمر بن أحمد، والد جد أحمد بابا. تقلد منصب إمام مسجد سنكري. ونعته السعدي بالورع والتواضع والثقة بالله[٥]. وله صيت في العلم بعلوم اللغة العربية ومدح الرسول عليه الصلاة والسلام.[٦] وهو ممن تخصصوا في سرد كتاب «الشفا» للقاضي عياض في شهر رمضان بمسجد سنكري.[٧]

٧ ـ أبو عبدالله آند غمحمد :

هو أبو عبدالله محمد بن الإمام آندغمحمد[٨] السالف الذكر، ابن الفقيه

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٦، ٥٩.
(٢) تاريخ السودان، ص٢٩.
(٣) المكان نفسه.
(٤) المكان نفسه.
(٥) المكان نفسه.
(٦) المكان نفسه.
(٧) المكان نفسه.
(٨) المكان نفسه.

المختار النحوي. وكان مثل والده مادحا لرسول الله ﷺ، وكان من العلماء الذين تخصصوا في سرد كتاب «الشفا» في مسجد سنكري بعد موت أبيه، وظل على هذه الحال إلى أن وافته المنية.[1]

٨ ـ المختار بن محمد :

هو الفقيه المختار بن محمد بن الفقيه المختار النحوي بن آند غمحمد. كان مثل أسلافه مادحا للنبي عليه السلام ومحبا للمادحين. ويروى عنه أنه أنفق كثيرا على المادحين عندما زار المدينة المنورة بعد حجته.[2] وهو الذي حمل رسالة من سيدي محمد البكري العالم المصري (ت ١٥٨٧م) إلى آسكيا نوح بن آسكيا داؤود (ت ١٥٩٥م).[3]

٩ ـ أحمد بن آندغمحمد :

هو أبو العابس الفقيه أحمد بن آندغمحمد بن محمود بن الفقيه آندغمحمد الكبير. كان من أذكياء العلماء، وله معرفة بفنون شتى من المعارف الإسلامية العربية، منها معرفته بالفقه والنحو والشعر وغيرها من الفنون.[4]

١٠ـ عبدالله بن أحمد بري :

هو أبو محمد عبدالله بن الفقيه أحمد بري بن أحمد بن الفقيه آندغمحمد الكبير. وهو من ذريته من جهة الأم والأب لأن أمه أخت الفقيه أبي العباس أحمد بن آندغمحمد[5]. كان مفتيا شرعيا في زمانه، ومن علماء

(١) المكان نفسه.

(٢) المكان نفسه.

(٣) انظر: الفتاش، ص ص١٦٧ـ١٦٨.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٠.

(٥) المكان نفسه.

اللغة، واشتهر بمعرفة علوم القرآن الكريم[١]. ومن أسباطه شيوخ الإسلام الثلاثة: الفقيه عبدالله والفقيه الحاج أحمد والفقيه محمود، أبناء الفقيه عمر بن محمد أقيت.[٢]

١١ـ عبدالله بن عمر (٨٦٦هـ ـ ٩٢٩هـ/ ١٤٦١ ـ ١٥٢٢م)

هو الفقيه عبدالله بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى الصنهاجي المسوفي، شقيق جد أحمد بابا[٣] ـ أحمد بن عمر. كان من الفقهاء الحفاظ. ولم يكتف بممارسة التدريس في تنبكت، بل درس بوالاتا وتوفى بوالاتا.[٤]

١٢ـ أحمد بن عمر (ت ٩٤٢هـ[٥] / ١٥٣٥م)

هو الفقيه أحمد بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي[٦]، أخو عبدالله السابق. وهو جد أحمد بابا. وعرف بالحاج أحمد. كان من أهل الخير والفضل والدين، محافظا على السنة والمروءة، له قصائد شعرية في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام. واشتهر بأنه من المداومين على قراءة الشفا للقاضي عياض. وعن علمه يقول حفيده أحمد بابا[٧]: «. . وكان فقيها نحويا لغويا عروضياً محصلا بارعا حافظا معتنياً بتحصيل العلم ونسخ كتبه. كتب

---

(١) المكان نفسه.

(٢) المكان نفسه.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٨؛ نيل الابتهاج، ورقة ١١٢.

(٤) المصدران والمكان نفسها.

(٥) تاريخ السودان، ص٣٧, ٩١، النيل، ص٦٤. على الرغم من أن السعدي ينقل عن أحمد بابا، إلا أنني لاحظت أن السعدي ذكر تاريخ الوفاة ٩٤٣هـ وأحمد بابا يذكره ٩٤٢هـ في النيل، ولعل الخطأ هنا من الناسخ أو لسهو الناقل.

(٦) نيل الابتهاج. ورقة ٦٤.

(٧) المكان نفسه.

بخطه عدة دواوين وجمع كثيرا من الفوائد والتآليف». ومن أبنائه العلماء الفقيه أبوحفص عمر بن الحاج أحمد: عالم نحوي، ومن الشيوخ الذين كانوا يسردون الشفا في رمضان وامتحن ومات بمراكش.[1] أدى فريضة الحج في عام ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م. ولقي بعض أعلام الفكر في المشرق الإسلامي وعلى رأس أولئك الإمام جلال الدين السيوطي وخالد الأزهري (الوقاد)[2]، ثم قفل راجعا إلى بلاده في زمن حملة سني علي سلطان سنغي على مدينة تنبكت سنة ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م[3]. وهو من العلماء الذين عم نفعهم في غربي إفريقية لأنه دخل كانو وغيرها من المراكز الثقافية، وقام بمهمة التدريس في معاهدها[4]، وتخرج على يديه في تنبكت جماعة من مشاهير العلماء، منهم أخوه الفقيه القاضي محمود بن عمر، الذي درس عليه المدونة وغيرها[5]. ولم يزل دؤوبا ومجتهداً في تعليم العلم وتحصيله حتى توفي عام ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م. وأكبر دليل على مكانته العلمية ومقدرته أنه كتب عدة كتب بخطه، وترك مكتبة بها نحو سبعمئة مجلد[6]، وتعد من أكبر المكتبات إذا قيست بتطور المكتبات منذ النصف الأول من القرن (١٠هـ/ ١٦م) حتى اليوم.

١٣ـ القاضي محمود أقيت: (٨٦٨ـ ٩٥٥هـ[7]/ ١٤٦٣ ـ ١٥٤٨م)

هو شيخ الإسلام أبو البركات الفقيه القاضي محمود بن عمر بن محمد

---

(١) السعدي، ص٣١.

(٢) تاريخ السودان، ص٣٧، النيل. ورقة ٦٤.

(٣) بالمصدرين والمكانين نفسيهما.

(٤) تاريخ السودان، ص٣٧.

(٥) المكان نفسه، النيل، ورقة ٦٤.

(٦) النيل ورقة ٦٤، ٦٥، تاريخ السودان، ص٣٧.

(٧) ابن الطيب، نشر المثاني مصدر سبق ذكره، ص٢٤، السعدي، ص٩٨، شجرة النور الزكية، مصدر سبق ذكره، ص٢٧٨.

أقيت[١] بن يحيى الصنهاجي التنبكتي[٢]، قال عنه أحمد بابا[٣]: «.. قاضيها أبوالثناء وأبو المحاسن، عالم التكرور وصالحها ومدرسها وفقيهها وإمامها بلا مدافع. كان من خيار عباد الله الصالحين. اشتهر علمه وصلاحه في البلاد، وسار صيته في الأقطار شرقا وغربا. وظهرت ديانته وورعه وصلاحه وعدله في القضاء.. لايخاف في الله لومة لايم. يهابه السلاطين فمن دونهم، ويزورونه في بيته فلا يقوم لهم، ولا يلتفت إليهم ويهادونه بالهدايا والتحف.. تولى القضاء عام ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م، فشدد في الأمور وسدد»[٤]. وبجانب توليه منصب القضاء كان يقوم بالتدريس، واشتهر بذلك حتى كثر طلبته في حلقة تدريس الفقه، ونجب منهم جماعة كثيرة، وكان أكثر ما يدرس المدونة والرسالة ومختصر الشيخ خليل، في غربي إفريقية. وكان طلبته يسجلون دروسه عن مختصر خليل، فأخرجوها شرحا في مجلدين. وانتشر هذا الشرح.[٥]

وحج عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م، ولقي في حجه جماعة من مشاهير علماء المشرق، أمثال إبراهيم المقدسي والشيخ زكريا والقلقشندي، واللقاني وغيرهم من علماء مصر.[٦] وتتلمذ عليه والد الشيخ أحمد بابا التنبكتي.[٧]

والقاضي محمود من أبرز علماء هذه الأسرة في عهد آسكيا الحاج محمد عاهل سنغي، وهو والد لثلاثة من مشاهير علماء وقضاة تنبكت، وهم:

(١) السعدي، ص٣٣، شجرة النور الزكية، ص٢٧٨.
(٢) النيل، ورقة ٣٢٣.
(٣) المكان نفسه.
(٤) النيل، ورقة ٣٢٣.
(٥) المكان نفسه.
(٦) المكان نفسه.
(٧) المكان نفسه.

محمد، والعاقب، وعمر، ولهم أخٌ دونهم في الشهرة هو: عبدالله، المتوفى عام ١٠٠٦هـ/ ١٥٩٧م بمراكش. والد العالم أبي زيد عبدالرحمن بن عبدالله.[١]

١٤ـ القاضي محمد أقيت (٩٧٣هـ[٢]/ ١٥٦٥م

هو القاضي محمد بن القاضي محمود أقيت. تولى القضاء بعد وفاة والده المذكور[٣]. كان عالما جليلا من ذوي الفهم والذكاء. ولم يكن له نظير في عصره في الفهم والدهاء ورجاحة العقل[٤] له تعليق على رجز المغيلي في المنطق. وتتلمذ عليه والد أحمد بابا لاسيما تدريسه إياه البيان والمنطق.[٥]

١٥ـ أحمد بن سعيد (٩٣١ـ٩٧٦هـ/ ١٥٢٤ـ١٥٦٨م)

هو أحمد بن محمد بن سعيد، حفيد الفقيه محمود بن عمر من جهة الأم. كان من علماء الفقه المطلعين، ومن حفاظ القرآن المتقنين، ومن مدرسي تنبكت المشهورين.[٦] تتلمذ على جده لأمه محمود بن عمر أقيت، وخاصة في دراسة الرسالة ومختصر خليل[٧]. وقد جلس للتدريس في عام ٩٦٠هـ (١٥٥٢م) إلى حين وفاته. وتزاحم عليه طلاب العلم وانتفعوا به. وله استدراكات في الفقه، وحاشية على مختصر خليل. ومن أشهر تلاميذه أحمد بابا التنبكتي عندما كان صغيرا.[٨]

---

(١) المصدر نفسه، ورقة ١١٢، السعدي، ص: ٣٤، ٢١٤.

(٢) المصدر نفسه، ورقة ٣١٧.

(٣) المكان نفسه.

(٤) السعدي، ص٣٣.

(٥) السعدي، ص٤٠.

(٦) النيل، ص٦٧، السعدي، ٤٣.

(٧) المكانان نفساهما.

(٨) المكانان نفساهما.

١٦ـ القاضي العاقب بن محمود أقيت (٩١٣ ـ ٩٩١هـ/ ١٥٠٧ ـ ١٥٨٣)

هو العاقب بن محمود بن عمر بن محمد أقيت. قال عنه أحمد بابا[١] بأنه كان «مسددا في أحكامه، صلبا في الحق ثبتًا فيه، لا تأخذه في الله لومة لايم. قوي القلب، مقداما في الأمور العظام التي يتوقف فيها غيره، جسورا على السلطان فمن دونه. وقع له معهم وقائع، وكانوا يخضعون له ويطاوعونه في كل ما أراد، إذا رأى ما يكره، عزل نفسه عن القضاء وسد بابه، ثم يلاطفونه حتى يرجع. .» وعنه يقول السعدي[٢]: «فكان عالما جليلا ثاقب الذهن قوي القلب صلباً في الحق. . ذا فراسة، إذا تكلم في شيء لا يخطئ كلامه، كأنه ينظر في الغيب. قد ملأ أرضه بالعدل بحيث لا يعرف له نظير في ذلك من جميع الآفاق.» وقد مر بنا جانب من إصلاحاته للمساجد عندما تكلمنا على مساجد تنبكت الشهيرة.

أدى فريضة الحج، ولقي هناك الناصر اللقاني وأبا الحسن البكري والشيخ البكري وغيرهم من هذه الطبقة، وأجازه اللقاني في جميع ما يجوز له وعنه، وأجاز العاقب بدوره أحمد بابا وكتب له الإجازة بخط يده.[٣]

١٧ـ بابكر بير (٩٣٢ ـ ٩٩١هـ/ ١٥٢٥ ـ ١٥٨٣م)

هو الفقيه أبوبكر المعروف بـ بابكر بير بن الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت، وهو أخو الفقيه عمر بن الحاج، وهو نموذج حي للعلماء الذين يقومون بالتدريس وينفق على تلاميذه المحتاجين، لاسيما الأيتام[٤]. وقد رحل مع

---

(١) النيل، ص ص١٨٠ ـ١٨١، السعدي، ص: ٤٠.

(٢) السعدي، ص٣٤.

(٣) النيل، ص١٨١.

(٤) السعدي، ص٣٢، النيل، ٧١.

عائلته في حـجته الثانية وأقـام مجاورا بالمدينة المنورة[١]. وهو عم أحمد بابا، وأول من درس عليه أحمـد بابا علم العربية[٢]، وعنه قال: «ما رأيت قط مثله ولا من يقرب منه في معناه»[٣] وله مؤلفات صغيرة في التصوف وغيره حسبما يقول أحمد بابا[٤]، ولكنه لم يسمها لنا.

١٨ـ أحمد بن أحمد (٩٢٩ ـ ٩٩١هـ[٥] / ١٥٢٢ ـ ١٥٨٣)

هو الفقـيه أبوالعباس أحـمد بن أحمد بن عـمر بن محمـد أقيت، والد الفقيه والمؤرخ أحمد بابا التنبكتي. قال عنه ابنه أحمد بابا[٦]: «كان رحمه الله تعالى علامة فـهامة ذكيا داركا مـحصلا مفننا[٧] محدثا أصوليا بيـانيا منطقيا، وكان رقيق القلب عظيم الجاه وافر الحرمة عند الملوك وكافة الناس، نفاعا بجاهه لاترد له شـفاعـة، يغلظ على الملوك فـمن دونهم وينقـادون له أعظم الانقيـاد ويزورونه في داره» فعندما مـرض في إحدى سفراته إلى عـاصمة سنغي الأولى كاع (جاو) كـان يزوره ليلا السلطان آسكيا داوود فـيؤانسه حتى عـافاه الله من المرض. وكان السلطان يفـعل ذلك تعظيمـا لمكانته[٨]. وقد اهتم كثـيرا بجمع الكتب الثمـينة حتى تكونت لديه مـكتبة ضـخمة فـتحهـا لكل من يرغب في الاستعارة[٩]، وكان من تلاميذه عمه شيخ العصر، محمود بن عمر.[١٠]

(١) السعدي، ص٣٢.
(٢) النيل، ص٧١.
(٣)المصدر نفسه في ٧٢.
(٤) المكان نفسه.
(٥) المصدر نفسه، ورقة ٦٦.
(٦) النيل، ورقة٦٦، السعدي، ص٤٢.
(٧) تعني كلمة (مفنناً) العالم الذي يجيد أكثر من لون من المعرفة والعلوم.
(٨) السعدي، ص٤٢، الفتاش، ص١١٥.
(٩) السعدي، المكان نفسه.
(١٠) السغدي، ص٤٢، النيل، ص٦٦.

رحل إلى الحج في سنة ٩٥٦هـ/ ١٥٤٩م وزار المدينة. ولقي في مصر بعض مشاهير الشيوخ أمثال: الشيخ الناصر اللقاني والشريف يوسف الأرميوني، تلميذ السيوطي، وجمال الدين بن الشيخ زكريا، والشيخ التاجوري، والأجهوري وغيرهم من هذه الطبقة، فاستفاد منهم. وقال التنبكتي[١] إنه لقي بالحجاز جماعة من كبار العلماء منهم: بركات الحطاب[٢] وعبدالمعطي السخاوي[٣]، وأجاز بعضهم.[٤]

وعندما عاد من الأراضي المقدسة جلس للتدريس والتأليف، فألف شرح تخميسات العشرينيات الفزارية لابن صهيب في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم يكتمل هذا العمل. وألف شرحا في منظومة المغيلي في المنطق شرحا جامعا، وكتب حاشية على شرح التتائي[٥] على خليل نبه فيه على مواضع السهو منه، وشرح جمل الخونجي، وصغرى السنوسي والقرطبية. وكانت عادته أن يجلس في المسجد لتدريس صحيح البخاري في رجب وشعبان ورمضان، واستمر على هذه العادة لمدة خمس وعشرين سنة. وعندما مات كان يدرس صحيح مسلم. وكان شيخا لكثير من علماء تنبكت البارزين، منهم: أحمد ومحمد بغيغ وعبدالله وعبدالرحمن بن محمود أقيت وابنه أحمد بابا[٦].

---

(١) النيل، ورقة ٦٦.

(٢) هو بركات بن محمد بن عبدالرحمن الحطاب المكي المتوفي بعد سنة ٩٨٠هـ/ ١٥٧٢م في سن كبيرة، ومن مؤلفاته: شرح على خليل. انظر: شجرة النور الزكية، مصدر سبق ذكره، ص٢٧٩.

(٣) هو أبومحمد عبدالمعطي بن أحمد بن محمد السخاوي المدني، من بيت علم وفضل، له تآليف منها تفسير القرآن الكريم، وتاريخ المدينة.وشرح الشامل، توفي بعد سنة ٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م.
انظر: شجرة النور، ص٢٧٢.

(٤) النيل، ورقة ٦٦.

(٥) هو أبوالحسن جمال الدين يوسف بن حسن بن مروان التتائي، يعرف بالهاروني. ولد سنة ٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م. ولم يعرف تاريخ وفاته. انظر: شجرة النور الزكية ص٢٧٣.

(٦) النيل، ورقات ٦٦-٦٧.

وبرع في الأدب والفقه والحديث. وكفى في عزه وشرفه ما خاطبه به السيد الولي أبوعبدالله محمد البكري[1] في قصيدته المرسلة إليه حين غاب عنه بعد حجته التي التقى فيها بالبكري، ومنها[2]:

أَحِبَّتَنا واللهِ إني على عهدي | وحبّي لكم حبي وَوُدي لكم وُدّي
ولم أنسَ أيام التداني وطيبَها | وأوقاتَنا مابين عور إلى جدي
وإني على ذكري لكم وتوجهي | إلى الله فيما ترتجون من الرفدّ
وأسأله في كل وقت مكرم | بتحقيق ما تبغون من واسع المدّ
لعمر ودين ثم أولادكم وما | ترومون من فضل يفيض بلا حدّ

١٩ـ عمر محمود أقيت (ت ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م)

هو أبوحفص القاضي عمر بن محمود بن عمر بن محمد أقيت[3]. من العلماء الذين برعوا في علم الحديث والسير والتاريخ وأيام الناس، وبلغ الغاية القصوى في الفقه[4]، حتى قال عنه بعض من عاصره من الشيوخ: «إنه لو كان موجودا في زمن ابن عبدالسلام بتونس لاستحق أن يكون مفتيا فيها»[5] وهذه العبارة التي أوردها السعدي دليل على مكانة هذا الرجل العلمية، ودليل على أن علماء غربي إفريقية كانوا لا يقلون في مستواهم الفكري عن علماء المغرب.

والقاضي عمر من الذين حلت بهم كارثة تنبكت أيام الفتح المراكشي،

---

(١) لعل المعني هنا هو محمد بن محمد الكرخي البكري، الشافعي، بدرالدين أبوعبدالله المفسر الفقيه الأصولي الفرضي المتوفى بمصر سنة ١٠٠٦هـ/ ١٥٩٨. وله عدة مؤلفات. انظر: معجم المؤلفين، جـ١١، ص٢٦١.

(٢) الفتاش، ص ص٢٢ـ٣٢.

(٣) السعدي، ص٣٤.

(٤) المكان نفسه.

(٥) المكان نفسه.

وأخذ أسيرا إلى مراكش، ومات بها.[1]

٢٠ـ أحمد بابا التنبكتي (٩٦٢ـ١٠٣٦هـ/ ١٥٥٥ـ١٦٢٧م)

إن أكمل ترجمة لحياة هذا المؤرخ والعالم الكبير ماجاء في مخطوط «فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور» الذي أشرنا إليه عندما تكلمنا عن نسب أسرة أقيت[2]. فهو أحمد بابا بن الحاج أحمد بن الحاج أحمد بن عمر ابن محمد أقيت.[3]

اجتهد في بداية أمره في خدمة العلم حتى فاق جميع معاصريه، ولا يناظره في العلم إلا أشياخه الذين شهدوا له بالعلم.[4]

إن هذا العالم يعتبر عمدة مصادرنا لتاريخ التعليم الإسلامي في غربي إفريقية في الفترة الزمنية التي هي مجال البحث. واسمه معروف لدى كل الدارسين والمطلعين على تاريخ المغرب وغربي إفريقية. وكان السعدي وصاحب الفتاش عالة عليه، وعنه نقلا فقرات بأكملها، وهو النبع الفياض الذي استقى منه كل الكتّاب الذين عالجوا جوانب من قضايا تاريخ غربي إفريقية.

استفاد طلبة وعلماء المغرب من وجوده بينهم عندما جاء أسيرا إلى مراكش في المحنة المشهورة؛ فقد جلس بجامع الشرفاء بمراكش للتدريس، وازدحم عليه الخلق وأعيان الطلبة، بل تتلمذ عليه قضاة مراكش.[5]

---

(١) See: Hunwick, A New Source, op. cit., p. 574.

(٢) وقد اعتمد هنوك على أربع نسخ من مخطوط «كفاية المحتاج لمن ليس في الديباج» لأحمد بابا، لمقارنة ماورد من أسماء في فتح الشكور وفي الكفاية.

(٣) انظر بقية النسب، ص١٩٥ من هذا البحث وفي المصادر الآتية: النيل، ورقة ٣٤١، نشر المثاني، ص١٥١، صفوة من انتشر، ص٥٢، السعدي، ص٢١٨.

(٤) Hunwick, op. cit., p.574.

(٥) Ibid., p. 578، شجرة النور الزكية، ص٢٩٨.

أخذ بتنبكت العلوم الإسلامية عن أقاربه من أسرة أقيت وغيرهم[١]، وتضلع من العلوم الإسلامية، واهتم بجمع كتبها حتى بلغت مكتبته حوالي ستمئة وألف مجلد[٢]، ويروى أنه كان يقول بأن هذه المكتبة تعتبر أقل مكتبة لعالم في تنبكت[٣]. ولو افترضنا المبالغة في هذا الرقم لكانت صيغته تحمل دليلا كافيا على اهتمام العلماء بالاطلاع الواسع والتعمق في الدراسة والاستعداد الفكري للقيام بمهمة أستاذ الجامعة. وكما يقول الافراني فقد فنيت كل هذه المكتبات عندما اقتيد علماء تنبكت إلى الأسر في مراكش سنة ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م.[٤]

ولأحمد بابا مواقفه الشهيرة والشجاعة مع السلطان المراكشي عندما قابله بعد مجيئه من تنبكت. وشاء الله أن يعود هذا العالم إلى تنبكت سنة ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥م[٥] ليواصل مهمة التدريس والإرشاد حتى وفاته. وخلف وراءه نتاجا كبيرا من المؤلفات التي تدل على طول باعه في التأليف والفتوى وسعة الاطلاع وحسن الاستيعاب. وقد جاوزت مؤلفاته الأربعين[٦] مؤلفا، ذكر منها صاحب «فتح الشكور» تسعة وثلاثين مؤلفا[٧]. نذكر منها هنا ماذاعت شهرته:

١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج، وأحيانا يسمى نيل الابتهاج بالذيل على الديباج، لأنه ذيّل به ديباج ابن فرحون.

---

(١) نشر المثاني، ص١٥١، كفاية المحتاج، تراجم علماء أسرة أقيت.

(٢) الأفراني: صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، ص٥٢.

(٣) شجرة النور الزكية، ص٢٩٩؛.

W.E.F. Ward, A History of Af., op. cit., p. 70.

(٤) الأفراني، المصدر السابق، ص٥٣، شجرة النور، ص٢٩٩.

(٥) نشر المثاني، ص١٥١. Hunwick, A New Source, p. 577.

(٦) إنفاق الميسور، ص٢١٩، نشر المثاني، ص ص١٥١ـ١٥٢.

(٧) Hunwick, A New Source, op. cit., pp. 578-80.

٢) كفاية المحتاج لمعرفة من ليس بالديباج.
٣) الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان.

ولو كان لأحمد بابا الكتاب الأول فقط لكفاه أن يكون من عظماء كتاب التراجم في عصره.

وتكفي أحمد بابا شهادة ابن أبي دينار[١] التي نصها «والشيخ أحمد صاحب اطلاع، وهو من أكابر علماء وقته...»

وكل هؤلاء العلماء الذين ذكرناهم من أسرة أقيت. أما أشهر العلماء من غير أفراد هذه الأسرة فهم:

٢١ـ القاضي مودب محمد الكابري:

كان من أصاب الحلقات الدراسية في مسجد سنكري. وهو شيخ شيوخ تنبكت الذين عاصرهم أمثال الشيخ عبدالرحمن التميمي ويحيى التادلسي وعمر ابن محمد أقيت.[٢]

وموطن هذا الشيخ هو كابرا، ميناء تنبكت الشهير، ولم يكن العالم التنبكتي الوحيد الذي ترجع نسبته إلى بلدة كابرا، بل كان معه الكثيرون، والذين دفنوا معه في روضته فقط ثلاثون كابرياً، وكلهم من العلماء[٣]. وفي هذا دليل على أن تنبكت كانت محط أنظار العلماء والطلاب من جميع أرجاء غربي إفريقية، والعلماء من جميع أنحاء العالم الإسلامي المعاصر آنذاك.

وقد رثاه تلميذه الفقيه سيدي يحيى التادلسي بأبيات شعرية ذكرنا أبياتا منها في الصفحات السابقة.[٤]

(١) المونس، مصدر سبق ذكره، ص٩.
(٢) السعدي، ص٤٧.
(٣) المصدر نفسه، ص٤٨. ومن العلماء المشهورين بتنبكت من أصل كابري، الفقيه صديق بن محمد تعلي.
(٤) انظر ص٤١٤ـ٤١٥ من هذا الكتاب.

٢٢- كاتب موسى :

من أئمة المسجد الجامع المشهورين. وهو آخر من تولى منصب الإمامة فيه من علماء المنطقة المحليين الذين يطلق عليهم السعدي[١] اسم «السودانيين»، وهو يعني بذلك السود من أهل غربي إفريقية. وقد كانت الإمامة منذ أن ابتدأت في المسجد الجامع بتنبكت في أيدي هؤلاء السودانيين، فكانوا أئمة في دولة مالي وجزء من دولة التوارق على تنبكت[٢]. ومكث كاتب موسى في الإمامة أربعين عاما متواصلة، ولم يتخلف ولو في صلاة واحدة، لما حباه الله من صحة وعافية، بين سببها عندما سئل عن ذلك.[٣]

وبجانب توليه منصب الإمامة كان يشغل منصب القاضي، كما يفهم من قول السعدي[٤]: «ولا يقضي بين الناس إلا في رحبته «سُسُ دبي» في وراء داره من جهة المشرق، تنصب له المنصة تحت شجرة كبيرة».

٢٣- سيدي يحيى التادلسي (ت ٨٦٦هـ/ ١٤٦١م)

وهو يحيى بن عبدالرحيم بن عبدالرحمن الثعالبي بن يحيى البكاء بن أبي الحسن علي بن عبدالله بن عبدالجبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن قصي ابن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطال بن أحمد بن محمد بن عيسى بن محمد الحسن بن علي بن أبي طالب، هكذا أورد نسبه السعدي.[٥]

---

(١) تاريخ السودان، ص٥٧.

(٢) المكان نفسه (وسبب صحته كما قال: عدم المبيت في الهواء ودهن الجسم ليلا والاستحمام فجرا بالماء الساخن وتناول طعام الإفطار قبل الخروج إلى صلاة الصبح).

(٣) المكان نفسه.

(٤) المكان نفسه.

(٥) تاريخ السودان، ص٥٠، ٥١.

قدم هذا العالم إلى تنبكت في مطلع حكم الطوارق لهذه المدينة.[1] وقد كانت فترة حكم الطوارق بين عامي ٨٣٧هـ ـ ٨٧٦هـ/ ١٤٣٣ ـ ١٤٧١م[2]، وعند قدومه تلقاه بالترحاب صديقه محمد نض حاكم هذه المدينة من قبل سلطان الطوارق، فأحبه وأكرمه غاية الكرم. وأقام الحاكم محمد نض مسجدا وجعله إماما عليه، وعرف بمسجد سيدي يحيى، وقد تكلمنا عنه. وفي فترة توليه الإمامة بلغ الغاية القصوى في العلم والصلاح، وانتشر ذكره في الآفاق، وامتدحه عميد أسرة أقيت القاضي محمود بأنه أفضل من دخل تنبكت من العلماء[3]، وقال عنه أبوزيد عبدالرحمن بن محمود أقيت: «فواجب على أهل تنبكت أن يزوروا روضة سيدي يحيى للتبرك في كل يوم ولو كانت منهم على مسافة ثلاثة أيام».[4]

كان هذا الشيخ مثالا للعالم العامل. فقد كان يعمل بالمعاملات التجارية، وديدنه في ذلك ألا يحتاج إلى الناس في شيء من أمور المعيشة[5]، ذلك بجانب عمله إماماً ومدرساً في مسجده ومنزله[6]. وله أبيات شعرية حسنة في رثاء شيخه مودب محمد الكابري[7]، منها:

تذكر ففي التذكار جُلُّ الفوائد	وفي طيه ورد على خير وارد
وفي نقص هذي الأرض للحجر عبرة	مِن اطرافها يبدو ومن كل ماجد

---

(١) المكان نفسه.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٢.

(٣) المصدر نفسه، ص٥٠.

(٤) المكان نفسه.

(٥) المكان نفسه.

(٦) المصدر نفسه، ص٥١.

(٧) انظر هذه الأبيات الكاملة في: المصدر نفسه، ص٤٩.

وبالقبض للنظار في العلم قبضة وفي ذاك إنذار بقرب الشدائد
أطلاب عم الفقه تدرون ما الذي يثير هموم القلب من كل وافد
يثير هموم القلب فقد سميدع[1] فقيه حليم حامل للفرائد
لحسن تعليم مقرب فهمه وفتاق تهذيب بحسن الفوائد
محمد الأستاذ مودب ذي النهى رباطا صبارا أمره في التزايد
فيا عجبا هل بعده من مبين ويا عربا هل بعده من مجالد
فلولا التعزي بالنبي وصحبه وأعلام علم الدين منه وراشد
لحق لدمع العين سحٌ على الأُلى لإفناء أشباح وإطفاء واقد
أينكر ذو حجر زحاما لحمله ففي السالف الأمسى قوي التكابد
إذا انكسر النعشان من تحت سالم ومن أمّنا الغرا زيادة واحد
وفي ذاك تعظيم وحسن تأدب مع الصالح الموفي بعهد المتالد

٢٤ـ مَسرَبُوب الزعراني :

كان من أصدقاء الفقيه العالم محمود بن عمر أقيت، وقد اشتهر بالعلم والفضل والخير والصلاح على الرغم من أنه ينحدر من قبيلة زعران التي يصفها السعدي[2] بأنها لا تعرف بالصلاح ولا بحسن الإسلام.

وكان من أهل الثقة العلمية عند أسرة أقيت، والدليل على ذلك أن الفقيه

---

(١) يلحظ أن الدكتور زبادية يسمي هذا العالم بـ«محمد سميدع» وحسب علمي أن هذا ليس صحيحا، لأن اسم العالم الذي يرثيه التادلسي هو مودب محمد الكابري الذي ورد اسمه صراحة في الشطر «محمد الأستاذ مودب ذي النهى» أما سميدع فصفة أطلقها الراثي على أستاذه، ومعناها اللغوي: السيد الكريم الشريف السخي الموطأ الأكناف والشجاع الذئب، والرجل العفيف في حوائجه. انظر: مملكة سنغي لزبادية، ص١٤٨.
انظر: ترتيب القاموس المحيط لأحمد الزاوي الطرابلسي، جـ٢، ص٥٧٤.

(٢) تاريخ السودان، ص٥١.

عبدالرحمن بن الفقيه محمود بن عمر أقيت تتلمذ عليه في أول الأمر حتى إنه أصبح يحترم كل زعراني. وروى السعدي[1] بأن الفقيه عبدالرحمن هذا صلى صلاة الجنازة على زعراني من أجل شيخه مسر بوب.

٢٥ـ الفقيه صديق تعلي:

وهو الفقيه صديق بن محمد تعلي الكابري الأصل والجنجوي[2] المولد. يصفه السعدي[3] بأنه كان فقيها عالما فاضلا خيرا صالحا.

والفقيه صديق عالم من علماء البلدان القريبة والمجاورة لمدينة تنبكت، الذين جاؤوا لينهلوا من منابع العلم في هذه المدينة العريقة. رحل إليها هذا العالم من بلدته جنج على الرغم من أنه كان صاحب مدرسة فيها، وله طلابه النجباء. والرواية التي وصلتنا حول سبب رحيله إلى تنبكت تبين لنا مدى حرصه على الاستزادة من العلم، وتوضح لنا مدى تقدم الفكر الإسلامي في مدينة تنبكت. ورواية سبب ارتحاله تقول: «إنه صور له مسألة من مسائل الفقه في مدرسته يوما واحدا. وهناك من طلبته الذي ارتحل إلى تنبكت بعدما قرأ عليه ماقرأ، ثم رجع إلى جنج. فقال: صورة هذه المسألة ليست كذلك على ماسمعت من الفقهاء في تنبكت. فقال الشيخ: وماهي؟ قال كذا وكذا، قال: ضيعنا عمرنا باطلا. فَمِن هذا ارتحاله رضي الله عنه.»[4]

---

(١) تاريخ السودان، ص٥٢.

(٢) نسبة إلى بلدة جنج القريبة من تنبكت كما يفهم من السعدي، ويبدو لنا أن الدكتور النقر قد خلط بينها وبين جني، حين ذكر أن صديقا هذا أصله من جني، انظر:
The Pilgrimage Tradition in W.A. op. cit., p. 126.
وتاريخ السودان، ص٦١، وقد ذكرها السعدي في أكثر من مرة ومناسبة، والفرق عنده بين جني وجنج واضح، تماما لا سيما في قصة الفقيه مور مع كنكي الذي رحل من جني إلى جنج كما أثبتناه.

(٣) تاريخ السودان، ص٦١

(٤) المصدر نفسه، ص٦٢.

وفي تنبكت تولى الفقيه صديق إمامة المسجد الجامع لمدة أربع وعشرين سنة. وخلفه في الإمامة عالم فلاني يدعى الفقيه كداد. وخلفه بعد ذلك الفقيه أحمد بن الإمام صديق تعلي بأمر القاضي العاقب بن محمود أقيت[١]. وكان الإمام أحمد آخر أئمة الجامع الكبير في دولة سنغي، وظل في الإمامة أيضا على عهد السيادة المراكشية.[٢]

وأدى الفقيه صديق فريضة الحج والتقى بجماعة من أعلام الفقهاء مثل الشيخ محمد البكري.[٣]

٢٦ـ محمد بَغْيُغُ[٤] (٩٣٠ ـ ١٠٠٢هـ/ ١٥٢٣ ـ ١٥٩٣م)

هو ابن الفقيه القاضي محمود بن أبي بكر بغيغ. تولى والده قضاء جني بعد وفاة قاضيها العباس كب سنة ٩٥٩هـ/ ١٥٥١م.[٥] ولمحمد بغيغ أخ عالم وهو أحمد بغيغ.[٦] ومحمد بغيغ من أشهر شيوخ أحمد بابا وتلميذ لوالده.[٧]

كان محمد بغيغ من العلماء المتعددي التخصص، العاملين الناصحين للناس بمحبة العلم وملازمة التعليم كل العمر، ويبذل الكتب النفيسة لمن يرغب فيها دون السؤال عن إرجاعها له، ودون التحقق من شخصية المستعير، وكان ذلك سببا في ضياع الكثير من مكتبته القيمة.[٨]

وكان ذلك مثار عجب الناس كما جاء على لسان السعدي[٩]. وفي

---

(١) تاريخ السودان، ص٦٢.
(٢) المكان نفسه.
(٣) المصدر نفسه، ص٦١.
(٤) بباء مفتوحة فغين معجمة ساكنة فياء مضمومة فغين معجمة مضمومة، هكذا ضبطه السعدي. انظر: المصدر نفسه ص٤٣.
(٥) المصدر نفسه، ص١٩.
(٦) لأحمد هذا ابن من العلماء اسمه إسحاق إبراهيم، انظر: الفتاش، ص١٨٢.
(٧) المصدر السابق، ص٤٣، ٤٥، النيل، ورقة ١٣٥.
(٨) تاريخ السودان، ص٤٤.
(٩) المكان نفسه.

قوله: «فكان العجب العجاب في ذلك إيثارا لوجهه تعالى مع محبته للكتب وتحصيلها شراء ونسخا». وكان أيضا مثار عجب معاصريه في الصبر على إيصال الفائدة للبليد من التلاميذ بلا كلل أو ملل أو ضجر[1]. وبرنامجه الدراسي اليومي، والكتب التي درسها أحمد بابا على يديه، تدل على طاقة فائقة في حقل التعليم.[2] فقد كان خلفا صالحا لسلفه الخير وأستاذه سيدي أحمد بن سعيد.[3]

أدى فريضة الحج مع أخيه وخاله، ولقوا في طريقهم إلى الحجاز بعض أعلام الفكر المصريين أمثال الناصر اللقاني والتاجوري والشريف يوسف الأرميوني والإمام محمد البكري، وغيرهم،[4] فأفادوا منهم وأفادوهم.

وللفقيه محمد تعليقات وحواشٍ نبه فيها على ما وقع لشراح مختصر خليل وغيره من الخطأ، وتتبع مافي الشرح الكبير للقاني من السهو.[5]

لقد كانت العلاقة بين أسرة أقيت ومحمد هذا علاقة وثيقة، وسيرته في نشر العلم والدين والعدل لاتختلف عن سيرة آل أقيت. وعندما حلت نكبة الغزو المراكشي بعلماء تنبكت عامة وأسرة أقيت خاصة كان هو النبراس الباقي في تنبكت لينير للناس طريق الحق. وقد جاءت قصته مع الغزاة في «تاريخ الفتاش»، وموقفه الشجاع مع الباشا المراكشي حين أراد منه الباشا أن يكتب شهادة ضد من أسر من الفقهاء ونفي إلى مراكش، ليتخذها حجة على إدانتهم بالمروق عليه وتعاونهم مع السلطان نوح، عاهل سنغي المناهض للاحتلال.

---

(١) المكان نفسه.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٥، ٤٦.

(٣) المكان نفسه.

(٤) المكان نفسه.

(٥) المصدر نفسه، ص ص٤٦-٤٧.

وأبى الشيخ محمد أن يشهد بذلك، وهو يعلم أن الإباء يعني قطع اليد كما هدده بذلك الباشا؛ أبى أن يفعل حتى ولو فصل رأسه عن جسده. وكانت النهاية أن عفا عنه الباشا إكباراً منه لنبل موقفه وورعه، وأصبح بعد ذلك محل احترام الباشا، وصاحب شفاعة عنده لكثير من أهل تنبكت.[1]

٢٧ـ أسرة كعت[2] (منذ منتصف القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي)

اشتهر من هذه الأسرة خمسة أعلام علماء مؤرخين، هم: القاضي محمود كعت وأبناؤه: الفقيه إسماعيل محمود كعت ويوسف محمود كعت ومحمد الأمين محمود كعت، وحفيده ابن المختار.

وعميد هذه الأسرة المشهور هو القاضي محمود كعت بن الحاج المتوكل كعت حسبما جاء في صدر كتاب «تاريخ الفتاش»، الذي اشترك في جمع مادته هؤلاء العلماء الخمسة. وكان محمود كعت من العلماء المرموقين في تنبكت. وكان مقربا لدى السلاطين. واهتم بكتابة تاريخ بلاده كما هو واضح من الجزء الأول لكتاب «تاريخ الفتاش». وساعدته مكانته الرسمية كقاضي أن يورد أخبارا مفيدة عن كثير من الأحداث التي وقعت في صدر دولة سنغي.

أما إسماعيل ويوسف فقد جاءت أهميتهما من الأحداث التي سجلاها عن دولة سنغي بعد أن توقف والدهما عن الكتابة، ثم جاء من بعدهما ابن أخت لهما وحفيد لأبيهم محمود كعت فجمع ماترك الجد والأخوال في كتاب عرف باسم «تاريخ الفتاش..» وقد تكلمنا عن هذا كله في تقييمنا لهذا الكتاب في صدر هذا الكتاب.

---

(١) الفتاش، ص ص١٧٥ـ٧٨.

(٢) الفتاش، أماكن متفرقة.

٢٨ـ عريان الرأس (ت١٠٢٠هـ/ ١٦١١م)

هو الفقيه أبو عبدالله محمد بن محمد بن علي بن موسى عريان الرأس. كان من عباد الله الصالحين الزاهدين الأسخياء،[١] ومن أصدقاء الفقيه أحمد ابن الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت[٢]، والد أحمد بابا، ومن تلاميذ الفقيه عبدالرحمن ابن الفقيه محمود. ويسميه أهل سنكري بـ«محمد ولد أد علي».[٣]

٢٩ـ الأمين بن أحمد (ت ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م

كان هذا الفقيه من شيوخ السعدي، والدليل على ذلك قوله: «شيخنا الأمين بن أحمد»[٤]، وقوله: «وكنا جماعة نعرض على شيخنا الفقيه الأمين كتاب دلائل الخيرات»[٥]. وقد بز أقرانه ومعاصريه من علماء تنبكت في المعرفة، إذ كان صاحب تخصصات متعددة نوه إليها السعدي[٦] في قوله: «فقيه نحوي تصريفي لغوي، له حظ في معرفة الصحابة».

٣٠ـ عبدالرحمن السعدي (١٠٠٣ ـ ١٠٦٦هـ/ ١٥٩٦ ـ ١٦٥٥م)

ورد اسمه كاملا في صدر كتابه «تاريخ السودان»[٧]، وهو الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله بن عامر السعدي. ينتمي إلى أسرة من الفقهاء في تنبكت حيث كان منبته. وشهد الاحتلال المراكشي لدولته سنغي ومدينته

---

(١) تاريخ السودان، ص٥٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٣.

(٣) المكان نفسه.

(٤) المصدر نفسه، ص٥٥.

(٥) المصدر نفسه، ص٥٦.

(٦) المصدر نفسه، ص ص٥٥ـ٥٦، ٢٤٧.

(٧) ورد أيضا على صفحة ٢١٣ من المصدر نفسه، ولكن يلاحظ أنه في الصفحة نفسها (٢١٣) وفي صفحة ٢١٦ غيّر كلمة «السعدي» إلى «السعيدي».

تنبكت، وصور لنا جانبا مهمًا من تاريخ الاحتلال المراكشي لهذه البلاد. وكان لكتابه «تاريخ السودان» الفـضل الأكبر في إبراز صورة الحضارة الإسـلامية في غربي إفريقـية عامة، ومـدينتي تنبكت وجني خاصة. فهـو مؤرخ دولة سنغي الإسلامية أولا، ودولة مـالي الإسلامية ثانياً. والمتصـفح لهذا الكتاب يمكنه أن يدرك مـدى أهميـة هذا الكتاب في تاريخ التـعليم والفكر الإسـلاميين وحـياة العلماء في غـربي إفريقـية. وعن أهميـة كتابه يمكـن الرجوع إلى مقـدمة هذا الكتاب الخاصة بمصادر الكتاب.

وقد تقلد السعدي عـدة مناصب إدارية في دولة باشوات مراكش بتنبكت إلى أن وُوريَ الثرى.[1]

خاتمـــة:

إن هؤلاء الأعلام الذين ذكرناهم، أغنوا الحياة العلمـية في غربي إفريقية عامة، وفي تنبكت خاصة. وكان مستواهم العلمي والفكري لايقل عن المستوى الذي كـان سـائدا آنذاك في مـعاهد الـتعليم الإسـلامي المنتـشـرة في العـالم الإسـلامي. وهناك رواية مشـهـورة تدل على رسوخ قـدم تنبكت في التـعليم الإسلامي، وهي أن الفقيه عبدالرحمن التـميمي، الذي جاء من الحجاز بصحبة السلطان منسا موسى حين آب من حجته المشهورة، وسكن تنبكت، وجد البلد حافلا بالفقهاء الذين يفوقونه في العلم، فرحل إلى فاس. وتفقه هناك ثم رجع إلى تنبكت مرة أخرى ليمارس التعليم.[2]

وكان الفقيه التميمي من المشهود لهم بالكفاءة في التعليم، حتى إن الفقيه

---

(١) تاريخ السودان، ص٢٤٥، ٢٧٦، ٢٧٧.

(٢) المصدر نفسه، ص٥١.

سيد يحيى التادلسي كان يقول لطلبته في سنكري: «يا أهل سنكري كفاكم سيدي عبدالرحمن التميمي»[1]، وفي هذا دليل على عظم مكانته العلمية.

ولقد شهد الدكتور عبدالعزيز أمين عبدالمجيد[2] بتفوق علماء تنبكت على علماء سنار في مجال معرفة العلوم الإسلامية فيما بين القرنين التاسع والثاني عشر الهجريين (الخامس عشر والثامن عشر الميلاديين)، وأعطى نماذج لذلك التفوق في عدة مجالات تخصصية.

(١) المكان نفسه.

(٢) التربية في السودان، مرجع سبق ذكره، ص ص١٥٨ـ١٥٩.



الفصل السادس

حركة التعليم الإسلامي في معاهد جني

المبحث الأول



تاريخ مدينة جني

يذكر هوجبن[١] ثلاثة آراء حول الاسم جني. الرأي الأول[٢] يقول: إن جني هو أصل الكلمة «غينيا Guinea»، والثاني يقول: إن غينيا مشتقة من غانا ـ غانا Gana - Gana، وهو ميناء قديم على ضفاف نهر النيجر، شمال مدينة فاو كادوس، والرأي الثالث يقول: بأن غينيا هي غانا. ويرى هوجبن أن الرأي الأول هو الذي يبدو أكثر احتمالاً.

والمؤرخ الفرنسي ر. موني R. Manuy[٣] يقول بأن الأصح أن نقول «ديني». ويلاحظ أنه يستعملها بهذه الصيغة اللفظية. ولانعلم مصدره في ذكر اللفظ بهذه الصورة، لأن أهم مصادر تاريخ هذه المدينة، وهو تاريخ السودان «وتاريخ الفتاش» و«نيل الابتهاج»، تذكر الاسم كما رسمناه: «جني».

تقع جني على مسيرة مئتي ميل إلى الجنوب الغربي من تنبكت، وتقع على الضفة اليسرى لنهر بني، أحد روافد نهر النيجر، وتقوم على هضبة صخرية وسط سهل فسيح تغطيه المياه في الخريف[٤]، وقد لاحظ الوزان[٥] هذه الظاهرة، فقال إن جني تكون أشبه بالجزيرة خلال ثلاثة أشهر من السنة ـ

(١) S.J. Hogben, The Muhamadan Emirates, op. cit., p. 41.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، مادة جني، بقلم يفر (G. Yver)، وهو من أصحاب هذا الرأي الأول.
وحول هذا المعنى يقول الوزان: «هذه المملكة ـ يعني جني ـ يسميها تجارنا Cheneea، ويسميها السكان المحليون بـ Gemi، وعند البرتغاليين وغيرهم من الإفرنج تسمى Gheneaa انظر:
History and Description of Af., Vol. 111, op. cit., p. 822.

(٣) دائرة المعارف، مادة جني، بقلم موني.

(٤) المرجع نفسه، مادة جني، بقلم يفر.
وهذا التحصين الطبيعي أعطى لجني الأمن وسهولة الدفاع عنها، مما جعلها مرغوبة عند العلماء والتجار. انظر: M.W. Sharif: Islam in Africa, p. 88.

(٥) Hist, and Desc. Vol. 111, op. cit., P, 822.

يوليو وأغسطس وسبتمبر/ تموز وآب وأيلول، وذلك نسبة لفيضان نهر النيجر.

يبدو أن تأسيس مدينة جني كان حوالي القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي أو قبله، وهذا بناء على ماذكره السعدي[١] من أن هذه المدينة «ابتدأت في الكفر في أواسط القرن الثاني من الهجرة». وربما يتساءل المرء على أي دين كانت هذه المدينة قبل أن تبدأ في الكفر، فنقول إن السعدي ربما كان يقصد أن هذه المدينة قد بدأت منذ نشأتها في منتصف القرن الثاني الهجري كافرة، لأنه يذكر بعد هذا أن تاريخ دخولها في الإسلام كان في القرن السادس الهجري (١٢م). وهناك من يرجح أن تأسيس مدينة جني يرجع إلى القرن الثالث الهجري[٢]، استناداً إلى أنه في ذلك العهد أغار النونو ـ وهم غزاة من ماسينا الشمالية ـ على البوزو الذين كانوا يقطنون الناحية التي تقوم فيها جني الآن. وسرعان ما اندمج الغزاة في البوزو، ثم رأوا أن مدينة جني جينو (جني القديمة) عاصمة النونو تضيق بهم، فانتقلوا إلى هضبة صحراوية تبعد ناحية الشمال قليلا، وابتنوا فيها مدينة جني الحالية. وكانوا في ذلك العهد وثنيين، ولكنهم بادروا إلى الإسلام.

أما تاريخ دخول الإسلام في هذه المدينة فيبدو أنه قديم، ومن رواية السعدي[٣] عن دخول ملوكها في الإسلام لأول مرة يظهر لنا صواب هذا الرأي؛ فالرواية تقول: «أسلموا عند تمام القرن السادس، والسلطان كنبر هو

---

(١) تاريخ السودان، ص١.

(٢) دائرة المعارف: مادة جني، بقلم ج. يفر. وعن الآراء الأخرى انظر: مادة جني بقلم ر. موني. وهو يرى أن تأسيسها كان في القرن السابع الهجري، ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م، ويرى بارث أنها تأسست عام ٤٣٥هـ/ ١٠٣٣ـ١٠٣٤م انظر: Barth, Travels, Vol. 4, p. 583.
نقلا عن حاشية «تاريخ ووصف إفريقية» للوزان، بقلم جون بوري، ص٨٤.

(٣) تاريخ السودان، ص١٢.

الذي أسلم وأسلم أهلها بإسلامه. ولما عزم على الدخول في الإسلام أمر بحشر جميع العلماء الذين كانوا في أرض المدينة فحصل منهم أربعة آلاف ومئتي عالم فأسلم على أيديهم. وهذه الرواية تفيد بأنه كان هناك مجتمع إسلامي في جني كما كان الحال بالنسبة للمنطقة القديمة، وأن في هذا المجتمع الإسلامي عدد كبير من العلماء. ومجتمع هذا شأنه لابد أن يكون عريقا في الإسلام، وأن الذي أسلم في القرن السادس الهجري هو الملك وحاشيته وبعض الرعية، أما ما عدا ذلك فقد دخلوا في الإسلام قبل القرن السادس الهجري بكثير.[1]

وعندما أسلم الملك كنبر قام بهدم القصر الملكي (دار السلطنة) وبنى مكانه جامعا لأهل جني، وشيد قصره الملكي بالقرب من هذا المسجد الجامع.[2]

وقدم الإسلام في هذه المدينة كما ذكرنا له ما يبرره، وهو أن هذه المدينة كانت في موقع جغرافي مختار، مكنها من أن تكون مركزا تجاريا مهمًا للتجارة القادمة من شمالي إفريقية عبر تنبكت والتجارة القادمة من منطقة الغابات جنوبي جني. وقد تكلم السعدي عن هذه الميزة كما أثبتناه في مكانه. وتكلم قبله فالنتين فيرناندز«Valentin Fernandes»[3] في سنة١٥٠٦م، إذ يقول عنها ما ترجمته: «جني مدينة كبيرة، أقيمت من الصخر والحجر الجيري، يحيط بها

---

(١) انظر: الدكتور حسن محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، مرجع سبق ذكره، ص٢٧٤.
Trimingham: A History of Islam in W.A. op. cit., p.31.

(٢) تاريخ السودان ص١٣.

(٣) سمع هذا المؤرخ هذا الوصف عن تجارة جني من تاجر مراكشي
Levtzion, Muslims and Chiefs, op. cit., p. 4.

واسم كتاب فالنتين نقلا عن لفتزيون هو:
Description de la Cote d'Afrique de Ceuta au Sènègal, pp. 85-87.

سـور، ويفد إليـها التـجار الذين يـزورون مناجم الذهب، وهؤلاء المتاجـرون ينتمـون إلى جنس واحد بعـينه هو الونغارا. وحين يقـبل هؤلاء على جني.. يجلب كل تاجر مـعه مئـة أو مئتين أو أكثـر من الحمالين ليـحملوا الملح على رؤوسـهم من جني إلى مناجم الذهب، ولـيعـودوا بالذهب، والتـجـار الذين يتجرون مع مناجم الذهب يتـعاملون بمبالغ كبيـرة، وبعضهم يعقد صفـقة قد تبلغ ستين ألف مـثقال، بل إن الذين يكتـفون منهم بجلب الملح فـحسب تبلغ صفقتهم عشرة آلاف مثقال..».

وفي مطلع القـرن السادس عـشر الميلادي زارها الحـسن الوزان، ولاحظ ازدهارها تجاريا. وذكر أن حـركة التجارة لا تتـوقف حتى في شهور الفـيضان الذي يجعل من جني جزيرة، فـفي هذه الفترة يأخذ تجار تنبكت بضـاعتهم في قوارب جيئة وذهابا، لا يحول دون عملهم الدؤوب إلا الليل.[1] وقد نما وزكا هذا الازدهار خلال القرن السابع عشر، مما حدا بالسعدي[2] أن يقول: «وهي مدينة عظيمة ميمونة مباركة ذات سعة وبركة ورحمة». ويقول في موضع آخر: «وأرضها منعمة عامرة معمرة بالأسواق في أيام الأسبوع كلها»[3].

وكان بها سبع وسبعون وألف قرية كما قيل للسعدي[4]، وعلى الرغم مما يبدو من المبالغة في العدد إلا أنه يوضح إعجـاب السعدي بهذه المدينة، لاسيما وأنه قد عمل بها في فترة من فترات حياته.[5]

وكما رأينا فالمدينة قبل أن يسلم ملكها كانت تعج بعلماء المسلمين، وهذا

---

(١) Leo Africanus, op. cit., Vol 111. pp. 822-823.

(٢) تاريخ السودان، ص١١.

(٣) المصدر نفسه، ص١٣.

(٤) المكان نفسه.

(٥) المصدر نفسه، مثلا ص، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٧٥.

بدوره يلقي ضوءا على مكانتها كمركز تعليمي وثقافي مهم في غربي إفريقية منذ وقت مبكر، ثم قوي مركز الإسلام رسميا عندما أسلم الملك كنبر وأقام مسجدا في المدينة، أصبح فيما بعد من أشهر مساجدها، وأضحى مركزا ومعهدا للدراسات الإسلامية. وعندما بدأ التاريخ المسجل لهذه المدينة على يد عبدالرحمن السعدي، عرفت أسماء كثيرة من علماء هذه المدينة كان لها دورها الفعال في مجال التعليم والقضاء والإفتاء والإمامة. وقد عقد السعدي بابا خاصا عن هذا الموضوع.

وظلت شهرة المدينة المزدوجة بالتجارة والدين مستمرة حتى بعد الاحتلال المراكشي لها، ونافست تنبكت في هذه الناحية.

أما تاريخ الحكم في هذه المدينة فقد كان في البداية ينحصر في نطاق السكان المحليين من القبائل في جني، وكانوا يصدون كل من يحاول انتزاع السلطان من أيديهم، فقد حاربوا دولة مالي حروبا كثيرة، وغلبهم أهل مالي بقيادة سلطانهم ماري جاطة (ت ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م)، وأصبحت من ثم أهم أسواق قبائل الفولاني والولوف والسركولة، وعرفت بعمل القماش[1]. واحتفظت القيادات المحلية بالسلطان الفعلي في جني، وفي نهاية القرن الخامس عشر غلبهم على أمرهم أيضا سلطان سنغي سني علي، حوالي سنة ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م، وهو الذي طوعهم وملكهم بعدما حاصرهم في تلك المدينة سبع سنين وسبعة شهور وسبعة أيام[2]، وبعد الصلح ترك الملك المحلي في مكانه مع الاعتراف بالسيادة العليا لسنغي.[3]

---

(١) الدكتور زكي، الإسلام والمسلمون، مرجع سبق ذكره، ص١٥٤.

(٢) تاريخ السودان، ص١٤، وهناك رواية أخرى يرويها السعدي على لسان محمد عريان الرأس بأن الحصار استمر أربعة أعوام، انظر المصدر نفسه، ص١٥.

(٣) المصدر نفسه، ص١٥.

وظلت جني تحت حكم سنغي إلى أن استولى عليها المراكشيون في عهد أحمد الذهبي سنة ١٠٠٥هـ/ ١٥٩٦م[١]. وظل الحكم المراكشي قائما فيها حتى مطلع القرن (١٣هـ/ ١٩م). وكان يمثل الشريف المراكشي في جني أحد الباشوات، ثم أصبح يمثله حاكم يعاونه أمين وقائد. وكان هؤلاء العمال يقومون على شؤون الإدارة المحلية التي كانت في يد زعيم من أهل البلاد ويعرف بـ«جني ـ كوي». [٢] ويدفعون كل عام إتاوات ضخمة للحكم المراكشي. [٣]

وفي القرن (١٢هـ/ ١٨م) أخذت قبائل البمبارة تغير على هذه المدينة، ثم ازدادت هذه الغارات شيئا فشيئا، بل إن أحد زعمائهم المدعو نجولو أفلح في الاستيلاء على إقليم جني بأكمله ماعدا العاصمة، وذلك في النصف الثاني من القرن (١٢هـ/ ١٨م). [٤]

وفي سنة ١٢٢٤هـ/ ١٨١٠م استولى عليها أحمد شيخو لوبو زعيم قبائل الفولاني، وترك الإدارة المحلية في يد زعيم من أهل البلاد تحت إشراف أحد عماله، وجعل مدينة جني مركز قيادة أمير جيشه. [٥]

وفي القرن(١٣هـ/ ١٩م) حل بها ما حل بسلطنة أحمدو لوبو الفولانية، إذ استولى عليها الحاج عمر الفوتي زعيم التجانية في سنة ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م، وظلت في حوزة خلفائه حتى سنة ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م، ثم احتلها الفرنسيون بقيادة الكولونيل ارشينار. [٦]

---

(١) المصدر نفسه، ص١٥٨، ومابعدها؛ دائرة المعارف، مادة جني، بقلم يفر.

(٢) دائرة المعارف، مادة جني، بقلم يفر.

(٣) قداح، مرجع سبق ذكره، ص٧٨.

(٤) دائرة المعارف، مادة بمبارة.
See: El-Nagar, op. cit., p. 51.

(٥) دائرة المعارف، مادة جني، بقلم يفر.

(٦) المرجع والمادة والكاتب نفسها.

وتحت الحكم الفرنسي لم تعد جني كما كانت من قبل، ذلك أن الأسباب التي كانت من قبل مصدر قوتها أصبحت في القرن العشرين مصدر ضعفها، وحلت محلها في المكانة التجارية مدينة مويتي، عند ملتقى نهر تبني بنهر النيجر، ويصلها سد بالأرض اليابسة.[1]

وقد احتفظت المدينة بمبانيها القديمة الجليلة من الطراز الذي تفردت به، وهو الطراز الذي انتشر الآن وعرف بالطراز السوداني، وأعيد بناء مسجدها القديم ـ الذي شيد قبل القرن (١٣هـ/ ١٩م) ـ على الطراز القديم وعلى غرار المسجد الأول.[2]

---

(١) المرجع نفسه، مادة جني، بقلم موني.

(٢) المرجع والمادة والكاتب نفسها.

المبحـــث الثانـــي



أشهر معاهد جني وعلمائها

إن أشهر معاهد جني التعليمية هو مسجدها الجامع الذي بناه السلطان كنبر عندما أشهر إسلامه في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي).

وهناك رواية تقول بأن مصمم هذا المسجد هو المهندس المراكشي إدريس، وقد كرر قداح هذه الرواية أكثر من مرة[1]، ولا نعلم مدى صحتها، لأن بعض المعلومات التي يوردها قداح، وخاصة المعلومات التي تتعرض للتاريخ القديم لهذه المنطقة، لا تطابق ماجاء في المصادر الأصيلة، من ذلك ذكره أن «محمد نض» الذي يسميه: «محمد نادي» خطأ، كان من المعماريين الإفريقيين، وذكره أن مسجد جني بني في القرن (٨هـ/ ١٤م)[2]، بينما يذكر السعدي[3] أنه بني في القرن (٦هـ/ ١٢م)، وأشياء أخرى كثيرة لامجال لذكرها في هذا الكتاب. ويعاب عليه إهمال ذكر المصادر.

ومهما اختلفت الروايات حول من بنى مسجد جني، ومتى كان ذلك، فالذي يهمنها كثيرا أن هذا المسجد أصبح منذ تأسيسه مركزا ومعهدا للدراسات الإسلامية، وكان مثالا مصغرا لمعاهد تنبكت.

لم تخل هذه المدينة العريقة من بعض المدارس القرآنية أو المعاهد التعليمية المنفصلة عن المسجد إلى جانب المساجد كمعاهد تعليمية، والدليل على ذلك أنه عندما دخلها الاستعمار الفرنسي كانت بها خمس عشرة مدرسة وكثير من الكتب الدينية الإسلامية.[4]

(١) إفريقية الغربية في ظل الإسلام، ص٧٩، ١٦٠.
(٢) الأمكنة نفسها.
(٣) انظر: تاريخ السودان، ص١٦.
(٤) المرجع السابق، الأمكنة نفسها.

إن السعدي[1] يذكر لنا عددا ضخما من العلماء الذين كانوا في جني عندما أسلم ملكها كنبر، ولكنه لم يسجل لنا بعض أسماء هؤلاء العلماء، ولعل السبب في ذلك هو الفارق الزمني بين عصره وعصر هؤلاء العلماء، لأنه عاش في القرن (١١هـ/ ١٦م)، وعاش هؤلاء قبله بحوالي خمسة قرون. أما عندما أصبح الزمن قريبا من زمنه فهو يعطي كثيرا من المعلومات وأسماء العلماء الذين هاجروا إلى مدينة جني منذ منتصف القرن (٩هـ/ ١٥م)، ولكنه مع هذا يتعرض لسيرة نفر قليل منهم، لأن غرضه الأول كان في ذكر علماء تنبكت. نذكر في الصفحات التالية أهمهم:

١ ـ مورمغ كَنْكُيَ

إن أول من يذكر السعدي من العلماء الوافدين على جني من المناطق المجاورة هو «مورمغ كنكي»[2]، الذي جاء إلى جني من كابرا بعد أن تلقى تعليمه فيها، وذلك في منتصف القرن (٩هـ/ ١٥م) كما يقول السعدي[3]، ولكننا نرى أن فترة وجوده في جني كانت قبل تولي آسكيا موسى بن آسكيا الحاج محمد (٩٣٥ ـ ٩٣٨هـ/ ١٥٢٨ ـ ١٥٣١م)، لأنه في فترة حكم آسكيا موسى كان في بلدة جنج التي رحل إليها كما سيأتي ذكره. والدليل على ذلك أنه خرج مع طلبته من جنج لمقابلة آسكيا موسى إثْر عودته من حملته ضد أخيه عثمان، الذي كان ينازعه السلطة بعد عزل موسى لوالده آسكيا محمد[4]. وسبب خروج مورمغ لمقابلة موسى هو طلب العفو عن قائدين من الذين كانوا

---

(١) تاريخ السودان، ص١٤٢.

(٢) المرجع نفسه، ص١٢.

(٣) تاريخ السودان، ص١٦، ٨٤.

(٤) المصدر نفسه، ص٨٤.

في صف عثمان. وأجيب الفقيه مور إلى طلبه.[1]

وفي ضـوء هذا يمكننا أن نقـول بأنه قدم إلـى جني في الثلث الأول من القرن (١٠هـ/ ١٦م)، وليس منتصف القرن (٩هـ/ ١٥م) كما يقول السعدي، وربما تكون رواية السـعدي أقرب إلى الصـواب لو قال بمجيء هذا الـعالم إلى جني حول نهـاية القرن (٩هـ/ ١٥م)، وتأسيـسا على ذكر تاريخ مـبكر لقدوم كنكي نراه يذكره قبل محمد الونكري.

لقد كان مورمغ من العلماء الفقهاء، وفور حلوله بهذه المدينة تقاطر عليه الطلبة لـلإفادة منه[2]. وكان نـشطا في أداء رسالة العلم، يخـرج من داره في منتصف الليل إلى مقـر إلقاء دروسه في المسجد الجـامع بجني، ويجلس الطلبة حوله يتلقـون الدروس حتى إقامة صـلاة الصبح، ثم يعودون إليه بعـد الصلاة فيستمر معهم إلى وقت الزوال، ثم يعود إلى داره لأخذ قسط من الراحة ليعود لحلقة الدروس بعـد صلاة الظهر، ويجلس إلى طلبـته حتى صلاة العـصر[3]. وكان مواظبا على هذه الحال حتى علم أن هناك من لايرغب في وجوده بجني، فارتحل إلى بلدة كـونا، ثم إلى جنج التي أكرمت وفادته، ومـات بين ظهراني أهلها معلما ومرشدا.[4]

٢ ـ محمد سانوا الونكري[5]

هو فودي الفقيه مـحمد سانوا الونكري. كان فقيهـا وعابدا صالحا، قدم إلى جني في أواخر القرن التـاسع الهجري (الخامس عشـر الميلادي) وكان أول سكنه في

(١) المصدر نفسه، ص ص٨٤ـ٨٥.

(٢) المصدر نفسه، ص١٦.

(٣) المكان نفسه.

(٤) المصدر نفسه، ص ص٨٤ـ٨٥,١٦.

(٥) نسبة إلى ونكر في منطقة وانغارا، انظر المصدر نفسه، ص١٦.

قرية تسمى طورا[١]، بالقرب من جني، ويأتي من هذه القرية إلى جني لأداء صلاة الجمعة بمسجدها الجامع حتى تآلفت قلوب سلطان جني وأهلها معه، وعند ذلك طلب منه السلطان أن يسكن في جني، فقبل الطلب[٢]، وتمكن من التأثير في السلطان بمواعظه وقوة حجته حتى حمله على تخريب بيت الصنم الذي كان يعبده الوثنيون من قومه، وبنى في هذا المكان دارا لإقامة الفقيه محمد الونكري، وأحاطه بمظاهر التبجيل والاحترام[٣]. وأصبح بعد ذلك من أهل الشفاعة لدى السلطان على الرغم من أنه لا يخالط السلطان أبدا[٤]. وهذا دليل على مكانته ومكانة أمثاله من العلماء لدى السلطان.

لم تكن مكانته العالية في جني فقط، بل تعدتها إلى تنبكت. فعندما زار القاضي محمود بن عمر أقيت مدينة جني في[٥] مطلع القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، التقى بهذا العالم، فأعجب به كثيرا، ونقل هذا الإعجاب إلى مسامع أمير المؤمنين آسكيا الحاج محمد. وكانت النتيجة أن ولاه آسكيا محمد قضاء مدينة جني بعد عودته من الحج[٦]، حوالي سنة ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م.

وكان تولي هذا الفقيه منصب القضاء في جني نقطة تحول كبيرة في تاريخ القضاء الإسلامي بهذه المدينة، إذ إنه في السابق لم يكن الشرع يطبق عند الفصل بين الناس في خصوماتهم وقضاياهم، بل كانوا يحتكمون إلى خطيب المسجد الجامع،

(١) المصدر نفسه، ص١٦.
(٢) المكان نفسه.
(٣) المصدر نفسه، ص١٨.
(٤) المكان نفسه.
(٥) المكان نفسه.
(٦) المكان نفسه.

الذي يسعى بينهم بالصلح[١]، ولم يعرف منصب القاضي إلا عندما نصب محمد الونكري[٢]، ومرد ذلك كله إلى مكانة هذا الفقيه العلمية.

٣ ـ محمود بغيغ

هو القاضي محمود بن أبي بكر بغبغ، والد العالمين: الفقيه محمد بغبغ والفقيه أحمد بغبغ[٣]. وأصله ونكري كسابقه محمد سانوا. تولى قضاء جني بعد وفاة الفقيه القاضي العباس كب الونكري[٤]، في العام التاسع والخمسين بعد التسعمئة الهجري (سنة ١٥٥١م) على يد آسكيا إسحاق بن آسكيا الحاج محمد[٥]. وعن هذا القاضي يقول السعدي[٦]: «كان فقيها عالما جليلا».

لقد كانت أسرة بغيغ عامة من الأسر العلمية المشهورة في تاريخ التعليم والقضاء في غربي إفريقية عامة، وتنبكت خاصة.

ويلاحظ أن العلماء من الأصل الونكري كانوا كثيرين في جني، مثل أسرة بغيغ، وأن آخر القضاة السودانيين في جني كان ونكريا، وهو القاضي محمد بنب كنات، الذي تولى القضاء بعد وفاة القاضي موذب بكر تروري[٧]، ثم بعد ذلك تولى منصب القضاء جماعة من أسر ذات أصل مغربي أو عربي.

وهناك شخصيات ذكرها السعدي[٨] من علماء جني وقضاتها ولكنه لم يقف عند أكثر مَنْ ذكر مِنَ الأسماء، ومن أولئك: القاضي العباس كب،

---

(١) المكان نفسه.

(٢) المصدر نفسه، ص١٩.

(٣) انظر ص: ٣٥٠ من هذا الكتاب.

(٤) تولى القضاء بعد محمد سانوا.

(٥) تاريخ السودان، ص١٩.

(٦) المكان نفسه.

(٧) المكان نفسه. هذا القاضي من أولاد سلاطين جني، زهد في السلطنة وتفرغ لخدمة العلم.

(٨) المصدر نفسه، ص ص١٩ـ٢٠.

والقاضي فوك، والقاضي كناجي، والقـاضي تنتاع، والقاضي سنقم، والقاضي عمر ترف، والقاضي تلماكلس، والقـاضي أحمد ترف بن القاضي عمر ترف، والقاضي موذب بكر تروري، والقاضي محمد بنب كنات.

الفصل السابع

تاريخ حركة التعليم الإسلامي

في بلاد الهوسا

تمهيد:

يختلف الكتاب في رسم «هوسا»[1]، فمنهم من يقول «حوسا»[2]، ومنهم من يقول «حوصا»[3]، وغير ذلك مما يشبه هذا الرسم[4]. وقد اعتمدنا هنا الاسم «هوسا» لاستخدامه من قبل المؤرخين من أبناء المنطقة.

أما الأسم «هوسا» من حيث معناه فهو تعريف لغوي أكثر منه عرقيا[5]. وحتى التعريف اللغوي لا يعني وجود الوحدة اللغوية الكاملة في ذلك الوقت من القرن السادس عشر عندما تميزت دويلات الهوسا[6]، ومن ثم ليس هناك جنس يمكن أن يسمى جنس الهوسا، كما أن لغة الهوسا منتشرة على نطاق واسع في غربي إفريقية، فهي لغة المعاملات التجارية والمالية.[7]

وقد رأينا نشاط هذه الفئة تجاريا في بلدان غربي إفريقية المختلفة. لم تكن بلاد الهوسا في وحدة سياسية متكاملة قبل قيام دولة الفولاني في مطلع القرن (١٣هـ/ ١٩م)، بل كانت إمارات مستقلة ومتنافرة ومتحاربة في كثير من الأحايين. ويكاد المؤرخون يجمعون على وجود سبع إمارات قامت في وقت مبكر في أرض الهوسا، وهي: كانو، رانو، زاريا، دورا، غوبير كاتسينا،

(١) انظر: الدكتور شيخو، مرجع سبق ذكره، ص٣٣.
الدكتور علي أبوبكر، مرجع سبق ذكره، أماكن متفرقة.
(٢) انظر: إنفاق الميسور، مصدر سبق ذكره، ص٤٤.
(٣) انظر: د. حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مرجع سبق ذكره، ص١١٦.
(٤) د. حسن محمود، دور العرب في نشر الحضارة، مرجع سبق ذكره، ص٧٩.
(٥) حسن إبراهيم، المرجع السابق، ص١١٦.
See: A. Burns, History of Nigeria, op. cit., p. 46.
Trimingham and Others, op. cit., p. 18.
(٦) Loc. cit.
(٧) حسن إبراهيم، المرجع السابق، ص١١٦.

زنفرة[1]. وبجانب هذه الإمارات السبع تعرض المؤرخون لتاريخ إمارات أخرى أهمها إمارة كبي[2]، وهي زعيمة الاتحاد ضد الغزو الخارجي، وصمودها في وجه آسكيا الحاج محمد وملوك البرنو دليل على ذلك.

لقد كانت هذه الإمارات وريثة إمبراطورية كبي التي قامت في بداية القرن (١٠هـ/ ١٦م)[3]. وكان ملكها يلقب بـ«كانتا». وقد استطاع كانتا الأول أن يقهر البلاد التي حوله، وأن يملك منها الأقاصي والدواني، فشمل سلطانه كاتسينا وكانو وغوبير وزاريا، كما غزا برنو وغيرها من الأقاليم المجاورة شرقا. وبعد هزيمة دولة سنغي على يد هذه الامبراطورية، امتد نفوذها فسيطرت على أقاليم أخرى، ولكنها تركت حكم البلاد التي قهرتها إلى قادتها، فيما عدا بعض الأجزاء مثل زنفرة ووانغارا.[4]

وإذا أمعنا النظر في هذا الإجراء نجده ينطوي على أهمية كبرى، إذ إن زنفرة من المدن المهمة اقتصاديا بالنسبة للدولة. أما وانغارا فهي منطقة الذهب ذات الشهرة العظيمة في تاريخ غربي إفريقية الاقتصادي. لذا كان بعد النظر السياسي والاقتصادي يقتضي الإشراف عليها مباشرة.

---

(١) انظر: حسن إبراهيم، إنتشار الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص١١٦.

Bovill, Golden Trade of the Moors, p. 220.

من الملاحظ أن بعض هذه الإمارات السبع لها أسماء مرادفة مثل زاريا التي يقال لها أيضا «زكزك» وكاتسينا التي يقال لها «كشنة». وأحيانا يختلف رسم بعضها لدى بعض المؤرخين مثل «دورا» تذكر أحيانا بدون ألف، وغوبير تذكر أحيانا بالجيم «جوبير» وكانو تذكر كنو أو كنوا أو كَانُوَا، وزنفرة تذكر «زامفارا»، وقد اعتمدنا هنا إما على التسميات الحديثة أو تسميات بللو في إنفاق الميسور.

انظر: إنفاق الميسور، ص٤٤، ٥٠ وللترجمة أثر في اختلاف رسم بعضها.

(٢) انظر: الإنفاق، ص٤٦. Golden Trade, p. 220

(٣) انظر: حسن إبراهيم، انتشار الإسلام، ص١١٧، الحضارات الإفريقية ص٥٤، الإنفاق، ص٤٦.

Trimingham: A History of Islam in W.A.,P. 135.

(٤) Trimingham: A Hist. of Islam in W.A., p. 135.

ولما كانت إمـارات الهوسا ذات أهمـية اقتصـادية فقد طال الصـراع بينها وبين حكام سنغي وبرنو، حـتى إن نهايـة آل كانتـا كانت على يد البـرنو سنة ٩٥٢هـ/ ١٥٤٥م في عهـد الملك علي بن إدريس البرنوي، وتولى بعده كـانتا الثاني الذي عـاصر السلطان آسكيا داود، وجـرت بينهما مناوشات حـربية سنة ٩٥٩هـ/ ١٥٥٢م، انتـهت بمعاهدة صلح، واسـتطاع الملوك الذين جاؤوا بـعد كانتا الأول أن يحافظوا على هذه الإمبراطورية مدة نصف قرن، ولكن صراعهم ضد ملوك برنو وسلاطين سنغي أثر فيهم، فـأخذت الإمبراطورية في الانحلال والضعف.[١]

وإذا كانت إمـبراطورية كبي قد ضـعفت بسبب الصراع في الشـرق ضد حكام برنو، وفي الغـرب ضد سـلاطين سنغي، فـإن هاتين الدولتين ضعـفتـا أيضا، فالغـزو المراكشي قضى على دولة سنغي، كمـا لم يستطع ملوك برنو أن يحتفظوا بعظمة هذه المملكة، وهيأ هذا الوضع لإمارات الهوسا أن تأخذ الزمام التجـاري والثقافي والسيـاسي في هذه المنطقة[٢]. وكان بروزها هذه المرة تحت إمارة كاتسينا، إذ أن المجـرى الرئيس للحركة التجارية مع شمالي إفـريقية تحوّل شرقا إلى بلاد الهوسـا، وقفزت إمارة كاتسينا بصفـة خاصة إلى مكان الصدارة والشهرة في عالم التجارة والحضارة، وسرعـان ما أخذت القيادة السياسية أيضا تحت قيادة حاكمـها «جاني هاذوبكي (١٠٢٨-١٠٥٨هـ/ ١٦١٨-١٦٤٨م)، فمدت نفوذها إلى رادي في الشمال وزنفرة في الغرب وبنين وجواري في الجنوب.[٣]

ولم يمتد الزمن بإمارة كاتسـينا كثيرا في مركز الزعامة، فـأخذ نجمها في

---

(١) الدكتور شلبي، موسوعة الحضارة، مرجع سبق ذكره، ص٢٨٣.

(٢) المكان نفسه، نقلا عن: Fage, W.A. P. 38.

(٣) Trimingham: A History of Islam, p.136.

الأفول، وكذلك إمارة زانفرة التي حـاولت أن ترث كبي في القوة خلال القرن (١٣هـ/ ١٩م)، وسارت في طريق ذلك عدة خطوات عندما سلخت الكثير من أجزاء إمبـراطورية كبي واستولت على بعض أجـزاء كاتسينا[١]. ولكن لم يدم ذلك طويلا فقامت في وجهها إمارة غوبير في عهد سلطانها محمد بن شروم، الذي قلم أظافر زنفرة بالاسـتيلاء على ما أخذته من كبي، وابتلع زنفـرة نفسها ومعها كثـير من الإمارات الأخرى[٢]، وأضحت بذلك الإمبراطـورية الهوسية الثانية بعد كبي، وخليفتهـا في السيادة على أرض الهوسا، وشملت فوق ذلك أراضِيَ غيـر هوسية مثـل اليوربا، حتى غدا اسم غـوبير مرادفـا لاسم هوسا، وأطلق أهل اليوربا على كل هوسي اسم غوبيري.[٣]

ولغوبيـر شأن آخر مع المجـاهد الإسلامي المعـروف عثمـان بن فودي، وسنعالج ذلك فيما بعد.

ولموقع إمـارات الهوسـا بالقرب من دولة برنو شـرقا، وقـبائل الـتوارق (الطوارق) شـمـــالا، كـان لابد أن يتـرك هذا الموقع أثرا فـي حـضـارة هذه الإمارات، فإذا نظرنا مـثلا إلى التنظيم السياسي، نجـده يشبه ماكـان قائما في برنو أو كانم قبلهـا، مما حدا ببعض المؤرخين[٤] لأن يقول بأنه ربما كانت هذه الدويلات فروعـا تابعة لكانم وبرنو، وشكل هـذا التنظيم الذي يشيـر إليه هذا المؤرخ هو الشكل الإقطاعي.

أما أثر البربر فيبدو واضحا في لغة الهوسـا التي قام الباحثون بتصنيفها،

---

(١) الإنفاق، ص٤٦ (ويللو يسمي كبي: «كب» وزمفارا: «زنفر».

(٢) إنفاق الميسور، ص٤٧.

(٣) الألوري، الموجز، ص٨٣.

(٤) د. هـ. جونز: شعوب ممالك السودان الأوسط، مرجع سبق ذكره، ص٤٦.

فظهر أنها أقرب إلـى لغة البربر من أي لغة أخرى من لغات غـربي إفريقية[1]، ولكن بوصول الدماء العربية إلى هذه المنطقة منذ مطلع العصور الحديثة ظهر أثر اللغة العربية في لغة الهوسا بنسبة كبيرة.[2]

وبعـد هذه اللمحـة العابرة والعـامة عن بلاد الهـوسا، اخـترنا إمـارتين هوسـيـتين لتكونا مـوضع بحـثنا الخاص بـالتعليـم الإسلامي، وهمـا: كـانو وكـاتسينا، بالإضـافة إلى دور دولة الفـولاني الإسـلاميـة - التي خلفت هذه الإمارة - في التعليم في بلاد الهوسا.

(١) المكان نفسه.

(٢) د. علي أبوبكر، مرجع سبق ذكره، أماكن متفرقة.

المبحث الأول

تاريخ حركة الإسلام والتعليم الإسلامي في معاهد كانو

لمعرفة تاريخ التعليم في كانو لابد لنا أن نعرف أولا تاريخ الإسلام في كانو.

يقول الألوري[1]: إن فجر الإسلام قد انبثق في سماء بلاد الهوسا في أواخر القرن الأول الهجري الذي فتح فيه المسلمون العرب شمالي إفريقية. ويذكر المؤرخون أن عقبة بن نافع الفهري، بعد أن حط الرحال بمدينة غدامس سنة ٤٦هـ/ ٦٦٦م، فكر في التوغل جنوبا، وافتتح في توغله بلدة ودان، ثم مدينة فزان، ثم إقليم كوار[2]. وكوار هذه لا تبعد كثيرا عن حدود بلاد الهوسا الشمالية؛ فلو أنه واصل ذلك الزحف جنوبا لوصل إلى نيجيريا. ويبدو أن السبب في عدم مواصلته الزحف جنوباً يرجع إلى عدم معرفة أهل كوار لمن وراءهم حينما سألهم عقبة قائلا: «هل من ورائكم أحد؟» فلم يعلموا من وراءهم، فكر راجعا إلى قصر حاوان الواقع في إقليم كوار[3]. ولم تعقب هذه محاولة أخرى من العرب المسلمين، وذلك لصعوبة الوصول إلى هذه المناطق البعيدة، بل وجه العرب المسلمون اهتمامهم إلى ناحية الشمال، إلى الأندلس، تاركين انتشار الإسلام في غربي افريقية لتقوم به قبائل البربر المجاورة لها بعد أن تمكن الإسلام من نفوسهم، ثم سلّموا الزمام بعد ذلك للقبائل السودانية الغربي إفريقية لتكمل المهمة، وقد تكلمنا عن هذا في مكانه.

(١) موجز تاريخ نيجيريا، مرجع سبق ذكره، ص٣٥.

(٢) البكري، المغرب، مصدر سبق ذكره، ص١٣.

(٣) المكان نفسه. ولعلهم كذبوا عليه، لأنه يصعب تصديق جهلهم بمن وراءهم، ولأن العلاقات التجارية لم تنقطع بين شمالي وغربي إفريقية.

وقد ساعـد قيام الدول الإسلاميـة في غربي إفريقية، مـثل مالي وسنغي وكانم وبرنو على تغلغل الإسلام في هذه المناطق، كما سنذكره في مكانه.

ولعدم وجـود تاريخ قاطع مكتوب عن بداية دخـول الإسلام إلى مناطق الهوسا نلاحظ أن المؤرخين يميلون إلى القول بأن مطلع القرن (٨هـ/ ١٤م) كان بداية لدخـول هذه المنطقة في الإسـلام[١]، لوجود مـايثبت ذلك من الـتاريخ المكتوب، ولكـننا نذهب مع الألوري إلى أن الإسلام قـديم في هذه البلاد، وأن العلاقات التجـارية التي كانت قائمة بين شمالي وغربي إفريقـية عامة، لابد أن تترك أثرها في بلاد الهوسا عندما أصبحت التـجارة إسلامية. أما القرن الرابع عشـر، فهو الفـترة التي وصلنا فـيها تاريخ مـسجل لدخـول الإسلام في هذه المنطقة، وكان اعـتناقه لافتاً للنظر، لوجود حكام أسلموا وأخـذوا ينافحون عن الإسلام.

يقـول التـاريخ المكتـوب بأنه منذ القـرن الرابع عـشر الميـلادي (الثـامن الهجـري) بدأت بعض التيارات الإسـلامية تفد إلى منطـقة الهوسا من ناحـية الغرب على أيدي فقهاء من مالي[٢]. وهناك تيار إسلامي ثان وفد من الشمال الإفريقي على أيدي فقهاء من المغرب، أمثـال محمد بن عبدالكريم المغيلي[٣]، وتيار ثالث مصدره بلاد برنو في الشرق، ثم تيار رابع رأسه تجار تنبكت وجني الذين كانوا يتـرددون على أسواق كانو وكاتسينـا في أواخر القرن (٩هـ/ ١٥م) وأوائل (١٠هـ/ ١٦م)، إبان انتعاش ممالك الهوسا، واستقرار أولئك التجار في

---

(١) Islam in Tropical Africa, op. cit., p. 304.

(٢) See: H.R. Palmer: The Kano Chronicle, op. cit., p. 70.

(٣) الألوري، الموجز، ص٨٠؛ الإسلام وحركـات الفلان الإصلاحية في غربي إفريقـية، بحث للدكتور مصطفى محمد مسعد، نشر بمجلة جامعة أم درمان الإسلامية: العدد الأول (سنة ١٩٦٨م) انظر: ص ص١٢٤ـ١٢٥، نيل الابتهاج، ورقة ٣٠٤.

هذه البلاد، والقيام على تدريس علوم الدين الإسلامي، ونشر المذهب المالكي.[1]

وساعد على ازدياد قوة التيار الإسلامي في القرن السادس عشر خضوع إمارات الهوسا الإسلامية لدولة سنغي الإسلامية. وبعد سقوط هذه الدولة وخضوع تنبكت وجني للسلطات المراكشية اجتذب بلاط كل من كانو وكاتسينا الكثير من علماء هاتين المدينتين، حيث وجدوا الحماية والتشجيع وإكرام الوفادة والرعاية.[2]

لقد كانت هذه الجهود تجري في نطاق ضيق، فلم تنحسر الوثنية، وظلت تطل برأسها، وحجبت كل نشاط إسلامي، لاسيما في القرنين السابع عشر والثامن عشر وحتى قيام الفولاني بثورتهم الإصلاحية المشهورة في مطلع القرن التاسع عشر.[3]

أ ـ كانو

تعتبر كانو أهم ولايات الهوسا في الفترة الإسلامية، ويرجع تاريخها المدون إلى القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري). والحولية[4] التي دونت تاريخ هذه المدينة تذكر أن أهل كانو ينحدرون من رجل يسمى دالا «Dala»،[5] تصفه الحولية بأنه كان ضخم الجسم، أسود اللون، قوي البنية، ويمتهن الصيد، وبإمكانه سلخ الفيل بعصاه، وحمله على رأسه لمسافة تسعة أميال تقريبا.[6]

---

(١) M.R.Waldmen: "The Fulani Jihad", J.A.H. Vol. IV (1955), p. 333.
الإسلام وحركات الفلان المرجع السابق، ص١٢٥.

(٢) الإسلام وحركات الفلان، المكان نفسه.

(٣) المكان نفسه.

(٤) The Kano Chronicle, p. 63.

(٥) دالا اسم رجل وصخرة كما جاء في تعليق بالمر بحاشية ص٦٣ من الحولية.

(٦) Loc. cit.

كان دالا مـجهول الأصل، ولكنه جاء إلـى أرض كانو وبنى منزلا على رأس جبل يعرف بجبل دالا[١]. وهنا عاش مع زوجه وأطفاله السـبعة - أربعة ذكور وثلاث إناث - أكبرهم غاراغج[٢]. وكان غاراغج هذا جد بوزامامي والد بربوشي، وبربوشي من أشهر رهبانهم وزعمائهم لمهارته في الشعائر الوثنية التي ورثها عن أجداده في جبل دالا[٣]. وعن طريق هذه المهارة أصبح السيد الأعلى والزعيم الأوحـد في قومـه، ولا ينزل عن جبل دالا إلا يوم العـيد.[٤] وكان يقف بجـانبه زعـيم أقل منه، وخلفه في هذا المنـصب آخرون عديـدون، جاء ذكرهم في الحولية.[٥]

والصنم الذي كانوا يعبـدونه يسمى تُشنبربوري «Toshunburai» وهو عبارة عن شجـرة كبيـرة تسمى شـاموز «Shamuz» محاطة بسـور عال لا يدخله إلا الراهب الكبيـر - بربوشي - ومَنْ عداه يلاقي حـتفه إذا تجـرأ ودخله. والمكان المقدس لهذا الصنم يسمى «Kakua» أو «Kagua».[٦]

وبعد فترة وفد على هذه المنطقة زعيم آخر يدعى بغودا[٧] ومعه عشيرته، وقطن بين ظهراني أهل دالا، ثم أصبح رويداً رويداً يمتلك زمام الأمـر، حتى أصبح ملكا عليهم منذ سنة ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م إلى سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م[٨]. وبعد وفـاته خلفه أبناؤه[٩].

---

(١) Loc. cit.

(٢) Loc. cit.

(٣) Loc. cit.

(٤) يلاحظ أن الدكتور شيخو، الذي يبدو أنه قد اعتمد على المخطوطة العربية لحولية كانو، يذكر أنه كان ينزل مرة واحدة في السنة، انظر: شيخو، مرجع سبق ذكره، ص٣٤.

(٥) Kano Ch., p. 63.

(٦) Loc. cit.

(٧) Ibid, p. 64.

(٨) Ibid, p. 65.

(٩) Ibid, p. 64.

ثم توالت الملوك من هذه الأسرة حتى مطلع القرن التاسع عشر.[١]

أما عن التاريخ المدون لدخول الإسلام في كانو فهو النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي (الثامن الهجري). فالحولية تذكر أنه في عهد السلطان الحادي عشر من سلاطين كانو، المسمى علي ياجي (٧٥٠ ـ ٧٨٧هـ/ ١٣٤٩ ـ ١٣٨٥م) جاء إلى كانو وفد من الونغارة[٢] قادما من دولة مالي الإسلامية لدعوة أهل كانو إلى الإسلام[٣]. واسم زعيم هذه الجماعة عبدالرحمن زيتي[٤]، أما بقية أعضاء الوفد المكون من أربعين عضوا فمنهم: ياكوبو، ومندولي وفاموري وبلكاسم، وكاناغي ودوكيري وشيشي وكبي ومورتوكو وليمان ياللابو وغردامس وأوتا ولوال وليمان ماداتاي، وآخرون.[٥]

وقد اكتشف أخيرا الدكتور محمد أحمد الحاج[٦] مخطوطا آخر يلقي ضوءا على أصل هؤلاء الوانغارة[٧]، واسم المخطوط الجديد: «ورقة مكتوب فيها أصل الوانغريين المنتسبين للشيخ الفقيه العالم العلامة التقي الصالح البالغ في العلم درجة القدوة وهو المسمى باسم البركة عبدالرحمن بن محمد بن إبراهيم بن محمد قتما الونغري»[٨]. وهذا المخطوط الثاني يقول: إن الوفد

---

(١) Ibid, p. 65 ff.

(٢) وانغارة هو المكان الذي اشتهر بكثرة الذهب وجودته منذ الأزمان القديمة، وربما يكون على الضفة الغربية لنهر السنغال. وكان تحت مملكة مالي الإسلامية عندما حل الوفد الوانغاري بكانو. وعقد بوفل فصلا كاملا عن هذه المنطقة، ويناقش كل الآراء التي وردت حول تحديد مكان هذه المنطقة. انظر: الممالك الإسلامية في غربي إفريقية، مرجع سبق ذكره، ص ص٢٤٧ـ٢٦١.

(٣) Kano Ch. p.70.

(٤) Loc. cit.

(٥) Loc. cit.

(٦) هو سوداني من جمهورية السودان الحالية. عمل بكلية عبدالله بايرو بنيجيريا، كان من المهتمين بالتراث الإسلامي في غربي إفريقية. وقد توفي.

(٧) M.A. Al-Hajj, "A Seventeenth Century Chronicle on the Origins and Missionary Activities of the Wangarawa" Kano Studies, Vol.1,4 (1968), pp. 7-16.

وتاريخ كتابة هذا المخطوط هو: ١٠٦١هـ/ ١٦٥٠ـ١٦٥١م.

(٨) Ibid, p.9.

الونغاري المالي وصل في عهد السلطان محمد رمفا (٨٠٤ ـ ٨٦٧هـ/ ١٤٦٣ ـ ١٤٩٩م)، وهو زمن وصول المغيلي إلى كانو أيضا[١]. ترجم محمد أحمد الحاج هذا المخطوط إلى الإنجليزية وعلق عليه ونشره في مجلة دراسات كانو «Kano Studies» ومعه مقدمة حول مكان وانغارة وانتشار الوانغاريين في غربي إفريقية.

وفي ضوء هذا المخطوط هناك روايتان حول عدد العلماء من بين هؤلاء المهاجرين. فالرواية الأولى تقول بأنهم كانو ٣٦٣٦، وتقول الثانية بأنهم كانوا مئة وستين[٢]. ومهما يكن الاختلاف حول العدد فالذي يهمنا أن بعض علماء مالي قد قاموا بدور كبير في تاريخ الإسلام ودخوله وترسيخه ببلاد الهوسا، وأن هذه كانت اللبنات الأولى لتبادل التعليم بين بلاد الهوسا ومعاهد تنبكت وجني منذ القرن الخامس عشر الميلادي.

عندما وصل الوفد الإسلامي الونغاري إلى كانو اتصل بالسلطان ودعاه إلى مراعاة أوقات الصلاة، فاستجاب لذلك الطلب[٣]. وعين بعض أعضاء الوفد في مناصب ذات أهمية في المجتمع الإسلامي هناك.

ويقال إن ذلك كان بإشارة من الشيخ عبدالكريم المغيلي بعد أن رأى أنهم من العلماء الضليعين من العلم والمعرفة[٤]، فقد عين عبدالرحمن زيتي ـ رئيس الوفد ـ قاضيا، وعين غردامس إماما للصلاة، ولوال مؤذنا، وأوتا مشرفا على ذبح الماشية على الطريقة الشرعية، ومندولي إماما للونغاريين وزعماء الشعب في كانو.[٥]

---

(١) Ibid, p. 8,9.

(٢) Ibid. p. 10

(٣) Loc. cit.

ومن هذا يبدو أن الإسلام قديم في هذه البلاد، ولكنه سطحي، وجاء هؤلاء الونغاريون وأحدثوا ثورة تصحيحية للمفاهيم الإسلامية.

(٤) Al-Hajj, Ibid, p. 11.

(٥) Kano Ch., P. 70.

طلب السلطان من كل بلدة في إمارة كانو أن تراعي أوقات الصلاة، وقد استجاب جميعهم لطلبه، وبنى مسجدا تحت الشجرة المقدسة من جهة الشرق، وأقيمت فيه الصلوات الخمس.[1]

وفي البداية واجه السلطان مؤامرات تخريبية يقودها أحد الكهنة الوثنيين - غازازاوا - ضد إقامة الصلاة في هذه الرقعة - فكان كلما أدى المسلمون الصلاة وعادوا إلى دورهم أعقبهم هذا الكاهن وشرذمته ودنسوا كل المسجد بالأوساخ والقاذورات. ولوضع حد لهذا العبث رابطت دورية مسلحة لحماية المسجد، مستعينين عليهم بالصبر والصلاة والدعاء حتى أصيب الكاهن وشياطينه من الإنس بالعمى، وطرده السلطان من منصبه ساخطا عليه، ومشيعا له بقوله: «كن كاهنا وسط العميان» كما تقول الرواية.[2]

واستعان السلطان محمد رمفا[3] بالونغاريين في القضاء على أعدائه المناوئين مثل أهل سانونلو الوثنيين، وكان النصر حليفه، فتمكن من دك معقل مهم من معاقلهم الوثنية، وحارب قبائل كورارافا حتى أعطت الجزية عن يد وهي صاغرة.[4]

وتوجد بعض الإشارات التي تدل على أن بعض حكام كانو كانوا من نوع فريد، فالسلطان الرابع عشر حسب ترتيب بالمر، وهو عمرو بن كانياجيجي (٨١٢ - ٨٢٤هـ/ ١٤١٠ - ١٤٢١م) كان من العلماء الأتقياء. ولاعجب في ذلك إذا علمنا أنه تلميذ الشيخ دان غوردامس إبراهيم، وصديق أبي بكر الفقيه الزاهد الذي غادر كانو إلى برنو عندما ارتقى صديقه العرش هربا من صديق

(١) Loc. cit.
(٢) Ibid., p. 71.
(٣) Ibid., pp. 71-72.
(٤) Ibid., p. 72.

متعلق بالدنيا، وعاد بعد قضاء أحد عشر عاما في الخارج ليجد صديقه مازال في السلطة، فأخذ يعظه حتى جعله يتنازل عن الحكم ويغادر كانو مع صديقه إلى حيث العمل من أجل الآخرة، ونشر العلم والمعرفة الإلهية. وترك عمر حكم السلطنة في يد أخيه داود بن كانياجيجي، السلطان الخامس عشر (٨٢٤ ـ ٨٤١هـ/ ١٤٢١ ـ ١٤٣٨م)[١]. ولا نظن أن مفهوم أبي بكر للدين هو المفهوم الصحيح، فالرجل الصالح يمكن أن يكون أنفع للأمة الإسلامية إذا كان في مركز السلطة.

وفي عهد السلطان داود قدم إلى كانو أمير عظيم من جنوبي برنو ومعه قواته العسكرية وكثير من المعلمين[٢]. وبعد مشاورات سمح السلطان لهذا الأمير بالبقاء في كانو، ثم أكرمه بتولي السلطة في كانو لمدة خمسة شهور، عندما خرج السلطان إلى الحرب ضد سلطنة كاتسينا بقيادة الملكة أمينة.[٣]

ولا شك في أن قدوم جماعة من المعلمين مع هذا الأمير يعد نقطة مهمة في تاريخ الإسلام والتعليم الإسلامي في هذه الدولة. فلابد من أنهم قد قاموا بواجبهم التعليمي في بلاد تحتاج إلى علمهم، وبذلك كانوا شريانا هاما من شرايين الحياة الإسلامية والتعليمية في سلطنة كانو في حوالي منتصف القرن الخامس عشر (التاسع الهجري).

وجاء نبض آخر في عهد السلطان التاسع عشر، يعقوب بن عبدالله يورجا (٨٥٦ ـ ٨٦٧هـ/ ١٤٥٢ ـ ١٤٦٣م)[٤]. ففي عهد هذا السلطان سجل لنا التاريخ المكتوب أول إشارة إلى دخول علماء الفولاني مدينة كانو خاصة

---

(١) Ibid., p. 74.

(٢) Loc cit.

(٣) Ibid., p. 75.

(٤) Ibid., p. 76.

وبلاد الهوسا عامة. لقد دخلوا من جهة الغرب ومعهم كتب في التوحيد واللغة العربية[١]. وفي السابق كان لدى العلماء في أرض الهوسا ـ بالإضافة إلى القرآن ـ كتب في الفقه والحديث[٢]. وبمجيء هذا الوفد توفرت كتب في فروع أخرى من فروع الدراسات الإسلامية في البلاد. ومكث بعض علماء الفولاني في البلاد مرشدين ومعلمين، وهاجر بعضهم إلى برنو[٣] لينشروا المعرفة على نطاق واسع.

وتوالت المصابيح التي تنير سبيل المسلمين، ففي عهد السلطان يعقوب نفسه كان وصول أعداد كبيرة من البربر والعرب المسلمين للإقامة في كانو وكاتسينا.[٤]

وبعد وفاة السلطان يعقوب خلفه ابنه السلطان محمد رمفا (٨٦٧ ـ ٩٠٤هـ/ ١٤٦٣ ـ ١٤٩٩م)، وهو السلطان العشرون، وكان من العلماء والصالحين[٥]، ولا يوجد له مثيل في العظمة منذ تأسيس كانو حتى نهايتها. وتذكر حولية كانو أنه في عهد هذا السلطان جاء الأشراف من المدينة المنورة إلى كانو بزعامة الشريف عبدالرحمن، وكانوا عشرة، استقبلهم السلطان بحفاوة بالغة، وأقاموا في كانو.[٦]

وقد لاحظت أن الرواية التي جاءت في هذه الحولية المترجمة ذكرت الاسم عبدالرحمن مرتين ثم تأتي وتقول أخيرا: إن عبدالكريم عاد إلى مصر تاركا وراءه نائبه فاري ليقوم بالمهمة ويكمل الرسالة. ولكن مراجع أخرى تشير

---

(١) Ibid., p. 77.
(٢) Loc. cit.
(٣) Loc. cit.
(٤) Loc. cit.
(٥) Loc. cit.
(٦) Loc. cit.

إلى أن هذا الشـخص الذي قدم إلى كـانو في عهـد محـمد رمـفا هو العـالم المشهور مـحمد بن عبدالكريم بن مـحمد المغيلي التلمـساني. ومن الذين قالوا بذلك: الدكتور شيخو[١] وبطران.[٢]

والراجح عندي أن عبدالرحمن الذي تتكلم عنه الحـولية هو عبدالرحمن السيوطي المصـري الذي زار غربي إفريقية في هذه الـفترة، والدليل على ذلك أن مخطوطة أصـل الونغريين[٣] تذكر بأنه قـد جاء في عهد الملك رمـفا رجل مصري متخصص في تدريس المختصر وأعجب به زعيم الونغريين، عبدالرحمن زيني، فأمر طلبـته بنسخ الكتاب المذكور لإعجـابه بمادته، وهذا المخطوط يفرق تفريقا لا لبس فـيه بين هذا الشيخ المصري، والذي لم يسمـه، وبين عبدالكريم المغيلي، الذي سـماه باسمـه، وبين عبدالرحمن زينـي. ويزيد الدكتور محـمد أحمد الحاج[٤] الأمر إيضاحا عندمـا يذكر في حاشية تحقـيقه لهذا المخطوط أن لقب المغيلي هو «سيدي فاري» ومعناه «السيد الأبيض»، وبذلك يمكننا أن نقول إن السيـوطي ترك وراءه نائبه المغيلي عندمـا غادر كانو إلى مصـر، وإن المغيلي والسيوطي حضرا إلى كانو في عهد محمد رمفا، بجانب عبدالرحمن زيني.

---

(١) حركة اللغة، مرجع سبق ذكـره، ص٣٦، وقد اعتمد الدكتور شيخو على مصـادر مهمة منها رسالة دكتوراه بالإنجليـزية للدكتور غوزرو بعنوان (المغيلي، حـياته وأفكاره) «وصورة الرسالة موجـودة كما يقول في مكتبة كليـة عبدالله بايرو بكانو. واعتمد على مخطوطة بعنوان «تنبـيه الإخوان على أحوال أرض السودان» للشيخ عثمان بن فودي.

(٢) A.A.Batran, "A Contribution to the Biography of Elmaghili", J. A. H., XIV, 3 (1973), pp. 381094.

وغير هذه مراجع أخرى تذكر أن المغيلي كان في عـهد محمد رمفا، لذا يبدو أن مخطوط تاريخ كانو يذكر الاسم أحيانا عبدالرحمن وأحيانا أخـرى عبدالكريم، مما يشير إلى التباس كبير، وربما كان لقدم الرواية عندما سُجِّلت أثره في هذا اللبس.

(٣) Al-Hajj, op. cit., p. 13.

(٤) Ibid, p, 11.

وكان لمجيء هذه الجماعة أهمية كبرى لما لهذا الأمر من أثر عميق في نفوس المسلمين. وقد أسس عبدالرحمن وجماعته الإسلام على دعائم قوية في بلاد كانو، وكان معهم كثير من الكتب[1]، التي لم تفصح حولية كانو عن أسمائها، ولكن من الراجح أنها كانت في الشريعة والأصول واللغة وكل مايتعلق بالدراسات الإسلامية.

وأمر عبدالرحمن بإقامة مسجد جامع لأداء صلاة الجماعة[2]، وليكون مركزا ومعهدا للدراسات الإسلامية.

لقد شهد القرن السادس عشر تدفق العلماء والكتب الإسلامية إلى كانو. ففي عهد السلطان محمد كيسوكي «Kissoki» بن عبدالله بن محمد رمفا ـ السلطان الثاني والعشرين ـ (٩١٤ ـ ٩٧٢هـ/ ١٥٠٩ ـ ١٥٦٥م جاء إلى كانو ضمن من جاء من العلماء الشيخ تونس «Tunus» ومعه كتاب الشفا للقاضي عياض[3] ـ وجاء أيضا إلى كانو العالم دان ـ غورون ـ روما «Don - Goron -Duma» والشيخ عبدالسلام الذي أحضر معه المدونة بشرح سحنون، والجامع الصغير والسمرقندي.[4]

وجاء من برنو بعض المعلمين أمثال الشيخ كرسكي والشيخ مغومي والشيخ كابي[5]. وكان ثلاثتهم إخوة. وقد ارتاح السلطان كيسوكي إلى الشيخ كرسكي فطلب منه أن يصبح قاضيا، ولكنه رفض، واقترح أن يكون في هذا المنصب أخوه مغومي. ووافق مغومي على ذلك، وبنى مقرا لممارسة القضاء.[6]

---

(١) Kano Ch., p.77.
(٢) Loc cit.
(٣) Ibid, p. 79.
(٤) Loc cit.
(٥) Loc cit.
(٦) Loc cit.

بمجيء هؤلاء الأعلام أصبحت كانو محط أنظار من يريدون الاستزادة من العلم. فقد أصبحت مركزا إسلاميا مهما يَشُدُّ إليه أبناء المناطق المجاورة من بلاد الهوسا الرِّحالَ لتلقي العلم على أيدي هؤلاء العلماء الوافدين، فقد جاء في السنة التالية لمجيء الشيخ عبدالسلام عالم من علماء زاريا يدعى توبي، جاء لتلقي العلم على يدي الشيخ تونس، وأصبح من تلاميذه الكبار في كانو.[١]

وازداد عدد المساجد والمراكز التعليمية عندما طلب الشيخ عبدالسلام من السلطان كيسوكي أن يبني مسجدا جامعا آخر، فوافق السلطان على هذا الطلب[٢]، وفي هذا دليل على احترام آراء العلماء وأخذ آرائهم بعين الاعتبار في بناء صرح الحضارة الإسلامية.

وقد كان لتعاليم هؤلاء العلماء أثرها في نفوس الأمراء؛ فهناك من الأمراء من آثر حياة العلم والدراسة على تولي السلطة. وأكبر نموذج لهذه الروح العلمية عند الأمراء ما يروى عن السلطان الثالث والعشرين: ياكوفو بن كيسوكي (٩٧٢-٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م) الذي تنحى عن السلطة وعاش بين العلماء للدراسة[٣]، وذهب ليعيش في البلد التي تحمل اسمه - ياكوفاوا، وأنجب عدة أبناء، اعتلى بعضهم عرش السلطنة، مثل داود أبا سما، السلطان الرابع والعشرين[٤]، والسلطان محمد شاشيري (٩٨٠ - ٩٩٠هـ/ ١٥٧٣ - ١٥٨٢م) السلطان السادس والعشرين.[٥]

فإذا كانت حياة العلم والعلماء قد جذبت إليها حتى السلاطين، فلاعجب

---

(١) Loc cit.

(٢) Loc cit.

(٣) Ibid, p. 80.

(٤) Loc. cit.

(٥) Ibid, p. 81.

إذا سمعنا بكثرة المعلمين والعلماء بكانو ـ من كل الجنسيات ـ في عهد السلطان الخامس والعشرين، أبي بكر كادي بن رمفا (٩٧٣ ـ ٩٨٠هـ/ ١٥٦٥ـ ١٥٧٣م)؛ فقد وفدت إلى كانو جماعات من العلماء والمعلمين من البلاد التي تقع خارج بلاد الهوسا، ومن أولئك المعلمين: المعلم شريف وتاما وغيسو ووري، جاؤوا من باغرمي كما يقول بعض الناس[١]، وكان ناما أعظمهم، وكان أينما حل يترك أثره. فعند مروره بكاتسينا في طريقه إلى كانو أقام قليلا في كاتسينا. وقد سمي المكان الذي أقام به بـ«تاما»[٢] فيما بعد. وفي كانو تزوج من امرأة تحكم إحدى مقاطعات كانو المسماة باسم هذه السيدة ـ غوديا.[٣]

ومن الذين جاؤوا من الغرب الشيخ أبوبكر المغربي، صاحب الرأي والمشورة في الحرب والسلم، وقد كان لرأيه السديد الأثر الكبير في انتصار كانو على كاتسينا في عهد السلطان محمد زكي.[٤]

والسلطان أبوبكر أول من قرأ الشفا بمنزل الشيخ غورودوما وماكيرسيا، أحد مشاهير علماء كانو[٥]. ولم يقف هذا السلطان عند حد تعليم نفسه وارتياد منازل العلماء سعيا وراء التعليم والتثقيف الديني، بل كان أول سلطان يجعل أبناءه الأمراء السبعة يتعلمون القرآن، ويجزل لهم العطاء من أجل ذلك، ويحرص على مداومتهم على القراءة والصلوات الخمس في أوقاتها. وقام بجانب ذلك بعمل عظيم وهو بناء مدرسة لتعليم القرآن تسمى بـ«غورون بوغاشي».[٦]

---

(١) Loc cit.
(٢) Loc cit.
(٣) Loc cit.
(٤) Loc cit.
(٥) Loc cit.
(٦) Loc cit.

هكذا أسس السلطان أبو بكر القدوة التعليمية في نفسه وفي أولاده، فأصبح للعلم قدسيته وللعالم مكانته، وليس أدل على ذلك مما يروى عن أن كاتسينا عندما اكتسحت كل أجزاء كانو، لم يمنعها من دخول المدينة إلا حرمة العلماء الذين كانو فيها، وذلك في عهد السلطان السابع والعشرين، محمد زكي بن كيسوكي (٩٩٠ ـ ١٠٢٧هـ/ ١٥٨٢ ـ ١٦١٨م).[١]

وحافظ السلاطين من بعد أبي بكر على المدرسة التي أنشأها لأبنائه، فقد جددها السلطان الخامس والثلاثون، باوا بن محمد كوكونا (١٠٧٠ ـ ١٠٨١هـ/ ١٦٦٠ ـ ١٦٧٠م).[٢]

لم يكتف السلطان باوا بتجديد مدرسة أبي بكر، ولكنه هو أيضا بنى مدرسة أخرى عرفت بـ«بوغاشن كسكي» Pugachin Kaiski[٣] ومن فرط حبه للعلماء بنى لصديقه وزميل دراسته منذ الصبا، العالم علي ديكو، منزلا داخل قصره، ولا يفترق عنه أبداً إلا بعد صلاة العشاء، ولم يحظ منه بالتكريم هذا العالم وحده، بل هناك آخرون مثل الشيخ عبدالله، أحد الوافدين على مدينة كانو[٤]، فقد كان الشيخ عبدالله من أعذب الناس صوتا في ترتيل القرآن، مما كان له الأثر الطيب والوقع الحسن في نفس الشيخ علي ديكو عندما سمعه

---

(١) Ibid, P. 82.

(٢) Ibid, p. 87.

(٣) Loc. cit . (في كل البلاد التي يدخلها الإسلام يكون المسجد هو المعهد التعليمي الأول، ثم تنشأ بعد ذلك أمكنة أخرى بجانب المسجد تؤدي نفس المهمة. وعلى الرغم من وجود هذه المساجد في بلد مثل كانو، كما رأينا ذلك على ضوء المعلومات الواردة في مخطوط تاريخ كانو، وعلى الرغم من ذكر هذا المصدر لمدارس قامت لتعليم القرآن إلا أن الدكتور علي أبوبكر يرى أن المعاهد التعليمية لم تؤسس إلا في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي بكانو، مثل معهد كيرا الذي أُنشِئَ في سنة ١٢٣٣هـ/ ١٨١٧م). انظر: الثقافة الإسلامية في نيجيريا، مرجع سبق ذكره، ص١٠٦.

(٤) Ibid, p. 88.

يرتل القـرآن، فـعـرف به صـديقه السـلطان باوا، الذي أعـجب بدوره به أيما إعجاب، وبنى له دارا بـالقرب منه، وغدا يقرأ القرآن في حـضرة السلطان كل ليلة، فيدخل السـرور على قلبه. وعندما توفي المؤذن السابـق عين عبدالله هذا في مكانه مؤذنا.(١)

وفي فترة السنوات العشر التي حكم فيها السلطان باوا، ازداد عدد العلماء والصالحين الخيرين، وليس هذا بعجيب في عهد سلطان عالم صالح(٢). ومن الظواهر الواضحة أن العهود التي يحكم فـيها سلاطين علماء يأتي إلى بلادهم العلمـاء من كل البـلاد الإسـلاميـة المجـاورة، للدراسـة والتـدريس وللوعظ والإرشاد. ولم تعدم كانو في تاريخها الطويل أمثال باوا ومحمد رمفا وغيرهما من السلاطين العلمـاء؛ فقد استمـر الحال على رعاية العلم والعلمـاء في عهد خلفائهم أمثال ياجي بن دادي، السلطان الأربعين (١١٦٦ ـ ١١٨٢هـ/ ١٧٥٢ ـ ١٧٦٨م) الذي لقبتـه زوجته بالمعلم لافيا، وذلك لشدة حـبه للعلم والعلماء؛ ففي عهده جاء كثير مـن الناس للإقامة في كانو والعيش في رعايته وتحت راية عدله(٣). وزاد الناس في عهد خـلفه حتى أخذنا نسمع بمصـطلح «عرب كانو» وغيره مما يدل على تعدد الجنسيات.(٤)

ووجود العرب في كانو أو غيرها مـن إمارات الهوسا يدل دلالة واضحة على مصدر مهم من مصادر تعلم اللغـة العربية في هذه البلاد. فبالاحتكاك في ميادين الحـياة المختلفة يمكن أن يتـعلم الهوسي اللغة العربيـة، ويتكلم بها، أو يسهل عليـه تعلمها على يد الشيخ المعلم مـادام يستطيع الممارسة العـملية عند

(١) Loc. cit.
(٢) Loc. cit.
(٣) Ibid. p. 92.
(٤) Loc. cit.

التعامل مع العرب الوافدين.

وفي مطلع القرن التاسع عشر (الثالث عشر الهجري) أخذت تتضح معالم المعاهد التعليمية في كانو أكثر من ذي قبل؛ فقد أنشأ الشيخ عمر بن مختار معهدا للتعليم الإسلامي سنة ١٢٣٣هـ/ ١٨١٧م عندما قدم إلى كانو، ويعرف بمعهد كيرا.[١]

قبل تأسيس هذا المعهد سبق للشيخ مختار أن سافر إلى عدة مدن في سودان وادي النيل لطلب العلم، ثم اشتغل بعد ذلك بالتصوف فابتعد عن الناس، ولما قام الشيخ عثمان بن فودي بحركته الإصلاحية، وكان يرغب في الأعوان من كل الجهات، طلب من الشيخ مختار أن يستقر بكانو ويقوم بمهمة التوعية والإرشاد والإصلاح والتقويم.[٢]

وعندما حضر إلى كانو أقام بحارة تسمى «ادكاوا» ولكن بعد أن وضعت الحرب أوزارها، أقام في الحي الذي عرف فيما بعد بـ«كيرا» تلبية لطلب أمير كانو. وعند إقامته في كانو أنشأ المعهد المذكور. وكان عالما متفننا وله قدم راسخة في العلوم الإسلامية لاسيما التوحيد. وأَمَّ معهده الطلاب من معظم إمارات الهوسا.[٣]

لم يكن معهد كيرا هو المعهد الوحيد الذي شيد في كانو، بل تلته معاهد تعليمية أخرى خاصة في النصف الأخير من القرن (١٣هـ/ ١٩م)، مثل معهد النائب ومعهد مدابو ومعهد الحاج ناصر ومعهد ترومارا ومعهد أبي محمد

---

(١) علي أبوبكر، ص١٠٦. (يذكر الدكتور علي أبوبكر أن الأستاذ الحاج ناصر كيرا هو الذي أخبره بأن مؤسس هذا المعهد من سلالة آسكيا الحاج محمد، وأن «كيرا» قرية على ضفاف النيجر بينها وبين تنبكت مسافة خمسة أميال، فأطلق الاسم كيرا على الحارة التي أقاموا فيها عندما جاؤوا إلى كانو.

(٢) المكان نفسه.

(٣) المكان نفسه.

عبدالله بن جبريل.[1]

وهناك معاهد أخرى كثيرة أقيمت في القرن (١٤هـ/ ٢٠م). ولولا انتهاء فترتنا الزمنية، والمحددة بمطلع القرن (١٣هـ/ ١٩م) لوقفنا عندها كثيرا.

(١) المرجع نفسه، ص ص١٠٧ـ١٠٨.



المبحث الثاني



تاريخ حركة التعليم الإسلامي في معاهد كاتسينا[1]

توجد حولية لتاريخ ملوك كاتسينا القدماء من ثلاث نسخ، وقد اعتمد بالمر على واحدة من هذه النسخ الثلاث، وهي النسخة الأكثر وضوحا في كتابتها كما يقول بالمر[2]. واعتمادنا في تاريخ هذه المدينة ودخول الإسلام فيها هو ما كتبه بالمر عنها اعتمادا على الحولية التي عثر عليها في كاتسينا الحديثة سنة ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م.

وإلى جانب ذلك الإشارات التي وردت في حولية كانو عن تاريخ الإسلام والتعليم الإسلامي في هذه المدينة.

في ضوء الظروف المحيطة بهذه المنطقة يمكننا أن نستنتج بأن دخول الإسلام إلى هذه المدينة كان في المقام الأول نتيجة للعلاقات التجارية التي تكلمنا عنها في الفصل الأول.

أما العلاقات بين كانو وكاتسينا من القرن الخامس عشر حتى القرن التاسع عشر، فقد أخذت شكل الصراع المستمر للسيطرة على نهاية الخط التجاري عبر الصحراء، وهو أشبه بالصراع الذي دار بين جنوة والبندقية في

---

(١) أو كشنة. وفي هذا انظر: الألوري، الموجز، ص٧٩، الدكتور علي أبوبكر، ص١١٠، أو كاشنة. انظر: إنفاق الميسور، ص٤٦، .Bornu Sahara, op. cit . p.84 أو كشن. انظر السعدي، ص٣٩، ٤٠، وكاتسينا هو الاسم الحديث الذي تعرف به رسميا في دولة نيجيريا الحديثة. وقد أخذ هذا الاسم في الظهور منذ أن زار الوزان هذه المنطقة انظر: Leo Africanus, p. 830. وحول دراسة هذا الاسم دارسة مستفيضة انظر: H.P. Palmer, "History of Katsinna", J. A. H. Vol. XXVL, ., (April, 1972), pp. 216-20.

(٢) Hist. of Kat., Ibid, p. 220.

العصور الوسطى من أجل السيطرة التجارية.[1] وعلى الرغم من هذا الصراع لم تتوقف حركة هجرة العلماء إلى هاتين الدولتين كما رأينا في دراستنا لتاريخ التعليم في كانو، ولم تتوقف هجرة القبائل العربية إلى بلاد الهوسا؛ فقد لاحظت أن العرب كانوا أحيانا يرحلون من كانو إلى كاتسينا إذا ضيق عليهم الحكام الخناق بفرض الإتاوات أو غيرها.[2]

وبحلول القرن السابع عشر كانت كانو في موضع ضعيف نسبيا، إذ تعرضت للهجوم من برنو في الشرق، ومن إمارة كبي القديمة في الغرب، بالإضافة إلى خلافات داخلية مع كاتسينا[3]. وكان هناك صراع مع قبائل الكوروررافا الوثنية من قبل ذلك[4]، وتجدد في أواخر النصف الثاني من القرن السابع عشر، مما أدى إلى تحطيم واحتلال كل أجزاء كانو.[5]

أما كاتسينا، فعلى الرغم من أنها تعرضت إلى غزوات دورية من جانب الكوروررافا، إلا أنها كانت أكثر فلاحا في الاحتفاظ باستقلالها[6]، ففي حوالي سنة ١٠٦٠هـ/ ١٦٥٠م، وفي عهد السلطان الحادي والثلاثين - شيكارو بن علي حاجي الكانوي (١٠٥٩ - ١٠٦١هـ/ ١٦٤٩ - ١٦٥١) - عقد صلح بين كانو وكاتسينا بعد أن تكبدت كاتسينا هزيمة كبيرة على يد كانو، وقد شهد على

(١) T. Hodgkin, Nigerian Perspectives, P. 30; Kano Chr., p. 80 ff.

هذا المرجع عبارة عن مخطوطات عربية جمعها المؤلف وترجمها إلى الإنجليزية، وتتعلق بتاريخ نيجيريا قبل سنة ١٩٠٠م، وزاد على ذلك ما كتبه المسلمون والعرب منذ القرن التاسع الميلادي، وأورد أيضا بعض المخطوطات التي ترجمها بالمر إلى الإنجليزية. وجمعها في كتابه المشهور "Bornu Sahara".

(٢) Kano Chr., p. 90.

(٣) Kano Chr., p. 81 ff., Nigerian Perspectives, op. cit., p. 30.

(٤) K, Chr. p. 72.

(٥) Nigerian Perspectives, p. 30, K.C. p. 83.

(٦) Nig. Persp. Loc. cit.

هذا الصلح وأمضاه خمسة من العلماء[١]، وكان هذا الصلح موجها ضد العدو المشترك الوثني، وهو قبائل الكوروروافا.[٢]

ولم تسلم كاتسينا في القرن (١٢هـ/ ١٨م) من هجوم جاراتها الهوسية. مثل غوبير التي ضمت جارتهـا زانفرة سنة ١١٧٨هـ/ ١٧٦٤م، وأقامت نفسها قوة سياسية هوسية مهيمنة.[٣]

وكما كان لكانو تاريخ مكتوب، فقـد كان لكاتسينا أيضا تاريخ مكتوب، ولكن لم يكن بالوضع الذي وصلنا به تاريخ كـانو. وأهم ما وصلنا من تاريخ مسجل لهذه الإمارة هو تاريخ كاتسينا الذي حصل عليه بالمر.

إن من بين أهم السلاطين الذين تقلدوا زمام السلطة في إمارة كاتسينا كان السلطان محمد كوارو (٧٢٠-٧٥٣هـ/ ١٣٢٠ - ١٣٥٢م)، وفي عهده سمعنا بأول خبـر مدون عن تاريخ دخول الإسلام إلى كـاتسينا[٤]. ويرجّح بالمر[٥] أن محمد كوارو أسلم على أيدي علمـاء الونغارا الذين قدموا من مالي وجني في عهـد السلطان الكانوي علي باجي (٧٥٠-٧٨٧هـ/ ١٣٤٩ - ١٣٨٥م)، ولكن كما وضـحنا سابقا وفي ضوء مـخطوط أصل الونغريين أن قدوم هذه الجـماعة كان في عهد السلطان محمد رمفا، في القرن الخامس عشر، وعلى ذلك يكون إسلام محمد كوارو قد تم قبل وصـول هذه الجماعة بحوالي القرن. وما دامت المصـادر لا تجزم بذلـك فيـمكننا القـول إن إسلام هـذا السلطان تم عن طريق العلاقات التجارية الوثيقة التي كانـت تربط كل أجزاء غربي إفريقية مع شمالي

---

(١) Kano Chr., p. 86.

(٢) Nig. Persp. p. 30.

(٣) Ibid. p. 30.

(٤) History of Katsinna, op. cit. p. 222.

(٥) Loc. cit.

إفريقـية ووسائل الاحـتكاك الأخرى. وبالمر[1] نفسه يرى أنـه من المحتمل أن يكون لدخول الإسلام كاتسـينا صلة بقبيلة سلباوا «Sulibawar» الفولانية، التي هي في الأصل خليط متـساو من الفولاني والوانغارة. جاءت هذه الـقبيلة إلى كاتسينا وأقامت في إقليمي شنكافي وبوقاجي شمالي المدينة.[2]

وكانت هذه القبـيلة عنصرا مهمًا من العناصر الـسكانية التي تتكون منها المدينة قـبل جـهاد الفـولاني في مطلع القـرن (١٣هـ/ ١٩م)[3]. وهذا الذي توصل إليه بالمر هو الذي يمكن أن يـقبل ويدعم ما ذهبنا إليه من أن العـلاقات التجـارية والهجرات السكانية قـامت بدور فعال في حـمل الإسلام إلى مناطق مختلفة في غربي إفريقية.

ويمكن ملاحظة أن مـسجد هيب «Habe» بكاتسينا ـ والذي مـازال يوجد جزء منه ـ قد بني على الـطراز الجاوي (نسبة إلى جاو عـاصمة سنغي) والجني في الحي المسـمى آنتارا «Antara». وفي هذا دليل واضح على الأثـر المعمـاري للبناء في دولتي مالي وسنغي.[4]

وقد خلف محمـد كوارو في السلطة شخصية مهمـة أدت دوراً كبيراً في مسـاعدة سلفه ـ السلطان مـحمد ـ في نشـر الإسلام بإمارة كـاتسينا[5]، وهو

(١) Loc. cit.

(٢) Loc. cit.

(٣) Loc. cit.

(٤) Loc. cit. (غزا آسكيا الحـاج محمد هذه الدولة في سنة ١٥١٢م، مما أعطاها دفعة قـوية في مجال انتشـار الإسلام بين أهلها وتقـوية ذلك بالتعليم الإسـلامي الذي سبق أن بدأ بأثر من مـعاهد سنغي الإسلامـية حول نهـاية القرن (٩هـ/ ١٥م)، عندما جـاء إلى بلاد كاتسيـنا الفقيـه مخلوف بن علي البلبالي ومحمد بن أحمد التاذختي، وعين الأخير قاضيا في كاتسينا، وحظي باحترام بالغ من الحكام والرعية. وفي هذا انظر: النيل، ص٣٢٤، السعدي، ص٣٩، ٤٠).

(٥) Hist. of kats., Loc cit.

السلطان إبراهيم سـرا «Sura» (٧٥٤-٧٥٦هـ/ ١٣٥٣-١٣٥٥م)[١]، والكلمـة «سـرا» دليل آخـر على أثر مـالي في الألقـاب، لأن هذا اللقب من الألقـاب المالية[٢] ـ نسبة إلى مالي ـ.

ومنذ عصر محمد كوارو ظلت كاتسينا تأخذ مكانها بين المراكز الإسلامية الهامة في غربي إفريقية عامـة وفي بلاد الهوسا خاصة، وظل حكامها المسلمون يقومـون بدورهم في استقـبال ورعاية العلمـاء القادمين إلى بلاد الهوسـا لنشر الوعي الإسلامي والقيام بالتدريس. فـفي عهد السلطان إبراهيم ماجي (إبراهيم الثاني)، حول نهاية القرن ٩هـ (٩٠٠هـ) ١٥م (١٤٩٤م)، قـدم إلى بلاد الهوسا العالم الكبير محمد بن عبدالكريم المغيلي[٣]. وفي كاتسينا أصاب المغيلي نجاحا كبيرا، وكان بذاته مـعهدا مـتحركـا. جلس للتدريس والوعظ والإرشـاد. وقد نصح السلطان إلى مافيه صلاح الأمة وحفظ الدين من كل الشوائب. وفي هذا الزمن

(١) Ibid, p. 220.

(٢) Loc. cit.

(٣) Loc. cit. (هناك اختـلاف بين المؤرخين حول السلطان الذي كان على رأس كـاتسينا في زمن زيارة المغيلي. فـبالمر يستند في رأيه إلى أن إبراهيم مـاجي كان معاصـرا لاسكيا الحاج محـمد (١٤٩٣م ـ ١٥٢٨م) الذي زار المغيلي في زمـانه دولة سنغي بعد أن طوف بكانو وكـاتسينا. وفي مـؤلف يسمى «رسالة الملـوك» ـ ذكرناه في مكانه من مـلاحق هذا البحث ـ للسـيوطي (١٤٤٦ـ١٥٠٥م)، فـيه أن السيوطي كـتب رسالة إلى محمد بن صطفـو (١٤٨٧ـ١٤٩٣م)، سلطان أكدز (أجاديس ـ Agades) والسلطان إبراهيم الكاتسـيني، مما جعل من المحـتمل جدا أن يـكون المعني هو إبراهيم ماجي، أكـثر الملوك شهرة، وحكم كاتسينا أثناء قمة شـهرة السيوطي في العالم الإسلامي. ويتفق مع بالمر في هذا الرأي السيد بارت، كمـا يشير بطران "See: Batran, op. Cit., p. 391." ويختلف مع هذين المؤرخين كل من هوجبن وكيرك ـ جريني، إذ يذهبان إلى أن وصول المغيلي إلى كاتسينا كان في عهد أول ملك مسلم ـ محمد كواري ـ انظر:

The Emirates of Northern Nigeria, op. cit., pp. 161-81

ويذكر اسمث: (H. F. C. Suith: "Further Advnaturc in the Chronology of Katsinna')

أن هذا الملك هو إبراهيم سرا، ولكن طبقـا لتواريخه التي وضعها فـإن إبراهيم سرا أصبح ملكا في سنة ١٥٤١م، بينما المغيلي توفي حوالي سنة ١٥٠٥م، انظر Batran, op. ci., p. 392

M. A. AL-Hajj, op. cit., p. 11.

والتعليم بينما واصلت أغلبيتهم السير مع زعيمهم إلى كانو.[١]

وعندما تفككت دولة سنغي الإسـلامية إثر الغزو المراكشـي لها في نهاية القرن السادس عشر، برزت إمارات الهوسا عامـة وكاتسينا خاصة كملجأ لكثير من العلماء القـادمين من معاهد تنبكت وجاو وجني، وازدهرت المدينـة علميا، ووجد حي خـاص بالطلبة[٢]. وأصبـحت كاتسينا المدينة من المدن القـيادية في غربي إفريقـية. وقد تحول معظم عناصـر ازدهار سنغي إليها، فوجدت نفـسها صاحبة شهـرة وحضارة مزدهرة[٣]. ونافست أجاديس في صناعة الجلود التي اشـتهـرت بهـا. وأدخل هذا النوع من الصناعـات أهل سنغي الوافـدين على كاتسـينا[٤]. وبمرور الزمن أصـبحت كاتسـينا تشتـهر بالعـدل وتسودها العـفة والأخلاق الحـميدة، وتكثر فـيها المعاهد التـعليمية. وقـبل أن تجتاحهـا قوات المجاهد عثـمان بن فودي كانت مركـزا تجاريا مهمًـا، إذ إن كل القوافل اتجهت إليها، فاحتلت مكان كانو في التجارة والعلم.[٥]

لا غرابة إذن في أن نجـد بهذه المدينة بقايـا من تلك المعاهد التي أسسـها العلماء المهاجرون من شـتى بقاع غربي إفريقية وشماليهـا؛ فالدكتور أبوبكر[٦] يذكر لنا أربعة معاهد رئيسة:

الأول: معهـد الحنبليين. وهو من أهم معاهد كاتسـينا التي أسهمت في نشر العلم. وتولى عدد كبير من علمـاء المعهد مناصب القضاء، ويدعى الشيخ الذي أنشأه محمد غـيغما، وأصله من مالي. كان عالما ورعا تقيا فـقيها. وبعد

---

(١) Al-Hajj, Ibid, p. 10.

(٢) The Muhamadan Emirates, op. cit., p. 93.

(٣) Loc. Cit.

(٤) Loc. Cit.

(٥) Loc. cit.

(٦) الثقافة العربية في نيجيريا، ص١١٠.

وفاته خلفه ابنه محمد زاكي الذي كان كوالده أيضا في العلم والصلاح. ثم انتقل التدريس بالمعهد بعد وفاته إلى ابنه محمد طن كند، ومنه إلى ابنه أحمد حنبلي. ولرسوخ أحمد حنبلي في العلم، بز كثيرا ممن سبقه من علماء الأسرة، حتى نسب المعهد إليه. وسار المعهد في رسالته حتى اليوم.[1]

الثاني: معهد درما، يرجع تأسيس هذا المعهد إلى ماقبل ظهور حركة الشيخ عثمان بن فودي الإصلاحية، وقد أنشأه الشيخ أبوبكر الذي كان يجمع بين علوم اللغة والدين. ومازال المعهد يؤدي رسالته العلمية حتى اليوم.[2]

أما المعهدان الآخران فهما معهد السوق القديمة الذي أنشأه الشيخ بلادن محمد بن عثمان بن يحيى بن محمد البكري، حوالي سنة ١٢٤٣هـ/ ١٨٢٧م، ومعهد بغوغني، الذي أسسه الحاج أبوبكر. وهو الآن أكبر معهد بكاتسينا.[3]

ومما تجد الإشارة إليه في ختام هذا المبحث أن ننوه إلى أنه لم تكن المعاهد التعليمية في كانو وكاتسينا فقط، بل شاركتهما في هذا المجال إمارات هوسية أخرى مثل زاريا، التي عرف فيها بعض المعاهد منذ حوالي النصف الثاني من القرن الثامن عشر. ومن أقدم معاهد هذه المدينة معهد حارة جوما ومعهد أم كونا. وكان نشاطهما في بادئ الأمر منحصرا في نشر مبادئ الإسلام، وإمامة المسلمين في الصلاة. حتى إذا انتشر الإسلام على نطاق واسع في أوائل القرن التاسع عشر، أخذ المعهدان يركزان نشاطهما على نشر العلم والثقافة الإسلاميين[4]. وتكاد تنحصر إمامة الجمعة في جامع زاريا الكبير بين شيوخ المعهدين منذ ذلك الوقت، وإن كان عدد الذين تولوا الإمامة من معهد

(١) المكان نفسه.

(٢) المرجع نفسه، ص١١١.

(٣) المكان نفسه.

(٤) المرجع نفسه، ص١١٢.

حارة جوما أكثر، وأكبر دليل على ذلك أن اسم جـوما نفسه هو كلمة «جمعة» العربية.[1]

أما معهد أم كوفا فقد أسسه الشيخ هارون بن جبريل عندما قدم إلى بلاد الهوسا من برنو وأقام في قرية كونا على مـقربة من زاريا. ويقال إن عددا كبيراً من الوثنيين قـد أسلم على يديه، ومن بينهم ربوا أمـير زكزك. الذي تـسمى بـ«محمد» بعـد إسلامه. ومازال نسل هذا العالم يتولى شـؤون هذا المعهد إلى الوقت الحاضر.[2]

وغير هذين المعـهدين معاهد أخرى في زاريا أنـشئت بعد النصف الأول من القرن (١٣هـ/ ١٩م)، مثل معهد والي عمر ومـعهد كاكاكي، ومعهد توفر دوكا.[3]

---

(١) المكان نفسه.

(٢) المرجع نفسه، ص ص١١٢-١١٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ص ١١٣-١١٤.

المبحث الثالث

أشهر علماء بلاد الهوسا

في هذا المبحث يتناول الكتاب العلماء المسلمين الذين قاموا بدور بارز في تاريخ الدعوة إلى الإسلام وتعميق مفاهيمه بالوسائل التربوية التعليمية، لاسيما علماء الفولاني[1]، الذين أصبحوا جزءا من سكان هذه المنطقة رويدا رويدا، وتولوا زمامها كقوة سياسية ودينية إصلاحية منذ مطلع القرن الثالث عشر الهجري (١٩م) حتى دخول الاستعمار البريطاني هذه البلاد في سنة ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م. وهؤلاء العلماء هم:

١ ـ محمد الكاتسيناوي (أو الكشناوي)

يعرف هذا العالم بـ«ابن الصباغ دان مارنا»[2]. يصفه الإمام بلّو[3] بأنه «دهليز العلم». وقد كان أستاذا للشيخ العالم محمد مسنه[4]، الذي ستأتي ترجمته.

وتاريخ حياة الشيخ محمد مسنه معروف، لأن أحد الذين استقى منهم الباحث كنسديل «Kensdale»، أفاده بأن تاريخ وفاة دان مارنا كان سنة ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٥م[5]. ولما كان دان مسنه قد مات سنة ١٠٦٨هـ/ ١٦٦٧م، فإن هذا التقدير لتاريخ وفاة ابن الصباغ فيه الكثير من الصحة، وذلك في ضوء العلاقة

---

(١) انظر النبذة التي كتبناها عن الفولاني عند الكلام عن دولة الفولاني الإسلامية.

(٢) إنفاق الميسور، ص٥٢.

A. D. H. Bivar and Hiskett. "The Arabic Litrature of Nigeria to 1304", B. S. A.S., Vol. I, (1964), p. 113.

(٣) الإنفاق، المكان نفسه.

(٤) المكان نفسه.

(٥) نقلا عن: Bivar and Hiskett, op. cit., p. 113.

Kensdale; "A Gatalogue of the Arabic Manuscripts Preserved in the University of Ibadon, 1955.

التعليمية التي كانت تربط بينهما(١). وهناك بينة تاريخية أخرى تفيد صحة هذا التاريخ، وهي أن للشيخ ابن الصباغ قصيدة تشيد بنصر ملحوظ لأحد مايات (سلاطين) برنو - الماي علي - على قبيلة الكورارفا أو قبيلة الجوكن من وادي بنو «Benu». ولو فرض أن الماي علي هو الماي علي بن الحاج عمر، والذي حكم طبقا للحولية التي توصل إليها الباحث أورفوي «Urvoy»(٢)، والتي تحدد زمن حكم السلطان علي فيما بين عامي ١٠٦٨ و١١٠٦هـ/ ١٦٥٧ و١٦٩٤م، فإن ابن الصباغ لايمكن أن يكون قد عاش ليعرف عن انتشار الماي علي، ومن ثم فإن التاريخ الذي توصل إليه أرفوي غير صحيح(٣). ولكن التاريخ الذي توصل إليه بالمر(٤) كبديل لذلك هو أن الماي علي بن الحاج عمر قد حكم في الفترة بين سنتي ١٠٥٥ و١٠٩٦هـ/ ١٦٤٥ - ١٦٨٤م، وأن الحرب ضد الكورارفا لابد أن نكون قد وقعت في بداية عهده. وهذا التاريخ يجعل الحوادث تسير في تسلسل منطقي، ولابد من تفضيله على ماسواه من افتراضات أخرى.(٥)

يذكر الإمام بلّو(٦) أن لابن الصباغ مؤلفات، ولكنه لم يذكر لنا غير مؤلف واحد، وهو الشرح الذي وضعه على عشرينيات الفزاري، ولم يشتهر هذا الشرح. ولكن الباحثين بيفار وهسكت(٧) قد توصلا إلى مؤلفين آخرين لابن الصباغ، هما:

أ) مزجرات الفتيان: وهي عبارة عن قصيدة فيها وصية إلى الشباب ليعملوا

---

(١) Ibid, p. 114.

(٢) Y. Urvoy: Histoire de L'empire du Bornu (Paris 1946) p. 85.

(٣) Bivar and Hiskett, op. cit., 114.

(٤) H. R. Palmer: History of the first Twelve Years of the Reign of Mai Idris Alooma 1571-1583, (London 1926) p. 91.

(٥) Bivar and Hiskett, p. 114.

(٦) إنفاق الميسور، ص٥٢. Bivar and Hisk., op. cit. p. 114.

(٧) Bivar and Hisk, op. cit. p. 114.

ماينفعهم، ويبث فيهم الروح الدينية. وهذه القصيدة محفوظة في مكتبة جامعة إبادان بنيجيريا، وذكرها كنسديل في القائمة التي تحتوي المخطوطات العربية في جامعة إبادان. وهناك نسخة مخطوطة أخرى في كاتسينا.

ب) قصيدة في مدح أمير المؤمنين علي، سلطان برنو، عندما انتصر على قبائل الكورارفا. وقد ذكرت هذه القصيدة عدة مراجع[1]. أما الأصل العربي للقصيدة أو المخطوط الذي عرفت منه فلم يكشف النقاب عنه حتى الآن، وهناك من يرى احتمال وجود هذا المؤلف محفوظا في كاتسينا.[2]

ويذكر الألوري[3] بعض الأبيات الشعرية لابن الصباغ، ولعله قد أخذها من قصيدته الخاصة بوصيته للفتيان، ومما جاء فيها:

العلم نور الله كالإيمان ينقصه تلعبة الصبيان
العلم روض الله كالبستان أشجاره كثيرة الأفنان
أثماره تطيب باللسان من ذاقه يرقى إلى الكيوان[4]

وعلى الرغم من إهمال المؤرخين لدوره التعليمي، إلا أن وصف بلّو له بـ«دهليز العلم» يوحي بدوره الكبير في مجال التعليم، ولا نظن أن من حمل هذا اللقب كان خاملا.

(١) Palmer, Hist. of Kats, op. cit., pp. s 6-7.
Palmer, Bornu Sahara, op. cit., p. 246
C. K. Meek: A Sudanese Kingdom, p. 27
Hodgkin, Nigerian Perspe., op. cit., p. 132.
(٢) Bivar and Hisk, op. cit., p. 114.
(٣) موجز تاريخ نيجيريا، ص٨٠.
(٤) الكيوان: هي الشمس.

٢ ـ محمد بن مسنه

هو أبوعبدالله محمد بن مسنه بن فوما بن محمد بن عبدالله بن نوح البرنوي الكشناوي. وقد أورد هذا النسب الباحثان بيفار وهسكت استنادا إلى ماجاء في المخطوط الذي عثرا عليه[١]. وقد نبههما المعلم مُتنكا كوماسي، عالم العربية الزاري المرموق، إلى وجود واحدة على الأقل من مؤلفات ابن مسنه. وبعد العثور على المخطوط أمكنهما التعريف بمؤلفات هذا العالم[٢]، وفي ضوء ما كتب عنه في السابق.

والمؤلف الموجود لهذا العالم هو «النفحة العنبرية»[٣]، وبافتتاحية هذا المؤلف وخاتمته معلومات عن الكاتب، ومن هذه المعلومات الاسم الكامل للكاتب حسبما ذكرناه آنفا، وتاريخ موت الكاتب الذي حدد بيوم الأحد الثاني من رجب سنة ١٠٨٧هـ/ ١٨ ديسمبر/ كانون الأول ١٦٦٧م بعد عمر جاوز الخمسة والسبعين عاما. وذكر أنه عاش حتى العام الخامس من عهد السلطان الكاتسيني سليمان. وهذه التواريخ لاتتمشى مباشرة مع قائمة الملوك التي أعدها بالمر[٤]، والتي جاء فيها أن السلطان الوحيد الذي يحمل هذا الاسم هو سليمان وتاريخه ٩٥٢-٩٦٥هـ/ ١٥٤٥-١٥٥٧م.

ويمكن أن نستخلص من هذه الحقائق بأنه ولد حوالي سنة ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٥م[٥]. ومما ذكرته المصادر من مؤلفات ابن مسنه حتى الآن:

---

(١) Bivar and Hisk., pp. 114-115 . (والمخطوط الذي اعتمدا عليه سمياه (م). وهو المصدر نفسه الذي اعتمد عليه المعلم متنكا أثناء دراسته في جواندو. وقد أخذها من نسخة قديمة محفوظة هناك يرمز إليها الباحثان بـ«ج». وقد عرفاها من قراءتهما للنسخة (م).

(٢) Loc cit.

(٣) Bivar and Hiskett, op. cit. p. 115. انفاق الميسور، ص٥٢

(٤) Hsitory of Katsina, op. cit., p. 224, Loc. cit.

(٥) Bivar, Loc. cit.

١ ـ النفحة العنبرية في حل ألفاظ العشرينية[1]. أكملها في أول رجب عام ١٠٤٩هـ/ يوليو ـ أغسطس/ تموز-آب ١٦٤٠م.[2]

٢ ـ اللطيف المنظوم وليس فيه حرف منقوط.[3]

٣ ـ البزوغ الشمسية في شرح العشماوية[4]. وهو شرح لكتاب عبدالباري الرفاعي العشماوي «المقدمة العشماوية في العبادات».[5]

٤ ـ تزيين العصا وضرب هامات من عصى.[6]

٥ ـ عين الخلاص في تلاوة سورة الإخلاص.[7]

٦ ـ شفا ربا في تحرير فقهاء يوروبا.[8]

٧ ـ نزهة يسيرة على معرفة مايقبل الصرف وعدمه.[9]

٨ ـ فتح المرام بمثل قصيدة ابن هشام.[10]

لقد كان الشيخ مسنه الكاتسيني الأصل فقيها مرموقا استحق أن يكون مستشارا للسلطان في أيامه. ومازالت أسرته تحمل اسمه، وأصبح اسمه أيضا أحد الألقاب الرسمية في الدولة.[11]

---

(١) Loc. cit.، إنفاق الميسور، ص٥٢.

(٢) Loc. cit.

(٣) Loc. cit.

(٤) Gal, Supp., 11, p. 435. الإمام بلّو يورد كلمة «البزوغ» مجردة من الألف واللام، انظر: إنفاق الميسور، ٥٢.

(٥) د. عبدالرحمن زكي، المراجع العربية، مرجع سبق ذكره، ص٢٦.

(٦) Bivar, Loc. cit.، المراجع العربية، المكان نفسه.

(٧) Loc. cit.

(٨) اقتبس السلطان بلّو عنوانا مشابها لهذا وسمى به أحد مؤلفاته، وهو: «أزهار الربا في أخبار يوروبا» ويمكن أن تكون إشارة إلى المؤلف نفسه. انظر: إنفاق الميسور، ص٥٢.
Bivar and Hiskett, op. cit., p. 115.

(٩) Loc. cit.

(١٠) Loc. cit.

(١١) Loc. cit.، المراجع العربية، ص٢٦.

٣ - عبدالله سك الفلاتي البغاوي

كان هذا الفقيه من العلماء البارزين في بلاد الهوسا، وليس أدل على ذلك من وصف الإمام بلّو[١] له بقوله: «الشيخ الإمام العلامة، النحرير الفهامة، فريد دهره ووحيد عصره».

رحل هذا الشيخ لطلب العلم في بلاد فزان. وتتلمذ على مشاهير الشيوخ في زمانه، وعلى رأسهم البكري[٢]. وعندما آب إلى وطنه بعد التزود بالعلم الغزير، تصدى للتدريس، وأخذ عنه جماعة من فضلاء الطلبة العلماء.[٣]

وله مع شيخه البكري خلاف في مسألة تتعلق بعادة كان يفعلها الفلانيون[٤]، يرى البكري أنها موجبة للكفر، ويرى عبدالله أنها من المعاصي ماداموا يقرون بالتوحيد ويصلون ويصومون[٥]، والإمام بلّو[٦] يرى أن الصواب مع الشيخ البكري. ومهما يكن الخلاف بينه وبين شيخه البكري فإن الفقيه عبدالله كان من العلماء الذين يشار إليهم بالبنان، وجرى على مدحهم الأنام، حتى قالوا فيه:

مدينة العلم عبدالله ذاك سكا ... وفي التعدد خذ من بعده عمرا[٧]

---

(١) الإنفاق، ص٥٠.

(٢) المكان نفسه.

(٣) المكان نفسه.

(٤) عادة تقديس النار والقيام ببعض الطقوس حولها في يوم معين. انظر ذلك في الإنفاق، ص٥٠.

(٥) المكان نفسه.

(٦) المكان نفسه.

(٧) ربما يعني عمر بن محمد الترودي، الذي ستأتي ترجمته.

٤ ـ محمد بن محمد الفولاني الكشناوي

إن من حسن الحظ أن تكون مؤلفات هذا العالم قد عرفت في زمنٍ ما بالقاهرة. وسبب ذلك أن الشيخ محمد مات بالقاهرة وهو في طريق عودته من الحج[١]. ويرجع الفضل الأكبر في التعريف بالشيخ محمد للمؤرخ المصري عبدالرحمن الجبرتي، الذي كتب ترجمة عن هذا الشيخ ومؤلفاته. ومعرفة الجبرتي بمحمد الفولاني كانت نتيجة لمعرفة الشيخ محمد بعلوم التنجيم التي كان من أشهر علمائها في مصر الشيخ حسن الجبرتي، والد المؤرخ عبدالرحمن الجبرتي.[٢]

لقد تلقى حسن الجبرتي (الجبرتي الكبير) علوما مختلفة من محمد الكاتسيناوي، من بينها علوم التنجيم والعددي[٣]. ولم يفّوت ابنه عبدالرحمن الفرصة، فقد كان مهتما بتدوين سير العظماء، فدفعه ذلك إلى أن يترجم لهذا العالم الذي نزل بدارهم ضيفاً ومعلما، ومات بدارهم سنة ١١٥٤هـ/ ١٧٤١م. وفي عبارات الجبرتي دليل على الإعجاب بهذا الضيف الحاج الكاتسيني الزائر.

وفد أوردنا الترجمة التي كتبها عنه عبدالرحمن الجبرتي في الملحق رقم «٨» من هذا البحث.

وهذه الترجمة تعكس لنا جليا مكانة هذا العالم العلمية بين علماء زمانه المشارقة والمغاربة.

---

(١) الإنفاق، ص٥١، الجبرتي: عجائب الآثار، ص١٦٠.

(٢) Bivar and Hiskett, p. 135.

(٣) عجائب الآثار، ص١٦٠.

وكتبت مؤلفات الشيخ محمد الموجودة أثناء مجاورته وفيما بعد ذلك. وقد ذكر الجبرتي[1] عناوينها ووصفها في نصه: «.. وحج سنة ١١٤٢هـ/ ١٧٢٩م، وجاور بمكة وابتدأ هناك بتأليف: الدر المنظوم وخلاصة السر المكتوم في علم الطلاسم والنجوم ، وهو كتاب حافل رتبه على مقدمة وخمسة مقاصد وخاتمة، وقسم المقاصد أبوابا، وأتم تبييضه بمصر في رجب سنة ١١٤٦هـ/ يناير ١٧٣٤م. ومن تآليفه كتاب بهجة الرفاق، وإيضاح اللبس والإغلاق في علم الحروف والأوفاق، ورتبه على مقدمة ومقصد وخاتمة، وجعل المقدمة ثلاثة أبواب والمقصد خمسة أبواب، وكل باب يشتمل على مقدمة وفصول ومباحث وخاتمة. وله منظومة في علم المنطق سماها: منح القدوس، وشرحها شرحا عظيما سماه إزالة العبوس عن وجه منح القدوس، وهو مجلد حافل نحو ستين كراسا، وله شرح بديع على كتاب الدرر والترياق في علم الآفاق.. ومن تأليفه بلوغ الأرب من كلام العرب في علم النحو، وله غير ذلك».

وهذه المؤلفات التي ذكرها الجبرتي غير معروفة المكان ماعدا واحداً، وهو الدر المنظوم، موجود بالقاهرة، في فهارس المكتبة الخديوية.[2]

وكما هو واضح من عبارة الجبرتي التي ختم بها قائمة مؤلفات الشيخ محمد: «وله غير ذلك»، فإن الشيخ محمد كان من المكثرين. وقد وجدت نسخة من مؤلفات للشيخ محمد ببرلين، تحت رقم ٢٥٩٩، ولم يرصدها الجبرتي، وعنوانها «التحريريات الرائعة».[3]

وبهذا القدر المعلوم من المؤلفات يتربع الشيخ محمد على قمة مشاهير

(١) عجائب الآثار، ص ص١٥٩ـ١٦٠.
(٢) Bivar and Hiskett, p. 137.
(٣) Loc. cit.

علماء غربي إفريقية عامة وبلاد الهـوسا خاصة، وأقر له بالعلم والفضل علماء الحرمين ومصر.[١]

ويبدو أن الشيخ محمد كان من أصحاب النظم أيضا، وفي الأبيات التي أوردها له الجبرتي[٢] دليل على مقدرته في قرض الشعر. والبيتان هما:

طلبـت المسـتـقـر بكل أرض ... فلم أر لي بـأرض مـسـتـقـرا

تبـعتُ مطامـعي فاسـتـعبـدتني ... ولو أنـي قنعـت لكنـت حـرا

٥ ـ هارون الزكزكي (أو الزاري)

أصله من قبـيلة الفولاني، زعـيمـة الجهاد والإصـلاح الديني في مطلع القرن التاسـع عشر ببلاد الهوسـا. كان من المشهود لهم بالقـدم الطولى والباع الواسع في العلم والتـدريس حـتى وصل إلى مـقام كـبـير، ووصف بـ«شـيخ الشيوخ»[٣]. وقد تخرج على يديه جماعة من كـبار علماء بلاد الهوسا، أمثال الشيخ رمضان بن أحمد.

يبدو من ترتيب الإمام بلّو للشخـصيات التي ترجم لها أن الشيخ هارون من علماء القرن الثامن عشر، إذ إنه لم يذكـر تاريخا لوفاته أو وفاة تلاميذه أو أساتذته حتى يمكن أن يوضع تاريخ تقريبي لتاريخ حياته.

٦ ـ عمر الترودي

هو عمر بن محمد بن أبي بكر التـرودي. أصله من إمارة كبي الهوسية. يقول عنه الإمام بلّو[٤]: «العالم العـلامة، والنحريـر الفهامـة، البليغ.. كان

---

(١) إنفاق الميسور، ص٥١.

(٢) عجائب الآثار، ص١٦٠.

(٣) إنفاق الميسور، ص٥٢.

(٤) المكان نفسه.

فقيها جليلا، عالما صدرا شهيرا، ماجدا فاضلا أصيلا، من بيت علم ودين».

وهناك دليل واضح على غزارة علمه وسعة اطلاعه، وهو ماجاء على لسانه عندما كتب بعض إخوانه في الله نصحا وبيانا لما لايعتمد عليه من الكتب. وقد ذكر له أكثر من خمسين كتابا في العلوم الإسلامية، ذكرها كلها الإمام بلّو.[١]

وسببه في عدم الاعتماد فيما ذكر من كتب هو «لكون أكثر مافيها ضعيفاً وباطلا، ولكون الأحاديث والآثار التي فيها موضوعات كثيرة في أيدي الناس[٢]». وفي هذا دليل على حسه النقدي.

وبالإضافة إلى غزارة علمه، دخوله في ميدان التأليف الذي خرج لنا منه بالمؤلفات الآتية:

أ) تخميس على «الكواكب الدرية» للبوصيري.

ب) تخميس على «بانت سعاد» لكعب بن زهير.

جـ) بيان لما لا يعتمد عليه من الكتب.

٧ـ علي جب

يرى بيفار وهسكت[٣] أنه من المحتمل أن يكون علي جب من أقرباء الشيخ عثمان بن فودي أو أحد أجداده، إذ إن عبدالله بن محمد فودي[٤]، يذكر في نسب والده الاسم «جب»، وهو الجد الخامس. ولكننا نرى انه لو كان من أجداد عبدالله لذكر الإمام بلّو[٥] ذلك صراحة عندما ترجم له، والأرجح

---

(١) المكان نفسه.

(٢) المكان نفسه.

(٣) op. cit., p. 140.

(٤) إيداع النسوخ، ص١.

(٥) إنفاق الميسور، ص٥٤.

عندنا هو أن هذا مجـرد تشابه وتطابق في الأسـماء كمـا يحدث في كل بلد، علماً بأن الاسـم «جب» أو «جوب» من الأسمـاء المشهورة في غـربي إفريقـية عموماً، كما لمست هذا بنفسي عند زيارتي لمناطق السنغال وجامبيا.

كان الشيخ علي جب من العلماء المشهورين في بلاد الهوسا، وقد وصفه صاحب الإنفاق بـ«شيخ الشيوخ.[1] كان من السعاة إلى الدعـوة الإسلامية مما حبب فيه العـامة والخاصة. ومن تلاميذه المشهورين أحـمد بن غار (أو غوار)، الأصولي المحـقق والعالم المتـفنن، والشيخ جـبريل بن عـمر،[2] وغيـرهما. وبجانب اشتغاله بالتدريس والدعوة قام بعمل مؤلفين هما:

أ) شرح على البكري.

ب) شرح على لاميه الأفعال.

٨ ـ جبريل بن عمر

هو أشهـر أستاذ للشيخ عـثمان بن فـودي وأخيه عبـدالله بن فودي[3]. وتقول المصادر الهوسية بأنه هوسي الأصل.[4]

للشيخ جبريـل أثر عميق في حياة الشيخ عثـمان لأنه كان من المصلحين الكبار الذين نادوا بالإصلاح وغرسوه في نفوس تلامـيذهم. ويعترف له تلميذه عثمـان بالكثير من الفـضائل. وعنه يقول: «ليعلم أهل بلادنا السـودانية هذه، بعض ما أنعم الله عليهم، ليجتهدوا في شكر الله تعالى على وجود هذا الشيخ

---

(١) المكان نفسه.

(٢) المكان نفسه.

(٣) انظر: إيداع النسوخ، ص٥، ٨. وعن الكتب التي درسها عبدالله على يديه انظر الملحق الذي نشرنا فيه مخطوط «إيداع النسوخ».

(٤) Lewis, Cambridge History of Islam, op. cit., p. 367.

في هذا البلد، فيستوجبوا المزيد[1]». وقال عنه شعرا فيه اعتراف له بالفضل عليه، ومما قاله:

إن قيل فيَّ بحسن الظن ماقيلَ   فموجة أنا من أمواج جبريل[2]

وقد ذكر الإمام بلّو الكثير من فضائل هذا الشيخ، منها أنه كان ممن حمل لواء العلم في زمانه، وممن بلغ الغاية في الاشتغال بالكتاب والسنة، وحض الناس عليهما، وأنه أول من قام بهدم العادات الذميمة في غربي إفريقية. وأكمل هذه الرسالة وتوجها عميد أسرة بلّو الشيخ عثمان بن فودي. وبلغ الغاية في العبادة والخلق الحسن والغيرة على الإسلام، وغير ذلك من الفضائل التي لاتحصى، وكلها من فضائل وصفات العلماء الأتقياء. وكل كلمة من كلمات الإمام بلّو تفيض بالثناء عليه والاعتراف بفضله والتواضع له. ومما جاء عنه: «ونحن بالنسبة إلى مقامه نسبة الظالع إلى الضليع، ونسبة دوي الزنبور مع نغمة الزبور، فو الله لا ندري هل نهتدي إلى سبيل السنة، وترك العوائد الذميمة، لولا تنبيه هذا الشيخ المبارك. وكل من أحيا السنة وهدم العوائد الذميمة في بلادنا السودانية هذه، فهو موجة من أمواجه».[3]

لم يكتف الإمام بلّو بالثناء على الشيخ جبريل نثرا بل أردف ذلك بالثناء عليه شعرا. ومما قاله فيه:

شيخ الشيوخ بأرضنا جبريل   بركاته ما نالها تفصيل
كُشِفتْ به ظُلَمُ الضلال كأنه   في كشفها ببلادنا قنديل[4]

(١) إنفاق الميسور، ص٥٤، نقلا عن: شفاء الغليل في حل ما أشكل من كلام شيخنا جبريل، للشيخ عثمان بن فودي.
(٢) إيداع النسوخ، ص٨، إنفاق الميسور، ص٥٥.
(٣) الإنفاق، المكان نفسه.
(٤) إنفاق الميسور، ص٥٥.

وامتدحه أيضا تلميذه الشيخ عبدالله بن فودي، عم الإمام بلّو. ومما قاله في مدحه شعرا:

جـبـريل مَنْ جـبـر الإله لنا به ... دينا حنيـفـا مـسـتـقـيم المنهج
شمس الضحى بزغت بغرب فانتهت ... للشرق تشرق للقريـش وخزرج[1]

وقد تتلمذ على يديه الكثير من شيوخ العصر من غير أسرة الشيخ عثمان ابن فودي. وحج إلى بيت الله الحرام مرتين[2]، والتقى في حجته الثانية بشيخ له مصري يدعى «مرتضى»، وأجازه الشيخ مرتضى جميع مروياته.[3]

ومن الأمور المؤكـدة أن الشيخ جبريل أسـهم في الأدب الديني أيضا في ذلك العصر الذي عاش فيه، وهو أواخر القـرن الثامن عشر وقبيل اندلاع ثورة الفولاني الإصلاحـية. فالشيخ عـثمان في مؤلفـه «نصيحة الأمـة المحمدية»[4] يذكر مـؤلفات الشيخ جبـريل في عدة مناسبات، ويتكلـم وكأن مبادئ شـيخه جبريل معروفة على نطاق واسع لدى من يخاطبهم. وهاك مثالا لكتابات الشيخ جبريل المعروفة لدى الكتاب، وهي شعر، وجد نصه في كتابات الشيخ عثمان، لاسيما في كتـابه «نصيحة الأمة المحمدية» و«شفاء الغـليل فيما أشكل من كلام شيخنا جبريل[5]»، وقد اقتبس الإمام بلّو حوالي نصف هذه القصيدة.

والقصيدة كاملة هي:

الحـــمـــد لـله الذي مَنَّ عـلى ... عـبـاده بخـيـر من قـد أرسـلا
مـحـمـد صلى عليـه الله ... والآل والصـــحب ومـن تلا

(١) المصدر نفسه، ص٥٦.

(٢) المكان نفسه.

(٣) إيداع النسوخ، ص٨.

(٤) Bivar and Hiskett, p. 141, p. 23. نقلا عن: Kensdale, Catalogue

(٥) إنفاق الميسور، ص٥٤، Bivar and Hisk., Loc. Cit.

ما انصدع الفجر عن الظلام … ودام دين الله بالأحكام

وبعد فاعلم أن ذا تبصرة … للناس في السودان بل تذكرة

فلا ترى منهم سوى من يدع … إسلامه بغمة الموسع

مستترا بالصوم والصلاة … عن قدحه بأقبح اللعنات

فهو بحقٍّ كافر صريح … لأنه محرّم مبيح

عَمٍ عن الحديث والكتاب … وما له قال ذوو الألباب

راض بحكم الجاهلية التي … أزالها الله بوضع الشرعة

حير أفكار صغار العلم … فحكموا إسلامهم بالوهم

ما بينهم وبين أهل الشرق … تفرقة لاحت لأهل الحق

وذاك يستبين بالظواهر … يدركه فيه ذوو البصائر

يدرك بالخبرة والتجربة … بأفعال تظهر للأبصرة

مالم يكن يفعله إلا الذي … كفرانه بالإجماع يحتذي

فمن أتاه كافر مرتد … كذاك كفرنا بواحا عد

والدع لليتيم والزيادة … على نساء أربع حُشاده

والأخذ بالنساء بالعصبية … مقتفيا لأهل جاهلية

كذلك التبديل للأحكام … بدون تأويل من الأعلام

كذلك التقليد للآباء … في الجاهلية بلا خفاء

وكل ما يأخذه التأويل … فمن أتاه دينه جميل

وذاك كالزنا وشرب الخمر … والقتل للنفس وبيع الحر

مع اعتقاد حرمة لهذه … فرّق بذا أناسنا يامنته

ثم الصلاة والسلام سرمدا … على النبي المصطفى محمدا

وآلـــه وصـــــحـــــبه الـكرام   ما دام حكم الله في الإسـلام[1]

ومما هو واضح أن القـصيدة المذكـورة ذات طابع فقهي، مـثل قصـيدة شرب الزلال للإمـام الشيخ محـمد بن الحـاج عبدالرحـمن البرناوي[2]، ففي القصيدة إيضـاح لما كان يجري في غربي إفريقية آنذاك من اخـتلاف في مسائل معينة، وفيها يظهر جليا أثره في تلميذه عثمان فيما بعد.

وعموما فقـد كان الشيخ جبريل مصلحا كبيرا ومـعلما قديرا. وقد مات قبل حـركة تلميذه عـثمان الإصلاحـية، ربما في عصر السلطان الغـوبيري باوا «Bawa» (١١٨٢ - ١٢٠٦هـ/ ١٧٦٨ - ١٧٩١م).[3]

٩ - الشيخ عثمان بن فودي

هو ابن محـمد عثـمان بن محـمد بن عثـمان بن صـالح المعروف بابن فودي.[4] والد الإمام محـمد بلّو وأخو الشيخ عبـدالله بن فودي اللذين توليا السلطة السيـاسية بعـد نجاح الثورة الإصـلاحية وتفرغ الشـيخ عثمـان للدعوة والتربية والتعليـم. كان ميلاده في سنة ١١٦٧هـ/ ١٧٥٤م[5] كواحد من أفراد الجاليـات الفولانية التي أقـامت في بلاد الهوسا منذ أزمـان بعيدة، وأصـبحت

---

(١) Bivar and Hisk. pp. 141-142، إنفاق الميسور، ص٥٩.

(٢) Ibid; pp. 118-123. (انظر القصيدة في ملحق رقم ٩).

(٣) Ibid, p. 141.

(٤) إنفاق الميسور، ص٥٧. (وقد ذكـر الشيخ عبدالله أن كلمة هنا شطب «فودي» (بفاء مضـمومة ضمة إشمام وبعد الواو دال مهملة مضمومة وبعدها ياء مـهملة) معناها في لغتهم - الفولانية - الفقيه. وقد أورد النسب كاملا)، إيداع النسوخ، ص١. (أما الجبرتي فيـذكر أن فودي معناها «الكبير»)، عجائب الآثار، ص١٥٩.

A. D. H. Bivar, "The Wathigat Ahl Al-Sudan: Amanifesto of the Fulani Jihad", J. A. H., 11,2 (1961, p. 255.

(٥) Loc Cit. الدكتور علي أبوبكر، مرجع سبق ذكره، ص٤٠.

F.H. EL Masri, "The life of Shehu Usuman Dan Fodio Before the Jihad", J. H. S. N., 11,4 (1964), p. 435.

(وهناك من يذكر أن ميلاده كان سنة ١٧٥٥م). انظر:

H. A. S. Johnston: The Fulani Empire of Sokoto, p. 27.

جزءا من المجتمع الهوسي. وكانت أسرته تقيم في إمارة غوبير، الواقعة الآن على الحدود الشمالية الغربية لنيجيريا الحديثة.[١]

عاش الفولانيون بين المجتمعات الحضرية الهوسية، ومارسوا نفوذا قويا على حكام الهوسا. وفي الوقت ذاته احتفظوا بروابطهم مع أجناسهم التي كانت تمارس الرعي، واحتفظوا بمعرفتهم اللغة الفولانية[٢]. وتمكنوا عن طريق جدهم واجتهادهم، واستغلال أوقات فراغهم بأن يشغلوا أنفسهم بأمور الدراسات الإسلامية والأدب العربي. وقد كان التعليم والتأليف يجريان في دمائهم. وقد تربع على قمة ذلك الشيخ عثمان بن فودي وأخوه الشيخ عبدالله وابنه الشيخ بلّو. كان ثلاثتهم من الأئمة العظام الذين أغنوا المكتبة الإسلامية بغربي إفريقية، وأناروا الطريق إلى بلاد الهوسا لكي تصبح أقوى قوة إسلامية في إفريقية الغربية.

وقد عنيت مؤلفاتهم بالمسائل الفقهية والاجتماعية، وكونت نهضة ملحوظة في مجال التعليم الإسلامي العربي بغربي إفريقية.

كان والد الشيخ عثمان رجلا تقيا وعالما، مثل كل مسلمي شمالي إفريقية وغربيها، فقد كان سنيا مالكيا، ربى أولاده على المذهب المالكي، وعلمهم تعليما ممتازا ليصبحوا علماء المستقبل. وفي تلك الأيام كان التعليم في غربي إفريقية يعتمد على دراسة اللغة العربية وآدابها والفقه الإسلامي[٣]. وكما هو الحال بالنسبة لكل أبناء المسلمين فإن دراسة الشيخ عثمان بدأت بالقرآن وعلى يد والده[٤]. ثم بعد ذلك جلس إلى عدة شيوخ

---

(١) Bivar, Wathiqat, Loc, cit.

(٢) Loc. cit.

(٣) The Fulani Empire, op. cit. p. 436.

(٤) إيداع النسوخ، ص٤؛ The life of Shehu, op. cit., p. 436.

ليواصل تعليمه في فروع الدراسات الإسلامية المختلفة؛ فأخذ العشرينيات ونحوها من شيخه عثمان المعروف بـ«بندوا الكنوي»[١]، وتلقى الإعراب وجميع علوم النحو من شيخه عبدالرحمن بن حمدا، وقرأ المختصر على عمه وخاله عثمان بن الأمين بن عثمان بن حسم بن عال، وصاحبه نحو سنتين، وكان ابن الأمين هذا من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.[٢]

ولم يكتف الشيخ عثمان بما تلقاه من علوم على أيدي علماء مسقط رأسه، بل هاجر في طلب العلم إلى المناطق المجاورة لأرض الهوسا، فالتقى بشيخ الشيوخ جبريل بن عمر، وصاحبه نحو سنتين[٣]،وفي رواية أخرى لمدة سنة[٤]، يتعلم منه حتى بلغ معه بلاد أجاديس (أكدز)، «فرجعه الشيخ جبريل إلى أبيه وسار هو إلى الحج، لكون أبيه لم يأذن له في السير إلى الحج».[٥] وله مع هذا الشيخ خلاف مشهور حول مرتكب الكبيرة، إذ يرى الشيخ عثمان تكفير[٦] مرتكب الكبيرة، وهو خلاف ما يراه شيخه، وعلى الرغم من ذلك لم يفقد احترامه وإجلاله ووصفه بأنه بحر العلوم الزاخر، وزاره بعد مجيئه من الحج في المرة الثانية سنة ١٢٠١هـ/ ١٧٨٦م، ومكث معه عدة أيام.[٧]

وبدأ الشيخ عثمان ممارسة التعليم والإرشاد حوالي سنة ١١٨٨هـ/ ١٧٧٤م أو سنة ١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م، وهو في سن العشرين[٨]، وذلك بجانب تلقيه التعليم على يد

---

(١) الإيداع، المكان نفسه.
(٢) المصدر نفسه، ص٥.
(٣) The life of Shehu, op. cit. p. 438.
(٤) إيداع النسوخ، ص٦.
(٥) المكان نفسه.
(٦) Ibid., p. 439.
(٧) Loc. cit.
(٨) Loc. cit.

مختلف المشايخ[١]. وكان ينهج نهجا إصلاحيا شاملا في إرشاده وتعليمه.

لقد أثار نهج الشيخ الإصلاحي جدلا عريضا عند كل من تصدى له بالكتابة. ولتشابه أهداف حركته بحركة محمد بن عبدالوهاب في الجزيرة العربية، ذهب كثير من الكتاب والمؤرخين[٢] إلى أن الشيخ عثمان أدى فريضة

---

(١) Loc. cit.

(٢) ومن الذين قالوا بحجه أو تأثره بمحمد بن عبدالوهاب المذكورون أدناه:

- الدكتور حسن محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، مرجع سبق ذكره، ص٢٨٦، (وكل كتاباته الأخرى المثبتة في مراجع البحث).
- الدكتور مصطفى مسعد، الإسلام وحركات الفلان، مرجع سبق ذكره، ص١٢٧ (ذكر حجه وتأثره بالوهابية).
- الدكتور عبدالمجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية في السودان، ص٥٥. (ذكر حجه وتأثره بحركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب).
- د. سامي منصور: نيجيريا عملاق إفريقية التائه، ص٢٣. (يذكر أن الدعوة الوهابية في إفريقية تزعمها في نيجيريا عثمان بن فودي الفولاني).
- الدكتور شلبي، الموسوعة، جـ٦، مرجع سبق ذكره، ص٢٢٦.
- Burns, Hsitory of Nigeria, op. cit, p. 49.
- د. عبدالرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقية الغربية، مرجع سبق ذكره، ص٣٧. (وقد ذهب إلى أبعد من الحج والتأثر بالوهابية إذ قال بأنه تلقى علومه الدينية في مكة والمدينة. وقد تبنى هذه الفكرة في كل مؤلفاته التي تعرضت للشيخ.
- دونالد ويدنر: تاريخ إفريقية جنوب الصحراء، مرجع سبق ذكره، من ١١٥، (ذكر الحج ولكن لم يذكر التأثر بالوهابية).
- إبراهيم بن صالح بن يونس، مرجع سبق ذكره، ص١١٠ (ذكر الحج ونفى الأثر الوهابي).
- الدكتور بخيت، المجتمع، جـ٢، مرجع سبق ذكره ص٢٧٩.
- نعيم قداح، مرجع سبق ذكره، ص٨٣.
- د. طرخان: إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص١٣١ (ذكر الحج فقط).
- F. J. Pedlar, West Africa, op. cit., p. 62.
- د. حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مرجع سبق ذكره، ص١١٩.
- آرنولد، الدعوة إلى الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص٣٦٠ (ولعل أغلب الكتاب قد نقلوا عنه، ولم يذكر مصدره في الزعم بحج عثمان وتأثره بالوهابية).
- أما الدكتور النقر فقد ذكر بأن عثمان لم يحج واستند في ذلك على «إيداع النسوخ» وعلى قصيدة

=

الحج وتأثر هناك في الحجـاز بآراء الشيخ مـحمد عبـدالوهاب. ولكن لم يكن لهذا الزعم سند تاريخـي. أما الحقيـقة الخاصة بحـج الشيخ عثمـان بن فودي فتكمن فـيما ورد على لسـان أخيه عـبدالله في النص السـابق «فرجعـه الشيخ جبريل إلى أبيه وسار هو إلى الحج»[١]. وفي قصيدة منسوبة إلى الشيخ عثمان نفسه، ذكرها روبنسون.[٢] وجاء الدكتور النقر[٣] بالشاهد فيـها مما يجزم بأن الشيخ لم يحج. والشاهد هو:

حقاً إنني أخاف والديَّ في كل حق

(...) Indeed I fear my parents in every truth.

ولأنني أخاف والديَّ لذا لم أذهب .

And it is because I fear my parents that I did

إلى مدينة محمد الذي يفوق الكل

not go to the city of Muhammad who oxcels all.)

وأما قـضية تأثره بالوهابيـة فأمر لم يـقم دليل على صحتـه حتى الآن. ومن الأدلة على عدم تأثره بـالشيخ محـمد بن عبدالـوهاب هو أنه لم يشر في جميع مؤلفاته إلى الوهابية ولا إلى آراء الشيخ محمد بن عبدالوهاب[٤] أو آراء

=

لعثمان بن فودي، وفيها تصريح بذلك، أوردها روبنسون في كتابه «نماذج من أدب الهوسا».

C. H. Robinson, Speciments of Husa Literature (London, 1896), P. 100 See: Nagar, The pilgrimage Tradition, op. cit., p. 62.

- وأيضا ذكر عدم حـجه الدكتور علي أبوبكر (ص٦٨) ولكنه لم يذكر مصـدره. وأقدم من ذكر عدم حج الشيخ، الدكتـور شريف محمد شـريف (ص٩٩)، ولكنه لم يذكر سنده في ذلك ولم يحلنا إلى مصدر أو مرجع.

(١) إيداع النسوخ، ص٦.

(٢) Robinson, Sepeciment نقلا عن The pilgr. Trad., p.62 op. cit., p. 100.

(٣) The Pilgr. Trad., Loc. cit.

(٤) ابن يونس، مرجع سبق ذكره، ص٦٠٠.

الإمام ابن تيمية وابن القيم، وهما من مشاهير المذهب الحنبلي، الذين تتلمذ الإمام محمد بن عبدالوهاب على مؤلفاتهم. وأن إنكاره للبدع والمحدثات، فأغلب الظن أنه تأثر فيه بمؤلفات المغيلي وابن الحاج الفاسي صاحب المدخل، وغيرهما من علماء المالكية الذين تشددوا في الأخذ بالسنة[1]. وأن الشيخ ظل متمسكا بالطريقة الصوفية القادرية، ومازال معظم تلاميذه يتمسكون بها حتى اليوم[2]. وكان الشيخ يختم مؤلفاته بعبارات متعارف عليها في الأوساط الصوفية. وهذا التعلق بالصوفية أمر ينكره الشيخ محمد بن عبدالوهاب مادام لا يستند إلى قرآن أو سنة.

ومما يدل على تمسك الشيخ عثمان بالطريقة القادرية نظمه قصيدة طويلة باللغة الفولانية ـ لغته الأم ـ في نحو أربعين بيتاً، توسل فيها بشيخه عبدالقادر الجيلاني، الذي تنسب إليه الطريقة القادرية، وقد ترجمها أخوه الشيخ عبدالله بن فودي إلى اللغة العربية. ومما جاء فيها قوله:

يارب عالم باطن كالظاهر ... أجب الذي يدعو بعبدالقادر

بركات أحمد في بلاد الله قد ... عمت وجمت عند عبدالقادر

يارب يامتفضلاً لعباده ... صلني بفضلك عند عبدالقادر

إن المسيء لدى الأكابر يلتجي ... فلجأت عند الشيخ عبدالقادر

إن كنت لم أحسن فشيخي محسن ... إني لمنتسب لعبدالقادر

ما كنت أهلاً أن أجاب أجب لكو ... ن وسيلتي درجات عبدالقادر

. . . .

---

(١) المكان نفسه، د. علي أبو بكر ص٦٩ والدكتور علي يذكر بأن الدليل على تأثره بأمثال المغيلي هو كثرة احتجاج كل من عبدالله بن فودي ومحمد بللو بفتاوي المغيلي لآسكيا الحاج محمد في نزاعهم الديني والسياسي مع الشيخ الأمين الكانمي البرناوي).

(٢) ابن يونس، المكان نفسه.

أرنـي بدينـك غالباً في هذه البلــــ ــدان مــن درجـــــات عبــــدالقـادر

. . . .

عربــت ما لأخــي وشيخـي عجمـة متوسلــين معــاً بعبــدالقـــادر[1]

وأكد الشـيخ عثمان التـزامه وتأثره بالطريقة القادرية في كـتابه« الورد»، حيث يقول فيه إنه عندما بلغ الأربعين سنة وخمسة أشهر وبضع ليالٍ جذبه نبي الله إليه، فوجد هناك الصحابة والأنبـياء والأولياء، حيث رحبوا به، وأجلسوه وسطهم، ثم جاء سيده عـبدالقادر الجيلاني بثوب أخضر، وقـد ناداه عبدالقادر الجيلاني باسم إمام الأولياء، ثم قلده سبق الحق.[2]

ويذكر عنه ابنه محمد بلّو في «إنفاق الميسور»[3] ما نصه: «وأخبرني أنه حين حصل له الجـذب الإلهي، ببركة الصـلاة على النبي ﷺ، إذ كان يواظب عليها من غير ملل ولا كلل ولا فـتر، أمده الله بفيض الأنوار، بواسطة الشيخ عبدالـقادر الجيلاني رضي الله عنه، وجـده الرسول ﷺ، فشاهد من عـجائب الملكوت وحصل على غرائب الجبروت، وشاهد أفعال الأسماء والصفات والذات، ووقف على اللوح المحـفوظ، وفك رمزه الملحـوظ، وكساه الحق تعـالى حلـة الدعـوة إليـه، وتوجه تاج الهداية والإرشاد إليه، فنادى منادي الحضرة: يا أيها الناس أجيبوا داعي الله، مرات، ثم قال: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٩]، ثم رده الحق تعالى إلى محل الإفاقة، ليتأتى له الإرشاد والدعوة، وربما تعاهدته

(١) انظر: Fodiyo, A. M.: "Tazyin Alwaraqat", Edited, With a translation and introductory study of the author's life and times, by M. Hiskett, Ibdan University Press, 1963, pp. 51-54.

(٢) انظر: الشيخ عثمان بن فودي، كـتاب: «ولما بلغت في الذكر والورد» مخطوط، ص ص٣ـ٤، نقلاً عن د. عبدالله عبدالرازق إبراهيم: الإسلام والحضارة الإسلامية في نيجيريا، ص٣٦ ـ الحاشية.

(٣) مرجع سبق ذكره، ص٥٨.

أنوار الجلال فقبضته، وتفقدته أنوار الجمال فبسطته، مع أنه من أهل التمكين والمقامات، لا من أهل الأحوال والواردات. . .»

وللشيخ عثمان مقالة بعنوان: «ولما بلغت ستاً وثلاثين» ذكر فيها الجذب الإلهي الذي حصل له وصيغة الورد الخاص به الذي لقنه.

وعندما تطرق ابنه بلّو إلى شمائله، وصفه قائلاً: «. . . مقطوعاً بولايته وقطبانيته. . وهو شيخ علماء وقته، بل قطب الأئمة في جميع الأعصار. . قطب الوقت في الحال والمقال. . وكان صاحب كرامات ظاهرة ومقامات فاخرة وأسرار زاهرة وبصائر باهرة وأحوال خارقة. . وإشارات نورانية ونفحات روحانية وأسرار ملكوتية ومحاضرات قدسية. . وخرق له العادات، وأنطقه بالمغيبات، وأظهر على يديه العجائب والكرامات. .»[1].

وقال أيضاً: «وللشيخ كرامات لا تعد ولا تحصى ولا يحملها إلا ديوان وحده، ولولا أن الحال ضيق علينا لأوردنا منها بعض ماشاهدناه بأنفسنا، ولكن إذا أذن الله لنا فسنفرد لها إن شاء الله تأليفاً مستقلاً».

وقد ألف الشيخ عثمان بن أبي بكر، المدعو غِطَاطُو بن لِيما - وزير الشيخ عثمان بن فودي - كتاباً في كرامات الشيخ عثمان من صغره إلى أن أسس الدولة الفولانية، وأسماه: «رَوْضُ الجِنَان في ذكر كرامات الشيخ عثمان»[2]، ويقع في اثنتين وأربعين صفحة.

وكان أساتذة ومشايخ الشيخ عثمان بن فودي من رجال الصوفية، منهم

(١) المرجع نفسه، ص ص٦٦-٦٧.

(٢) من مخطوطات مكتبة البلدية بسوكوتو - ونلفت نظر القارئ إلى أن الإشارة إلى أماكن وجود المخطوطات المتعلقة بنيجيريا، أخذناه عن الدكتور علي أبوبكر: «الثقافة العربية في نيجيريا. .» رسالة دكتوراه منشورة.

الشيخ جبريل بن عمر[1] وعمه عثمان بن الأمين بن عثمان بن حم بن عال[2].
وكذلك كان رجال دولته وأهل بيته من الصوفية.

وله عدة مؤلفات في التصوف عموماً وبصفة خاصة في الطريقة الصوفية القادرية التي ينتسب إليها، من ذلك: السلاسل القادرية للأمة الأحمدية[3] ـ السلاسل الذهبية للسادات الصوفية[4] ـ تبشير الأمة الأحمدية[5] ـ هداية الطلاب[6] ـ فتح البصائر لتحقيق وضع علوم البواطن والظواهر[7] ـ أوراد الإمام الشاذلي[8] ـ تطييب قلوب الأمة الأحمدية بذكر بعض القصائد القادرية.[9]

وكذلك ألف معظم تلاميذه ورجال دولته كتباً أو مقالات في التصوف، ومثال ذلك مقالة: «رفع الاشتباه في التعلق بالله وبأهل الله»[10]، في خمسين صفحة، تحدث فيها مؤلفها ابنه محمد بلّو عن طرق الأولياء، وقال إنها كلها على صواب، وإنها موصلة كلها إلى الله تعالى[11]. ومقالة: «البدور الزاهية

---

(١) انظر، محمد بلّو: إنفاق الميسور، مصدر سبق ذكره، ص٢٨.

(٢) انظر، عبدالله بن فودي: إيداع النسوخ، مصدر سبق ذكره، ص٤.

(٣) مخطوطة في أربع وعشرين صفحة، توجد في مكتبة الآثار بكدونا النيجيرية.

(٤) مخطوطة في أربع عشرة صفحة، في بيان إدخال المسلم في الطريقة القادرية وحياته فيها ـ موجودة في المكتبة النظامية بسوكوتو (نيجيريا).

(٥) مخطوطة في خمسين صفحة، عن مناقب الشيخ عبدالقادر الجيلاني، من مخطوطات المكتبة النظامية بسوكوتو.

(٦) مخطوطة، في أمور الدين والتصوف، من مخطوطات المكتبة العامة بسوكوتو.

(٧) مخطوطة، في التصوف، من مخطوطات المكتبة العامة بسوكوتو.

(٨) مخطوطة، في عشرين صفحة، من مخطوطات المكتبة العامة بسوكوتو. وفي تناوله أوراد الشاذلي وغيره من مشايخ الطرق الصوفية الأخرى، دليل على عدم تعصبه الشديد لطريقته القادرية.

(٩) من مخطوطات المكتبة العامة بسوكوتو.

(١٠) من مخطوطات مكتبة الآثار بكدونا.

(١١) انظر: د. علي أبوبكر: الثقافة العربية في نيجيريا، مرجع سبق ذكره، ص ص٢٨٨ـ٢٨٩.

في السلاسل القادرية»، لمحمد بلّو أيضاً[1]. ومقالة: «ميزان العرفان لمن يّدعي الصلاح من الإخوان»[2]، للشيخ والي عمر، من كبار علماء زاريا في عهده، وقد لخصها من كتاب: «تنبيه المغتربين» لعبدالوهاب الشعراني[3]. و«كتاب النصيحة»[4] للشيخ عبدالله بن فودي، وهو أخو الشيخ عثمان. ومقالة: «بيان الأركان والشروط للطريقة الصوفية وتلقين الأسماء السبعة على طريق السادة الخَلْوَتيَّة»[5]، للشيخ عبدالله بن فودي أيضاً.

ويلاحظ أن من مصادر التصوف المعتبرة عند هؤلاء القوم: كتب الغزالي والشعراني والمغيلي والسيوطي وغيرهم من متصوفة المغرب أو مصر أو الحجاز.[6]

ومما لاشك فيه أن الالتزام بأوراد الطريقة القادرية والتوسل بعبدالقادر الجيلاني دليل على قبول آراء عبدالقادر الجيلاني في العقيدة، وهي آراء خطيرة جداً، ومن أبرز الأدلة على خطورتها من الناحية العقدية:

(١) مما ينسب لعبدالقادر الجيلاني، وهو في الحقيقة لابن عربي:

أنا القرآن والسبعُ المثاني ... وروحُ الروحِ لا روح الأواني
وغُصْ في بحر ذات الذات تنظر ... معاني ما تبدت للعيان
وأسراري قراءةُ مبهمات ... مسترة بأرواح المعاني

(١) من مخطوطات مكتبة البلدية بسوكوتو.
(٢) من مخطوطات مكتبة حفيد المؤلف الشيخ إبراهيم سركن رُوَا بزاريا.
(٣) د. علي أبوبكر، مرجع سبق ذكره، ص٢٩٥.
(٤) من مخطوطات مكتبة الآثار بكدونا.
(٥) من مخطوطات الشيخ عبدالله بن فودي بسوكوتو.
(٦) انظر، د. علي أبو بكر، مرجع سبق ذكره، الباب الرابع: الإنتاج الأدبي في القرن التاسع عشر الميلادي.

فـمن فـهم الإشـارة فليـصنهـا وإلا ســـوف يقـــتل بالسـنان
كـــحــلاج المحـــبـة إذ تبـــدت له شـمـس الحـقيـقـة بالتـداني
وقــــال أنـا هو الحـق الذي لا يُغـيـــر ذاتَــه قرُّ الزمـــان[1]

وننبه هـنا إلى قوله: «كحـلاج المحبـة»، وهي عبارة تدل عـلى أن قائل القصيدة يؤمن بعقيـدة الحلاج، وكذلك أهل الطريقة القادرية لأنهم يتبنون هذه القصيدة. وكذلـك توضيحه لسبب الكتمان وإلا سوف يقـتل بالسنان» كما قتل الحلاج لزندقته وكفره.[2]

٢) وقد زكى الجيلاني أقطاب الصوفية، أمثال أبي يزيد البسطامي[3]، وبالتالي فهو يوافقه على أقواله المخالفة للإسلام. فقال عنه ذات مرة: «بقي أبويزيد البسطامي سبع مرات، لما سـمع منه من الكلام العجيب، يفتح إلى قلوبهم أبواب القرب، لايجمعهم مع الخلـق سوى الصلوات الخمس ولقب الآدمية البـشرية، وصـورتهم صورة الإنس، وقـلوبهم مع القدر، وأسـرارهم مع الملك..»[4] هنا يخبر عبدالقـادر الجيلاني عن أبي يزيد البسطامي، أنه كان يفتـح أبواب القرب (من الله وبه وإليـه وفيـه) إلى قلوبهم، أي إلى قلوب المريدين!!.[5]

---

(١) انظر، عبدالقادر الجيـلاني: فتوح الغيب، ط٢، ١٣٩٢م ـ ١٩٧٣م، مصطفى بابي الحلبي وأولاده، ص٢٣٠ـ نقلا عن: محمود عبدالرؤوف القاسم: الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ، المكتبة الإسلامية، عمان ـ الأردن، ط٢، ١٤١٣هـ، ص٤٧.
(٢) انظر، القاسم، المرجع نفسه، ص٤٨.
(٣) ومن مزاعمـه قوله: «دعوت نفسي إلى الله، فجـمحت عليَّ، فعزمت عليـها أن لا أشرب الماء سنة ولا أذوق النوم! فوفت لي!».
(٤) انظر: محـمد عبدالله حـسين الشافعي الصطفـاوي التجاني الفتح، الربـاني فيما يحـتلف إليه المريد التجـاني، ويليه ثلاث رسائل: «الفـتوحات الربانيـة» و«النفحة الأقـدسية»، و«السـر الأبهر»، ط٣، ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٨م، ص٣٦٧.
(٥) القاسم، ص١٢٩.

وزكى أمثال الحلاج، ووصفه بالحكيم المعلم.(١)

وزكى الجيلاني أحد الصوفية، وهو حسن قضيب البان الموصلي. وعندما سئل عن صلاته، أي بأنه لا يصلي، قال: إنه يصلي من حيث لا ترونه، وإني أراه إذا صلى بالموصل أو بغيرها من آفاق الأرض يسجد عند باب الكعبة.(٢)

٣) ومن أقوال الجيلاني: «إياك أن تقول أناه، واحذر أن تكون سواه»(٣). وفي هذا الكلام من الضلال ما لا يخفي على أحد.

٤) ويرى الجيلاني أن مشورة الكتاب والسنة ليست ملزمة.(٤)

٥) وهو الذي يزعم أنه يقرأ القرآن كله وهو يقف على رجل واحدة في ليلة واحدة، ويظل لمدة أربعين يوماً بلا طعام.(٥)

٦) ويقول تلميذه أبوالسعود أن الله أعطاه حق التصرف في العالم فتركه لله تظرفاً.(٦)

وأخذ بعض المؤرخين(٧) في جمع البينات التي يمكن أن تؤيد تأثر الشيخ غير المباشر بالوهابية، وذلك عن طريق شيوخه الذين أدوا فريضة الحج، وعلى رأسهم شيخه جبريل بن عمر وعمه محمد دان راج، أو عن طريق الحجاج

---

(١) المرجع والمكان نفساهما.

(٢) انظر، يوسف إسماعيل البنهاني: جامع كرامات الأولياء، جزآن في مجلدين، تحقيق ومراجعة إبراهيم عطوة عوض، ط٢، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، (٢/ ٢٤).

(٣) انظر: الجيلاني، فتوح الغيب، مصدر سبق ذكره، ص١٦٥.

(٤) انظر: الفتح الرباني، مصدر سبق ذكره، ص٣٧٠.

(٥) انظر: محمد أبوالهدى أفندي الرفاعي: قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر، ط١، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، بيروت، ص٤٥٨.

(٦) انظر: الجوسقي: النفحة القدسية في السيرة الأحمدية، ضمن الفتح الرباني، سبق ذكره، ص٧.

(٧) Johnston, The Fulani Empire, op. cit., p. 103.

القادمين من الحجاز.[1] ويبدو أن حـجـجهم لاتثبت أمـام الحقائق التاريخـية. فمثلا نجد أن الشيخ جبريل بن عمر حج في نهاية القرن الثاني عشر، نحو سنة ١٢٠٠هـ/ ١٧٨٥م، وذلك للمـرة الثانيـة والأخيـرة، ولم تكن دعوة الشـيخ محمد بن عبدالوهاب قد عرفت في ذلك الوقت في الحجاز، حيث عرفت فيه عام ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م، وقـد بلغت في هذا التاريخ دعوة ابن فـودي ذروتها وبدأ جهاده ضد ملوك الهوسا. ولم تجد دعوة الشيخ ابن عبدالوهاب ترحيباً من علماء الحجاز حتى ذلك التاريخ. ولم تستـقر في الحجاز إلا بعد استيلاء الملك عبـدالعزيز آل سعـود ـ يرحمه الله ـ على مكة عـام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م وإنهاء حكم الأشراف على الحجاز.[2]

بعد عودة الشـيخ من عند شيخه جبريل واصــل تعلمه على يد ابن خاله وابن عمه أحمد بن محمد الأمين وهاشم الزنفري وخاله وعمه الحاج محمد بن راج بن مودب بن حم بن عال، وغيرهم من الشيوخ كثير.[3]

وبعد أن قوي عوده وتسلح بالعلم والإيمان أخذ في الدعوة إلى الإصلاح وممارسة التـعليم. فقد بدأ في التـدريس والتبشـير كمـا ذكرنا، ولم يمكث في مكان واحد لأداء رسالته، بل أخذ يتجـول في طول بلاد الهوسا وعرضها[4]، ومعـه نفر من الـعلماء الذين آمنوا بأسلوبه الإصـلاحي، وعلى رأسهـم أخوه عبدالله[5]. وكانوا يعلمون الناس الدين الصـحيح أينما حلوا، ومن خلال هذا

---

(١) Loc. cit.

(٢) آدم عبـدالله الألوري، الإسلام فـي نيجيـريا والشيـخ عثمـان بن فوديو الفـلاني، ط٣، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص١٠٠.

(٣) إيداع النسوخ، ص ص٦ـ٧.

(٤) Lewis, Cambridge History, op. cit., p. 367.

(٥) The Life of Shehu, op. cit., p. 129.

التعليم والدعـوة إلى الدين الصحيح تكونت نواة قوة إصـلاحية.[١] وكانت له فصول خاصة منفـصلة لتدريس الطلاب المتقدمين، وهم الطلاب الذين يأمل أن يكونوا دعــاة ومـعلمـين عندمـا يعــودون إلى بلادهم ويظلون عـلى ولائهم للشيخ[٢]، وذلك بجانب تعليمه المبادئ الإسلامية العامة.

وجده ونشاطه وأثره لفت أنظار الخاصة والعامة. وتقول الروايات المحلية بأنه أصبح مؤدباً لأبناء السلطان باوا الغوبيري[٣]. أما السجلات المكتوبة فتقول بخلاف ذلك، وتظهره بأنه كان مـبتعدا تماما ومحذرا أتبـاعه من مخالطة ملوك ذلك الزمان[٤]؛ فعندما استدعى باوا العلماء إلـى مانمامي في أواخر الثمانينيات من القرن الثـامن عشر، حـضر عثمـان ولكنه وأتباعه - على خـلاف العلماء الآخرين - رفـضوا الصدقـات الملكية[٥]. ويرى فيـشر[٦] في هذا التـباين بين الرواية والتقارير المـكتوبة، أن الأولى مبينة للمحـافظة الشعبيـة التي يبدو أنها توضـح الاسـتمراريـة بيـن الأنظمـة القديمة والأنظمـة الجديدة، بيـنما الثـانية توضح وجهـة النظر الدفاعية الرسـمية للحركة والـتي تفضل التفسـير الجديد، وكلا القـولين يمكن أن يكون صحيحـا بالنسبة للمـراحل المختلفة لمهمـة الشيخ عثمان بن فودي.

ومهـما كـان الأمر، فـقد اشتـهر أمـر الشيخ على نطاق واسع، فـكثر مريدوه، وصار طلبتـه في زمانه علماء هداة.[٧] وكان ذا نشاط وافر يدل عليه

(١) Ibid, p. 442.

(٢) Ibid, p. 443.

(٣) Ibid, p. 439.

(٤) Cambridge Hist, op. cit., p. 367.

(٥) The life of Shehu, op. cit. p. 440.

(٦) Camb. Hist. op. cit., p.367.

(٧) إنفاق الميسور، ص٩٤. Ibid, p. 439.

برنامجه اليومي الذي يذكره بلّو[1] قائلا: «وكان يخرج في كل ليلة جمعة يعظ الناس، ويحضر مـجلسه خلق كثير، لا يحـصي عددهم إلا الله، ويخرج في سائر الليالي بعد العشاء لبث العلوم والإجادة بالغرائب.

وكان يخـرج بعد صـلاة العصر لـلتدريس[2]، يفسـر القرآن، ويدرس الحديث والفقه والتصوف. وله تآليف يدرسها في بعض الأحيان.[3]

وكان يخرج إلى الآفاق والبلدان للإفادة والوعظ، ثم يرجع لمحله دغل».

وأخذت تفـد إليه وفود الإسلام من الشـرق والغرب، وقدم عليـه سائر العلماء في وقـته. وكثـر أتباعه من العلمـاء والعامة، فـأيد الله به وبهم دعوة الإسلام، ونصب أهل الـدنيا له العداوة من ملـوك هذه البلاد[4] عندما خـشوا على سلطانهم منه، وفي مقدمتهم ملك غوبير المدعو «نافانا».[5]

عندما رأى «نـافانا» وأتباعـه ومن أيده من علماء السـوء أن قيـام الشرع لايوافقهم، أجمعوا أمـرهم بالكيد له ومحاربته، وهم لايشكون أن الدولة لهم فيـما يرون من ضعف أتبـاعه، فأخـذوا في زجر الدعاة إلى الـله ومنعهم من الوعظ، وأمـر كل واحد أن يرجع إلى مـاوجد عليـه آباءه وأجداده[6]. والذي

---

(١) المرجع نفسه. Cambridge Hist. op. cit., 367.

(٢) لمعـرفة كل مـا كان يدور في مـجلسه، انظر: المصـدر نفسـه، ص ص٦٨ ـ ٧٢. (وقد قـسم بللو موضوعات دروس الشيخ إلى خمسة أقسام:

١ ـ ما فرضته الشريعة.

٢ ـ الحث على اتباع السنة.

٣ ـ رد الأوهام التي توهمها الطلبة، وهي عن التوحيد السليم.

٤ ـ إخماد البدع الشيطانية.

٥ ـ بث العلوم الشرعية وتحرير المشكلات فيها.

(٣) The life of Shehu, p. 443.

(٤) الإنفاق، ص٩٥.

(٥) المصدر نفسه، ص٩٦.

(٦) المكان نفسه.

راعهم هو الإنذار الذي وجهه إليهم أمير غـوبير وفيه ثلاثة أمور ذكرها بلّو[١]، وهي: «أنه لم يرض لأحد أن يعظ الناس إلا الشيخ عـثمان وحده، ولم يرض لأحد بالإسـلام إلا وارثه من آبائه، ومن لم يرث الإسلام فليـعد إلى مـاوجد عليه آباءه وأجـداده، وألا يتعمم أحـد بعد اليـوم، ولا تضرب امرأة بخـمارها على جيبها». وعلق هذا الإنذار في الأسواق والأماكن العامة ليقرأه كل الناس، سعـيا منه في المكيدة، ولكنه مـات سنة ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م وخلفه ابنه «ينف» الذي سار في طريق والده[٢] على الرغم من أنه كان تلمـيذا للشيخ عـثمان إذا صحت الروايات المحلية[٣]. وقد دعا الشـيخ عثمان إلى بلاطه، ودبـر محاولة لاغتياله، فكشفت بتدبير من الله ونجا الشيخ وابتعد عنه.[٤]

ولم يقف «ينف» عند هذا الحـد، بل شنها حربا لاسـتئصال شـأفة هذه الدعوة التي يرى فيها خطرا على عرشه، فغزا قرية غينا[٥] المسلمة حيث يعيش الشيخ عبـدالسلام، أحد تلاميذ الشـيخ عثمان الأقوياء، واسـتولى على القرية واستـعبـد أهلها[٦]، وفي الطريق صادفـهم الشيخ عثـمان وتمكن من تخليص أسرى المسلمين. ومنذ تلك الواقعة أضـمر ينف العداء والإصرار على التخلص من الشيخ، ولكن الله متم نوره ولو كره الكافرون.[٧]

---

(١) المصدر نفسه، ص٩٦، ١٦٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٩٧.

(٣) See, Bovil, Caravans, op. cit. p. 225.
Johnston, The Fulani Empire, op. cit., p. 40.

(٤) Johnston, Loc. cit.

(٥) إنفـاق الميـسـور، ص٩٧، Bovill, Caravans, op. cit., p. 255 (وبوفل يذكـر أن اسم القـرية «غمبانا» ولعله اخطأ النقل).

(٦) Caravans, Loc. cit.، الإنفاق، ص٩٧.

(٧) Caravans, Loc. cit. (يذكر الدكتـور زكي أن تجار الرقيق هم الذين اختطفوا المـسلمين فهب الشيخ ليدافع عنهم، مما حدا بملك غـوبير أن يأمر أتباعه بالقبض عليه. ولم نجـدلهذه الرواية أساسا في أي مصدر حسب علمنا حتى الآن). انظر: جمهورية نيجـيريا الجديدة، مقال للدكتور عبدالرحمن زكي، نشر بمجلة المجلة: العدد السابع والأربعين، السنة الرابعة (١٩٦٠م)، ص٢٦.

وبعد هذه الحادثة تعرض السلطان لقرية الشيخ نفسه، وأرسل إليه أن ينحاز بأهله لأنه يريد مهاجمة القرية، فأبى الشيخ إلا أن يهاجر بجماعته على الرغم من إظهار السلطان الندامة وطلبه من الشيخ الإقامة في قريته مع الأمان.(١)

ولكن الشيخ واصل تنفيذ فكرته وهاجر معه أنصاره إلى قرية «غد». وازداد خوف السلطان من هذا فكرر الطلب في بقاء الشيخ، ورد عليه الشيخ بأن يكونوا جميعا على دين واحد ورد ما سلب من المسلمين وما أسر منهم. فاشتاط غيظا من رد الشيخ، وسول له جماعته وبعض علماء السوء بأنه على حق والشيخ على باطل، فأعلن الحرب على الشيخ وجماعته.(٢)

وعندما علم الشيخ بنية عدو الله، عقد مجلسه وشاور جماعته، وتمت مبايعته على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وبايع هو على اتباع الكتاب والسنة(٣). وأخذوا في أمر الدفاع بحفر الخنادق. وكان أول صدام لهم مع جند العدو في موضع يسمى غنغ، وهزم هناك جند السلطان شر هزيمة.

وتوالت الحروب منذ سنة ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م إلى أن كسرت شوكة أعداء الدعوة في سنة ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م، وبلغت المعارك الحربية أكثر من ست وثلاثين معركة.(٤)

وبعد أن دانت له بلاد الهوسا، اتخذ الشيخ مدينة «سوكوتو» عاصمة له، ثم قسم دولته إلى قسمين سنة ١٢٢٣هـ/ ١٨٠٨م، جعل القسم الشرقي تحت

---

(١) الإنفاق، ص١٩٧.

(٢) المصدر نفسه، ص٩٨، ٩٩.

(٣) المصدر نفسه من ١٠٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ص١٠١ـ١٥٤، تذكرة النسيان، ص: ١٨٥، ١٨٩، ١٩١، ١٩٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٣٠٢.

حكم ابنه بلّو، والقسم الغربي تحت حكم أخيه عبدالله[1]، واكتفى هو بالقيادة الروحية، والعكوف على التدريس والتأليف[2] إلى أن توفي سنة ١٢٣٣هـ/ ١٨١٧م[3]، وهو في قمة مجده.

وعندما توفي الشيخ بويع ابنه محمد بلّو أميرا للمؤمنين، وبقيت الإدارة مزدوجة في عهده، وظل الحال كما كان. ثم توفي محمد بلّو سنة ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م.

وبفضل الله ثم بفضل السلاطين والدعاة اندفعت الحركة الإسلامية إلى الأمام، وانتشرت في جنوبي نيجيريا، حتى أضحى هناك اليوم ملايين المسلمين بفضل الله ثم بفضل هذه الحركة الإصلاحية الكبرى التي كان قادتها منذ البداية علماء. وحتى رؤساء الإمارات الذين عينوا لم يكونوا يدعون أنفسهم أو يدعوهم الناس أمراء، بل كانوا يدعون مؤدبين أو معلمين، لعلمهم وورعهم. فكانوا يباشرون الحكم طبقا للشريعة، ويباشرون الأمور السياسية أيضا، ويؤمون الناس في الصلاة بجانب قيامهم بالتدريس في أوقات فراغهم. وكانوا نماذج طيبة في مكارم الأخلاق والتواضع.[4]

وكانت هذه الحركة إعلاء لشأن الثقافة الإسلامية العربية والتعليم الإسلامي في غربي إفريقية. فقد كان الشيخ عثمان وأخوه عبدالله وابنه محمد بلّو من كبار المؤلفين والمفكرين، وأصدق مثال لذلك ما تركه الشيخ عثمان

(١) آرنولد، الدعوة، مرجع سبق ذكره، ص٣٦٢ .Kensdale, Field Notes, p. 53، الدكتور شلبي، الموسوعة، جـ٦، ص٢٢٩، د. حسن محمود، الإسلام والثقافة العربية، ص٢٩٠.

(٢) انظر: تذكرة النسيان، ص١٠٧.

(٣) د. حسن محمود، المرجع السابق، ص٢٩١، د. شلبي، المرجع السابق، ص٢٢٩. (يذكر الدكتور زكي بان الشيخ قد اغتيل، ولم نجد مصدرا واحدا يذكر هذا الاغتيال: انظر: جمهورية نيجيريا الجديدة، مرجع سبق ذكره ص٢٣).

(٤) انظر: علي أبوبكر. مرجع سبق ذكره، ص١٩٢.

للمكتبة الإسلامية من كتب أهمها:

١ ـ نور الأولياء.

٢ ـ عمدة البيان في الأمور التي وجبت على الأعيان.

٣ ـ علوم المعاملة.

٤ ـ عمدة العلماء.

٥ ـ عمدة المتعبدين والمنحرفين.

٦ ـ مرآة الطلاب.

٧ ـ حصن الأفهام من جيوش الأوهام.

٨ ـ أسانيد الضعيف.

٩ ـ السلاسل الذهبية.

١٠ـ عمدة العباد.

١١ـ كف الطالبين عن تكفير عوام المسلمين.

١٢ـ عمدة دعوة العباد إلى كتاب الله.

١٣ـ أصول الولاية.

١٤ـ ترغيب عباد الله في حفظ علوم دين الله.

١٥ـ رجوع الشيخ السنوسي عن التشديد والتقليد.

١٦ـ تمييز المسلمين من الكافرين.

١٧ـ التصوف.

١٨ـ تلخيص كتاب الحارث المحاسبي.

١٩ـ نصيحة الأمة المحمدية.

٢٠ـ الفصل الأول.

٢١ـ سوق الصادقين.

٢٢ـ إحياء السنة وإخماد البدعة.

٢٣ـ شفاء الغليل في كل ما أشكل من كلام شيخنا جبريل.

٢٤ـ المسائل المهمة.

٢٥ـ الجهـــاد.

وهذه الكتب ذكرها مـحمد بلّو[1] بن الشيخ عـثمان وخـتمهـا بقوله: «..وغيـرها مما نيف على مـئة مـؤلف، وفي القدر المذكـور كفـاية لمن تأمل» والكثير من مؤلفات الشيخ ذكـرها باحثون أخرون، أمثال كنسديل[2] ووتنج[3] واسمث، فمن المؤلفات التي لم يذكرها بلّو وذكرها اسمث[4] مثلا»:

١ ـ سراج الإخوان في أهم مايحتاج إليه في هذا الزمان.

٢ ـ الفرق بين ولايات أهل الكفر في ولاياتهم وبيان ولايات أهل الإسلام في ولاياتهم.[5]

٣ ـ نجم الإخوان يهتدون بإذن الله في عمر الزمان (هكذا).

٤ ـ نزهة الأزمان.

٥ ـ نور الألباب.

وغير هذه المؤلفـات كثير نجـده مبثوثا في ثنايا الكتب التي رجـعت إليها

(١) إنفاق الميسور، ص٢١٠.

(٢) W.E. N. Kensdale. "Field Notes on the Arabic Literature of the Western Sudan" J. H. A. S, (1955) pp. 162-68.

(٣) C. E. J. Whitting. "The Unprinted Indigenous Arabic Literature of Northern Nigeria", J. A. S. (1943-4).

(٤) H. F. C. Smith, "Source Material for the History of Western Sudan". J. H. S. N. , 1, 3 (1958), p. 245.

(٥) هذا المخطوط منشور بالعربية، ثم مترجم إلى الإنجليزية، انظر:
M. Hiskett, "Kitab Al-Farg", B. S. O. A. S., XX11, 2 (1960), pp. 558-658.
وقد ورد اسمه في قائمة كنسديل

كمصادر، أوقام باحثون بنشر عناوينهـا ومكانها وأرقامها. ومن الكتاب العرب الذين فعلوا ذلك الدكتور عبـدالرحمن زكي، في ملحق خاص لكتابه «الإسلام والمسلمون في غرب إفريقية» بعنوان: «المخـطوطات العربية في نيجيريا»، ومن مؤلفات الشيخ التي ذكرها مثلاً:

١ ـ الأمر بموالاة المؤمنين والنهي عن موالاة الكافرين.

٢ ـ بيان البدع الشيطانية التي أحدثها الناس في أبواب الملة المحمدية.

٣ ـ اتباع السنة وترك البدع.

٤ ـ سوق الأمة إلى اتباع السنة.

وقد بدأ المستشرقون الغربيون الأوربيون في دراسة ونشر كثير من مؤلفات علماء غربي إفـريقية. ومن المؤلفات التي حـظيت بالنشر مؤلف الشيخ عـثمان «وثيـقة أهل السـودان»، وهي عبـارة عن إعلان لجـهاد الفـولاني، قام بنشـره بيفر[١]. والوثيقة منشورة كما هي بخطها المغـربي مع التحقيق. وخطها مقروء عامـة، وإن وجدت بعض الصعوبة أحـيانا في القراءة من نشـر المحقق، ولكن يمكن تذليلها عند المقابلة مع ترجمتها الإنجليزية.

وبجانب مؤلفـاته باللغة العربية، له العديد من المؤلفات باللـغة الفولانية والهوسية التي يسميها عبدالله[٢] بـ«العجمية».

وهذا الكاتب العظيم على الرغم من إخلاصـه في الدعوة، لم يسلم من بعض الأقلام المغـرضة التي تحـاول أن تنال منه وتصفـه بالتعـصب والغرض. وتصـف جنـده بأنهـم «مرتزقـة»، ومـن الذيـن حـاولوا ذلك دنيس بولم[٣].

---

(١) Wathigat Ahl Al-Sudan, op. cit., pp.235-43.

وهذا المؤلف لم يذكره بللو أو سمث.

(٢) إيداع المؤلف لم يذكره بللو او سمث.

(٣) الحضارات الإفريقية، مرجع سبق ذكره، ص٥٤.

ولا غرابة في ذلك من مثل يولم وغيره من المستشرقين.

كان الشيخ عثمان من أشد الناس حبا للعلم والتأليف، فكان كلما ألف مؤلفا أخرجه للناس، ودرسهم إياه، ثم بعد ذلك يشتغل بتأليف آخر. وكان يحض أولاده وإخوانه وأهله على التعليم ويعيبهم إذا فترت هممهم[١]. ويحث شعبه المسلم بأن يقيموا الرباط في جميع الثغور، ويصلحوا المساجد ، ويقيموا الصلوات الخمس فيها، وأمرهم أن يجتهدوا في قراءة القرآن وتعليمه.[٢]

وله موقف واضح ومشرف من تعليم المرأة، ففي مؤلفه نور الألباب[٣] عقد فصلاً خاصا بالأمور التي تفسد التقوى ولها آثارها الضارة في بلاد الهوسا، منها أن معظم الرجال المتعلمين يتركون زوجاتهم وبناتهم وأسراهم دون تربية أخلاقية، كالوحوش. فهو ينادي بتعليمهم ما أمر الله به، وتعليمهم الشريعة التي تخصهم، ويرى التفريط في ذلك بلاء وخيما وجريمة بشعة، ويتعجب من الذين يعاملون هذه الفئات مثلما يعاملون أثاث البيت الذي يصبح محطما بعد الاستعمال الطويل ثم يُرمى في مكان الأوساخ، ويرتفع صوته صائحا «كيف هكذا يغفلون زوجاتهم وبناتهم وأسراهم في ظلام الجهل، بينما هم يوميا يلقون بالمعرفة على تلاميذهم؟ في الحقيقة أنهم ينطلقون من موقع الأنانية، وإن كانوا مخلصين لتلاميذهم، ليس هذا إلا نفاقا»[٤]. ويلومهم على

---

(١) تذكرة النسيان، مصدر سبق ذكره، ص١٩٧.

(٢) M. Hiskett, Kitab Al- Farg, op. cit., p. 563.

(كتاب «الفرق» مخطوط للشيخ عثمان بن فودي، قام بنشره هسكت مع ترجمة له إلى اللغة الإنجليزية.

(٣) Hodgkin, Nigerian Perspectives, op. cit., p. 194. The Life of Shehu, op. cit., p. 440.

انظر: الورقتين ٨ و٩ من هذا المخطوط ـ ويقع هذا المخطوط في أربعين صفحة، ويوجد في مكتبة سوكوتو العامة بنيجيريا.

(٤) Nigerian Perspectives, Ibid, p. 195.

هذا التصرف أكثر من مرة وينبههم إلى أن إرشاد الزوجة والبنات والأسرى واجب إيجابي، بينما إلقاء الدروس على الطلاب هو مجرد نافلة، وأن ليس هناك شك في أن يكون لأحدهما الأفضلية على الآخر، وأن الرجل المتعلم ليس مفروضا عليه أن يرشد الطلاب إلا إذا كان هو الشخص الوحيد المؤهل في البلاد لملء هذه الوظيفة التعليمية. ويختتم توجيهه إلى المعلمين بأنهم منوطون في المقام الأول بالعناية بأفراد أسرهم.[١]

وبعد هذه اللمحة العابرة والوقفة القصيرة مع الشيخ عثمان، نقول إن الشيخ عثمان أشهر من أن يعرف به، فقد سجل له التاريخ بمداد من ذهب صفحة فاخرة من الأمجاد.

١٠ ـ عبدالله بن محمد فودي

هو شقيق الشيخ عثمان بن فودي. وقد أورد نسبه كاملا في مؤلفه إيداع النسوخ ممن أخذت من الشيوخ. نشأ مثل أخيه عثمان في أسرة دينية أفرادها من العلماء. وتنقل بين أيدي علماء أسرته متتلمذا. وأول من درس على يديه القرآن هو والده محمد بن فودي[٢]. وتتلمذ بعد والده على يد شقيقه الشيخ عثمان وهو ابن ثلاث عشرة سنة[٣]. ومن بين العلوم والمؤلفات التي تناولها بالدراسة مع الشيخ عثمان: العشرينيات، والشعراء الستة، والكتب السنوسية في علم التوحيد، وغيرها من كتب التوحيد التي وصلت إلى بلاد الهوسا، والأجرومية في علم الإعراب، وعلم التصوف، والعشماوية، ورسالة ابن أبي زيد وغيرها، وتفسير القرآن من أول الفاتحة إلى آخر القرآن مرارا، وعلم

(١) Loc. cit.

(٢) إيداع النسوخ، مصدر سبق ذكره، ص٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ص ٢ـ٣.

الحديث من كتاب العراقي وصحيح البخاري، وعلم الحساب.[1]

وأستفاد من المؤلفات التي ألفها الشيخ عثمان كما هو واضح من قوله: «فما ألف كتابا من أول تواليفه إلى الآن إلا كنت أول من نقله عنه غالبا».[2]

وظل عبدالله تلميذا لأخيه عثمان إلى أن بلغ الخمسين عاما من العمر، وصحبه حضرا وسفرا، لم يفارقه في كل هذه المدة.[3]

وبجانب تلقيه العلم على يدي أخيه عثمان تردد على شيوخ آخرين أمثال[4]:

١ ـ ابن خالته محمد بن محمد، الذي درس عليه مقامات الحريري وغيرها.

٢ ـ عمه وخاله عبدالله بن محمد الحاج الحسن بن حم بن عال، درس عليه بعض كتب النحو مثل قطر الندى وشذور الذهب وشرحه بلوغ الأرب.

٣ ـ إبراهيم البرنوي، الذي درس على يديه بعض كتب العربية.

٤ ـ وعمه وابن خاله محمد ثنب بن محمد بن عبدالله، درس عليه الفريدة للسيوطي.

٥ ـ إبراهيم المندوي، درس عليه الدرر اللوامع، وعلم العروض والقوافي، والأوفاق وغيرها.

٦ ـ ابن خاله وابن عمه وابن خالته محمد بن محمد، درس عليه علم المنطق وكتبا في أصول الفقه.

٧ ـ أحمد بن بكر بن غار، درس عليه كتب علم البلاغة كالتلخيص مع

---

(١) المصدر نفسه، ص٣.

(٢) المكان نفسه.

(٣) المكان نفسه.

(٤) المصدر نفسه، ص ص٧ـ١٠.

شرحه، وألفية المعاني مع شرحها، والجوهر المكنون مع شرحه، وشرح النقاية للسيوطي وغير ذلك.

٨ - جبريل بن عمر، درس عليه كتب أصول الفقه كالكوكب الساطع وجمع الجوامع مع شروحهما، بالإضافة إلى دراسته بعض مؤلفات الشيخ جبريل، وله قصيدة جيمية في مدح شيخه جبريل تدل على الإعجاب الشديد به.

٩ - ابن عمه وخاله المصطفى بن الحاج عثمان بن محمد، تلميذ الشيخ جبريل وغيره، تلقى منه دراسة الكوكب الساطع كله، وأفاده فيه بأشياء لم يفهمها عند الشيخ جبريل.

١٠- وخاله وعمه الحاج محمد بن راج، سمع منه البخاري، وأجازه جميع مروياته.

١١- وعمه وخاله محمد بن محمد الحاج عبدالرحمن، درس عليه علوما عدة وكتباً شتى مثل ألفيه الأثر للسيوطي، وأجازه جميع مروياته.

١٢- محمد الغوري، درس عليه المختصر، وقد اشتهر بتدريس هذا الكتاب.

١٣- محمد ثنب بن عبدالرحمن، درس عليه بقيه المختصر.

١٤- محمود الزنفري، درس عليه علم القراءات.

١٥- عبدالرحمن بن محمد، درس عليه بعض مسائل النحو، وأجازه جميع مروياته مما أخذه عن أبيه عن شيخه.

وبعد أن ذكر عبدالله هؤلاء الشيوخ الذين درس عليهم يقول: «والشيوخ الذين أخذت العلم عنهم لا أحصيهم الآن، ولكن هؤلاء مشاهيرهم. وكم عالم أو طالب علم أتانا من الشرق فاستفدت منه ما لا أحصيه. وكم عالم أو

طالب علم أتانا من الغرب فاستفدت منه مالا أحصيه.[1]

وقد ذكر الشيخ عبدالله بعض شيوخه في قصيدة منها الأبيات الآتية[2]:

وعِ نظم شيوخ صاحِ أولهم أبي — معلمنا القرآن وهو مؤدبي
ومن بعده عثمان صنوي وعمدتي — سراجي في علم الشريعة مذهبي
فعلّمني العشرينيات ونحوها — والإعراب والشعراء تعليمك الصبي
وفي علم توحيد وعلم تصوّفٍ — سقاني فروّى والحساب المقربي
وفقه وتفسير وعلم الحديث مع — تواليفه طُراً بها نلت مأربي
أخذت مقامات الحريري من أخي — محمد بن الخالة المتحبب

يعد الشيخ عبدالله نموذجا حيا للمثقف والعالم، فقد كان بحرا زاخرا في فنون معارف عصره.

وماذكره من دراسات دليل على سعة علمه، وماقام بتأليفه من كتب دليل آخر على ذلك، وما قرضه من شعر دليل على شاعريته وتفتح قريحته، ونذكر هنا بعض أبيات من شعره كنموذج لشعره الكثير:

قال عن أخيه عثمان:

عثمان من قد جاءنا في ظلمة — فأزاح عنا كل أسود دجدج
ودعا إلى دين الإله ولم يخف — في ذاك لومة لائم أو فَجْفَجِ[3]
بشرى لأمة أحمد ببلادنا السـ — ـودان في هذا الزمان المبهج
كم سنة أحييتها وضلالة — أخمدتها جمرا ذكا بتأجج

(١) المصدر نفسه، ص١٠.

(٢) المكان نفسه، وبقية القصيدة في المصدر نفسه، ص ص١١ـ١٢.

(٣) فَجْفَجَ: فَخَرَ بما ليس عنده. فهو فجفاج وفُجَافِجٌ، والفجفج هو الذي يفخر بما ليس عنده انظر: المعجم الوسيط، طبعة مصر١٩٦١، جـ٢، ص٦٨١.

وظللت في أرض عوائدها عدت ... وتخـالـفت سنن النبـي الأبهج
فـاستنسـرت بغـثانـها وتنمـرت ... جـرذانها تـرمي بنصل سلمج[1]
من راد دين الـله يمحــو عــزه ... فـقمـعـته قـمع الغـوي الأولج
ولكل فرعـون طغى موسى سطا ... وقـضيـة عـاصت على تنفج[2]
فابـيض وجه الدين بعـد محـاقه ... واسـود وجـه الكفـر بعـد تبلج
والسنـة الغـراء صـبح ينـجلي ... والبــدعـة السـوداء لـيل يدّجي
طمـست مـعالمهـا وأخلق ثوبهـا ... والدين فـي درع يميس مــدبج
وتفــجــرت للدين من بـركـاته ... عين الحـيـاة تذل ماء الحـشـرج

وفي قصيدة أخـرى عن الشيخ عثمان عندما جافـاه بعض علماء عصره، ونصره الله وأيدته طائفة من العلماء المهتدين، فصدقوه ونصروه، قال:

طربت فأشجـتني الطيور الكوابح ... وفـرّحني منهـا الغيـوث الروائح
وخــوفني منـهــا ذئاب بوارح ... وأمـدني منها الظـباء السـوانـح
لقول الـنبي: لا تزال جمـاعة[3] ... على الحق منا أو يجيء المقارح[4]
ولا تخش تكذيبا وإنكار جـاحد ... وهزء جـهول ضل والحق صـابح
وغـيبـة هماز وضـغن مشـاحن ... يسـاعـده من لـلعـوائد راكح[5]
وليـس لما تـبنـي يد الـله هـادم ... وليس لأمر الله إن جاء ضارح[6]

(١) السَّلْمَج: النصل الطويل الدقيق. انظر القاموس المحيط، طبعة بولاق ١٣٠١هـ، جـ١، ص١١٣.

(٢) هكذا، ولعلها متنفج ليستقيم الوزن الشعري.

(٣) إشارة إلى الحـديث الشريف «لا تزال طائفة من أمـتي ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله» مـتفق عليه، إنفاق الميسور، ص٦٣.

(٤) قرحه بالحق: استقبله به، وقارحه: واجهه.

(٥) راكح: راكن ومستند، وفعله: ركح كمنع.

(٦) دافع.

وبين لهم أن العـــوائد بهـرجت ... وسنتـنا لاحت عليـــهـــا لوائح
ولهو الشباب اليـوم قد بار سوقه ... وقامت على سوق الصلاح المدائح
ومنكِرُ هذا الدين قـد خف وزنه ... ومُظهِـرُه مـيـــزانه اليـوم راجح
وناصِرُه قد صـار في الناس عاليا ... ومنكره للخـاص والعـام دانح[1]
وإنّ إله العـــرش قـــد مَنّ مِـنّـةً ... علينـا ومن يشكر فــذلك رابح
وذاك بأن قد بين الدين في امرئ ... لنا نــســبــا نـعلو به ونـطامح
فـإن نحـن آويناه ننصـر قـــولـه ... نفـز ونحـز نعمـاه والكل فـالح
وإنْ قـد أضـعناه أفـــاد لغـيـرنا ... مصـائب قوم عنـد قوم مصـالح
وما ضرّ شمسا أن نفى العين ضوءها ... وما ضرّ حوضا أن أبته القوامح[2]
أطايب أرض تخرج الـنبتِ رائعا ... بإذن ذويهـا إن أفـــاضت دوائحُ

والقصيدة طويلة في حوالي الخمسين بيتا[3]. وله شعر في الحماسة، من ذلك ما قاله أثناء معاركهم الجهادية ضد أعداء الملة[4]:

وكم من كـميٍّ جندلتـه سهـامنا ... وأسـيـــافنا واراه طيـر وأضـــبع
وكم ذي جـلال ضـرعتـه أكـفنا ... فـجزت فـؤوس رأسه يتـقطـــع
ونحن على الإسلام جمع تناصروا ... ولسنـا بشيء غـــيـــره نتـــرفع
فيـا أمة الإسلام جـدوا وجاهدوا ... ولا تهنوا فالصـبر للنصـر مرجع
فـقتـلا كم في جنة الخلد دائمـا ... وراجـعـكم بالعـــز والمال يرجعُ

وقال في إحدى الغزوات (غزوة كب)[5]:

---

(١) دنح كمنع ـ دنوحا: ذل.
(٢) قمح البعير قموحا: رفع رأسه عن الحوض وامتنع عن الشرب.
(٣) الإنفاق، ص ص٦٣ـ٦٥.
(٤) المصدر نفسه، ص١٠٧.
(٥) المصدر نفسه، ص ص١٢٤ـ١٢٥.

تذكرت والذكرى تثير لذي النوى ... هموما وفي الذكرى تهبّ صبًا الهوى

أخلاي ماتوا في الجهاد وغيره ... وبعدي عن شيخي فأرّقني الجوى

فمَن مُبلغ عني بنيَّ وإخوتي ... وأهلي وجيراني ومن معهم ثوى

بأني ودندا مع علي وجمعنا ... وبولل له في الفتح والعز والروى

فتحنا حصونا بين كندا وكندتا ... تزيد على عشرين بالقهر والقوى

وسالمنا رغما سواها فأسلمت ... لظاهرها والله يعلم ما انطوى

سما جيشنا جيش الفتوح فكلنا ... حوى من فتوحات الغنائم ماحوى

وليس لنا أمر يهمُّ قلوبَنَا ... من الدين والدنيا سوى وحشة النوى

وفقدِ أحباءٍ كرامٍ تتابعوا ... لجنَّات عدن في كراد وثنشوى

ومن قتلوا هم في جهنم دائما ... ومن في جنات الخلد ليسوا على استوا

على كل جرداء وأجرد شيظم ... تراه كصفراء الجراد إذا استوى

قد اعتاد غارات الصباح تخاله ... إذا ماجرى فوق الربا طار في الهوا

فلما رأونا لانمل جهادنا ... لقتلٍ وأسرٍ جُلُّهُمْ خاف فارعوى

وقوله في غزوة (ألوس)[1]:

ألهفي لقلب شابه الهم والأسى ... بليل التمام والصباح إلى المسا

لفقد أخلاء مضوا في جهادهم ... بثنشى وبعض في كوار وألوسا

هم عُدَّتي في نصر دين محمد ... فمن كان فيهم في الجهاد تنفسا

فكلهم قارٍ فقيه وتابع ... أولي العلم قاري الضيف في الحرب أحمسا

وناصر دين الله لازم مسجد ... ومجلس وعظ لايفارق مجلسا

فسرنا وذاك الجمع يأتي وراءنا ... فلما رأوا جمع التوارك أركسا

---

(١) المصدر نفسه، ص ص١٣٥ـ١٣٦.

وخلفت في الأخرى أنادي: ألا ارجعوا كـأنـي أنادي أو أكلم أخـرسـا
وقـد كنت أرجو كـرهم لمقـامنا فخاب رجائي في لعل وفي عسى
ومنا رجـال لم يزالـوا بصـفنا وهم صدقوا ماعاهدوا الله في المسا
قضوا نحـبهم فيها كفـار وحمدا فنالوا جنانا والحسـان وسندسـا
ومنـا رجـال الـله يـنتظـرونه وكل إذا ماصيح للحرب بلهسا[1]
ومابدلوا قـولا وفعلا كـمن عدا وصار إذا ما صيح في البيت دنكسا
وتكثـير قـتـلانا إذا سـر غيـرنا فنحن نرى تلك الشـهادة ملبـسا

لم يكن الشيخ عـبدالله شاعـرا فحسب، بل كـان أيضا ناثراً مرمـوقا، وعـمومـا فقـد كان بحـرا من العلوم وفيـه يقول الإمـام بلّو[2]: «.. العالم العلامـة، النظار الفـهامة، المصـنف المفسر المحـدث، الراوية الحافـظ، المقرئ المجود، النحـوي اللغوي، البـياني المتـفنن، الآخذ من كل فن بأوفـر نصيب، الراتع من كل علم في مـرعـاه الخصـيب، الشـهيـر الرحـالة، آخر السـادات الأعلام، وخاتمة النظار، ذو التـحقيقات الـبديعة، والأبحاث الأنيقـة الغريبة، المتفـق على علمه وهديه، ممن قلّ سـماح الزمن بمثله.. لـه القدم الراسـخة، والرحب الواسع في كل مشكل، سـيف الله على ذوي البدعة، مـعدن الصدق والعلم، وزناد الفهم، كـان آية في تحقيق العلوم، مفـرط الاطلاع على المنقول في الفنون، وجامع شتات العلوم، فاضل وقته، وأعجوبة أوانه».

أما إنتاجـه الفكري فكان غزيرا، وقد اهتم به الدارسـون، ونشروا النذر اليسـير منه، ومازال الكثـير مخطوطا ينتظر البـاحثين. وقد ذكـر الإمام بلّو[3] بعض مؤلفاته، منها:

---

(١) بلهس: أسرع في مشيه.
(٢) المصدر نفسه، ص٢١١.
(٣) المكان نفسه.

١ ـ نظم على النقاية.

٢ ـ نظم على مفتاح الأصول.

٣ ـ سلالة المفتاح.

ومن مؤلفاته التي ذكرها هـ. ف. سمث[١]:

١ ـ المسائل.

٢ ـ ضياء الإخوان فيما لهم وعليهم من الأحكام.

٣ ـ ضياء المجاهدين.

٤ ـ ضياء أولي الأمر والمجاهدين في سيرة النبي والخلفاء الراشدين.

٥ ـ تزيين الورقات بجمع بعض مالي من الأبيات.

٦ ـ ضياء السلطان وغيره من الإخوان في أهم مايطلب علمه في عمر الزمان.

٧ ـ ضياء المقتدين للخلفاء الراشدين.

٨ ـ ضياء الولايات في الأمور الدنيوية والدينية.

ومن مؤلفاته التي ذكرها الدكتور زكي[٢]، وهي غير السابقة:

١ ـ علامات المتبعين لسنة رسول الله، ﷺ.

٢ ـ ضياء الأنام في الحلال والحرام.

٣ ـ ضياء السياسة وفتاوى النوازل.

٤ ـ ضياء الأمة في أدلة الأئمة.

٥ ـ لباب المدخل في آداب أهل الدين.

٦ ـ اللؤلؤ المصون.

---

(١) Souree Material, op. cit. P. 241.

(٢) الإسلام والمسلمون في غرب إفريقية، مرجع سبق ذكره، ص ص١١٦ـ١١٧.

٧ ـ مطية الزاد إلى المعاد.

٨ ـ سبيل النجاة.

١١ ـ الإمام محمد بلّو (١٧٨٠ ـ ١٨٣٧م)

هو ابن الشيخ عثمان بن فودي. ولد سنة ١١٩٥هـ/ ١٧٨٠م. صحب شيخه والده تلميذا ومجاهدا حتى قامت الدولة فأصبح أحد ركنيها عندما تركها والده بينه وبين عبدالله عام ١٢٢٣هـ/ ١٨٠٨م. وعندما توفي والده سنة ١٢٣٣هـ/ ١٨١٧م بويع أميرا للمؤمنين[١]. وقد بنى بنفسه العاصمة سوكوتو في سنة ١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م.

اشتهر بلّو في حياته بالصبر والعدل والنزاهة والعطف، وكرس نفسه للدراسة وتشجيع العلم ورعايته على الرغم من مشاغله السياسية والعسكرية.[٢] وقد وصفه معلم نيجيري بأنه كان من الطراز الذي يجاهد طوال يومه ثم يفرغ في ليله إلى الدراسة والتأليف[٣]. وتشهد مؤلفات بلّو بذلك، إذ بلغت اثنين وثمانين مؤلفا. قام بنشر عناوينها وأماكن وجودها الباحث كنسديل[٤]. والتي بين أيدينا الآن، منها:

١ ـ أدب المسافر.

٢ ـ أصول السياسة.

٣ ـ إفادة الإخوان.

٤ ـ الإنصاف في ذكر مافي مسائل الخلافة من وفاء وخلاف.

٥ ـ إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور.

---

(١) Kensdale. "Field Notes on the Arabic Literatures of The Western Sudan: Muhammadu Bello" J. R. A. S., (1958), p. 53.

(٢) Ibid. p. 54.

(٣) Loc. cit.

(٤) Loc. cit.

٦ - البدر اللامع في الورد الجامع.

٧ - بر الوالدين.

٨ - بيان الأركان والشروط.

٩ - تبشير الإخوان.

١٠- التحرير.

١١- تخميس قصيدة البردة للبوصيري.

١٢- تخميس قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير.

١٣- تخميس همزية البوصيري.

١٤- الترجمان.

١٥- تمهيد العماد فيما زاد على عمدة العباد.

١٦- تنبيه الإخوان.

١٧- تنبيه الأفهام.

١٨- تنبيه أهل العقول.

١٩- تنبيه الجهول.

٢٠- تنبيه الجماعة.

٢١- تنبيه الراقد.

٢٢- تنبيه السامع.

٢٣- جمع النقول.

٢٤- الرباط والحراسة.

٢٥- شرح السور.

والمتصفح لمؤلفه «إنفاق الميسور» يلاحظ مكانة هذا الرجل العلمية. ففي ثنايا هذا الكتاب دلائل واضحة على سعة اطلاعه على الكتب الإسلامية في

جميع الفروع، وقد أصاب من كل فن بسهم وافر. ففي ردوده التي كان يكتبها نيـابة عن والده الشيخ مـحمـد الأمين الكانمي[1] يظهر لـنا بلّو الفقيـه والمفكر الأصيل والعالم الذكي. فقد أعطي بيانا ساحرا وحجة قوية واستدلالا منطقيا.

وكان الإمام بلّو شاعرا فحلا كعمه عبدالله، وله قصائد رائعة تعكس لنا ثقافته الواسعـة. وكانت قريحته أكثر ما تجود بالـدرر من الأشعار في مناسبات الجهـاد المقدس وغيره من أعـمال الفلاح والصلاح. ومن ذلك قـوله في غزوة فافر[2]:

فلما التقـاهم جمعنا فتضعـضعوا ... فـولّوا على أعقـابهم حين كبّـرا
فلم يك إلا راية الـدين مـشـرع ... بنو الحرب في حافاته حين شجرا
تداعى أولو الإسلام حين تذامروا ... بكل حسـام يفرق الهـام مشـهرا
وكل رديني وأسـمـر مـعـضب ... على كل جـهد من نجـائب بربرا
ورجلهم يحـمي سـهامـا كأنهـا ... ندى صاب في جو النهار وأمطرا
فغـادر خيل الله للنصـر هامهم ... بمعترك والكـف والرجل قد فرى
فـخلوا لنا أزوادهم ومـتـاعـهم ... وأمـوالهم نفـلا ورزقـا ميسـرا
وكـانوا قـديما يعـرفـون لقـاءها ... كريهـا بغيـضا قـبل غزوة فـافرا
وإن سـرهم ما نالـنا من شهـادة ... فــتـلك المنى مـنا نخب المـآثرا
فــمن قــتلوه بلغــوه مــراده ... فطوبى له واللطف والمسك أذفـرا
وروح وريحــــــان وجنة خـلده ... ووّرث حـورا من نسـاء حـرائرا
ومن حلل الفردوس يكسى جميعها ... حـريرا وديبـاجـا وتبـرا منضـرا

(١) الإنفاق، ص١٦٠ وما بعدها.
(٢) المصدر نفسه، ص ص١٤١ـ١٤٢.

ويقول في إحدى رسائله إلى الشيخ الكانمي[1]:

ألا من مـــبلغ عـنـي الأمـــينا ... رسـالة نـاصح يبـدي اليـقـينا
تـعلَّـمْ أنـنا مما رمـــــينـا ... به برءاء فـاوف الـعـذر فـينا
وأنا مـــا تغلـبنا عليـــهم ... علوا أو فـســادا قـاصـدينا
ولكن حـين أخـرجنـا اعـتـداء ... وبَغْـيًا ـ صاحِ ـ قـمنا دافـعـينا
تبـيَّنْ أمـــرنـا هذا أخــانا ... وفـتِّـشْـه ولا تعـجل علـينا
فـدع عنك الركون إلى الأعـادي ... ونصـر الظـالمين الفـاجـرينا
لتـعـلم أنهم أهـل اعـتـداء ... فَـوالِ أخـا الصـلاح المؤمنـينا
وخـاللهم وظاهـرهم عليـهم ... فـإن الله مـخـزي الكافـرينا

وشعـره كثير ونثـره أكثر. وعـموما فـقد كان أستـاذا وفقيـها وسياسـيا ومصلحـا اجتماعـياً، أدى دورا كبـيرا في تاريخ الإسلام والثـقافة الإسلامـية بإفريقية الغربية في الثلث الأول من القرن الثـالث عشر الهجري ـ التاسع عشر الميلادي.

---

(١) المصدر نفسه، ص ص١٨٨ـ١٨٩.



الفصـــل الثامــن

تاريخ حركة الإسلام والتعليم الإسلامي

في بــلاد البرنــو



تمهيـــد:

تقع الأرض التي قامت عـليها دولة كـانم إلى الشرق من بحيـرة تشاد، وهي الدولة التي عرفت فيـما بعد بدولة البرنو، عندمـا انتقلت إلى الغرب من بحيرة تشاد،وهي أكبر دولة نشـأت في منطقة المراعي بين النيجر والنيل. ولقد ضمن لها مـوقعها الجغـرافي الممتاز مصدرا مهـماً من مصادر الثراء، كـما كان الحال بالنسبة لكل الدول التي قامت في نطاق السافنا جنوب الصحراء الكبرى. يقول ديفدسون[١] إن ملوك المنطقة لم يكونوا يملكون مناجـم الذهب مثل غانا ومالي، ولكنهـم كانوا يسيطرون على طرق القـوافل المتجـهة شمـالا إلى فزان والبحر الأبيض المتوسط، وشرقا إلى حوض النيل.

وتقول الروايات: إن الطرق القديمة بين وادي النيل وهذه المـنطقة شهدت كثيـرا من الهاربين من الحروب والغزوات بعـد انهيار كوش(مـروي)، وانتصار الأحـباش في أكـسوم، وقـدوم العرب إلى مـصر، وأن مـوجات كـبيـرة من المهاجرين قد وصلت دفعة تلو الأخرى إلى منطقة بحيرة تشاد، مكونة جميعها أساس دولة كـانم التي بدأت مع بداية القرن الثـامن الميلادي. واستـمر التطور الحضاري حتى ظهر شعب الساو في الأفق لتبدأ مرحلة حضارية جديدة.[٢]

وقد حـدد بعض المؤرخين[٣] تاريخ وصول السـاو إلى بحيـرة تشاد بمدة لاتزيد على القـرن العاشـر الميلادي، عـلى حين يؤيد «ايرفوي» وصـولهم إلى المنطقة واستقرارهم على الشاطئ الشرقي للبحيرة بالقرن الثامن الميلادي[٤].

(١) إفريقية القديمة تكتشف من جديد، ص٥١.
(٢) المكان نفسه.
(٣) المكان نفسه، ومنهم «ليبوف» كما يذكر ديفدسون.
(٤) المكان نفسه.

وفي المقارنة بين القليل الذي نعرفه عن تاريخ استقرار الساو شرقي وغربي بحيرة تشاد، وتاريخ ظهور دولة كانم يبقى سؤال مهم، وهو: هل يمكن القول بأن شعوب الساو تمكنت من إنشاء دولة في هذا الماضي البعيد على حين كانت تعاني من موجات الشعوب المهاجرة إلى أرضها؟... ربما لم يتمكنوا من ذلك. ولكن بغض النظر عن هذه الشعوب المهاجرة فقد قدمت شعوب أخرى استطاعت في يوم ما أن تنشئ دولة كانم، وأثبتت أنها تستطيع أن تكون ذات تأثير حضاري بعيد ومهم في توحيد هذه الشعوب المختلفة شرقي حوض النيجر[١]. وهذه الشعوب الأخرى هي «الزغاوة».

والزغاوة شعب جمع بين المؤثرات الزنجية والحامية، وانتشروا في مستهل الفترة الواقعة بين سنتي ١٨٤ و٦٤٨هـ/ ٨٠٠ و١٢٥٠م في مساحة رحبة تمتد من بلاد دارفور حتى بحيرة تشاد.[٢]

وفي بداية القرن (٦هـ/ ١٢م) تتعرض الزغاوة لهجرة من الطوارق الملثمين، ومثلها من التبو (سكان هضبة تبستي) والتيدا، ولم تكن هجرة شاملة، بل كانت على شكل أرستقراطية حاكمة استطاعت أن تخضع شعب الزغاوة لسلطانها[٣]. ثم أنجبت هذه الأرستقراطية أول أسرة مالكة سيطرت على المنطقة شرقي بحيرة تشاد وأسست سلطنة كانم[٤]. وقد ادّعى ملوك هذه

---

(١) المكان نفسه.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، مادة حوصة»، د. حسن محمود: دور العرب في نشر الحضارة في غرب إفريقية، مرجع سبق ذكره، ص٧٢.

(٣) Palmer, Bornu Sahara and sudan, op. cit., p. 5.

دور العرب في نشر الحضارة، المرجع السابق، ص ص٧٢-٧٣.

الإسلام والمسلمون في غرب إفريقية، مرجع سبق ذكره، ص٦٤.

(٤) الإسلام والمسلمون، المكان نفسه.

الأسرة الانتساب إلى سيف بن ذي يزن الحميري.[1]

ويعلق القلقشندي[2] على هذا الادعاء بقوله: «وقد وصل كتاب ملك البرنو في أواخر الدولة الظاهرية (برقوق) يذكر فيها أنه من ذرية سيف بن ذي يزن، إلا أنه لم يحقق النسب فذكر أنه من قريش؛ وهو غلط منهم فإن سيف ابن ذي يزن من أعقاب تبابعة اليمن من حمير». ويقول العمري[3] في معرض الكلام عن كانم بأنهم ادعوا النسب العلوي، ونصه «.. من بيت قديم في الإسلام وجاء منهم من ادعى النسب العلوي في بني الحسن» والدكتور حسن محمود[4] يقول بأن النسب الحميري يؤكد لنا صحة انحدارهم من أصل ملثمي، لأن الملثمين جميعهم من صنهاجة الجنوب وينتسبون إلى الحميريين. ويرى بعض المؤرخين[5] أن هذا الادعاء خرافة، ولهم حججهم.

ومهما يكن من أمر فإن ادعاء النسب العربي ظاهرة في تاريخ الأُسر الحاكمة أو الأفراد في الشرق والغرب الإسلاميين، ومنه الصحيح وغيره.

وفي القرن الرابع عشر تعرضت كانم إلى ألوان من الصراع الداخلي بسبب ثورات بعض القبائل وخلافات بين أفراد الأسرة الحاكمة، مما أضعف

---

(١) صبح الأعشى، جـ٥، مصدر سبق ذكره، ص٢٨٠، مسالك الأبصار، ص٤٩٠ المقريزي، الإلمام مصدر سبق ذكره، ص٢٧.

(٢) صبح الأعشى، جـ٨ ص١١٧. (وللوقوف على نص الرسالة التي ورد فيها ذكر ادعاء النسب إلى سيف بن ذي يزن، انظر: المكان نفسه. أما ماجاء في الرسالة وكان موقع تعليق أيضا فهو «ونحن بنوسيف بن ذي يزن والد قبيلتنا، العربي القرشي، كذا قد ضبطنا، عن شيوخنا» انظر: المكان نفسه).

(٣) التعريف بالمصطلح الشريف، ص٢٨.

(٤) دور العرب في نشر الحضارة، مرجع سبق ذكره، ص٧٣.(وقد أورد بالمر تحليلا لهذه الدعوى الحميرية وأصولها وما ارتبط بها من حوادث في ضؤ ما عثر عليه من مخطوطات في تنبكت وبرنو. انظر: The Bornu Sahara and Sudan, op. cit., pp. 78-119).

والدكتور طرخان يرى أنهم من البربر. انظر: دولة برنو الإسلامية ص٥٩.

(٥) منهم: د. طرخان، دولة البرنو، المرجع السابق، ص٥٨.

دولة كانم. على أن أهم شيء أثر في حياة كانم هو ذلك الزحف العاتي الذي قامت به جماعات قبائل البولالا من جهة الشمال الشرقي قبيل نهاية القرن الرابع عشر الميلادي. وقد تمكنت هذه الجماعات من احتلال «نجيمي»،[(١)] عاصمة الدولة، والاستيلاء على السلطة الفعلية. وفرت الأسرة السيفية إلى غربي البحيرة في عهد السلطان عمر بن إدريس[(٢)] (٧٩٧-٨٠١هـ/ ١٣٩٤ - ١٣٩٨م)، ودخلت الدولة الكانمية في مرحلة جديدة من حياتها، إذ عرفت بعد ذلك باسم كانم - برنو، أو دولة البرنو الإسلامية. وأسست عاصمة جديدة في عهد السلطان علي جاجي - غازي - دونامي (٨٨١-٩٠٩هـ/ ١٤٧٦ - ١٥٠٣م) وعرفت باسم غسرغمو[(٣)]، وذلك في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، وظلت العاصمة السياسية لمدة ثلاثمئة سنة على الرغم من أن نجيمي قد احتلت مرة أخرى حوالي منتصف القرن السادس عشر، على يد العاهل البرنوي ماي علي الذي تمكن من إخضاع قبائل البولالا. وبسط نفوذه على شرقي البحيرة، وجمع كانم مع برنو في سلطنة موحدة.[(٤)]

ويعتبر علي جاجي المؤسس الحقيقي لدولة البرنو الجديدة. وتمكن من مد نفوذه إلى بعض دول الهوسا، واضطرت كانو أن تدفع الجزية إلى برنو[(٥)]. ثم بلغت برنو أوج مجدها وتوسعها في القرن (١٠هـ/ ١٦م)، فقد تخلصت من غزوات البولالا، ومكنت لها الأحوال الدولية المعاصرة من مواصلة سياسة التوسع، فالمغرب شهد تسرب النفوذ العثماني إلى الجزائر وتونس، وشغل

(١) صبح الأعشى، جـ٥، ص٢٨١، Hogben, op. cit., p. 37

(٢) دور العرب، ص٧٤. Loc. cit.

(٣) المكان نفسه. Loc. pcit. p. 38

(٤) Loc. cit.

(٥) Ibid, p. 37.

المغاربة بدفع الخطر الأسباني والبرتغالي، وسقطت دولة سنغي في يد المراكشيين[1]. وتربع على عرشها في هذه الفترة أعظم ماياتها إدريس علومة (ألوما)، الذي استطاع بعد حصوله على الأسلحة النارية أن يقلم أظافر القبائل الوثنية في جنوب البلاد، ويبسط نفوذه شمالا حتى واحة أهير ومناطق التيدا والتبو.[2]

وبعد وفاة إدريس ألوما ترك الحكم لأبنائه الثلاثة الذين حكموا واحدا تلو الآخر. وكانت الدولة تسير في عهدهم على قوة الركائز التي وضعها والدهم[3]. وجاء من بعدهم علي بن عمر (١٠٥٥-١٠٩٧هـ/ ١٦٤٥-١٦٨٥م) وكان كجده بطولة وكفاءة. وظهر الضعف في خلفائه إلى أن داهم المملكة الشيخ عثمان بن فودي نتيجة للموقف العدائي الذي وقفته منه برنو. وكادت الدولة تسقط في يد عثمان بن فودي لولا السياسة الجديدة التي انتهجها الشيخ محمد الأمين الكانمي، الذي تولى السلطة في برنو عندما استعان به سلطانها، وظل حكم برنو في أسرة الكانمي إلى أن دخل البلاد رابح بن فضل الله سنة ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م[4]. وظل رابح في السلطة إلى أن قتله الاستعمار الفرنسي سنة ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م. وناضل من بعده ابنه فضل الله حتى غلبه الفرنسيون، وسقطت تشاد في يدهم سنة ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م.[5]

---

(١) دور العرب ص٧٥.

(٢) المكان نفسه، Hogben, op. cit., p. 40.

(٣) د. شلبي، الموسوعة، ص٢٩٤.

(٤) المرجع نفسه، ص٢٩٦، ورابح هو أحد قواد الزبير باشا رحمه الجعلي السوداني وساعده الأيمن. تركه الزبير على رأس قواته مع ابنه سليمان الزبير ببحر الغزال بجنوبي السودان النيلي عندما نفي إلى مصر. وفطن رابح لما يدبر له ولسليمان، فهاجر بجزء من قوات الزبير إلى الغرب حتى وصل إلى تشاد، وترك وراءه سليمان الذي وقع في الفخ الذي نصب له. انظر: د. عبده بدوي: شخصيات إفريقية. دار الوفاء للمطبوعات، القاهرة، د ت، ص ص ٢٢ـ٣٠.

(٥) د. شلبي، المرجع السابق، ص٢٩٧.

المبحث الأول



تاريخ حركة الإسلام والتعليم الإسلامي في برنو

يبـدو أن الزغاوة قـد ظلوا على الوثـنية حـتى النصف الأول من القـرن (الخامس الهجري) الحادي عشر الميلادي. فالبكري[1] يصف دولتهم بأنها مملكة وثنية، وعبارته: «وهم سودان مـشركون». ولكن العمري[2] الذي كتب عنها بعد ذلك، في القرن الثامن الهجري (الـرابع عشر الميلادي)، يقول عن ملكها: «مسلم مـستقل». ولـكنه لم يذكر على وجه التـحديد الوقت الذي أسلم فـيه ملوك هذه الدولة، وحاول أن يوجد رمزا لدخول الإسلام هذه المنطقة، فجعل الاضطلاع بهذه المهـمة على عاتـق من سماه بـ«الهـادي العثمـاني» حين قال: «وأول من بث الإسلام فيها الهادي العثماني، ادعى أنه من نسل ولد عثمان بن عفان رضي الله عنه. وصارت بعده لليزنيين من بني ذي يزن»[3]. ولم يكشف لنا العمـري عن شخـصية الهـادي العثـماني، ولكن يفهم مـن النص أنه أحد السلاطين من غير أفراد الأسرة التي حكمت بعد ذلك، والتي تدعي النسب إلى سيف بن ذي يزن، والمعـروفة في التـاريخ بـ«الأسرة السيـفية». والمفـهوم من النص أيضا أن الإسـلام قد فشا في هذه البلاد قـبل القرن (٨هـ/ ١٤م)، لأن الأسرة التي كانت تحكم في زمن العمري هي الأسرة السيفية. وهذا القول يتفق مع ما جاء في المخطوطات العربية التي ترجمها بالمر وجمعها في كتابه المشهور:

(١) المغرب، مصدر سبق ذكره، ص١١.

(٢) مسالك الأبصار، مصدر سبق ذكره، ص٤٩٠.

(٣) المصدر نفسه، ص٤٩١، (وفسر بعض الكتاب بأن الهادي العثماني الذي ورد اسمه في هذا النص هو الماي عثمـان بن زينب (١٣٠٠م) الذي ادعى أنه من نسل عثمان بن عـفان رضى الله عنه) انظر: د. طرخان: الإسلام واللغة العربية في غرب إفريقية. مرجع سبق ذكره، ص٦٠. Bornu Sahara, p. 189

«The Bornu Sahara and Sudan»، وفيــها دلالات واضحة على أن الإســلام عرف في هذه البلاد منذ أواخر القــرن الحادي عشر الميلادي، ومع مــاجاء على لسان العمري[1] في كتــابه الآخر حين قــال عن صاحب كانم؛ «مــن بيت قديم في الإسلام».

وقد كتب ابــن سعيد المغربــي بعد العمري، ومــا كتبه يفيــد بأن الإسلام قديم في هذه البــلاد، وانتشر فــيها قــبل القرن السابع الهــجري (الثالث عــشر الميلادي)، فــفي معــرض الكلام عن «نجيمي» عــاصمة الكــانم يقول: «وفيــها سلطان االكانم المشهــور بالجهاد وأفــعال الخيــر، محمــد من ولد سيف بن ذي يزن. وكانت قاعدة حدود الكفــرة قبل أن يسلموا. . ثم أسلم منهم جده الرابع على يد فقهاء الإسلام في بلد الكانم».[2]

وإذا افترضنا لكــل جيل مدة خمسين عــاما، يكون تاريخ أول من أسلم من ملوك الكانم هو حوالي الــقرن الحادي عشــر، ويتفق هذا تماما مع مــا قرره العمري.

والكلام عن إســلام دولة كانم برنو يقــودنا إلى تقرير حــقيــقة شــاهدها الحــسن الوزان، وهي أن الإسلام لم يكن قــد تمكن تمامــا من هذه المناطق، إذ جاء في البيانات التي جمعها عن مملكة برنو أثناء زيارته لها في رحلته المشهورة إلى غربي إفريقية في مطلع القرن الســادس عشر، أنه كانت في بلاد برنو قبائل كثيرة لم تزل على الوثنية وتحيا حياة بدائية، وقال ما ترجمته: «والجبال يسكنها الرعاة، يخرجــون عرايا في الصيف ما عدا الخاصــة منهم، يتغطون بقطعة من

(١) التعريف بالمصطلح الشريف، ص٢٨.
(٢) بسط الأرض، مصدر سبق ذكره، ص٢٨.

الجلد. ولكنهم يتدثرون طوال الشتاء بالجلود. لا يعتنقون أي دين، لا مسيحية ولا إسلام ولا يهودية، أو أي ديانة أخرى، ويحيون حياة الماشية، أزواجهم وأولادهم مشايعة بينهم، وكما فهمت من تاجر أقام بين ظهرانيهم لزمن طويل أنه ليس لهم أسماء معلومة أبدا، بل كل واحد منهم يكنى حسب طوله أو قصره أو سنه أو حسب أوصاف جسمانية أخرى أو ملكات».[1]

والذي يذكره الوزان ليس غريبا في البلاد التي دخلها الإسلام عن طريق الاحتكاك، وهو مظهر من مظاهر انتشار الإسلام في القارة الإفريقية. فقد نجد في مجتمع واحد المسلم بجانب الوثني. وكلما كان الإسلام سطحيا نجد المسلمين يتمسكون ببعض العادات الوثنية، ونجد الوثنيين يمارسون بعض عادات المسلمين، وذلك كله لغياب الهيئات التبشيرية المنظمة أو الفقهاء والمتعمقين في الدراسات الإسلامية في المناطق النائية والبعيدة عن مركز الثقل الإسلامي، ومثال ذلك ما لاحظه ابن بطوطة[2] عند أهل مالي المسلمة من أن الخدم والجواري وصغار البنات يظهرون للناس عرايا، ومنها جعلهم التراب والرماد على رؤوسهم تأدبا، ومنها أن كثيرا منهم يأكلون الميتة والكلاب والحمير. وهناك أشياء أخرى تخللت الرحلة أبرزها أن أحد ملوك مالي كان كلما شبت فتاة جميلة تهدى إليه ليطأها دون عقد شرعي، حتى ذكره أحد الفقهاء بحرمة هذا، فقال له: «حتى للملوك؟!». فرد عليه الفقيه بأنه لايجوز ذلك حتى للملوك، فأقلع عن هذا، علما بأنه كان مسلما ومجاهدا.

والأمثلة على الثنائية في العقيدة كثيرة تعرض لها كل من كتب عن تاريخ

---

(١) History and Description of Africa, op. cit. p. 833

(٢) تحفة النظار، مصدر سبق ذكره، ص٤٥٠.

الإسلام في غــربي إفريقية وآســيا[١]. وقد تعرض أندرسون[٢] لهذه الظاهرة، فقسم كيفية دخول الإسلام إلى مثل هذه المناطق إلى ثلاث مراحل هي:

المرحلة الأولى: أن يزور التاجر المسلم أو الفـقيه بلدا ما، فيبـدأ بالإقامة بها، ويتصل به الناس، ودونما فهم حقيقي للإسلام يبدؤون في ممارسة ما يفعله الفقـيه من تعويذات ليـست غريبة عـليهم، ولها مـا يشابههـا في معتـقداتهم الوثنية، ويستعينون بالأولياء والصـالحين المسلمين كبديل أو إضافة إلى زياراتهم لرهبانهم الوثنيين، ويساعد هذا الامتـصاص الفرعي، أن كثيرا من الوثنيين من أصحاب المذهب الحـيوي الذين يؤمنون بقوة عليا لم يكن غـريبا عليهم الإيمان بالله الذي تدعو إليه الديانة الإســلامية، بينما المسلمون قد عـرفوا الأشياء التي في المذهب الحـيوي بالجن. وبذلك أصبـحت هناك نقطة التـقاء، وهي الإيمان بقوة غيبية.

المرحلة الثـانية: هي التي يبـدأ فيـها الوثنيـون في أداء صلوات المسلمين وليس فقط تعويذاتهم، وقـد لمس الباحث هذا الأمر بنفسه في غامـبيا وساحل الذهب.[٣]

المرحلة الثالثة: وفي هذه المرحلة يعـتنق الوثنيون الإسلام على الرغم من بقاء بعض مفاهيم الوثنية السابقة، لذا فليس من الغريب أن نرى الثنائية العقدية في بعض المجتمعات الإسلامية في إفريقية أو آسيا.

وحقـيقةُ أنَّ مـلوك كانم قد بدأ دخـولهم في الإسلام منذ القـرن الحادي عشـر الميلادي، تؤيدها الوثائق التي جـمعهـا بالمر من هذه البلاد. فيـذكر هذا

---

(١) انظر مثلا: Meek, op. cit. pp 2-4 آرنولد، الدعوة، ص٣٢٥ (عن الهندوكيين الذين يمارسون شعائر إسلامية ويعهدون بأبنائهم إلى معلمين مسلمين). Muslims and Chiefs, p. 169

(٢) G. E. V. Grunebaum (editor), Unity and Variaty in Muslim Civilization, p. 263.

(٣) Palmer, The Bornu Sahara, op. cit., p. 14.

المؤرخ الباحث أن أول بلد في غـربي إفريقية دخلها الإسـلام كانت بلاد برنو، وأن أول من جاء بالإسلام إلى هنا هو محمد بن ماني[١]، الذي عاش في برنو خـمس سنوات في زمن الملك بولو «Bulu»، وست سنوات في عـصـر الملك عركي، وأربع سنوات في حكم السلطان كاداي ها وأمي، وأربع عشرة سنة في زمان حكم الماي أومي.[٢]

بعد مجيء محمد بن مـاني أصبح الإسلام دينا معروفا على نطاق واسع وفي مركـز راسخ لمدة خمسين سنة بعـد ذلك في زمن الملك محـمد، ثم لمدة ست وعشرين سنـة في زمن الماي عثمان، ثم لمدة خمس عـشرة سنة في زمن الملك عبدالله، ثم لمدة ثمانية وعشـرين عاما في زمن السلطان عبدالجليل، ثم لمدة تسعة وثلاثين عامـا في زمن الماي محمد بن محمد، ثم لمدة عـشرين عاما في زمن السلطان عثمان.[٣]

ومجيء ابن ماني إلى برنو مرتبط ارتباطاً وثيـقا بحركة التعليم الإسلامي في برنو؛ فـقد كـان داعـية ومـعلمـا، وكانت أول صلة لـه بالملك بولو صلة تعليمية، قرأ على يديه السلطان بولو من سورة تبارك إلى سورة الناس، ومنحه السلطان مقابل هذه الفترة الدراسـية خمسين جملا[٤]. وقرأ على يديه السلطان عركي من سورة ياسين إلى سورة الناس، وأعطاه مـقابل ذلك ستين جملا[٥]. ودرس على يديه الماي شوبن عـركي من سورة مريم إلى سـورة الناس، ومنحه خـمـسين جـملا. وتلقـى على يديه الماي عـبـدالجليل أومي (٤٧٩-٤٩١هـ/

---

(١) Loc. cit.
(٢) Loc. cit.
(٣) Loc. cit.
(٤) Loc. cit.
(٥) Loc. cit.

١٠٨٦-١٠٩٧م) دراسة القرآن كله، من سورة البقرة إلى سورة الناس. ودرس عليه رسالة ابـن أبي زيد أكثر من مرة، فأعطاه منحـة قدرها مئة جـمل، ومئة قطعة من الذهب، ومئة قطعة من الفضـة ومئة عبد، كل ذلك من أجل الإقراء والدراسة والإرشاد والتوجيه الذي تلقاه من معلمه.[١]

ودراسة السلطان للقرآن كـله بالإضافة إلى الرسالة في الفقـه، يشير إلى الاهتمام بالدراسـات الإسلامية في هذه البلاد في زمان هذا السلطـان المجتهد، والذي يريد أن يتعلم دينه وهو في قمة المسـؤولية. وليس أدل على حبه للعلم والعلماء من هذه المثـابرة، ومن هذا السخاء لمعلمـه ومرشده محمـد بن ماني، حيث لم يكتف بالتكريم المادي لهـذا الشيخ، بل أصدر مرسومـا ملكيا خاطب فيه رعـيته قائلاً لهم إنه محـرم عليهم مس كل من له صلة بعشيرة مـحمد بن ماني، لأنه تعلم منه القـرآن والرسالة. وأعلن لهم أن الملك أومي والفقـيه ابن ماني قد نشرا الإسـلام إلى يوم القيامة، «وأن ممتلكات محـمد بن ماني حرام على السلطان وغيره إلى يوم الدين»[٢]. وقد شدد كثيرا على عدم مس عشيرة ابن ماني بضرر، وكرر ذلك أكثر من مرة.[٣]

وزيادة في الاحترام للعلماء عامـة نرى الملك أومي يحرم أيضا على نفسه وعلى شعـبه كل ضرر يمس عـشيرة الفقـيه تورا توزان، التي كان منهـا معظم الفقـهاء والعلماء والصلحاء، ويقـول إنهم ركن دولته[٤]، اعترافـا بفضلهم في مجال الدعوة الإسلامية والتعليم الإسلامي والحياة الاقتصادية.

---

(١) Loc. cit.

(٢) Ibid, p. 15

(٣) Loc. cit.

(٤) Loc. cit.

وآثار هذا العالم وأمثاله ظاهرة في برنو، وأكبر دليل على الأثر التعليمي لهؤلاء، حتى بين النساء، ما جاء في وثيقة برنوية قام بنشرها المؤرخ هودجكن[1]. جاء في هذه الوثيقة أن والدة السلطان بيري بن دوناما بن أومي (حوالي مطلع القرن الثاني عشر الميلادي) تدخلت في حكم قضائي، وكان الحق في جانبها. والرواية تقول إن ابن هذه السيدة قام بقتل أحد اللصوص، وسمعت والدته بذلك، فقالت له: «كيف قتلت لصا؟»، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾[2]. وعقابا له على مخالفة النصوص الشرعية القرآنية، سجنته عاما كاملا. وامتثل لأمرها شعورا منه بالندم على هذا التفريط في جنب الله.[3]

ولم يكن العالم محمد بن ماني وحده الذي حظي بتكريم السلاطين، بل استمر تكريم المايات للعلماء على مختلف العصور. ولم يكن ابن ماني وحده هو الذي اشتهر بالدعوة الإسلامية وبث التعليم الإسلامي في بلاد البرنو، بل جاء بعده كثيرون أشهرهم الفقيه عبدالله دكي بن بكور. اشتهر هذا الفقيه في عهد الماي أنجالما دوكو (٥٩١-٦١٨هـ/ ١١٩٤-١٢٢١م).[4] فقد قرأ هذا العالم الإمام مئة وخمسين كتابا مع ولد السلطان دوكو المسمى مبرادو بن سالما»[5]. وقراءة هذا العدد من الكتب دليل واضح على مدى رسوخ التعليم الإسلامي في برنو، وعلى مدى استعداد التلميذ الأمير علي أن يجلس إلى العالم لتلقي هذا العدد من الكتب الدراسية؛ ومن المرجح أن هناك من أبناء

---

(١) Nigerian perspectives, op. cit. pp. 70-71.

(٢) سورة المائدة: آية ٣٨.

(٣) Nig. Perspectives, op. cit. p. 71.

(٤) Ibid, p. 17, p. 19.

(٥) Loc. cit.

الرعيـة من سلك مثل هذا الـطريق ومن العلماء من قـام بهذه المهـمة. ولكن انحـصرت الـوثائق التي بين أيدينا في نطاق السلطـات الرسمـيـة، ولم تسلط الأضواء على القاعدة الشعبية لتبين لنا حياتها الثقافية.

شيد الملك دوكو مسجدا جميلا إكراما للشيخ عبدالله واقتناعا بتوجيهاته، وطلاه بالجير وسقفه بالطين.

وأقام الشيخ عبدالله إماما عليه(١). وهذا المسجد يعدّ من معاهد التعليم الأولى في بلاد البرنو.

وعندما أعـجب السلطان بهذا العالم، أصـدر مرسومـا ملكيا يقرر فـيه حرمة هذا العالم وذريته وأملاكه على كل الناس إلى يوم البعث.(٢)

وفي عهد السلطان الحـاج علي (١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م) اشتهر فـقيه ثالث هو ابن مريم، فنال رضاء السلطان، مما حدا به إلى أن يصـدر مرسوما سلطانيا بتكريم هذا العالم، معفيا إياه من كل الالتزامات التي تجب على عامة الناس أو خاصتهم، مـثل الضرائب والاشتراك في الحرب وغيـرها. ويشمل الإعفاء كل ذريته إلى يوم الجزاء.(٣)

وذاع صيـت معلم رابع في عـهد السلطان الحـاج حمـدون (١١٤٠هـ/ ١٧٢٧م)، وهو المعلم مـحـمد. ولدوره التـعليـمي أصدر السـلطان في حقـه مرسوما كسابقيه. ومنحه امتيازات كثيرة.(٤)

ولم تكن هذه المراسيم ظاهرة خاصة ببلاد البرنو وحدها، بل كانت شبه عامة في بلاد غربي إفريقية الإسلامـية؛ ففي دولة سنغي الإسلامية حدث مثل

---

(١) Loc. cit.
(٢) Loc. cit.
(٣) Ibid, p. 31.
(٤) Ibid, p. 44.

هذا النوع من التكريم للعلماء، وجاء هذا في وثيقة مهمة.[١]

ويتضح من وجود العلماء أمثال ابن مـاني وعبدالله وابن مريم ومحمد، أن برنو كانت على مـر العصور ملتـقى كثير من العـلماء من مختلف الجـهات والجنسياتم من الشمال والشرق والغرب. وتكـشف لنا السجلات المدونة حقيقة تاريخية همـة، وهي أن دخول العلماء إلى برنو من جهـة الغرب ـ مالي وسنغي ـ تم في النصف الثـاني من القرن الخـامس عشـر، في عهـد السلطان الكانوي يعقوب بن عـبدالله بورجا (٨٥٦ ـ ٨٦٧هـ/ ١٤٥٢ ـ ١٤٦٣م)[٢]. فقد جاء في عهده كمـا ذكرناه في مكانه علماء فولانيون مكث بعـضهم في كانو وسار البعض الآخر إلى برنو.[٣]

وهكذا غزيت برنو بعلـماء من معاهد غـربي إفريقيـة الأخرى منذ ذلك الوقت، من تنبكت وجني وجـاو ووالاتا وغـيرها، إذ كـانت في هذه الفتـرة مراكز تعليمية مهمة في غربي إفريقية.

بدأ نجم برنو يسطع في سـماء الحـياة الإسلامـية في عـهد الماي إدريس علومة، أعـظم مايات برنو قـاطبة. وقد أمـدنا الإمام أحـمد بن فرتـوا بتاريخ مفصل لمـلوك برنو وأحداث زمانهم، لاسيـما عهد الماي علومـة، وخاصة في الأثنتي عشرة سنة الأولى من حكمه (٩٧٩-٩٩١هـ/ ١٥٧١-١٥٨٣م). وذلك العـاهل الذي قام بإخـضاع القـبائل المتـمـردة في بلاده بفضل جـيشـه المسلح

(١) انظر: تاريخ الفـتـاش، ص ص٧٢ـ٧٣، ونص الوثيـقـة على الصـفحـات ٧٢ـ٧٥، وهي شـاملة جامعة.. كتبها آسكيا الحاج محمد لحضرة الفـقيه الصالح مور محمد هوكار، دعا فيها أهل مملكته ـ العامة منهم والخاصة إلى مراعاة حقوق هؤلاء الأحفاد الذين منحـهم امتيازات استثنائية كثيرة، تسري عليهم وعلى عقبهم من بعدهم.

(٢) Kano Chronicle, op. cit. p. 76.

(٣) Ibid, pp. 76. 77.

بالبنادق، وطرد قبائل الساو من معاقلهم الحصينة وشتت شملهم، كما أنه أخضع الطوارق في الشمال الغربي من برنو، وعامل القبائل الوثنية بحزم وشدة.(١) وشيدت في عهده المنشآت في مختلف بلاده، ونخص بالذكر منها المسجد الذي بناه في بلده أكمو.(٢)

وبعد هذه الفترة، وفي سنة ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٨م تتحدث وثيقة مهمة(٣)، كتبها صالح بن المعلم إشاركو، عن تطور كبير في مجال التوسع في بناء المساجد والتعليم الإسلامي في بلاد البرنو.

وفي الوثيقة التي نحن بصددها وصفٌ للعاصمة البرنوية غسرغمو، في عهد السلطان علي بن الحاج، في النصف الثاني من القرن السابع عشر. يقول صالح بن المعلم إشاركو: «هذا التقرير عن السلطان علي ابن الحاج وإمامه ماسبارما الذي أم أهل القصر في الصلاة. هذا الحدث أثار إعجابي، ولذا ألفت هذا المؤلف»(٤) ومعظم هذا التقرير عن ماسبارما (أو سابراما كما جاء في الوثيقة نفسها)، وعن السلطان علي بن الحاج؛ فقد أعجب المؤلف بهذا العالم فكتب قصته مع السلطان. واسم هذا العالم هو «عمر بن عثمان»،(٥) فلاني الجنسية(٦). والذي يهمنا في هذه الوثيقة هو ماتبينه من تطور الإسلام وتعمقه في المجتمع البرنوي. يذكر صالح أن بالعاصمة أربعة مساجد لإقامة صلاة الجمعة، لكل مسجد جامع منها إمام للقيام بمهمة الإمامة في صلاة الجمعة. ويحضر الصلاة في كل مسجد اثنا عشر ألفا من المصلين(٧). ويدل هذا العدد

---

(١) جمهورية نيجيريا الجديدة، مرجع سبق ذكره، ص٢٥.

(٢) المكان نفسه Bornu Sahara, p. 33.

(٣) Palamer. "Two Sudanese Manuscripts of the 17th C." B. S. O. A. S., Vo15, (1928-1930), p. 542.

(٤) Two Sudanese Manusc. Ibid, pp. 544-551.

(٥) Ibid; p. 545.

(٦) Ibid. Loc. Cit.

(٧) Ibid, p. 547.

من المصلين دلالة واضحة على مدى اتساع المساجد في هذه العاصمة واتساع المدينة نفسها وانتشار الإسلام فيها. ومما لاشك فيه أن صلاة الجمعة بهذه الكيفية تعدّ عيدا إسلاميا كبيرا. وعلى الرغم من أن المؤلف لم يذكر عدد المساجد الأخرى التي لاتقام فيها صلاة الجمعة، إلا أن الإنسان يستطيع أن يقول بأنها كثيرة. ونسبة لأن المذهب المالكي الذي يتبعه أهل البلاد يرى التقليل من عدد المساجد الجامعة بقدر الإمكان، فلا نعجب إذا كانت المساجد الجامعة قليلة نسبيا ولكن روادها كثيرون.

ويذكر صاحب هذا الوصف أن بهذه المدينة كثيراً من العلماء المعلمين والصالحين، وأن تعليم الأمير علي بن الحاج لم يكن أقل من تعليم الأئمة المتعلمين[1]. وكان يعقد في قصره مناظرات بين علماء بلاده لمناقشة الأمور التي تحتاج إلى توضيح في الشريعة والعقيدة الإسلامية، وكان يشترك هو نفسه في هذه المناقشات الجادة بثاقب فكره وبما له من قدم راسخة في الدراسات الفقهية[2]. وكان يصلي كل يوم مئة ركعة نافلة، ويتصدق بيديه على مئة فقير من الشيوخ الهرمين والنساء العجائز، ويرى مع كل هذا أنه لم يفعل شيئا ذا بال عند الله، لخشيته وتقواه وورعه[3]. وكان سببا في إسلام سلطان أهير (اير - أجاديس) عندما عرض عليه الإسلام فقبله بعد أن عرفه، وأرسل إليه السلطان علي بن الحاج أربعة من المعلمين ليفقهوه في الدين.[4]

لم يقتصر دور سلاطين برنو على مجال التعليم ونشر الدين الإسلامي في حدود بلادهم، بل تعداه إلى مناطق أخرى مثل إقليم «دارفور»[5]. وقد

(١) Loc. cit.

(٢) Ibid, pp. 551`552.

(٣) Ibid, p. 552.

(٤) Loc. cit.

(٥) إحدى مديريات السودان النيلي من جهة الغرب.

اهتم الباحث البريطاني «آركل» بالصلة الحضارية بين برنو وإقليم دارفور، وتوصل إلى أن الإسلام دخل إلى دارفور عن طريق غربي أو شمالي إفريقية، وليس عن طريق مصر أو الشرق[1]. ومن المحتمل أن يكون المذهب المالكي الذي يسود حتى الآن في دارفور قد أخذ طريقه من برنو التي تبنته منذ فترة طويلة، لاحظها العمري[2] حين قال عن برنو: «.. والعدل قائم في بلادهم، ومذهبهم مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وهم ذوو اختصار في اللباس، يابسون في الدين». فلو كان الأثر عن طريق مصر لتبنوا المذهب الشافعي أو الحنفي السائدين في مصر على الصعيدين الشعبي والرسمي، ولكننا نجد المذهب الحنفي متبعا في كل محاكم السودان على الصعيد الرسمي فقط، أما على الصعيد الشعبي خارج المحاكم الشرعية فقد كان المتبع هو المذهب المالكي.[3]

ووصل الأمر إلى أن أقامت برنو مساجد في منطقة شمالي دارفور، المجاورة لبرنو. وقد كشف عن هذه الحقيقة بعض الباحثين، منهم آركل، الذي ألقى كثيرا من الأضواء على بعض الآثار للوجود البرنوي في دارفور. وقد تمثل هذا في وجود آثار قديمة في مكان يعرف بـ«عين فرح»[4] بدارفور، فيذكر أنه قام بزيارتين خفيفتين إلى عين فرح، إحداهما في سنة ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م والثانية في سنة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م. وفي المرة الثانية كان له السبق في اكتشاف حطام

(١) A. J. Arkell: "History of Darfur 1200-1700 A. D.".
(يذكر قداح أن الإسلام دخل إلى برنو عن طريق السودان العربي وفزان، ويبدو لنا أن الشق الأول من هذا القول لا يُطمَأنّ إليه، لأن دارفور دخلها الإسلام في القرن الثالث عشر الميلادي، وعرف في برنو منذ القرن الحادي عشر كما رأينا) انظر قداح، ص٨٤.

(٢) مسالك الأبصار، ص٤٩١.

(٣) Arkell, op. cit., p. 144. ولعل العمل بالمذهب الحنفي رسميا أثر من آثار الفتح الإنجليزي ـ المصري للسودان في نهاية القرن التاسع عشر.

(٤) A. J. Arkell. "Darfur Antiquities, 1-Ain Farah", S. N. R. XIX, 2 (1936), pp. 301 ff.

من الطوب الأحمر. وهذا الحطام يـعرف عند السكان المحليين بـ«بيت أم السلطان»، وهذه الآثار مكونة من قسمين. ويزعم آركل[١] أن هذا مسجد خاص. ويقول بأن من المؤكد أن لهذا الحطام صلة بالمساجد المبنية من الطوب الأحمر والقصور المبنية في غمبارو وغسرغـمو من مدن برنو على يد أم السلطان الشهير بإدريس علومة وأمه، في أواخر النصف الثـاني من القرن السادس عشر[٢]. والروايات المحلية في دار فور تقـول بأن هذا الموقع كان آخر عاصمـة لسلطان التنجور شو دور شد «Shau Der Shid»، وعرف بالمر وجه الشبـه بين قصر دور شد المبني من الطوب الأحمر وتلك المباني المبنية من الطوب الأحـمر في تلك العصور ببرنو، ولكنه لم يعرف بأن الأول كان متأخرا في الزمن كما يعتقد آركل.[٣]

وتوصل آركل[٤]، طبـقـا للتـاريخ المعـاصـر لإدريس علومـة (٩٧٩-١٠١٢هـ/ ١٥٧١-١٦٠٣م) إلى أن قصور الـطوب الأحمر[٥] والمساجد، قد أدخلتهـا ملكة مرموقة في آواخـر القرن السادس عشـر، وهي ميرم[٦] (مريم) البلالية، أرملة السلطان علي، الذي حكم سنة واحدة (٩٥٢هـ/ ١٥٤٥م).

لقد نَشَّأتْ هذه السيدة ابنها، الذي عرف فيما بعد بالسلطان إدريس ألوما (علومـة)، ورعتـه طوال فـترة حكم سلـطانين آخرين، حـاملة في ذهنهـا أنه سيحكم في يوم من الأيام. واهتبلت الفرصة عندما آلت إليها الأمور هي نفسها في فتـرة حرجة من فـترات خلو منصب السلطان، فنصبت ابنـها سلطانا على البلاد، وبنت من أجله قصـرا من الطوب الأحمر في غمبارو ببـرنو، ومسجدا

(١) Ibid, p. 301.
(٢) Loc. cit.
(٣) Loc. cit.
(٤) Ibid, p. 301.
(٥) يقول «بوفل» إن استـعمال الطوب الأحـمر قد أدخل إلى غربي إفـريقية من أسبـانيا سنة ١٣٢٥م).
انظر: Bovill, Caravans, op. cit., p. 73.
(٦) Loc. cit.

في بيرني غسرغمو العاصمة التي يحكم منها ابنها.[١]

وكما أدخلت بناء المساجد والقصور من الطوب الأحمر إلى برنو، فمن الطبعي أن تكون لها الرغبة في القيام بالعمل نفسه في البلاد التي أخضعتها[٢]، ومنها غربي السودان النيلي العربي[٣]. وبجانب ذلك فإن حماس ابنها إدريس للإسلام يجعل من المنطقي قيامه بنشر الإسلام في ربوع دارفور، وإنشاء المساجد[٤] التي كانت بمثابة أماكن للعبادة ومعاهد دينية لتدريس العلوم الإسلامية وترسيخ المبادئ الإسلامية.

وفوق ماذكر من آثار برنوية في دارفور، فهناك مؤثرات ثقافية تمثلت في الكلمات المستعملة، مثل «ميرم» التي تطلق على قريبات السلطان الحاكم[٥]، وكلمة «فاشر» التي تطلق على العاصمة[٦]، وما زالت مستعملة اسما لعاصمة مديرية شمال دارفور الحالية. وتعني كلمة «فاشر» أصلا، المكان الفسيح أمام قصر السلطان في برنو[٧]، وكلمة بيرني «Berni» تعني حائطاً من الطين في لغة الفور، بينما كلمة بيرني «Birni» الكانورية[٨] تعني مدينة كبيرة محاطة بحائط.[٩]

---

(١) Loc. cit.

(٢) Ibid, p. 310.

(٣) A. J. Arkell, "More About Fung Origins", S. N. R. XXV11, (1946), p. 88.

(٤) Darfur Antiquities, op. cit., p. 310.

(٥) وقد أفاد الأستاذ أحمد التجاني عمر أن الميرم تعني في دار فور «الاميرة - وأن ذلك معروف حتى الآن. وكانت أخت السلطان علي دينار (ت ١٩١٦م) تسمى ميرم تاجا، ثم أخذ هذا اللفظ مضمونا اجتماعيا، إذ يطلق على المرأة المتميزة في الطبخ والنظافة إلخ. بانها ميرم، ولعل هذا المضمون الاجتماعي فيه معنى المدح لمثل تلك المرأة بانها في مستوى الأميرات من حيث ما يميز المرأة في ذلك المجتمع. ولعل الإعجاب بميرم البلالية هو الذي جعل اسمها يأخذ هذا المضمون.

(٦) Fung Origins, op. 87.

(٧) Loc. cit.

(٨) اسم لقبائل كبيرة ومهمة في بورنو.

(٩) Fung Origins, op. cit., p. 89.

وهناك آثار برنوية في التنظيم الإداري، فـاللقبان البـرنويان: غلاديما «Gu Ladima» بمعنى حاكم الغرب، وكـيغاما «Kaygama» بمعنى حاكم الجنوب. ربما كانت كلمتا ديما وآما اللقبان الفوريان مشتقتين منهما.[١]

وفي مجـال الاستعمـال العام نجد باب الحـريم المستعمل في القـصر في دارفور عرف في برنو من قبل[٢]. والأمثلة على أثر برنو في دارفور كثيرة.[٣]

(١) Ibid, p. 88

(٢) Ibid, p. 89.

(٣) للمزيد من هذه الآثار من حيث الألفاظ اللغوية والعادات والثقافة، انظر:
History of Darfur, op. cit., pp. 144 ff.

المبحث الثاني

أشهر علماء البرنو

منذ دخـول الإسلام إلى هذه البـلاد في القرن الحـادي عشر المـيلادي، أصبحت من مراكز التعليم الإسلامي المهمة في غربي إفريقية، واشتهر فيها كثير من العلماء الذين تقلدوا مناصب دينية همة بجـانب القيام بالتدريس والتأليف. وسنقتصر في بحثنا هذا على العلماء المشهورين فقط، وذلك لكثرة علماء هذه البـلاد. وفي ثنايا البـحث، وفي الفـصل السـابق بالذات ذكـرنا بعض هؤلاء العلماء أمـثال ابن ماني وعـبدالله وابن مريم ومـحمد. وهاك غـير هؤلاء من المشاهير حسب الترتيب الزمني.

١ ـ عمر بن عثمان

عاش الفقيه عمر بن عثـمان في عهد السلطان الحاج علي بن الحاج عمر (١٠٥٤-١٠٩١هـ/ ١٦٤٤-١٦٨٠م).[١]

كان هذا الشيخ من أصل فولاني، وهو واحـد من سلسلة العلماء الكبار الذين وفدوا عـلى بلاد الهوسا وبـلاد البرنو قادمين من مـناطقهم الرئيـسة في فوتاتورو وماسنة في الجناح الغربي من غربي إفريقية. وقد ترك لنا أحد المهتمين بكتابة التاريخ من أبناء برنو وثيقة مهمة تلقي ضوءا ساطعا على هذه الشخصية وعلى الحياة الثقافية فـي بلاد برنو، وقام بنشر هذه الوثيقة الباحث بالمر[٢] مع وثيقـة أخرى عـبارة عن «محـرم» أصدره الماي على بن إدريس فـي حق عالم فولاني يسمى غبدامة.[٣]

---

(١) Two Sudanese Manuscripts, op. cit., p. 545.

(٢) Ibid, pp. 544-47.

(٣) Ibid, pp. 548-51.

وفي هذه الوثيقة الأخيرة يظهر الأثر الثقافي لعلماء الفولاني في هذه البلاد. والذي يهمنا في الوثيقة الأولى هو ماجاء فيها من ترجمة لهذا العالم عمر بن عثمان.

تقول الوثيقة بأن عمر بن عثمان من مواطني بلدة «غرمل»[1]. ولم نعرف حتى الآن مكان هذه البلدة بالتحديد، ولعلها في جهات ماسنة أو السنغال. وكان الشيخ عمر من قراء القرآن ومن الراسخين في العلم به، إلى جانب تعمقه في الدراسات الإسلامية الأخرى كالتوحيد والأصول والتصوف واللغة العربية والنحو والصرف والبلاغة والبيان والمنطق والفقه.[2]

وعندما حل عمر زائرا بهذه البلاد وسمع الناس بغزارة علمه وفضله، تقاطر عليه طلاب العلم والمعرفة من جميع أرجاء البلاد، لمقابلته وتلقي العلم على يديه وسؤاله فيما يشكل عليهم من أمور الدين، وما يختلفون فيه من مسائله[3]. وظل الشيخ عمر مستجيبا لرغبة المتعطشين لعلمه، ومعلما مبددا لظلمات الجهل في بلاد برنو لمدة خمس عشرة سنة، ثم قام بعد ذلك برحلة علمية إلى الأزهر، ومكث به زمنا يتلقى العلوم على أساتذته المشهورين. ويعلِّم من هم دونه مرتبة في العلم.[4]

وبعد قضاء مدة في ربوع الأزهر الشريف غادر مصر إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج. وبعد الفراغ من أداء مناسك الحج والعمرة توجه إلى المدينة المنورة للزيارة، وظل بها شهرين، ثم غادرها إلى بغداد مواصلا رحلته العلمية. وفي بغداد طاب له المقام فمكث فيها ستة أشهر، يتعلم ويعلم، فأغنى

---

(١) Ibid, p. 545.

(٢) Loc. cit.

(٣) Loc. cit.

(٤) Loc. cit.

عقله وعقول الآخرين.[١]

وبعد هذه الجولة العلمية عاد إلى غسرغمو ومكث بها أسبوعا ضيفا عند صديقه زارما محمد مارجمي[٢]. ثم غادرها بطلب من زارما إلى بلدة صغيرة تبعد عن العاصمة حـوالي ثلاثة أميال تسمى بـ«رفي»، وظل يلقي بها الدروس على تلامـيذه[٣]. وفي هذه الأثناء لحق به أحـد العلماء من العـاصمـة يدعى أحمد شِتما. وعندما التقى به وسبـرغوره وجده عالما حقا وتقيا عابدا. ودهش أحمد شتما لحكمة هذا العـالم، فظل صامتا في مجلسه[٤]. وبعد رجوعه إلى مقـره اتصل بزارما محمـد وطلب منه السماح بأن يدعـو عمر بن عثـمان إلى غسرغـمو. فاستجاب زارمـا لهذا الطلب، فقدم الشيخ عـمر إلى منزل زارما. وفي هذا الوقت سمع السـلطان بأخبار عـمر بن عثمـان وكراماته وصـلاحه، فاستقدمه إليه من زارما، وعند اللقـاء تجلت للسلطان حقيقة هذا الشيخ، فعينه إماما لمسجد القصر الملكي. فأصـبح يصلي خلفه ومعه أهله وحاشيته الذين بلغ عددهم ستة وسبعين رجالاً ونساء[٥]. وأكرمه أكثر عندما أصدر مرسوما يحرم فيه كل ماله وعشيرته على أهل ممـلكته. ومنحه لقب «مسبرمه»[٦]، وكان ذلك في سنة ١٦٥٨م. وقد كتب هذا المرسوم المعروف بـ«المحرم»،[٧] العالم محمد صالح بـن العالم إشاركـو، وكان هذا المحـرم هو الثالث من نوعـه الذي يمنح لأحد من أفراد أسرة عمر بن عثمان.[٨]

---

(١) Loc Cit.

(٢) ربما يكون حاكم المدينة من قبل السلطان البرنوي.

(٣) Loc. Cit.

(٤) Ibid, p. 546.

(٥) Loc. Cit.

(٦) Loc Cit.

(٧) ترجم بالمر عشرين محرما عربيا في كتابه: The Bornu Sahara and Sudan

(٨) The Bornu Sahara, pp. 33-35.

١ ـ أحمد بن فرتوا

يكاد يكون هذا العالم من جيل علماء تنبكت نفسه، وهم الذين كتب عنهم أحمد بابا التنبكتي، ولكنْ له تقليد مستقل في الكتابة[١]، وهو العناية بالناحية الحربية في حياة أحد سلاطين برنو، المشهور بـ«إدريس ألوما». ولقد قام المستشرق رتشموند بالمر بنشر كتاباته التي منها:

١) تاريخ ماي إدريس وغزواته، الذي طبع في كانو سنة ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م، بعنوان: Arabic Text in Tarikh Mai Idris Wa-Ghazawatihi,

٢) ترجمة إنجليزية لكتاب ابن فرتوا ضمن كتاب بعنوان: Sudanese Memoirs. طبع في لاغوس سنة ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م، والخاص بمؤلف ابن فرتوا يقع في الجزء الأول من هذا الكتاب، من صفحة ١٥ إلى صفحة ٧٢.

ومؤلَّف ابن فرتوا هذا عبارة عن رسالتين مهمتين، الأولى: تاريخ الاثنتي عشرة سنة الأولى من حكم إدريس ألوما سلطان برنو (٩٧٩-٩٩١هـ/ ١٥٧١-١٥٨٣م)، والثانية عن حروب هذا السلطان ضد قبائل البُلالة. وتعدّ هاتان الرسالتان من أهم المصادر العربية في تاريخ برنو الإسلامي[٢]، واشتهرتا على نطاق واسع، وأصبحتا من المصادر الأساسية للباحثين. ويبدو أن المخطوطات التي استخدمها بالمر مازالت موجودة ولكنها كتبت في زمن حديث نسبيا[٣]. وليس من المؤكد إن كانت النسخ القديمة التي استقوا منها مازالت محفوظة[٤]. وقام بالمر أيضاً بنشر كتاب أحمد بن فرتوا الخاص بالاثنتي عشرة سنة الأولى من حكم إدريس على صفحات مجلة الجمعية الملكية الآسيوية[٥]، وكتاب

---

(١) Biver and Hiskett, op. cit. p. 112.

(٢) الدكتور زكي، المراجع العربية، مرجع سبق ذكره، ص٢٤.

(٣) Bivar and Hiskett, op. cit., p. 113.

(٤) Loc. Cit.

(٥) J. R. A. S., 19 (1862), pp. 199-259.

أحمد بن فرتوا عن سبع الحروب التي خاضها ضد البلالة.[١]

ويبدو أن أحمد بن فرتوا كان في منصبه الرسمي عندما كتب هذه المؤلفات. فهو نفسه كان معاصرا لحملات الماي إدريس التي سجلها، أما حياته فلا يعرف عنها إلا القليل، ولكن من خلال مؤلفاته التي ذكرناها يبدو لنا أنه كان من العلماء المؤرخين الذين فطنوا لأهمية كتابة التاريخ القومي لبلاده.

٢ ـ محمد البكري

يعد الشيخ محمد البكري من علماء برنو المشهورين على نطاق غربي إفريقية. قال عنه الإمام[٢] بلّو ما نصه: «من علماء هذا البلد الإمام العالم العلامة المتفنن الفهامة، شيخ الشيوخ ذو الفهم والرسوخ، الشيخ البكري».

تلقى البكري تعليمه في اللغة العربية والبلاغة في بلدة جاندوت الواقعة شرقي بلاد الهوسا[٣]. وكانت جاندوت من المدن ذات الشهرة بسكنى العلماء والطلبة.[٤]

وبعد أن نال بغيته من العلم خرج من جاندوت وهو من العلماء المتفنين وقصد بلاده[٥]. وبعد ذلك أحب الاستزادة من مشاهير العلماء، فرحل إلى الفقيه الشيخ النجيب التكداوي الأنصمني[٦]، وتتلمذ عليه وأفاد منه ثم قفل راجعا إلى موطنه. وظل يمارس مهنة التدريس والإرشاد ومحاربة البدع إلى أن

---

(١) Ibid, pp. 43-123.

(٢) إنفاق الميسور، ص٣٧.

(٣) المصدر نفسه، ص١٣٩.

(٤) المكان نفسه.

(٥) لم يعين لنا بلّو مسقط رأس هذا الشيخ، وفي عبارات بللو الكثير من الإبهام مما يصعب معه استنتاج مسقط رأس هذا العالم. والذي يفهم من ترجمة بللو له أنه من علماء برنو.

(٦) انظر نيل الابتهاج، ص٣٢٨، فهو من معاصري أحمد بابا، وكان في سن متقدمة عندما ترجم له. ومن مؤلفاته: شروحات لمختصر خليل، الأول في أربعة أجزاء والثاني في جزأين، ولهما ذيل عن معجزات البكري. وله تعليق على تخميس عشرينيات الفزاري لابن مهيب في مدحه الرسول ﷺ.

أخذه الله إلى جواره.[1]

والشيخ البكري من علماء القرن السابع عشر الميلادي (الحادي عشر الهجري) لأن مدرسه النجيب التكداوي كان حيا في سنة ١٠٠٥هـ/ ١٥٩٦م عندما أكمل أحمد بابا التنبكتي كتابه «نيل الابتهاج».[2]

ومن أشهر تلاميذ الشيخ البكري، الشيخ النجيب محمد بن سليمان الفلاتي أصلا والباغرمي موطنا[3]، والشيخ الطاهر بن إبراهيم الفولاني[4]، والشيخ ابن آجروم (أبو بكر الباركوم)[5]، والشيخ عبدالله سك الفولاني البغاوي[6]. وله مع عبدالله سك خلاف حول بعض العادات التي كان يفعلها الفولانيون في بلاد الهوسا، إذ يرى الشيخ البكري أنها توجب الكفر البواح، بينما يرى تلميذه عبدالله سك عدم ذلك، ويرى أن ذلك من المعاصي، لأنهم يقرون بالتوحيد، ولا يعتقدون الإشراك مع الله في شيء، ويصلون ويصومون[7]. ويرى الإمام بلّو أن الصواب مع الشيخ البكري بحجة أن التكفير في ظاهر الشرع يكون بأدنى من ذلك.[8]

٣ ـ أبو بكر الباركوم

يعرف هذا الفقيه بابن آجروم[9]. ذكره الإمام بللو بعد البكري مباشرة

---

(١) إنفاق الميسور، ص٣٧.

(٢) ص٣٤١، الإنفاق، ص٤١، Bivar and Hiskett, op. cit. p.

(٣) الإنفاق، ص٣٠ (له تآليف تدل على وفرة علمه وكثرة إحاطته وتضلعه، منها: المنهل في علم التوحيد، ونظمه على النقاية وقصائد وأشعار.

(٤) انظر ترجمته في هذا الفصل.

(٥) الإنفاق، ص٣٧.

(٦) المصدر نفسه، ص٥٠.

(٧) المكان نفسه.

(٨) المصدر نفسه، ص٥١.

(٩) المصدر نفسه، ص٣٧.

مما يوحي بأنه كان تلميذا مباشرا للشيخ البكري، ونسب إليه بللو قصيدة بعنوان «شرب الزلال»، التي تحمل اسم مـؤلف بتاريخ متأخـر، مما يمكن أن يقال بهذا الصدد أن هناك قصيـدتين بالعنوان نفسه، لأن إحداهما تنسب إلى الشـيخ محمد ابن الحاج عبدالرحمن البرناوي[1]، ولربما كان هناك خلط عند الإمام بلّو.

ولتتلمـذه على يدي الشيخ البكري، يمـكننا القول بأنه من علمـاء القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي.

٤ ـ الطاهر بن إبراهيم الفولاني

يسمي الإمـام بلّو هذا الشيخ بـ«أبي بكر الباركوم»، وعنـه يقول: «كان نسيج وحده، وعـالما بالمنقول والمعقـول، صالحا تقيا بارعـا، والحاصل أنه بلغ مبلغ الرجال».[2]

نشأ الشـيخ الطاهر بموضع يقال له «ذات البقـر»، ورحل عنه إلى حيث يقيم الشيخ البكري، فاتخذه معلما حـتى أفاد منه وعاد إلى بلده ليمارس مهمة التـدريس والتوجـيه[3]. ويدل تتلمـذه على البكري على أنه عاش في الـقرن السابع عشر الميلادي.

بعد أن جلس للتـدريس استقدمه السلطان البـرنوي إلى حصنه، وبنى له دارا وأسكنه فيها[4]، وولاه منصبا إداريآ رفيعا في الدولة، ولكن الإمام بللو لم يذكر عن هذا المنصب أكـثر من قوله «وولاه خطة»[5]، وربما يعني بهذا القول أن الوظيفة كـانت خطة القضاء أو خطة الإنشاء وديوان السـجلات. ويذكر له

---

(١) See, Bivar and Hiskett, p. 118

(٢) الإنفاق، ص٣٧.

(٣) المكان نفسه.

(٤) المكان نفسه.

(٥) المكان نفسه.

بلّو[1] المصنفات الآتية:

١ ـ نظم على البكري للسنوسي ومعه شرح.

٢ ـ نظم الدرر اللوامع، ومنار الجامع. وهي قصيدة في علم التصريف.[2]

٣ ـ قصيدة في عتاب السلطان البرنوي الذي عامله معاملة غير لائقة عندما رفض مقابلته، وصد أبواب السلطان له. فأنشد قصيدة منها:

أتركت بابا لا يحد مسافة   وأتيت بابا سده البواب

باب يقول: فلاتلج، وتول من   بخل وكل ضم هذا الباب

٤ ـ قصيدة في النصح للسلطان من سماع أقوال الوشاة والسعاة، منها[3]:

إن كانورين كانوا   أهل قهر واعتلاء

فالأراجيف لديهم   كأراجيز الثناء

والأساطير أراجيز   بساتين الفضاء

يابني كانور هذا   من فنون الازدراء

٥ ـ قصيدة في مدح العالمين، ابن توكوما وهاشم، من علماء برنو.

٥ ـ الإمام محمد بن الحاج عبدالرحمن البرناوي

يعد هذا العالم من النماذج الحية، وذلك لسعة اطلاعه وغزارة علمه. وفي قصيدته المشهورة «شرب الزلال» دليل كاف على هذه الميزة. وقد نشر هذه القصيدة كاملة وبنصها العربي المستشرقان بيفار وهسكت[4]، مع صورة النسخة المخطوطة التي اعتمدا عليها. وموضوع القصيدة هو الحلال والحرام في الشرع، وآراء الفقهاء في ذلك، ورأي ابن الحاج نفسه في ذلك. وقد وردت فيها أسماء

(١) المصدر نفسه، ص٣٧ـ٣٨.

(٢) هناك من يرى في هذا العنوان اسم لمؤلفين منفصلين، انظر: Bivar and Hiskett, op. cit. p. 138.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٨.

(٤) The Arabic Literature of Nigeria to 1804. A Provisional Account, op. cit. pp. 118-123.

كثيرة لأعلام مصريين وأندلسيين ومغاربة، مما يعطي صورة واضحة للعلاقات الثقافية بين غربي إفريقية وبلدان شمالي إفريقية في القرن (الثاني عشر الهجري) الثامن عشر الميلادي. ومعظم هؤلاء العلماء الذين جاء ذكرهم في القصيدة كانوا مصريين اشتهروا في فترة حكم المماليك والتي تلتها، أي منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر.[١]

إن مستوى هذا العالم الثقافي لم يكن أقل كثيرا من مستوى علماء تنبكت. وكما هو واضح فإن معظم مصادره الفقهية التي اعتمد عليها يمكن الرجوع إليها في «نيل الابتهاج».[٢]

٦ ـ الشيخ محمد الأمين بن محمد الكانمي

كان الشيخ الكانمي بحرا في العلوم العقلية والنقلية[٣]. وفي مراسلاته الشهيرة مع الإمام بلّو دليل ناصع على قوته العلمية وتضلعه. أصل والده من فزان ووالدته من عرب طرابلس.[٤]

بدأ الشيخ الكانمي دراسته بتعلم القرآن في العاصمة البرنوية غسرغمو منذ صغره. وحج لأول مرة مرافقا والده الذي وافته المنية في المدينة المنورة[٥]. وانتهز الفتى فرصة وجوده بالمدينة المنورة فتتلمذ على عظماء علمائها، ولم يقف عند هذا الحد بل شد الرحال أيضا إلى الأزهر الشريف ليعب من بحره الزاخر ويتتلمذ على شيوخه[٦]. ثم عرج بعد ذلك على مدينة فاس ليشبع نهمه

(١) Ibid., 131.

(٢) Loc. cit. انظر جزءًا من هذه القصيدة في ملحق رقم (٩).

(٣) الألوري، الموجز، ص٦٨.

(٤) ابن يونس، ص١٠٤، وهناك من يذكر أن والدته من كانم. انظر: د. شلبي، الموسوعة، ص٢٩٥.

(٥) المكان نفسه.

(٦) علي أبوبكر، ص١١٩.

العلمي قبل أن يحط الرحال في بلاده في أواخر القرن الثامن عشر[١]. وأنشأ ببلده كرناو معهدا علميا أمّه كثير من الطلاب لشهرة مؤسسه العلمية في طول البلاد وعرضها، ولضربه في كل فن من فنون المعرفة بسهم[٢]. فقد درس إلى جانب فقه المالكية أنواعا كثيرة من العلوم كالتاريخ والاجتماع والسير وأخبار الدهاة والعمالقة من علماء الأمصار والملوك وعلوم التصوف الإسلامي، التي أثرت في حياته الدينية أكثر من غيرها، كما يبدو جليا من تحلق التلاميذ حوله، وإكثاره من الخلوة، كما دلت على ذلك هيئة المخابئ التي تنسب إليه، وهي شبيهة ببيوت الخلوة الصوفية في بعض البلاد.[٣]

كان نفوذ الكانمي في سلطنة برنو لايقل عن نفوذ الشيخ عثمان بن فودي في بلاد الهوسا. والشاهد القوي على ذلك قدرته على تكوين جيش عرمرم للوقوف أمام قوات الشيخ عثمان بن فودي وإجلائها عن العاصمة البرنوية التي استنجدت به عندما فشل سلطانها في صد القوات الفولانية الهوسية. وعندما وطد الكانمي السلطة للأسرة السيفية في بلاد برنو، ترك السلطة الفعلية للسلاطين وأعار كل اهتمامه لمعهده والتدريس والتوجيه إلى أن توفاه الله سنة ١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م.[٤]

وبعد وفاته خلفه ابنه الشيخ عمر الذي أعار هذا المعهد اهتمامه، ولكن هذا الاهتمام بدأ يفتر بعد سنة ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٦م، عندما تولى السلطة الفعلية كسلطان لبرنو، فانقسمت جهوده بين العرش والتدريس بالمعهد، إلى أن توفي سنة ١٢٩٨هـ/ ١٨٨٠م.[٥]

---

(١) استغرقت رحلته العلمية حوالي خمسة عشر عاما. انظر: ابن يونس، ص١٠٧.
(٢) علي أبوبكر، ص١١٩.
(٣) ابن يونس، ص١٠٧.
(٤) المكان نفسه.
(٥) المرجع نفسه، ص١١٩ـ١٢٠.

الفصــــل التاســـع

علمـــاء غربـــي إفريقيـــة

تـــمهيـــــد:

يلاحظ أن كلمــة «علمــاء» تعني العــلماء المــدرسين والعلمــاء الذين لم يتخــذوا التدريس مهنة لهم، إذ كــان الجميع يعملون بــأجر أو تطوعا لتثــقيف الناس وتعليــمهم وإرشادهم، إمــا عن طريق الحلقات التــعليمــية أو الفــصول الدراســة أو بتأليف الكتب ونشــرها. وعلى هذا جَرَتْ دراستنا لـكل العلماء، لأن مهــمة العالم في هذه الفــترة كانت التــعليم في المقام الأول بجــانب توليه مناصب إدارية أخرى.

المبحث الأول



ألقــاب العلمــاء

١ ـ مدرس

إن كلمة «مدرس» نفسها من المترادفات التي تطلق كلقب للعلماء الذين يقومون بمهمة التدريس، وقد عرفت هذه الكلمة في الشرق الإسلامي والمغرب الإسلامي وغربي إفريقية على السواء[١]. وكلمة «مدرس» تطلق على كل من يقوم بمهمة التدريس بصرف النظر عن وظيفته الأخرى أو ألقابه الأخرى، لأن هناك من العلماء من يجمعون بين معظم الألقاب العلمية والمهنية. ويعتبر محمود أقيت مثالا لذلك الجمع. فقد قال عنه السعدي[٢]: «قاضيها أبو الثناء وأبو المحاسن عالم التكرور وصالحها ومدرسها وفقيهها وإمامها بلا مدافع». ويلاحظ من ذلك أنه جمع بين ثمانية ألقاب.

٢ ـ فقيه

الفقه لغة هو الإدراك أوالفهم، وفي الاصطلاح التعليمي الإسلامي هو العلم بالأحكام الشرعية. ويطلق لقب الفقيه في الجملة على العالم بالأحكام الشرعية.[٣]

أما في غربي إفريقية فلم تعد كلمة فقيه قاصرة على المشتغل بالفقه فحسب، بل توسعوا في استعمالاتها، فأطلقوها على الرجل المثقف بصفة عامة. ويكاد يكون هذا اللقب مشتركا بين كل العلماء الذين ترجم لهم السعدي وأحمد بابا.[٤]

---

(١) وعن استخدام كلمة مدرس ومدرسة في غربي إفريقية، انظر ص ص٢٧٣-٢٧٥ من هذا الكتاب.

(٢) تاريخ السودان، ص٣٨.

(٣) تاريخ السودان، مثلا الصفحات: ١٥، ١٨، ١٩، ٢٤، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، إلخ. وهي كثيرة جداً كما يلاحظ في تتابع أرقام الصفحات.

(٤) نيل الابتهاج، مثلا الصفحات: ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧٧، ١٣٠، ١٤٠، ١٨١، ٢٤٥، ٣٢٣، ٣٢٤.

٣ ـ المتفنن

يطلق هذا اللقب على العالم المثقف، أي الذي له إلمام بكل فن من الفنون العلمية المعروفة في زمانه وبيئته. وقد أطلق أحمد بابا هذا اللقب على والده أحمد بن أحمد بن عمر أقيت لأنه كان فقيها عالما ومحصلا ومحدثا وأصوليا وبيانيا ومنطقيا[١]، وقد استعمله الإمام بلّو[٢] كثيرا.

٤ ـ المحدث

لقب يطلق على العالم المختص بدراسة علوم الحديث، ولم يكن كل دارس للحديث يسمى محدثا، إنما المحدث من عرف الأسانيد والعلل وأسماء الرجال والجرح والتعديل وأكثر من حفظ المتون وسماع الكتب الستة والمسانيد والمعاجم والأجزاء الحديثية[٣]. وقد ذكر السعدي وأحمد بابا[٤] هذا اللقب، ولكنهما لم يبينا لنا مدى انطباق وصف المحدث على العَلَم المذكور حسب المقاييس المتفق عليها عند علماء الحديث، وإن كنا نرجح وجود علماء محدثين حسب تلك المقاييس، ومن أمثال أولئك أحمد بن أحمد والد أحمد بابا.

٥ ـ الحافظ

يطلق على كبار علماء الحديث، وتختلف الآراء حول تحديد النصاب الذي يحفظه العالم من الأحاديث ليستحق هذا اللقب. فبعض العلماء يقول بأن لقب الحافظ يطلق على حفظ أربعمئة حديث، وقال البعض إنه متى مازاد حفظه على عشرة آلاف حديث سمي حافظا، وقال آخرون إنه متى ما زاد على

---

(١) المصدر نفسه، ص٦٦.

(٢) إنفاق الميسور، أماكن متفرقة.

(٣) انظر: محمد جمال الدين القاسمي: قواعد التحديث في فنون مصطلح الحديث، إحياء تحقيق وتعليق محمد بهجة البيطار، ص٢ ـ دار إحياء الكتب العربية ـ الحلبي، القاهرة ١٩٦١، ص٧٦.

(٤) تاريخ السودان والنيل، أماكن متفرقة.

ألف حديث استحق اللقب[١]. ويقول القاسمي[٢] إن الحافظ مرادف للمحدث عند السلف، وقد عُرِّفَ الحافظ بأنه من اشتغل بالحديث رواية ودراية، وجمع بين رواته، واطلع على كثير من الرواة والروايات في عصره، وتميز في ذلك حتى عرف فيه حفظه، واشتهر فيه ضبطه، وتوسع في ذلك حتى عرف شيوخه وشيوخ شيوخه طبقة بعد طبقة، بحيث يكون ما يعرفه من كل طبقة أكثر مما يجهله. ومن العلماء من يقول إن علوم الحديث ثلاثة: أشرفها حفظ متونه، ومعرفة غريبها وفقهها، والثاني حفظ أسانيدها، ومعرفة رجالها، وتمييز صحيحها من سقيمها والثالث: جمعه وكتابته وسماعه وطلب العلو فيه.[٣]

وقد جاء ذكر هذا اللقب كثيرا عند السعدي وأحمد بابا ومحمد بلّو وابن المختار[٤]، ولكنهم لم يبينوا لنا عدد الأحاديث التي يحفظها أي عالم من العلماء الذين ترجموا لهم، ومدى انطباق تعريف الحافظ عليهم.

٦ - شيخ

إن لقب شيخ كثيرا ما يعني «مدرس». فنلاحظ أن أحمد بابا يستخدم هذا اللقب كثيرا، فيقول لمن تتلمذ عليه: «شيخنا فلان»[٥] ويقول لمن لم يتتلمذ عليه: «الشيخ فلان»[٦]. وبهذا المفهوم جاءت في تاريخ الفتاش.[٧]

وكانت كلمة شيخ تعني من بين ما تعنيه وصول العالم إلى مرتبة كبرى

---

(١) الحفناوي، مرجع سبق ذكره ص٩٤، وعن استعمال هذا اللقب انظر: النيل، ص٥٦، ٦٧، ٦٤، ١١٢، ٣٠٧.

(٢) قواعد التحديث، مرجع سبق ذكره، ص٧٦.

(٣) المكان نفسه.

(٤) النيل، مثلا: ص٩٠، ١٨١.

(٥) ابن المختار، مثلا الصفحات: ١٦، ٢٤، ٣٣، ٩٤، ١٢٢.

(٦) تاريخ السودان، ص٧٦، ٣٠.

(٧) الإنفاق، ص٣٧.

من العلم. وكانت ذات مدلول كبير عندما تقترن بكلمة الإسلام لتصبح «شيخ الإسلام». ومن الذين حملوا هذا اللقب محمود بن عمر أقيت[1] ومحمد البكري[2] وعثمان بن فودي.[3]

ومن الملاحظ أن بلّو قد استخدم هذا اللقب كثيرا، ويرجع السبب في ذلك إلى أن كلمة شيخ أصبحت أعلى لقب في دولة الفولاني الإسلامية. وعندما يقول المرء: الشيخ، فهذا يعني أنه الشيخ عثمان بن فودي، ولم يساوها إلا لقب إمام أو أمير المؤمنين. وحمل عثمان بن فودي هذا اللقب حتى أصبح صفة لكل من يسمى عثمان. وحلت كلمة شيخ محمل كلمة سلطان أو أمير أو غيرها من الألقاب التي كانت تطلق على حكام الهوسا أو البرنو. واشتهر محمد الأمين الكانمي بهذا اللقب بعد الشيخ عثمان بن فودي[4]. وكثيرا ما ينطق هذا اللقب عند الهوسا محرفا قليلا، فهم يقولون «شيخو»[5] أو «Shehu» ويعنون بذلك «الشيخ».

٧ ـ مالم

اشتهر هذا اللقب في بلاد كانم برنو وبلاد الهوسا، وهو بمعنى كلمة «المعلم» أو «العالم» العربية، وتطلق على كل مترسم بزي علماء الدين.[6]

والمخطوطات المنشورة لتاريخ هذه البلاد التي ذكرناها تكثر من استعمال هذا اللقب؛ فقد جاء في «تاريخ كانو»، وفي معرض الكلام عن خروج أمير كانو عبدالله بن محمد رمفا (٩٠٤ ـ ٩١٤هـ/ ١٤٩٩ ـ ١٥٠٩م) لمقابلة أمير

---

(١) انظر: تاريخ السودان، أماكن متفرقة.
(٢) انظر: الإنفاق، مثلا: ص٣٧.
(٣) المصدر نفسه، ص٥٧.
(٤) ابن يونس، ص١٢٠.
(٥) K. C. P. 79, 82, 86.
(٦) ابن يونس، ص١٢٠.

برنو أن اصطحب السلطان الكانوي معه معلمين، ونصه:

"The Sarkin Kano went out to meet him together with his Mallams and humbled himself before him"

وترجمة هذا النص: «خرج ساركين كانو لمقابلة أمير برنو وبرفقته معلموه وتواضع له». وغير هذا مواضع كثيرة ذكر فيها اللقب «Mallam». (١)

وقد لازم اللقب كل العلماء الذين تعرضت لهم المخطوطات التي ترجمها بالمر والخاصة بتاريخ برنو(٢)، وورد ذكرها كثيرا في كتابات الإمام بلّو. (٣)

ومما تجدر الإشارة إليه أن كلمة «مالم» عند الهوسا تختلف معانيها باختلاف الأشخاص الذين تطلق عليهم، فأحياناً تطلق على كبار العلماء، فتفيد المعنى الذي تفيده كلمة «شيخ» نفسه. (٤)

٨ ـ ألفا أو الفع

هو اختصار للكلمة العربية «الفاهم» أو «الفقيه». وهو ماعرف به رجال العلم والأدب والمتعلمون عامة في غربي إفريقية(٥). وأشهر من حمل لقب «الفع» هو القاضي محمود كعت الذي كان يسمى «الفع محمود كعت»(٦). ومن حصل لقب ألفا الشيخ محمد بن أحمد الشهير بألفا هاشم الفوتي، المتوفى بالمدينة المنورة سنة ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م، وصاحب كتاب «تعريف العشائر والخلان بشعوب وقبائل الفلان». (٧)

---

(١) Ibid, p. 80, 82, 83, 86, 88, 90, 92, etc.

(٢) انظر مثلا: The Bornu Sahara, op. cit., p.: 80, 82, 83, 86, 88.

(٣) إنفاق الميسور، ص٢١، ٢٢، ٢٧، ٣٧، ٥٢، ٥٤، ٥٧، إلخ.

(٤) ابن يونس، ص١٢٠.

(٥) انظر: د. طرخان: دولة البرنو الإسلامية، مرجع سبق ذكره، ص١٨٣.

(٦) الفتاش، ص٤٨، ٥٤، ١٠٨، ١١١، ١١٦.

(٧) انظر: صدر هذا الكتاب، طبعة مكة، المطبعة الماجدية، سنة١٣٥٤هـ.

٩ ـ قونـــي

من ألقاب العلماء في بلاد البرنو، ويلقب به كل من حفظ القرآن وأجاده وكتبه من أوله إلى آخره عن ظهر قلب، وعرض جميع مايكتبه في اللوح على المقرئ في وسط جمـهور من كبار الحفاظ، ملتـزما الشكلَ والوقف والكلمات المقطوعة والموصولة، واضعا كلا في موضـعه. فإذا قام بهذا العمل على الوجه المطلوب وبهـذه الكيفيـة المذكورة أطلق عليـه حينئـذ لقب «قوني»[١]. ويحرم حسب التقاليد المحلية أن ينادي أحد القوني باسمه مجردا من هذا اللقب.[٢]

١٠ـ سيـــدي

أطلقت كلمة سيدي، أو سيدنا أو السيد على أصحاب الكرامات والذين ينتهجـون النهج الصوفي في عباداتـهم. ومن أولئك الذين حملوا هذا اللقب: سيدي يحـيى التادلسي،[٣] وسيدي مـحمد البكري،[٤] وسيدي عـبدالرحمن التمـيمي،[٥] والسيد إبراهيم الزلفي،[٦] وسيدي أحـمد البكاي،[٧] وسيدي محمـود البغدادي،[٨] وسيدي عـبدالله البلبالي،[٩] والسيد أبو القاسم،[١٠] وسيدي محمد بن عبدالكريم المغيلي[١١].

---

(١) ابن يونس، ص١٢١.

(٢) المكان نفسه.

(٣) تاريخ السودان، ص٢٣، ٢٩، ٥٠، ٥٣.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٢، ٥٢، ٦١.

(٥) المصدر نفسه، ص٥١.

(٦) المصدر نفسه، ص٥٨.

(٧) ص ٣٤٦ من هذا الكتاب.

(٨) إنفاق الميسور، ص٤١.

(٩) تاريخ السودان، ص٥٧.

(١٠) المصدر نفسه، ص٥٨.

(١١) الفتاش، ص٦٩.

١١ـ الأستـــاذ

استعمل هذا اللقب كثيرا الإمام بلّو، وبمفـهوم قريب من مفهوم عصرنا الحالي في الألـقاب الجامـعية. فـقد اقـترن هذا اللقب في كـتاباته باسم عـمه عبدالله بن فودي[1]. ومن المعلوم أن عبداللـه بن فودي يعد مثالا حـيا للعالم الذي ينطبق عليه لقب أستاذ بمفهـومنا الجامعي. أما السعدي[2] فقد استعملها بمعنى معلم أو مدرس، ومثال ذلك قوله عن الفقيه إبراهيم الزلفي: «وهو أستاذ والدي».[3]

١٢ـ الإمـــام

ولـم تكن كلمة «الإمـام» تعني الشخص الذي يتولى منصب الإمـامة في الصلاة فقط، بـل تعدتها وأصبحت لقـبا من الألقاب الرفيـعة التي تطلق على عظمـاء العلماء في جـمـيع أنحاء العـالم الإسلامـي، ومنه غربي إفـريقيـة. فأصـحاب المذاهب الأربعـة عرفوا بالأئـمة، وعرف بهـذا اللقب كل من نهج نهجـهم في الاجتهـاد أمثال الغـزالي وابن تيمـية وغيـرهما أو من قاد حـركة إصلاحية دينية منذ العـصر القديم حتى عصرنا الحاضر، مـثل الإمام محمد بن عبـدالوهاب والإمام مـحمـد أحمـد المهدي والإمـام محـمد تومـرت والإمام السنوسي والإمام محـمد عبده والإمام حسن البـنا وغيرهم. وأطلق هذا اللقب على القاضي محمود أقيت».[4]

وفي القرن (١٢هـ/ ١٨م) ومطلع القـرن (١٣هـ/ ١٩م) أخذ لقب إمام

---

(١) إنفاق الميسور ص٦٠، ٦٣.

(٢) تاريخ السودان، ص٥٨.

(٣) تاريخ السودان، ص٥٨.

(٤) انظر: نيل الابتهاج، ورقة ٣٢٣.

مـفهـوما أوسع في غـربي إفريقـيـة كمـا حدث في أجـزاء أخرى من العـالم الإسلامي قـديما وحديثا؛ فـقد أصبـحت كلمة إمام تطلق علـى الزعيم الديني الذي يتولى رئاسة دولة تقوم على الدين. فقد اشـتهر بهذا اللقب وبهذا المفهوم الجـديد عبـدالقادر بن حـمادي التكروري (ت ١٢١٩هـ/ ١٨٠٤م) الذي قـام بثورة دينية في نهاية القرن الثاني عشر الهـجري، ونصبه أعوانه وأنصاره حاكما ولقبـوه بـ«الإمام». وقد استـمرت هذه الإمامـة بفوتارو بالسنغال حـتى دخول الفـرنسيين هذه البـلاد[١]. والرجل الثـاني الذي حمل هـذا اللقب السيـاسي والديني هو ناصر الدين، في النصف الثاني من القرن السابع عشر.[٢]

وغيـر هذه الألقاب التي ذكـرناها ألقاب أخرى مـثل: «شيخ الشـيوخ» والقطب والعـامل وأبو المكارم وأبو الثنـاء، وأبو المحـاسن[٣] وهذه الألقـاب الأخيرة من أرفع الألقاب التي عرفت في جميع أرجاء العالم الإسلامي.

(١) B. O. Oloruntimehin: The Segu Tukulor Empire, p.9; The Cambridge History of Islam, op. cit., p. 366.

(٢) Philip D. Curtin: "Jihad in west Africa": J. A. H., XIII (1971), p. 14.

(٣) انظر: تاريخ السودان، ص٥٣؛ النيل ص٣٠٥، ٣٢٣، وأماكن أخرى.

المبحث الثاني

وظائف العلماء

١ - القضاء

إن من أكبر المناصب الإدارية التي يتولاها العالم هي وظيفة «القاضي». وهي ملازمة لقيام دولة المؤسسات الإسلامية، بل كانت أثرا مباشرا للإسلام. فعندما نشأت المراكز التعليمية في غربي إفريقية وأقيمت فيها المساجد وكثر فيها العرب والتجار والمسلمون والفقهاء القادمون من شمالي إفريقية، ومنذ أن ظهرت دولة مالي الإسلامية، وجد منصب قاضي القضاة في العاصمة، والقضاء في المدن المهمة[1] والمدن الصغيرة[2]. أما قبل سيادة الإسلام فقد كان القضاء في غربي إفريقية يتولاه الملك كسلطة عليا (قاضي قضاة) وبجانبه الرؤساء القبليون كما كان يحدث في مملكة غانة[3] وممالك الهوسا[4]. وكان القضاء مبنيا على العادات والتقاليد المحلية. ففي بلاد الهوسا كانت التقاليد تقضي بالصلب حتى الموت للقاتل واللص والخائن لوطنه، والزاني تؤخذ منه غرامة معينة تعدل ثلث المهر وتسلم للزوج المتضرر، والمدين يرهن ولده عند الدائن ليستغله حتى يدفع ما عليه عاجلا أو آجلا، ويقدم الزارع لمالك الأرض من نوع ما يزرع. ويستولي الأخ الأصغر على كل الميراث، ويرث بجانب العقار الثابت والمنقول الزوجات، وليس للأبناء والأزواج حق إلا ماتسمح به نفس العم الذي هو بمنزلة الأب.[5]

---

(١) تاريخ السودان، ص١٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٨، مثل بلدة يندبغ.

(٣) قداح، ص١١٥.

(٤) الألوري، الموجز، ص١٣٢.

(٥) المصدر نفسه، ص ص١٣٢-١٣٣.

أما القضاء الإسلامي فقد ظهر بظهور الإسلام في غربي إفريقية. ومن الطبعي أن أحكامه كانت مستمدة من الكتاب والسنة والإجماع والقياس على المذهب المالكي.

ويشترط في القاضي أن يكون عالما فقيها متحليا بالنزاهة والورع.[1] ولم يكن أحد يتقلد منصب القضاء إن لم يكن أهلا له خوفا من الله، وتورعا من خطورة المسؤولية أمام الله[2]، وحتى لو كان أهلا لهذا المنصب فإنه كان يرفضه تورعا أيضا. وتوجد أمثلة كثيرة لهذه الظاهرة في تاريخ القضاء الإسلامي عامة والقضاء في غربي إفريقية خاصة، لأن التقوى في كل العصور وفي كل النفوس.

فمثلا ظل منصب القاضي في تنبكت شاغرا لمدة عام ونصف العام بعد وفاة القاضي العاقب بن محمود أقيت. وظل آسكيا الحاج محمد في كل هذه المدة يطلب من الفقيه أبي حفص عمر بن محمد أن يتولاه، فيرفض الأخير، ولثلاث مرات متتالية[3]، وأخيرا واجهه آسكيا محمد بأنه لو استمر في الإباء فسوف ينصب جاهلا ويكون الذنب على أبي حفص، ولم يسع أبا حفص أمام هذا التهديد إلا أن يذعن لطلب السلطان على مضض منه وهو يبكي خوفا من حساب الله يوم القيامة[4]. وقد حدث الشيء نفسه عندما أراد آسكيا إسحاق أن يولي محمود بغيغ القضاء في جني.

لقد أبى محمود وأصر ولم يعفه آسكيا من المهمة، فلم يسعه إلا أن

---

(١) المصدر نفسه، ص١٣٣.

(٢) تاريخ السودان، ص٤٤.

(٣) المكان نفسه.

(٤) الفتاش، ص ص٨٩ـ٩٠.

يجهش بالبكاء كـالطفل لعظم المسؤولية ووقع ذلك في نفسـه. وعندما علمت زوجته بـتنصيبه قـاضيا، لامتـه لوما شديدا وظلت تبكي لعدة أيام خـوفا على زوجها وعلى نفسها من تبعة هذا المنصب أمام الله[1]. وتكرر إباء العلماء لهذا المنصب في عهـد آسكيا إسـحاق عندما قـدم هذا السلطان الفقـيه عثـمان درم ليتولى خطة القـضاء على بلدة تندرم، ولكن الفقيه عـثمان رفض هذا المنصب ولم يقبله إلا قهرا بعد مد وجزر ومشاورات.[2]

ورفض الفقيهان محمد بغيغ وأحمد بغيغ قضاء مدينة جني عندما طلب آسكيا داود أن يتولى أحـدهما هذه الوظيفة، واخـتفيا في المسجـد شهورا ولم يقبلا أي شفاعة في هذا الأمر. وكانا بذلك مثار عجب السلطان الذي أكبرهما بعد ذلك كثيرا وطلب أن يزوراه. وقبلا الطلب فأكرمهما غاية الإكرام.[3]

ويبـدو أن منصب القـاضي عـرف باسـم «الخطيب» أيضـا. يقـول ابن المختار[4] في معرض الكلام عن آسكيا إسحاق ومسـألة ترشيحه محمود بغيغ لمنصف القضاء مانصه: «ثم رجع آسـكي إسحاق إلى كاغ، وأدركه في الطريق نعي الخطيب أحـمد ترف خطيب جن قـبل وصولهـما لكاغ، وهو الذي ألـفاه أسكي إسحاق هناك خطيبا... فأمر بتـقديم القاضي محمود بغيغ وأرسل أحد أعوانه من جيشه ليقدمه قاضيا أحب أم كره..»، وفي هذا النص دليل على أن منصب الخطيب هو منصب القاضي. ويذكر السعدي أن آسكيا داود ولى محمد درمي خطيبا سنة ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م[5]. وهناك نص صريح لابن المختـار يفيد

---

(١) المصدر نفسه، ص ص ٨٩-٩٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ص١١٣-١١٤.

(٤) المصدر نفسه، ص٨٩.

(٥) تاريخ السودان، ص١١١.

بأن القـاضي والخطيب شيء واحـد وهو: «. . . وكان آسكـيا يوم عـزم على الخروج لملاقاة جودار وقتالهم جمع أشياخ كاغ وأعيان جيشه والقاضي الخطيب وكبراء شهوده وسألهم عن الرأي والتدبير». [1]

وكـان الذي يولي منصب قـاضي الـقـضاة، أو قـاضي تـنبكت وجني السلطان أو الحاكم، أما قـضاة الأقاليم فيوليهم قاضي القـضاة (قاضي تنبكت) بعد مشاورة السلطان واتفـاق أهل البلد على هذه الولاية. فعندما توفي قاضي جني، القاضي العبـاس كب، شاور أهل جني آسكيا إسحاق فـيمن يخلفه في القضاء، فأشار إليـهم آسكيا إسحاق بتولية محمود بـغيغ الذي عرفه من علمه قـبل أن يعرف شـخصـه، وذلك عندما زار الـسلطان مدينة جني وتحـادث مع قاضيها السـابق العباس كب بحضور محمود بغـيغ الذي أفتى في مسألة أثارها السلطان، فأعجب به من حينها مما كان سببا في أن يشير بتوليته. [2]

أما في عهد الباشوات المراكشيين في دولة سنغي، فلعل الذي كان ينصب قضاة جني بالذات هم الباشوات، فالسعدي[3] يقول: «وأما أول القضاة الذين تولوا على أيديهم (البـاشوات) في جني فـالقاضي أحـمد الفلالي ثـم القاضي مودب مـوسى داب ثم القاضي العدل أحـمد تروري. . ». وتمثل دور السلطان المباشر في الإشارة بتولية هذا المنصب عدة مـرات، فعندما سافر القاضي الأكبر مـحمـود أقيت إلى الحج صـحـبة آسكيـا محـمد خـلّف في منصب القضـاء عبدالرحـمن بن أبي بكر بأمر من آسكيا مـحمد[4]، وعندما عاد مـحمود من

(١) تاريخ الفتاش، ص ص١٤٩ـ١٥٠.

(٢) تاريخ السودان، ص ص٩٤ـ٩٥.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٠٨، تاريخ الفتاش، ص ص٨٩ـ٩٠ (يوجد بعض الاختلاف بين روايتي السعدي وابن المختار، وان كانت الخلاصة واحدة).

(٤) تاريخ السودان، ص٧٦.

الحج لم يطالب بهـذا المنصب لمدة عشـر سنين إلى أن تدخل الحاج آسكـيا في ذلك فأمر أن يتنازل عبدالرحمن ليحل مكانه القاضي محمود.[1]

وكانت لقـاضي تنبكت بالذات أهميـة كبرى، فـهو الذي يقوم بتـولية الأئمة للمساجد الكبرى بعـد استشارة الحاكم أحيانا[2]، ويبني المساجد الجديدة أو يقوم بترميم القديم منها كما رأينا. فالقاضي العاقب ـ مثلا ـ هو الذي أشار بتـولية مـحمد كـراد بن أبي بكر الفـولاني إمامـة المسجـد الكبيـر بتنبكت[3] والقاضي محمد بن أحمد ابن القاضي عبـدالرحمن هو الذي أمر بتولية محمود ابن الإمام صديق إمامـة الجامع الكبير بعد وفاة أخيه الإمـام أحمد، وذلك بعد استشارة الباشا جودار سنة ١٠٠٥هـ/ ١٥٩٦م.[4]

أما خير مثال لقيام القاضي بتولية الإمام بعد ترشيخ أهل المنطقة أن يرونه أهلا لهذا المنصب هو ماحدث في حـالة تولية الفقيه أحمد إمامـة الجامع الكبير بعد موت الإمام سيدي أبي القاسم التواتي بأمر القاضي محمود أقيت[5]، وفي حالة تولية الفقيه سيدي علي الجزولي الإمـامة في المسجد نفسه بعد وفاة الإمام أحمد المذكور وذلك أيضا بأمر القاضي محمود بعد اتفاق أهل المنطقة على هذا الترشيخ.[6]

وكـان للقاضي، بجـانب هذه المهـام، مايشـبه الإشـراف على الناحيـة التعليـمية في المنطقـة التي يمارس فيهـا عمله، ويتمـثل ذلك في عنايته بتوفـير

---

(١) المكان نفسه.

(٢) الفتاش، ص٣٠٩.

(٣) تاريخ السودان، ص١٠٩.

(٤) الفتاش، ص٣٠٩.

(٥) تاريخ السودان، ص٦٠.

(٦) المكان نفسه.

السكن للوافدين من الطلاب وتوزيع المواد الغذائية عليهم وإعانة معلميهم بما يمكنهم من القيام بمهام التعليم[1]. ولم يختلف الحال في بلاد الهوسا والبرنو عما كان عليه في تنبكت أو جني؛ فقد تولى منصب قاضي القضاة في مدينتي كانو وكاتسينا الشيخ المغيلي التلمسائي. وترك التلمسائي للقضاة وصية جامعة في أصول الاجتهاد والقياس.[2]

لم نعثر على مايشير لوجود دار ثابتة للقضاء، ويبدو أن القاضي كان يتخذ من المسجد مكانا للقضاء، أو يتخذ داره أو أي مكان عام. وقد حدث أن كان الفقيه كاتب موسى ـ آخر الأئمة السودانيين في المسجد الكبير ـ كان يقضي على منصة تحت شجرة كبيرة بالقرب من داره.[3]

٢ ـ الإمامة

تأتي الإمامة في المرتبة الثانية بعد القضاء. ومهمة الإمام هي إمامة المصلين في الصلاة بالمسجد الجامع، وفي صلاة الجمعة خاصة. وعندما يترقى الإمام يتولى منصب القاضي.

وتتم تولية هذا المنصب باتفاق أعيان المدينة أو البلدة ـ كما يحدث في منصب القاضي ـ وموافقة القاضي على رأس أهل المنطقة. فالسعدي نفسه عندما تولى إمامة مسجد سنكري، كان ذلك باتفاق أعيان مدينة تنبكت ومباركة القاضي آنذاك الفقيه أحمد داب.[4]

وكانت هذه الوظائف شبه وراثية في بعض الأسر التي اشتهرت بالعلم،

(١) انظر: الفتاش، ص١٨٣، ومابعدها؛ د. زبادية: مملكة سنغاي، مرجع سبق ذكره، ص١٤٢.
(٢) الألوري، الموجز، ص١٣٣.
(٣) تاريخ السودان، ص٥٧.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٤٤.

مثل أسـرة أقيت وأسرة كـعت وأسرة السعـدي، لذا نلاحظ أن الإمام من هذه الأسرة أو تلك يتولى القـضاء بعد موت شاغله الذي كـان في منصب القضاء. ويعقد السعـدي بابا كاملا عن أئمة المسجد الجامع الكبيـر ومسجد سنكري(١).

ويلاحظ تعيين إمام الجـامع الكبير بتنبكت أحيـانا قاضيا على بلدة أخـرى غير تنبكت بعد مـشاورة ولاة الأمور في البلدين. ومـثال ذلك تولي سعيـد، إمام الجامع الكبيـر بتنبكت، قضاء جني بعد وفاة قـاضيها الفقيـه أحمد ترروري(٢)، بعد مشـاورة ولي الأمر بتنبكت، الباشـا علي بن عبدالله التلمسـاني، وحاكم جني يومئذ البلبالي وسلطانها السوداني جنكي أبو بكر ساكر.(٣)

٣ ـ متولي الشرع

لم يذكر هذا اللقب كثيرا حتى يمكن إعطاء صورة كاملة عنه، ولـم يعرف ما إذا كـان الذي يتولى هذا المنصب هو القـاضي أو الإمام أو موظف مـختص يعمل تحت إمـرة القاضي. ونميل إلى أن هذه الوظيفة كـانت توكل إلى شخص عالم معين.

ويفهـم من النص الوحيـد الذي أورده السعـدي حول هذه الوظيـفة أن مهمة متولي الشرع هي حصر التركة بعد موت أي شخص له أملاك. وقد جاء ذلك على لسان السعدي في معرض الـكلام عن وفاة الحاكم سيدي منصور بن الباشا مـحمود لنك بمدينة جني، عندما قال عنه: «.. ودفن ليلتـئذ في الجامع الكبير، وبت أنا وثلاثة من الشهود... عند باب داره للحراسة عليها.. بعدما

(١) المصدر نفسه، ص٥٦، ومابعدها.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٣٨.
(٣) المكان نفسه.

طلعنا جميعا على ما احتوت عليـها الديار. وفي الغد ضحوة زحمنا تركته.. بعد استئذان متولي الشرع».[1]

٤ ـ الكاتـــب

تشبـه وظيفة الكاتب في عدة وجـوه وظيفة كاتب الديوان التي كـان لها أصولهـا وقواعـدها لاسيمـا في العصـر العبـاسي الأول عندما اقتـرنت باسم عبدالحميد الكاتب، أما في غربي إفريقيـة عامة وفي تنبكت خاصة فقد اقترنت باسم السعدي صاحب كتاب «تاريخ السودان». لقد تولى السعدي هذه الوظيفة سنة ١٠٥٦هـ/ ١٦٤٦م من قبل البـاشا المراكشي آنذاك[2]، بعد أن ظل يشغل وظيفة المبعوث المتجول لدى الحاكم في تنبكت. إنها وظيفة انحصرت في حمل قرارات السلطان إلى أقـاليم دولته المختلفـة، والقيام بالأمـور الكتابية الخـاصة بالعلاقات الداخلية[3]. وكان يتردد كـثيرا على المدن الكبيـرة في الأقاليم لأداء مهـمتـه. ولعل نشاطه وكـفاءته همـا اللذان جعـلا الحاكم يبقـيه مـعه كـاتبا وسكرتيرا.

٥ ـ شاهد القاضي

إن هذه الوظيفة كانت ذات صلة بالقاضي كمـا هو واضح من تسميتها. وشهـود القاضي هـم العلماء الذين يوقـعون مع القـاضي على الوثائق المهـمة كوثائق الصلح الذي يعقد بين الجماعات السيـاسية المتخاصمة. ويفهم ذلك من قول السعدي[4]: «خرج قاضي ماسنه من جني إلى تنبكت مع شاهدي قاضي

---

(١) تاريخ السودان، ص٢٤٥.

(٢) تاريخ الفتاش، ص٢٧٧.

(٣) المصدر نفسه، ص٦٤، ٢٦٥، ٢٧٢، ٢٧٥.

(٤) الفتاش، ص٢٧٦.

جني فـقبلهم البـاشا وقـبل الصلح وأجـازه». ونجد هؤلاء الشــهود دائمــا مع القاضي في محكمته، ويستشيرهم الحاكم في الأمور المهمة مع أعيان البلاد كما حدث ذلك في حادث معركة تندبي بين دولة سنغي والمغرب[1]. وهم يشبهون إلى حد كبير أعضاء محاكم اليوم، عضو اليمين والشمال.

(١) المصدر نفسه، ص ص١٤٩ـ١٥٠.

المبحث الثالث

مكانة العلماء الاجتماعية

كانت طبقة العلماء تلي طبقة الملوك والأمراء من حيث النفوذ السياسي. وكان نفوذ العلماء يتوقف على مدى قوة تمكن الإسلام من نفوس الملوك وسياستهم الإسلامية؛ فقد زاد نفوذ العلماء إلى حد كبير في عهد سلاطين مالي والأساكي في دولة سنغي الإسلامية. كانوا يحظون باحترام العامة والخاصة لا سيما السلطان[1]، وكان السلاطين كثيرا ما يهابونهم. ففي دولة مالي تمتعوا بمكانة اجتماعية سامية حتى في عهدها الوثني. وتدلنا قصة إسلام أول ملوك مالي ـ المسلماني ـ على ما حظي به العلماء المسلمون والدعاة من تقدير. فعلى الرغم من وثنية الملك المالي فقد طلب استشارة الفقيه والعالم الإسلامي الذي كان ببلاده عندما أجدبت بلاده. وكانت هذه الاستشارة بداية وسببا في دخول هذا العاهل في الإسلام[2]. وهذا سندياتا، بطل مالي الوطني، يحجم عن تعقب العلماء المسلمين الذين لجؤوا إلى والاتا فرارا من بطش قبائل الصوصو الوثنية المعادية عام ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م[3]. وفي عهد السلطان سني علي، وعندما هدد مدينة تنبكت بالدمار، قام الحاكم الطوارقي ـ آكل ـ بترحيل العلماء إلى والاتا على ظهور الجمال، وبذلك أنقذ جزءا كبيرا منهم، ولم يفلت بعضهم من القتل.[4]

وقد عرف محمود أقيت بالمكانة الاجتماعية الكبيرة عند السلطان في دولة

(١) انظر : الفتاش، ص٥٦، تاريخ السودان، ص١٧، Leo Africanus, op, cit., p. 825.

(٢) البكري، المغرب، ص١٧٨.

(٣) صبح الأعشى، جـ٥، ص٢٩٣، د. طرخان: دولة مالي الإسلامية، ص٥٥.

(٤) تاريخ السودان، ص٦٥.

سنغي، ووصل ذلك إلى الحد الذي يزوره فيه السلطان في بيته[1]. وكانت لهم شفاعة نافذة عند السلاطين حتى في الأمور التي تتعلق بمن أساء للسلطان أو دخل معه في حرب. فقد توسط «جد مسرآند غمحمد» لدى السلطان الطوارقي - آكل - ليسمح لمحمد أقيت بأن يقيم في تنبكت عندما قدم مهاجرا من ماسنة، على الرغم من أنه سبق أن ناصبه العداء المسلح[2]. وقد كان الفقيه أحمد بن أحمد بن عمر أقيت والد أحمد بابا وافر الحرمة عند الملوك أيضا.[3]

وكان السلطان الكانوي يصحب معه العلماء في المقابلات الرسمية لاسيما مقابلة الزوار من سلاطين المناطق المجاورة، مثل برنو، كما حدث ذلك في عهد السلطان الحادي والعشرين، عبدالله (٩٠٤ - ٩١٤هـ/ ١٤٩٩ - ١٥٠٩م).[4]

(١) المصدر نفسه، ص٣٨.

(٢) تاريخ السودان، ص٣٦.

(٣) المصدر نفسه، ص٤٢.

(٤) K. C. p. 78

المبحث الرابع

دورهم في التوجيه

إن الدين والدولة في الإسلام شيء واحد، لذا سوف نتكلم عن دور العلماء في مجال إقامة المجتمع الإسلامي الصحيح والدولة الإسلامية.

منذ أن عرفت غربي إفريقية الإسلام كان التجار والعلماء هم الذين يقومون بنشر الإسلام في هذه المناطق، فعلى أيديهم أسلم أهل غانا منذ القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) كما أوضحنا، وفي أواخر القرن نفسه أسلم ملك غانة، وعندما كتب الإدريسي[1] عن غانا كان ملكها مسلما، ويدّعي النسب إلى صالح بن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وتابع ابن الوردي[2] الإدريسي في ذلك. وكان دورهم بارزا في إسلام مدينة جني كما ذكرنا.

وفي دولة مالي الإسلامية أضحى للعلماء وزن كبير في المجتمع مما ساعدهم على أداء مهمتهم الأساسية، وهي نشر التعليم والوعي. وكثر عدد الوافدين إلى مالي من العلماء من شتى بقاع العالم الإسلامي ليقوموا بهذا الدور. وكانت جحافلهم تتحرك من أقصى غربي إفريقية إلى أقصى شرقي غربي إفريقية، من مالي وونغارة إلى برنو شرقا. فقد تحدث التاريخ المسجل عن مجموعة من علماء الوانغارة قدموا إلى بلاد الهوسا من مالي بغرض الدعوة إلى الإسلام في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، كما ذكرنا، ولا نخال أن هذا الوفد كان الأول والأخير من نوعه، فلربما أغفلت التواريخ

(١) نزهة المشتاق، ص٦.

(٢) تاريخ ابن الوردي، ص١٦٠.

المسجلة جهود العلماء والأفراد في مثل هذا النشاط. وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر سجل حدث آخر مهم عن دور علماء مالي في إدخال الكتب الإسلامية إلى بلاد الهوسا وبرنو؛ فقد جاءت مجموعة أخرى كالتي جاءت في القرن الماضي، وقامت بدور توجيهي أيضا كما أثبتناه في غير هذا المكان.

ولم يكن العلماء يتهاونون في خرق المبادئ الإسلامية والأخلاق الإسلامية. وكان تصديهم للسلطات الجانحة أو المنحرفة يعرضهم إلى الخطر حتى الموت. وليس أدل على ذلك مما حدث لهم مع سني علي، سلطان سنغي (٨٦٩-٨٩٨هـ/ ١٤٦٤-١٤٩٢م). فقد شن هذا السلطان حربا ضروسا على الطوارق، واستعاد منهم مدينة تنبكت بين عامي ٨٧٣ و٨٨٥هـ/ ١٤٦٨ و١٤٨٠م، وعارضه في هذا العلماء، لأن الحرب موجهة ضد من هم معه في العقيدة، ولا يصح شرعا الحرب بين المسلمين إلا في حالات محددة عينتها الشريعة، واتهموه بضعف الإيمان، مما ولد لديه ردود فعل عنيفة تجاههم، فاستباح دماءهم وأعمل السيف في رقابهم، وأفنى الكثيرين منهم، مما أكسبه كراهية العلماء. وعنه يقول السعدي[1]: «أما الظالم الأكبر والفاجر الأشهر سني علي فإنه كان ذا قوة عظيمة.. ظالما فاسقا معتديا متسلطا سفاكا للدماء قتل من الخلق مالا يحصره إلا الله تعالى، وتسلط على العلماء والصالحين بالقتل والإهانة والإذلال». وقال عنه ابن المختار[2]: «الذي سارت الرفاق بقبح سيره.. وكان فاسقا فاجرا.. وانظر في أفعاله وكفره بمقتل الفقهاء.. وفيه من سيّيء الأعمال وسوء الرعاية ما لا يسع هذا المجموع حصر بعضه». ولا يكاد يذكر اسمه في الفتاش إلا مقرونا بالفجور والفسق والظلم.

---

(١) تاريخ السودان، ص٦٥.

(٢) الفتاش، ص ص٤٣ـ٤٤.

أما إذا كان السلطان ملتزماً قواعد الإسلام وسلوكه فالعلماء أحباؤه، يبادلونه ويبادلهم الاحترام. وكان الحال هكذا مع آسكيا الحاج محمد خليفة سني علي، حتى وصفه السعدي[1] بقوله: «الأسعد الأرشد.. ففرج الله به عن المسلمين الكروب وأزال به عنهم البلاء والخطوب، واجتهد بإقامة ملة الإسلام وإصلاح أمور الأنام وصاحب العلماء واستفتاهم فيما يلزمه من أمر الحل والعقد». «وقال عنه صاحب الفتاش»[2]: «.. ومن الله علينا بأن أظهر لنا في زماننا هذا الإمام الصالح الخليفة العادل والسلطان الغالب والمنصور الغانم الحاج محمد بن أبي بكر.. وجعل للقضاة إذا جاؤوه يأمر لهم ببسط حصير الصلاة.. ولا يقوم لأحد إلا للعالم والحجاج إذا قدموا من مكة. ولا يأكل معه إلا العلماء والشرفاء وأولادهم.. وجعل يسأل العلماء العاملين عن سنة رسول الله ﷺ ويمشي على أقوالهم.. حتى اتفق جميع علماء عصره على أنه خليفة..»

وكان العلماء في دولة سنغي الإسلامية دائماً يغلظون القول للسلاطين إذا رأوا منهم انحرافا في تطبيق مبدأ من المبادئ الإسلامية، أو الحياد عن السنة والخلق الإسلامي. ولهم في هذا الجانب مواقف مشهودة تدل على دورهم الكبير في تمكين الإسلام من نفوس السلاطين والتزامهم المنهج السوي. ومن تلك القصص التي تحكى، ماحدث بين آسكيا الحاج محمد والقاضي محمود ابن عمر أقيت. وخلاصة ذلك أن آسكيا أرسل رسله إلى تنبكت في أمر من الأمور، فردهم القاضي محمود على أعقابهم، فعاتبه آسكيا على ذلك. ولكن

---

(١) تاريخ السودان، ص ٧٢.

(٢) الفتاش، ص ص ١٠ـ١١.

عندما أخبره محمود أنه سبق وأن طلب منه آسكيا النصح والحيلولة بينه والنار، طلب آسكيا محمد مــن محمود العفو والصلح، وأكرمه إكرامــا جميلا، ودعا الله أن يقبضــه إليه قبل أن يقبض إليــه القاضي محمود خــوفا من ألا يجد من يحول بينه وبين جهنم إذا مات القاضي محمود قبله.[1]

وواجه القاضي محــمود بغيغ آسكيا إسحاق بــقول لو صدر عن أي فرد من الرعيــة غير العلماء لكان جـزاؤه القتل. فعندمــا طلب آسكيا من الناس أن يدلوه على الظالمين، سكت كل الناس إلا محموداً الذي قال موجها خطابه إلى السلطان: «.. ماعــرفنا هنا أظلم منك. أنت أبو كل ظالم وسببــه ولا يغصب غاصب هنا مغصوبا إلا لك وبأمرك وبقوتك، إن كنت تقتل الظالم فابدأ بنفسك وبادر به...»[2]. ولما سمــع آسكيا ذلك القــول تحير واندهش، ثم مــالبث أن تنفس الصعداء وبكى ونــدم على قوله، ومنع قومه من أن يتصــدوا لمحمود أو يؤذوه عندما رأى منهم ميلا لذلك، وقال لمحمود: «صدقت والله وأنا تائب لله وأستغفره، ثم نهض إلى منزله باكيا والدموع تقطر وتسيل من عينيه»[3]. وكان جزاء محمود بغــيغ أن عينه آسكيا إسحاق قاضيا على جني بعد مــوت قاضيها مباشرة وقبل أن يصل إلى عاصمته.[4]

وفي كل عــصر ومكان كــان العلماء ينصــحون الحكام ويرشــدونهم إلى الطريق السليم. فــفي عهد أسكيــا داود نجد القاضي مــحمود كــعت يقرع هذا العــاهل بسيل من التــورية ليدلل علــى انحراف آسكيــا داود عن السنة والفكر الإسلامي الذي يدعو إلى التواضع واحترام المؤمنين. وتقول الرواية التي ذكرها

(١) المصدر نفسه، ص ص٦٠ـ٦١.

(٢) الفتاش، ص٨٩.

(٣) المكان نفسه.

(٤) المصدر نفسه، ص٩٠.

صاحب الفتاش[١] إن فوجا من الحجاج قدم إلى العاصمة، وكانت العادة أن يتلقاه السلطان خارج المدينة ويصافحهم ويحادثهم تبركا بهم واحتراما لهم. وحدث أن كان من أفراد الفوج أحد مماليك آسكيا، ولم يكن يعرفه آسكيا، فكاد أن يصافحه كعادته مع الحجاج، ولكن أحد حجابه نبهه إلى أصل هذا الحاج. وكانت التقاليد تقضي بعدم تقبيل السيد يد المملوك، فسحب آسكيا يده واستشار محمود كعت الذي كان معه، فقال قولا سديدا في هذا وأظهر أن يد هذا المملوك أطهر من آسكيا لأنها مست الحجر الأسود ورمت الجمرات ولمست شباك الرسول عليه الصلاة والسلام، فندم آسكيا على فعلته وخلع حاجبه الذي أشار عليه بسحب يده وانتهار المملوك. وقال قولته المشهورة: «ولولا العلماء لكنا من الهالكين»[٢]. وقام العلماء بالدور التوجيهي نفسه في بلاط دولتي البمبارا في سيغو وكا أرتا[٣]. فقد كانوا يساعدون في الفصل في النزاع الخاص بمشكلات ارتقاء العرش، ويقومون بنصح الحكام إذا رأوا منهم معاداة للمسلمين[٤]. وكانت أبوابهم مفتوحة للناس لمن يريدهم لحل مشاكله أو يتعلم

---

(١) المصدر نفسه، ص ص١١١-١١٢.

(٢) الفتاش، ص١١٣.

(٣) (قامت هاتان الدولتان على أنقاض دولتي مالي وسنغي، والبمبارا فرع من فروع قبائل الماندنجو، وهم أهم مجموعة من مجموعات الشعوب المتكلمة بلغة الماندي. ودولة سيغو تقع على النيجر الأعلى. وقد أسست في القرن السابع عشر، على يد ما ماري كولوبالي (١٧١٢-١٧٥٥م). أما كا أرتا فقد أسسها خصومه في نفس القرن، اشتهر حكامها بلقب ماسي «ويقابل لقب» «مانسا» في مالي. وكانت نهاية سيغو في عام ١٨٦١م، على يد الحاج عمر الفوتي سلطان التكاورة في فوتا، وكانت نهاية كا أرتا على يد نفس الزعيم في سنة ١٨٦٠م، وفي سنة ١٨٦٠م نفسها ظهر زعيم بمباري هو ساموري التوري ليقود البمبارا جميعا، واتخذ لقب إمام وخاض بهم المعارك ضد الفرنسيين في نهاية القرن التاسع عشر (١٨٨٢-١٨٩٨م) إلى أن ظفروا به وهو يكافح، ونفوه حتى مات سنة ١٩٠٠م،) انظر: د. طرخان: دولة مالي ص ص١٧١-١٧٥ بتصرف Lewis, The Cambridge Hist., p. 362.

(٤) Lewis, Loc. cit.

منهم ما يهمه في مسألة ما[1]. وكانوا من التواضع بحيث يقبلون أن ينقلوا أبحاثا لتلاميذهم، كما حدث بين أحمد بابا التنبكتي و«أستاذه محمد الونكري».[2]

وعلماء هذا حالهم في رفض مناصب القضاء وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جهارا، وقول كلمة الحق حتى ولو في وجه سلطان جائر، لابد أن يكون أثرهم عظيما في المجتمع الإسلامي، ودورهم كبيرا في الدعوة إلى الإسلام والتوجيه السليم.

(١) تاريخ السودان، ص٥٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ص٤٣ـ٤٤.

المبحث الخامس

دورهم في الحركات الإسلامية الإصلاحية

لم يقف دور العلماء عند التعليم والدعوة إلى الإسلام والتوجيه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باللسان، بل تعداه إلى أبعد من ذلك عندما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر باليد، وباشروا السلطة الدينية والسياسية جنبا إلى جنب حين أصبح بعضهم رؤساء لدول إسلامية في فترات مهمة من تاريخ الإسلام في غربي إفريقية. والأمثلة الواضحة لهذا التطور هي حركات الجهاد الإصلاحية في غربي إفريقية في القرن (١١ و١٢ و١٣هـ/ ١٧ و١٨ و١٩م)، والتي كان من أبرزها:

المطلب الأول: حركة ناصر الدين

ظلت غربي إفريقية تخضع لمؤثرات قادمة من شمالي إفريقية ومن الشرق الأوسط، وأهم هذه المؤثرات كانت بطون القبائل الصحراوية المختلفة.

فقبل القرن ا لخامس عشر تمت هجرة قبائل الكنتا جنوبا، إلى منطقة تنبكت. وحصلوا تدريجيا على مركز ديني قيادي ونفوذ امتد إلى داخل غربي إفريقية، وأسهموا في إزكاء روح الجهاد في نهاية القرن (١٢هـ/ ١٨م) ومطلع القرن (١٣هـ/ ١٩م).[١]

ولم يكن الكنتا وحدهم على هذا المسرح، بل سبقهم إلى إيجاد نوع من النفوذ في هذه المنطقة قبائل الزوايا الموريتانية التي كان لها الفضل بعد الله في نشر الإسلام في سنغامبيا ومناطق أخرى من غربي إفريقية[٢]. وهذه القبائل

---

(١) R. H. Trimingham, A History of Islam in W. A., op. cit., pp. 156-60; Curtin, op. cit., p. 11.

(٢) Curtin, Loc, cit.

الموريتانيـة من أصل بربري، واشتـهرت بالدعـوة إلى الإسلام وممارسة الـتعليم الإسلامي، وظهر منها دعاة أقوياء خلفوا تاريخا بطوليا كأئمة في غربي إفريقية وعلى رأسهم ناصرالدين.(١)

كان ناصرالدين من بني دايمان، أحد خمسة فروع من قبائل الزوايا. كان عالما كبيرا(٢)، ومسلما ورعا غيورا، ودعاه ذلك بألا يستكين إلى الوثنيين الذين تصدوا للمسلمين، ونتج عن ذلك صـدام معهم تطور إلى حركة شامـلة استعر أوارها في سنة ١٠٨٤هـ/ ١٦٧٣م، ولكنها فشلت بعد فتـرة وجيزة لم تتجاوز خمس سنوات.(٣)

وفي هذه الفترة الوجيزة هزم ناصرالدين قبائل فوتاتورو، وهرب زعيمها إلى بلدة غـادياغا ـ Gadiaga ـ فعـين ناصرالدين مكانه حـاكمـا من الزوايا، وتقدم بجيوشه إلى قبائل الجولف حيث طرد زعيمهم «البوربا» وأقام مكانه أحد رجال الدعوة في المنطقة نفسها وهو الشيخ سوران (أو سورانغو).(٤)

وفي سنة ١٦٧٣م تحركت القـوات الإسلاميـة إلى كايور «Cayor». وفي كايور كسبت الحركة رجل دعـوة آخر من قبائل الولوف يدعى اندياي سال(٥)، ولكن سرعان مـا أخذ المرض يدب في أوصال هذه الحركـة الفتية، فـأصبحت تذوب لسبب بسـيط، وهو الخلافات الداخلية، التي راح ضـحيتهـا ناصرالدين نفـسـه في سنة ١٠٨٥هـ/ ١٦٧٤م(٦)، وقـد عُرِف ناصـر الدين بـ«الإمـام».

(١) Ibid, pp. 13-14, H.T; Norris, Zanaga Islam, op. cit. p. 509.

(٢) Norris, Ibid, p. 509.

(٣) Norris, Ibid. p. 514; Gurtin, op. cit. p. 14
N. A. K. Klein. "Social and Economic Factors in the Muslim Rovoltuion in sengambia" J. A. H., X111, 3 (1973), Curtin, p. 13. 429.

(٤) Curtin.

(٥) Curtin. p. 16.

(٦) Ibid. p. 17.

واستمرت الحركة بعد الإمام ناصرالدين من ضعف إلى ضعف حتى سنة ١٠٨٨هـ/ ١٦٧٧م. وفي هذه الفتـرة الوجيزة تتابـع على العرش خمسـة أئمة[١]. وبعد الهزيمة التي حاقت بقوات هذه الحـركة سنة ١٠٨٨هـ/ ١٦٧٧م تمركز اللاجئون وبقايا المصلحين المؤيدين للحركة في فوتاتورو حيث أصبحوا تحت رحمة ضغوط وهجمـات قبائل الوالو من الغرب والقـبائل المغربية من الاسـتبي «Steppe»[٢]. وانتهت الحرب المقـدسة بانتصار قبـائل الحسنية الموريتانية على الاسـتبي وعودة قبـائل المنطقة حكاماً لفـوتاتورو، ولكن لم تكن نهاية الحرب هي نهـاية تعاليم ونفوذ الإمام ناصرالديـن؛ فقد استمرت تقاليـد الإمام ناصرالدين ـ على الرغم من الانتكاسة الحربية ـ مـتأججة في موريتانيـا وغربي إفريقية، واستمـر مفهوم الإمامة هدفاً يسـعى إليه في جنوب الصحراء عن طريق الجهاد حـتى انبثق بعد فترة قصيرة في حركة جهاد مالك دودا ساي، الذي أنشأ إمامية جديدة في بندو «Bundu» حوالي تسعينيات القرن (١٧م/ مطلع القرن ١٢هـ).[٣]

وقد أثارت حـركة ناصرالدين كثـيرا من التساؤلات، وأخـذ البعض في تفسير هذه الحركة تفسـيرا ماديا كعادة بعض المؤرخين الذين يجعلون المادة وراء كل حركة في التاريخ؛ فـالمستشرق نورس[٤]، على الرغم من اعترافـه باعتداء أمراء قبائل الولوف على مناطق نفوذ مسلمي موريتـانيا، يخرج بتفسير لا نجرده من الغـرض عندما قال بأن نـاصرالدين ربما وجه الـتفاته إلى الجنـوب، حيث المناطق الخصبـة على نهر السنغال، لأن الشمـال والشرق، كما يقول، تتـمركز فيهما مجموعات من بطون الحساني والزوايا الكنتيين والأروسيين، وكانوا حجر

(١) Loc. cit.
(٢) Ibid. p. 18.
(٣) Ibid, p. 18.
(٤) Zanaga Islam, op. cit,. p 515.

عثرة أمام توسـعه. ثم يضيف نورس[١] تفسيرا مـاديا آخر وهو أن ناصرالدين ربما أراد السيطرة على مـراكز الصمغ، وكان يهـمه نمو التجارة، بالإضـافة إلى نشر العقيدة، ويأتي بدليلٍ يظنه مؤيدا لهذه الآراء حين يقول بأن ناصرالدين لم يعارض تدخين التبغ المحلي، وتابعه في ذلك فقهاء الزوايا.[٢]

إن من الصعب تصديق هذه الاتهامات، لأن الإمام ناصرالدين عرف في حياته بالالتـزام الصارم للمبادئ الإسلامـية، وكان يعيش عيـشة تقشف وزهد حتى في النسـاء، على الرغم من أن زوجه كانت من ذوات الحسـن والجمال. فكان يكثر من الخلوة فينسى نـفسه وزوجه[٣]. ورجل هذا شأنه لابد أن نجرده من الغرض وهوى النفس والسعي وراء عرض الحياة الدنيا.

المطلب الثاني: حركة مالك ساي

ولد الشيخ مالك في حـوالي الخمسينيات من القـرن ١١هـ/ الأربعينيات من القـرن ١٧م ببلدة «سـويومـا» في فـوتاتورو[٤]. وكـان والده من العلمـاء المسلمين، فنشّأه تنشئـة دينية سليمة منذ البـداية. وعندما شب عن الطَّوق كان مهيأ لأن يكون معلما متحـمسا يجوب البلاد. وعند عودته ـ إلى مملكة غادياغا السـوننكية ـ في أعـالي نهر فـوتا ـ حصل على سلطة مـحلية، في جـزء من غادياغا الجنـوبية، من قبل الزعيم والحـاكم لهذه المنطقة. وسرعـان ما أضحت هذه المنحة نواة لدولة جديدة استمرت حوالي القرنين.[٥]

وعرفت هذه الدولة التي أسسها الشيخ مالك بـ«بندو». وكانت دولة دينية

---

(١) Loc. cit.

(٢) Loc. cit.

(٣) Ibid, p. 509. ويلاحظ أن نورس يلجأ إلى التفسير المادي على الرغم من معرفته هذه الحقائق.

(٤) Curtin, op. cit. p.18.

(٥) Loc. cit.

في المقام الأول لأن رئيسها كان عالما وإماما. وقد سانده الفولاني في تأسيس هذه الدولة. ولم يلبث عندما قوي عوده أن انفصل عن وثني المالنكي ومن غادياغا، وأسس حكما مستقلا استمر بعد وفاته حتى مطلع القرن التاسع عشر. وكانت وفاته في سنة ١١١٤هـ/ ١٧٠٢م.(١)

المطلب الثالث: حركة الشيخ عبدالقادر

قامت حركة الفقيه عبدالقادر في فوتاتورو المعروفة أيضا بفوتا السنغالية الواقعة في وادي نهر السنغال. وتعرف هذه المنطقة عند الجغرافيين العرب بـ«تكرور». وقامت فيها دولة إسلامية في وقت مبكر كما رأينا. وامتصتها دولة مالي حوالي القرن الرابع عشر، ثم حكمت بعد ذلك كدولة تابعة تحت أسرة الصوصو الماندونجية حتى القرن (١٠هـ/ ١٦م)(٢). ثم انتقلت القوة السياسية في المنطقة إلى قبائل الدنياكي - الجولونيين - الفولانية تحت قيادة مسلتجي كولي تنجيلا(٣). ومهد تولي كولي السلطة الطريق لصلات وثيقة بين فوتاتورو وفوتاجالون، فتبودلت هجرات قبائل الفولاني والتوكولور ومجموعات عرقية أخرى.(٤)

ومع ازدياد حركة الشعوب قويت الصلة بين المنطقتين وانتشرت الأفكار.

واستمرت أسرة كولي في الحكم إلى أن أسقطها سليمان بال في ثورته المشهورة التي بدأت سنة ١١٨٣هـ/ ١٧٦٩م(٥). وعرض النبلاء على سليمان بال رئاسة الدولة، ولكنه استمر في الثورة حتى أسقطها سنة ١٣٨٩هـ/ ١٧٧٥م،

---

(١) Loc. cit.

(٢) Oloruntimehin, op. cit., p. 8.

(٣) Loc. cit.

(٤) Loc. cit.

(٥) Ibid, p. 9.

واقتـرح قائداً آخـر من العلماء لرئاسـة الدولة. وكان ذلك العـالم المرشح هو الشـيخ عبـدالقادر بن حـمادي. وظل في الرئاسـة إلى إن توفي سليمـان بال فانتـخب عبدالقادر إمـاما[1] واضطلع الإمام عـبدالقادر بمهـمة إكمال إخـضاع فوتاتورو، وأسس حكما قويا معتمـدا على الشريعة الإسلامية أسلوباً للحكم، ولكن لم يدم حكمه طويلا، إذ راح ضحـية مؤامرات النبلاء، فمـات قتيلا في سنة ١٢١٩هـ/ ١٨٠٤م[2]، في السنة نفسهـا التي انتصرت فيهـا قوات الشيخ عثمان بن فودي على قوات عدوه ينفا على الطرف الشرقي من غربي إفريقية.

وأصبح الأئمة المنتخبون بعد موت الإمام عبدالقادر، مجرد ألقاب، بينما السلطة الحقيقية في أيدي زعماء العشائر.[3]

المطلب الرابع : حركة الشيخ عثمان بن فودي

لقد سبق لنا الكلام عن هذه الحركة الإسلامية الكبرى التي ظلت نتائجها حـتى يومنا الحـاضر، وتكلمنا عـن الشيخ عـثمان ودوره في تاريخ الإسـلام والتعليم الإسلامي في غربي إفريقية.[4]

لقد خرج هؤلاء المصلحـون الذين ذكرناهم من صفوف الشعب ليـقيموا دولا إسلاميـة. وخرج علماء آخرون من صفوف الأمـراء وتربعوا على عروش دول أصبـحت ذات صبغـة إسلاميـة بوجودهم على رأسـها. ومن بين هؤلاء الأمير الكانوي عمر كانا جيجي (٨١٢ ـ ٨٢٤هـ/ ١٤١٠ـ١٤٢١م).[5]

---

(١) Loc. cit.

(٢) Loc. cit. ، (وهناك رواية أخرى تقول بأنه نحي سنة ١٨٠٦م، انظر: Klein, op. cit., p. 429.

(٣) Klein; Loc. cit.

(٤) انظر: ص ٤٣١ وما بعدها.

(٥) K. C., p. 74.

المطلب الخامس : حركة الشيخ صالح بن محمد جنتا ببلاد اليوربا

حينما عرف الأوروبيون بلاد نيجيريا الداخلية في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، كانت المناطق المكشوفة منها وطناً لشعوب زنجية أو مغربية الأصل، اعتنقت الإسلام وأسست ممالك قوية متحضرة، ومن هذه الشعوب شعب اليوربا «Yoruba» في جنوبي نيجيريا. ومن المرجح أن أصول مملكة اليوربا ترجع إلى المدة التي تقع بين سنتي ٦٠٠ و١٠٠٠م.

ويدّعي شعب اليوروبا أنهم جاءوا من مكة، وربما يدل هذا على أنهم جاؤوا من الشرق. وهناك من يرى أنهم جاؤوا من صعيد مصر لتشابه عادات الدفن عندهم بعادات الدفن عند قدماء المصريين. وهناك من يرى أنهم من قبيلة نمرود الكنعانية. ومهما يكن من أمر فإن الدراسات الجنسية قد أثبتت أنهم لم يكونوا من أصل زنجي، وإنما اختلطوا بالدماء الزنجية على نطاق واسع. أسس هذا الشعب ملكه على مساحة امتدت من مصب نهر النيجر شرقاً حتى بلاد داهومي غرباً. وكان يطلق على ملكهم اسم «ألافين».

وقد شق الإسلام طريقه إليهم من الشمال على يد علماء الفولاني الذين استقروا في بلاد الهوسا. وأخذت تتكون أقليات إسلامية في وسط الوثنيين اليوروبا. وعندما اندلع جهاد الفولاني في بلاد الهوسا بقيادة الشيخ عثمان بن فودي لم يعلموا كيف يأخذون منه اللواء للقيام بالجهاد، لأنهم لم يتصلوا بدعوة ابن فودي اتصالاً مباشراً. وهيأ الله لهم رجلاً من علماء الفولاني يدعى صالح بن محمد جنتا ليكون سبباً في قيام حركة جهادية إصلاحية دعوية في بلاد اليوروبا.

كان الشيخ صالح من أصدقاء الشيخ عثمان بن فودي، ومن أهل الصلاح والورع والتقوى، واشتهر بلقب «عالم» الذي كان يطلقه عليه ابن

فودي، ورأى فيه الرجل المناسب للقيام بأعباء الدعوة الإسلامية جنوب نهر النيجر، ولذا أشار عليه بالتوجه إلى تلك المناطق، فاستجاب لهذه الإشارة، فخرج إلى بلاد برغو، ثم إلى بلاء يوروبا، ونزل بعاصمتها «أيولي». ولم يكن الجو مهيَّأً للبقاء فيها، لأن كهنتها سبق أن أخبروا ملكها بأن سينزل في أرضه عالم سيكون بقاؤه فيها سبباً لذهاب ملكه، ولذا عندما علم الملك بوجوده، احتال على إخراجه من بلاده، وزوده بأرقاء وأموال كثيرة. وتقول رواية أخرى إن الملك حاول اغتياله، ولكن الله أنجاه، فخرج إلى مدينة إسين، ونزل بمسجد أوجالا، ومكث بها مدة، ثم خرج إلى أبومشو ثم إلى إيكوي ثم إلى كوهو، فمكث بها ثلاث سنين، ومنها انتشر صيته في الآفاق. واتصل به بعض الفولانيين من رعاة الأبقار، الذين قطنوا بجهات إلورن، وأصبحوا يزورونه ويزورهم.

وفي هذه الفترة، حدث خلاف بين ملك اليوربا وأحد قواده العسكريين، يدعى أفنجا، وهو ابن أخت الملك، فلجأ إلى بلدة إيلورن، بعد إخفاقه في سرية عرفت بسرية أويري، التي بعثه الملك إليها ليلقى بها حتفه جزاء مناوأته له. وكان من عادة يوروبا أن ينتحروا إذا لم يحرزوا النصر في حروبهم، لأن الهزيمة عندهم عار أبدي يلحق بهم وبأسرهم، ولا يمكن غسل هذا العار إلا بالانتحار، ولذا عندما انهزم أفنجا تلك الهزيمة المنكرة، كان من المفترض أن ينتحر حسب التقاليد اليوروباوية، ولكنه بدلاً من هذا لاذ بالفرار إلى قرية إلورن حيث يخفي مصيره عن أهل العاصمة.

وبعد الاطمئنان أصبح أفنجا يحلم باسترجاع منصبه القيادي الحربي، ويتمنى أن يؤلف جيشاً قوياً خارج المملكة لينتقم به من عدوه جده الملك، الذي عرضه للموت. ولم يزل كذلك حتى سمع بخبر العالم الشيخ صالح،

فـأمل في كسب صـداقـته، فـزاره في مكانه، وطلب منه أن ينزل مع إخـوانه الفـولانيين البقـارة القـاطنين بجواره في إلورن. فـوافق هذا رغـبة الفـولانيين والهوسـاويين والبرناويين والبـربر المسلمين المنتشـرين في أحيـاء صغيـرة حول إلورن. .

انتقل إليه الشيخ صالح عـام ١٢٣٠هـ/ ١٨١٤م، ووجد ترحيباً وتكريماً واحتراماً عظيماً من هؤلاء المسلمين. وقصده الناس من الجهات المختلفة، منهم علماء ربوة السنة وأهل قرية أبج من البربر، وتتلمذ الجميع على يديه. وعندما طاب له المقام استقدم أهله وأولاده وأصحـابه من بلاد سوكوتو وهوسا للإقامة معه. ولما كثر الناس حوله استطاع أفنجا أن يكون منهم جيشاً جراراً، وعقد له الشيخ صالح اللواء، فزحف بجنده إلى القرى التي كـانت تهدد سلامته وتشن عليه الغارات، ففتحها، وأمن أهلها من الطوارق الذين كانوا يغيـرون عليها من أجـل السلـب والنهـب والاسـترقـاق. وعنـدمـا قويت شـوكتـه ـ أي أفنجا ـ أخذ في شن الغارات المتواصلة على عاصمة بلاده «أويولي» لتقليم أظافر عدوه الملك، وليبقى صاحب النفوذ الوحـيد في بلاد اليوروبا. وأمام هذه الغارات لم يجد أهل العاصمة مخرجاً غير الانتقال إلى مكان تكثر فيه الغابات الكثيفة التي تمنع مـثل تلك الغارات ويكون قـريبـاً من وسط بلاد اليوروبا. وأضـعف هذا الموقف شوكة ملك اليوروبا.

وعندما علم المسلمون المجاورون لإلورن أن الأمن قد استتب بها، أخذوا في الهجـرة إليها فـراراً من ظلم ملكهم الكافر، وليـعبـدوا الله فيهـا بحرية. فانتظمت الحـضارة بهـا، وتضاعف عدد سكانهـا، وشكل المسلمون الأغلبـية الساحقة لسكان هذه المدينة.

ولما لم يكن لهـذه القرية رئيس أو حـاكم من قبل، فـقد اتجـهت أنظار

الناس إلى العالم الشيخ صالح ليكون حاكمـا لها، ولكنه أبى واكتفى بالمشيخة ليمارس التـربية والتعليم لإنشاء بلدة إسـلامية يأوى إليهـا كل من أراد أن يعبد الله بحـرية. ولذا اتفق زعيم حي الفـولانيين المدعو «أولوفـادي»، وزعيم حي الهوساويـين التجـار شبـه الرحـل المـدعو «باكو» وزعيم حي مسلمي ربوة السنة ـ وهم مزيج مـن اليوروبا والبربـر ـ المدعو «سولابيـرو»، اتفقـوا على مبـايعة عبدالسلام ابن الشيخ أميـراً وسلطاناً على هذه البلدة اعترافاً بدور أبيه في تطور البلدة وحفظ الأمن والسلام فـيها. ولم يشذ عن البيعة سـوى أفنجا زعيم حي اليوروباويين الكفار. وكره هو وجماعـته هذه البيعة، ولكنهم لم يجدوا بدأً من التسليم لرغبة الغالبية العظمى من سكان أحياء إلورن.

وازداد نطاق هجرة المسلمين إلى إلورن من المناطق المجاورة كـافة للعيش في ظل سلطان إمارة إسلامية جديدة، ومبايعة أول إمام وأمير للمؤمنين في بلاد اليوروبا.

وتوفي الشيخ صالح عام ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠م، بعـد ستة أعوام من نزوله بإلورن. ولم يألُ ابنه عبـدالسلام ومن خلفه في الإمـارة جهداً في دفع حـركة الإسلام والثـقافة الإسـلامية العربـية والتعليم الإسـلامي في هذه البلاد. ومن مظاهر ذلك استقدامـهم العلماء والفقهاء من بلاد هوسا ونوفى وغـيرها للقيام بهذا الدور، أمثال الشيخ أبي بكر الشهير بلقبه (بوبي)، استقدمه الأمير «شئت» من سـوكـوتو، ونزل في إلـورن حـوالي عـام ١٢٤٥هـ/ ١٨٢٩م، وتصـدر للتدريس بها، وأخـذ عنه الكثيرون، منهم الشيخ مالك والشيـخ محمود، من أبناء الأمير شئت، والشيخ محمد بيغوري الفولاني.

وتأسست المعاهد العليا لدراسة الشريعة الإسلامية واللغة العربية وآدابها، وتخرج فـيها علـماء عاملون، أسـهموا في نشـر الإسلام وحـضارته في بلاد اليوروبا.

وكان من أشـهر علمـاء هذه البلاد: الشيخ مـحمد النـسي، عالم ربوة السنة، والشيخ محـمد ينبؤ والشيخ موسى البـرنوري الأنجي. ومنهم من أسهم في نشر الإسلام وعلومه في أواسط بلاد اليـوروبا بجهات إبادن وإسين، أمثال الإمام عثـمان أبي بكر الدندي، الذي كان أول من تولى منصب الإمـام الأكبر في إبادن، وتوفى عام ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م، وأمثـال الشيخ أبي بكر بن صاحب الكرسي، شيـخ شيوخ إبادن، الذي أخـذ عنه جمـيع أهلها، وقد قـتله قطاع الطرق وهو في طريقه إلى الحج عام ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م عن نيف وثلاثين سنة من العمر. وكان من تلاميذه الشيخ هارون ابن سلطان إبادن.

وعندما استـوت الحضارة الإسلامـية على سوقها فـي هذه البلاد، أغاظ ذلك الزعيم الوثني أفنجا، فدخل في مناوشـات عسكرية مع هذه الدولة الفتية النامية، واستنجد بقبائل اليوروبا الوثنيـة المجاورة، وانهزم جيشه وقتل هو نفسه في إحدى هذه المناوشات قبل أن تصل إليه النجدة.

وعندما علم وثنيو قومه بمصرعه تجمعوا من نحو أربعين بلدة بقيادة حليفه صـاحب مدينة إيكوي، وزحـفوا إلى إلورن للـقضـاء على المسلمين. وبعث الأمير عـبدالسلام إلى سلطان سوكوتو يطلب منه الـلواء والمدد العسكري لصد هذا الزحف، فجاءه المطلوب من قبل الأمير خليل عبدالله من مدينة غندو.

وهكذا بدأ الجهاد الحربي في بلاد يوروبا، ودام القتال بين الفريقين سجالاً طول أربعين سنة، من أيام الأمير عبدالسلام إلى أيام الأمير علي بن عالم.

وكسب المسـلمون أراضي جديدة عنـدما فتـحوا القـرى والمدن المجاورة لإلورن، ودخلت أكثر بلاد يوروبا في حلف المسلمين، وحاصروا مدينة «ألوفا» لمدة سبع عـشرة سنة للقـضاء على كفـار مدينتي إبادان وإيشا الـلذين عسكروا فيهما لتنظيم الحرب ضد المسلمين، فدخلوها عام ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦م، وشتتوا

شمل الأعـداء. وسجل هذا الانتصـار شعراً الشـيخ محمـد ثاني بن أبي بكر (بوبي)، أحد علماء إلورن وأدبائها، في قصيدة طويلة، مما جاء فيها:

لما تحـــزب أهل الكـفـر كـلهم	وأهل بادن قد بادوا على اسمهم
وأهل أوفـا فقد فـاؤوا بنقضـهم	عهـد الأمانة في فـعل وفي كلم
قـال الأميـر بأن الحـول ليس لنا	إلا إليـك إلهي أنـت ذو كـــرم
أعني الأمـير عليـا ذاك مقصـدنا	لأنه بيـــديه فـــتح مـــصـــرهم
قـد أنجز الله وعـداً كان واعـدنا	تفـرقـوا ثم خلوا جل مـالهم[1]

لقد خرج هؤلاء المصلحون الذين ذكرناهم باختـصار من صفوف الشعب ليقيموا دولاً إسلامية. وخـرج علماء آخرون من صفوف الأمراء وتربعوا على عروش دول أصـبحت ذات صبـغة إسلامـية بوجودهم على رأسـها. ومن بين هؤلاء الأمـيـر الكانوي عـمر بـن كانيـا جـيـجي (٨١٢ ـ ٨٢٤هـ/ ١٤١٠ ـ ١٤٢١م)[2]، والشيخ سـيرين إنجاي سـال، الذي نجح في الوصول إلى الحكم في «كاجـور» السنغاليـة عام ١٠٧٤هـ/ ١٦٦٣م وحاول وضـع البلاد في ظل الشريعة الإسلامية، وقطع شـوطاً بعيداً في هذا الشأن، ولم ينجح الأعداء في القضاء على نظامه إلا بعد أن استنجدوا بأمير «سالوم».[3]

المطلب السادس: حركة الشيخ حمد (أو حمدو)[4]

إن الحركة الثانية من بين أعظم ثلاث حركـات جهادية إسلامية في غربي

---

(١) انظر هذه المعلومات عن حركة الشيخ صالـح جنتا في المراجع الآتية: آدم عبدالله الآلوري: الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفولاني، ط٢، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص ص١٣٢ـ١٣٧؛ حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ط٢٢ ١٩٦٣م، ص ص١٢٤ـ ١٢٨.

(٢) انظر: Kano Chronicle, op. cit., p. 74.

(٣) انظر: عبدالقادر سيلا: المسلمون في السنغال، مرجع سبق ذكره، ص٨٢.

(٤) يلاحظ أن أهل غربي إفريقية يقفون على الضـمة عند ذكر الأعلام، وترسم الضمة واواً في الكتابة، فيصبح حمد: حمدو، وأحمد: أحمدو، ومحمد: محمدو: وهكذا.

إفريقية في القرن التاسع عشر الميلادي، كانت حركة الشيخ حمد بإقليم ماسينا، الذي يقع إلى الغرب من بلاد الهوسا.

كان الشيخ حمد من أبناء قبيلة الفولاني الذين قاموا بدور فعال في حركة الشيخ عثمان بن فودي الجهادية في مراحلها الأولى. وقد عاد إلى بلاده بعد هذه المساهمة، تملأ جوانحه الروح الجهادية. وكان أول مكان يقيم فيه هو مدينة جني، ولكن مالبث أن طرد منها بتهمة ممارسة نشاط هدام، فغادر شمالاً إلى سيبرا «Sebera»، حيث أنشأ مدرسة إسلامية، والتف حوله الرجال. فإضافة إلى عمله اليومي في التدريس والتوجيه والإرشاد ومحاربة البدع، فقد حاول اقناع أتباعه المسلمين بأن الفساد المتفشي في المجتمع لا يمكن إزالته إلا عن طريق الجهاد. ولم يحالفه النجاح المطلوب في بداية أمره، ولكن عندما وصلت كتابات الشيخ عثمان بن فودي عن جهاده إلى المنطقة، فإن الذين كانوا يتشككون في جهاد الشيخ حمد، اقتنعوا بآرائه في الجهاد، فنشطت حركته الجهادية. وفي أثناء ذلك أرسل الشيخ حمد إلى الشيخ عثمان يطلب منه أن يرسل إليه علماً من أعلام الجهاد ليرمز إلى أن الشيخ عثمان يبارك جهاد الشيخ حمد. واصطدم حمد وأتباعه بملك البمبارا في إقليم سيغو قبل وصول اللواء المطلوب من الشيخ عثمان، فأعلن الشيخ حمد الجهاد ضد ملك البمبارا، وتمكن من هزيمة الجيوش التي أرسلت لحربه.

وعندما شعر الشيخ حمد بالثقة في قدراته للوقوف بنفسه في وجه أعدائه، رفض علم الشيخ عثمان الذي وصل إليه بالفعل. واستولى على ماسينا وجني وتنبكت والمناطق المجاورة. وأقام عاصمة لدولته في منطقة عرفت بـ«حمد الله». ثم بدأ في تنظيم دولته تنظيما يعد أفضل من تنظيم شيخه عثمان ابن فودي، ولكنها كانت دولة أصغر من دولة عثمان.

وعندمـا توفي حـمـد الله عام ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٨م خـلفه ابنـه أحمـدو سيكو. وعندما مـات أحمدو سيكو عام ١٢٦٩هـ/ ١٨٥٢م خلفـه ابنه أحمدو أحمـدو. وفي ظل حكم هذا الأخـير دخلت البـلاد في صراع مع قـوة أخرى ناميـة قادمة من جـهة الغرب، هي قـوة الشيخ عمـر الفوتي، الذي تمكن من القضاء على هذه الدولة عام ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢م.[١]

المطلب السابع : حركة الشيخ الحاج عمر تال الفوتي

ولد الحـاج عمـر تال بن سـعـيد بـن المختـار الفـوتي السنغـالي ببلدة «حلوار»[٢] أو «هلوار[٣]» - بإقليـم «فـوتـا تورو»، وذلك سنـة ١٢١٢هـ/ ١٧٩٤م، أو سنة ١٢١٥هـ/ ١٧٩٧م. وكان من شعب الفولاني - على أرجح الاجتـمالات - على الرغـم من أن بعض البـاحثين وصـفـه بأنه من شـعب التوكولور[٤]. وكان والده سعـيد من العلماء المعـروفين بالورع. وقد تلقى ابنه تعليـمه الأولي تحت رعايتـه. وحفظ القـرآن الكريم في سن العاشـرة. وتعلم مبـادئ اللغة العربية منذ صـغره. ورحل إلى طلب العلم عند عدد من شـيوخ فوتاتورو وموريتانيا. وتفقه في المذهب المالكي.

---

(١) انظر:

Omer - Cooper, J. D. and Others: The Growht of African Civilisation, I, The 19th C. to the Partition, London, 1975, p.p. 164-165.

(٢) هكذا رسمهـا الدكتور عمر جاه في بحـثه: «تقويم جديد لجهاد الحـاج عمر الفوتي وعلاقتـه بجهاد الشيخ عثمان بن فودي»، مجلة كلية العلوم الإجتماعية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عدد رقم ٦، سنـة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م، ص٢٩١. ورسالته للدكـتوراه عن هذه الشـخصـية، وهي باللغة الإنجليزية.

(٣) هكذا رسمها الأستاذ عبدالقادر محمد سـيلا في كتابه: «المسلمون في السنغال - معالم الحاضر وآفاق المستقبل»، رقم ١٢ من سلسلة كتاب الأمة، قطر، ط٢، شوال ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، ص٧٦.

(٤) The Growth of African Civilisation, op. cit., p. 165.

جلس الحاج عمر للتدريس والتوجيه مابين سنتي ١٢٣٥-١٢٣٨هـ/ ١٨١٩-١٨٢٢م. واشتهـر أمره، وقصده طـلاب العلم حتى من موريتانيـا. وبدأ يهتم بالتصوف خلال هـذه الفترة إثر لقائه مع الشيخ عبـدالكريم الناقل الفوتاجالوني سنة ١٢٣٧هـ/ ١٨٢١م[1]. وسافر مع الناقل إلى فوتاجالون (غينيا) لطلب العلم.

وبعد فترة قـصيرة بدأ الحاج عمر رحلته إلى الحـجاز لأداء فريضة الحج. ووصل إلى مكة المكرمة عام ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٦م. واستـغرقت هذه الرحلة أكثر من عام، لأنـه زار خلال هذه الرحلة عـدداً من بلدان غربي إفـريقية، مـنها: ماسنة وسوكوتو وغواندو وبورنو. ووقف في سوكوتو على معالم حقيقة جهاد الشيخ عثمان بن فودي ومنهجه الإصلاحي في بلاد الهوسا.

أقام الحاج عمر بالأراضي المقـدسة ثلاث سنوات أو تزيد، التقى خلالها بكبار علماء الحجاز، من أبرزهم الشيخ عبـدالله سيدي محمد الغالي الحسني، الذي أخذ عنه الحاج عمر الطريقة التيجانية الصوفية المعروفة.

ومر على مصر في طريق عودته من الحجاز إلى بلاده، ومكث فيها قليلا للقاء علماء الأزهر البارزين. والتقى فـي بورنو بالشيخ محمد الأمين الكانمي. ونزل بسوكـوتو، وذلك في طريق عودته إلى بلاده السنغاليـة، وتزوج بإحدى بنات السلطان مـحمـد بلّو، وقيل أخـت السلطات بلّو. وتزوج كذلك بامـرأة سوكوتية أخرى.[2]

ومما لاشك فيه أنه ازداد معرفـة هذه المرة بحركة الإصلاح الإسلامي في بلاد الهوسا بزعامة أسرة الشيخ عثـمان بن فودي، فقد مكث في سوكوتو عدة

(١) انظر: مؤلف الشـيخ عمر الفـوتي: رماح حزب الرحـيم على نحور حزب الرجـيم، طبع القاهرة، ١٩١١م، ص ص ١٨٠-١٨١، Omer - Cooper, J. D. and Others: The Growth of African Civilisation, op. cit., p. 165.

(٢) Ibid.

سنين[1]. وتأثر بمنهجهم في الإصلاح الديني، وهو أمر واضح في مؤلفاته التي ألفها بعد هذا، وإن كان قد عاب على آل فودي التساهل في الإصلاح. ومر ببلاد البمبارا وهو في طريقه من بلاد الهوسا إلى بلاده فوتاجالون، فانضم إليه فرع من شعب الفولاني يسمون الواسولونكة، وغيرهم. ومر بماسينا، ومكث بها قليلاً، لأن علاقته مع إمامها الشيخ أحمد كانت متوترة بسبب مايحمله الشيخ عمر من أفكار إصلاحية. ومن هنا جدد الشيخ عمر تجواله، فذهب إلى سيغو وفوتاجالون، مبشراً بدعوته الإصلاحية. وكسب إلى جانبه الأتباع والمؤيدين، إضافة إلى أنه أوجد أعداء له. وكان وصوله إلى فوتاجالون عام ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م، وقيل بعد رحلة استغرقت نحو سبع سنين.[2]

ومما لاشك فيه أن هذه الرحلة قد أفادته كثيراً حيث زادت مداركه ومعرفته بأجزاء مهمة من العالم الإسلامي، ووقوفه على حالة المسلمين الفكرية والسياسية والاجتماعية ومابها من سلبيات، مثل فتور الوازع الديني، وتشتت القوى، وتفشى الجهل، فاعتقد أن من واجبه القيام بحركة دينية إصلاحية. ولذا، فعندما عاد إلى بلاده فوتاجالون ركز اهتمامه على تعليم الناس الدين ونشره في المناطق التي لم يصل إليها. ووفد عليه كثير من طلاب العلم للاستزادة من علمه. وعندما كثر تلاميذه وأتباعه، بشرهم عام ١٢٦٨هـ/ ١٨٥١م بأنه قد أذن له في الجهاد[3]. فأخذ في تسليح أتباعه والحث على جهاد شعب البمبارا الوثنيين والفرنسيين النصارى الذين بدأت طلائعهم تدخل تلك

(١) .Ibid ذكر هذا المرجع أنه مكث بسوكوتو ١٢ سنة.

(٢) انظر: سكيرج (الحاج أحمد بن الحاج العياشي): كشف الحجاب عمن تلاقى مع الشيخ التجاني من الأصحاب، بيروت، ص٢٦٢، ٢٦٥، ٣٣٥، نقلا عن: د. بدري محمد فهد: الصلات الثقافية بين العرب وإفريقية من خلال الحركات الشعبية، بغداد، ص١١١ ومابعدها.

(٣) المرجع نفسه (سكيرج)، ص٣٣٦؛ ود. بدري، ص١١٢.

المناطق من غربي إفـريقية. وبنى قلعة حصـينة في شمالي النيجـر، في منطقة (دينغويراي «Dinguiray»). وهزم البمـبارا الوثنيين في تومـبا، واسـتولى على كوناكري من بلاد غينيـا ـ وهي عاصمة غينيا الحالية ـ وجـعل مقره العام في نيورو شمالي السنغال الأعلى سنة ١٢٧١هـ/ ١٨٥٤م. وكـان من نتيجة تدمير هذه المملكة الوثنية أن وصل الحـاج عمر إلى حـدود بلاد المسلمين في فوتوتارد وماسينا، واصطدم ببعضهم، وتطور الاصطدام إلى حـرب انتهت بغزو سيغو، على الضفـة اليمنى من وسط النيجـر، وذلك سنة ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م، وغزا ماسـينا. واعترض سلطان مـاسينا ـ أحـمد بن أحمـد ـ على هذا الغزو، لأنه موجه ضـد مسلمين سبقت لهم مـبايعته، وأنهم تحت مراكـز نفوذه وسلطانه، فأعلن الحرب على الحاج عمر، وانتهت العمليـات الحربية بينهما بسقوط «حمد الله» عاصمة سلطنة ماسينا، وقتل السلطان أحمد سنة ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢م(١). ولجأ ملـك سيغـو ـ علي بن منزو ـ إلى «حمـد الله»، وعندمـا رفض الإمام محمد بران وان ـ سلـطان فوتا تورو ـ التعاون مع الحاج عمـر في الجهاد ضد كفار المنطقة والنصارى الأوروبيين الذين دخلوا منطقة سنغامبيا، عدّه الحاج عمر من أهل المنكر، فـأعلن بلاده بلاد منكر ينبغي الـهجرة منهـا إلى الأرض التي استولت عليها جيوشه في بلاد بامبارا(٢). واستطاع خلال فترة وجيزة (١٢٧٩-١٢٨١هـ/ ١٨٦٢-١٨٦٤م) أن يؤسس دولة إسلامية جهادية تضم رقعة واسعة من الأرض حول مجرى نهري السنغال والنيجر.(٣)

وقتل الحـاج عمـر أثناء حروبه الجـهادية ضـد مسلمي هذه المنـاطق عام

---

(١) W. Brown: The Caliphate of Hamdallahi, Ph. D. Wisconsin, 1969,
نقلاً عن د. عمر جاه، مرجع سبق ذكره، ص٢٩٨؛ د. بدري سبق ذكره، ص١١٢.

(٢) د. عمر جاه، المرجع نفسه، ص٢٩٩.

(٣) د. بدري، المرجع السابق، ص١١٢.

١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م، بعد أن حوصر في كهف ديغمبري.

وكان من أسباب قصر عمر هذه الدولة هو أن الحاج عمر لم يرس قواعد إدارية متينة لدولته المترامية الأطراف، فورث ابنه مشكلات إدارية كثيرة، لم يفلح في معالجتها، لاسيما أنه لم يرث من والده الأثر القوي والمكانة العالية وسط أتباعه. ولهذه الأسباب وغيرها تفتتت الدولة إلى ثلاثة أقسام مستقلة إثر وفاة الحاج عمر: جزء تحت إدارة أحمد نفسه، الذي حكمه من حاضرته سيغو، والآخران حكما على التوالي من «حمد الله» و«ميورو» بوساطة التجاني ابن سعيد ـ أخو عمر ـ ومولاهم مصطفى. وعلى الرغم من أن التجاني ومصطفى قد اعترفا بخلافة أحمد شيخو، إلا أنهما في الحقيقة تمتعا باستقلال تام. إضافة إلى هذه المشاكل فقد كان التهديد الكبير لهذه الدولة من قبل الفرنسيين الذين دخلوا السنغال وفتحوا شهيتهم للسيطرة على كل المنطقة السودانية «أي غربي إفريقية»، ونظروا إلى دولة أحمدو شيخو كعقبة كؤود في طريق تقدمهم إلى الداخل؛ ولذا دخلوا معه في صراع عسكري انتهى بالقبض عليه، ومن ثم القضاء على دولته[١] عام ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م، فهاجر أحمد بن عمر إلى شمالي نيجيريا، حيث مات هناك[٢].

وكان من أبرز جوانب دعوة الشيخ عمر الإصلاحية الدعوة إلى تغيير جذري في النظام التعليمي عند المسلمين بغربي إفريقية، وذلك التحسين الذي يؤدي إلى تغيير أساسي في السلوك الخلقي والحياة الروحية والمادية، ويؤدي إلى الفهم الصحيح للشريعة الإسلامية. ويؤكد برنامجه في الإصلاح إيمانه بأنه

---

(١) انظر: J. D. Omer - Cooper, op. cit, p. 167.

(٢) انظر: آدم عبدالله الألوري: الإسلام في نيجيريا، مرجع سبق ذكره، ص١٤٧؛ د. عبده بدوي: شخصيات إفريقية، ص ص٤٠-٤٣.

لايمكن القيام بجهاد ناجح إلا بعد تربية النفس وتهيئتها لقبول الحكم الإلهي. وتبنى مبدأ الهجرة من مكان المعارضة والإرهاب إلى مكان آمن لبث دعوته وتعاليمه، ومبدأ الهجرة بمعنى هجران المعاصي والفساد.(١)

ويستنتج من حركة الحاج عمر الجهادية بأنها كانت السبب المباشر في إسلام سكان مملكة «حالونكا» في فوتا جالون، وسكان «غابو» من الفولانيين الرحل، ومعظم شعب «ولوف» وقسم كبير من قبيلة «سرير» في سنغامبيا.

وكان جهاده سبباً رئيساً - كذلك - في تأخير تقدم التسلل الأوروبي سياسياً وثقافياً إلى داخل غربي إفريقية.

وكان جهاده المصدر الذي استوحى منه كثير من المجاهدين والوطنيين الذين قاموا بحركات ثورية ووطنية ضد الإستعمار الفرنسي والانجليزي في المنطقة فيما بعد. وكان جهاده السبب في انتشار الإسلام واللغة العربية في غربي إفريقية بصفة عامة.(٢)

ومما نأخذه على الشيخ الحاج عمر أنه تبنى الطريقة الصوفية التيجانية، ولذا وقع في الانحرافات العقدية الخطيرة التي وقع فيها شيخ هذه الطريقة ومؤسسها أبوالعباس أحمد التجاني. ويظهر هذا الانحراف العقدي جلياً في كتابه «رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم»، وهو من الكتب المعتمدة لدى أتباع الطريقة التجانية في شمالي وغربي إفريقية. وقد تعرض لهذه الانحرافات الدكتور محمد تقي الدين الهلالي في كتابه: «الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية»، وأثبت بما لايدع مجالاً للشك انحراف الطريقة التجانية، بدءاً بمؤسسها وانتهاء بشيوخها أمثال علي حرازم، صاحب كتاب: «جواهر المعاني من فيض أبي العباس التجاني»، والحاج عمر الفوتي صاحب «الرماح» المشار

---

(١) انظر: كتابه: رماح حزب الرحيم، سبق ذكره، (٢/١٠٩).

(٢) انظر: د. عمر جاه، مرجع سبق ذكره، ص١٣٠.

إليه آنفاً. ولأن الدكتـور الهلالي كان تجانياً لمدة تسع سنين، وله مـعرفة أصيلة بكل جـوانب هذه الطريقة، فـقد أجـاد وأفاد لبـيان الحق الواضح حـول هذه الطريقة التي أدخلت الكثير من الشركيات والخزعبلات على عقائد المسلمين.

المطلب الثامن: حركة الشيخ مابا جاخو با الإسلامية (١٢٢٤-١٢٨٤هـ)

قامت حـركة هذا الشيخ بالسنغال في منتـصف القرن التاسع عـشر كرد فعل لتصاعد تعسف طائفة «تيدو». وتعني كلمة «تيدو» في لغة شعب الولوف: الخبث والوحـشية والدناءة والخشـونة والكفر. وكانت هذه الطائفة منتـشرة في مختلف أنحـاء السنغال، وتشكل «مليشيات» السلطات القـائمة آنذاك، وكانت تعيش على السرقة والنهب.

ونتيجة لاستبداد وتعسف هذه الطائفة وجد المستضعفون من عامة الشعب المستهدف من قبل طائفة التيدو ضالته في الإسلام. فكانت قرى وبيوت الشيوخ العلمـاء المسلمين مـلاذاً لهـؤلاء المستـضـعفين الذين عـرفـوا بـ«بادولو»، أي المستضعفين في لغة الولوف، وتطلق كذلك على عامة الشعب. وكانت الفرصة مواتية للشيوخ لإدخال هؤلاء الناس في الإسلام وحمايتهم من الظلم.[1]

وكان الشيخ مـابا أحد أولئك الشيوخ العظام الذين حظـوا بثقة «بادولو» وأقبلوا على الإسلام تحت يديه.

وكان الشـيخ ماباجاخوبا قـد التقى بالحاج عمـر الفوتي سنة ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٨م، واستـبشـر به عمر خـيراً، وتوقع أن يكون له دور فـعال في خـدمة الإسلام ببلاده. وشـاء الله أن ينجح الشيخ مابا في الدعـوة الإسلامية لسـعيه الحثيث والقوي في حمـاية «بادولو». ونجح في توحيد أقاليم «ريب» و«سالوم» و«باديبـو»، وأوشك أن يـضم إليـه إقليم «سين» لولا أن تـصـدت له القـوى

---

(١) انظر: د. عبدالقادر سيلا: المسلمون في السنغال، مرجع سبق ذكره، ص ص٦٥-٦٦.

الاستعمارية، ووضعت حداً للمد الإسلامي عام ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م، إثر هزيمة الشيخ مابا في معركة «صومب»، حيث استشهد فيها الشيخ نفسه، ولكن لم تخمد حركته بوفاته، إذ حمل لواءها أخوه ونجله من بعده.(١)

وكان من آثار هذه الحركة الإسهام في إبراز قيادات إسلامية مجاهدة، منها الإمام «فودي كبا دومبويا»، الذي استنجد في بداية أمره بالشيخ مابا عندما اعتدى بعض المعتدين عليه وعلى طلبته بمنطقة «كازامانسا» بجنوبي السنغال، وأدى التعاون بين هذين العالمين إلى نتائج مثمرة، أبرزها حماية الجماعة الإسلامية ورفع روحها المعنوية.(٢)

المطلب التاسع : حركة الشيخ فودي كبا دومبويا (١٢٣٤-١٣١٩هـ)

ركز فودي كبا جل اهتمامه على جماعة «جولا» التي كانت وثنية إلى ذلك العهد. ودخل عدد كبير من هذه الجماعة في الإسلام بفضل الله ثم بجهود هذا الشيخ في الدعوة الإسلامية، ونجح في بناء أسس الثقافة الإسلامية في تلك البلاد السنغالية.

ولعل أروع بطولة سجلها في تاريخ الحركة الإسلامية في السنغال هو رفضه للمساومة حينما لجأ إليه مسلمون فارون من الاحتلال الانجليزي إثر نزاع نشب بينهم وبين هؤلاء المحتلين الأجانب. وكان هؤلاء قد طالبوا الإمام فودي كبا بعدم حماية المسلمين، وبضرورة تسليمهم إليهم، فرفض كل مطالبهم، ولذا تعاون الإنجليز والفرنسيون وحلفاؤهم من الخونة على حربه. فخاض ضدهم معارك حربية ضارية، استشهد الإمام فودي كبا في إحداها عام ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م، بعد حياة جهادية في خدمة الإسلام والمسلمين.(٣)

---

(١) المرجع نفسه، ص ص٧٩ـ٨٠؛ ولنا بحث مستقل ومطول عن هذه الحركة.

(٢) المرجع نفسه، ص٨١.

(٣) المرجع نفسه، ص ص٨١ ـ٨٢.

المطلب العاشر: حركة الشيخ محمد الأمين درامي (١٢٥١-١٣٠٥هـ)

ولد محمد الأمين دمبا درامي دباسي حوالي سنة ١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م،[(١)] في أسرة من الشيوخ الساراكولي بمدينة جونديورو Gundiru أو Koundiourou، وهو مركز دراسات إسلامية مشهور، يقع على بعد نحو ثمانية أميال جنوب مدينة كايز ومديني Medine، عاصمة خاسو Khasso، بمحافظة كانياجا.[(٢)]

انتقل في صباه مع أسرته إلى قرية سافالو بمحافظة دياخا بإقليم بوندو[(٣)]. وهنا بدأ دراساته القرآنية على يد والده الذي كان زعيماً دينياً ومعلماً، وعمل قاضياً في عدة مناطق بإقليم خاسو.[(٤)] وقطع دراسته لبعض الوقت نتيجة لوقوعه مع والدته في الأسر في قرية جامون Gamon جنوب دياخو، على حدود تندا، التي كان سكانها من أصل ماندنجي، ومعظمهم من الوثنيين. وكانوا في حرب مع بوندو. ونجح والده في فك أسره بعد فترة، وماتت والدته في الأسر. ومنذ ذلك الوقت امتلأ قلب محمد الأمين بالكراهية لقرية جامون. وواصل دراساته الإسلامية بمدينة باكل Bakel بعد إطلاق سراحه. ويذكر بعض الكتاب أنه التقى بالشيخ الحاج عمر الفوتي خلال إقامته بباكل.[(٥)] بل منهم من يذهب إلى أنه التحق بجيشه ليشارك في

---

(١) يذكر B. O. Oloruntimehin أنه يجب أن يكون قد ولد ما بين عام ١٨٣٥ و ١٨٤٠م ـ انظر: مقاومة غربي إفريقية للاستعمار، ص٨٤ (تحرير مايكل كراودر ـ بالإنجليزية). ويذكر Boniface L. Obichere أنه ولد نحو سنة ١٨٤٠م ـ انظر بحثه:
The African Factor in the Establishment of French Authority in West Africa 1880-1890) in (France and Britain in Africa, p. 470).

(٢) انظر هنا: Oloruntimehin, Ibid, p. 84.

(٣) Ivan Hrbek: The Early Period of Mahamadu Lamin's Activities (in R. Willis: Studies in West African Islamic History), p. 212.

(٤) انظر هنا: Oloruntimehin, Ibid, P. 84

(٥) Ivan Hrbek: The Early Period, op. cit., p. 212.

الجهاد.(١) ويُستَبعد(٢) هذا الاشتراك، لأن محمداً الأمين غادر باكل إلى مكة في منتصف الخمسينيات، وهو الوقت ذاته الذي بدأ فيه الحاج عمر جهاده العسكري ضد البمبارا، ولا أثر لهذا الاشتراك في رسائله أو في الروايات الشعبية المتداولة.

ذهب محمد الأمين إلى الحج وهو في سن العشرين أو الحادي والعشرين. وانتهز فرصة وجوده بالأراضي المقدسة، فأقام لفترة يتلقى دراسات إسلامية متقدمة على أيدي شيوخ الحرمين الشريفين.(٣) وعاد إلى سيغو ـ عاصمة جماعة الحاج عمر الفوتي ـ عام ١٢٧٩هـ/ ١٨٧٩م أو ١٢٨٠هـ/ ١٨٨٠م. ولا يعرف إن كان قد قضى كل المدة ما بين ١٨٥٥ و١٨٧٩م(٤) بالأراضي المقدسة أم لا.

تشير بعض الروايات إلى أنه زار مصر، وحتى القسطنطينية، ولكنه شخصياً لم يشر إلى هذه الأماكن.(٥)

لا يستبعد أن يكون قد قضى وقتاً طويلاً بالحجاز، نسبة لغيابه الطويل عن بلاده في رحلته إلى الحج. ولابد أن يكون قد سمع من الحجاج القادمين من أرجاء العالم الإسلامي المختلفة عن الأوضاع المزرية للبلدان الإسلامية الكثيرة التي وقعت في يد الاستعمار الأوروبي النصراني في ذلك الوقت؛ فامتلأ حماساً لعلاج أوضاع المسلمين عن طريق التجديد والجهاد العسكري.(٦) ويشير ولِز(٧)

---

(١) Ibid.

(٢) Ibid.

(٣) انظر: Boniface: The African Factor, op. cit., p. 471.

(٤) Oloruntimehin, op. cit., p. 85; Hrbek, op. cit., p. 212.

(٥) Harbek, Ibid.

(٦) ومما يدل على وجود فكرة التجديد في ذهنه، ما أضفاه على نفسه من ألقاب عندما كان يخاطب رجال الإدارة الفرنسية، من ذلك وصفه لنفسه بأنه المجدد لنهج السنة القويم.
انظر في هذا: Ivan, Ibid, p. 220

(٧) J. R. Willis, "Jihad Fi Sabil Allah", J. A. H., VIII, 3 (1967), p. 400.

إلى احتمال تأثره بحركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب الإصلاحية التجديدية في الجزيرة العربية مباشرة خلال إقامته في الحجاز، أو عن طريق التجار والحجاج الذين نقلوا فكر الشيخ محمد بن عبدالوهاب الإصلاحي إلى غربي إفريقية.

وكلا الأمرين محتمل، وربما تأثر بالحركات الإصلاحية الإسلامية الجهادية التي سبقته في المنطقة أو عاصرته، مثل حركة الشيخ عثمان بن فودي والحاج عمر الفوتي. ويرى شاتلر ـ Le Chatelier[1] ـ والجنرال فيدهيربي[2] ـ الحاكم السابق للسنغال من قبل الاستعمار الفرنسي ـ والكولونيل فري[3] أنه تأثر بالسنوسية خلال تجواله ورحلاته في منطقة واداي. ولا توجد مصادر أخرى تؤكد هذا الزعم. ويبدو أن هذه المزاعم تنطلق من انعكاسات الخوف العام وسط الإدارة الاستعمارية الفرنسية والجمهور الفرنسي من حماس الطريقة التجانية للجهاد الإسلامي بالمنطقة.[4]

عندما عاد محمد الأمين إلى ماسينا من حجه، رحب به حاكمها التجاني ـ ابن أخت الحاج عمر الفوتي ـ وتصادق الرجلان.

وبعد قضاء زمن قصير في حمد الله ـ عاصمة ماسينا ـ واصل محمد الأمين سفره إلى سيغو ـ عاصمة أحمد بن الحاج عمر الفوتي ـ خليفة الدولة العمرية، ومكث بها إلى ربيع عام ١٨٨٥م/ جمادى الآخرة ١٣٠٣هـ.[5] وتتفق كل

---

(١) L' Islam dans L'Afrique Occidentale, p. 216.
نقلاً عن: Hrbek, op. cit., p. 213
(٢) Faidherbe, Le Senegal, pp. 447-48.
نقلاً عن: Hrbek, Ibid.
(٣) Frey, Campagne, p. 243.
نقلاً عن: Ibid وانظر كذلك من رجح الأثر السنوسي: Oloruntimehin, p. 85, 87، وذكر مسوّغات ذلك الترجيح ص ٨٧.
(٤) Hrbek, Ibid.
(٥) Ibid, p. 228; Clarke: West Africa and Islam, p. 146; Oloruntimehin, op. cit., p. 86.

المصادر على أن السبب في طول هذا المكث هنا يرجع إلى عداء أحمد، الذي وضع مشايخ الساراكولي تحت المراقبة في قرية بالقرب من سيغو تسمى «سلام» أو «ياسلام». وعلى الرغم من أن دليل سبب العداء غير مؤكد، إلا أنه غالباً ما يكون بسبب خوف أحمدو من الأثر المتنامي للشيخ محمد الأمين، ولما ظهر عليه من الكرامات.(١) ويذكر جاتيلر(٢) أن محمد الأمين أعلن بصراحة أنه الخليفة الروحي للشيخ الحاج عمر الفوتي، وشجب علانية المظاهر المريبة لحياة أحمد الخاصة.(٣) وتقول روايات أخرى أن أحمد أراد قتل محمد الأمين منذ البداية، ولكن أقنعه طلبته بالامتناع عن هذا، ويقال إن أحمد حاول عدة مرات اغتيال محمد الأمين في السنوات التالية عندما كان الأخير يقيم بقرية سلام، ولكن فشلت جميع تلك المؤمرات. وتقول الأساطير المحلية إن هذا من كرامات وبركات الشيخ محمد الأمين.(٤) ولا نعرف كيف نجح في النجاة من الاغتيال، ولكن يبدو من المحتمل أن له طلاباً ذوي نفوذ في حاشية أحمد.(٥)

وكان لما أشيع عنه من كرامات وبركات الأثر الكبير في استقطاب الأنصار، خاصة من بين قومه الساراكولي.(٦)

جاء محمد الأمين إلى مكة، وهو مملوء بالحماس لمبادئ الطريقة التجانية التي شهد بداية نشاطها على عهد الحاج عمر، وظن أنه سيجدها قد أصبحت

---

(١) P. B Clarke: West Africa and islam, p. 146.

(٢) Le Chatelier, op. cit., p. 217.

نقلاً عن: Hrbek, op. cit., p. 213

(٣) Clarke, West Africa and Islam, op. cit., p. 146.

(٤) Campagne, op. cit., pp. 256-60; Rancon, "Le Bondou, Frey, pp. 112-114.

نقلاً عن: Ivan, op cit., 214

(٥) Ivan, Ibid; Clarke, op. cit., p. 146.

(٦) Ibid., P.B. Clarke: West Africa and Islam, p. 145; Oloruntimehin, p. 85.

فتية مزدهرة، ولكن وجد العكس، وجد أن جهادها ضد الكفار كاد أن يتوقف تماماً، وأن الجـهود العسكرية قد وجـهت ضد أفراد أسـرة الحاج عمر نفـسه، وأصبح التورودبي مـجرد طبقة حاكمـة تنظر إلى المجموعات العرقـية الأخرى على أنها مجرد رعايا خاضعة ودافـعي ضرائب. وفرغت الطريقة من مضامينها الدينية. ومن البدهي أن ينتقد محمد الأمين علانية هذا الحال الذي وصلت إليه الطريقة، وأن لايقبل أحـمد هذا الانتقاد من هذه الشخصـية القوية المؤثرة التي اشتهرت بالورع والتـقوى، وأن يسعى لحجزه عنده ليكون تحت مراقبتـه الدقيقة لعدة سنوات.

ليس من الغـريب أن يجلب مـوقف أحـمـد هذا كـراهيـة هذا الشـيخ الساراكولي تجـاهه وتجاه جماعتـه العمرية، خاصة أن مـحمد الأمين يدعي بأنه القائد الروحي والزماني للطريقة التجانية بغربي إفريقية كما ذكرنا.[١] ويبدو أنه منذ فتـرة إقامتـه الجبريـة بقرية سلام، بدأ يفكر في إمـكانات الانتفاضـة ضد طبقات التورودبي الحاكمة، وإنشاء جماعة دينية خاصة به، واقتنع بعدم إمكانية تطبيق أو تحقيق خطته في مركز الجماعة العمرية، من دون حلفاء.

ولذا انتظر فرصة مـغادرة «سلام» والانتقال إلى خارج دائرة نفـوذ أحمد الفـوتي. واستـخدم في تلك الفـترة التـجار الديولا السـاراكولي كـرسل إلى مخـتلف دول الساراكـولي: كاميـرا وجوديماخو وجـوي وديافنو وبوندو. وبدأ ينتشر صيته في هذه البلاد والمناطق.[٢]

---

(١) انظر كذلك: Clarke: West Africa and Islam, p. 146

(٢) Rancon, "Le Bondou", p. 115.

نقلاً عن: Ivan Hrbek, op. cit., pp. 214-215.

وانظر كذلك: Oloruntimehin: Sengambia - Mahamadou Lamin, p. 88.

وقرر أحمد مـغادرة سيغو إلى نيورو بإقليم كاأرتا، واتخـذها عاصمة له في نهاية عـام ١٨٨٤م، ليكون قريباً من منطقـة التمرد الذي قاده ضـده أخوه محمد مونتجا.[١] واستغل محمد الأمين هذه الحادثة فغادر «سلام» في وقت ما أثناء ثلاثة الشهور الأولى من عام ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م.

وإذا كان الأمير مدني بن أحمد الفـوتي، الذي كان يكن احتراماً وتقديراً للأمين قـد منحه الإذن بذلك أو غـادر من تلقاء نفـسه، فليس ذلـك أمراً ذي بال.[٢]

قابل المستعمرون الفرنسيون نبأ خروجه من سلام بارتياح شديد، وذلك لما علمـوه من موقـفـه من أحمـد الفـوتي ومن التورودبي ومـوقـفه المعلن تجـاه الفرنسيين، ولذا رحبـوا به عندما ظهر في قلعة باماكو الـفرنسية في الأول من يونيو عام ١٨٨٥م، وأذنوا له بأن يسافـر بحرية في المناطق التابعة لهم،[٣] إلى أن وصل قريتـه جونديورو Gundiuru في مطلع يوليـو من عام ١٨٨٥م. وزار القلاع الفرنسية التي قي طريقه.[٤] ولعله أراد بهذا معرفة مواقع عدوه وقوتها. واستقبله السكان المحليون وسكان المناطق الأخرى بكل حماس، وجاءته الوفود من كثـير من قرى مناطق خاسـو وجادياقا وجويديماخـا، حاملة إليه كثـيراً من الهدايا من شخصيـات مختلفة المراكز السياسية والاجتمـاعية والدينية. وكسب شهرة واسعـة وسط جميع قطاعات الشعب لما عرف عنـه من كرامات وبركات

---

(١) Olorunitmehin, Ibid, p. 87.

(٢) Rancon, op. cit., p. 115; Frey, Campagne, op. cit., p. 263.

نقلاً عن: Ivan, Ibid, p. 215، وانظر: Clarke, op. cit., p. 146

(٣) Ivan Hrbek, Ibid., p. 215; Clarke, op. cit., p. 146; Hargreaves, J. D. : West Africa Partitioned, pp. 65-66; Oloruntimehin, op. cit., p. 88.

(٤) Clarke: W. A. and Islam, Ibid., p. 146.

وسعة علم. وأبدى له سامبالا، حاكم خاسو، وإخوته، تبجيلاً حقيقياً.[١] ولم يبد في هذه الفترة أي شعور معادٍ للفرنسيين،[٢] ليصرف أنظارهم عن أهدافه الحقيقية.[٣]

مكث الأمين في جونديورو لنحو شهرين متمتعاً بتمجيده كحاج، وملاحظاً للتغييرات التي حدثت على الصعيد السياسي منذ مغادرته هذه البلاد إلى مكة قبل ثلاثين عاماً.

وإذا كان له من قبل بعض خططه الخاصة للإصلاح، فقد حان الوقت ليصوغ تلك الخطط على أرض الواقع، ويكسب الأنصار، وينظر في ردود فعل الفرنسيين تجاه خططه.

وحاول دي برايسي De Brissay، قائد مقاطعة المدينة، عدة مرات أن يعرف أكثر عن النوايا المستقبلية لمحمد الأمين، أثناء شهري يوليو وأغسطس/ تموز وآب، ولكنه لم يعرف أكثر من أنه عدو لأحمد عمر الفوتي.[٤]

وكان الأمين ينتهز كل فرصة لإعلان وفائه وإخلاصه للفرنسيين وعدائه لأحمد عمر الفوتي،[٥] ونواياه لاستغلال نفوذه لغرس فكرة السلام والعدالة وسط أتباعه ومواطنيه. ووصل به الأمر لتطمين الفرنسيين تجاه نواياه، بأن كتب في نهاية أغسطس من عام ١٨٨٥م/ نحو نهاية ذو القعدة ١٣٠٢هـ رسالة متواضعة إلى سيجناك ـ لسنز Seignac- Lessens، الحاكم الفرنسي للسنغال آنذاك، يكرر له

(١) Ivan Hrbek, Ibid., p. 215.

(٢) Clarke: West Africa and Islam, op. cit., p. 146.

(٣) Oloruntimehin, op. cit., p. 88.

(٤) A. N. S (Archives Nationale du Senegal, Dakar) 15G50, Commdt. Cercles to Commdt, Medine, 8 July 1885; A. N. S. ID 81, Houry to Governor, 7 sept. 1885. (Ivan, Ibid., p. 215) نقلاً عن:

(٥) Hargreaves: West Africa Partitioned, op. cit., p. 66; Oloruntimehin, op cit., p. 88.

فيها الكلام عن خططه المسالمة،(١) وأعاد إلى كايز Kays عدداً من الهاربين الذين لجؤوا إلى جونديورو(٢). واتصل بسامبالا، ملك مديني Medine، الذي كان منذ عام ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م صديقاً دائماً وحليفاً للفرنسيين ضد التوكولور. وقام سامبالا بدوره بالتأكيد للفرنسيين على النوايا والميول السلمية للشيخ محمد الأمين تجاههم.(٣)

بدأت الصورة تتغير في سبتمبر/ أيلول: استهل الأمين استعداداته الدبلوماسية والعسكرية بإرسال الرسل إلى مختلف بلاد الساراكولي وإلى بوندو، وبشراء كميات من البارود وتجنيد الأنصار المسلحين. أثارت هذه الأنشطة شكوك السلطات الفرنسية، التي أخذت تلح في طلب توضيح لهذا. ودهشوا عندما أجابهم بأنه نوى خوض جهاد ضد قرية جامون التي يعاديه سكانها، وطلب الإذن بالشروع في هذا الأمر، ورفض الميجور هوري ـ القائم بأعمال القائد الأعلى لأعالي النهر ـ بصراحة إذناً رسمياً للأمين، وأبدى دهشته في أن يلجأ شخص مثل الشيخ الأمين إلى تجنيد القوات وشراء السلاح والبارود في إقليم خاسو من دون إذن سامبالا ـ حليف الفرنسيين ـ. وأضاف: «إذا رغب الشيخ الأمين في بدء حرب فعليه أن يخرج من المنطقة الواقعة تحت الحماية الفرنسية».(٤)

وعندما علم الأمين بعدم رغبة الفرنسيين في التحالف معه ضد أحمد عمر الفوتي، قرر أن يتبع خطة أخرى، وهي الجهاد ضد الكفار. ولا توجد إشارة إلى الجهاد ضد أحمد الفوتي على الرغم من رأيه فيما وصلت إليه

(١) Clarke, W. A. And Islam, op. cit., p. 146; Ivan, Ibid; Hargreaves, Ibid, p. 66; Oloruntimehin, Ibid.

(٢) Ivan, Ibid.

(٣) Oloruntimehin, Ibid.

(٤) A. N. S. ID 79/21, Houry to Governor, 15 Sept. 1885

نقلاً عن: Ivan, Ibid.

الطريقة التجانية على عهد تورودبي أحمد، ويصعب إقناع أنصاره بحربهم.

لقد وقف المؤرخون كثيراً عند تصرف الأمين الغريب، إذ كيف يطلب زعيم مثله من الفرنسيين غير المسلمين أن يسمحوا له بالجهاد ضد غير المسلمين، البمبارا[1] أو البريطانيين.[2] والذي يبدو لنا أن الأمر لايخلو من تكتيك سياسي، فلعله يريد أن يطمئن الفرنسيون إليه فيقفوا على الحياد حتى يتمكن من تقوية مركزه ليناطحهم في الوقت المناسب. وقد كشفت الأيام عن هذه الخطة.

ولأنه كان حذراً أيضاً من الشعور العدائي لأبي بكر سعدا - إمام وحاكم بوندو - تجاه جامون، فقد كتب إليه الأمين طالباً الإذن في عبور أراضيه. وإذا كان قد سمح له إمام بوندو بذلك أم لا، ففي الأمر خلاف.

وأخيراً منح الكولونيل فري - القائد الجديد لأعالي النهر - إذناً للأمين بالجهاد ضد تندا جامون، وكتب إلى المسؤولين الفرنسيين في المنطقة بأن يسمحوا له بالتحرك بحرية في أراضيهم ليدعو إلى الجهاد ويكسب الأنصار، ومنحه سيفاً كرمز لرضائه عنه.[3] واستقبله شعب الساراكولي بحرارة في كل مكان ذهب إليه ليدعوهم فيه إلى مساندته، وحاول بعض المسؤولين الفرنسيين عرقلة أنشطته، ولكن دون جدوى، لأن غالبية الناس كانت قد اقتنعت مسبقاً بقيادته. وكانت الانتكاسة الوحيدة هو ما واجهه في اير Aere ودامقا Damga، حيث وجد معارضة من التورودبي، الذين خشوا من نتائج عدائه لأحمد الفوتي.

(١) Ivan, Ibid, pp. 216-17; Clarke: W. A. and Isl., op. cit., p. 146.

(٢) Ivan, Ibid, p. 218.

(٣) Ivan, Ibid., pp. 218-19.

وصل الأمين إلى قرية بالو Balu في نهـاية العام، وأنشـأ فيـها قاعـدته ومركز قيادته.[١]

لقد كان نجـاحه مثيـراً. ففي خلال سـتـة شهور فقط، أصبـح من مجرد شيخ مغمـور، جاء حديثاً إلى بلاده بعد غياب طـويل دام ثلاثين عاماً، أصبح القائد الزمني المعترف به وسط معظم شعب الساراكولي ما بين فوتاتورو وكايز. وأقرب تفسـير لهذه الظاهرة هو شخصيـته القيادية الفذة، حيث تصـفه المصادر بالذكاء وحلاوة الحديث والقدرة على كسب الأنصار.

وساعـده في هذا النجاح أيضاً أوضاع السـاراكولي السائدة والبـائسة في المنطقة وشهرته كحاج وولي صاحب كرامات كما ذكرنا.

وعادة ما تصـفه المصادر الفرنسيـة المعاصرة والحديثـة بـ«النبي»، وأحياناً بـ«النبي المزيف»، أو «المهـدي».[٢] وهي أوصـاف درج الاسـتـعـمار الفـرنسي وغيره بإطلاقها على قادة الحركات الإصلاحية في إفريقية عامة، مثلما فعلوه مع الشـيخ محـمد بن عـبدالله حـسن الصومـالي، الذي سمـوه بهذه الأوصـاف وغيرها، مثل: الشيخ المجنون ـ The Mad Mula[٣]ـ أما الأمين فقد وصف نفسه بعدة أوصاف حسب المقام، منها أمير المؤمنين والمجدد وشيخ الشيوخ.[٤]

---

(١) A. N. S. 13 G 186/68. Report of Commdt Bakel on the affairs of Mahamadu Lamine, 13 Jan. pp. 217, 228... etc.

نقلاً عن: Ivan Ibid., p. 219

(٢) Rancon, "Le Bondou", pp. 107, 114, 127; Frey: Compagne; Sabtier, "Le Senegal," pp. 217, 228 ("Faux prophete"), M. Delafosse, G. Hanotaux, and A. Martines, Histoire des Colonies Francaises et de I'Expansion de la France dans le Monde, Vol. IV, by Delafosse, P. 168: " iI Seproclame Mahdi"; Frey, p. 274: "Il prend Letitre de Mahdi.."

نقلاً عن: Ivan, Ibid, 220, Note No. 49.

(٣) انظر: Jardine Douglas: The Mad Mullah of Somaliland. London, 1923, p. 39.

(٤) انظر: Clarke, p. 147.

ومما لاشك فيه أن لقب أمير المؤمنين أو شيخ الشيوخ قد أثار رد فعل مضاد في فوتاتورو، وذلك لما يحمله من إشارات إلى عدم الاعتراف بهم كزعماء طريقة أو دين أو دولة.

استغل الأمين الأوضاع السياسية بدولة بوندو للقضاء عليها وإقامة دولته الإسلامية، الإصلاحية، على أنقاضها.

ففي ١٨/١٢/١٨٨٥م/ ١٢/٣/١٣٠٣هـ، توفي بوكار سعدا Bokar Saada إمام بوندو، وخلفه أخوه عمر بندا في ١٥/١/١٨٨٦م/ ٣٠/٣/١٣٠٣هـ. وكان عمر شيخاً عجوزاً شبه أعمى، ومسلوب السلطة الفعلية. وكان يتشاجر مع أخيه أبي بكر سعدا وآخرين. وعاش معزولاً في بولوبينBulebane . وعلى الرغم من أنه لاشك في حقه الشرعي في الخلافة، إلا أن هناك معارضة صامتة قامت ضده. ووقف على رأس المعارضة عثمان جاسي، الابن الأكبر لأخيه بوكار سعدا. وكان أكثر قدرة على الإدارة من غيره، وكان النائب الفعلي لوالده أثناء حياته، وأثبت جدارته ومواهبه في عدة مناسبات. ولأنه الثامن في سلسلة من يستحقون الخلافة، فالأمل مفقود في أن يتولى السلطة تحت ظروف عادية، وعليه فقد قرر أن يتبع سياسة الانتظار والمقاومة السلبية، تاركاً الإمام الجديد بلا سند، سامحاً لأتباعه بالقيام بالدعاية لصالحه. ولم يكن وحده في هذا الميدان، فكل فرع من أسرة السيسي تمنى موت بوكار ليحصلوا على درجة عالية من الاستقلال والحصول على جزء أكبر من دخل الضرائب. وكاد الانشقاق أن يكون كاملاً داخل الأسرة، فالكل يصارع من أجل مصلحته الخاصة. ومن هذه النقطة وإلى الأمام، لم تعد بوندو عاملاً سياسياً خطيراً في منطقة السنغال الأعلى.[١]

---

(١) Faidherbe, Le Senegal, p. 416

نقلاً عن: Ivan, Ibid, pp. 221-22.

وعندمـا علم الساراكـولي بجوديماكا وديـافونو بتخـطيط أحمد الـفوتي لغزوهم، قـبلوا بسرعة أن يكون الأمين حاكـماً عليهم، وأن يكون ابنه سـويبو حاكماً على ديافونو، وجاء الناس بأعداد كبيرة للانضمام إلى الأمين.[1]

ظل الأمين يراقب باهتمام من قاعدته ببالو تطورات الأوضاع في بوندو. وكان معه في مطلع عام ١٨٨٦م/ نهـاية ربيع الأول ١٣٠٣هـ نحو مئتي رجل مـسلح، ولكنه كان في انـتظار وصول تجـريدات عسـكرية من كل محـافظات الساراكولي. وأرسل مبـعوثين إلى عمر طالباً منه الإذن بعبـور أراضيه للوصول إلى جامون، وذلك فور سماعه بتنصيب الـفرنسيين عمر بندا إماماً في الخامس من يناير عام ١٨٨٦م. وكان جواب عمر تهـربياً في البداية، ولكن عندما كرر الأمين الطلب رفض عـمر الإذن، وأعلن أنه سـيقـابل أي محـاولة للأمين في عبور أراضيه بمقاومة مسلحة؛ ويرجع سبب هذا الموقف إلى خوف عمر من أن يتحـالف الأمين مع بعض خصومـه والإطاحة به، وأن يحل مـحله. وأخذت قوات الأمين في الازدياد أثناء ذلك، إذ جـاءته الأنصار من كل مكان. وبلغت قواته أكثر من ألفي مجاهد مسلح مع نهاية الشهر. وازدادت مخاوف عمر بندا من هذا الجيش الساراكـولي العرمرم،، فتحرك عـمر من بوليبين Bulebane إلى جابو Gabu ليكون قريبا من باكل. وطلب مساعـدة ومشورة حلفائه الفرنسيين. ولم يكن قائد مـقاطعة بـاكل في موقف يسمح له بالمسـاعدة الفعـالة المطلوبة، ولكنه سانـد الإمام في قراره بعـدم السماح للأمين بـالمرور عبر أراضـيه، وأن الخطوة الوحـيدة التي يمكنه اتخـاذها هو أن يطلب من الأمين مـغادرة أراضـيه ومنعه من اتخاذها قاعدة لجيشه. فعل هذا في ٢٥/ ١/ ١٨٨٦م/ ٢٠/ ٤/ ١٣٠٣هـ،

---

(١) Oloruntimehin, op. cit., p. 89.

عندما زار بنفسه بالو ـ قاعـدة الأمين، وأمره بالمغادرة فوراً، ودعا الذين جاؤوا من جوي Guoy المجاورة أن ينفضوا من حوله ويعودوا إلى قراهم.(١)

أما مجرى الأحداث في الأيام التالية، فكان على النحو التالي:

غادر الأمين وجـيشه مـركزهم ببالو في السـادس عشر من يناير، طبـقاً للأوامـر الصــادرة إليـه من الفـرنسـيين، فـتـحـرك ببطء جنـوباً في اتجـاه سنيودبو Senudebu. وكان هناك نشاط دبلوماسي محموم في اللحظات الأخيرة، حيث وصل إلى بالو عثمان جاسي وبصحبـته أحد أبناء عمر بندا للتفاوض مع الأمين. وعبـر الأمين حدود بوندو بعد يومين من هذا، وأرسل إلى عـمر بندا طلباً جديداً بالإذن لعبور أراضيـه في اليوم الأول من فبراير/ شباط. ووقع أول اصطدام بين الساراكولي وقوات عمر بندا بالقرب من قرية ديام ولي Diamweli. وهزمت قـوات عمـر وهرب الإمام إلى باكل عـبـر بيوليـبين، ومن هنا، إلى دامجا، باحثاً عن مساعدة عند البـو باكر (عبدالله أبو بكر). وسقطت بيوليبين في يد الأمين بعـد قـتـال شـرس، ودخل الأمين سنيـودبو، دون أن يلقي أي مقاومة، وجعل مقره هذه القلعة القديمة.

كانت هذه الأيام القلـيلة ذات أهمية قـصوى في جمـيع مستـقبل الأمين الجهادي والإصلاحي.

بدّل هذا النصر غير المتوقع كل مشاريع الأمين تبديلاً عميقاً؛ فتخلى عن

---

(١) Ivan, Ibid, p. 222 ،نقلا عن: A. N. S 13 G 240/80.

ويبدو أن الأمين لم يرد الاصـطدام بالفرنسيين في هذه المـرحلة من خططه، فرجل في ذكـائه وفطنته لابد أن يقدر عـواقب عصيـان أوامر الفرنسيين الـذين هم في مركز قوة، ولهـم حلفاء من المسلمين والوثنيين بالمنطقة، ولا يمكن أن يخوض الأمين حرباً في عـدة جبهات في وقت واحد، وهو في أول مراحل جهاده المسلح.

انظر: Oloruntimehin, op. cit., p. 88.

فكرة الجهاد ضد جامـون، وبدأ في تحويل بوندو إلى نواة لدولة الساراكولي[1] الإسلامية الإصلاحية، ثم الانطلاق منها لتحريرهم من الأجانب.[2]

وهرب كثير من التورودبي من قـراهم إلى فيرلو أو إلى المناطق المجاورة لباكل. وبدأ الأمين في توطين شعوب الساراكولي في هذه القرى المهجورة.[3]

وزاده هذا الانتـصار شهـرة، فأخـذت الناس تتدفق علـيه للإسهـام في الجهاد، فـوصل جيشه إلى نحو خمـسة آلاف مقاتل. وحاول أهل جـويدماخا Guidimakha وديافوندي Diafundi أن يحثوه على بدء الحرب ضد أحمد الفوتي، ولكنه شعر بأن جيشه ليس بالقـوة الكافية لهذا العمل. وفي أثناء هذا هاجمت خيالته القرى المجاورة لباكل، حيث لجأ عثمان جاسي وقواته إليها.

وأكد الأمين فـي رسائله إلى الفـرنسيين على صـداقته لهـم، وأشار إلى مسوّغات أن يكون في مكان عمر الفوتي، ومن تلك المبررات أنه سوف يحافظ على أمن المنطقـة، مما يؤدي إلى ازدهار التـجارة، وفي هذا مـصلحـة رئيسـة للفرنسيين.[4] وشاطره في هذا المنطق بعض الضباط الفـرنسيين، أمثال هوري Houry، ولكن للسياسة الفرنسية العليا السائدة مبرراتها وأسبابها في عدم مساعدة الأمين. فهي ترى أن الشيخ في مركز قـوة ونفوذ، ولا يمكن السيطرة عليه مثل عمر بندا، الذي يعتمد كثيراً على قوة الفرنسيين، وكانت السياسة الفرنسية تحذر

---

(١) Clarke: West Africa and Isalm, op. cit., p. 147.

ومن مصادره:

Mahamadou Lamine to Govemor, translated: 24 Sept. 1886; text in Nyambarza, Loc. cit., pp. 141-2.

(٢) Frey: Campagne, p. 273

نقلاً عن: Ivan, Ibid, p. 225

وانظر: Boniface: The A. Factor, op. cit., p. 471. وعن مسألـة الروح القومية السـاراكولية ضد الأجانب في نظرهم وخاصة ا لتوكولور، انظر مثلاً: Oloruntimehin, op. cit., pp 85`86.

(٣) (Ivan Ibid, p. 22)، نقلا عن: Rancon, op. cit., pp. 125-6.

(٤) نقلاً عن:

ANS 15 G 51, 20 Feb 1886 (Ivan, Ibid, p. 225): Hargreaves: West Africa Partitioned, p. 66.

من مبادرة الأمين بالعداوة.[١]

وكانت جميع حسابات الأمين الظاهرة تجاه الفرنسيين خاطئة؛ فالفرنسيون ليسوا على استعداد للسماح بقيام دولة إسلامية جديدة تقع على خطوط مواصلاتهم إلى النيجر، وكرهوا كرهاً شديداً فكرة مواجهة قوة ثالثة ـ إضافة إلى قوة ساموري التوري والفوتي ـ ذات نفوذ وقوة. ورأوا أنه من الخطورة بمكان أن يترك لتحقيق أهدافه وآماله، وأن من الضروروي سحقه قبل أن يستفحل أمره. وأن صعود نجم الأمين يشكل تهديداً خطيراً لكل خططهم السياسية والاستراتيجية.[٢]

ونتيجة لهذا الموقف الفرنسي المتصلب تجاه الأمين، كان لا بد من وقوع الصدام بين الجانبين. وكان أول صدام بينهما هو تصدي الأمين لتجريدة عسكرية فرنسية وهزيمتها بالقرب من كونجيل Kungel في منتصف شهر مارس/ آذار. وبدأ هجوماً على باكل بعد أسبوعين من هذا التاريخ، وكانت باكل أقوى قلعة فرنسية بالمنطقة. وبذلك مس الأمين نقطة فرنسية حساسة، ألا وهي هيبة ومقام فرنسا. ومن هذه اللحظة ولاحقاً فلا رجعة ولا حل آخر غير الاستسلام غير المشروط للفرنسيين أو هزيمته الساحقة. ومن ثم بدأت الحرب الضروس، واستمرت إلى نهاية ديسمبر من عام ١٨٨٧م، وانتهت بالهزيمة الساحقة والنهائية للشيخ الأمين وموته ببلدة انجوجو ـ سوكوتا، بالقرب من نهر جامبيا[٣]، بمقاطعة نياني، واحتز الجنود رأسه وقدموه إلى السلطات الفرنسية كتذكار ودليل على موته.[٤]

---

(١) (Ivan, Ibid, p. 225، نقلاً عن: ABS/ 15 G51/221, 2 March 1886.

(٢) Ivan, Ibid, p. 226; Clarke: W. A. and Islam, op. cit., p. 147.

(٣) Ivan, Ibid, p. 226; Boniface: The African Factor.., op. cit., p. 472, 473.

ومصدر بونفيس هو:

Frey to Governor of Senegal, Feb. 2, 1886, and Feb. 28, 1886. ANSOM, Senegal IV/84/b.

وانظر أيضاً: Hargreaves: West Africa Partitioned op. cit., p. 66.

(٤) Clarke: West Africa and Islam, op. cit., p. 47; Boniface, op. cit., p. 473.

وقـد أوردت كثيـر من المصادر التـاريخيـة أحداث الحـرب بين الأمين والفرنسـيين. ومما ذكر بهذا الصـدد، باختصار: قـطع الأمين خطوط التلغراف الفرنسيـة، وأحرق وحاصر القـرى الصديقة للفرنسـيين، ليكون ذلك درساً لمن تحدثه نفسه من الجيران بالتـعاون مع الفـرنسيين، وطرد قوة الكـابتن خولي. وهاجمت القوات الفرنسية بقيـادة الكابتن فيرات والليفتنانت رودت قرية الأمين في ١٣ مارس عـام ١٨٨٦م، يوم عيـد الميلاد[١]، عندما كان يـقود الثورة من خارجهـا. وقبضوا على أسرته وأخذوها أسـيرة إلى مداين Medine. وكان بينها زوجتـه الأثيرة مـوسو، التي رافقـته في رحلة حـجه. ولكنهم عـاملوا أسرته معاملة حسنة.[٢] وكان رد فعل الأمين على هذا الاستفزاز الفرنسي أن قام في أبريل/ نيسان من العام نفسـه باحتلال منطقة جوي Guay، وكثف هجماته على المراكز الفرنسية في المنطقة.[٣] وحتى الأهالي الذين استخدمهم الفرنسيون ظلوا أوفياء لـلأمين، وتجسسوا على الفـرنسيين لصالحه، ومـثال ذلك: ألفا سيـقا، المترجم بمحطة باكل الفرنسية، الذي كان يعطي معلومات مضللة للفرنسيين عن تحركات الأمين. وعندمـا اكتشف أمره أطلقوا عليه النار في الميـدان العام بباكل في السادس من أبريل عام ١٨٨٦م[٤]، ليكون عظة لغيره.

وهزم فري قـوات الأمين في عدة مـعارك.[٥] ولكن الهزيمـة التي لحقت

(١) A. S. Kanya - Forstner: The Conquest of the Western Sudan, p. 145.

(وهذا المرجع هو الذي جاء فيه ذكر الهجوم يوم عيد الميلاد)

(٢) Frey, Campagne, op. cit., pp. 283-84.

(٣) ANSOM: In Senegal IV, 84, (b) Commandant Superieur a Gouverneur, St. Louis, 18 April 1886.

نقلاً عن (د. عبدالله عبدالرزاق إبراهيم: المسلمون والاستعمار الأوروبي لإفريقية، ص١٣٨.

(٤) Ivan, Ibid, p. 299، (نقلاً عن: Boniface, op. cit, 473)

Hargreaves: West Africa Partitioned, op. cit., p. 66.

(٥) نقلاً عن: Duboc, Epopee, pp. 114-115 (Boniface, Ibid, p. 473

بهم عند تامباكانو أفقدتهم الكثير من الرجال، وهرب كثيرون من الميدان. وتسبب هذا في نقص ملحوظ في قوات الأمين، فلجأ مع رجاله إلى داخل ديانا Diana بالقرب من الحدود السيرالونية.(١)

ولم تؤد هذه الهزيمة إلى سحق قواته تماماً، فكان على القائد جاليني Gallieni أن يواصل الصراع ضده إلى أن قضى عليه.(٢) واعترف الفرنسيون بعثمان جاسي بن بوباكر سعدا حاكماً على بوندو، بشرط أن ينخرط جميع قومه في التجارة مع الفرنسيين.(٣)

هكذا نلاحظ من خلال سير أحداث هذه الحركة أنها لم تدم طويلاً، لأنها جاءت في وقت بلغت فيه حمى الاستعمار قمتها بمؤتمر برلين عام ١٨٨٥م، والذي قضى بحق الدول الأوروبية في استعمار إفريقية. ولذا وقفت فرنسا بالمرصاد لهذه الحركة حتى قضت عليها. . ولكنها لم تقض على الروح الإسلامية التي أججتها في المنطقة، وكان ذلك سبباً من أسباب المقاومة الإسلامية العنيفة ضد الاستعمار إلى أن رحل عن المنطقة.

وهكذا كان كلما خَبَتْ نار حركة من الحركات الإسلامية بهذه المنطقة، اشتعلت نار حركة أخرى، لتعطي الإسلام دفعة أخرى قوية إلى الأمام. وسنقف على آخر مثال لهذه الظاهرة، وهي حركة أحمد بامبا.

---

(١) ANSOM, Senegal IV/85/ a. Frey, Rapport, June 22, 1886.
(نقلاً عن: Boniface, Ibid)

(٢) Boniface, Ibid, p. 473; A. S. Kanya - Forstner The Conquest of the Westem Sudan, pp. 146-47.

(٣) Oloruntimehim, op. cit., pp. 96-106.
وقد اعتمد المؤلف على مصادر أصيلة في سرد تفاصيل هذه الحرب، ولعله أفضل مرجع في هذه الدراسة.

المطلب الحادي عشر: حركة الشيخ أحمد بامبا (١٢٦٧-١٣٤٦هـ)

كان الشيخ أحمد بامبا ابناً لشيخ ولوفي صغير من سلف التورودبي. ولد ببلدة أمباكي السنغالية، واختـار له والده اسم محمد، ثم سماه والده بعد ذلك بـ«أحمد بامبا»، تيمناً باسم شيخ درس والده على يديه العلوم الدينية.[١]

قضى أحـمد بامبـا معظم سني طفولتـه في دراسة مكثفـة للقرآن الكريم والتفسير والشريعة الإسلامية. وكـان والده مومواز آنتسالي شيخاً معلماً، رحل من بلده امباكي M'Backe، التي أسسـها جد بامبـا: امبالا امـباكي، إلى إقليم سالوم Salum. وهنا تزوج مامور آنتسالي أخت لات دايور، حاكم كابور وقائد المقاومة الإسلامية المشهورة ضد الوجـود الاستعماري في المنطقة، وأصبح مربياً لأبناء الشيخ مابا دياخو، الذي قاد مقاومـة عنيفة ضد الفرنسيين لعدة سنوات. وساعد لات دايور في جهوده لجعل كايور دولة إسـلامية. وكان أحمد بامبا في هذا الوقت منكباً على الدراسات القرآنية. درس على يدي أخواله، الذين كانوا علماء في الدراسات القـرآنية، وحفظ القرآن في سن مـبكرة، وبعدة قراءات، وأعترف له المتعلمون من قضاة إقليمه بأنه عالم متقن للشعر الديني.[٢]

مات مـامور آنتسـالي بعد عودته إلى بـلدة امباكي نحـو عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨٠م. وكان عمر أحـمد بامبا آنذاك ثلاثين عاماً، واشتـهر بالعلم والصلاح والتقـوى. وعرض عليه منصب القضـاء والإمامة بامـباكي مكان والده، ولكنه رفض هذا العرض، متعللاً بحجة أنه لم يكمل دراساته بعد، وأنه لا يرغب في

---

(١) Greevey, Lucy E.: Ahmad Bamba, in: Studies in West African Islamic History, Vol. I, P. 278.

(٢) Ibid، ومصدره:

Muhammad al-Mustafa An: Hayat al-Shaykh Ahmad Bamba, Vol. I (Dakar, 1960).

وانظر:

Behram, Lucy: Muslim Brotherhoods, op. cit., P. 28.

المناصب الشرفية الدنيوية. وبقي بدلاً عن ذلك عالماً ومعلماً بسيطاً. وذهب بعد هذا مباشرة إلى سانت لويس، حيث التحق بالفرقة القادرية بوساطة الحاج كامارا، مقدم القادرية في المنطقة. ولم يلب هذا رغبته للمعرفة الدينية، و لذا سافر إلى موريتانيا ليلتحق بالقادرية على يد الزعيم القادري المشهور الشيخ سديا. ثم عاد إلى بلاده بعد فترة، وأنشأ قرية سماها طيبة بإقليم باول Baol، على بعد بضعة كيلومترات من مدينة امباكي. ثم ما لبث أن اتخذ لنفسه طريقة دينية خاصة به، لا تختلف كثيراً عن القادرية، وكان ذلك في سنة ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦م[١]، عرفت بـ«المريدية».

كان بامبا مسلماً ملتزماً مبادئ الإسلام الأساسية، وملماً بالمبادئ الأساسية لعقيدة أهل السنة والجماعة. ويجد المتتبع لأشعاره وتفاسيره الكثيرة أنه لم يخرج عن مبادئ الإسلام الرئيسة، ولم يكن مهرطقاً. واتخذ لنفسه ورداً من القرآن والسنة خاصاً به، متخلياً بذلك عن الورد القادري. ودرست مجموعة صغيرة من أتباعه على يديه أو على أيدي شيوخ آخرين متعلمين من أتباع فرقته، درسوا شيئاً من اللغة العربية وأهم كتب الفقه المالكي والتفاسير، وأضحوا شيوخاً في المستقبل.

لقد نشأ الشيخ بامبا في وقت دخل فيه كثير من شعب الولوف في الإسلام، وكان أهم ما يحتاج إليه هذا الشعب في هذا الوقت بالذات أن يجد قادة من بين صفوفه أكثر مما هم من صفوف مشائخ التوروديي الذين حاولوا إدخال حكامه الوثنيين في الإسلام بالقوة في السنين السابقة. فالفرقة المريدية كانت جماعة ولوفية، قادها رجال من الولوف، ولذا تمكنت من أن تجتذب

(١) Clarke, P.B: West Africa and Islam, op. cit., P. 203.

إليها كثيراً من المسلمين الجدد من بين صفوف الشعب الولوفي، وأسهمت كذلك في إدخال الإسلام بمجتمع السيرير[١]. ولم يكن هذا هو السبب الوحيد في نجاح الفرقة المريدية، بل هناك أسباب رئيسة أخرى تجدر الإشارة إليها، وهي:

أولاً - ترمز الفرق الدينية إلى معارضة السيطرة الاستعمارية. ولا ينفرد السنغال بهذه الرمزية، بل هي ظاهرة في كثير من الحركات والفرق الإسلامية بإفريقية، مثل حركة الشيخ الحاج عمر الفوتي.

ثانياً - لابد من الاعتراف بأن الانجذاب نحو الفرقة المريدية كان يمثل فرصة جديدة لتعبير العناصر الساخطة على الأوضاع من مختلف المستويات الاجتماعية داخل الولوف عن سخطهم. ولم تتبع القطاعات الاجتماعية الدنيا وحدها الفرقة المريدية لتجد مراكز جديدة، فبالإضافة إلى ذلك، انضمت بعض أفراد مجموعات النبلاء السابقين إلى هذه الفرقة ليعززوا من سلطاتهم ونفوذهم اللذين همشهما الفرنسيون.[٢]

إن السبب **الثالث**، وربما الأكثر أهمية فيما يختص بالانجذاب الولوفي القوي نحو الفرق الدينية الإسلامية، هو قيام هذه التنظيمات بدور البدائل أو التعزيزات للنظام التقليدي المنهار. فقد تأثر النظام الاجتماعي الولوفي بعمق بوصول المستعمرين، إذ كان للولوف نظام دولة متطور جداً، ونظامٌ اجتماعيّ متصلٌ بعقائدهم الدينية وعاداتهم وتقاليدهم. فحطم مجيء الفرنسيين نمط الحياة الولوفية، وأجبروهم على البحث عن وسائل وطرق أخرى لتبديل أو تعزيز طرق حياتهم القديمة. وأدخل الفرنسيون عناصر جديدة على نمط الحياة،

---

(١) Ibid.

(٢) Ibid, p. 205.

مما أدى إلى التحدي والتقليل من شأن القيم والعادات القديمة. ووقع الاضطراب في كل أنظمة الولوف الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية إثر تحطم قوة الحكام الولوف.[١]

ونتيجة لهذه العوامل والأسباب وغيرها، أصبح الولوف لا يشعرون بالأمان، ومن ثم أخذوا بالبحث عنه لدى الفرق الدينية في هذه الفترة، لأن هذه الفرق أعطت البدائل عن النظام الولوفي المنهار، وذلك لما يتمتع به قادتها من ذكاء ومقدرة. فقد تمكنوا من تنظيم حياة أتباعهم[٢]، وبذلك منحوهم الأمان المنشود، وطبعوهم على نمط حياتي جديد في العمل. وكان لشخصية بامبا القوية أثرها في تحقيق الترابط والقوة المطلوبة بين الأتباع؛ فقد اشتهر بالذكاء وقوة الحجة وحيوية التحرك وسط مجتمعه لنشر الفكر الإسلامي الصحيح، والحفز على العمل الجاد والتعلم[٣]. ونسبت إليه عدة كرامات، رفعت من مكانته بين العوام[٤]. وهذه الظاهرة سائدة وسط كل زعماء الفرق الدينية بإفريقية، وهي دعاوى باطلة.

وأنشأ بامبا ما يعرف بالدارات daras، أي المراكز التعليمية، حيث يدرس أتباعه فيها قراءة وتلاوة القرآن الكريم وبعض مباحث الشريعة الإسلامية ومبادئ اللغة العربية.[٥]

رأى الفرنسيون في نشاطه والتفاف الناس حوله وأثره في أتباعه خطراً

---

(١) Ibid., p. 203, p. 205.

(٢) Lucy, E. Greevy: Ahmad Bamba, op. cit., pp. 283-5.

(٣) Clarke, op. cit., pp. 203-4.

(٤) Behram, Lucy: Muslim Brotherhoods, op. cit, p. 17.

(٥) Clarke, op. cit., p . 205.

على وجودهم في المستقبل إذا سارت الأمور على هذا المنوال. وزادت الإشاعات من شكوكهم حوله، ولذا سلطوا الجـواسيس والخصوم القدامى لمراقبـة تحركاته لمعرفة نواياه الحقـيقية تجاه الفرنسيين. وعلى الرغم من أنهم لم يثـبتوا عليه أي عمل مضـاد لهم إلا أنهم تحايلوا على نفيه مرتين إلى خـارج المنطقة. نفوه في المرة الأولى إلى الجـابون عام ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م، ثم أعـادوه سنة ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م، ونفوه في المرة الـثانية إلى مـوريتانيـا، عام ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م، ثم سمحوا له بالعودة إلى بلاده عام ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م. وكانت محاولات نفيه سبباً في ازدياد أتباعه، وليس تقليصاً لأعدادهم، كما كان يريد ويظن المستعمر.[١]

وأخذت الإدارة الفرنسية في تجربة شتى أنواع وأساليب المضايقات للشيخ أحمد بامـبا حتى لا يزداد حجم جـماعته ويقوى أثـره ويهدد وجودهم. ومن تلك المضايقات الأخرى ـ إضافة إلى النفي ـ عـدم السماح له بالعودة إلى قريته طيبة إثر عودته الثانية من المنفى، ولذا أقام في بلدة لوقا Louga بأقصى الشمال السنغالي. وعندما أنشـأ هنا مدرسة إسلاميـة، أغلقتها السلطات الفرنسـية عام ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م، خوفـاً على أنفسهم من آثارها المـستقبلـية، ولشكهم في نواياه تجاههم. وأخيراً سمحوا له بالإقامة في بلدة ديوربل Diourbel بإقليم باول عام ١٣٣١هــ/ ١٩١٢م. وأخذت السلطات الفـرنسيـة منذ هذا الوقت تغـير سياستها نسبياً تجاهه، مما جعل فرقته تتمدد بسرعة أكبر عبر جميع البلاد السنغالية. ويرجع سبب هذا التحول النسبي في هذه السياسة الجديدة إلى رؤيتهم بأن هذه الفرقـة يمكن أن تؤدي دوراً سيـاسيـاً واقتصـادياً إيجابيـاً هاماً بالنيـابة عنهم. فانطلاقاً من سياسة الامتصاص التي اتبعـها الفرنسيون، كانوا بحاجة ماسة إلى زعمـاء أقوياء وأصحاب مكانـة عالية في قومـهم ليقومـوا بدور معين في نظام

---

(١) Ibid.

حكمهم اللامركزي. ووقع أحمد بامبا وفـرقته في فلك هذه السياسة. وإضافة إلى هذا أصبح من الواضح أن الدارات أو المزارع الجماعية التابعة للفرقة المريدية أدوات ذات قيمة كبيرة للتوسع في رقعة الاقتصاد المعتمد على زراعة الفول السوداني. فقد قطعت هذه الفـرقة شوطاً بعيداً في اعـتماد أفرادها على أنفسهم اقـتصادياً عندما نشطوا جـداً في زراعة الفول السوداني. وأدى هذا النشـاط مع غيره من أنشطتهم إلى الإسهام في تحطيم النظام الأسري الولوفي التقليدي القديم، واقنع الإدارة الفرنسية بأهمية هذه الفرقة في تطوير البلاد اقتصادياً لمصلحتهم.

وردت تقـارير إلى الإدارة الفـرنسـيـة بداكـار، بحلول عـام ١٣٣١هـ/ ١٩١٢م، من قبل موظفي هذه الإدارة، الذين كانوا في السـابق معادين للشيخ أحمـد بامبا، تفيـد بأن الشيخ قد بدأ في تبني سـياسة إبداء حـسن النوايا تجاه الإدارة الفرنسية، وذلك عندما ساعـد في تجنيد قوات عسكرية محاربة من أهل البلاد للوقوف مع الفرنسيين في الحرب العالمية الأولى. وبناء على هذه المساعدة وغيرها من المساعدات الأخرى، عين الشيخ أحمد بامبا مستشاراً للجنة الشؤون الإسلامية عام ١٣٣٥هـ/ ١٩١٦م، ومنح عام ١٣٣٥هـ/ ١٩١٦م لقباً شرفياً، وهو لقب "نبـيل" أو "فارس" في الجـيش الفرنسي، اعـترافـاً بمساهمـته في الحرب العالمية الأولى. وقدمت له ميدالية ذهبية في هيئة صليب، ولكنه رفضها بحجة أنها رمز نصراني لا يليق بشيخ مسلم. ولم تكن هذه المساعدة العسكرية للفرنسـيين دلالة على أنه أصبح مـوالياً لهم، وهم يعـرفون هذا تمامـاً، وكتب إداريوهم في هذا عدة تقارير.

لم يكن في نية أحـمد بامبا استـخدام العنف لإزالة النظام الاستـعماري الفرنسي، لأنه يرى أنـهم أقوياء، ولذا اتبع سيـاسة سلميـة معهم، ومـحاولاً تجنيب قومه مؤثراتهم السلبية الإفسادية.

وظلت المريدية في تمددها ونموها بعـد وفاة مؤسـسها الـشيخ بامبـا عام ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م. وعندما نالت البـلاد السنغالية استقـلالها عام ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م، كـان عدد أفـرادها نحو نصف المليـون.[١] وتقـول إحصـائية عـام ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م أن عدد أتباعها بلغ ٤٢٣٫٢٧٣ فرداً. وهي ثاني أكبر الفرق أتباعاً بغربـي إفريقية ـ أي الثانية بعـد التجانية.[٢] وتعتبر أكـثر الفرق الدينية نشاطاً وقـوة وأثراً بالسنغال، ولـها أتباع منتـشرون في كـثير من بـلدان غربي إفريقية غير السنغال.

إن سلسلة رجال الإصلاح والدعـوة والجهاد بغربي إفـريقية لا تقف عند هذه الكوكبة التي ذكرناها، بل تتعداهم إلى غيـرهم، مثل حركة الشيخ محمد الجـيلاني (١١٩١-١٢٥٦هــ/ ١٧٧٧-١٨٤٠م) الطوارقي ببـلاد الهوسـا[٣]، والشيخ أحـمد ولوبو بماسـينا (١٢٣٤-١٢٧٩هـ/ ١٨١٨-١٨٦٢م)[٤]، وألفا مولو الفولاني بفامبيا عند نهاية القرن التاسع عشر[٥]، والشيخ حياتو بن سعيد بادماوا ببلاد الهوسا (١٢٩٦-١٣١٦هـ/ ١٨٧٨- ١٨٩٨م)[٦]، وجبريل جايني في جومبي ببلاد الهوسا (١٣٠٣-١٣٢٠هـ/ ١٨٨٥-١٩٠٢م)[٧]، وساموري التوري بسنغامـبيا في العقد الأول من القرن ١٤هـ/ ثمـانينيات القرن ١٩م[٨]، وغير هؤلاء ممن تركنا الإشارة إليهم على سبيل الاختصار.

---

(١) Ibid., p. 203.

(٢) Greevy, Lucy E.: Ahmad Bamba, op. cit., p. 278.

(٣) Clarke, op. cit., pp. 123-28.

(٤) Ibid., pp. 128-31.

(٥) Ibid., pp. 142-43.

(٦) Ibid., pp. 120-21. – وهو حفيد الشيخ عثمان بن فودي.

(٧) Ibid., pp. 121-22.

(٨) Ibid., pp. 137-40.



المبحث السادس

الأثر الحضاري الإسلامي للحركات الإصلاحية الإسلامية

على الرغم من سرعة اختفاء بعض هذه الحركات والسلطنات الإسلامية الجهادية الإصلاحية التي أنشأها الشيوخ العلماء المجاهدون في القرن (١٣هـ/ ١٩م) بغربي إفريقية، إلا أن هذا الجهاد قد ترك أثراً كبيراً في حياة شعوب هذه المنطقة. فمن الناحية السياسية أدخل قطاعات معتبرة تحت سلطان دول مترامية الأطراف، تذكر بأمجاد دولة غانة ومالي وسنغي الإسلامية. فجهاد الشيخ عثمان بن فودي تمخض عن قيام دولة مساحتها نحو ١٨٠ر٠٠٠ ميل مربع، وتمخض جهاد الشيخ حمد بماسينا عن قيام دولة مساحتها نحو ٥٦ر٠٠٠ ميل مربع، بينما تمخض جهاد الحاج عمر الفوتي عن قيام دولة مساحتها ١٥٠ر٠٠٠ ميل مربع، وإلى حد كبير، وفي إطار هذه الدول، أو على الأقل في إطار دولتي الشيخ عثمان بن فودي والشيخ حمد، فإن ذلك يعني استعادة استتباب الأمن والنظام ووجود الحكومة الفعالة على منطقة واسعة، مما أدى بدوره إلى اتساع نطاق التجارة المنظمة.

وكانت سلطنة ماسينا أكثر هذه الدول تنظيماً. أما سلطنة سوكوتو، فعلى الرغم من قيامها على «كونفدرالية» رخوة، ذات استقلال ذاتي، تدين فيه بالولاء لسلطة سوكوتو، فقد استطاعت أيضا أن تحقق قدراً من سيادة القانون والنظام. وقد أعجب المكتشفون والرحالة الأوروبيون الذين دخلوا هذه الدولة بالأمان الذي سادها. ويختلف الأمر بالنسبة لدولة الحاج عمر الفوتي، إذ توفي قبل أن يرسي دعائم نظام إداري متين، ولم يكن لابنه الذي خلفه في الحكم

كفاءة لسد الفراغ، وأدى هذا الوضع إلى فتن داخلية وإخلال بالأمن، مما مهد الطريق لتدخل الاحتلال الأجنبي الفرنسي.

ومن الناحية الدينية، أدى هذا الجهاد إلى اعتناق كثيف للإسلام من قبل الوثنيين، بينما قوى من جهة أخرى إسلام المسلمين أصلاً. ففي شمالي نيجيريا ـ مثلاً ـ فإن مناطق مثل بوشي وأدماوا دخلت لأول مرة في منطقة النفوذ الإسلامي. وفي أقصى الغرب أدّت حروب وحكم الشيخ حمد في ماسينا إلى اعتناق كثيف وراسخ للإسلام.

أما في دولة الحاج عمر الفوتي فإن الأمر قد اختلف بدرجة معينة، حيث إنه، على الرغم من تحقيق الدخول في الإسلام بشكل مكثف، رجع الناس ـ خاصة البمبارا ـ إلى ممارستهم بعض التقاليد الوثنية إثر وفاة الشيخ عمر وسقوط الدولة بعد ذلك بقليل، وذلك لأن كثيراً من الناس قد دخلوا في الإسلام رهبة لا رغبة.

ومما يعد جانباً سلبياً في حركة الحاج عمر الفوتي في ميدان الدعوة الإسلامية هو أن الحاج عمر لم يفرق بين الوثنيين والمسلمين الذين لا ينتمون إلى الطريقة التجانية، فإن تعصبه لطريقته التجانية أكسبه عداء كثير من المسلمين، خاصة عداء أولئك الذين ينتمون إلى الطريقة القادرية، وهذا مما يفسر لنا سبب عدم مناصرتهم له، وتعاطفهم مع الفرنسيين. وحتى دولتا سوكوتو وبورنو ظلتا في حالة عداء، واستحال التعاون بينهما حتى للوقوف في وجه الاستعمار الغربي الزاحف على البلاد.

ومن الناحية الاجتماعية، كانت هذه الحركات ذات طابع ثوري، وتمكنت من إسقاط الأنظمة الأرستقراطية، ليحل محلها مجموعات جديدة كانت ضمن المجموعات ذات الحقوق المهضومة في المجتمع. ومثال ذلك أن الشعب

الفولاني بصفة خاصة، والذي كان من ضـحايا الظلم الاجتماعي خلال القرون السابقة لجهادهم، أصبحوا أرستقراطية المستقبل.

ومن الناحية الثقـافية، أسهمت، هذه الحركـات الجهادية في إحداث ثورة ثقافيـة كبرى. ومن جوانب هذه الثورة مـا قام به زعماء الجهـاد الفولاني ببلاد الهوسا من كتابات لتبرير جـهادهم ضد أعدائهم المسلمين وغير المسلمين. وكان للشيخ عثمـان بن فودي وابنه محمد بلّو وأخيه عـبدالله بن فودي القدح المعلى في هذا الجانب، وكذلك الشيخ عمر الفوتي، ولكن كان إسهامه أقل من إسهام آل فودي.



المبحث السابع



مواقفهم في المحن

لم تخل صفحات التاريخ من تسجيل دور ملحوظ للعلماء في مجريات الأحداث القاسية التي اجتاحت بلادهم على فترات مختلفة من التاريخ. وماداموا هم الطبقة المستنيرة فليس من الغريب أن يكونوا هدفا تتكاثر عليه الأرزاء، وتتكسر عليه النصال على النصال في كل محنة.

ولم يكن العلماء يحصرون أنفسهم بين الدواة والقلم، بل شاركوا الشعب فيما يحس من حلو ومر، ودافعوا عن حقوقه التي كان أبسطها أن يجنبوه مواطن القهر والظلم.

ومن أشهر مواقفهم السياسية الجماعية تكتلهم مع آسكيا محمد إثر وفاة سني علي، الذي سمعنا رأيهم فيه على الصفحات السابقة. لقد حالوا دون تولية ابن سني علي السلطة مكان أبيه، فانتصر عليه آسكيا محمد، واجتيزت المحنة وأوقفت الفتنة، وسارت السفينة إلى بر الأمان، وتربع على عرش سنغي أعظم سلاطينها على الاطلاق. وخلاصة الأمر أنه عندما احتدم النزاع بين آسكيا محمد وأبي بكر بن سني علي أرسل العالم محمد تل الشريف إلى سني أبي بكر يدعوه إلى الإسلام، وهو يومئذ ببلدة تسمى «أنفع»، ولكنه أبى وأغلظ القول للعالم الرسول وهمّ بقتله لولا تدارك العناية الإلهية[1]. وبعد ذلك أرسل آسكيا محمد العالم صالح جور إلى غريمه، فلم يزده ذلك إلا عتوا ونفورا[2]. وفي المرة الثالثة جمع آسكيا محمد أهل مشورته وعلى رأسهم

---

(١) الفتاش، ص٥٣.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٤.

العلماء وشاورهم فيما يفعل، فكان الرأي أن يرسل إليه مرة ثالثة، وامتثل آسكيا محمد للأمر وأرسل أحد العلماء للمرة الثالثة؛ وكانت النتيجة أن شمخ عدوه بأنفه وطلب حسم الأمر بالمنازعة في ساحة الوغى، وأن تكون الدائرة على من يهزم. وتم له ما أراد، وطاشت سهامه وكانت الدائرة على ابن سني علي.(١)

وكان العلماء يفتون في أمر الجهاد ضد المعتدين وخاصة الاعتداء من قبل القبائل الوثنية. ولم يكتفوا بالإفتاء، بل كانوا يخرجون مع الجيش لنيل شرف الجهاد. وخير مثال لذلك أنه عندما كثرت غارات قبائل موسي وأراد آسكيا الحاج محمد ملاقاتهم، وكان معه الفقيه مور صالح جور، نصح هذا العالم السلطان آسكيا محمد بأن يجعل هذه الحرب جهادا في سبيل الله، فلم يخالف آسكيا الرأي لا سيما بعد أن بين له الفقيه مور صالح كل أحكام الجهاد الإسلامي. وفي ضوء هذه الفتوى والتوضيح طلب آسكيا محمد من الفقيه المذكور أن يكون رسولا بينه وبين سلطان موسي، فقبل التكليف وأدى المهمة على أكمل وجه.(٢)

أما خير مثال للعلماء الذين ماتوا في المعارك الحربية والجهادية، فالفقيه أبومحمد عبدالله بن السيد الإمام أبي محمد عبدالجليل بن عمر البرناوي. لقد مات هذا العالم في موقعة حربية وقعت بين الطوارق وأهل مدينة كنبر من بلاد غربي إفريقية سنة ١٠٨٨هـ/ ١٦٧٧م(٣). ويقول ابن الطيب(٤) عن هذا الفقيه: «هو البحر المحيط في العلوم التوحيدية والفهوم الكلامية». ويفهم من

---

(١) المصدر نفسه، ص ص٥٤ـ٥٥.

(٢) تاريخ السودان، ص٧٢.

(٣) نشر المثاني، جـ٢، مصدر سبق ذكره، ص٢٧.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٦.

هذا النص أن الشيخ عبدالله لم يكن بالرجل الهين، بل كان من أهل الحزم والعزم الذين لا يهابون مواجهة أتون الحرب والحتوف، فكان بحق رب السيف والقلم.

وهناك أمثلة أخرى تدل على خطورة العلماء، أوضحها موقفهم من الاحتلال المراكشي لدولة سنغي. فعندما قدم القائد المراكشي إلى تنبكت، هادن العلماء في البداية حتى بايعوا السلطان المراكشي، ولكن عاد القائد المراكشي للمرة الثانية في سنة ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٤م وادعى طلب تجديد البيعة للسلطان في مسجد سنكري. وعندما احتشدت الجموع، سكرت الأبواب، ووقف الرماة عليها وامتطوا سطح المسجد، ووضحت النية وانكشف الغطاء عن مخطط رهيب أعدته السلطات المراكشية لاعتقال الصفوة من العلماء الذين يخشى بأسهم وأثرهم. ونفذت خطة الاعتقال وسبق أفراد أسرة أقيت العلمية وبعض الجماعات الأخرى أسارى إلى مراكش، ولم يترك حتى النساء والأطفال[١]، ومات منهم من مات في هذه المحنة في الطريق إلى المغرب[٢]. ويقول ابن المختار[٣] في هذا الحادث الأليم: «فكان من أمر الله ماكان مما لاينبغي ذكره ولا يحتمل القلب جلب ماكان هناك وسرد أقاصيص قبض القاضي عمر وإخوته، فإنا لله وإنا إليه راجعون».

لقد كان ما وقع تصفية مقصودة لجيوب المعارضة السياسية ذات الثقل في المجتمع التنبكتي خاصة ومجتمع سنغي عامة. وكانت تضحيتهم أعظم لعظم دورهم في التوجيه الديني والسياسي. وعانت تنبكت من جراء هذا معاناة شديدة إلى الحد الذي جعل صاحب الفتاش[٤] يبالغ في وصفها بعد رحيلهم

(١) تاريخ الفتاش، ص١٧٣.

(٢) المصدر نفسه، ص١٧٤.

(٣) المصدر نفسه، ص١٧٥.

(٤) المصدر نفسه، ص١٧٦.

عنها، فـيقول: «ولما أجلاهم القـوم وارتحلوا صارت تنبكت جســما بلا روح، وانعكست أمورها وتغير حالها وتبـدلت عوائدها ورجع أسفلها أعلاها وأعلاها أسفلهـا، وساد أراذلها على عظمائهـا، وباعوا الدين بالدنيا واشتـروا الضلالة بالهدى، وعطلت أحكام الشريعة وأميتت السنة وأحييت البدع وما بقي فيها من يتمسك بالسنة ولا من يسـير على منهج التقوى في ذلك الوقت سوى مـحمد بغـيغ بن أحـمد وحـده. .» ولكن لم تدم هذه المرارة وهذا التـشـاؤم عند ابن المختار إذ نلاحظ أنه يقول في نهاية كتابه: «وغرائب تنبكت وعجائبها يومئذ لا تدخل تحت حصر ولا يحـيط بها حفظ حافظ، ثم جبر الله كسـر تنبكت وكثر قراؤها وأدباؤها من كوكي إلى جن، وجمع شملها وأقـامها أتم قيام، وعمرها وأفاض الله البركة في برها وبحرها في أوائل دولة جـيش مولانا أحمد، وأكثر الخير فيها حتى كاد الناس ينسون دولة سنغي». (١)

ولم يختلف دور العلماء في كانو عمـا كان عليه في مالي وسنغي؛ فقد كانوا هم الذين يقـومون بإبرام اتفاقـيات الصلح بين دولتـهم والدولة المحاربة، كما حدث ـ مثلاً ـ في عهد السلطان شيكارو (١٠٥٩ ـ ١٠٦١هـ/ ١٦٤٩ ـ ١٦٥١م) عندما أمضى اتفـاقية الصلح مع كاتسينا ثلاثـة من العلماء هم الشيخ عثمان والمعلم باوا والإمام ياندويا. (٢)

---

(١) المصدر نفسه، ص١٨١.

(٢) K. C. P. 86.

المبحث الثامن



وسائل كسب العيش

لم يكن هناك مبدأ ثابت حول أجور العلماء الذين يقومون بالتدريس، وظل الخلاف قائماً بين العلماء حول أجر المعلم. وقد عالج الدكتور شلبي[1] هذا الموضوع بإسهاب. وعامة، فقد كان هناك من يقوم بالتدريس لوجه الله، ومنهم من يتقاضى أجرا من التلاميذ والطلاب، أو يعتمد على الهبات التي تصل إليه من الحكام.

وقد كان الحال هكذا في غربي إفريقية. إذ كان الكثير من العلماء يعملون لوجه الله، إلا أن العادة قد جرت بأن يتلقى بعض المدرسين المحتاجين جرايات وإعانات من تبرعات الأوقاف أو من الطلاب.[2]

ويذكر ابن المختار[3] أن معلم الصبيان، «علي تكريا»، كان يتلقى من تلاميذه جُعلا منتظما كل يوم أربعاء في كُتَّابِه بعد صلاة الظهر. وتتفاوت قيمة هذا الجعل من تلميذ إلى آخر، فمنهم من يدفع خمس ودعات[4]، ومنهم من يدفع عشرا. ويسمى هذا الجعل عند أهل سنغي بـ«الأربعاء»[5]. وحصل هذا المعلم في يوم من الأيام الأربعاء على خمسة وعشرين وسبعمئة وألف ودعة من تلاميذه.[6]

ويمنح المعلم في بلاد الهوسا أيضاً هدية معينة بما يتناسب ومقدرة كل

(١) التربية الإسلامية، مرجع سبق ذكره، ص ص٢٣٣ـ٢٣٧.

(٢) قداح، ص١٤٢.

(٣) تاريخ الفتاش، ص١٨٠.

(٤) مفردها ودعة، وهي العملة المستعملة في غربي إفريقية في ذلك الوقت.

(٥) في الأصل «الأربع» ولعلها كتبت بالعامية أو لخطأ من الناسخ. ولا نستبعد أنها كتبت بالعامية التي تسربت إلى هذا المصدر وغيره من مصادر حضارة غربي إفريقية الإسلامية.

(٦) تاريخ الفتاش، ص ١٨٠.

ولي أمر تلميذ. فلـربما يكون مبلغا من المال عند نهاية كل فترة دراسـية معينة، أو شيئاً من الماشية[١]. وعموما فهي هدايا طوعية وليست إلزامية.[٢]

كان المعلمون يتلقون، بجانب ما يجـود به آباء التلاميذ، ما يعينهم على الحياة من الحكام. وكان من الحكام من يعطي أعطيات سـخية للعلماء. ويحفظ لنا ابن المختار بعض الروايات المتعلقة بهذا الجانب. ومن ذلك أن أحد سلاطين سنغي منح أحد الشيوخ العلماء مزرعة أرز ليعيش من ريعها[٣]. واشتهر آسكيا الحاج محمـد بسخائه للعلماء، فبذل لهم الأعطيـات النقدية والعينية.[٤] وعم كرمـه حتى أهل الحـرمين بالحجاز، فـأقام في الحرمين الأحـباس للمـجاورين وطلاب العلم.[٥]

واشتهر بهـذه الخصلة في العطاء من بعد آسكيا محـمد، السلطان آسكيا داود، الذي كـادت هداياه تشمل حـتى بذل الكتب من مكتـبتـه العامـرة[٦]. وحكي عنه أنه أهدى ذات عام حصاد إحدى مزارعـه البعيدة عن العاصمة إلى علماء وطلاب المكان الذي كانت فـيه المزرعة[٧]. وأهدى إلى الفقـيه محـمود كعت ما يمكـنه من تجهيز بناته الأربع وأولاده الخـمسة، واشترى له نـسخة من كتاب القاموس بثمانين مثقالا[٨] من الذهب، وقام بكسوة بعض تلاميذه.[٩]

---

(١) Meek, The N. T. N., op. cit., p.9.

(٢) Ibid, p. 5.

(٣) الفتاش، ص١٣٠.

(٤) المصدر نفسه، ص٥٩.

(٥) المصدر نفسه، ص٦٨.

(٦) المصدر نفسه، ص٩٤.

(٧) المصدر نفسه، ص٩٥.

(٨) مثقال الذهب يساوي ستة غرامات.

(٩) المصدر السابق، ص ص١٠٨ـ١٠٩.

واشتهر بالسخاء للعلماء من بعد آسكيا داود، السلطان آسكيا إسحاق، حتى قال عنه صاحب الفتاش[١]: «بلغ غاية في التصدق والعطاء، وكان محبا للعلماء..».

وقد درج الحكام الإقليميون في دولة سنغي على بذل العطاء للعلماء الذين يحتكون بهم في مناطقهم، وكانت المناسبات القومية والدينية فرصة كبرى لأن يحصل فيها العلماء على مكاسب مادية تعينهم على الحياة.[٢]

ووجد مثل هذا السخاء تجاه العلماء في بلاد الهوسا أيضا،[٣] وفي بلاد البرنو كما رأينا.

أما غير هذا، فقد كان بعض العلماء يجمع بين التجارة وممارسة التعليم[٤]. والمثال لذلك الفقيه يحيى التادلسي[٥]. وقد تعرضنا لهذا النوع من الجمع في الفصل الأول من هذه الدراسة.

---

(١) المصدر نفسه، ص١٤٣.

(٢) المصدر نفسه، ص١٨٠.

(٣) See, M. A. Al-Hajj, op. cit., p. 11, 4; Hunwich, Sounce Materials, op. cit., pp. 584-585.

(٤) Meek, N. T. N., op. cit. p. 8.

(٥) تاريخ السودان، ص٥٠.



المبحث التاسع



برنامج الدراسة اليومي

كانت الدروس تستمر في معاهد غربي إفريقية النهار كله لا تنقطع إلا وقت أداء الصلاة[1]. وكان بعض الأساتذة يدرسون في الليل على نور الحطب المشتعل الذي يتبرع به الطلاب[2]. وقد أعطانا السعدي نموذجا حيا لبرنامج تدريس يومي لعالم من علماء تنبكت، وهو الفقيه محمد بغيغ، وقال نقلا عن أحمد بابا التنبكتي مانصه: «فأدركته أنا ـ أحمد بابا ـ يقرئ من صلاة الصبح أول وقته إلى الضحى الكبيرة دولا مختلفة، ثم يقوم لبيته ويصلي الضحى مدة، وربما مشى للقاضي في أمر الناس بعدها، أو يصلح بين الناس، ثم يقرئ في بيته وقت الزوال ويصلي الظهر بالناس ويدرس إلى العصر، ثم يصليها ويخرج لموضع آخر يدرس للاصفرار أو قربه، وبعد المغرب يدرس في الجامع إلى العشاء ويرجع لبيته، وسمعت أنه يجيء آخر الليل على الدوام».[3]

ويبدوا أن أسلوب الدراسة هو الذي يجعل العالم يكابد مثل هذه المشقة؛ فقد درج العلماء في ذلك الزمان على ألا يُلزموا الطلاب الاشتراكَ جميعهم في درس واحد من فن من الفنون، بل ترى العالم يدرس عشرة من التلاميذ الألفية، فبعضهم يقرأ من أولها وبعضهم يقرأ من وسطها والبعض الآخر يقرأ من آخرها؛ ويلقي العالم لكل واحد منهم درسه من موضعه الذي هو فيه. وهكذا في بقية الفنون.[4]

---

(١) المصدر نفسه، ص٤٤.

(٢) قداح، ص١٤٢.

(٣) تاريخ السودان، ص٤٥.

(٤) انظر: الوسيط، مصدر سبق ذكره، ص٤٩١.

المبحث العاشر

أساليب التدريس

استمد العلماء أكثر أساليب التدريس من طرق تلقي الحديث النبوي الشريف ـ الرواية ـ وهي الطريقة السائدة في العالم الإسلامي في ذلك الوقت. وأهم هذه الأساليب:

١ ـ **أسلوب التلقين**: كان يتبع هذا الأسلوب مع المبتدئين من التلاميذ. يقوم المعلم هنا بتكرار الدرس على تلاميذه إلى أن يتأكد من حفظهم. ويكون الدرس بالنسبة للمبتدئين في حفظ القرآن الكريم عادة[١]. ومازال هذا الأسلوب متبعا عندنا في السودان العربي النيلي. وقد علمت أنه أسلوب عام في كل البلاد الإسلامية حتى اليوم.

٢ ـ **أسلوب الكتابة**: يكاد يكون هذا الأسلوب متوازيا مع أسلوب التلقين. فهو الطريقة الثانية من طرائق حفظ القرآن. ووضعه أن يكتب التلميذ القدر المقرر من القرآن على اللوح نقلا من مصحف أو جزء أو إملاءات من المدرس أو العريف. وقد شاع هذا الأسلوب في كل بلدان العالم الإسلامي.[٢]

٣ ـ **أسلوب العرض**: وهذا هو الأسلوب في تلقي الحديث، ويسمى: «القراءة على الشيخ» وصورته أن يقرأ الطالب على الشيخ من حفظه أو من كتاب، ويتابعه الشيخ معتمدا على حفظه أو مقابلا على أصل الكتاب الذي يقرأ الطالب منه[٣]. وتلي هذه المرحلة مرحلة الحفظ مباشرة.[٤]

---

(١) انظر: رحلة ابن جبير، مصدر سبق ذكره، ص٢٦١.

(٢) انظر: د. عبدالعزيز أمين، مرجع سبق ذكره، ص١٧٠.

(٣) انظر: د. سليمان عطية: تاريخ التعليم في فلسطين في عهد سلاطين المماليك، رسالة دكتوراه غير منشورة، آداب القاهرة، ١٩٥٧م، ص٢٧٩.

(٤) المكان نفسه.

٤ ـ **أسلوب الشرح** : وهو قراءة الطالب على الشـيخ نصا من كتاب، فـيقوم الشيخ بشرح النص والتعليق عليـه بما لديه من معلومات حول الموضوع من شروح أخرى، وأحيانا يقرأ الشيخ النص المكتوب ويقوم بشرحه لتلاميذه.

٥ ـ **أسلوب الإملاء** : وهو مستمد من طريقة السماع عند رواة الحديث، وكثر أتباعـه، خاصـة في دروس الحديث النبـوي الشريف؛ فيـدون الطالب في كراسته ما يمليه عليه الشيخ، ويحق له أن يروي ما يدونه عن شيخه، وربما أعطي إجازة علمـية بجواز الرواية[١] ويوجد أيضـاً ما يشـبه الإملاء غـير المباشر، ومثلما يحدث اليوم في قـاعات المحاضرات بالجامعات، بأن يتكلم المحاضر فـيدون الطالب بطريقتـه الخاصة الفكرة التي تصدر عـن الأستاذ. وقيد طلاب محـمد أقيت بهذا الأسلوب ملاحظاته وأخرجـوها في سفرين ذاع صيتهما في البلاد.[٢]

٦ ـ **أسلوب المراسلة** : وهو في الأصل من أساليب رواية الحديث، ووصفه أن يكتب الشيخ بعض كلامه لمن حضر عنده أو لمن غاب عنه ويرسله إليه[٣]، غـيـر أن المدرسين تصـرفـوا في هذا الأسلوب حـتى أصـبح من أسـاليب التـدريس الناجحـة، فمن ذلك أن يرسل الطالب إلى أسـتاذه البـعيـد عنه يستفتيه فيما أشكل عليه من مسائل العلم والأدب، فيجيبه عنها خطيا. وقد رأينا نموذجا لهذا الأسـلوب التعليمي عند أحمد بابا، عـندما راسل الشيخ يحيى بن محمد بن محـمد بن عبدالرحمن الحطاب المكي[٤]، المتوفى بعد سنة ٩٩٣هـ/ ١٥٨٤م، وعبدالواحـد بن محمد الشريف الحسيني الفلالي

---

(١) انظر: نيل الابتهاج، ص٨٢، ١٨٢، عطية، المصدر نفسه.

(٢) نيل الابتهاج، ورقة ٣٢٣.

(٣) عطية، مرجع سبق ذكره، ص٢٧٩.

(٤) نيل الابتهاج، ورقة ٣٣٩.

المراكشي، المتـوفى سنة ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٥م.[1] وقد مارس هذا الأسلوب كثيرون غير أحمد بابا، نذكـر منهم على سبيل المثال لا الحصر: أبا عبدالله محمد بابا بن مـحمد الأمين ابن حبيب الذي راسل الفقيـه محمد الونكري وأفاد من هذه المراسلة.[2]

(١) المصدر نفسه، ورقة ١٤١.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٢٣.

المبحث الحادي عشر



الإجازة العلمية

كان نظام العنعنة ضروريا ومتبعا في رواية الحديث، ومازال كذلك، ولم يكن المدرس يجرؤ على رواية الأحاديث دون سند، وللدقة في ذلك كان المحدثون منذ عهد مبكر يعطون طلابهم والذين يتلقون عنهم شهادة بما رووا لهم من أحاديث، ويجوّزون لهم روايتها عنهم[1]. ثم انتقل هذا من الحديث إلى سواه من العلوم الأخرى. فإذا ثابر الطالب على الاستماع لأمالي الشيخ في الأدب أو التاريخ أو غيرهما، أو لشرح يقوم به المدرس لكتاب ما، وتأكد المدرس من استفادة الطالب، كتب له شهادة على الورقة الأولى أو الأخيرة من الكتاب يقول فيها مثلا: «أتم فلان قراءة هذا الكتاب. . . وأجزت له تدريسه. . » ويعين الكتاب المدروس اتجاه ثقافة الطالب إن فقهاً أو أدباً أو غيرهما، ويعين إلى حد كبير درجة هذه الثقافة، إذ تتفاوت الكتب من حيث العمق والتفاصيل تفاوتا يجعل من اليسير أن تعرف درجة الثقافة من معرفة عنوان الكتاب أو عناوين الكتب التي قرأها الطالب ونال عليها شهادات. ويمكن أن يحصل الطالب على إجازة في موضوع ما في حين يظل طالبا بالنسبة لموضوع آخر.[2]

وكانت هذه الإجازة في كثير من الوجوه بمنزلة نتيجة الامتحان الذي يمنح بموجبه الطالب شهادة تدل على مستواه العلمي دون تأدية امتحان معين، ووثيقة تمكن الطالب من استخدام كتب أستاذه التي درسها معه، وكذلك المحاضرات التي أخذها عنه.[3]

---

(١) د. شلبي، التربية، ص٢٦٣.

(٢) المكان نفسه.

(٣) وانظر: أسماء فهمي، مرجع سبق ذكره، ١٢٧.

وكان الغرض من الإجازة مزدوجا، فهي اعتراف بحقوق المؤلف، وإقرار بكفاءة الطالب[1]. وهي لا تحمل عنوان معهد معين، وإنما شـهادة شخصية من الأستاذ لتلمـيذه، مما يبين مركز الأستـاذ في ذلك العهد[2]، وعلى أنه كان في شخصه معهدا علمياً متحركا.

والإجازة نوعان: كتابيه وشفهية[3]. وهي ثلاثة ضروب[4]:

١ ـ **أن يقول الراوي للطالب**: خذ هذا الجزء فـإنه من حديثي، وأنا عالم بما فيـه من العلم، فحـدث به عني، أو استنسـخه وقابله وحـدث به عني، ويسمى هذا الضرب «مناولة». وهو أعلى مراتب الإجازة.

٢ ـ **أن يكتب الراوي للطالب** : إني فـلان بن فلان. إني قـد أجزت لك مـا سمعه مني فلان أو ما تضمنه الجزء الفلاني، وهو شبيه بالمناولة.

٣ ـ **أن يقول الراوي** : إني قد أجـزت لك بجميع مـا صح عندك ويصح من حديثي. . وهذا أخفض مرتبة من الذي كتب إجازته بشيء مسمى.[5]

ويجوز أن تكون الإجازة مقرونة بين عدة طلاب، والغالب في صيغتها: أجزت فلانا وفلانا كذا وكذا. . ».[6]

ولا تكاد تخلو حيـاة عالم مـرموق من علماء غـربي إفريقيـة من إجازة علمية سواء أجـازها له أحد العلماء، أو أجازها هو لتلميـذ أو عالم آخر. لقد مُنح الأخوان عبدالله بن فودي وعثمان بن فودي إجازة من شيخهما جبريل بن

(١) المكان نفسه، عبدالمجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية، في السودان، مرجع سبق ذكره، ص٨٨.
(٢) أسماء وعبدالمجيد، المكانان نفساهما.
(٣) د. عطية، ص٢٧٨.
(٤) د. شلبي التربية، ص٢٦٧.
(٥) المكان نفسه.
(٦) انظر: تاريخ السودان، ص٢١٧.

عمر لجميع مروياته[١]. ومُنح الشيخ عبدالله بن فودي إجـازة علمية من شيخه عبدالرحمن بن محمد[٢]، وإجازات أخرى غير هذه ذكـرها الشيخ عبدالله في مؤلفـه «إيداع النسوخ». وأجاز الإمـام الزموري الفقـيه المختـار النحوي بمدينة والاتا، وكان مـوضوع الإجازة هو كـتاب الشـفا للقاضي عـياض[٣]. وأجاز الأستاذ أبو زكريا يحيى الحطاب المكي، أحمد بابا التنبكتي مكاتبة.[٤]

وتجدر الإشـارة إلى أن علماء غربي إفـريقيـة وصلوا إلى مستـوى إجازة علماء المشرق الإسلامي؛ فـالفقيه أحمد بن أحمد بن عـمر أقيت، والد أحمد بابا، لقي في مصـر علماء أمثال الناصـر اللقاني والشريف الأرميـوني وجمال الدين بن زكريا والتاجوري والأجـهوري وطبقتهم، وفي الحجاز جمـاعة أمثال الميموني واللمطي والسخاوني والفاكـهي وغيرهم، فأجاز بعضهم[٥]. ثم أجاز بعد ذلك ابنه الشيخ أحمد بابا وغيره من الطلاب والعلماء.[٦]

ووجد كثير من علماء غربي إفريقية عامة وتنبكت خاصة، من رحل إلى المشـرق لأداء فـريضـة الحج وطلب الزيادة في العلم . وكـان هؤلاء يلتـقـون بالأعـلام من العلماء في مـصر خـاصة وفي المشـرق عامـة، فيـفيـدون منهم ويحوزون منهم على الإجازة العلمية. ومثال ذلك أن الفقيه القاضي العاقب بن محمود أقيت، درس على أيدي كثيـر من علماء مصر وممن أجازه منهم الشيخ الناصر اللقاني[٧]. وأجاز العاقب بدوره الشيخ أحمد بابا التنبكتي.[٨]

---

(١) إيداع النسوخ، ص٨.

(٢) المصدر نفسه، ص١٠.

(٣) تاريخ السودان، ص٦٥.

(٤) نيل الابتهاج، ورقة ٣٣٩، المنهل العذب، ص٢٣٥.

(٥) نيل الابتهاج، ورقة ٦٦.

(٦) المصدر نفسه، ورقة ٦٧.

(٧) المصدر نفسه، ورقة ١٨١.

(٨) المكان نفسه.

المبحث الثاني عشر

التخصص العلمي

لم يكن يعرف التخصص الدقيق بمفهوم عصرنا الحاضر، ولكن وجد ميل من بعض العلماء إلى تدريس فن معين من الفنون الإسلامية، أو كتاب معين من الكتب التعليمية. وتوجد إشارات كثيرة إلى نوع معين من التخصص وردت في «إيداع النسوخ»، وهو قيام العالم بتدريس كتاب معين في كثير من الأوقات، فمحمد ثنب كان خبيرا في تدريس شرح الخراشي[1]، بينما كان جبريل بن عمر متخصصا في المقام الأول في تدريس الكوكب الساطع للسيوطي وجمع الجوامع[2]، وأصبح محمد بن راج العمدة في تدريس البخاري، واشتهر محمد المغوري بتدريس المختصر.[3]

ونجد في تنبكت أن عبدالله بن محمود بن عمر أقيت كان متخصصا في تدريس المختصر والرسالة، وفي ذلك يقول أحمد بابا[4]: «.. مستحضرا لمسايل الفقه ونوازله معتنيا بذلك خصوصا مختصر خليل والرسالة يستحضرها نصب عينيه لاحظٌ له في غير الفقه». وكان محمود بن عمر أقيت متخصصا في تدريس المدونة والرسالة ومختصر الشيخ خليل[5]. أما ابنه محمود بن عمر أقيت فقد كان متخصصا في البيان والمنطق[6]. وتخصص الأمين بن أحمد في

(١) إيداع النسوخ، ص٥.
(٢) المصدر نفسه، ص٨.
(٣) المصدر نفسه، ص٩.
(٤) نيل الابتهاج، ورقة ١١٣.
(٥) المصدر نفسه، ورقة ٣٢٣.
(٦) المصدر نفسه، ورقة ٣١٧.

سير الصحابة[1]. وتخصص أحمد بن أحمد بن عمر أقيت في البخاري، وكان يجلس لتدريسه في رجب وشعبان ورمضان في كل عام، واستمر على هذه الحال لمدة خمسة وعشرين عاما[2]. وكان السعدي من المتخصصين في تدريس الشفا.[3]

(١) تاريخ السودان، ص٢٤٧.
(٢) نيل الابتهاج، ورقة ٦٦.
(٣) تاريخ السودان، ص٢٦٦.

المبحث الثالث عشر



لغة التدريس وأسلوب الكتابة

كانت جميع العلوم تدَّرس وتناقش وتستوعب باللغة العربية، وكانت اللغة العربية هي لغة الكتابة الرسمية والثقافة. وعلى الرغم من هذا وجدت بجانب ذلك طريقة الترجمة للدرس باللغة المحلية حتى لا تفوت فرصة الانتفاع بالوعظ والإرشاد لمن لا يجيدون اللسان العربي. وقد اشتهر الشيخ عثمان فودي بأنه كان يترجم دروسه إلى اللغة الهوسية أو الفولانية حتي يتيح الفرصة لطلابه الذين لا يجيدون العربية أن يخرجوا بفائدة.[1]

أما من حيث أسلوب الكتابة، فقد كان جيدا، على الرغم من قلة ما وصلنا من مؤلفات. وقد امتاز أحمد بابا التنبكتي بجزالة الأسلوب ومتانته، والتمكن من الألفاظ التي يستخدمها والتراكيب التي يصوغها والدلالات التي يقصدها.

وكان السعدي وابن المختار دون التنبكتي في جزالة الأسلوب، لأنهما أحيانا يستخدمان العبارات العامية المحلية. ويلاحظ أن بوسعهما الكتابة بأسلوب رصين خال تماماً من العامية، وليس أدل على ذلك من المقدمة التي كتبها السعدي في صدر كتابه، والتي جاء فيها: «... الحق لله المنفرد بالملك والبقاء والقدرة والثناء، المحيط بعلمه بجميع الأشياء، يعلم ما كان وما يكون، وأنْ لو كان كيف يكون، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، سبحانه من ملك قادر وعزيز قاهر، الذي قهر عباده بالموت والفناء، وهو الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء،

(١) إنفاق الميسور، ص٧٤.

والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين سيدنا ومولانا محمد خاتم الرسل والأنبياء، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين من أهل الصفوة والاعتناء، صلى الله وسلم عليهم أجمعين، صلاة وسلاما بلا انقطاع ولا انقضاء. وبعد[1]: . . . » أما الأسلوب الذي كتبت به أسئلة آسكيا الحاج محمد إلى المغيلي، فقد ارتفع إلى مستوى عال من الجزالة والمتانة، على غرار أسلوب الإنشاء الذي كان معروفا في البلاد الإسلامية الأخرى.[2]

ويلاحظ أن أسلوب الكتابة في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر في بلاد الهوسا قد ارتفع إلى مستوى عال، والمتصفح لكتاب «إنفاق الميسور» يلمس هذه الحقيقة، وذلك بجانب كتابات الشيخ عثمان والشيخ عبدالله وغيرهم من المعاصرين لهم.

ويلاحظ الشيء نفسه في بلاد برنو، حيث ارتفع الأسلوب العربي، وخير مثال لذلك الرسائل التي تبودلت بين حكام برنو والبلاد الإسلامية المعاصرة وعلى رأسها مصر، وخاصة رسالة الماي عثمان بن إدريس إلى السلطان برقوق[3]، والمحارم العربية التي أصدرها المايات، والشعر العربي الذي مازال مخطوطا في مكتبات غربي إفريقية، ورسائل محمد الأمين الكانمي التي دافع فيها عن وجهة نظره في مقاومة حركة عثمان بن فودي.[4]

---

(١) تاريخ السودان، ص١.

(٢) انظر: الملاحق عن نموذج لهذه الأسئلة. ملحق رقم(٥). ص ٧٧٩.

(٣) انظر: صبح الأعشى، جـ٨، ص٨، ص ص١١٦ـ١١٨.

(٤) انظر: إنفاق الميسور، ص١٥٧، ومابعدها.

الفصل العاشر

المبحث الأول

سن التعليم

لقد تأثر المسلمون في غربي إفريقية بالتقاليد الروحية الشديدة، فكان العرف السائد أن الطفولة يجب أن تتلقى تهذيبا سليما قبل أن تتسرب إليها العادات القبيحة. وجرت العادة أن يذهب الطفل في سن الثالثة أو الرابعة(١) أو الخامسة إلى المكتب في قريته أو في قرية أخرى مجاورة إن لم يتيسر له ذلك في قريته، وعندئذ يعيش في عزلة مادية ومعنوية تساهم في تكوين شخصيته وتقوّي ثقته بنفسه(٢). وعموما فقد كان متوسط عمر التلميذ بالكتاب حوالي الخامسة،(٣) ومع هذا، فلم تكن هناك سن محددة لطلب العلم، لأن الفرصة لا تتاح لكل الناس ليبدؤوا التعليم في هذه السن المبكرة، فطلب العلم عند المسلمين من المهد إلى اللحد، فالشيخ مخلوف بن علي البلبالي جلس للدراسة على كبر، وكان أساتذته من أسرة أقيت يقاربونه في السن.(٤)

(١) Meek, The Northern Tribes of Nigeria, op. cit., p. 8.

(٢) قداح ، ص١٤٤.

(٣) جاء في «إيداع النسوخ» (ص ص٢ ـ ٣) أن عبدالله بن فودي أكمل دراسة القرآن على يد والده ثم انتقل بعد ذلك ليتتلمذ على أخيه عثمان وهو في سن الثالثة عشرة، وبهذا يكون قد بدأ الدراسة في حوالي ست أو سبع سنين من العمر.

(٤) تاريخ السودان، ص٣٩.

المبحث الثاني

مراحل التعليم

يرى الشيخ الظواهري[١] أن التعليم الإسلامي عامة ثلاث مراتب: أولها تعليم صغار المسلمين وأطفالهم في الكتاتيب، وثانيهما تعليم جمهور الناس؛ والثالث التعليم العالي في المعاهد التعليمية كالمساجد الجامعة. ولا جرم أن كل واحدة من هذه المراتب ضرورية، وتحتاج إلى مالا يحتاج إليه غيرها من الأساليب، وتخالف أختيها في الكمية والكيفية. أما الدكتور خفاجي[٢] فيقسمها أيضا إلى ثلاث مراتب، ولكنه يصفها بصورة أخرى، ولا يدخل فيها تعليم جمهور الناس الذي جعله الشيخ الظواهري مرتبة ثانية من مراتب التعليم. ويبدو أن تقسيم الدكتور خفاجي أقرب إلى حقيقة مراحل التعليم الإسلامي عامة وفي غربي إفريقية خاصة، وإن كنا نقر أن تعليم الجمهور كان نوعا من أنواع التعليم، ولكن ليس له مرحلة معينة.

يبدأ التلميذ في المرحلة الأولى بتعلم الهجاء والقراءة والكتابة، ويحفظ ما تيسر من القرآن عن ظهر قلب، ليكون هذا الجزء المادة التي يستطيع أن يطبق التلميذ فيها عمليا ما أخذ من المعلومات النظرية في تعلمه قواعد الهجاء والكتابة، فيطالب التلميذ بكتابة هذا الجزء وقراءته، ثم ينتقل من هذا الجزء إلى غيره كتابة وقراءة وحفظا حتى يتم القرآن. وفي هذه المرحلة الأولى يكون التلميذ قد تعلم القراءة والكتابة، وتستغرق هذه المرحلة حوالي ثلاث سنين[٣]، أو حسب مقدرة الطالب العقلية، إذ ربما تستغرق أكثر من ذلك.[٤]

---

(١) محمد بن إبراهيم الظواهري: العلم والعلماء، ص١٠.

(٢) الأزهر في الف عام، مرجع سبق ذكره، ص٨٧.

(٣) المكان نفسه.

(٤) انظر: Bello, Ahmadu: My Life, London 1963, p.7.

ثم ينتقل الطالب إلى المرحلة الثانية، ويظـل تحت إشراف أستاذه، يعطيه دروسا في القـراءة والكتابة، وموضـوعات متنـوعة في الدين والأدب، ويكون التلميـذ في هذه السن على أبواب دور المراهقة. وكـان أغلب المتعلمين يقـفون عند هذا الحد ويتخرجون في سن الثانية عشـرة أو الثالثة عشرة. وبعضهم كان يخطو للمرحلة الثالثة، يدرسون فيها علوم الدين من فقه وتوحيد وحديث... إلخ. وفي الأحـوال الاستثنـائية كان بعـض الأفراد يدرسون شـيئـا من العلوم الرياضية.[1]

ولدينا نموذج لطالب تخطى المرحلة الأولى والمتوسطة إلى المرحلة الثالثة، وهو الشيخ عبدالله بن فودي، الذي يقـول عن نفسه: «وقد تركني أبي في يده ـ يعني أخاه عثمان ـ بعد قراءة القـرآن وأنا ابن ثلاث عشرة سنة. فقرآت عليه العشرينات والـ... والـ... إلخ».[2]

وبعد هذه المرحلة الثالثة يبدأ الطالب في نيل الإجازات من أساتذته على قدر مجهوده الشخصي، إذ لم تكن هذه شهادة رسمية، بل الذي يفرض العالم على الناس هو علمه وكفاءته.

وذكرنا للمـراحل بهذا التقسـيم لا يعني أنه أمر ثابت، لأن نظام المراحل بالمعنى الفني المعروف في التعليم الحديث لم يعرف في تلك الفترة.

---

(١) انظر: إيداع النسوخ، ص٣.

(٢) إيداع النسوخ، ص ص٢ـ٣.

المبحث الثالث

أنواع تلقي العلوم

توجد حوالي أربعة أنواع لتلقي العلم، وهي: قـراءة الطالب على شيخه قراءة فهم أو قراءة بحث وتحقيق أو قراءة تحقيق أو قراءة بحث، وفي هذا يقول أحمـد بابا التنبكتي[1] بأنه قرأ على شـيخه «الموطـأ قراءة فهم، وتسـهيل ابن مالك قراءة بحث وتحـقيق.. وأصول السبكي بشـرح المحلى ثلاث مرات قراءة تحقـيق، وألفيـة العراقي بـشرح مؤلفـها.. وفـرعي ابن الحاجب قـراءة بحث جميعه».

(١) تاريخ السودان، ص٤٦، إنفاق الميسور ص ص٢١٥ـ٢١٦.

المبحث الرابع



الرحلة في طلب العلم

عقد ابن خلدون[1] فصلا خاصا عن الرحلة العلمية؛ خلاصته أن الرحلة في طلب العلم مفيدة، لأن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم تارة علما وتعليما وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة، وأن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا، والرحلة تفيد كثرة الشيوخ، وعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكة ورسوخها، وأن تعدد المشايخ يفيد تعدد الطرق، إذ إن لكل منهم طريقته في التعليم.

والمتتبع لتاريخ الرحلات العلمية يدرك أنها ابتدأت منذ عهد الصحابة رضي الله عنهم. وقد دعت الضرورة إلى أن تبتدئ مبكرة، فقد تفرق علماء الصحابة في الأمصار المفتوحة ليعلموا الناس شؤون الدين وليقرئوهم القرآن ويرووا لهم الأحاديث، وأقام كل واحد من هؤلاء مركزا علميا بالبلد الذي نزل به[2]، وتميز بطابعه الخاص في إطار السنة. وكانت هناك بضعة أحاديث لم يروها عن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلا نفر قليل من الصحابة. وكان للناس شغف كبير برواية الأحاديث؛ فأخذوا يسعون إلى هؤلاء الصحابة ليأخذوا عنهم هذه الأحاديث[3]. واشهر هؤلاء الصحابة: عبدالله بن عمر بالمدينة، وابن عباس بمكة، ومعاذ بن جبل باليمن، والأشعري بالبصرة، وابن مسعود بالكوفة، وعبدالله بن عمرو بن العاص بمصر.[4]

---

(١) المقدمة، ص ص٢٩٩ـ٣٠٠. انظر الملحق رقم (١) من هذا الكتاب.

(٢) انظر: د. شلبي، التربية، ص٣١٨.

(٣) انظر: أحمد أمين، ضحى الإسلام، جـ٢، ط٧، ص ص٧٠ـ٧١.

(٤) د. شلبي، المرجع السابق، ص ص٣١٨ـ٣١٩.

وعندما جاء جيل التابعين تمايزت حلقـاته العلمية، فأصبح منهم من يميل إلى التفسير، ومنهم مـن هو راوية للحديث، ومنهم من يتعرض لعلم الكلام، ومنهم من تبحـر في الفقه، إلخ. ومن أساطين علماء هـذا الجيل: ابن المسيب بالمدينة وربيعة الرأي بقـباء وعطاء بن أبي رباح بمكة والحسن البصـري بالبصرة والنخعي بالكوفة ومكحـول بسورية ويحيى بن كثير باليـمامة وطاووس باليمن وزيد بن أبي حبيب بمصر وعطاء بن عبدالله الخراساني بخراسان.[1]

وأخذ الناس يشـدون إليهم الرحـال لمعرفة مـالديهم. واستمـر الحال مع تابعي التابعين وأصحاب المذاهب الـفقهية التي اشتهرت منهـا أربعة، وأصحاب الحديـث أمثـال البخـاري ومسلم. وظل الطلاب في رحلة دائبـة بين الشـيوخ والأئمة لأخذ العلم منذ ذلك التاريخ إلى وقتنا الحاضر، ولم يشذ في هذا قطر إسلامي عن الآخر.

ففي غربي إفـريقية، جاء كثـير من الطلاب من شتى بقاع غربي إفـريقية لتلقي العلم علـى مشـايخ تنبكت وجني وكـاغ وكانو وكـاتسـينا وغسـرغمـو ووالاتا، ورحلوا إلى المغـرب ومـصـر والشـام ومـكة والمدينة والعـراق لهـذا الغرض، بجانب أداء فريضة الحج في الحجاز.

وقد اشـتهر بعض عـلماء غربي إفـريقية بأنهـم كانوا «رُحَلَـة»[2]، منهم الفقيه مـخلوف بن علي البلبالي، الذي تلقى تعليمه في معاهد غـربي إفريقية، في والاتا وتنـبكت، ثم رحل إلى المغـــرب ودرس على يدي ابــن غـازي[3].

---

(١) المرجع نفسه، ص ص٣١٩ـ٣٢٠.

(٢) تاريخ السودان، ص٣٩.

(٣) المكان نفسه، وابن غـازي هو: محمد بن أحمد بن محـمد بن محمد بن علي بن غـازي العثماني، المكناسي الفاسي (أبوعبدالله)، مـقرئ، محدث، فقيه، مؤرخ فـرضي حاسب، عروضي، نحوي. توفي سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م. مصنفاته كثيرة. انظر: معجم المؤلفين، جـ٩، ص١٦.

وغيره، ورحل عالما ومعلما إلى كانو وكاتسينا وغيرها من بلاد غربي إفريقية[١]. ورحل للمرة الثانية إلى المغرب ـ مراكش، ولم يعد إلى بلده إلا عندما مرض وأوشك على الهلاك.[٢]

ويلي البلبالي في النشاط والرحلة العلمية الفقيه محمد بن أحمد التاذختي، الذي رحل إلى تكدة للقاء المغيلي، ورحل إلى مصر ولقي هناك مشاهير مشايخها كالقلقشندي واللقانيين[٣]. وعندما عاد إلى غربي إفريقية واصل رحلته العلمية إلى كاتسينا وجعلها موطنه إلى أن تولى قضاءها[٤].

وسار في نفس خط البلبالي والتاذختي الفقيه العاقب الأنصمني، الذي رحل إلى مصر أيضا ولقي السيوطي[٥]، والفقيه عبدالرحمن التميمي الذي رحل في طلب العلم إلى فاس من تنبكت حتى يتمكن من التدريس في تنبكت[٦]، والفقيه عبدالله سك الفلاتي الذي رحل في طلب العلم إلى أجاديس وفزان وغيرها [٧]، ومحمد الأمين الكانمي، الذي طلب العلم في الحجاز ومصر والمغرب[٨]، والشيخ عثمان بن فودي، الذي رحل مع أستاذه جبريل حتى بلغ أجاديس[٩]، وغير هؤلاء ممن يضيق المجال عن حصرهم، وسوف نتوسع في ذكر أشهرهم في فصل التبادل التعليمي.

---

(١) المكان نفسه.

(٢) المكان نفسه.

(٣) المصدر نفسه، ص ص٣٩ـ٤٠.

(٤) المصدر نفسه، ص٤٠.

(٥) المصدر نفسه، ص٤١.

(٦) المصدر نفسه، ص٥١.

(٧) إنفاق الميسور، ص٥٠.

(٨) انظر ترجمته في ص٥٠٣.

(٩) انظر ترجمته في ص ٤٣١؛ وإيداع النسوخ، ص٦.



المبحث الخامس



أحوال التلاميذ العامة

وجد تفاوت كبير في مستوى دخول الأفراد في غربي إفريقية كما هو الحال في كل زمان ومكان، فمن التلاميذ من يستطيع أن يتكفل ذووه بمعيشته أثناء ملازمته العلم سيما إن كان في مكان يبعد عن موطنه مما يتحتم معه البقاء في مكان يشبه ما عندنا اليوم بالداخلية (إسكان الطلاب). أما الذين يصعب على ذويهم التكفل بمعيشتهم، فقد كانت رحمة الله تحل بهم على يد الحكام وأهل اليسار.

واشتهر أساكي سنغي بحبهم لطلاب العلم والعلماء وكثرة الإنفاق عليهم. فقد كان من مناقب آسكيا الحاج محمد «حب العلماء والصالحين والطلبة وكثرة الصدقات»(١). وقد حدث أن أهدى آسكيا داود مزرعته في إحدى بلدانه المسماة «دَندِك دُمْد» إلى إمام وطلبة هذه البلدة(٢) ـ كما سبق ذكره ـ وكان هذا الجود والإحسان إلى طلبة العلم من مناقبه التي سجلها له التاريخ بأحرف من نور(٣). وله قصة مع القاضي محمود كعت تدل على هذا الكرم وبذل العطاء. فقد طلب منه كعت أن يمده ببعض الأشياء منها أن معه أربعة من طلاب العلم، وقد تمزقت ثيابهم، ويريد من آسكيا داود أن يكسوهم، واستجاب آسكيا لهذا الطلب ومعه طلبات أخرى أكبر من هذا بكثير تخص كعت نفسه.(٤)

---

(١) الفتاش، ص٥٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٩٥.

(٣) المصدر نفسه، ص١١٣.

(٤) المصدر نفسه، ص ص١٠٨ـ١٠٩؛ انظر ص ٦٠٦ من هذا الكتاب.

وكان آسكيا بلمع بن آسكيا داود كأبيه وجده، يهدي إلى الطلبة المال ومن يقوم بخدمتهم من الخدم.[١]

وبجانب عطاء السلاطين، أوقفت أوقاف معلومة على المعاهد التعليمية للإنفاق على الطلاب المنقطعين للعلم[٢]. وهناك من العلماء من يقوم بنفسه بالإنفاق على طلبته الفقراء حتى اشتهر بذلك. ومن هؤلاء الفقيه أبوبكر - المعروف بـ«بابكر بير - الذي قال عنه السعدي[٣]: «العالم الزاهد المتصدق، المنفق على الأيتام والتلاميذ».

وكان لسرأة المدن وتجارها ووجهائها دورهم البارز في مجال الإسهام في الإنفاق على الوافدين من الطلبة؛ فقد كانوا يرحبون بطلاب العلم، ويستضيفونهم في منازلهم[٤]. وكانت توجد في بعض المدن، مثل كاتسينا، أحياء خاصة من بينها حي للطلبة.[٥]

وكان الطلاب يشاركون في المناسبات الدينية أو الاجتماعية كالتأبين والمآتم والحفلات وغيرها بقراءة القرآن أو قراءة تخميس عشرينيات الفزاري أو غيرها، فتوزع عليهم الهدايا من قبل أصحاب المناسبات أو القائمين على أمرها كل على قدر طاقته.[٦]

وعلى كل حال لم تكن أحوال الطلبة المعيشية عامة سهلة، فقد كانوا أحيانا يضطرون إلى صحبة المعلم أينما ذهب أو يرحلون إليه[٧]، ومنهم من

(١) المصدر نفسه، ص١٣٠.

(٢) د. حسن محمود، دور العرب، مرجع سبق ذكره، ص٨٦.

(٣) تاريخ السودان، ص٣٢.

(٤) دور العرب، المرجع السابق، ص٨٦.

(٥) Hogben, The Muh. Emirates, op. cit., p. 93.

(٦) انظر: الفتاش، ص١٨٠، ١٣٠.

(٧) انظر: إيداع النسوخ، ص٦.

يقوم بخدمة مدرسه في الفترة التي يقضيها معه تلميذ[1]، وربما يظل وفيا ومواصلا للخدمة حتى بعد أن تنقطع الصلة العلمية.

أما من حيث عدد التلاميذ الصغار في المكتب، فلربما كانت متفاوتة، والحالة الوحيدة التي ورد فيها إحصاء لتلاميذ الكتاب، هي الرواية التي جاءت في الفتاش[2] من أن تلاميذ مكتب المعلم «تكريا» كانوا مئة وثلاثة وعشرين تلميذا.

ومن حيث الكتب التي يدرسون منها، نجد أن من لم يستطع شراء الكتاب أو يصعب الحصول عليه، يقوم بنسخ تأليف أستاذه[3]، أو نسخ الجزء المقرر عليه للدراسة من الكتب الأخرى.[4]

---

(١) انظر: الفتاش، ص١٢٩؛ تاريخ السودان، ص٤٨.

(٢) ابن المختار، ص١٨١.

(٣) انظر: إيداع النسوخ، ص٣.

(٤) المكان نفسه.

المبحث السادس

نصيب المرأة من التعليم

لم تهتم كتب التراث الإسلامي في غربي إفريقية بتسليط الأضواء على المرأة العالمة أو التلميذة. ويلاحظ أن أحمد بابا التنبكتي في نيل الابتهاج لم يترجم إلا لامرأة واحدة، وهي أم هاني بنت محمد العبيدوسي[1]، على الرغم من أنه ترجم لأكثر من ستمئة وثلاثين عالما من علماء المشرق والمغرب وغربي إفريقية. أما السعدي، فلم يترجم لامرأة ترجمة كاملة، إذ إن المرأة الوحيدة التي وقف عندها السعدي هي الاغلالية التي بنت مسجد سنكري[2]، وامرأة هذا شأنها ربما كان لها نصيب من التعليم عرفت منه الحقوق والواجبات وأعمال البر الكبيرة، فقد كانت كما يذكر السعدي من اللاتي ينفقن أموالهن في أعمال البر[3]، ولكنه لم يذكر اسمها أو تاريخ وفاتها أو شيئا من علمها وحياتها.

ولم يهتم ابن المختار أيضا بالمرأة، ولكننا من ثنايا عرضه للأحداث الجارية يمكننا أن نتلمس أن المرأة كان لها دورها في مجال التعليم والمعرفة. فقد جاء في رواية تنصيب محمود بغيغ قاضيا على جني أنه حمل على فرس بعد إجراء مراسيم الولاية، «فلما دخل بيته استقبلته زوجته أم ولده السيد الفقيه أحمد بغيغ وقالت له: لم رضيت القضاء؟ فقال: لم أرض بذلك وإنما أجبروني به وكلفوني، فقالت: .لو اخترت الموت عليه لكان أحسن منه، ولو قلت

(١) نيل الابتهاج، ورقات ٣٢٨ـ٣٢٩.

(٢) تاريخ السودان، ص٦٢.

(٣) المكان نفسه.

اقتلوني فلا أدخل، فقال: ماقلت ذلك. فأدبرت باكية ثم لم تزل تبكي أياما رحمها الله». [1]

والمتمعن في هذا الحوار القصير الذي دار بين هذا العالم وزوجه يخرج بانطباع ونتيجة مؤداها أن هذه السيدة لم تكن جاهلة، بل كان تعرف معنى منصب القضاء وكل ماجاء في حق القاضي من آيات وأحاديث تجعل العالم التقي يفكر ألف مرة قبل أن يقدم على تولي هذا المنصب. وما زال أهل الورع حتى زماننا هذا يتحرجون من تبعات تولي هذا المنصب، خشية أن تزل قدم بعد ثبوتها.

وعندما ظهر الشيخ عثمان بن فودي في بلاد الهوسا، راعه أن يجد إهمالا كبيرا في جانب تعليم المرأة، فوجه لومه وتقريعه ونصائحه إلى علماء المسلمين ليهتموا بتعليم المرأة قبل تعليم الآخرين، وقد اثبتنا هذا النداء في مكانه من البحث[2]. ويبدو أن هذا النداء قد آتى ثماره، حيث بدأت التلميذات ينتظمن في الكتاتيب وحلقات الدرس. [3]

ونجد للمرأة حظا أوفر في الظهور في مجال العلم والإفتاء والسياسة ببلاد برنوا الإسلامية؛ فالفتوى التي أصدرتها أم السلطان بيري بن دوناما (حوالي مطلع القرن الثاني عشر الميلادي) بقطع يد السارق بدلا من قتله، تحمل في مضمونها دلالة واضحة على مدى وعي المرأة البرنوية في ذلك العصر المبكر.

ولأن الشيخ عثمان بن فودي يعتبر نموذجاً فريداً في مجال تعليم المرأة

---

(١) تاريخ الفتاش، ص٩٠

(٢) انظر: ترجمتنا لعثمان بن فودي، ص ٤٣١-٤٥٣، ودعوة لتعليم المرأة جاءت في ص ٤٥٢.

(٣) Meek, The N. T. N., op. cit., p. 8.

فإننا نــرى أهمية إلقــاء مزيد من الضــوء على دوره في تعليم المرأة كــجزء من برنامجه الإصلاحي.

فقد وجه الشيخ ابن فودي نداء إلى النســاء مبيناً لهن أن من حقهن على الأزواج أن يعلمونهن طاعة الله قبل تعليمهن طاعة الأزواج.(١)

ودعاهن إلى حــضور مجالســه التي يعقدها للإرشاد والتــوجيه ومعــرفة الأحكام الفقهية في شتى أمور الدين والدنيا. وخصص لهن مكاناً منفصلاً عن مكان الرجــال، وذلك تجنبــاً لحرمــة الاختــلاط. وألزم العلمــاء المنكرين عليــه حضور النساء مجالسه الحجة، وعاب عليهم تقصيرهم في تعليمهن، وبين لهم بأن تعليم المرأة من أهم الواجبات والحقوق عليهم.(٢)

وجوز للمرأة الخــروج من البيت عند الضرورة الشرعــية؛ ومن بين تلك الضرورات طلب علم الفرض العيني، إذا لم يجدن من أزواجهن هذا التعليم. وله كتاب نفيس في أنواع أسباب خــروج النساء ورأي الشرع في ذلك، وسماه «إرشاد الإخوان إلى أحكام خروج النسوان».

وشن حرباً على البدع التي سادت في مجتمعه فيما يتعلق بحقوق النساء المسلوبة، مثل حقها في الإرث والصداق.(٣)

وطالب النساء بإعطاء الأزواج حقوقهم الشــرعية وبين لهن ما شاب هذه

---

(١) انظر: عثمــان بن فودي، نور الألباب، ص ص٩ـ١٠ من المخطوطة. وقد نشر هذا الكتــيب السيد/ مضوي الحاج، صــاحب المكتبة الأهلية بوادي مدني ـ السودان ـ عــام ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م، فانظر فيه ص ص ١٦-١٧ من الفصل الثاني: «الأمور التي عمت البلوى بها في بلاد الهوسا».

(٢) عثــمان بن فودي: إرشــاد أهل التفريط والإفــراط إلى سواء الصراط، ورقــة رقم٣٠، مخطوطة في اثنتين وعشرين صفحة، من مخطوطات المكتبة العامة بسوكوتو.

(٣) ينظر في هذا كتاباه: «بيان البدع الشيطانية التي أحدثها الناس في أبواب الملة المحمدية»، مخطوطة في أربعين صفحة، مكتبة الآثار بكدونا، و«إحياء السنة وإخماد البدعة»، مطبوع بمطبعة المشهد الحسيني.

الحقوق من بدع محرمة.[1]

وسار على منهجه في الحث على تعليم النساء أخوه عبدالله بن فودي.[2]

ونتج عن اهتمام أسرة الشيخ عثمان بتعليم المرأة أن عرفت بعضهن بالتأليف، مثل أسماء بنت الشيخ عثمان، التي كتبت مقالتين، إحداهما باسم «تنبيه الغافلين»[3]، تحتوي على مواعظ عما يجب فعله وما يحرم تركه. وهي في عشر صفحات. والمقالة الثانية في خصائص سور القرآن.[4]

وعرفت بعضهن بممارسة تعليم النساء، مثل السيدة حبيبة، التي أخذت العلم مع أخيها في حلقة الشيخ عثمان بن فودي.[5]

---

(١) انظر المصدرين نفسيهما.

(٢) انظر في هذا مقالته التي بعنوان: «جودة السعادة»، وهي من مخطوطات مكتبة الشيخ عبدالله بسوكوتو.

(٣) من مخطوطات مكتبة البلدية بسوكوتو.

(٤) من مخطوطات مكتبة البلدية بسوكوتو.

(٥) آدم عبدالله الألوري: الإسلام في نيجيريا، مرجع سبق ذكره، ص٦٦.

الفصل الحادي عشر



الكتب والمواد الدراسية الشائعة الاستعمال

يلاحظ المطلع على كتب التراث في هذه الفترة الزمنية أن الكتب التي كانت متداولة في غربي إفريقية تكاد تكون المعروفة في البلاد الإسلامية الأخرى بعينها، لا سيما في المغرب الكبير والأندلس ومصر والسودان النيلي العربي. ويلاحظ أيضا أن الصبغة المذهبية لهذه الكتب مالكية في معظمها وذلك لسيادة المذهب المالكي في شمالي إفريقية وغربيها في ذلك الوقت وحتى يومنا هذا. وسوف نحاول في هذا الفصل أن نلقي بعض الأضواء على هذه الكتب حتى يمكننا أن نكمل كل ما يتعلق بالتعليم على قدر المستطاع في بحث كهذا، وإليكها:

١ ـ **الشفا** : إن مؤلف هذا السفر هو القاضي أبوالفضل عياض بن موسى ابن عياض اليحصبي السبتي المالكي، المتوفى سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م[1]. بدأ عياض تعليمه في مسقط رأسه سبتة، وظل بها حتى صدر منها عالما فحلا، أهلته مكانته العلمية أن يتولى قضاء سبتة سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م. وكان مثالا للقاضي النزيه والعالم التقي القوي. وأقيل من هذا المنصب بسبب قوته وجرأته في قول الحق وعدم محاباةِ ذوي السلطان، فارتحل إلى الأندلس واستقبل بحفاوة بالغة في غرناطة سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م، وولي قضاءها سنة ٥٣١هـ/ ١١٣٦م[2]. ولم يطل به المقام في الأندلس فعاد أدراجه إلى سبتة وجلس

---

(١) القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ص١٨؛ عياض: الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، المقدمة.

(٢) المقري: أزهار الرياض، جـ٣، ص ص١١ـ١٢.

للتدريس، وخاصة تدريس كتابه «الشفا»[1]. ومالبث أن أعيد إلى قضاء سبتة مرة أخرى سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م. فاشتهر أمره أكثر مما كان عليه قبلا، وعنه قال المقري[2]: «كان القاضي عياض ـ رحمه الله ـ بحر علم، وهضبة دين وعلم، أحكم قراءة كتاب الله تعالى بالسبع، وبلغ من معرفته الطول والعرض، وبرز في علم الحديث، وحمل راية الرأي، ورأس في الأصول، وحفظ أسماء الرجال، ونقب في علم النحو، وقيد اللغة وأشرف على مذاهب الفقهاء، وأنحاء العلماء وأغراض الأدباء». وله عدة مؤلفات غير الشفا منها[3]:

١ ـ فهرسة لشيوخه الذين جاوزوا المئة وسماها الغنية.

٢ ـ إكمال العلم في شرح مسلم.

٣ ـ مشارق الأنوار، في تفسير غريب الموطأ والبخاري ومسلم وضبط الألفاظ.

٤ ـ التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة.

٥ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك.

٦ ـ الإعلام بحدود قواعد الإسلام.

٧ ـ الإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع.

٨ ـ العيون الستة في أخبار سبتة.

٩ ـ غنية الكاتب وبغية الطالب في الرسائل.

١٠ـ الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد.

وله شعر جيد وديوان خطب رائع.

---

(١) ترتيب المدارك، ص١٩؛ أزهار الرياض، ص١٣.

(٢) أزهار الرياض في أخبار عياض، جـ٣، مصدر سبق ذكره، ص٧.

(٣) شجرة النور الزكية، مصدر سبق ذكره، ص١٤١.

أما كتابه الشفا في التعريف بحقوق المصطفى، والذي نحن بصدده، فهو في الحديث النبـوي الشريف[1]. وقد اشـتهر أمـره في غربي إفريقـية، فكانوا يتدارسونه، لا سيما في رمضــان. وحفلت مصادر تاريخ هذه المنطقة بذكر هذا الكتاب وجعلته العمدة في الفقه المالكي. وممن اشتهر بسرده في رمضان بمسجد سنكري، الفقيـه أبوعبدالله آندغمحـمد ابن الفقيه المخـتار النحوي[2] والفقيه أبوحفص عـمر بن الحـاج أحمد بـن عمر بن الحـاج بن عمـر أقيت[3]، ومن العلماء من ظل ملازما لقـراءته لطلابه، أمثال الفقيه أحمد بن عـمر بن محمد أقيـت، جد أحمـد بابا[4]، ومنهم من نال فـيه الإجازة مـثل الفقـيه المخـتار النحوي[5] وأبي عبدالله محمد بابا بن محمد الأمين بن حبيب،[6] ويوجد من بين علماء تنبكت أو جني من قام بتدريسه في البلدان المجاورة، ومثال ذلك أن السعدي قام بتدريسه في بلدة بينا بطلب من أهلها.[7]

أما في بلاد الهـوسا، فـقد وردت أول إشارة للشـفا في عهـد السلطان الكانوي مـحمـد كيسـوكي (٩١٤ ـ ٩٧٢هـ/ ١٥٠٩ ـ ١٥٦٥م) عندمـا ذكر صاحب تاريـخ كانو بأن الشيـخ تونس أحضر مـعه الشـفا لأرض الهـوسا من المغرب[8]. ومنذ ذلك الحين اشتهر أمره في هذه المناطق.

وعموما فقد كان الشفا من الكتب الدراسية والثقافية الأساسية في معاهد

---

(١) جاء في «عنوان الدراية»، ص٢٧ أن الشـفا في الفقـه المالكي، ولعل المقصود هـنا أنه مثل الموطأ في الحديث ولكنه مرتب على الأبواب الفقهية.

(٢) تاريخ السودان، ص٢٩.

(٣) المصدر نفسه، ص٣١.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٧.

(٥) المصدر نفسه، ص٦٥.

(٦) المصدر نفسه، ص٢١٨.

(٧) المصدر نفسه، ص٢٩٦.

(٨) K. C, p. 79, 81.

غربي إفريقية، ومن المراجع الأساسية في الفقه المالكي.[1]

٢ ـ المدونـــة: توجد مـدونتان في الفقه المالكي: مـدونة ابن غانم[2] ومدونة سحنون. أما التي ذاع صيتها وكثر تداولها في غربي إفريقية هي مدونة سحنون، وهي التي ينصرف الذهـن إليها عندمـا يذكر الاسم «المدونة»[3]. ولابد لنا من إيراد خلفية مختصرة عن الفقه المالكي ومـحاولة التأليف فيه قبل مدونة سحنون التي كانت خلاصة لعدة محاولات، ثم إعطاء نبذة عامة عن المدونة وصاحبها.

في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري (الثـامن الميلادي) اشتهر أمر الإمام مـالك بن أنس رضي الله عنه في جمـيع أرجاء العالم الإسـلامي، وقد أسرع إليـه الناس للأخذ عنه والعودة منه وجـوانحهم مملوءة إعجـابا به وبعلمه وخلقـه ونقـده للـرجـال وتحريه في الفـتـوى وذكائه واسـتنبـاطه الأحكام من الكتاب والسنة، وتقواه وورعـه، مع ابتعاده عن ذوي السلطان، وعدم خشـيته في الحق لومة لائم.

وهـرع إليـه فـيمـن هـرع مـن علـمـاء شمـالـي إفريقـيـة للأخـذ عنـه: علـي بـن زيـاد[4] والبهلول بـن راشد[5] وعبـدالله بن فروخ[6] وعبدالله بن

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص٤٦، ٥٥.

(٢) انظر: الكعاك، مراكز الثقافة، مرجع سبق ذكره، ص١١٩.

(٣) واشتهرت أيضا بـ«المدونة الكبرى»، انظر: بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ترجمة النجار، ص٣٨١.

(٤) فقيه تونسي، حج والتقى بالإمام مالك بالمدينة وآخرين من طبقة مالك، ومنهم: الإمام الثوري والليث ابن سعد. قال عنه أبوالعرب: «ولم يكن في عصره بإفـريقية مثله». وتتلمذ على يد البهلول بن راشد وسحنون وأسد بن الفرات. انظر: أبوالعرب القيرواني: طبقات علماء إفريقية وتونس، ص٢٢٠.

(٥) عن ترجمته انظر: المصدر نفسه (أبوالعرب)، ص ص١٢٦ـ١٢٩، معالم الإيمان، جـ١، مصدر سبق ذكره، ص١٩٧ وما بعدها.

قال أبوالعرب: «كان ثقة مجتهدا ورعا لا يشك في أنه مستجاب الدعوة، وكان عنده علم كثير، لقي مالـكاً بن أنس وسفـيان الثـوري وموسى بن علي بن رباح والليث بن سـعد. .» وسـمع من هؤلاء الأعلام وعاد إلى تونس حيث سمع منه مشاهيرها أمثال سحنون وطبقته.

(٦) من شيوخ تونس، حج ولقي مـالكا والثوري وأباحنيفة. وكان يكاتب مالكا، وكـان ثقة في حديثه. انظر أبوالعرب، ص١٠٧.

غانم[1] وغيرهم من العلماء كثيـرون ذكرهم أبو العرب. ويقومون عند عودتهم بنشر ما أخذوه عنه من فقه وحديث، وبهذا انتـشر مذهبه، وكثر المعجبون به، وزاد حجـم الرحلات من إفـريقيـة ومن الأندلس إلى المدينة للقاء هذا العـالم الفذ، وأصبح له تلاميذ يرون كل ما عـدا مذهب مالك ضلالا، فهو إمام أهل المدينة معدن الإسلام ومرقد الرسول عليه الصلاة والسلام.[2]

وقد أدرك أحـد الأذكياء من فقـهاء القيروان، وهو أسـد بن الفرات[3]، هذا الميل الكلي إلى مذهب مالك عند الناس فأراد أن يوفق بين رأي مالك وأبي حنيفة، وعـاد ليكتب مؤلفه المعروف بـ«المختلطة» الذي اشتـهر بـ«الأسدية»[4]. وفي هذا المؤلف شيء من المذهبين المالكي والحنفي، ولكن فقـهاء القيروان رأوا أن الفقه المالكي الأصيل أعلق بنفوسهم، فلم يأخذوا من أسد إلا القليل الموافق لمذهب مالك وتركوا ما سواه.

ثم جاء القـاضي سحنون بمدونـته المشهـورة والتي خلدت الفقـه المالكي بجـانب الموطأ، وحينهـا نبـذ الناس الأسدية وراء ظهـورهم وتعلقـوا بالمدونة وعدّوها القانون الشامل لمدرسة مالك بن أنس الأصيلة.

والمدونة عبـارة عن الآراء الفقهـية التي كان يدرسـها ويفتي بهـا الإمام، وهي تقرير لفـقه المالكية اسـتنادا إلى نص كتاب الموطأ برواية أسـد بن الفرات النيسابـوري على أساس المسائل التي وجهـها سحنون إلى محمـد بن القاسم.

---

(١) انظر: المصـدر نفسـه (أبوالعـرب) ص١١٦، وعنه يقول أبـوالعرب: «وكـان ثبتـا ثقـة نبيـلا، ولي القضاء..» وكـان عدلا في قضائه، ولاه روح بن حـاتم في سنة إحدى وسبعين ومـئة.. سمع من مالك.. توفي سنة ١٩٠هـ».

(٢) ترتيب المدارك، ص٧ من المقدمة بقلم المحقق.

(٣) انظر ترجمته: في طبقات علماء إفريقية، ص١٦٣.

(٤) الإحاطة، مصدر سبق ذكره، ص٢٥٩.

وهي في الأصل مجموعة مسائل تبلغ نحـو ست وثلاثين ألف مسألة، جمعها أسد بن الفرات ـ كمـا ذكرنا ـ ثم أصلح فيها سحنون مسـائل ورتبها وبوبها. وقد بسط القاضي عياض هذه المسألة وفصلها تفصيلا دقيقا وافيا.[١]

وجامع المدونّة هو عـبدالسلام بن سـعيد بن حـبيب التنوخي[٢] المشهور بـ«سحنون»[٣]. وأصله من الشام، من أهل حمص. قـدم أبوه سعيد مع الجند وتعلم بالقيروان حـتى أصبح عالما ضليعا. وصـفه أبو العرب[٤] بقوله: «كان جامعا للعلم، اجتمعت فيه خلال مـا اجتمعت في غيره: الفقه البارع، والورع الصـادق، والصـرامـة في الحق، والزهادة في الدنيـا، والتـخشن في الملبس والمطعم، والسماحة».

وقد تولى القضـاء سنة ٢٣٤هـ/ ٨٤٩م في عهد أبي العباس مـحمد بن الأغلب بن زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب[٥]. وقد وضع شـروطا للسلطان عندما ألحوا عليـه في قبول هذا المنصب؛ ومضـمون هذه الشروط هو أن تطلق يده في القضاء دون تدخل السلطان ما دام الأمر يسير وفق الكتاب والسنة، وألا يحـابي أي فرد من الأمـة حتى ولو كـان السلطان نفسـه[٦]. وله مواقف مع أصـحاب الآراء المخـالفة، إذ إنه كـان أول من شـرد أهل الأهواء من المسجـد الجامع، وكانوا فيه حلقـا للصفرية والإباضية»[٧]. وكان ممن رحل إلى المشرق

---

(١) ترتيب المدارك، جـ٢، ص ص٤٦٥ـ٤٧٣.

(٢) طبقات علماء إفريقية، ص١٨٤، ترتيب المدارك، المصدر نفسه عن ٥٨٥.

(٣) بروكلمان، جـ٣، مرجع سبق ذكره، ص٢٨٠.

(٤) طبقات علماء إفريقية، ص١٨٤.

(٥) الخلاصة النقية، مصدر سبق ذكره، ص٢٩، ترتيب المدارك، جـ٢، ص٥٩٥.

(٦) انظر: معالم الإيمان، مصدر سبق ذكره جـ٢، ص ص٣ جـ٥٤.

(٧) طبقات علماء إفريقية ص١٨٤.

سنة ١٨٨هـ/ ٨٠٣م ولقي بعض العلماء. وتوفي بالقيروان سنة ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م. وله تلاميذ كثيرون في المغرب والأندلس،[١] نهلوا من علمه الفياض ونقلوا عنه المدونة وأذاعوها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا حتى أضحت مشهورة في جميع الأقطار الإسلامية لا سيما المغربية.[٢]

واشتهرت المدونة في غربي إفريقية أيضا بوضعها مرجعاً أساسياً في الفقه المالكي، فتداولها العلماء والطلاب بالدراسة، وحفلت أمهات المصادر لتاريخ هذه المنطقة بذكر هذا المؤلف. وممن كان يدرسها في تنبكت الفقيه أحمد بن عمر بن محمد أقيت، وممن درسها على يديه أخوه محمود بن عمر وغيره[٣]. ودرسها الفقيه أحمد بن محمد بن سعيد حفيد محمود بن عمر أقيت على بعض مشايخه[٤]. ودّرسها أحمد بن سعيد للفقيهين أحمد ومحمد بغيغ وأحمد بابا[٥]. وكانت من بين الكتب التي دّرسها كثيرا الفقيه محمود أقيت لطلابه[٦]. وهناك إشارات أخرى كثيرة لهذه المدونة، وتناولها كثير من العلماء بالشرح والتعليق من إفريقيين وأندلسيين وغيرهم.[٧]

وتوجد عدة مخطوطات للمدونة في الإسكندرية وفاس وبريطانية[٨]. ونشرت أربعة أجزاء بالقاهرة سنة ١٣٢٤ ـ ١٣٢٥م، ولها شروح كثيرة معظمها

---

(١) المصدر نفسه، ص١٨٤ـ١٨٥.
(٢) انظر: عنوان الدراية. مصدر سبق ذكره، ص٢٦.
(٣) نيل الابتهاج، ورقة ٦٤، تاريخ السودان، ص٣٧.
(٤) النيل، ورقة٦٧، السعدي، ص٤٣.
(٥) السعد، ص٤٥.
(٦) المصدر نفسه، ص٣٨.
(٧) انظر مثلا: المصدر نفسه، ص٤٥.
(٨) بروكلمان، ج٣، ص٢٨٢.

بمكتبة القرويين بفاس[1]، منها: تهذيب مسائل المدونة لأبي سعيد خلف بن القاسم، وشرح المدونة لعبيد الله بن الحسن بن الجلاب، والنوادر على المدونة لابن أبي زيد القيرواني. وشرح المدونة لمحمد بن أحمد بن رشد، وشرح المدونة لأبي عبدالله بن يونس، والشبهات على المدونة للقاضي عياض.[2]

٣ـ الرسالة: وهي مختصر في فقه المالكية، ومؤلفها هو أبومحمد عبدالله (أبوعبيد) بن أبي زيد عبدالرحمن القيرواني النفزاوي[3]، أشهر علماء المالكية في المئة الرابعة الهجرية. ولد سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٨م بنفزاوة التونسية. وكانت أكثر إقامته في القيروان. وتوفي ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م وقيل سنة ٣٣٨ أو ٣٩٠هـ بمدينة فاس[4]، وقيل القيروان.[5]

لقد برع ابن أبي زيد في علوم الشريعة. وفاق الأقران فاشتهر علمه وضربت إليه أكباد الإبل من الأقاصي للأخذ عنه[6]، وأصبح إمام المالكية في وقته وشارح أقوال الإمام مالك، وعنه يقول النيفر[7]: «كان واسعَ العلم، جيد الفهم، كثيرَ الرواية، فصيحا، غزير الحفظ، بصيرا بالرد على أهل الأهواء شاعرًا..».

ألف الرسالة سنة سبع وعشرين وثلاثمئة، وسنه إذ ذاك سبع عشرة سنة[8]. وكان الغرض منها أن تكون كتابا تعليميا للصبيان[9]. وانتشرت في

---

(١) المكان نفسه.

(٢) المرجع نفسه، ص ص٢٨٢ـ٨٤.

(٣) النيفر: عنوان الأريب، جـ١، مصدر سبق ذكره، ص٣٤.

(٤) بروكلمان، المرجع السابق، ص٢٨٦.

(٥) معالم الإيمان، ص١٣٥، عنوان الأريب، ص٣٤.

(٦) عنوان الأريب، جـ١، ص٣٤.

(٧) المكان نفسه.

(٨) معالم الإيمان، ص١٣٨.

(٩) المصدر السابق، المكان نفسه.

سائر بلاد المسلمين: في العراق واليمن والحجاز والشام ومصر وبلاد النوبة وصقلية، وجميع بلاد إفريقية والأندلس والمغرب وغربي إفريقية[١]. وتنافس الناس في اقتنائها حتى كتبت بالذهب، وأول نسخة منها أرسلها مؤلفها إلى أبي بكر الأبهري، إمام المالكية ببغداد، فأظهر الفرح بها، وشاع خبرها بين الناس وأثنى عليها وعلى مؤلفها، وأمر ببيعها ليحسن بثمنها إلى الواصل بها، فبيعت بوزنها دنانير كان عددها ثلاثمئة دينار ونيف[٢]، وقيل عشرين دينارا ذهبا[٣]، وبعثت نسخة إلى أبي بكر بن زربي بقرطبة.[٤]

كانت هذه الرسالة كتابا تعليميا مهماً في غربي إفريقية، وموضع عناية الأساتذة والطلاب، فكثرت الإشارات إليها في المصادر الخاصة بهذه البلاد. فيذكر السعدي[٥] بأنها كانت من أكثر الكتب التي كان يقرئها العالم الفقيه محمود أقيت. وقرأها الفقيه مخلوف البلبابي على يد الفقيه عبدالله بن عمر أقيت ببلدة والاتا[٦]، وقرأها الفقيه أحمد بابا التنبكتي على يد الفقيه محمد بغيغ[٧] والفقيه أحمد بن الحاج بن عمر أقيت على يد عبدالرحمن بن الفقيه محمود أقيت[٨]، وقرأها آسكيا داود على شيخ له[٩]. ودرسها الفقيه أحمد ابن سعيد[١٠]، وقرأها الفقيه محمود كعت على يد الفقيه حامد[١١]. وذكرها

(١) المصدر السابق، المكان نفسه.
(٢) عنوان الأريب، ص٣٤.
(٣) معالم الإيمان، ص ص١٣٨ـ ١٣٩.
(٤) المصدر السابق، المكان نفسه.
(٥) تاريخ السودان، ص٣٨.
(٦) المصدر نفسه، ص٣٩، نيل الابتهاج، ورقة ٣٢٤.
(٧) تاريخ السودان، ص٤٦.
(٨) المصدر نفسه، ص٥٤.
(٩) تاريخ الفتاش، ص٩٤.
(١٠) تاريخ الفتاش، ص٩٤.
(١١) نيل الابتهاج، ورقة٦٧.

الشيخ عبدالله بن فودي ضمن الكتب التي قرأها.

توجد عدة نسخ من الرسالة في مختلف مكتبات العالم مثل برلين وباريس وكمبرج والاسكوريال ونابولي والفاتيكان ومانشستر وتونس والقاهرة[١]. وحظيت باهتمام الباحثين والناشرين والمحققين، فنشرت في فاس والقاهرة وباريس ـ بالفرنسية ـ وفي لندن ـ مع ترجمة إنجليزية[٢]. وبلغت شروحها ثمانية وعشرين شرحا، ذكرها بروكلمان.[٣]

٤ ـ **المختصر**: توجد ثلاثة مختصرات، اثنان منها لابن الحاجب: أحدهما في الفقه المالكي ويعرف بـ«مختصر ابن الحاجب الفرعي»[٤]، والآخر في الأصول، ويعرف بـ«مختصر ابن الحاجب الأصلي»[٥]، والمختصر الثالث للشيخ خليل.

أ) مختصر ابن الحاجب: وابن الحاجب هو عثمان بن عمر بن يونس جمال الدين المصري (٥٧٠هـ ـ ٦٤٦هـ/ ١١٧٤ـ ١٢٤٨م)، المشهور بابن الحاجب، نسبة إلى أن والده كان يعمل حاجبا للامير عزالدين موسك الصلاحي.[٦]

وقد اشتهر مختصره الفرعي في المغرب وغربي إفريقية. أدخله

(١) بروكلمان، جـ٣، ص٢٨٦.

(٢) المكان نفسه.

(٣) المرجع نفسه، ص ص٢٨٧ـ٢٨٩.

(٤) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون، مصدر سبق ذكره، ص١٧ (هامش)، (وقد زاد المحقق اسما ثالثا وهو «الجامع بين الأمهات».. ويبدو أن «جامع الأمهات» كتاب في الفقه للمؤلف نفسه. وفي هذا انظر: زيدان: تاريخ آداب اللغة، جـ٣، مرجع سبق ذكره، ص٥٧.

(٥) انظر: السيوطي، حسن المحاضرة، جـ١، مصدر سبق ذكره، ص١٩٤.

(٦) المكان نفسه، تاريخ آداب اللغة، المرجع السابق، ص٥٦.

إلى المغرب عبدالرحمن بن سليمان البجائي[1] (ت٧٧٣هـ/ ١٣٧١م). وعني بشرحه كثير من المغاربة؛ كالقاضي ابن عبدالسلام التونسي، شيخ ابن خلدون[2]، وابن مرزوق الحفيد وابن هارون وابن هلال. وممن عني بشرحه في غربي إفريقية الفقيه أحمد بابا التنبكتي.[3]

وما لبث أن حجب مختصر الشيخ خليل مختصر ابن الحاجب.

ب) مختصر خليل: مؤلف هذا الكتاب هو الشيخ خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب، المعروف بـ«الجندي» ضياء الدين أبو المودة[4]. حامل لواء مذهب مالك في زمانه بمصر[5]. وكان مدرس المالكية بالمدرسة الشيخونية[6]، وهي أكبر مدرسة بمصر في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي). وكان يرتدي زي الجندية وهو يمارس التدريس، ويرتزق على الجندية[7]، فاشتهر لذلك بالجندي. حج وجاور بالمدينة. ولازم التدريس إلى أن مات بالمدينة المنورة عام ٨١٨هـ/ ١٤١٥م[8]. وضع شرحا لمختصر ابن الحاجب الآنف

(١) التعريف بابن خلدون، ص١٧.

(٢) المكان نفسه.

(٣) ابن مريم، البستان، مصدر سبق ذكره، ص١٢٦.

(٤) نيل الابتهاج، ورقة ٨٠؛ البستان، ص١٩٦.

(٥) النيل، المكان نفسه؛ البستان، ص٩٧؛ حسن المحاضرة جـ١، مصدر سبق ذكره، ص١٩٥.

(٦) تقع الآن بالقلعة، قرب قسم الخليفة وهي مسجد جامع الآن. وهي نسبة إلى سيف الدين شيخو العمري. انظر: الخطط المقريزية، جـ٤، ص ص٢٨٣ـ٢٩٢، ص ص١١٣ـ١١٥.

(٧) النيل، ورقة ٨٠.

(٨) المصدر نفسه، ورقة٨٣.

الذكر، عرف بـ«التوضيح»[١]. ووجد هذا الشرح قبولا عند الناس، فعكفوا على تحصيله ودراسته.[٢]

أما المختصر الذي اشتهر به فهو ما وضعه في المذهب المالكي، بين فيه المشهور مجردا من الخلاف، وفيه فروع كثيرة، وعرف بمختصر خليل لأنه مختصر، وكانت مقاصده جميلة، فأقبل عليه الطلبة ليدرسوه[٣]، وطغت شهرته وشهرة توضيحه على شهرة مختصر ابن الحاجب ومدونة سحنون، ومال الناس إليه، وفي هذا يقول أحمد بابا[٤]: «ولقد وضع الله سبحانه وتعالى القبول على مختصره وتوضيحه من زمنه إلى الآن، فعكف الناس عليهما شرقا وغربا حتى لقد آل الحال في هذه الأزمنة المتأخرة إلى الاقتصار على المختصر في هذه البلاد المغربية مراكش وفاس وغيرها، فقلّ أن ترى أحدا يعتني بابن الحاجب فضلا عن المدونة، بل قصاراهم الرسالة وخليل».

ومدح هذا المختصر كثير من علماء عصره منهم: ناصرالدين اللقاني. الذي كان يرجح رأي خليل في المسائل التي تعرض له[٥]، والشيخ ابن غازي الذي قال عنه: «إنه أفضل نفائس الأعلاق وأحق مارمت بالأحداق.. عظيم الجدوى، بليغ الفحوى.. وجمع مع الاختصار شدة الضبط والتهذيب.[٦]

وكثر شراحه والمعلقون عليه حتى وضع عليه أكثر من ستين تعليقا ما بين

---

(١) نفسه، ورقة٨١؛ حسن المحاضرة، جـ١، ص٩٥، وكان التوضيح في ست مجلدات، وممن درسه في غربي إفريقية الفقيه أبوعبدالله محمد بابا بن محمد الأمين على يد محمد بن كري. انظر: السعدي، ص ص٢١٧ـ٢١٨.

(٢) النيل، ورقة٨٠؛ البستان، ص٩٧.

(٣) المكانان نفساهما.

(٤) النيل، المكان نفسه.

(٥) النيل، ورقة٨١.

(٦) المكان نفسه.

شرح وحاشية[1]. ومن شراحه في غربي إفريقية الفقيه أحمد بابا، الذي يقول عن ذلك: «وقد يسر الله لي في وضع شرح عليه، جمعت فيه لباب كلام من وقفت عليه من شراحه وهم أزيد من عشرة مع الاختصار والاعتناء بتقرير ألفاظه منطوقا ومفهوما، وتذييله على النقول بحيث لو كمل لما احتيج غالبا إلى غيره»[2]. والذي أعاق التنبكتي عن مواصلة شرح هذا المؤلف هو المحنة التي تعرض لها عند الغزو المراكشي لبلاده وضياع نفائس كتبه، وعندما حل بمراكش دفع بهذا الشرح إلى الفقيه إبراهيم الشاوي، الذي كان من أكبر فقهائها حينذاك وأكثرهم خدمة للفقه، فأعجب به وصار يعتمد عليه وينقل منه في درسه ويثني عليه في مجلسه بين أصحابه[3]. وله عدة شراح من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ذكرهم ابن مريم.[4]

وقد لخص من مختصره أثناء حياته إلى كتاب «النكاح» وأما باقيه فقد وجد مسودة في تركته، وقام أصحابه بجمعه وضمه لما لخص، فكمل الكتاب.[5]

ومنذ القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ظل هذا المختصر من الكتب الفقهية المهمة في معظم البلاد الإسلامية ومنها غربي إفريقية. وقد وردت عنه إشارات عديدة في مصادر غربي إفريقية. فالسعدي[6] يذكر بان هذا

---

(١) المكان نفسه.

(٢) المصدر نفسه، ورقات ٨١ـ٨٢.

(٣) المصدر نفسه، و٨٢.

(٤) انظر: البستان، مصدر سبق ذكره، ص ص٩٩ـ١٤٤.

(٥) النيل، ورقة٨٢، (وأيضا له شرح على المدونة لم يكمل، وصل فيه إلى كتاب «الحج» انظر: المصدر نفسه، ورقة ٨١).

(٦) تاريخ السودان، ص٣٨ـ٣٩.

المختصر كان من بين الكتب الفقهية التي كان يُدِّرسها كثيرا لطلابه الفقيه محمود أقيت. وعن هذا الفقيه انتشر تدريس مختصر خليل في منطقة تنبكت[١] وتذكر مخطوطة أصل الونغريين أن هذا المختصر قد جاء به إلى بلاد الهوسا شيخ مصري، ونرجح أن يكون هذا الشيخ هو جلال الدين عبدالرحمن السيوطي المصري[٢]. ودرسه مرارا الفقيه أحمد بابا على شيخه محمد بغيغ، ونال الإجازة فيه من هذا الشيخ[٣]. وكان من بين الكتب التي درسها الشيخ عبدالله ابن فودي وأخوه عثمان بن فودي.[٤]

٥ ـ الموطّأ: مؤلفه هو أبو عبدالله بن أنس بن أبي عامر بن عمرو الأصبحي، نسبة إلى قبيلة ذي أصبح اليمنية[٥]. وهو إمام أهل المدينة وأهل الحديث، وأشهر من أن يعرف به.

أما كتابه الموطأ فهو في الحديث رتب على أبواب الفقه، جمع أحاديثه الإمام مالك بتوجيه من الخليفة أبي جعفر المنصور. ويعد من أوائل الكتب التي ألفت في الحديث والفقه. وقد نشره تلاميذ مالك الذين أخذوا عنه وتفرقوا في الأمصار المختلفة، أشهرهم: محمد بن الحسن في العراق. ويحيى ابن يحيى الليثي في الأندلس وعبدالله بن وهب وعبدالرحمن بن القاسم وعبدالله بن الحكم وأشهب في مصر وأسد بن الفرات وطبقته في القيروان.[٦]

ومنذ ذلك الوقت أضحى كتاب الموطأ ذا أثر كبير في الحركة العلمية

---

(١) المكان نفسه.

(٢) Al-Hajj, op. cit., p. 13.

(٣) النيل، و٨٢.

(٤) إيداع النسوخ، ص٥.

(٥) بروكلمان، جـ٣، ص٢٧٤.

(٦) ضحى الإسلام، جـ٢، مرجع سبق ذكره، ص٢١٥.

الدينية على اختلاف العصور، وحفظ لنا جزءا هاما من السنة النبوية، واهتم به المغاربة والأندلسيون ومسلمو غربي إفريقية لسيادة مذهب مالك في هذه البلاد حتى يومنا هذا، فتداولوه وعنوا به كثيرا تفقها ودراسة وحفظا[1] وخطا باليد. ومازال الباحثون والناشرون يعتنون به. وقد نشر في عدة طبعات، وله عدة شروح ومختصرات وتعليقات.[2]

لقد تكرر ذكره في أمهات كتب الحضارة الإسلامية بغربي إفريقية، ومن بين الإشارات إليه أن أحمد بابا درسه على أبيه أحمد بن أحمد بن عمر أقيت.[3] ودرسه أحمد ومحمد بغيغ على يد الفقيه أحمد بن سعيد[4]، ودرسه الفقيه أبوعبدالله محمد بابا بن محمد الأمين بن حبيب على يد الفقيه عبدالرحمن بن أحمد أقيت.[5]

٦ ـ الألفية:

أ) ألفية ابن مالك : هي في علم النحو. ومؤلفها هو محمد بن عبدالله ابن مالك بدرالدين الشافعي الأندلسي المتوفى سنة ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م. كان صدرا في النحو والمعاني والببيان.[6]

جمع ابن مالك قواعد العربية في هذه الألفية التي عرفت أيضا بـ«الخلاصة»، ولكنها اشتهرت بـ«الألفية»، لأنها مكونة من ألف بيت[7]

---

(١) انظر: ابن بشكوال، الصلة، ص٣٥، ١٠٨ وأماكن متفرقة.

(٢) انظر: بروكلمان، جـ٣، ص ص٢٧٥ـ٢٨٠.

(٣) نيل الإبتهاج، و٦٦.

(٤) المصدر نفسه، و٦٧.

(٥) تاريخ السودان، ص٢١٨.

(٦) السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ص٩٦؛ تاريخ آداب اللغة، جـ٣، ص١٥١.

(٧) تاريخ آداب اللغة، المكان نفسه.

من الشعر التعليمي، ومطلعها:

قال محمد هو ابن مالك   أحمد ربي الله خير مالك

وتبدأ بالكلام وما يتألف منه، وفي ذلك يقول:

كلامنا لفظ مفيد كاستقم   واسم وفعل ثم حرفٌ الكَلِم
واحده كَلِمةٌ والقول عم   وكِلْمَة بها كلام قد يُؤَم

ما زالت هذه الألفية تدرس في العالم الإسلامي حتى في الجامعات الحديثة[1]. ونالت نصيبا كبيرا من العناية في غربي إفريقية، فهي من الكتب الدراسية التي درسها الفقيه أحمد بابا[2]، ومن الكتب التي كان يكثر من قراءتها أبوالمحاسن عالم التكرور، محمود بن عمر أقيت[3]. واهتم بها طلاب بلاد الهوسا أيضا[4]. ويكفيها شهرة أنك إذ قلت «الألفية» انصرف الذهن إليها مباشرة.

واعتنى بها الناشرون المترجمون والشراح من مسلمين ومستشرقين، وأشهر شروحها هو شرح ابن عقيل (ت ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م).[5]

ب) ألفية السيوطي[6] : هذه الألفية تلخيص لما في ألفية بن مالك السابقة في ستمئة بيت مع زيادة أربعمائة بيت[7]، فأصبحت أيضا ألف بيت، وتلاحظ هذه الزيادة في طبعة الحلبي، حيث وضعت الزيادة بين قوسين.

---

(١) كانت ضمن مقررات النحو التي درستها في كلية آداب جامعة الخرطوم - شرح ابن عقيل على الألفية.
(٢) تاريخ السودان، ص١٤٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٨.
(٤) حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، مرجع سبق ذكره، ص٦٢.
(٥) تاريخ آداب اللغة، جـ٣، ص١٥١.
(٦) انظر ترجمته في فصل التبادل التعليمي.
(٧) انظر: طبعة الحلبي، من دون تاريخ.

أصبحت هذه الألفية منذ القرن الرابع عشر كتابا دراسيا يعول عليه طلاب العلم في معاهد غربي إفريقيـة بجانب ألفية ابن مالك، وشارك العلماء في شرحها والتعليق عليها؛ فقد قام الفقيه أبوعبدالله محمد بابا ابن محمد الأمين بشرحها.(١)

وعرفت هذه الألفـية عند مـؤلفهـا بـ«الفريدة».(٢) وعرفت بهذا الاسم أيضا في غربي إفريقية.(٣)

٧ ـ الصحيحان:

أ) صحيح البخاري : هو كتاب في الحديث، اسمـه «الجامع الصحيح» واشتـهر بـ«صحيح البـخاري» أو «البخـاري». ومؤلفه هو محـمد بن إسمـاعيل بن إبراهيم بن المغيـرة بن بردازبْه. كان أجداده فـرسا على دين المجوس. وأول من أسلم من أجداده المغيرة، أسلم على يد اليمان الجعفي والي بخارى، فكان ولاؤه له، وتنقل الولاء في أولاده. لذلك يقال في البـخاري إنه محـمد بن إسماعـيل أبوعبدالله الجـعفي. ولد البخاري سنة ١٩٤هـ/ ٨٠٩م.(٤) كان والده من المحدثين، ومات وهو صغيـر، فألحقته أمـه بالكتاب، ولذكائه حفظ القـرآن وهو ابن عشر، وحفظ كـتب ابن المبارك ووكيع في الحديث وهو ابن ست عـشرة(٥). وبعد ذلك استـقل بنفـسه في طلب العلم وجـمع الحديث من جـميع

---

(١) تاريخ السودان، ص٢١٨.
(٢) حسن المحاضرة، ص١٤٤.
(٣) إيداع النسوخ، ص٧.
(٤) ضحى الإسلام، جـ٢، ص١١٠.
(٥) المكان نفسه.

الأمـصار، ومـيـزه الله بحـافظة قـوية ومهـارة في مـعـرفة الرجـال ونقدهم.[١]

لقد أراد لكتابه «الصحيح» أن يكون مقـتصرا على جميع الأحاديث الصحيحة المتصلة السند.[٢]

وبلغ هذا الكتاب حـد التقديـس في مدينة جني[٣] بغربي إفـريقية ومدينة تنبكت[٤]. وكان على رأس كـتب الحديث التي أولاهـا علماء وطلاب غربي إفريقية عنايتهم.[٥]

ونص البخاري الذي بين أيدينا الآن مـن تحرير شرف الدين علي بن محمد المتوفى سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٢م[٦]. وتكاد توجد مخطوطاته في كل مكتبة من مكتبات العالم[٧]. وله عدة شروح وطبعات.[٨]

ب) صحيح مسلـم : مؤلفه مسلم بن الحجاج، عربـي الأصل من قشير، ومسكن أهله نيسابور. قد رحل إلى كثير من الأمصار في طلب العلم وجمع الحديث[٩]، وأستفاد كثيرا من البخاري حينما استوطن البخاري نيـسابور، وأخـذ عنه وتعلم منه وتأثر به، وقـد مـات بنيسـابور سنة ٢٦١هـ/ ٨٧٥م. وألف كـتبـا أشهـرها صحـيحـه[١٠]. ويقرن هذا

---

(١) المرجع نفسه، ص ص١١١ـ١١٢.

(٢) نفسه، ص١١٢.

(٣) تاريخ السودان، ص١٥٩.

(٤) تاريخ الفتاش، ص١٧٣.

(٥) انظر مثلا: تاريخ السودان، ص٤٦؛ إيداع النسـوخ، ص٦؛ شيخو، ص٦٢، The Life of Shehu, op. cit., p. 439.

(٦) بروكلمان، جـ٣، ص١٦٥.

(٧) المكان نفسه.

(٨) المرجع نفسه، ص ص١٦٥ـ١٧٧.

(٩) ضحى الإسلام، جـ٢، ص١١٩.

(١٠) المكان نفسه.

الصحيح دائماً بصحيح البخاري لرفعة درجتيهما والوثوق بهما.[١]

وصل الإجلال بصحيح مسلم إلى الدرجة التي جعلت بعض المسلمين في غربي إفريقية يقسمون عليه كما يفعلون بالقرآن[٢]. وكان من الكتب الدراسية المهمة في علم الحديث عند علماء غربي إفريقية.[٣]

٨ ـ **السير والتأريخ** : إن أهم كتاب كان يتناوله طلاب العلم في معاهد غربي إفريقية في مجال التاريخ هو السيرة النبوية لمحمد بن إسحاق بن يسار الفارسي الأصل.

وهو الكتاب المشهور بـ«سيرة ابن هشام» إذ إن ابن هشام هو الذي اختصره وأخرجه للناس على صورته الحالية[٤]، وتداوله الناس منذ القرن الثالث الهجري، وظلوا يستقون منه أهم أحداث عهد الرسول عليه السلام.

كانت السيرة النبوية من المواد الأساسية في المقررات الدراسية في معاهد غربي إفريقية. وكثيرا ما يذكر مؤرخو هذه المنطقة كلمة «السير» دون ربطها بابن إسحاق أو ابن هشام[٥]، وهم يعنون بذلك السيرة النبوية لابن إسحاق.

وكان لمن يريد أن يكون معلما أن يلم بالتاريخ الإسلامي العام[٦]، وخاصة تاريخ صدر الإسلام إلى جانب الاهتمام بتاريخ وطنه الصغير الذي يعيش فيه. وقد أشار السعدي إلى اهتمام أسلافه بتاريخ بلادهم، وذلك في

---

(١) المكان نفسه.

(٢) تاريخ الفتاش، ص١٧٣.

(٣) تاريخ السودان، ص٣٣، احمد شيخو، مرجع سبق ذكره، ص٦٢.

(٤) ضحى الإسلام، جـ٢، ص٣٣.

(٥) انظر: تاريخ السودان، ص٣٤.

(٦) انظر: الإسلام واللغة العربية في إفريقية، مرجع سبق ذكره، ص٧٦.

قوله: «فقد أدركنا أسلافنا المتقدمين أكثر ما يتوانسون به في مجالسهم ذكر الصحابة والصالحين رضي الله عنهم ورحمهم، ثم ذكر أشياخ بلادهم وملوكها وسيرهم وقصصهم وأدبائهم وذويهم، وهو أحلى مايروون وأشهى ما يتذاكرون حتى انقرض ذلك الجيل ومضى..»[1] وعندما رأى السعدي إعراض جيله عن الاهتمام الكافي بالتاريخ قام بتدوين ما رآه مفيدا في كتابه: «تاريخ السودان»، إذ يقول: «.. وأما الجيل الثاني ما كان فيهم من له الاعتناء بذلك ولا من يقتدي بطريق السلف..».[2]

٩ ـ التفسير: من الكتب التي اشتهرت في تفسير القرآن بمعاهد غربي إفريقية، التفسير المشهور بـ«الجلالين»[3]، نسبة إلى العالمين: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي المصري، وجلال الدين محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن أحمد بن هاشم المحلى المصري الشافعي المتوفى سنة ٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م.[4]

ويبدو أن شيوع هذا التفسير لاختصاره وللمكانة المرموقة التي احتلها السيوطي في غربي إفريقية.[5]

وقد وردت إشارات كثيرة للتفسير ولكن معظمها لم يقرن بكتاب معين، فقد يذكر التلميذ أنه فسر على شيخه فلان القرآن العزيز إلى سورة كذا[6]، أو أنه أخذ التفسير على فلان من العلماء.[7]

(١) تاريخ السودان، ص١.
(٢) المكان نفسه.
(٣) انظر: شيخو، ص٦٢.
(٤) لهذا العالم عدة تصانيف أخرى وهى في الفقه الشافعي وأصول الفقه والنحو والمنطق. انظر ترجمته في معجم المؤلفين، جـ٨، ص٣١١.
(٥) تاريخ السودان، ص٣٣.
(٦) المصدر نفسه، ص٤٦.
(٧) إيداع النسوخ، ص٦.

١٠ ـ **التهذيب** : هو كتاب في الفقه، ومؤلفه هو أبو سعيد خلف بن أبي القاسم الأزدي المكنى بـ«البراذعي»[(١)]. والكتاب عبارة عن تهذيب للمدونة والمختلطة (الأسدية)، لذا عرف أيضا بـ«مختصر تهذيب البراذعي»[(٢)]. وقد تم تصنيفه سنة ٣٧٢هـ/ ٩٨٢م[(٣)]. ومنذ ذلك التاريخ أصبح من الكتب الفقهية المهمة التي يتدارسها الطلاب والعلماء في المغرب والأندلس، ثم انتقل إلى غربي إفريقية، وتخصص في تدريسه العلماء. وممّن اشتهر بتدريسه في تنبكت الفقيه عبدالرحمن بن الفقيه مختار النحوي، الذي يصفه السعدي[(٤)] بأنه: «عالم التهذيب»، والفقيه القاضي مودب محمد الكابري، الذي يروى عنه أنه لا ينسلخ شهر إلا ويختم عليه تهذيب البراذعي لكثرة طلابه.[(٥)]

١١ ـ **المدخل** : وهو في الكشف عن الخرافات والبدع الدخيلة على الفكر الإسلامي، والتي كان يفعلها الناس ويتساهلون فيها، وأكثرها مما ينكر. وهو كتاب حافل جامع يدل على غزارة علم مؤلفه، وهو في أربعة أجزاء.[(٦)]

ومؤلف المدخل هو أبو عبدالله محمد بن محمد بن الحاج العبدري الفاسي المشهور بـ«ابن الحاج». وكان من أقطاب الصوفية وأعلام السنة الضليعين في زمانه. وقد زار مصر وتدارس مع أعلامها من أعيان مذهب الإمام مالك[(٧)]. وتوفي بالقاهرة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م.[(٨)]

---

(١) عنوان الدراية، مصدر سبق ذكره، ص٢٦ من مقدمة المحقق؛ بروكلمان جـ٣، ص٢٩٠؛ التعريف بابن خلدون، ص١٩؛ كفاية المحتاج. ترجمة البراذعي.

(٢) كفاية المحتاج، المكان نفسه.

(٣) بروكلمان، المكان السابق نفسه.

(٤) تاريخ السودان، ص٢٩.

(٥) المصدر نفسه، ص٤٧.

(٦) النبوغ المغربي، جـ١، مرجع سبق ذكره، ص١٣٨؛ عصر السلاطين المماليك جـ٣، مرجع سبق ذكره، ص١٦٨.

(٧) النبوغ المغربي، المكان نفسه.

(٨) حسن المحاضرة، جـ١، ١٩٤.

ومما يدل على أن المدخل كان معروفا في غربي إفريقية أن الفقيه أحمد بابا درسه على يد شيخه محمد بغيغ.[1]

١٢ ـ الأجرومية : هي مؤلف في النحو، مقسمة إلى أبواب مثل: باب الإعراب وباب معرفة علامات الإعراب، وباب الأفعال، وباب مرفوعات الأسماء، وباب الفاعل، وباب المفعول الذي لم يسم فاعله، وباب المبتدأ والخبر... وإلخ.[2]

ومؤلف «الأجرومية» هو أبو عبدالله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي الفاسي المشهور بـ«ابن آجروم». وكان نحويا مقرئا. توفي بفاس عام ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م.[3]

أشتهر أمر الأجرومية في غربي إفريقية. فقد قام الشيخ العالم النحوي أحمد أقيت بشرحها، وتداول الناس هذا الشرح حتى فاس[4]. وكانت من الكتب التي درسها الشيخ عبدالله بن فودي.[5]

وللأجرومية عدة طبعات وشروح يضيق المجال عن حصرها.[6]

١٣ ـ مقامات الحريري : هي في الأدب، وتشتمل على كثير من كلام العرب ولغاتها وأمثالها. ومؤلفها هو أبو محمد القاسم بن علي بن محمد عثمان الحريري البصري، أحد أئمة عصره في علوم اللغة. ولد بالبصرة وتوفي بها

---

(١) تاريخ السودان، ص٤٦.

(٢) انظر: شرح ابن دحلان لمتن الأجرومية، طبعة الحلبي؛ فاس في عصر بني مرين، مرجع سبق ذكره، ص١٧٦.

(٣) النبوغ المغربي، جـ١، ص١٤١، تاريخ آداب اللغة العربية ج٣ ص١٥٦.

(٤) نشر المثاني، مصدر سبق ذكره، ص١٦٨.

(٥) إيداع النسوخ، ص٣.

(٦) انظر: تاريخ آداب اللغة جـ٣، ص ص١٥٦ـ١٥٧.

سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م.[١]

تختلف الآراء حول الشخص الذي ألف الحريري من أجله هذه المقامات، والراجح أنه ألفها لشرف الدين وزير الإمام المسترشد بالله.[٢]

ومما يدل على الاهتمام بها في غربي إفريقية أن شارك بعض العلماء في التعليق عليها، ومن أولئك الفقيه أبوعبدالله محمد بابا بن محمد الأمين بن حبيب.[٣]

واعتنى بها المستشرقون كثيرا فنشروها في عدة طبعات وترجموها إلى عدة لغات. ولها شروح عربية أشهرها شرح الشريشي أحمد بن عبدالمؤمن بن موسى المتوفى سنة ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م.[٤]

١٤ ـ رجز المغيلي: وهو في المنطق[٥]. ومؤلفه هو محمد بن عبدالكريم المغيلي، العالم المغربي التلمساني المشهور. وقد قام بشرح هذا الرجز الفقيه محمد بن محمود أقيت[٦]، والفقيه أحمد بن أحمد بن عمر أقيت[٧]. ويلاحظ أن هذا الرجز كان من أهم المواد الدراسية في الفلسفة في غربي إفريقية في هذه الفترة، وعرفت هذه المادة بعدة أسماء، فأحيانا يشار إليها بـ«البيان والمنطق»[٨] أو بأحدهما أو بـ«علم الكلام والمجادلة» أو بأحدهما.[٩]

---

(١) انظر: تاريخ آداب اللغة، جـ٣، ص٤٠.

(٢) ولي الخلافة من سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م حتى سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م.

(٣) تاريخ السودان، ص٢١٨.

(٤) تاريخ آداب اللغة جـ٣، ص ص٤٠ـ٤١، ونسبته إلى بلدة شريش الأندلسية؛ معجم المؤلفين جـ١، ص٣٠٤.

(٥) تاريخ السودان، ص٤٠، ٤٦.

(٦) المكان نفسه.

(٧) المصدر نفسه، ص٤٣.

(٨) المكان نفسه، وص٤٥، ٢٢٢.

(٩) انظر: المصدر نفسه، ص٢١٧.

١٥ ـ **عقائد السنوسي** : مؤلفها هو محمد بن محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي، واشتهر بـ «السنوسي» نسبة إلى قبيلة مغربية، الحسني، نسبة للحسن بن علي رضى الله عنه. أما مؤلفاته المعروفة بـ«العقائد» فهي في التوحيد، وهي ثلاثة: العقيدة الكبرى والوسطى والصغرى.

وأول مؤلفاته هي العقيدة الكبرى، التي سماها «عقيدة أهل التوحيد». وقام بعد ذلك بوضع شرح لها، ثم ألف بعدها العقيدة الوسطى وشرحها. أما العقيدة الصغرى فقد كانت أشهرها، وعنها يقول التنبكتي[1]: «من أجلّ العقائد، لا تعادلها عقيدة»، وتعرف أيضا بـ«أم البراهين».

وله غير هذه العقائد الثلاث العقيدة المختصرة. وهي أصغر من العقيدة الصغرى، وتسمى أيضا بـ«صغرى الصغرى».[2]

وكانت هذه العقائد محور علم التوحيد في معاهد غربي إفريقية،[3] وامتدحها الناس، ومن ذلك قول أحدهم:

فخار تلمسان عليك بكتبه   فقد فاقت التبر المخلص طافحا[4]

وقام بعض علماء غربي إفريقية بالتعليق على بعض هذه العقائد، لا سيما الصغرى، و منهم والد أحمد بابا.[5]

وبجانب ما ذكرناه من الكتب الشائعة في شتى فروع المعرفة، فهناك مواد وكتب أخرى كانت تدرس ووردت الإشارة إليها بصيغ مختلفة، نذكر منها على

---

(١) نيل الابتهاج، ورقة ٣٠١، ٦٦.

(٢) عن ترجمة السنوسي وكل كتبه، انظر: المصدر نفسه، الأوراق ٢٩٥ـ٣٠٢؛ البستان، ص ص٢٣٧ـ٢٤٨.

(٣) انظر: تاريخ ا لسودان، ص٤٦؛ إيداع النسوخ، ص٣.

(٤) البستان، ص٢٤٨.

(٥) تاريخ السودان، ص٤٣.

سبيل المثال وباختصار شديد: الخزرجية في العروض، ومؤلفها هو أحمد بن سعود بن محمد القرطبي الخزرجي[١]، والعشرينيات (أو العشريات أو الفازازية) للوزير أبي زيد عبدالرحمن أبي سعيد يَخْلُفْتَنْ بن أحمد الفازازي الأندلسي، المتوفى بمراكش سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م[٢]. وهي مجموعة من القصائد الشعرية في مدح الرسول عليه السلام[٣]. ومن مؤلفات السيوطي البهجة المرضية في النحو[٤] وألفية الأثر في الحديث[٥] وشرح النقاية في الأصول والبيان والتصوف[٦] وألفية المعاني[٧] والكوكب الساطع في نجم جمع الجوامع، وهو في الأصول والبيان والتصوف وشرحه الكوكب الوقاد في الاعتقاد،[٨] وجمع الجوامع في الفقه وجمع الجوامع في العربية،[٩] والجامع الصغير من حديث البشير النذير في الحديث، ومقتضب من الكتاب الكبير، وجمع الجوامع، وقصد فيه جمع الأحاديث النبوية بأسرها، ويشمل على عشرة آلاف حديث وواحد وثلاثين حديثا.[١٠]

ومن الكتب المشهورة أيضا لغير السيوطي: القرطبية في الفقه، ليحيى القرطبي[١١]، و قطر الندى وبل الصدى في النحو لجمال الدين عبدالله بن

---

(١) تاريخ السودان، ص٤٦، الزركلي؛ الأعلام، جـ١، ص٢٤١.

(٢) تاريخ السودان، ص٤٢، ٤٣؛ إيداع النسوخ، ص٣؛ بغية الوعاة، جـ١، ص٣٠٤؛ نيل الابتهاج، و١١٥، انظر طبعة الحلبي بشرح الزهري الغمراوي.

(٣) تاريخ السودان، ص٤٢ـ (قام والد أحمد بابا بشرحها).

(٤) حسن المحاضرة، ص١٤٤؛ إيداع النسوخ، ص٧.

(٥) إيداع النسوخ، ص٩.

(٦) حسن المحاضرة، ص١٤٤؛ إيداع النسوخ، ص٨.

(٧) إيداع النسوخ، ص٨.

(٨) حسن المحاضرة، ص١٤٤، إيداع النسوخ، ص٨.

(٩) حسن المحاضرة، ص١٤٣، ١٤٤، تاريخ السودان، ص٢١٨؛ إيداع النسوخ، ص٨.

(١٠) السيوطي: الجامع الصغير، تحقيق محمد محي الدين، K: C. p.81.

(١١) تاريخ السودان، ص٤٣.

يوسف بن عبدالله المصري الإمام المشهور بابن هشام، صاحب الألفية[1] والمعيار المعرب عن فتاوي إفريقية والمغرب والمشهور بـ«جامع المعيار»[2] في الفقه، لأحمد بن يحيى بن محمد التلمساني المشهور بـ«الونشريشي (ت ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م)[3]، وتسهيل الفوائد وتكميل المقاصد المشهور بـ«التسهيل» في علل النحو، لابن مالك النحوي[4]، وتلخيص المفتاح المشهور بـ«التلخيص» في المعاني والبيان (علم البلاغة) لمحمد بن محمد بن عبدالرحمن بن عمر المعروف بـ«القزويني» (ت ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م.[5]

وفيما يتعلق بالقراءات القرآنية في التلاوة فقد عرفت رواية ورش[6]. وعرف علم التجويد ودرس في غربي إفريقية.[7]

أما المدائح النبوية فقد اشتهر منها قصيدة البردة الشهيرة للإمام محمد بن سعيد الصنهاجي البوصيري[8]، والتي مطلعها:

أمن تذكر جيران بذي سَلَمِ مزجتَ دمعاً جرى من مقلةٍ بدم

وتعرف أيضا بـ«الكواكب الدرية في مدح خير البرية».

وفي الشعر، ذكرت بعض المصادر أن الطلاب كانوا يدرسون شعر ابن

---

(١) انظر مثلا: إيداع النسوخ، ص٣، ٧؛ نشر المثاني، ص١٥١؛ تاريخ آداب اللغة، جـ٣، ص١٥٤.

(٢) تاريخ السودان، ص٤٦؛ الفتاش، ص٩٣.

(٣) الأعلام، جـ١، ص٢٥٥، كفاية المحتاج، ترجمة أحمد بن يحيى؛ البستان ص٥٣؛ شجرة النور الزكية، ص ص٢٧٤، ٢٧٥.

(٤) تاريخ السودان، ص٤٦؛ كفاية المحتاج، ترجمة الونشريشي، نشر المثاني، ص١٦٨.

(٥) تاريخ السودان، ص٤٥؛ إيداح النسوخ، ص٨؛ بغية الوعاة، ص٦٦.

(٦) تاريخ السودان، ص٢١٨.

(٧) المصدر نفسه، ص٥٨.

(٨) نسبة إلي «بوصير» إحدى قرى مصر، لأن أحد أبويه كان منها. والبردة نسبة إلى بردة الرسول عليه السلام التي توارثها الخلفاء إلى العثمانيين.

دريد[1]، وأشعار الشعراء الستة[2] بجانب شعر المديح السالف الذكر. ويلاحظ ان المصادر تغـفل كثيرا الإشارة إلى أنواع الـشعر الذي كان متـداولا، وتكتفي بذكر كلمة «الأشعار»[3]، ولعل ذلك من عدم الاعتناء بالشعر كثيرا.

هذا الذي ذكرناه من الكتب والمواد الدراسية يدل بوضوح على أن علماء وطلاب غربي إفريقية لا يقلون في مسـتواهم الثقافي عن علماء وطلاب العالم الإسلامي المعاصرين لهم.

---

(١) الفتاش، ص١٨٢.

(٢) إيداع النسوخ، ص٣.

(٣) تاريخ السودان، ص٣٧.



الفصل الثاني عشر

التبادل التعليمي مع البلاد الإسلامية
خارج غربي إفريقية وداخلها

المبحث الأول

مع بلاد المغرب والصحراء

حفلت هذه الفترة التاريخية بصلات ثقافية واقتصادية(١) وسياسية واسعة بين بلاد المغرب وغربي إفريقية. وكان طابع ثقافة غربي إفريقية وشماليها عربيا صرفا، لم تَشُبْهُ تأثيرات أخرى، لأن هذه الشعوب التي قطنت غربي إفريقية لم يكن لها تقاليد ثقافية واضحة كالفرس أو الإغريق الذين أثروا في الثقافة العربية في بيئات الشرق الأدنى(٢). وقد أضيفت الصبغة المغربية إلى الثقافة العربية في غربي إفريقية، لأن الإسلام دخل إلى هذه المنطقة عن طريق بلاد المغرب منذ القرن الخامس الهجري(٣) (الحادي عشر) كما رأينا.

ومنذ هذا الوقت غلبت تعاليم الفقه المالكي أيضا(٤). وتعطينا تراجم العلماء التي جاءت في مصادر تاريخ هذه المنطقة صورة حية لسيادة المذهب المالكي.

كادت معاهد الثقافة الإسلامية في غربي إفريقية تكون مدارس مغربية بحتة، إذ وجد الأسلوب نفسه والحياة نفسها والمثل والوسائل نفسهما، حتى طريقة الكتابة نفسها تأثرت بالطابع المغربي؛ فالقلم المستخدم هو المغربي(٥)، لا سيما القلم الفاسي(٦)، وقد لفت الخط المغربي نظر العمري عندما علق على خطاب السلطان منسا موسى إلى العاهل المصري في النصف الأول من القرن

---

(١) انظر الفصل الأول.

(٢) دور العرب في نشر الحضارة في غربي إفريقية، سبق ذكره، ص٨٠.

(٣) المكان نفسه.

(٤) المرجع نفسه، ص٨١.

(٥) المكان نفسه.

(٦) الإسلام واللغة العربية في غربي إفريقية، سبق ذكره، ص٧٢؛ قداح ص١٣٩.

الرابع عشـر (الثامن الهجري) قـائلا: «ولقد جاء كـتاب من هذا السلطان إلى الحـضـرة السلطانيـة بمصـر وهو بالخط المغـربي»[1]. ويقـول القلقـشندي[2]: «وكتـابتهم بالخط العـربي على طريقة المغاربة». ومـازالت الطريقة المغـربية في الكتابة معروفة إلى يومنا هذا، والذي ينظـر في المخطوطات العربية لهذه المنطقة يلاحظ ذلك بوضوح، وكتاب «إيداع النسـوخ» الذي بين أيدينا خير دليل على ذلك، وأيضـا رسـالة الشيخ مـحـمـد الأمين الكانمي إلى أمـيـر جـومل (١٢٤١-١٢٥٩هـ/ ١٨٢٥-١٨٤٣م) التي كتبت بخط مغربي قيرواني.[3]

ومن خصائص الكتـابة المغربية أن نقطة حرف الفـاء توضع أسفل الحرف كما يستـبدل بنقطتي حرف القاف نقطة واحدة توضع فوق الحـرف لتصبح مثل الفـاء الحديثـة، هذا إلى جانب رسم الحـروف الذي يختلف قليـلا عن الرسم المعروف في بعض مقاطعه، ويقرب مما نعرفه بالخط الكوفي.[4]

كانت الحركة العلمية والتعليمية مغربية في أرض غربي إفريقية، ولا يعني هذا القول أن هذه الحركة التعليمية لم تتأثر بالحركة التعليمية والعلمية في مصر والحجـاز والشـام؛ فـالحركـة العلميـة في المغرب عريقة تضـرب بجذورها إلى زمن الفتح الإسلامي لهذه البـلاد. ويرجع الفضل في انتشارها إلى الله ثم إلى عقبـة بن نافع الذي أسس القيروان ومسـجدها الجامع[5]، الذي أصبح مـعهدا دينيـا ومـنارة ثقافيـة وحضاريـة تطاول الزمن وتنير الطريق المدلهم عـبر القرون

(١) مسالك الأبصار، جـ٢، ص٥٠٦.

(٢) صبح الأعشى، جـ٥، ص٢٩٨.

(٣) Bivar, Arabic Documents of Northern Nigeria, op. cit., pp. 329-330.

(٤) د. طرخان، الإسلام والعربية، سبق ذكره، ص٧٢.

(٥) الواقدي، فـتوح إفـريقية، مـصدر سبـق ذكره، ص٣؛ رياض النفوس سـبق ذكره، ص٨؛ مـعالم الإيمان، جـ١، ص٩.

إلى يومنا هذا الذي أصبح فيه جامعة إسلامية، وإلى حسان بن النعمان الذي أسس مدينة تونس ووزع الفقهاء في سائر البلاد لتعليم البربر أصول الإسلام وتثقيفهم، وإلى موسى بن نصير الذي أرسل المعلمين حتى السوس الأقصى وأسس مسجدي تلمسان وأغمات هيلانه[1]، وإلى إسماعيل ابن عبيد الله بن أبي المهاجر الذي كان لقوة إيمانه وحرصه على الإصلاح أبعد الأثر في تقبل البربر للإسلام. وقدم إلى المغرب في عهده عشرة من علماء التابعين من قبل الخليفة عمر بن عبدالعزيز[2]. ومن بين المساجد التي أسست على أيدي هؤلاء التابعين: مسجد الرباط الذي بناه أبوعبدالرحمن المعافري الإفريقي[3]، وجامع الزيتونة بتونس على يد إسماعيل بن عبيد الله (تاجر الله)[4].

كانت المساجد الأولى التي بناها المسلمون معاهد تعليمية كبرى ظلت تؤدي رسالتها حتى مطلع القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر)، وتحتفظ بعلاقتها الثقافية مع بلدان غربي إفريقية، وأشهرها جامع الزيتونة الذي انتقلت إليه الحركة العلمية من جامع عقبة.[5]

إن أول من اختط هذا المسجد هو حسان بن النعمان الغساني، حوالي سنة ثمانين هجرية (٦٩٩م)[6]. وانتظم التعليم فيه بصورة واضحة منذ ظهور

---

(١) د. سالم، المغرب الكبير، جـ٢، ص٢٩٢.

(٢) المكان نفسه.

(٣) الرقيق القيرواني، مصدر سبق ذكره، ص٩٧؛ أبوالعرب، مصر سبق ذكره، ص ص٨٦ـ٨٧؛ الخلاصة النقية، سبق ذكره، ص١٣.

(٤) معالم الإيمان، ص١٣٨، ١٤٨؛ الدكتور سالم، المغرب الكبير، جـ٢، ص٢٩٢.

(٥) انظر: ورقات عن الحضارة العربية، مرجع سبق ذكره، ص٧، ١١٥.

(٦) انظر: الرقيق القيرواني، ص٥٥ ومابعدها، رياض النفوس، ص٣١ ومابعدها؛ فتوح إفريقية والأندلس، ص٦٢، ومابعدها؛ دبوز، جـ٢، ص١١١.

الدولة الحفصية أوائل القرن السابع الهجري (الثالث عشر).[1]

أما المعهد الثاني الذي طبقت شهرته الآفاق فهو جامع القرويين، الذي تطور إلى جامعة إسلامية حديثة، مازالت تؤدي دورها إلى اليوم.[2]

بني مسجد القرويين في أيام الأمير يحيى بن محمد بن إدريس بن إدريس الحسني[3]، على نفقة أم القاسم فاطمة بنت محمد الفهري القيرواني سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م.[4]

وأفادت معاهد المغرب العلمية كثيرا من علماء الأندلس، الذين كانوا يمرون بالمغرب في طريقهم إلى الحج ويقيم به من يطيب له المقام سواء لظروف سياسية أو لرغبة في التعليم[5]. وقد تكاثروا حتى عرف جزء خاص من فاس بـ «عدوة الأندلس»[6]. وازداد عدد الأندلسيين بالمغرب عامة بعد سقوط غرناطة على يد الفرنجة[7]، ووصلوا في رحلتهم حتى تنبكت.[8]

لقد حرص طلاب العلم على شد الرحال إلى معاهد المغرب التعليمية نسبة لشهرتها. وساهم السلاطين في إرسال البعوث العلمية إلى هذه المعاهد. وتشير كتب التاريخ إلى أن السلطان المالي منسا موسى أرسل العالم كاتب موسى، إمام المسجد الجامع بتنبكت، إلى فاس ليتلقى مزيدا من العلوم

---

(١) ورقات عن الحضارة العربية، ص١٢٨.

(٢) انظر: الدكتور أحمد البهي الحفناوي: جامعة القرويين ودورها في حفظ ثقافة الإسلام، رسالة دكتوراه غير منشورة بمكتبة كلية اللغة العربية، الأزهر، ١٩٧٣م.

(٣) الأنيس المطرب، مصدر سبق ذكره، ص٧٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ص ٧٦ـ٧٧.

(٥) انظر: الصلة، مصدر سبق ذكره، ص٧٥؛ المراكشي، المعجب، ص٣٥٨.

(٦) ابن أبي زرع، جـ١، ص٦٣.

(٧) د. حسن محمود، دور العرب، ص٨١.

(٨) المكان نفسه.

الإسلامية[1]، أما أخوه السلطان سليمان فقد سار على طريقه في حبه لنشر العلم والمعرفة حتى جلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك رضي الله عنه[2]، والراجح أن أول منبع فكر فيه لجلب هؤلاء العلماء هو المغرب لكثرة العلماء فيه في هذه الفترة، وفي فاس بالذات لكثرة معاهدها ومدارسها ووجود بعض الدلائل على أن فاس كانت تمد غربي إفريقية حتى بالموظفين الذين يتولون بعض مناصب البلاط الكتابية. ومن أولئك الفاسيين الذين ذكرت المصادر توليهم وظيفة كاتب السلطان، إبراهيم الخضر الفاسي الذي قدم إلى تنبكت وتولى منصب كاتب السلطان في عهد سني علي عاهل سنغي.[3]

وكان العلماء في حركة دائبة بين المغرب وغربي إفريقية، وبين بلدان غربي إفريقية فيما بينها. ومن هؤلاء العلماء المغاربة الذين تركوا بصمات قوية في تاريخ التعليم الإسلامي في غربي إفريقية والدعوة الإسلامية الإمام المغيلي. فهو مثال حي للتبادل التعليمي بين المغرب وغربي إفريقية مما يدعونا للوقوف عنده طويلا لتعرّف شخصيته وآثاره العلمية. والشخصية العلمية الثانية التي تسترعي الانتباه في هذا المجال هي شخصية الفقيه مخلوف البلبالي. والشخصية الثالثة هي شخصية العالم العاقب الأنصمني.

١ ـ المغيلي (ت ٩٠٩هـ/ ١٥٠٤م)

هو أبو عبدالله محمد بن عبدالكريم بن محمد المغيلي التلمساني[4]. ولد في تلمسان شمالي غربي الجزائر من أسرة بربرية من قبيلة مغيلة. قضى شبابه في تعلم مبادئ القرآن حتى حفظه بسرعة، وواظب على الدرس والتحصيل

---

(١) تاريخ السودان، ص٥٧.

(٢) مسالك الأبصار، ص٤٩٤ (لم ينص صراحة على الجهة التي جلب منها علماء المالكية).

(٣) تاريخ ا لسودان، ص٦٨.

(٤) نيل الابتهاج، و٣٠٤؛ شجرة النور الزكية، ص٢٧٤.

حتى أصبح مـن العلماء الذين يشار إليهم بالبنان ولا يشق لـهم غبار، ووصف بأنه خاتمة الأئمة المحققين، العالم العلامة والقدوة الصالح.[١]

كان المغيلي من العلماء الغيـورين على الإسلام، ووصلت به هذه الغيرة إلى أن يفتي بقـتل يهود مدينـة توات المغربية لتطاولهم على المسـلمين وتعديهم على حقـوقهم عندما بنـوا معبدا لـهم دون إذن، وقيل إنه أوصى بدفع سبـعة مثـاقيل ذهب عن كـل رأس يهودي[٢]. وكانـت النتيـجة أن نفذ أمـره وأوقع باليهود[٣]. وقصته مـع يهود هذه المدينة مشهورة. وقد اغـتالوا أحد أبنائه في غيبته خارج بلاده[٤]، انتقاماً من والده الذي أوقع بهم من قبل.

وأكثر مايهمنا الآن هو الجانب الخاص برحلته العلمية إلى بلاد غربي إفريقية.

غـادر المغيلي بلـدة توات إلى بلدة أهير ثـم بلدة تكده ـ من بلاد جنوب المغرب من جهة بلاد غربي إفريقية ـ بعد إيقاعه باليهود في توات[٥]. واجتمع في تكده بحاكـمها ومكث بين ظهراني أهلهـا مدة من الزمن كان يمارس فـيها التدريس والوعظ. وأفاد أهل هذه البلاد كثـيرا قبل أن يغادرهم إلى بلاد غربي إفريقية المجاورة لتكده[٦]. ويذكر أنه امتحن على يد حاكم تكده وأثبت جدارة وحصافـة. وبنى مسجدا في قـرية اياتول شمالي شرقي أجـاديس، حيث أخذ يدرس أهالي المنطقة.[٧]

(١) المكانان نفساهما.

(٢) الدكتور زكي، المراجع العربية، سبق ذكره، ص٢٠.

(٣) المرجعان والمكانان أنفسها.

(٤) النيل، ورقة٣٠٥.

(٥) المكان نفسه.

(٦) المكان نفسه، يفهم من كـلام التنبكتي أن أهير وتكده ليستا من بلاد غربي إفريقـية وهناك من يعدهما من بلاد غربي إفريقية، منهم السيد عبدالعزيز بطران. انظر: Batran, op. cit., p. 390

(٧) Loc. cit.

من الذين حضروا دروسه في تكده الفقيه محمد بن أحمد بن أبي محمد التاذختي[١]، المعروف بـ«أيْدَ أحمد»[٢]، والعاقب الأنصَمْني.[٣]

واتجه المغـيلي من تكده إلى كانو. والتـقى بحاكم كـانو، الذي لم يذكر أحمد بابا اسمه واكتـفى بقول: «واجتمع بصاحب كانو»[٤]، ولكن الراجح أنه التقى بمحـمد رمـفا،[٥] الذي كان يـتربع على عـرش كانو في الفـترة ٨٦٧ ـ ٩٠٤هـ/ ١٤٦٣ ـ ١٤٩٩م، أو ابنه الذي حـكم في الفـتـرة ٩٠٤ ـ ٩١٤هـ/ ١٤٩٩ ـ ١٥٠٩م لأن المغـيلي رجع إلى بلاده بعد أن طوف ببـلاد أخرى مـثل كاتسينا وجاو، ومات بعد رجوعه إلى بلاده.

لقد استفاد حاكم كانو من المغيلي في الفترة التي قضاها ببلاده، وكتب له رسالة في أمور السلطنة يحـضه فيها على اتباع الشـرع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

واسم هذه الرسالة «تاج الدين فـي مايجب على الملوك»[٦]. واستـفادت منه الرعية، وأصبح قاضـيها ومفتيها ومعلمهـا الذي ترك آثارا، وأصبح شمسا في زمانه.[٧]

غادر الشيخ المغيلي كانو إلى كاتسـينا، وقام بالدور نفسه الذي قام به في البـلاد التي مر بهـا[٨]، وله مـجهودات طيـبة في هذه الـبلاد. وقد اخـتلف

---

(١) نسبة إلى تاذخت، وهي بلدة بالقرب من والاتا، انظر: Batran, Ibid, p. 391.

(٢) تاريخ السودان، ص٣٩، النيل، و٣٠٥. (وكلمة «أيد» معناها ابن كما يذكر السعدي).

(٣) النيل، و١٨٠، ٣٠٥.

(٤) نفسه، و٣٠٥.

(٥) See, Al-Hajj, op. cit., P. 11, Hunwick, Source Materials for the History of Songhai, Bornu and Husaland in the 16th C., J. H. S. N, V11, 3 (1974), p. 584.

(٦) Batran, op. cit, p. 391.

(٧) See, Loc. cit.

(٨) Loc. cit.

الباحثون في اسم العاهل الكاتسيني الذي قدم في عهده المغيلي، إذ يذهب بارث وبالمر[(١)] إلى أنه إبراهيم ماجي، أما هوجبن وكيرك[(٢)] فيريان أنه محمد كوراو، ويرى بطران[(٣)] أنه من الممكن أن يكون إبراهيم الذي ذكر في رسالة السيوطي إلى ملوك التكرور - وهي بدون تاريخ - والذي كان معاصرا لمحمد سطفو سلطان أجاديس (٨٩٣-٨٩٩هـ/ ١٤٨٧-١٤٩٣م)، وهذا احتمال قريب، أما اسمث فيذهب إلى أن المعني هو إبراهيم سرا، ولكن طبقا لتواريخه التي وضعها لحكام كاتسينا فإن إبراهيم سرا أصبح حاكما في سنة ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م بينما توفي السيوطي سنة ٩١١هـ/ ١٥٠٥م.[(٤)]

بعد ذلك وفي سنة ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م زار المغيلي جاو عاصمة دولة سنغي ولقي حاكمها آسكيا الحاج محمد، ولم يكتمه أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر، وألف له مؤلفا أجاب به فيه عن أمور كانت تشكل عليه.[(٥)]

سمع المغيلي بمقتل ابنه على يد يهود توات وهو في جاو، فانزعج لذلك الخطب الجلل، لأن فيه عداوة الدين وقتل الولد. وفي ثورة من الغضب الجامح

---

(١) Loc. cit.

(٢) The Emirates of Northern Nigeria, op. cit., pp. 161-181.

(٣) Op. cit., p. 392.

(٤) Loc. cit.

(٥) نيل الابتهاج، و: ٣٠٥؛ محمد بن عبدالكريم المغيلي: أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تقديم وتحقيق الدكتور عبدالقادر زبادية، الجزائر ١٩٧٤. (هذا المؤلف عبارة عن سبعة أسئلة وجهها آسكيا الحاج محمد إلى الإمام المغيلي للإجابة عنها. ويرجع زبادية أن تاريخ المؤلف كان سنة ١٥٠٢هـ/ ١٥٠٣م انظر: ص٦ من التحقيق - وقد عثر الدكتور زبادية على مخطوطتين من هذه الأسئلة إحداهما في الجزائر والأخرى في باريس). ويقول هنوك إنه قد أعد تحقيقا باللغة العربية لهذا المؤلف معتمدا على خمس مخطوطات وترجمة إنجليزية ودراسة لأفكار المغيلي، وسيصدر في سنة ١٩٧٥م انظر: Source Mat. p. 580. وتدور هذه الأسئلة حول دور العلماء في نصح الحكام، وهل سني على مسلم أم كافر، ومن ثم ماذا يحدث لممتلكاته والأرقاء المشكوك في أمرهم، وغيرها من الأسئلة السياسية والاجتماعية. انظر نموذجا لها في الملحق رقم (٥).

طلب من آسكيا محمد أن يعتقل كل يهود توات القاطنين بمدينة جاو، ففعل السلطان ذلك، ولكنه أفرج عنهم بعد سماع رأي الفقيه القاضي محمود أقيت، الذي أقنعه بأن لا ذنب جنوه يكون سببا في أن يرسفوا في الأغلال.[1] ولم يسع المغيلي إلا أن يغادر إلى بلاده توات، ومات فيها بعد قليل من وصوله.

والمغيلي من العلماء القلائل الذين حفظت مؤلفاتهم وبقيت ذكراهم إلى يومنا هذا في غربي إفريقية. وأصبحت كتاباته مصدرا مهماً من مصادر التاريخ الإسلامي والتعليم الإسلامي والعلوم الإسلامية الأخرى بغربي إفريقية. وقد ساعدت اقتباسات المتأخرين من العلماء من آراء الشيخ المغيلي على حفظ أسماء مؤلفاته، ومن أولئك الذين اقتبسوا منه وأفادوا من كتبه الشيخ عثمان بن فودي وأخوه عبدالله في مؤلفيهم: «نجم الإخوان» و«ضياء السلطان»[2]. وللشيخ المغيلي مؤلفات عدة وضع الباحثون أيديهم عليها وتناقلتها الكتب،[3] نذكر منها ما يلقي الضوء على شخصية هذا الفقيه العلمية ومكانته، منها:

١ ـ تعريف فيما يجب على الملوك، ويوجد نص عربي كتبه محمد زايان بن محمد المأمون وزير كاتسينا، ونشر ببيروت سنة ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م، وترجمه ت. هـ. بالدون بعنوان: «واجبات الأمراء». ويوجد منه بالرباط تحت الرقم ٥٢٩، ٩[4]. ولم يذكر أحمد بابا الاسم المباشر لهذا المؤلف، بل وصفه.[5]

٢ ـ مختصر مايجوز للحكام في رضاء الناس عن الحرام، وقد اقتبس من

---

(١) النيل، و٣٠٥.

(١) الأول لعثمان والثاني لعبدالله - Bivar and Hiskett, The Arabic Lit. of N., op. cit., p. 107

(٣) من الكتب التي ذكرت جزءا من هذه المؤلفات: شجرة النور الزكية، مصدر سبق ذكره، ص٢٧٤.

(٤) Bivar and Hiskett, op. cit., p. 107.

(٥) النيل، و٣٠٥.

مادته الشيخ عثمان بن فودي في كتابه تنبيه الإخوان، وكان موجها بالاسم إلى عبدالله محمد بن يعقوب (أي محمد رمفا) سلطان كانو، ويذكر الشيخ عثمان أن هذا كتب في سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩١م.(١)

٣ ـ مؤلف فيه أجوبة لأسئلة مقدمة من آسكيا الحاج محمد، ولم يسمه أحمد بابا بأكثر من «. . . وألف له تأليفا أجابه فيه عن مسائل»(٢). وتوجد نسخة مخطوطة في داكار بتاريخ ١١٢٧هـ/ ١٧١٥م، بقلم أحمد بن عبدالرحمن ابن علي بن مبارك الدرعي.(٣)

٤ ـ تأليف فيما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار. يوجد بالرباط. ومنشور بالفرنسية، مادة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.(٤)

٥ ـ أحكام أهل الذمة. ذكره بروكلمان.(٥)

٦ ـ ورقات في عمل اليوم والليلة. نشر بالفرنسية.(٦)

والمؤلفات التالية ذكرها التنبكتي(٧):

٧ ـ البدر المنير في علم التفسير، وتفسير سورة الفاتحة.

٨ ـ مصباح الأرواح في «أصول الفلاح». وقد وصفه أحمد بابا بالغرابة، وهو في كراسين؛ أرسله إلى العالمين السنوسي وابن غازي لإبداء الرأي فيه.(٨)

---

(١) Bivar and Hisk., p. 107.

(٢) النيل، و ٣٠٥.

(٣) Bivar and Hisk, p. 100.

(٤) Loc. cit.

(٥) CAL, Suppl. 11, p. 369.

(٦) Bivar and Hiskett, op. cit, p. 108.

(٧) النيل، و٣٠٥.

(٨) المكان نفسه.

٩ ـ المغني النبيل في شرح مختصر خليل.

١٠ـ إكليل المغني.

١١ـ شرح بيوع الآجال لابن الحاجب. وقد ذكر له ابن مريم[١] مؤلفا آخر اسمه «السبيل في بيوع آجال خليل».

١٢ـ مختصر تلخيص المفتاح للقزويني وشرحه.

١٣ـ تأليف في المنسيات.

١٤ـ مفتاح النظر في علم الحديث، فيه أبحاث مع النووي في تقريبه.

١٥ـ شرح الجمل للخونجي في المنطق.

١٦ـ المقدمة في المنطق.

١٧ـ منح الوهاب، وهي منظومة شعرية في المنطق، عرفت بمنظومة المغيلي في المنطق أو رجز المغيلي في المنطق.

١٨ـ شروح على المؤلفات السابقة في المنطق.

١٩ـ تنبيه الغافلين عن الملبسين بدعوى مقامات العارفين. وهذا العنوان ربما يكون لعثمان بن فودي معرفة به لأن له صدى في مؤلف له باسم «تنبيه الغافلين وتنظيم الأخبار.[٢]

٢٠ـ شرح خطبة المختصر.

٢١ـ المقدمة في العربية.

٢٢ـ الفتح المبين.

٢٣ـ عدة قصائد كالميمية على وزن البردة.

---

(١) البستان، ص٢٥٥.

(٢) Bivar and Hisk., op. cit., p. 109.

وجاء اسم المؤلف في: Kensdale, Field Notes, op. cit, p. 167

وعلى ضوء هذه المؤلفات يبدو لنا جليا علو كعب المغيلي في الدراسات الإسلامية والفلسفية والعربية، ولا غرو في ذلك، فقد كان نداً[1] للسيوطي وطبقته من علماء عصره، وراسل السيوطي وجادله في علم المنطق شعرا، ومما قاله مخاطبا السيوطي:

سمعت بأمر ماسمعت بمثله	وكل حديث حكمه حكم أصله
لئن صح عنهم ماذكرت فكم هم	وكم عالم بالشرع باح بفضله
أيمكن أن المرء في العلم حجة	وينهى عن الفرقات في بعض قوله
هل المنطق المعني إلا عبارة	عن الحق أو تحقيقه حين جمله
معانيه في كل الكلام وهل ترى	دليلا صحيحا لايرد لشكله
أراني هداك الله منه قضية	على غير هذا تنفه عن محله[2]

ومن الأبيات التي رد بها السيوطي عليه قوله:

حمدت إله العرش شكرا لفضله	وأهدي صلاة للنبي وأهله
عجبت لنظم ماسمعت بمثله	أتاني عن حبر أقر بنده

وختمها بقوله:

سلام على هذا الإمام فكم له	لديَّ ثناء واعتراف بفضله[3]

وجاء هذا الرد في اثني عشر بيتا. ومن خلال أبيات السيوطي في الرد عليه يرى المغيلي صاحب قدح معلى وشمس ساطعة، وتكفيه شهادة عالم زمانه الإمام السيوطي واعترافه بندية المغيلي له.

---

(١) ويعترف السيوطي بهذه الندية في شعره الذي جادل فيه المغيلي في علم المنطق:

عجبت لنظم ماسمعت بمثله.. أتاني عن حبر أقر بنده

(٢) نيل الابتهاج، و: ٣٠٥.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٠٦.

٢ ـ مخلوف البلبالي[١]

هو الفقيه مخلوف بن علي بن صالح البلبالي[٢]. وهذا الفقيه مثال حي للعالم الرحلة الذي يجوب بلاد غربي إفريقية الإسلامية وبلاد المغرب في طلب العلم والمعرفة؛ فعلى الرغم من أنه اشتغل بالعلم على كبر إلا أنه برز فيه ورحل من أجله حتى قيل فيه «الحافظ الرحلة».[٣]

ترك البلبالي مهنة التجارة وسعى وراء العلم. وأول من تتلمذ عليه هو الشيخ عبدالله بن عمر بن محمد أقيت ببلاد والاتا[٤]. وعندما رأى منه الفقيه عبدالله نجابة ورغبة حضه على طلب العلم، فكان ذلك دافعا قويا له ليرحل إلى المغرب ويتلقى العلم على جهابذة العلماء المغاربة أمثال الشيخ ابن غازي ورصفائه[٥]، وأشتهر بعد ذلك بقوة الحافظة التي أثارت العجب. ومما يحكى عنه أنه حفظ صحيح البخاري.[٦]

وبعد أن روى ظمأه إلى المعرفة في المغرب عاد إلى غربي إفريقية ليعمل بما عنده من علم. ودخل كانو وكاتسينا وغيرهما، وقام بالتدريس فيها[٧]. والتقى في هذه البلاد بالفقيه العاقب الأنصمني وجرت بينهما أبحاث في بعض المسائل الدينية.[٨]

وبعد أن أفاد واستفاد غادر بلاد غربي إفريقية الشرقية إلى تنبكت ومارس

---

(١) نسبة إلى بلبال (آو تبلبلت) وهي واحة بالقرب من توات. انظر: N. Levtzion, Ancient Ghana and Mali, op. cit., p. 202.

(٢) النيل، و٣٢٣، تاريخ السودان، ص٣٩؛ شجرة النور الزكية، ص٢٧٨.

(٣) النيل، و٣٢٤.

(٤) المكان نفسه؛ تاريخ السودان، ص٣٩؛ شجرة النور، ٢٧٨.

(٥) النيل، و٣٢٤.

(٦) المكان نفسه.

(٧) المكان نفسه؛ تاريخ السودان، ص٣٩؛ شجرة النور، ص٢٧٨.

(٨) النيل، و١٨٠، ٣٢٤، تاريخ السودان، ص٣٩.

فيها التـعليم والتوجيه جنبا إلى جنب مع مشـاهير علمائها[1]. ثم تاقت نفسه إلى الرحلة الطويلة مرة أخرى فغادر تنبـكت إلى مراكش ليكون بها معلما هذه المرة، ولكنه كما يروي التنبكتي[2]، سم هناك ومرض فرجع إلى بلده، وتوفي بعد الأربعين وتسعمئة من الهجرة/ ١٥٣٣م.

لم يذكر لنا التنبكتي مـؤلفات البلبالي، ولكن من الخطأ كما يقـول بيفار وهيسكت[3] أن نستنتج أنه لم يعرف له شيء. ويتـوصل هذان الباحثان إلى أن محمد بن أحـمد بن عبدالرحمن الياستاني يتـحدث عن خلاف له مع مخلوف حول قول الياستاني في مسألة من الشعـائر الدينية. وفي مؤلفه المشهور «معراج الصعـود إلى نيل مجلاب السود» يقـتبس أحمـد بابا فقرة طويلة وينسبـها إلى مخلوف البلـبالي. ولما كان حـدوث موت مخلوف حـوالي ثلاث وثلاثين سنة قبل مـولد أحمد بابا (٩٦٣هـ/ ١٥٥٥م)، فلابـد أن يكون كاتب الترجمـة قد حصل على اقـتباسـه من مصدر مكتـوب. وليس معلوما حـتى الآن إن كانت قطعة إنشائيـة تقليدية أو مادة وثائقية مـثل مجموعة أحكام قـانونية أو قرارات محكمة شـرعية[4]، وربما تكشف الأيام القليلة القادمـة عن بعض مؤلفات هذا العالم الجليل في ضوء المؤلفات الصغرى لأحمد بابا.

٣ ـ العاقب الأنصمني (ت بعد سنة ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م)

هو العاقب بن عـبدالله الأنصـمني المسوفي[5]. من المعاصـرين القريبين

(١) النيل، و: ٣٢٤؛ تاريخ السودان، ص٢٩.

(٢) المكانان نفساهما.

(٣) The Arabic Lit., op. cit., p. 111.

(٤) Loc. cit.

(٥) النيل، و: ١٨٠، تاريخ السودان، ص٤١، شجرة النور، ص٢٧٨. ويلاحظ أن صاحب شجرة النور يخطئ في النقل عن أحمد بابا، فيقول: «العاقب بن عـبدالله المسوفي نسبة لقرية بالسودان». وهكذا جعل «مسوفة» اسما لقرية، وهي قبيلة، وكل ذلك لأنه حذف كلمة «الأنصمني».

لمخلوف البلبالي. ومازال مكان إقامته وقرب صلته بمنطقة النيجر موضع جدل وتردد بين المصادر. فالنسخة المخطوطة لكتاب «النيل» الموجودة بالقاهرة والتي اعتمدت عليها تقول عنه: «العاقب بن عبدالله الأنصمني المسوفي من أهل أكدس بلدة قريبة من بلاد السودان عمرها صنهاجة»[١]، ويذكر الباحثان بيفار وهيسكت[٢] أن النسخة التي استخدمها كيربونيو Cherboneau قد ذكرت في عدة مواطن اسما آخر للبلدة التي ينتمي إليها العاقب، وهو تكرا، ويبدو للباحثين أن هذا الرأي ضعيف ولا قيمة له، وأن المقصود هنا هو بلدة تكدا[٣]، ويؤيد ذلك ما ذكره التنبكتي[٤] نفسه في «كفاية المحتاج» حين قال: «العاقب ابن عبدالله الأنصمني المسوفي من أهل تكدة قرية عمرها صنهاجة، قرب السودان»، وقد اعتمد الإمام بلّو[٥] على هذا المصدر عندما ترجم للعاقب الأنصمني. أما السعدي[٦] الذي اعتمد على النيل فقد ذكر أيضا النص الذي جاء في «الكفاية» و«الإنفاق» نفسه. وفي نسخة من «النيل» بالمتحف البريطاني حرّفت كلمة «الأنصمني» قليلا فأصبحت «الأنصري»[٧]. ولعل هذا التحريف من الناسخ، ولم ينص على الاسم تكدا، ونصه: «العاقب بن عبدالله الأنصري المسوفي من أهل بليدة قريبة من بلاد السودان عمرها صنهاجة».

وفيما يتعلق بالقليل المعروف عن النسبة «الانصمني» فإن إمكانية صلتها

---

(١) النيل، ١٨٠.

(٢) Arabic Lit., op. cit., p. 111.

(٣) خاصة إذا لاحظنا أن رسم حرف الراء في المخطوط يشبه رسم الدال في الكتابة العادية مما يوقع اللبس عند النقل، وفوق هذا فلا يعلم حتى الآن بلدة بهذا الاسم في الصحراء أو غربي إفريقية.

(٤) ترجمة العاقب الأنصمني.

(٥) إنفاق الميسور، ص٤٠.

(٦) تاريخ السودان، ص١٤.

(٧) Arabic Lit., op. cit., p. 112

بأنساموتز Nasamones التي ذكرها هيرودت قوية الاحتمال. وإذا كان الأمر هكذا فيمكن أن تكون أول مثال لاسم قبلي صحراوي ظل موجودا منذ القدم حتى الفترة الإسلامية[١]. وقد ذكر التنبكتي[٢] أن أنصمن قرية ولكنه لم يذكر مكانها بالتحديد، والراجح أنها قرية من قرى تكده بالصحراء المغربية.

لقد كان العاقب فقيها نبيها ذكيا ومشتغلا بالعلم. وقد ترجم له السعدي[٣] ضمن علماء تنبكت البارزين في ميدان الدراسات الإسلامية والتعليم، لأنه أقام في تنبكت وأصبح بذلك نموذجا لنا يلقي الضوء على التبادل التعليمي بين بلدان الصحراء المغربية وغربي إفريقية، فقد تتلمذ على يدي عالم المغرب محمد بن عبدالكريم المغيلي[٤]. وربما كان ذلك أثناء إقامة الأخير في عاصمة سنغي، لأن المصادر التي تيسرت لنا حتى الآن لم تفصح عن مكان لقاء العاقب بالمغيلي. وعندما أدى فريضة الحج التقى بشيخ العصر الإمام السيوطي وتتلمذ عليه وعلى غير هذين العالمين.[٥]

لم تغفل المصادر ذكر بعض مؤلفات هذا العالم، فقد ذكر له أحمد بابا[٦] عناوين لكتابات يمكن تتبعها ودراستها، وهي:

١ ـ تعليق على قول خليل: وهو حاشية على شرح خليل لمختصره.

٢ ـ وجوب صلاة الجمعة بقرية أنصمن.

٣ ـ الجواب المجدود عن أسئلة القاضي محمد بن محمود (ابن عمر أقيت).

---

(١) Loc. cit.

(٢) النيل، و١٨٠.

(٣) تاريخ السودان، ص٤١.

(٤) النيل، و١٨٠؛ تاريخ السودان، ص٤١.

(٥) المكانان نفساهما.

(٦) النيل، و١٨٠.

٤ ـ أجوبة الفقير عن أسئلة الأمير: أجاب فيها السلطان أسكيا الحاج محمد عن استفسارات أرسل بها إليه.

ويستدل من كلمة «وغيرها» التي ذكرها التنبكتي[١] في نهاية ذكره لمؤلفات العاقب أن لهذا الشيخ مؤلفات أخرى لم يشأ التنبكتي أن يذكرها، ربما خشية التطويل أو لعدم أهميتها الكبرى لديه.

إن غربي إفريقية مدينة تماما للمغرب في ثقافتها وتعلمها. فقد كانت قبلة الكثيرين من العلماء الذين أخذوا يتوافدون عليها منذ أن سطع نجم الإسلام فيها. وتذكر المصادر التاريخية الكثيرين من هؤلاء العلماء الذين أسهموا في دفع حركة التعليم والحضارة الإسلامية في غربي إفريقية[٢]. ففي بلاد الهوسا نرى أن الفقيه عبدالله سك الهوسي يرحل لتلقي العلم في فزان وأجاديس، ويلتقي بابن غانم، ويعود لبلاده ليعمل في المجال التعليمي بما حصله من علم[٣]. ويوجد علماء فزانيون جاؤوا إلى بلاد الهوسا، أمثال الشيخ رمضان ابن أحمد الفزاني الذي استوطن بلدة زنفرا (زاريا) الهوسية[٤]. وكان من العلماء أصحاب المؤلفات، ذكر بعضها بلّو[٥]، منها:

١ ـ نظم على رواة البخاري، أي رواية الفروع عن الأصول.

٢ ـ الجوهرة في ذم علم النجوم.

أما علماء شنقيط (في موريتانيا الحالية) فقد كانوا أيضا على صلة دائمة

---

(١) المكانان نفساهما.

(٢) انظر: النيل، و١١٢. فقد ترجم التنبكتي لفقيه مغربي وصل إلي والاتا واسمه عبدالله بن أحمد بن سعيد بن يحيى بن معاوية بن عبدالله الزموري، المتوفى بعد سنة ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م.

(٣) إنفاق الميسور، ص٥٩.

(٤) المصدر نفسه، ص٥٢.

(٥) المكان نفسه.

مع غربي إفـريقيـة منذ ظهور الإسـلام على هذه الأرض، فالمسـافة قـريبة بين المنطقتين. وذكـر لنا الشنقيطي بعض العلمـاء الشناقيط الذين عـملوا في أقاليم غربي إفريقية، منهم: سيدي عبدالله بن أحمد دام[1]؛ فقد جال هذا العالم في كل ناحية من أنحاء غـربي إفريقية[2]، وكان ذلك في صدر القرن الثالث عشر الهجري[3]، (١٩م)، وله قصيـدة شعرية مما قاله وهو في بلاد غربي إفـريقية، منها:

مِنَ آين وأنَّـى للفـؤاد صـدود ... وفي كـل أرض من بـلادك رود

إذا أنا أزمـعت الصدود تلاعـبت ... بعـقـدة عـزمي أعـين وخـدود

فأصبـحت مشغوفا بـكل مليحة ... بدت لي فبيض بعضُهن وسودُ[4]

وله قصيدة أخـرى أنشدها عندما ترك أولادا له ببلاد غربي إفـريقية وعاد إلى وطنه ليطفئ نار شـوقه إلى بلده، ولكنه وجـد الحنين إلى أولاده أكـبر من الحنين إلى الوطن الأم، فقال:

تجلدت للتـوديـع والقلب جـازع ... وأخـفيتُ مـاكـادت تُبينُ المدامع

ترقـرق دمع لو أطعت غـروبه ... ذرفن كأجـرى ماتفـيض الدوامع

فيـا عجـبا أخشى الـفراق وطالما ... حـرصت عليـه مكـرها أنا طائع

ولست لأمـر إن تعـاصى بتـارك ... ولست لمـرء في أمـوري أطاوع

أصـيخ إذا قـالوا وأتبع مـا أرى ... وماسـيف منقاد القـرينة قاطع[5]

ويلاحظ أن الشنقـيط لم يصرح بـالمكان الذي كان فـيه عـبدالله بغـربي

(١) أحمد بن الأمين الشنقيطي: الوسيط في تراجم أدباء وعلماء شنقيط، ص٢٨٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٩٠.

(٣) نفسه، ص٣٠٠.

(٤) نفسه، ص٢٩١.

(٥) نفسه، ص٢٩٤.

إفريقية ولكن ذكرت في إحدى قصائد عبدالله كلمة السَّنغان، في قوله:

فيرأب ما أثأته[1] أيام سالم   وأيامنا في ساحه السنغان[2]

وكلمة جلف في قوله:

وأخرى أقمنا في قرى جلف التي   أقمنا بها في ضيعة وهوان

وكلمتا السنغان وجلف تفيدان بأنه تجول وسط شعوب سنغي والجلف وهما من مناطق وقبائل غربي إفريقية الواقعة جنوبي موريتانيا.

أما المهنة التي كان يمارسها هذا العالم فلم تظهر لنا من ترجمته في الوسيط. ولكن الراجح أنه كان من العلماء المتفرغين للتعليم فقط، وقوة شعره دليل على ذلك، وأيضا في صفة «سيدي» التي أطلقها عليه الشنقيطي دليل آخر على أنه كان من العلماء الصالحين.

وقد ترجم الشنقيطي لعالم آخر، هو المختار بن بون الجكني[3]، ولكنه لم يذكر له تاريخا ولو بالتقريب. رحل هذا العالم من شنقيط إلى بلاد غربي إفريقية ليواصل رسالته التعليمية على الرغم من حاجة طلابه إليه. وعندما عاد إلى بلاده ظل يرافقه كبار تلاميذه اعترافا بفضله وبأهميته[4]، ولا عجب في ذلك، فقد وصفه الشنقيطي[5] بقوله: «تاج العلماء الذي طوق بحلي علمه كل عاطل، ووردت هيم الرجال زلاله فصدر عنه كلهم وهو ناهل، ولا يوجد عالم بعده إلا وله عليه الفضل الجزيل».

(١) أي ما أصابني من جراح. انظر: ترتيب القاموس المحيط، جـ١، ص٣٣٠.
(٢) المصدر السابق، ص٢٩١.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٧٩.
(٤) نفسه، ص٢٨٣.
(٥) نفسه، ص٢٧٩.

له مصنفـات أفاد منهـا الطلبة والعلمـاء. وكان من النحـاة الضالعين[١] الذين شدت إليهم الرحال.[٢]

وعرف العلماء الودانيون[٣] أيضا في تنبكت، منهم سيدي أحمد الفزاني ابن محمد بن مـحمد بن يعقوب الحاجي اليعـقوبي الوداني، الذي تلقى جزءا من تعليمه على يد الفقيه الحـاج أحمد والد أحمد بابا التنبكتي[٤]، وهو بدوره تلقى على يديه الدراسات الفقهية سيـدي أحمد بن القاسم بن سيدي أحمد بن علي بن يعقوب الوداني الحاجي.[٥]

ولسيدي أحمد بن القاسم عدة تلامـيذ من شنقيط وودان كانوا في حلقته بتنبكت، وهم سيـدي أبومحمد الحـاج عبدالله ابن الفقـيه محمـد الشنقيطي، والفقـيه أبوالعـباس سـيدي أحمـد بن أحمـد بن الحاج الشنقـيطي، والفقـيه أبوالعباس سيدي أحمد بن أحمد بن الحاج الشنقيطي، وسيدي محمد بن أحمد ابن أبي بكر الوداني.[٦]

ويوجد علماء تنبكتيون ارتحـلوا إلى ودان، منهم سيدي إلياس الذي أقام بودان وتزوج منها، ومات ودفن بها، وأضحت قبته مزارا للمريدين.[٧]

إن العلاقـات الوثيقـة بين تنبكت وودان قديمة جـدا، إذ كانت ودان في القديم مركـزا كبيرا للتعليم الإسـلامي، وكان بها كثيـر من العلماء، كانوا من

---

(١) المكان نفسه.

(٢) نفسه، ص٢٨٢.

(٣) نسبة إلى إقـليم ودان في موريتانيا الحـالية. توجد عدة روايات حـول تاريخ تأسيسها: روايـة محلية تقول بأن ذلك كان سنة ٥٣٥هـ/ ١١٤١م، وأخرى تقول سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩.. إلخ. انظر:
Sanhaja Scholars of Timbuctoo, op. cit. p. 630.

(٤) Loc. cit.

(٥) Loc. cit.

(٦) Loc. cit.

(٧) Loc. cit.

الكثرة بحيث يجد الإنسان أربعين منزلا متلاصقة كل واحد منها به عالم. ويوجد اثنان أو ثلاثة من العلماء بينهم منزل أو منزلان وما شابه ذلك[١]. وفي الفترة التي نؤرخ لها كانت الطريق بين ودان وتنبكت سالكة، وكانت تنبكت في قمة نشاطها العلمي، وتزخر بالعلماء الذين ترجمنا لمعظمهم، وتمتد جذور هؤلاء بدورهم إلى المغرب، وإن مدينة تنبكت نفسها ـ كما ذكرنا ـ أسسها بربر المغرب الضاربون في الصحراء المغربية. وعرف علماء تنبكت المنحدرون من أصول بربرية بـ«البيضان»، وأول هؤلاء البيضان العلماء الذين تولوا الإمامة في المسجد الجامع بتنبكت هو الفقيه سيدي عبدالله البلبابي جد جدة أم والد أحمد بابا[٢]، الذي قدم من المغرب إلى تنبكت صحبة الفقيه كاتب موسى عندما عاد من مدينة فاس، ومعه أخوات له[٣]. وانتشر علماء البيضان حتى مدينة جني، صنو تنبكت، وحلوا محل العلماء الذين ينحدرون أصلا من أهل البلاد القدماء في المراكز العلمية المهمة[٤] منذ نهاية حكم آسكيا الحاج محمد.[٥]

ونجد في الجزء الشرقي من غربي إفريقية أن لعلماء المغرب عامة وعلماء مدينة توات خاصة فضلاً كبيراً في إنعاش الحياة العلمية ببلاد برنو. وعرف علماء توات عند أهل برنو بـ«المرابطين» في القرن التاسع الهجري (١٥م)[٦]. فقد كتب السلطان البرنوي كدي ـ في الثلث الثاني من القرن التاسع الهجري ـ رسالة إلى هؤلاء المرابطين بتاريخ شعبان سنة ٨٤٣هـ/ ١٤٤٠م جاء فيها: «من

(١) Ibid, p. 639.

(٢) تاريخ السودان، ص٥٧.

(٣) المكان نفسه.

(٤) نفسه، ص٢٠.

(٥) نفسه، ص٥٧.

(٦) ابن يونس، مرجع سبق ذكره، ص٢٥٥.

السلطان كدي بن حمشيش سلطان برنو أيده الله ونصره وحده.. أما بعد: فإلى المرابطين الذين مع الشيخ مختار وسيدي عمر الشيخ وإلى سائر إخوانهم وإلى درمقشه المقيم حاليا بتوات. السلام عليكم جميعا. وبعد: فقد عجبنا من أمركم، لماذا تركتم عادة كبرائكم؟ لماذا قصرتم عن النزول وإرسال البعثات إلى بلادنا منذ عهدكم مع كبيرنا السلطان صغير؟ فأنتم لم تعودوا إلينا منذ ذلك الحين، لماذا هذا؟ فإنني أقسم بالله أنه لن يصيبكم أي شيء من الأذى فيما لو جئتم، لا من جهتي ولا من أحد غيري، فعليكم أن تأتوا إذن كعادتكم، وكل من جاء من توات حاملا معه رسالة منكم لا يسأل عن شيء من الرسوم، لأن البلاد بلادكم كما كانت لأنها بلاد أسلافكم، والسلام.[1]

والرسالة ذات دلالة عميقة على تاريخ العلاقات الثقافية بين برنو والعلماء المرابطين في توات المغربية ودور ومكانة هؤلاء العلماء في الحركة العلمية والدعوية في هذه المناطق.[2]

وتولى علماء مغاربة أعلى المناصب الدينية في بعض مناطق غربي إفريقية، منهم أبوعبدالله محمد بن وانسول السجلماسي الذي تولى القضاء في بلاد كوكو،[3] عندما كانت تحت حكم السلطان المالي ماري جاطة الثاني (١٣٥٩هـ/ ١٣٧٣م). ولقد استقى ابن خلدون معظم معلوماته عن ملوك مالي

(١) نفسه، ص٢٥٦.
(٢) المكان نفسه.
(٣) ابن خلدون، العبر، جـ٦، ص٤١٧.
اختلف المؤرخون حول مكان ورسم هذه المدينة. فابن يونس (ص١٧٠) يجعلها عاصمة لبرنو قبل ميدغري ويسميها كوكو، ولم نعرف من أين له بهذا الرأي. وهناك من يرسمها كوكا أو كوكوا (البكري ١٨٣)، أما ابن المختار فيرسمها «كوكيا»، ويصفها بأنها دار سلطنة سلطان مالي سني على (الفتاش، ٤٤) ولعل كوكيا هذه هي التي يعنيها ابن خلدون، لأنه كان يتكلم عن مالي، ويقول في الجزء الأول من تاريخه (ص٤٣) إن ملك كوكو كان مستقلا فيما سبق ولكن استولى على ملكه فيما

==

من ابن وانسول هذا. وكانت المدينة عامرة بفضلاء الناس من المغاربة.[1]

لقد زار ابن بطوطة دولة مالي في حـوالي منتصف القرن (٨هـ/ ١٤م)، والتقى فيـها بعدد من مسلمـي شمالي إفريقيـة المقيمين هنا، منهم مـحمد ابن الفقيه الجزولي وصهره الفقيه المقرئ عبدالواحد.[2]

=

بعد سلطان مالي ثم هبت على كوكو عاصفة من الاضطرابات الداخلية أدت إلي دمارها بعد أن كانت من الدويلات التي تحدث عنهـا المؤرخون العرب كاليعـقوبي، ووصفها بأنهـا كانت من أعظم ممالك السودان، وأن كل الممالك كانت تخضع لها (البلدان، ١٥٨). ولم يخالف الإدريسي ماقاله اليعقوبي (المغرب، ص١١) حين قـال: ثم إن ملك مدينة كوكو ملـك قائم بذاته، خاطب لنفســه، وله حشم كثيـر ودخله كبير وقواد وأجـناد وزي كامل وحلية حسنة.. ولهم بأس وقـهر لمن جاورهم من الأمم المحيطة بأرضهم». ويذكر القلقشندي أيضا استقلالها (الأعشى، جـ٨، ٢٨٥).

وكانت علاقات الدولة الرستـمية الودية بغربي إفريقية مع هذه الدولة، لا سيـما في عهد الإمام أفلح (المغرب الكبـير، جـ٢، ص٥٧٣). ويلاحظ أن ابن خلدون يطلق اسم كوكـو على الأمة التي تقطن هذه المنطقة. ويعطي اسما ثانيا لكوكو، وهو كـاغو (العبر، جـ٦، ص٤١٣). والراجح أن كوكو من البلدان المجاورة لمالي وغانة والتكـرور، وقد حدد القلقشندي مكانها وهو شـرق إقليم مالي (الأعشى جـ٨، ص٢٨٥). ويذكـر ابن بطوطة أنه زارها بعـد مالي ووصـفهـا بأنها مـدينة كـبيـرة على النيل (النيجر) من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصـبها.. وتعامل أهلها البيع والشراء بالودع، وكذلك أهل مالي (الرحلة، ٤٥٢) ويقول في موضع آخـر (ص٤٤٤): «ثم ينحدر النيل من زاغة إلى تنبكتو ثم إلى كوكو» وقد ناقش كولي هذه الأسماء المختلفة لكوكو.

إن طبيـعة تسرب الإسلام إلي هذه البـلاد كان جزئيا (البكري، المغـرب، ص١٨٣) مما جعل روايات المؤرخين تتضـارب حول إسلامـها. فالـقلقشندي قال بكفـرها (الأعشى، ٥: ٨٥) وتابعـه المقريزي (الذهب المسـبوك، ص١١١)، وذكر كل منهـما أن ملكهـا كان يحـارب مسلمي غانـا والكانم، أما البكري (المغـرب، ص١٨٣) فيوضح بأنهـا مدينتان، مـدينة الملك ومدينة المسلـمين، وأن الملك كان مسلما ولا يكون الملك في غير المسلمين. ثم جاء بعد ذلك ابن خلدون وقال بأنها مسلمة (جـ١، ص ١٤٣) ويدل هذا التبـاين في الآراء على طبيعة دخـول الإسلام إلى غربي إفريقـية عامة وبـلاد كوكو خاصة، وكل ماورد من آراء حـول إسلامها يعبر عن مـرحلة معينة من تاريخ الإسلام فيهـا كما كان الحال في غيرها من بلدان هذه المنطقة (انظر: صفحة ١٤٣من هذا الكتاب).

ضم هذه المدينة إلى مالي السلطان المالي ساكـورة (خلدون، جـ٦، ص٤١٤، صبح الأعشى، جـ٥، ص٢٩٤).

(١) العبر، جـ٦، ص٤١٧.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ص٤٥٢.

حظي هؤلاء الأعلام بمكانة اجتماعيــة كبرى وباحترام خاص لدى سلطان البلاد، حتى إن محــمد بن الفقيه تزوج بنت عم السلطان المالي منســا سليمان (٧٦١هـ/ ١٣٥٩م). وكانت تقــوم هذه المرأة بنفســها في خدمــة ضيــفهم ابن بطوطة.[1]

جذبت هذه المعاملة الطيــبة والمكانة الاجتماعية العــالية العلماء والمعلمين حتى من الأندلس ليقــوموا بالتدريس في معاهد مالي الإســلامية. ومن أولئك الأعــلام: علي بن أحمــد بن محــمــد بن عبــدالله الوادي آشي (ت ٧٢٤هـ/ ١٣٢٣م) والد ابن الملقن الــتكروري (ت ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م) صــاحب كــتــاب طبقات الأولياء[3]. رحل هذا العالم من الأندلس ومن بلدة وادي آش إلى بلاد مالي التي اشتهرت في زمــانه ـ مطلع القرن الرابع عشر الميلادي ـ باسم «بلاد التكرور»، ومارس التدريس هنا لاسيما تدريس علوم العربية[4] التي تميز فيها، واشتــهر بـ«النحــوي». قدم القــاهرة من بلاد التكرور وتتلمــذ على يديه بعض مشــاهير المصريين. وفــي القاهرة ولد ابنه سراج الدين عــمر بن علي المشــهور بـ«ابن الملقن» نسبــة إلى شرف الدين عيــسى المغربي الملقن لكتــاب الله بالجامع الطولوني، والذي تزوج أم عمر بن علي وقام بتربيته عندما توفي والده وله من العمر عام واحد.[5]

---

(١) المصدر نفسه، ص٤٤٤.

(٢) المكان نفسه.

(٣) طبقات الأولياء ومناقب الأصــفياء لابن الملقن التكروري الوادي آشي المغربي، كتاب حــققه وقدم له ونشره الأستاذ عــبدالله الحبوي بمجلة دعوة الحق: العدد الرابع، السنة الثــالثة عشرة (ابريل ١٩٧٠م) ص١١٠ وما بعدها. وقد اشتهــر ابن الملقن بكثرة التصانيف. انظر: الضوء اللامع، جـ٢، ص٣٧. وجـ٦ ص١٠٠، ١٠٥.

(٤) طبقات الأولياء، المرجع نفسه، ص١١١.

(٥) المكان نفسه.

إن تاريخ العلاقات الثقافية بين المغرب وبلاد الصحراء وغربي إفريقية قديم، وظل يزداد بازدياد انتشار الإسلام وتأصله في المنطقتين حتى وصل قمته فيما بعد القرن الرابع عشر الميلادي، لا سيما في القرون: الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر. وظلت أسماء بعض العلماء الأعلام المغاربة معروفة في بلاد غربي إفريقية. وكانت فتاواهم منارات يهتدي بها طلبة العلم والعلماء في غربي إفريقية، وحفلت بها مؤلفات علماء غربي إفريقية وجرت بها الألسن. وقد حوت قصيدة شرب الزلال أسماء معظم هؤلاء المشاعل، بالإضافة إلى مشاهير علماء مصر والأندلس الذين عاشوا في الفترة قبل منتصف القرن الثامن عشر الميلادي.[١]

أما التبادل التعليمي بين معاهد غربي إفريقية المختلفة فقد كان واضحا جدا، وكان للحج دور كبير فيه، لأن حجاج الجناح الغربي من غربي إفريقية كانوا يمرون في طريقهم إلى الحج بمدن الجناح الشرقي منها، فيلتقي العلماء بعضهم ببعض سواء في الذهاب أو المجيء، ويتبادلون ما عندهم من معارف ويتتلمذون بعضهم على بعض. وكانت تنبكت قطب الرحى في مجال التعليم، إذ كانت تضرب لها أكباد الإبل من أقصى نقطة للجناح الشرقي من غربي إفريقية والجناح الغربي سعيا وراء التعليم. وكان علماؤها يتجولون في بلاد غربي إفريقية المختلفة. ويتولون أعلى المناصب الدينية أينما حلوا، ويحظون باحترام العامة والخاصة.

إن أهم بعثة تعليمية ذكرتها المصادر جاءت من مالي إلى بلاد الهوسا وبرنو، وهي البعثة الونغارية[٢]. ومما لا شك فيه أن هؤلاء العلماء كانوا من

---

(١) انظر: القصيدة في ملحق رقم (٩).

(٢) K. C. P. 70.

ركائز معاهد تنبكت وجني وجاو.

ومنذ ذلك الحين أخذ العلماء التنبكتيون يتوافدون على بلاد الهوسا وبرنوا، أمثال الفقيه مخلوف البلبالي ومحمد بن أحمد التاذختي[1]. ومنهم من أسس معهدا تعليميا، مثل معهد الحنبليين في كاتسينا.[2]

أما التبادل التعليمي بين برنو وبلاد الهوسا فقد كان سهلا ومتواصلا لقرب المنطقتين الواحدة من الأخرى.

وعلى الرغم من أن المصادر قد أغفلت ذكر الطلاب الذين وفدوا على تنبكت من مناطق الهوسا وبرنو، إلا أن المنطق يقتضي أن يكون بعض طلاب هذه البلاد من بين المتعلمين في تنبكت، وذلك إذا علمنا أن العالم الباغرمي الشيخ ولولو قد رحل إلى تنبكت لتلقي العلم في مطلع القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي[3]، وهو من منطقة أبعد من برنو، فلا مندوحة إذن من أن يكون القريبون أكثر ترددا على تنبكت لطلب العلم.

---

(١) انظر: ترجمتهما في هذا الفصل، السعدي، ص٣٩.

(٢) علي أبوبكر. سبق ذكر، ص١١٠.

(٣) إنفاق الميسور، ص٣١.

المبحث الثاني

التبادل التعليمي
مع مصر والسودان العربي والحجاز

المطلب الأول : مع مصر

لم تكن صلة مصر بغربي إفريقية صلة ثقافية فحسب، بل كانت صلة تجارية أيضا، وهذه الصلة الاقتصادية بين المنطقتين قديمة؛ فقد كشفت الحفريات الأثرية عن وجود قطع برونزية مصرية في ساحل الذهب (غانا الحديثة). ويؤكد هذا الكشف وجود صلة تجارية قديمة[1]. ومن المرجح وجود طريق تجاري قديم من الشرق إلى الغرب مخترقا دارفور، وصلت عليه السلع المصرية إلى غربي إفريقية.[2]

وازدادت الروابط التجارية بين مصر وغربي إفريقية منذ القرن الرابع عشر. وأبلغ دليل على اتصال هذه العلاقات أن طائفة من أهل كانم رحلوا إلى مصر، وأقاموا واشتركوا بنصيب كبير في تجارتها الداخلية والخارجية، ونمت ثروات بعضهم نمواً عظيما[3]، بحيث أصبحوا يقومون في عالم التجارة بما تقوم به البنوك الحديثة، ويقرضون السلاطين في مصر[4]. ومثال ذلك مايذكره

(١) د. سر الختم عثمان، مرجع سبق ذكره، ص٧٥.

(٢) المكان نفسه.

(٣) المقريزي، السلوك، ص١٠٣، ١٣٣ـ ومن هؤلاء الذين نمت ثروتهم عزالدين عبدالعزيز بن منصور الكولمي الكارمي، الذي بلغت ثروته حوالي الخمسة عشر ألفا من الدراهم، وفي رواية أخرى خمسمئة ألف. انظر: السلوك، جـ٢ ص ص١٣٢ـ١٣٣.

(٤) انظر: د. حسن محمود، دور العرب ص٧٦؛ التجارة الكارمية، وتجارة مصر في العصور الوسطى، بحث للدكتور صبحي لبيب، نشر بالمجلة التاريخية المصرية: المجلد الرابع، العدد الثاني (١٩٥٢م) ص٦ ومابعدها، د. عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص٢٩٠.

المقريزي[1] في حوادث سنة ٧١١هـ/ ١٣١١م من أن السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون (مطلع القرن الرابع عشر الميلادي) اقترض من تجار الكانم مبلغا من المال لدفع قيمة جواهر ثمينة اشتراها من بعض الفرنجة.

ومما يؤكد اهتمام مصر بغربي إفريقية واتجاهها نحوها أن بعض السلاطين المصريين استخدم في بعض الدواوين الحكومية أحد الموظفين المسلمين المتحدثين بلغة التكرور، واسم هذا الموظف: القاضي جمال الدين إبراهيم. وكان يتولى هذا الموظف منصبا سياسيا كبيرا، مما أدى إلى مصرعه في حوادث سنة ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م إثر وشاية به لدى السلطان[2]. وأشار ابن خلدون[3] إلى ترجمان آخر للتكرور هو الشيخ الحاج يونس، الذي كان مقيما بمصر وأمد ابن خلدون بكثير من المعلومات عن غربي إفريقية.

ومن التكاررة من خدم في الجيش المملوكي وترقى حتى وصل إلى أعلى الرتب العسكرية، مثل عنبر التكروري، الذي رقاه السلطان قايتباي في عام ٩٠١هـ/ ١٤٩٥م إلى رتبة نائب مقدم المماليك، ثم صار مقدما في عام ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م.[4]

وقد أصبح سكان غربي إفريقية المعروفين بالتكاررة جزءا مهماً من المجتمع المصري، يظهرون في المناسبات العامة بين قطاعات الشعب المختلفة. ففي سنة (٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م) وفي الذكرى السنوية الأولى لوفاة الملك الظاهر المملوكي، مدت الأسمطة في الخيام للقراء والفقهاء، وفرقت الأطعمة على

---

(١) السلوك، جـ٢، ص١٠٣.

(٢) المقريزي، الخطط، جـ٣، ص١٢٢.

(٣) العبر، جـ٦، ٢٠١.

(٤) مسالك الأبصار، ص٤٩٤، ٥٠٥، العمري، التعريف، ص٢٧؛ العبر جـ٥ ص ص٤٣٣-٣٤؛ صبح الأعشى، جـ٥، ص٢٨٦؛ الخطط، جـ٢، ص٣٢٦؛ بدائع الزهور، جـ٢، ص١٥٠، ٣٦١.

أهل الزوايا، وأقيمت المجمعات لكافة الطبقات ومن بينهم التكاررة.[1]

ولم يقتصر أثر الجالية الغربي إفريقية على الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية فقط، بل تعداه إلى الناحية الثقافية والروحية تاركين بصمات قوية في حياة الشعب المصري إلى يومنا هذا.

كانت هذه الجالية ذات اعتبار في هذا الجانب منذ العصر الفاطمي[2]. واشتهر منهم الشيخ أبومحمد يوسف بن عبدالله التكروري[3]، الذي اعتقد بعض المصريين في صلاحه. وعندما قبض شيدت على قبره قبة وبجانبها مسجد.

وقد جدد هذا المسجد ووسع على يد الأمير محسن مقدم المماليك على عهد الدولة المملوكية الأولى عام ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م،[4] وعرف بـ«جامع التكروري»،[5] وعرفت منية بولاق حتى اليوم بـ«بولاق الدكرور»،[6] نسبة إلى هذا الشيخ التكروري.

وإلى جانب أبي محمد عرف عالم تكروري آخر هو الشيخ راشد بن عبدالله التكروري (ت ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م)، وكان من أعيان العلماء الذين التف حولهم المريدون واعتقدت فيهم العامة. وكان مقر إقامته ما يعرف الآن بـ«جامع

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ١، ص ص٦٤٨ـ٤٩.

(٢) د. طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، سبق ذكره، ص١٥٠.

(٣) الخطط، جـ٤، ص١٣٣.

(٤) المكان نفسه.

(٥) د. طرخان، مصر في عصر الجراكسة، ص١٥٠.

(٦) يرجع الدكتور عاشور أن النسبة إلى تجار التكرور الذين كانت ترد بضائعهم من قوص عن طريق النيل إلى ساحل بولاق التكرور، وهذا تحريف في الاسم من قبل العوام وبعض الخاصة، ومكانها الآن بالجيزة.

راشد» عند بركة الحبش.[1]

ومن أبناء التكرور الذين اشتهـروا بالزهد والتقشف والتعبـد الشيخ فاتح ابن عـثمـان التكروري (ت ٦٩٥هـ/ ١٢٩٣م). فـقد قـدم من مراكش وأقـام بدميـاط ولازم أحد مسـاجدها للتـعليم والعبادة، حـتى أصبح الجـامع يعرف بـ«جامع فتح». وعرف بأنه من أتقياء الناس.[2]

ومن العلماء التكاررة الذين نراهم نموذجا حيا للتـبادل التعليمي مع مصر العالم الفقيه صبيح بن عـبدالله التكروري الكوتاتي الحارس. تلقى تعليمه على الشيخ النجيب والشيخ شمس الدين بن العمـاد وغيرهما مع ولدي سيده عندما كان في الاسترقـاق. وتمكن من شراء نفسه من سيـده بخمسمئة درهم جـمعها من صناعة الكلوتات[3]. ثم ذهب إلى دمشق عـالما ومتعلمـا حتى توفي سنة ٧٣١هـ/ ١٣٣٠م عن عمر ناهز السبعين.[4]

ومنهم الشـيخ عـبـدالمـلك بن علي الكانمي الذي تتـلمـذ على الشـيخ النجـيب، وعنـدمـا شب عن الطوق اشـتـغل بالتـعـليم في مـصـر ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م.[5]

ومنهم الشيخ مـحمد بن أحـمد بن عثمـان بن عبدالله بن سليـمان بن العـبـاس الحـراز العـز التكروري الأصل والقـرافي المدفن والمعـروف بـ«العـز التكروري» أو «العز الغاني» (ت ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م)[6]. حفظ العز القرآن كله

(١) ابن حجـر العسقـلاني: إنباء الغـمر بأنباء العـمر، مخطوط في مـجلدين، رقم ٢٧٦ع بدار الكتب المصرية، جـ١، صحيفة ٥٨٢. انظر: د. سر الختم، ص١٣٤.

(٢) الخطط، جـ١، ص ص٣٦٢ـ٦٤.

(٣) الدرر الكامنة، جـ٢، ص٣٠٤. (والكلوت نوع من اللباس).

(٤) المكان نفسه.

(٥) المكان نفسه.

(٦) الضوء اللامع، جـ٧، ص٢.

وتتلمذ على بعض مشاهير الفقهاء المصريين.[1]

وقد أدى الحج دوراً كبيراً في التبادل التعليمي، حيث تقع مصر على الطريق المؤدي إلى الأراضي المقدسة ومقر الخلافة العباسية، وتعدّ كعبة ثقافية عليا يتمنى كل حاج وعالم أن يتزود منها بالعلم والمعرفة، ويفتخر بالجلوس إلى فطاحل علمائها لتلقي العلوم الإسلامية المختلفة. وكانت بلد الأزهر الشريف الذي طبقت شهرته كل العالم الإسلامي، فقصدوه من كل فج عميق لشرف التتلمذ على مشايخه الميامين.

كان من الحجاج من يمكث فترة بمصر، ثم يواصل رحلته إلى الحج ثم يعود ليمكث فترة أخرى وهو في طريقه إلى بلاده. وتتفاوت مدة بقاء كل عالم حاج بها. بل آثر بعضهم البقاء نهائيا في مصر حتى مات في حلقة العلم.

ومن العلماء المشهورين الذين قضوا زمنا ما بمصر في طريقهم إلى الحج، وصرحت المصادر بأنهم تبادلوا العلم مع علماء مصر في الأزهر وتتلمذوا على علمائها: الفقيه أحمد بن عمر بن محمد أقيت[2] والفقيه القاضي محمود بن عمر أقيت[3] والفقيه القاضي العاقب بن محمود أقيت[4] والفقيه أحمد بن أحمد والد أحمد بابا[5] والفقيه محمد بغيغ[6] والفقيه محمد بن أحمد التاذختي[7] والفقيه العاقب بن عبدالله الأنصمني[8] والفقيه القاضي محمود

(١) المصدر نفسه، ص٣.
(٢) انظر: ترجمته، ص ٣٣٥ من هذا الكتاب.
(٣) انظر: ترجمته، ص ٣٣٦ من هذا الكتاب.
(٤) انظر: ترجمته، ص ٣٣٩ من هذا الكتاب.
(٥) انظر: ترجمته، ص ٣٤٠ من هذا الكتاب.
(٦) انظر: ترجمته، ص ٣٥٠ من هذا الكتاب.
(٧) تاريخ السودان، ص ص٣٩ـ٤٠.
(٨) نيل الابتهاج، و١٨٠؛ تاريخ السودان، ص١٤٠، وترجمته، ص٣٣٩.

كعت[١] والفقيه صديق تعلي[٢] والفقيه محمد بن محمد الفولاني الكشناوي[٣] والفقيه عمر بن عثمان الفلاتي[٤] والفقيه عبدالعزيز التكروري[٥] والفقيه صالح الفلاني[٦] والشيخ محمد الأمين الكانمي.[٧]

أدى كل هؤلاء الأعلام الفريضة ونهلوا من معين مصر العلمي. وهذا عدد قليل إذا علمنا أن القوافل التي كانت تمر بمصر في طريقها إلى الحج فيها الكثير من العلماء، وإن أغفلت المصادر ذكرهم وركزت على ذكر المشاهير فقط.

وعندما كثر عدد المقيمين بمصر والوافدين عليها من غربي إفريقية أسس رواق خاص بالأزهر عرف بـ«رواق التكرور»[٨]، بالإضافة إلى مدرسة ابن رشيق بالفسطاط التي أسسها أهل كانم.[٩]

لم يكن العلماء والأفراد وحدهم هم الذين عبروا الفيافي والقفار رجالا وعلى كل ضامر تلبية لنداء الحج، بل نهج هذا النهج كثير من الحكام الأخيار.

إن حج السلاطين والملوك قديم قدم الإسلام في غربي إفريقية: وتذكر المصادر التاريخية أن أول من حج من ملوك مالي في القرن الحادي عشر الميلادي هو برمندانة[١٠]. واقتفى سنته في الحج من جاء بعده من الملوك[١١].

(١) انظر: ترجمته، ص ٣٥٢ من هذا الكتاب.

(٢) انظر: ترجمته، ص ٣٤٩ من هذا الكتاب.

(٣) انظر: ترجمته، ص ٧٨٨ من هذا الكتاب؛ معجم المؤلفين، جـ١١، ص٢٥٨.

(٤) انظر: ترجمته، ص ٤٩٥ من هذا الكتاب.

(٥) النيل، و١٣٥.

(٦) معجم المؤلفين، جـ٥، ص١٦.

(٧) انظر: ترجمته، ص٣٤٦.

(٨) مسالك الأبصار، ص٤٩٢.

(٩) صبح الأعشى، جـ٥، ص٢٨١؛ الخطط المقريزية، ج٤، ص١٩٥.

(١٠) العبر، جـ٦، ص٤١٣؛ صبح الأعشى، جـ٥، ص٢٩٣؛ الذهب المسبوك، ص١١٠.

(١١) صبح الأعشى، المكان نفسه.

واشتهر منهم منسا علي بن ماري جاطة (٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م) الذي زار مصر وهو في طريقه إلى الحج عام ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م في عهد السلطان الظاهر بيبرس[1] والسلطان ساكوره (سيكره، ساكبوره، صاكوره) المتوفى سنة (٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م[2]).

أما أشهر السلاطين الحجاج في القرن الثامن الهجري (١٤م) فهو السلطان المالي موسى بن أبي بكر سالم التكروري[3]، المشهور بـ«منسا موسى»، الذي قدم إلى مصر في طريقه إلى الحج سنة ٧٢٤هـ/ ١٣٢٣م في عهد الناصر بن قلاوون[4]. واشترى في مصر عددا من الكتب الإسلامية لاسيما الكتب المالكية.[5]

وفي القرن العاشر (السادس عشر) أدى فريضة الحج عاهل سنغي آسكيا محمد الذي اشتهر فيما بعد بآسكيا الحاج محمد. وذاع صيت هذه الحجة لما لِصاحبها من صدقات على الناس في الأراضي المقدسة ونيله لقب خليفة على بلاده من قبل الخليفة العباسي الاسمي في مصر آنذاك[6]. ولقي بمصر الكثير من العلماء الفقهاء مثل الجلال السيوطي، وسألهم عن أشياء فأفتوه عنها.[7]

وعني مايات برنو أيضا بأداء فريضة الحج عن طريق مصر، ومنذ القرن (٥هـ/ ١١م)، منهم الماي أوم (حوالي سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م). وقد توفي

(١) الذهب المسبوك، ص ص١١٠ـ١١١، صبح الأعشى؛ المكانان نفساهما.

(٢) صبح الأعشى، جـ٥، ص٢٩٤؛ العبر جـ٥، ص ص٤٣٣ـ٤٣٤؛ الذهب المسبوك، ص١١١.

(٣) الدرر الكامنة، جـ٥، ص١٥٤.

(٤) المصدر نفسه والجزء، ص١٥٥؛ الذهب المسبوك، ص١١٢.

(٥) المكانان نفساهما.

(٦) تاريخ السودان، ص٧٣.

(٧) تاريخ الفتاش، ص٦٨.

بمصر ودفن بها في عهد الخليفة الفاطمي المستعلي أحمد (٤٨٧-٤٩٥هـ/ ١٠٩٤-١١٠١م)[١]، والماي الهادي دونمه بن أوم الذي حج أكثر من مرة وغرق في حجته الثالثة حوالي سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥١م، وقيل إن الفاطميين كانوا وراء ذلك خشية سطوته[٢]. ولا نظن أن الإغراق من أساليب التخلص من الأعداء السياسيين.

وهكذا اشترك الرعية والراعي في أداء رحلة الحج والإفادة من لقاء مشاهير العلماء في مصر والحجاز. وظل هذا التقليد في أداء الحج حتى يومنا هذا، وإن كانت سبل المواصلات الحديثة قد جعلت منها رحلة مباشرة ويسيرة جداً.

أما الطرق التي كان يتبعها حجاج غربي إفريقية فهي: طريق عبر دارفور وكردفان إلى مدينة سنار، ثم عبر الصحراء إلى ميناء سواكن على البحر الأحمر، ثم إلى جدة عن طريق السفن الشراعية[٣]. وطريق آخر يتفرع من هذا عند سنار فيتجه إلى دنقلة محاذيا للنيل ثم إلى أرض المحس فمصر. ومن مصر إلى الحجاز. والطرق الأخرى هي الطرق التجارية نفسها التي تربط شمالي إفريقية مع غربي إفريقية ابتداء من درب الأربعين في السودان النيلي العربي حتى طريق تنبكت سجلماسة في أقصى المغرب.[٤]

وأكثر الطرق التي كانت تسلك هي الطريق البري عبر فزان والطريق البحري من مواني المغرب إلى مصر.[٥]

---

(١) د. طرخان: إمبراطورية البرنو الإسلامية، سبق ذكره ص٧٢.

(٢) The Bornu Sahara and Sudan, op. cit., pp. 91, 163,164.

(٣) رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان، سبق ذكره، ص٣٩.

(٤) انظر: الفصل الأول من الكتاب، بوركهارت، المصدر نفسه، ص٢٨٥.

(٥) نفسه، ص٣٢٢.

ويمارس الحجاج بجانب التعليم البيع والشراء أثناء الطريق[1] حتى يمكنهم تغطية نفقات الرحلة، وعرفوا لدى أهل المشرق عامة بـ«التكاررة».[2]

وفي ختام هذا المطلب نلقي بعض الأضـواء على بعض العلماء المصريين الأزهريين الذين أفاد منهم وتتلمذ عليـهم بعض الوافدين من العلماء والطلاب والحجـاج الذين قدموا إلى مصـر طلبا للعلم أو طلبا للحج والعلم من جـميع أرجاء غربي إفريقية، منهم:

١ ـ **خالد الأزهري**: هو خالد بن عـبدالله بن أبي بكر بن محمـد بن أحمد الجرجـاوي الأزهري المصري الشافـعي، يعرف بـ«الوقـاد» زين الدين. كان من النحاة اللغـويين. ولد بجرجة من قـرى الصعيد سنة ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤ تقـريبا. وتوفي بالقاهرة سنة ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م. وله مؤلفات منها:

١ ـ المقدمة الأزهرية في علم العربية.

٢ ـ الألفاظ النحويّة.

٣ ـ الحواشي الأزهرية في حل ألفاظ المقدمة الجزرية.

٤ ـ الزبدة في شرح البردة.

٥ ـ تمرين الطلاب في صناعة الإعراب.[3]

وهو ممن تتلمذ عليهم الفقيه أحمد بن عمر أقيت عام ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م أثناء مروره بالحج.[4]

٢ ـ **السيـوطي**: ترجم السيـوطي لنفسـه في مـؤلفـه المشـهـور «حـسن المحاضرة»[5]. وهو عبدالرحـمن بن الكمال بن أبي بكر بن محـمد بن سابق

(١) المكان نفسه.

(٢) انظر: تحقيق هذا الاسم: ملحق رقم (١١) ص ٧٩٦.

(٣) معجم المؤلفين، جـ٤، ص٩٦.

(٤) النيل، ورقة٦٤؛ تاريخ السودان، ص٣٧.

(٥) انظر: ص١٤٠.

الدين بن الفخر بــن عثمان بن ناظرالدين بن سيف الديــن خضر بن نجم الدين أبي الصــلاح أيوب بن ناصــر الدين محــمــد بن الشــيخ همام الــدين الهمــام الخــضيــري الأســيوطي. وذكــر أن جــده الأعلى همام الــدين كان من رجــال الصوفيــة، وأن من دونه كانوا من أهل الوجاهة والرياســة، وأنه لايعرف منهم من خدم العلم حق الخــدمة إلا والده. وترجم له بما يناسب مقــامه[1]، وسمع أن جده الأعلى كان أعجمــيا، وأما نسبته بالخضيــري فقد رجح أن تكون محلة ببــغــداد،[2] وذكــر أنه ولد في سنة ٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م، وتــكلم عن تعليــمــه والكتب التي درسها وتاريخ بدايته التأليف والتدريس.[3]

لقد حــفظ القرآن وهو دون الثــامنة، وشرع في التدريــس وهو ابن سبع عــشرة سنة، وتولى الإفــتاء سنة ٨٧١هــ/ ١٤٦٦م في الثانيــة والعشــرين من عمره[4]، وفي هذا دليل على نبوغه واستحقاقه لقب عالم زمانه.

اهتم الباحــثون بهــذه الشخصــية الفــريدة، وترجمت له مــعظم كتب[5] التراجم العربية والإفرنجية لما له من فضل كبير في مجال الثقافة والعلم.

لقد أمدّ السيوطي المكتبة الإسلامية العربية بمؤلفات جمة صرح بجزء منها في قوله: «وبلغت مــؤلفاتي إلى الآن ثلاثمئة كــتاب سوى ما غســلته ورجعت عنه[6]. واستــغرق ذكــره لهذه المؤلفات أربع صــفحــات؛ منها ٢٣ مــؤلفا في

(١) المصدر نفسه، ص١٨٧.

(٢) نفسه، ص١٤٠.

(٣) نفسه، ص ص١٤٠ـ١٤١.

(٤) نفسه، ص١٤١.

(٥) مثلا: CAL, Suppl. 11.p. 198, 307

ـ محمود رزق، ص ص٣٥٥ـ٦٨.

ـ الزركلي، جـ٤، ص ص٧٠ـ٧١.

ـ تاريخ آداب اللغة، جـ٣، ص ص٢٤٥ـ٥٠ الخ.

(٦) المصدر السابق، ص١٤١.

التفسير ومتعلقاته، و٩٥ في الحديث، و٢١ في اللغة، و٤٣ في الأجزاء المفردة، و٣٥ في العلوم العربية، و٢١ في الأصول والبيان والتصوف، و٥٠ في التاريخ والآداب وغير ذلك. ولا يزال أكثر مؤلفاته باقيا. وقد أفاض بروكلمان في ذكر ما تبقى منها ومكان وجوده أو سنة طبعه مرتبا حسب الفنون، فبلغ ذلك ٣١٦ كتابا ورسالة[١] وقال بعض المؤرخين إنها بلغت خمسمئة، وذكر ابن إياس، تلميذ السيوطي، أنها بلغت ستمئة[٢]. وذكر محمود رزق جانبا كبيرا من هذه المؤلفات مع وصف موجز لكل مؤلف حسبما شاهده في تطوافه على المكتبات في الداخل والخارج[٣]. وقد ذكرنا جانبا من أهم مؤلفاته التي اشتهرت في التعليم الإسلامي بغربي إفريقية في الفصل العاشر من هذا الكتاب.

وعالم هذا إنتاجه وطول باعه لابد أن يكون مقصد طالبي العلم من كل العالم الإسلامي. وقد زودتنا المصادر التاريخية بأسماء العديد من العلماء والحكام الذين التقوا بهذا العالم الجليل ليكونوا من بين تلاميذه، من بينهم الفقيه أحمد بن عمر أقيت والقاضي محمود كعت وآسكيا الحاج محمد.

وكتب السيوطي رسالة إلى أمراء التكرور عموما ولسلطان كاتسينا وأجاديس خاصة[٤]. وجاءت معرفته لهذه المنطقة عن طريق الزيارة العلمية التي قام بها إلى هذه المنطقة، إذ كان من العلماء الرحالة الذين طوفوا ببلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور[٥]. وأصدق دليل على معرفته التامة ببلاد التكرور ذكره بعض أسماء الأشخاص والأمراء في الرسالة التي وجهها إليهم.

---

(١) تاريخ آداب اللغة، سبق ذكره، ص ص٢٤٥ـ٥٠.

(٢) محمود رزق، سبق ذكره ص٣٦٢.

(٣) نفسه، ص ص٣٦٥ـ٨٨.

(٤) ملحق رقم ـ ٤ ـ.

(٥) حسن المحاضرة، ص١٤١.

ويتـضح من هذه الرسالة مـدى الصلة التي وجـدت بين مسلمي غـربي إفريقيـة وأعلام العلماء المصريين في تـلك الفترة[١]. وتذكر بعض المصادر أن علماء من هذه المنطقة قد وجهوا إليه عدة أسئلة دينيـة واجتماعية أجاب عليها، وقد ترجم الباحث هنوك[٢] سبـعا وخمـسين سؤالا منها، وهـي الأسئلة التي وجـهـها إليـه سنة ٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م شـخص يسـمى مـحـمـد بن محـمـد اللمـتوني[٣]. وقد نـشرت النسـخة العـربية للأسـئلة والأجوبة بالقـاهرة سنة ١٣٥٢ه/ ١٩٣٣م ضمن مجموعة «الحولية» للفتاوى، الجزء الثاني.[٤]

وُجدت لآراء السيـوطي الفقهيـة أصداء في مؤلفات بعض علـماء غربي إفريقية. فقد استشهد بها عثمان بن فودي في كتابه «الفرق».[٥]

٣ ـ القلقشندي[٦] ـ (ت ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م): هو إبراهيم بن علي بن أحمد ابن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن علي القلقشندي الأصل القاهري المولد والدار، الشافعي (أبوإسـحاق، أبو الفتح)، وكان متـحدثاً وفقيهـا، وقد خرج لنفسه أربعين حديثا[٧]. وهو غير القلقشندي صـاحب «صبع الأعشى». التقى به بعض علماء غـربي إفريقيـة البارزين وأفـادوا منه، منهم: القاضي محـمود أقيت.[٨]

---

(١) See, Al-Hajj, op. cit., p.13.

يذكر هذا المصدر أن في عهد الملك الكانوي رمفا (ت٩٠٤هـ/ ١٤٩٩م) قدم إلى كانو شيخ مصري، وقد رجحنا أن يكون هذا الشيخ هو عبدالرحمن السيوطي.

(٢) Source Materials, op. cit., p. 584.

(٣) Loc. cit.

(٤) Loc. cit.

(٥) See, Hiskett: Kitab Al-Farg, pp. cit. op. 550 ff.

(٦) النيل، و٣١٣

(٧) معجم المؤلفين، جـ١، ص٦١.

(٨) انظر: ترجمته في فصل علماء تنبكت؛ النيل، و٣٢٣.

٤ ـ الشيخ زكريا : هو زين الدين أبو يحيى زكريا بن محمد الأنصاري القاهري السنيكي الأزهري الشافعي. ولد سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م في قرية سنيكة من أعمال الشرقية. عمر طويلا ومات سنة ٩٢٦هـ/ ١٥١٩م. وقد وصف بأنه خاتمة علماء العصر وأحد أفذاذ الدهر، وذائد من ذادة الحق والبيان، وقائد من قادة الدين واللسان. وكان لفرط ذكائه يحفظ عدة كتب. وله مؤلفات عدة في النحو والصرف والفقه والأصول والقراءات والبلاغة والفرائض وآداب البحث والمنطق والتفسير وشرح الحديث والفلسفة والأدب والعروض والقافية والتوحيد[1]. وممن تتلمذ عليه من علماء غربي إفريقية القاضي محمود أقيت التنبكتي.[2]

٥ ـ إبراهيم المقدسي ـ (ت ٩٣٢هـ/ ١٥٢٥م) : هو إبراهيم بن محمد بن أبي بكر بن علي بن أيوب المقدسي، المصري، الشافعي (أبوإسحاق وبرهان الدين، ابن أبي شريف). ولد بالمقدس، ونشأ بها، وتوفي بالقاهرة. أفتى وصنف ونظم ونثر. وقد لقيه وتتلمذ عليه القاضي محمود أقيت عندما حج[3]. ومن مؤلفاته[4]:

١ ـ شرح المنهاج، في أربع مجلدات.

٢ ـ شرح الحاوي.

٣ ـ كتاب في الآيات التي فيها الناسخ والمنسوخ.

٤ ـ ديوان شعر.

---

(١) عصر سلاطين المماليك، مجلد٣، ص ص ٣٨٩ـ٣٩٦.

(٢) النيل، و٣٢٣.

(٣) النيل، و٣٢٣.

(٤) معجم المؤلفين، جـ١، ص٨٨.

٦ ـ **اللقانيان :** لقد حمل نسبة «اللقاني» أكثر من عالم مصري. ويبدو لنا أن اثنين منهم هما المعنيان عند السعدي وأحمد بابا، وهما اللذان التقى بهما علماء غربي إفريقية للأخذ عنهما والتتلمذ على أيديهما. فالأول هو محمد بن حسن ابن علي بن عبدالرحمن اللقاني المالكي (٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م)(١)، والثاني هو محمد بن حسن اللقاني المالكي (ناصرالدين أبوعبدالله) المتوفى سنة ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م(٢). عناهما أحمد بابا في ترجمته للقاضي محمود عندما قال: «وحج عام ٩١٥هـ فلقي السادة كإبراهيم المقدسي والشيخ زكريا و.. واللقانيين».(٣)

وتتلمذ أيضا على الناصر اللقاني الفقهاء والد أحمد بابا والقاضي العاقب ومحمد بغيغ. وحصل منه القاضي العاقب على الإجازة العلمية.(٤)

كان اللقانيان من العلماء الأجلاء الذين اشتغلوا فترة طويلة بالتدريس والإفتاء والتأليف حتى غدت لهما شهرة في جميع أقطار العالم الإسلامي في ذلك الحين، لاسيما عند المغاربة.(٥)

٧ ـ **الأجهوري ـ (ت ٩٥٧هـ/ ١٥٤٩م) :** هو أبوزيد عبدالرحمن بن علي الأجهوري(٦)، نسبة إلى أجهور من قرى الريف المصري(٧). التقى به والد أحمد بابا عندما مر بمصر في طريقه إلى الحج سنة ٩٥٦هـ/ ١٥٤٨م(٨). كان

---

(١) النيل، و٣٠٩ـ٣١٠.

(٢) نفسه، ٣١٢ـ٣١٣.

(٣) نفسه، و٣٢٣. ونسبتهما إلى «لقانة» من قرى محافظة البحيرة المصرية انظر: النيل، و: ٣١٠، الأعلام، جـ١، ص٢١.

(٤) النيل، ٣١٣.

(٥) عن ترجمتهما ومؤلفاتهما انظر: النيل، ٣٠٩ـ١٣؛ طبقات ود ضيف الله ص٣٧.

(٦) النيل، و: ١٣٠، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ص٢١١؛ شجرة النور، ص٢٨٠.

(٧) النيل، و: ١٣٠.

(٨) المكان نفسه.

من العلمـاء المشهـورين كـوالده. وقد جـاء في قصـيدة «شـرب الزلال» اسم «الأجهوري». ولم يصرح صاحب القصيدة إن كان المعني هو الابن أو الأب أو غيـرهما. ولما كان صـاحب شرب الزلال من علماء القـرن الثامن عشـر، فلا يمكننا أن نجـزم بمن كـان يقصـد، ولكننا نرجح أنه كـان يعني أبا الحـسن علي الأجهـوري، شيخ المالكيـة بالقاهرة، وأحـد شيوخ الفـقه والتـصوف[1]. وله مؤلفات منها: شروحه الثلاثة على مختصر خليل في فقه المالكية في اثني عشر مجلدا وغيره[2]. وذاع صيته وقصـده الناس من كل البلاد الإسلامية[3]. وقد توفي علي الأجهوري سنة ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٥م.[4]

٨ ـ الأرْمَيـونـي ـ (٩٥٨هـ/ ١٥٥١م): هو يوسف بن عبـدالله بن سعـيد الحسـيني الأرميونـي المصري الشافـعي جمال الدين، وعـرف بالشريف نسـبة لاتصال نسبه بالحسين بن علي رضى الله عنه، والأرميوني نسبة إلى «أرميون»، قرية بمحافظة الغربية المصرية. كان من تلاميذ الإمام السيوطي. واشتهر من بين علمـاء مصر الذين يـشار إليهـم بالبنان ومن أصحـاب المؤلفات في التـفسـير والحديث والتاريخ وغيرها من العلوم[5]، مما حدا بالفقيه أحمد بن أحمد، والد المؤرخ الفقـيه أحمـد بابا، والفقيه محمد بغيغ وأحمد بغيغ أن يقصدوه ويفيدوا منه.[6]

(١) نشر المثاني، سبق ذكره، ص٢١٥.

(٢) خلاصة الأثر، جـ٣، مصدر سبق ذكره، ص١٥٨.

(٣) نفسه، ص١٥٧.

(٤) نشر المثاني، ص٢١٥.

(٥) الأعلام، جـ٩، ص٣١٨.

(٦) النيل، و٦٦؛ السعدي، ص٤٥؛ الكفاية، ترجمة أحمد بن أحمد.

٩ ـ التـــاجــوري [١] ـ (ت حـــوالي سنة ٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م) : هو أبوزيد عبـدالرحـمن بن مـحمـد بن الحـاج أحـمـد المغـربي الطرابلسي الشـهـيـر بـ«التاجوري»[٢]. تتلمذ على ناصرالدين وشمس الدين اللقـانيين وغيرهما[٣]. ويصفه التنبكتي[٤] بأنه كان عـلامة الزمان في علم الميقـات، وأنه كان يدرس الموطأ والتهذيب والرسالة. لقـيه والد أحمد بابا وشيخه محـمد بغيغ بمصر في طريقهما إلى الحج، وحضر محمد بغيغ حلقته الدراسية.[٥]

١٠ ـ البكـــري ـ (ت ٩٩٤هـ/ ١٥٨٦) : هو محمـد بن محمد بن مـحمد ابن عبدالرحـمن بن أحمد بن محـمد بن أحمد البكري الصديـقي، الشافعي، الأشـعري، المصـري، (أبوالمكارم، شمـس الدين)، فقـيه، صـوفي، أديب، شاعر. له مؤلفات[٦]، وهو المعني في كتب التاريخ بالبكري أو القطب البكري أو البكري الكبير أو سيدي محمد البكري[٧]. ومن علماء غربي إفريقية الذين أفادوا منه: مـحمـد بغيغ، عندما قـضى زمنا بمصر في طريـقه إلى الحج وفي العودة.[٨]

ويذكر ابن المخـتار[٩] مايفـيد من أن بكريا آخـر هو أبوعبـدالله محـمد

---

(١) نسبة إلى تاجورا، بلدة شرقي طرابلس الغرب بقليل. انظر: ابن غليون: التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار ـ ص١٣٨.

(٢) النيل، و: ٦٦.

(٣) المكان نفسه؛ شجرة النور، ص٢٨٠.

(٤) النيل. و٦٦.

(٥) المصدر نفسه، ص١٣١.

(٦) معجم المؤلفين، جـ١١، ص٢٨١؛ الأعلام، جـ٧، ص٢٨٩.

(٧) المكانان نفساهما.

(٨) تاريخ السودان، ص٤٥؛ شجرة النور الزكية، ص٢٨٧.

(٩) تاريخ الفتاش، ص٣٣.

البكري خاطب والد أحمد بابا بقصيدة حين غاب عنه. ويبدو لنا أن المعني هنا هو محمد بن محمد الكرخي، البكري، الشافعي (بدرالدين، أبوعبدالله، المفسر، الفقيه، الأصولي، الفرضي المتوفى سنة ١٠٠٧هـ/ ١٥٩٨م، الذي من آثاره اللوامع البدرية على التحفة القدسية في اختصار الرحبية في الفرائض، ومجمع البحرين ومطلع البدرين على تفسير الجلالين - في أربع مجلدات -، وحاشية على شرح المنهاج لجلال الدين المحلي، والمنهج الأسنى في آية الكرسي والأسماء الحسنى[١]. ومن أبيات قصيدة أبي عبدالله البكري مايلي:

أحبتنا والله إني على عهدي ... وحبي لكم حبي وودي لكم ودي

ولم أنس أيام التداني وطيبها ... وأوقاتنا مابين عور إلى جدي

وإني على ذكري لكم وتوجهي ... إلى الله فيما ترتجون من الرفد

وأسأله في كل وقت مكرم ... بتحقيق ما تبغون من واسع المد

ويذكر ابن المختار[٢] أن لمحمد البكري ابنًا كتب كتابا بخط يده يمتدح فيه آسكيا نوح (ت ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥م). واسم هذا الابن زين العابدين الشريف الحسني. ويبدو لنا أن المعني هنا هو زين العابدين بن محمد بن علي البكري، الصديقي القاهري، الشافعي، أحد أعلام العربية والتفسير وعلوم البلاغة. وقد توفي سنة ١٠١٣هـ/ ١٦٠٤م.[٣]

ويبدو من تاريخ العلاقات الثقافية والتعليمية بين مصر وغربي إفريقية أن العصر الذهبي لهذه العلاقات كان في فترة حكم دولة المماليك في مصر (٦٤٨ - ٩٢٢هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م). وهي الفترة التي استوى فيها الإسلام على سوقه

---

(١) انظر: ترجمته في معجم المؤلفين، جـ١١، ص٢٦١.

(٢) انظر: تاريخ الفتاش، ص١٦٨.

(٣) انظر: معجم المؤلفين، جـ٤، ص١٩٧؛ خلاصة الأثر، جـ٢، ص١٩٦.

في غربي إفريقية، واتسعت فيها رسالة الأزهر العلمية، وعظمت مسؤوليته الثقافية تجاه العالم الإسلامي من أقصى مشرقه إلى أقصى مغربه. ويقرر الدكتور بدوي عبداللطيف[1] أن هذا العصر شهد انكماشين خطرين في خريطة العالم الإسلامي، أولهما نتيجة الزحف المغولي الرهيب من وسط آسيا الذي تحطمت جحافله في عين جالوت في منتصف القرن السابع الهجري، وثانيهما نتيجة لتقلص الحكم الإسلامي في الأندلس ثم وأده في القرن التاسع الهجري. وبعد هذين الحادثين أصبحت مصر الأزهر ملاذا وموئلا للعلماء من كل الأقطار الإسلامية، وأضحت سمعته تجذب المسلمين حتى من غربي إفريقية. فتجمعت في الأزهر الصفوة المستنيرة من علماء المشرق والمغرب لتؤدي رسالتها العلمية على أكمل الوجوه، في جو من الأمن والاحترام.

وظل الأزهر بعد انقضاء دولة المماليك حصنا أمينا للثقافة الإسلامية، ومؤسسة مستقلة حظيت بعناية واحترام العثمانيين.[2] وكان له دوره المشهود إبان سطوة الاحتلال الفرنسي. واحتفظ بامتيازه القديم كمركز للعلوم الإسلامية، وما زال يؤدي رسالته بجانب المدرسة والجامعة الحديثة في كل مجالات التخصصات الحديثة.[3]

المطلب الثاني: التبادل التعليمي مع السودان العربي النيلي

عندما ظهر الإسلام كان من الطبيعي أن يمتد من مصر إلى السودان، لأن مصر لم تلبث أن صارت مركز الإشعاع الحضاري الإسلامي، كما كانت مركزا

---

(١) تقويم جامعة الأزهر في أربع سنوات ١٣٨٨-١٣٩٢هـ/ ١٩٦٨-١٩٧٢م) القاهرة، لم تذكر سنة الطبع، الناشر، دار المعارف، ص١١.

(٢) المرجع نفسه، ص١٤.

(٣) نفسه، ص١٧.

للإشعاعات الحضارية السابقة على مختلف العصور. بيد أن الامتداد الإسلامي إلى السودان اختلف في مظاهره ووسائله عما جرى عليه الحال في كثير من الأقطار الإسلامية الأخرى، إذ كان هذا الامتداد نتيجة تفاعل مستمر بين الثقافات الوطنية الموروثة في منطقة النوبة ومنطقة البجة، والثقافة العربية الإسلامية خلال العهود التي أعقبت الفتح الإسلامي لمصر.

إن المتأمل في تاريخ انتشار الإسلام في غربي إفريقية والسودان العربي يجد الكثير من أوجه الشبه بين الأسباب والتطورات والنتائج الحضارية. فاتصال غربي إفريقية الوثيق ببلاد المغرب كان من أهم العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام وفي تطور الثقافة الإسلامية ونموها واتخاذها طابعا خاصا.

وكان لاتصال وادي النيل الوثيق بمصر مثل الأثر الذي تركه اتصال المغرب بغربي إفريقية. حيث دخلت المؤثرات الإسلامية من مصر عبر بلاد النوبة وتركت في تاريخ السودان وتطور ثقافته وتاريخه التعليمي أثرا واضحا عكسه لنا ود ضيف الله في طبقاته.

وثمة تشابه ثان هو أن القطرين تأثرا بهجرات بدوية تركت أثراً واضحا لانتشار الإسلام في كليهما. فقد كان الملثمون من بدو المغرب أصحاب الفضل الأول في حمل الإسلام إلى غربي إفريقية وإذاعة المؤثرات الإسلامية، ورأينا كيف وجهوا هذه الثقافة وأثروا فيها. وفي السودان العربي قامت هجرات العرب إليه من الجزيرة بدور مماثل لدور الطوارق في إسلام وتشكيل غربي إفريقية عرقيا.[1] وهذه الهجرات هي التي حملت الإسلام إلى السودان وصبغته بالصبغة العربية الإسلامية حتى أصبح يعرف بـ«السودان العربي».

(١) انظر: الدكتور حسن محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، ص٣٠٤.

عندما سادت الثقافة الإسلامية في غربي إفريقية بصورة أوسع، وقبل أن تتمكن في السودان النيلي العربي، كان من البدهي أن تمتد ثقافة غربي إفريقية الإسلامية إلى السودان العربي لعدم وجود حواجز طبيعية بين المنطقتين. فقد كان السودان العربي امتدادا طبيعيا لغربي إفريقية. وكانت كل المنطقة تعرف قديما باسم «بلاد السودان». وكانت حركة الهجرات الجماعية القبلية والفردية في استمرار لا سيما في مناطق غربي إفريقية إلى السودان العربي، وحتى أصبحت هناك مستعمرات خاصة لأهل غربي إفريقية بالسودان العربي منذ القرن الثامن عشر، وأصبح جلهم اليوم جزءا لا يتجزأ من المجتمع السوداني العربي بعد أن أصبحوا سودانيين في كل شيء. وهناك من يذهب إلى أن أصل الفونج الذين أسسوا سلطنة سنار الإسلامية في مطلع القرن السادس عشر من برنو[(١)]، وهناك من يذهب إلى أن شعب الساو والزغاوة الذين يقطنون تشاد الحالية قدموا من السودان العربي[(٢)]، وأن شعب الكنجارة قدموا إلى دارفور من إقليم بحيرة تشاد.[(٣)] وإن كانت الرواية الراجحة تقول بمجيئهم من تونس.[(٤)]

وصحب هذا كله علاقات ثقافية تعليمية بين المنطقتين. وكان من الواضح أن الحج قام بدور رئيس فيها؛ فقد كثر عدد العابرين إلى الحجاز عن طريق السودان خاصة بعد أن أصبح معظم السودان النيلي مسلما في مطلع القرن السادس عشر.[(٥)] وكان من الحجاج من يتخلف في السودان في طريق العودة

---

(١) من أنصار هذا الرأي الباحث والمؤرخ البريطاني آركل. انظر: A. J. Arkell. A History of the Sudan to 1821 (London, 1955) pp. 206-7.، وعبدالمجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية في السودان، سبق ذكره، ص٤٩ Trimingham, AHistory of Islam in W. A. op. cit., p. 104.

(٢) Trimingham, A History of Islam in W. A. op. cit., p. 104.

(٣) عبدالمجيد عابدين، المرجع السابق، ص٤٥.

(٤) المكان نفسه.

(٥) تشحيذ الأذهان، ص١٤٥ـ حاشية.

إلى بلاده كسبا للرزق، وكثرت أعدادهم بمرور الزمن حتى أصبحنا نسمع بجماعات التكاررة تلاميذ في حلقات علماء السودان العربي الدراسية، ومثال ذلك أن حلقة الشيخ القدال كانت تضم جماعة منهم بجانب أبناء البلاد.(١) وأصبحت لهم مشيخات خاصة في شرقي السودان العربي، ومثال ذلك أنه في حوالي منتصف القرن الثامن عشر أنشأ التكاررة مشيخة في القلابات استمرت حتى دخل الإنجليز إلى السودان في نهاية القرن التاسع عشر.(٢)

ومما لاحظه بوركهارت(٣) أن جميع الحجاج الذين يفدون إلى السودان كانوا على علم بالقراءة والكتابة، ومنهم العلماء.

المطلب الثالث: التبادل التعليمي مع الحجاز

كانت علاقة الحجاز بغربي إفريقية روحية في الأساس الأول، وتعليمية في المقام الثاني. كان الحجاج يترددون على علماء الحرمين بعد أداء الفريضة فيأخذون عنهم ويتتلمذون عليهم. ويلتقون أيضا بعلماء من جميع البلاد الإسلامية ويتبادلون معهم المعرفة ويتدارسون معهم شؤون الوطن الإسلامي وقضاياه الفكرية. ويعود الحاج بعد ذلك إلى بلاده وهو مملوء حماسا إلى زيادة علمه والعمل على تعليم الناس ونشر الوعي. وهذا النوع من التبادل التعليمي بين الحجاز والبلاد الإسلامية الأخرى معروف لكل مسلم ولا يحتاج منا إلى كثير بيان.(٤)

لقد لاحظ المستشرق بوركهارت(٥) أن الحلقات الدراسية التي كانت تعقد

---

(١) طبقات ود ضيف الله، ص١١٨

(٢) A. E. Robinson: "The Tekruri Sheikhs of Gallabat", J. A. S. XXV1, Cl, (Oct. 1926), pp. 47-9.

(٣) رحلات بوركهارت في بلاد النوبة، مصدر سبق ذكره، ص٣٢١.

(٤) انظر ترجمتنا للعلماء الذين زاروا الحجاز والتقوا بالعلماء.

(٥) J. L. Burckhardt: Travels in Arabia, Vol. 1., pp. 390-2

يوميا في الحرم المكي كانت تضم جميع الجنسيات المسلمة.

كانت هناك أوقاف في مكة والمدينة يصرف من ريعها على المجاورين والعلماء الذين انقطعوا للدراسة والعبادة؛ وأسهم بعض سلاطين غربي إفريقية في زيادة هذه الأوقاف. فقد تصدق آسكيا الحاج محمد بمبلغ ضخم تسلمه منه أمير الحرمين، واشترى حدائق في المدينة وأوقفها على «أهل تكرور» كما يقول السعدي.[1]

وعرفت «المجاورة» في الأراضي المقدسة منذ زمن بعيد، وربما منذ أن فرض الحج. ومازال المسلمون يتخلفون للمجاورة بعد الحج حتى اليوم. ومما هو معروف اليوم أن تشكيل المجتمع الحجازي ـ مكة والمدينة ـ يغلب عليه العنصر الوافد الذي أصبح عربيا في كل شيء. ولمجاوري غربي إفريقية بالحرمين الشريفين سمتهم البارزة في المجتمع السعودي. وأشهر من جاور ومات في القرن العاشر الهجري (١٦م) الفقيه بابكر بير[2] ومحمد ثنبو، أستاذ الشيخ عثمان بن فودي، الذي قضى عشر سنوات في مكة مجاورا.[3]

ولاحظ بوركهارت أن حجاج غربي إفريقية نادرا ما يلجؤون إلى التسول في كسب العيش، بل يقومون بكل الأعمال اليدوية التي تدر عليهم ما يقيم الأود ويوفر ما ينفقه في رحلة العودة إلى بلاده.[4]

وهكذا ومن خلال صفحات هذا الفصل يتضح لنا أن غربي إفريقية كانت على صلات قوية مع البلاد الإسلامية المشرقية والمغربية، وقامت بدورها المحمود في تاريخ الحضارة الإسلامية عامة.

---

(١) تاريخ السودان، ص٧٣.

(٢) نفسه، ص٣٢؛ النيل، و٧١؛ شجرة النور، ص٢٨٦.

(٣) The Life of Shehu Uthman, op. cit., p. 437.

(٤) See, Travels in Arabia, op. cit., p. 262.

الخاتمـــة

لم استطع أن أبدأ موضوع هذا الكتاب قبل أن ألقي ضوءاً ساطعا على أهم مصادره ومراجعه حتى يقف القارئ على أهم المعلومات التي تتعلق بهذه المصادر والمراجع. واقتضت طبيعة الكتاب ـ أيضاً ـ أن أُتبِع ذلك بتمهيد طويل ولكنه ضروري. وقد شمل هذا التمهيد التعريف بشمالي وغربي إفريقية من حيث المكان والسكان، وشرح بعض المصطلحات التي كانت مستخدمة في فترة ما قبل السيطرة الأوربية على القارة الإفريقية. مثل: المغرب الأقصى والأوسط والأدنى وإفريقية وبلاد السودان، ثم مجيء الإسلام إلى شمالي إفريقية.

ولم أشأ أن اترك الكتاب دون عقد فصل خاص عن طبيعة تغلغل الإسلام في غربي إفريقية. وإذا كنت أتحدث في الكتاب عن التعليم الإسلامي في غربي إفريقية وعن الثقافة الإسلامية، فلا أقل من أن أعرض للإسلام والدعو الإسلامية في غربي إفريقية، وهو موضوع لا أظن أحدا تناوله من قبل بالعربية أو الانجليزية على الوجه الذي تناولته به. وفي الفصل الأول جندت كل العوامل التي تضافرت لغرس ثمار حضارة إسلامية في غربي إفريقية مبتدئاً بالتجارة والتجار لدورهم الطليعي في حمل الإسلام إلى هذه المنطقة لا سيما تجار قبائل الصحراء الكبرى وتجار الخوارج وتجار الديولا الماندين وتجار الهوسا، ثم أعقبت ذلك بدراسة عن دور العلماء الدعاة المعلمين في إدخال الناس في الإسلام وإفمهمهم إياه بطريقة أكثر تنظيماً. ثم انتقل الكتاب في هذا الفصل إلى مناقشة دور وحجم مساهمة المرابطين والسنوسية والهجرات الإسلامية في حركة الإسلام في هذا الجزء من العالم الإسلامي، ولم نغفل في هذا الفصل العوامل التي يسرت مهمة تلك العناصر السابقة. فدرسنا الدوافع وبساطة العقيدة الإسلامية، وسماحتها، مع موازنةٍ بين روح الحضارة الإسلامية وروح الحضارة الغربية النصرانية وأثر ريادة المسلمين التجارية والجغرافية وأثر المعتقدات

الروحية الإفريقية في هذا الصدد. وجعلت هذا الفصل والذي قبله بمثابة الخلفية التاريخية الـتي انطلق الكتاب من أجوائها ليعرض للدراسـة المباشرة التي تتناول الآثار الحضارية لتغلغل الإسلام في غربي إفريقية.

وتمثلت هذه الآثار في مـحورين أسـاسيين؛ **الأول**: قيـام دول إسلامـية كبـرى في هذه المنطقة ترعى حضـارة الإسلام، **والثاني**: قيـام حركة تعليمـية وثقافيـة إسلامية، أسهمت في تأصـيل الإسلام وحضارته في غربي إفـريقية. وتناولت فصـول ومباحث المحـور الأول من هذا الباب (الآثار الحـضارية. . .) قيـام دول: غانة ومالي وسنغـي والفولاني، والأثر الحاضـري للإسلام فيـها. وتناولت فصول ومباحث ومطالب المحور الثاني (الحركة التعلمية).

لقـد أبرزت فـصـول ومـبـاحث ومطالب المحـور الأول أن تلك الدول الإسلامية الكبرى التي دون أهلها صفحات ناصعة في تاريخ الحضارة الإسلامية في غربي إفـريقيـة، كانت الدوحـة الوارفة التي ترعـرعت في ظلها الحـضارة الإسلامية بمظاهرها المختلفة. تلك الحضـارة التي تقبلها الناس هناك بيسر لأنها لم تحمل وراءها فكرة استعمارية كما فعلت النصرانية التي فرضت نفسها تحت رماح الاستعمار.

وبين الكتاب أنه قـد تم الامتزاج في هذه المنطقة بين التـقاليد الإسـلامية والتقاليد المحلية، بعد مرحلة انتقالية كان لابد منها في تطور المجتمعات البشرية حضاريا. وكانت النهاية ظهور تقاليـد إسلامية إفريقية الشكل والطابع والروح؛ فاختفت الآلهة القبلية والمعتقدات البدائية.

وأتاح الإسلام في هـذا الصدد ميـدانا جديداً لبناء دول إسـلاميـة تميزت بالقوة والسـيطرة، وليس غريبـاً أن نجد البعـثات التنصيـرية في القرن (١٣هـ/

١٩م) تتجه إلى استقلال التجـارة كوسيلة لنشر النصرانية[١]، متناسية أن علاقة الإسلام بالتجارة كانت علاقة عضوية، وليس وراءها منظمات أو حكومات.

وأوضح الكتاب ما اشتلمـت عليه الحضارة الإسلامية بغـربي إفريقية من آثار في الناحية الدستـورية، حيث عرف الإفريقيون مبادئ الشـورى والبيعة في الحكم، وكانت دار الشورى عندهم تسـمى «المشور»، وقد تكلم ابن بطوطة[٢] طويلاً عن «المشور». وعـرفوا نظام الفصل بين السلطات التـشريعية والقـضائية والتنفيـذية. وأسلمت نواحي الحيـاة الأخرى كـافة، لأن للشريعـة الإسلامـية قوانينها في الزواج والطلاق والميراث والوصية وغيرها.

لقد شهدنا كيف جاء الإسلام بحضارة جديدة أتاحت للشعوب الإفريقية بصفة عامة طابعـاً حضارياً متميزاً مازال واضحـاً حتى اليوم ومؤثراً في نظمهم السياسـية والاجتماعـية، وفي هذا المعنى يقول المستـشرق ميك[٣]: «إن دخول دين محمـد إلى إفريقية حـدث مهم جداً وخطير بالنـسبة لغربي إفريـقية. لم يستتبع كنتيجة لابد منها في تغيير عرقي أو ديني للشعب فحسب، بل جاء معه بحضارة جديدة أعطت للجنس الزنجي الشخصية الثـقافية المثمرة التي يحملونها حتى اليوم، وتسيطر على حياتهم السياسية ومؤسساتهم الاجتماعية. لقد حمل الإسلام الحضـارة إلى القبائل المتبـربرة، وجعل من المجموعات الوثنـية المنعزلة المتفرقة شعوباً، وجعل تجارتهـا مع العالم الخارجي ميسورة، فقد وسع من أفق الناس ورفع من مستوى الحياة بخلق مستوى اجتماعي أرقى، وخلع على أتباعه الكرامة والعـزة واحترام الذات واحتـرام الآخرين. . ولقد أدخل الإسـلام القراءة

---

(١) انظر: باسيل دافيدسون: إفريقية القديمة تكتشف من جديد، ص٤٩.

(٢) تحفة النظار، ص ص٤٤٥ـ٤٤٦.

(٣) The Northern Tribes of Nigeria (London 1925), Vol. II, p.p. 1-4.

والكتابة، وحرم الخمر وأكل لحوم البشر والأخذ بالثأر وغير ذلك من العادات الوحشية، وأتاح للزنجي الفرصة لأن يصبح مواطنا حراً في عالم حر..».

ومهما يكن من أمر فإن تلك الحضارة الإسلامية التي قضى الاستعمار على دولها التي عاصرها في غربي إفريقية، أخذت تحيا من جديد حتى في ظل الاستعمار، وكان من بين وسائل انتشارها طبقة التجار الذين أتاحت لهم الطرق الحديثة سرعة التحرك، فدخلوا الأحراش، وأفلحوا في ضم الكثيرين إلى الإسلام، ولا يزال أثرهم ملحوظاً في هذه البقاع. وللإسلام رصيد كبير في إفريقية بعد أن تمكنت شعوبها من الانفكاك من كابوس الاستعمار الذي حاول طمس معالم الحضارة الإسلامية فيها.

ولأن موضوع الكتاب الأساسي هو حركة التعليم الإسلامي في معاهد غربي إفريقية قبل الاستعمار، فقد عالج المحور الثاني من هذا الكتاب أماكن التعليم في غربي إفريقية ووصل إلى نتائج مهمة منها:

١) أن المسجد كان المكان الرئيس والمعهد الأول الذي تخرج فيه علماء غربي إفريقية ومارسوا فيه مهم التدريس والتوجيه، وظل المسجد دون منافس منذ أن عرفت غربي إفريقية الإسلام حتى القرن التاسع عشر الميلادي، عندما ظهرت بعض المعاهد التعليمية الأخرى في بلاد الهوسا. وتمثل هذه المرحلة ما حدث في المشرق الإسلامي عندما ظهرت المدرسة بجانب المسجد كمعهد تعليمي، ولم يشتهر في غربي إفريقية سوى ماعرف بـ«المدارس القرآنية» والتي كانت بمثابة كتاتيب لتحفيظ القرآن والكتابة والقراءة، وعرفت كلمة مدرسة في غربي إفريقية ولكنها لم تخرج من معناها اللغوي، وهو مكان الدراسة.

٢) عرف الكتاب في غربي إفريقية منذ زمن مبكر، وقام بالدور نفسه التعليمي الذي قام به الكتاب في المشرق الإسلامي منذ فجر الإسلام. وأطلق اللفظ «محضر» أحيانا على الكتاب.

٣) كانت منازل العلماء وقصور الحكام من الأماكن التي يمارس فيها التعليم مثلما كان معروفا في بقية أرجاء العالم الإسلامي آنذاك.

ولأن مدينة تنبكت كانت أهم وأشهر مركز ثقافي إسلامي في غربي إفريقية طوال القرن الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر فقد أولاها الكتاب عناية خاصة وخرج بنتائج أبرزها:

١ ـ إن معظم الكتاب يخطئون في رسم الاسم «تنبكت»، لذا كان لزاما علينا التثبت من الرسم الصحيح الذي لابد أن يتبعه الكاتبون حسبما جاء في مصادر تاريخ غربي إفريقية الموثوق بها، والتي كتبها مؤلفون معاصرون لمجد هذه المدينة، ومن المنطقة نفسها.

٢ ـ مرت مدينة تنبكت بعدة أطوار منذ أن كانت محطة قوافل صغيرة في مطلع القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) إلى أن أصبحت مدينة عامرة وسوقا تجارية ومركزا ثقافيا جذبت إليها كل عناصر القوة التي كانت تتمتع بها المدن التي قامت قبلها في المنطقة نفسها مثل «والاتا».

٣ ـ كان لموقع تنبكت على رأس عدة طرق تجارية الأثر المباشر في أن تكون المدينة الأولى في غربي إفريقية من حيث حجم تجارتها، واتساع رقعة البنيان فيها، وجذب عناصر الحضارة الإسلامية إليها من كل الجهات.

٤ ـ إن من أهم معاهد تنبكت التعليمية الجامع الكبير، ومسجد سنكري، ومسجد سيدي يحيى التادلسي.

٥ ـ ترجيح بناء الجامع الكبير في مطلع القرن السادس الهجري (١٢م) على

وجه التقريب، وليس في القرن الثامن الهـجري (الرابع عشر الميلادي) كما ذكرت بعض المصادر، حيـث استبعد الكتاب أن تظل مدينـة إسلامية على مدى قـرنين من دون مسجـد جامع، وأن البناء الذي تم في عـهد السلطان منسا مـوسى كان تجديداً لأصل بناء قديم، وتبع ذلك تجـديدات أخرى في عصور مختلفة.

٦ ـ ترجح بناء مسجد سنكري بعد سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م وقبل سنة ٨٦٩هـ/ ١٤٦٤م وبعد الجامع الكبير، وأن القاضي العاقب لم يقم بأكثر من تجديده.

٧ ـ أطلق الاسم سنكري على أحـد أحيـاء تنبكت ومسـجد هذا الحي. وأدى هذا المسجـد دورا عظيما كمـعهد تعليمي فـي تنبكت. وفند الكتاب الرأي القائل بأن هذا المسجد والمعهد كانا في مدينة جني.

٨ ـ تشييد مسجد سـيدي يحيى بتنبكت في أول الثلث الثالث من القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي).

٩ ـ قامت بجانب هذه المساجد الرئيسة الثلاثة مساجد أخرى لم تشتهر شهرتها مثل: مسجد سوق تنبكت ومسجد خـالد ومسجد القصبة وجامع التواتيين ومسجد الهناء ومسجد كبر وجامع تندرم. وقد جدد القاضي العاقب وحده أربعة من هذه المساجد.

١٠ـ تنقسم أسرة أقيـت التنبكتية إلى فرعين: فرع من جهـة الأمهات وفرع من جهة الأباء. (فرع (آندغمحمد) من جهة الأمهات).

١١ـ إن من أبرز وأهم الأسر العلمـية في تنبكت خاصة وغـربي إفريقيـة عامة أسرة أقـيت التي تولى أفرادها المـناصب القضائيـة والاستـشارية، وقـاموا بأعظم دور في حركـة التعليم الإسلامي فـي هذه المنطقة تدريسا وتأليـفا. وعرفـوا في معظم العالـم الإسلامي آنذاك، لا سيـما في المغرب ومـصر

والسـودان النيلي والحـجاز والعـراق والشـام والأندلس، وكاد أفـراد هذه الأسرة العلماء أن يصلوا في مستواهم العلمي إلى مـستوى معاصريهم من علماء العـالم الإسلامي، أمـثال: أحمـد بن عمر أقـيت ومحمـود أقيت والعاقب بن محمود وأحمد بن أحمد والد أحمد بابا وأحمد بابا التنبكتي، الذي طغت شهرته على كل علمـاء غربي إفريقية في القرن الـسابع عشر، لشهرة مؤلفه في تراجم علماء المالكية: «نيل الابتهاج».

١٢ـ وفد إلى تنبكت من مدن غربي إفـريقية ومن المغرب علماء أدوا دورا بارزا في الحركـة التعليمـية في معـاهد تنبكت، أمثال: الكابري وكـاتب موسى والتادلسي والزعراني وتعلي ومحمد بغيغ وغيرهم.

١٣ـ عرفت تنبكت علماء أسـهموا بقدر كبير في دفع حـركة التأليف، والذين لولا مؤلفاتهم لانمحت كـثير من معالم تاريخ التعليـم الإسلامي والحضارة الإسلامية في غربي إفريقية، منهم: أسرة كعت والسعدي.

لم تكن تنبكت وحدها صـاحبة الشأن والقدح المعلى في مـجال التعليم الإسلامي والثقـافة الإسلاميـة، بل شاركتهـا في هذا مدينة جني، التي توصل البحث إلى نتائج مهمة تتعلق بها، منها:

١] كان تأسيس مدينة جني قبيل النصف الأول من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي).

٢] تم دخول شعب جني في الإسلام قبل القرن السادس الهجري وذلك بفضل شهـرتها التجارية وتردد المسلمـين على أسواقها. أمـا الذي أسلم في القرن السادس الهجري فهو الملك وحاشيته.

٣] كان مسجدها الجامع معهدا تعليميا كبيراً تخرج فيه الكثير من مشاهير علماء جني.

٤] ترجع قلة ذكر أسماء علمـاء جني عند السعدي وابن المختار إلى اهتمـامهما

بما كان يجري في تنبكت أكثر مما كان يجري في غيرها.

٥] لا يطمئن الكاتب إلى بعض تواريخ السعدي، من ذلك قوله: إن الفقيه مور مغ كنكي قد قدم إلى جني في منتصف القرن التاسع الهجري، ولكن مجريات الأحداث التي ورد ذكره فيها تميل إلى أن قدومه كان في الثلث الأول من القرن العاشر الهجري.

٦] كانت أسرة بغيغ من الأسر العلمية المشهورة في تاريخ التعليم والقضاء في غربي إفريقية عامة وتنبكت وجني خاصة.

أما عن تاريخ التعليم الإسلامي في بلاد الهوسا فقد توصل الكتاب إلى إبراز عدة جوانب مهمة والخروج منها بنتائج منها:ـ

١ ـ انتعشت بلاد الهوسا اقتصاديا وسياسيا وثقافيا بعد أن وقعت دولة سنغي في أيدي المراكشيين في نهاية القرن السادس عشر الميلادي.

٢ ـ عرفت بلاد الهوسا الإسلام قبل القرن الرابع عشر بفضل العلاقات التجارية التي كانت تربط بلدان غربي إفريقية بالمغرب الإسلامي، أما أول تاريخ مدون لدخول الإسلام إلى بلاد الهوسا فهو القرن الرابع عشر. وقام بدور الرواد في هذا المجال علماء مالي الذين عرفوا ب ـ«الونغريين».

٣ ـ كانت برنو أحد الروافد التي جاء منها العلماء إلى بلاد الهوسا.

٤ ـ إن عبدالرحمن الذي جاء ذكره في حولية كانو، في عهد محمد رمفا، هو العالم المصري المشهور عبدالرحمن السيوطي، وليس العالم المغربي المرموق محمد بن عبدالكريم المغيلي، وذلك في ضوء المعلومات التي وردت في مخطوط «أصل الونغريين».

٥ ـ تعدد جنسيات العلماء الذين وفدوا إلى كانو من الأقطار المجاورة.

٦ ـ إن أشهر مدرسة عرفت في بلاد الهوسا لتعليم القرآن في الثلث الأخير

من القرن (١٠هـ/ ١٦م) هي مدرسة «غـورون بوغاشي»، وبذلك يتضح وجود أمـاكن أعدت خصيـصا للتعليم بجـانب المسجد وليس كمـا يقول بعضهم إن ذلك عرف في القرن التاسع عشر.

٧ ـ من الظواهر الواضحة أن العهود التي حكم فيها سلاطين علماء، يأتي إلى بلادهم العلمـاء من كل البـلاد الإسلامـيـة المجاورة للـدراسة والتـدريس والوعظ والإرشاد، ومثال ذلك ما حدث في عهد كل من باوا ورمفا وياجي.

٨ ـ إن وجود العرب في كانو وغيرها من مدن الهوسا يدل دلالة واضحة على مصدر مهم من مصادر تعلم اللغة العربية.

٩ ـ اتضاح معالم المعاهد التعليمية غير المسجد في بلاد الهوسا في مطلع القرن التاسع عشر، وقيـامها بدور ملحوظ في حركة الثقـافة الإسلامية في هذه المنطقة منذ ذلك التاريخ إلى عصرنا الحاضر.

١٠ـ ترجيح أن الحاكم الكاتسيني الذي سماه السيوطي بـ«إبراهيم» هو إبراهيم ماجي.

١١ـ إسهم معـاهد كاتسينا التعليمية في دفع حـركة التعليم الإسلامي في بلاد الهوسا وجذبها لبعض علماء تنبكت وجني وغيرها.

وفي الفصل الخاص بأشهر علماء بلاد الهـوسا خرج البحث بعدة نتائج، منها:

١] وصل بعض علماء الهـوسا في علمهم ومـؤلفاتهم إلى مرتبة علمـاء العالم الإسلامـي الآخرين المعـاصرين، ومن أولئك الشـيخ محـمد بن مـحمـد الفولاني الكشناوي الذي تتلمذ عليه الشيخ حسن الجبرتي والد عبدالرحمن الجبرتي المؤرخ المشهـور، والشيخ جبريل بن عمر، أستاذ الشـيخ عثمان بن فودي، والشيخ عثمان بن فودي وعبدالله بن فودي ومحمد بلّو.

٢] كانت حركة الفـولاني الإصلاحية في مطلع القرن التاسع عشـر انقلابا بعيد

الأثر في تاريخ الإسلام والثقافة والتعليم في بلاد الهوسا، وكادت أشعارهم تصل إلى مستوى أشعار مشاهير الشعراء العرب من حيث اللفظ والمعنى والشكل والمضمون، لا سيما عبدالله بن فودي وابن أخيه الإمام بللو.

وعند البحث في تاريخ الإسلام والتعليم الإسلامي في بلاد البرنو توصلنا إلى التثبت من عدة نقاط أهمها:

١) عرف الإسلام في دولة كانم ـ برنو منذ أواخر القرن (٥هـ/ ١١م) في ضوء ما يفهم من بعض النصوص التاريخية التي أوردها العمري وابن سعيد، وما ترجمه بالمر من مخطوطات قديمة خاصة بهذه المنطقة، وإن لم تختف بعض مظاهر اللادينية حتى مطلع القرن السادس عشر كما شاهد ذلك الوزان، وكما هو ملاحظ في بعض المجتمعات الإسلامية الإفريقية الأخرى.

٢) إن السنّة التي استنها ابن ماني في تعليم الحكام والمحرم الذي منح لهذا العالم أصبح من الظواهر البارزة في تاريخ التعليم في هذه المنطقة منذ القرن الحادي عشر الميلادي حتى القرن الثامن عشر.

٣) كانت برنو على مر العصور ملتقى كثير من العلماء من مختلف الجهات والجنسيات.

٤) إن وجود أربعة مساجد في العاصمة البرنوية ـ في القرن السابع عشر ـ ويحضر الصلاة في كل واحد منها اثنا عشر ألفا من المصلين لدليل واضح على اتساح مساجد غسرغمو واتساع المدينة وانتشار الإسلام فيها.

٥) لم يقتصر دور سلاطين برنو على مجال التعليم ونشر الدين الإسلامي في حدود بلادهم، بل تعداه إلى مناطق أخرى مثل إقليم دار فور في سودان وادي النيل.

٦) كـان لبـرنو أثر ثقـافي واضح في دار فـور لاسيـمـا في بعض الكلمـات والتسميات، وأثر إداري أيضا.

٧) كان لعلماء الفولاني دور بارز، في حركة التعليم الإسلامي في معاهد برنو.

٨) سجل الـتاريخ المكتـوب أعمالا عظيـمة لعلـماء البرنو فـي مجال التـعليم والإرشاد والتـأليف أمثـال: عمـر بن عثـمان وابن فـرتوا ومحمـد البكري والباركوم والطاهر الفلاتي ومحمد بن الحاج والكانمي.

وفي الفصل الخاص بعلماء غربي إفريقية عامة توصل البحث إلى:

١] أن معظم الألقاب التي كانت تطلق على علماء المشـرق عرفت في غربي إفريقية بالمفهوم نـفسه تقريباً، مـثل: مدرس وفقيـه ومتفنن ومحـدث والحافظ وشيخ وسيدي وأستاذ مع تحريف بسـيط في نطق بعضها، مثل ألفا أو الفع والمالم، أي المعلم، ويبدو أن بعض الألقاب لم تعرف إلا في برنو مثل لقب «قوني».

٢] تكاد أن تكون وظائف العلماء هي نفسهـا التي عرفت في المشرق الإسلامي مع زيادة ـ أحيانا ـ في بعض المترادفـات مثل كلمة «خطيب» التي يبدو من استعمالاتها أنها كانت مرادفة لكلمة «قاضٍ».

٣] كان تنصيب قاضي القضاة يتم بإشارة من السلطان، أما قضاة الأقاليم فكان الأمر فيها شورى بين الحـاكم وقاضي القضاة وأهل الحل والعقد من سكان البلدة التي يشغر فيها المنصب.

٤] كان لقـاضي تنبكت بالذات أهميـة كبـرى، فهو الذي يقـوم بتوليـة الأئمة للمساجـد الكبرى بعد استـشارة الحاكم أحيانا، ويقـوم بالإشراف على بناء المساجـد الجديدة، وبتـرميم القـديمة، وهو بهـذا أشبه بوزيـر الأوقاف في عصرنا الحالي. وله ما يشبه الإشراف على الناحيـة التعليمية تماما كما يفعل وزير التربية والتعليم أو المعارف في عصرنا الحالي.

٥] كانت للعلماء مكانة اجتماعية عالية ودور توجيهي خطير ومشاركة فعالة في الحركات الإصلاحية، وتناول البحث معظم هذه الحركات.

٦] لم تختلف سبل كسب عيش العلماء عما كان في المشرق الإسلامي.

٧] كان العالم يعاني مشقة كبرى في ممارسة مهمة التدريس كما هو واضح من برنامج دراسي يومي لعالم بارز، ومرد ذلك قيام المعلم بتدريس عدة فنون لعدة مجموعات أو أفراد من الطلبة، وطوال النهار وجزءًا من الليل.

٨] استمد العلماء أكثر أساليب التدريس من طرق رواية الحديث الشريف، وهي الطريقة التي كانت سائدة في العالم الإسلامي آنذاك.

٩] وصل علماء غربي إفريقية إلى مستوى علمي مكنهم من منح إجازات علمية لعلماء من المشرق الإسلامي، ولا تكاد تخلو حياة عالم مرموق من علماء غربي إفريقية من إجازة علمية سواء أُجيز أو أَجاز.

١٠] لم يكن يعرف التخصص الدقيق، بمفهوم عصرنا الحاضر، ولكن وجد ميل من بعض العلماء إلى تدريس فن معين من الفنون الإسلامية أو كتاب معين من الكتب التي تدرس.

١١] تكاد اللغة العربية تكون لغة الكتابة الرسمية والثقافة والتعليم والإرشاد.

وفي مجال الدراسة. عن أحوال التلاميذ أبرز البحث بعض الجوانب المهمة، منها:

(١) كان لتوجيه القرآن والسنة وآراء الفقهاء والحكماء أثره القوي في حفز العلماء والطلاب على مواصلة الدراسة وتحمل مشاقها.

(٢) على الرغم من أن الكثيرين قد حرصوا على إلحاق أبنائهم بالدراسة في سن مبكرة إلا أن ظاهرة وجود تلاميذ من أعمار متفاوتة لم تختف من أجواء التعليم الإسلامي في غربي إفريقية كما كان الحال في الأقطار

الإسلامية الأخرى آنذاك.

(٣) لا يعني تقسيم المراحل التعليمية إلى ثلاث أن ذلك أمر ثابت؛ والراجح أن نظام المراحل بالمعنى الفني المعروف حديثا لم يعرف في تلك الفترة.

(٤) كانت الرحلة في طلب العلم أمراً مهماً وظاهرة ملموسة في تاريخ التعليم الإسلامي في غربي إفريقية.

(٥) لم يقتصر التعليم على الرجال وحدهم بل وجدت المرأة مكانها بين التلاميذ، ولكن في نطاق ضيق.

ويسير الكتاب من فصل إلى فصل مبرزا ومحددا معالم الحضارة الإسلامية التي ترعرعت في معاهد غربي إفريقية الإسلامية حتى وقف على أهم الكتب التي كانت شائعة الاستعمال في هذه المنطقة، وخرج من إلقاء الضوء عليها بعدة نتائج أبرزها:

١) إن هذه الكتب نفسها كانت تدرس في العالم الإسلامي المعاصر آنذاك. وفي هذا دليل على تقارب المستويات الثقافية، وصلة غربي إفريقية القوية ببلدان العالم الإسلامي الأخرى.

أما الفصل الأخير من هذه الدراسة والخاص بالتبادل التعليمي بين بلاد غربي إفريقية من جهة ثم بينها وبين البلاد الإسلامية خارجها من جهة أخرى، فقد أبرز عدة حقائق على رأسها:

(١) أن من الطبعي أن ينحدر الماء من الهضاب إلى السفوح، والأفكار تشبه الماء إلى حد كبير، لأنها تنساب من المراكز ذات الغزارة الثقافية إلى المراكز الأقل غزارة، ومن هنا كانت استفادة غربي إفريقية من الحركة الثقافية التعليمية المبكرة التي نمت في تنبكت وجني وفاق بعض علمائها أحيانا علماء المغرب.

(٢) لقد كانت الثقافة الإسلامية والحركة التـعليمية ـ في معظمها ـ بذرة مغربية في تربة غربي إفريقـية، وذلك بحكم العلاقات الحضارية القـديمة وتنوعها بين هذين الجزأين من العالم.

وكان العلمـاء في حركة دائبة بين المـغرب وغربي إفريقـية، وبين بلدان غربي إفـريقية فـيما بينهـا، ولمع منهم عدة أعلام أمـثال المغيـلي والبلبالي والأنصمني.

(٣) لم يقتصـر أثر الجالية الغربي إفريقيـة في مصر على الناحيتين الاقـتصادية والاجتمـاعية فقط، بل تعداه إلى الناحـية الثقافية والروحـية، وقد تركت هذه الجالية بصمات قوية في حياة الشعب المصري إلى يومنا هذا.

(٤) أدى الحج دوراً كبيراً في التبادل التعليمي بين غربي إفريقية ومصر والحجاز والسـودان النـيلي. وبرز في هـذا المجــال علمـاء مـن الجـانـبـين أفـادوا بعضهم من بعض.

والقارئ لهذا الكتاب يتـبين له أن الحياة التعليمية في غـربي إفريقية أثناء القرون الأربعة: الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، تشبه إلى حد ما الحياة التعليمية في البلاد الإسلامية الأخرى مع فرق ضروري عظيم هو أن غربي إفريقية كانت حديثـة العهد بالإسلام إلى حد ما، في حين قطعت الشعوب الإسـلامية الأخرى شوطا طويلا تحت راية الإسـلام. وإذا كان غربي إفريقية قد تأثر بما كان سائدا في بقية البلاد الإسلامية من علوم وثقافة وصوفية وأفاد كثيرا من منتجات البلاد، فإنا لا نستطيع أن نقول ـ اعتمادا على ما وصل إلينا من وثائق ـ إنه أسهم بنصيب وافر في هذه الثقافة، ولكننا نستطيع أن نقول إنه إسمهم مهم مكننا من تلمس معالم تاريخ الحضارة الإسلامية في هذه البقعة المهمة.

وسيشعر القارئ أو الزائر لغربي إفريقية الآن، أنه، على الرغم من توالي القرون وتبدل الظروف الاجتماعية والسياسية، ظل التعليم الديني الأهلي والرسمي منه محافظا على روحه الأصيلة، وأنه إلى جانب التعليم المدني، عامل دافع في نشر الثقافة الإسلامية العربية.

وإذا كانت الحقائق المهمة هي وحدها التي ترتبط بالموضوعية، فإن الموضوعية في تاريخ غربي إفريقية قد اعتراها الكثير من الشطط بسبب أن الدراسات في هذا الجانب اتجهت إلى العموميات التي كثيرا ما يتقيد الباحثون فيها ببعض المفاهيم العامة. ولو أنها ركزت على الجزئيات لأمكن رؤية الأشياء أكثر وضوحا وعمقا. وإنا لنأمل أن يكون محتوى هذا الكتاب الذي هو جزئي في واقعه، قد أدى للموضوعية المنشودة في تاريخ غربي إفريقية الحضاري وعلاقته بالعالم الإسلامي بعض الفائدة، وأضاف لبنة جديدة تفتح الطريق لمزيد من الأبحاث.

ونلفت أنظار الباحثين إلى أن ميدان الدراسات في غربي إفريقية مازال بكرا، وأن الكثير من موضوعاته تصلح أن تكون أبحاثا جامعية من بينها: حركات الجهاد الإسلامي وتاريخ الطرق الصوفية في القرن (١٣ و١٤هـ/ ١٩ و٢٠م) ودور قبائل الفولاني في تاريخ الدعوة الإسلامية، وأثر الإسلام الحضاري، والتنصير والاستعمار.



الملاحق

ملحق رقم (١)

في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم

مأخوذ عن ابن خلدون: المقدمة

طبعة بيروت، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م، ص ص١٠٤٤ ـ ١٠٥٤.

«والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم، وأخلاقهم وما ينتحلونه به من المذاهب والفضائل: تارة علما وتعليما وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة. إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا. فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها. والاصطلاحات أيضا في تعليم العلوم مخلطة على المتعلم، حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم. ولا يدفع عن ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين، فلقاء أهل العلوم، وتعدد المشايخ، يفيده تمييز الاصطلاحات، بما يراه من اختلاف طرقهم فيها، فيجرد العلم عنها ويعلم أنحاء تعليم وطرق توصيل، وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في الملكات. ويصحح معارفه ويميزها عن سواه مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم، وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية، فالرحلة لابد منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال».

ملحق رقم (٢)

رسالة الماي البرنوي عثمان أو بيري بن إدريس (٧٩٥-٨٢٩هـ/ ١٣٩٢ - ١٤٢٥م) إلى السلطان أبي سعيد الظاهر برقوق. في ٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م

(عن القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٨، ص ص١١٦ - ١١٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

الحمد لله الذي جعل الخط تراسلا بين الأباعد، وترجمانا بين الأقارب، ومصافحة بين الأصحاب، ومؤنسا بين العلماء، وموحشا بين الجهال، ولولا ذلك لبطلت الكلمات وفسدت الحاجات.

وصلوات الله على سيدنا المصطفى ورسولنا المرتضى، الذي أغلق الله به باب النبوة وختم، وجعله آخر المرسلين بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيراً، ما ناحت الورق وما عقب الشروق الأصيل، ثم بعد ذلك: أبوبكر وعمر وعثمان وعلي، رضى الله عنهم أجمعين.

من المتوكل على الله تعالى، الملك الأجل سيف الإسلام وربيع الأيتام الملك المقدام، القائم بأمر الرحمن المستنصر بالله، المنصور في كل حين وأوان ودهر وزمان، الملك العادل الزاهد التقي النقي الأنجد الأمجد الغشمشم[1]، فخرالدين زين الإسلام، قطب الجلالة، سلالة الكرماء، كهف الصدور، مصباح الظلام، أبي عمرو عثمان الملك بن إدريس الحاج أمير المؤمنين المرحوم،

(١) الغشمشم: ذو الجرأة والمضاء (القاموس المحيط).

كرم الله ضريحه، وأدام ذرية هذا بملكه.

إلى ملك المصر الجليل، أرض الله المباركة أم الدنيا، بسلام عليكم أعطر من المسك الأذفر، وأعذب من ماء الـغمام واليم، زاد الله ملككم وسلطانكم، والسلام على جلسائكم وفقهائهكم وعلمائكم، الذين يدرسون القرآن والعلوم، وجماعتكم وأهل طاعتكم أجمعين.

وبعد ذاك فإنا قد أرسلنا إليكم رسـولنا وهو ابن عمي وأسمه ادريس بن محمـد، من أجل الجائحة التي وجدناها وملوكنا، فإن الأعـراب الذين يسمون جذابا وغيرهم، قد سبوا أحرارنا من النساء والصبيان وضعاف الرجال، وقرابتنا من المسلمين.

ومنهم من يشركون بالله، يمارقون للدين، فغاروا على المسلمين فقتلوهم قتلا شديدا لفتنة وقعت بيننا وبين أعدائنا، فـبسبب تلك الفتنة، قد قتلوا ملكنا عمر بن إدريس الشهيد وهو أخونا ابن أبينا إدريس الحاج بن إبراهيم الحاج.

ونحن بنو يوسف بن ذي يزن والد قبيلتنا، العربي القرشي، كذا ضبطناه عن شيوخنا، وهؤلاء الأعـراب قد أفسدوا أرضنا كلها في بلد برنو كـافة حتى الآن وسـبوا أحـرارنا وقرابتنـا من المسلمين ويبيـعـونهم لجلاب مـصر والشـام وغيرهم، ويختدمون ببعضهم.

فإن حكم مصر، قد جعله الله في أيديكم من البحر إلى أسوان، فإنه قد اتخذوا متجرا، فابعثوا الرسل إلى جميع أرضكم وأمرائكم ووزرائكم وقضاتكم وحكامكم وعلمائكم وصـواحب أسواقكم، ينظرون ويبحثون ويكشـفون، فإذا وجدوهم فلينتزعـوهم من أيديهم وليبتلوهم، فإذا تبين ذلـك لكم، فأطلقوهم وردوهم إلى حريتهم وإسلامهـم، فإن بعض الأعراب يفسدون في الأرض ولا يصلحـون، فإنهم الجاهلون كـتاب الله وسنة رسـولنا، فإنهم يزينـون الباطل،

فاتقوا الله واخشوه ولا تخذلوهم يسترقوا ويباعوا.

قال الله تعالى: «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر».

وقال تعالى: لنبيه عليه السلام: «فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم، وقال الله تعالى: «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض».

وكان عليه السلام يقول: «السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم، وقال: المؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضا إلى يوم القيامة. وقال: «المؤمن أخو المؤمن لا يظلمه ولا يسلمه».

وفي الحكمة: «ومن الفرائض: الأمر بالمعروف على كل من بسطت يده في الأرض ـ أراد به السلاطين ـ وعلى من تصل يده إلى ذلك ـ أراد بذلك القضاة والحكام والأمراء ـ فإن لم يقدر فبلسانه ـ أراد بذلك الفقهاء والعلماء ـ وأن لم يقدر فبقلبه ـ أراد بذلك عامة المسلمين».

أطال الله بقاءكم في أرضكم، فازجروا الأعراب المفسدين عن دعرهم.

قال الله تعالى: «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين» وقال عليه السلام: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، وقال في الحكمة: «لولا السلطان، لأكل بعضهم بعضا» وقال تعالى لنبيه داود عليه السلام: ياداود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب.

والسلام على من اتبع الهدى». ولم يؤرخ.

ملحق رقم (٣)

رسالة المغيلي ووصيته للقضاة ـ جامعة لأصول الاجتهاد والقياس

مأخوذ عن آدم عبدالله الألوري: موجز تاريخ نيجيريا
بيروت، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م، ص ص١٣٤-١٣٦.

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبدالله محمد بن عبدالكريم المغيلي التلمساني إلى عبدالله محمد بن يعقوب سلطان كنو وفقه الله لما يرضاه، وأعانه على ما أولاه من أمور دينه ودنياه، بجاه سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه.

سلام عليكم ورحمة الله. أما بعد. فإنك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام، فاعلم، أعاننا الله وإياك على رعاية ودائعه وحفظ ما أودعنا من شرائعه، أنه لابد من ردع المفاسد الدينية والدنيوية بالمقامع الشرعية على حسب الطاقة البشرية. ولا يجوز أن يترك مفسد فساده مع إمكان ردعه عنه أو لعنه أو حبسه أو ربطه أو ضربه أو صلبه أو قتله أو نفيه أو نهب ماله أو حرق بيته أو غير ذلك من العقوبات الشرعية. لكل داء دواء ولكل مقام مقال وفعال بحسب ما يظهر الأحوال. فصن مقامات الخلافة النبوية عن الإهانة بردع العامة عن سوء الأدب بالأقوال والأفعال وسائر الأحوال، ولا تصبر لمن تعمد ذلك ولم ينته، لأن ردع ذلك ومثله حق الله تعالى ورسوله وامنع جميع أهل بلادك عن جميع أنواع الشرك وكشف العورة وشرب الخمر وأكل الميتة والدم وغير ذلك من المحرمات. وامنع كفار بلادك من أن يظهروا ذلك بين المسلمين في الأسواق والمنازل وغيرها من

المحلات، فلو لم يتركوا إظهار شرك أو شرب خمر أو فطر في رمضان، أو زنا أو غير ذلك من المنكرات وأنواع ضلالهم، لكان ذلك ذريعة لأن يفعل مثل فعلهم ضعفة العقول من العامة والنسوة والصبيان، لا سيما والغالب على أهل تلك البلاد الجهل والهوى وأصلهم كان ذلك. وقد قال العلماء: الرجوع إلى الأصل يكون بأدنى سبب، فانههم عن ذلك وأشهر إنكاره وتوعد بالعقوبة لمن فعله، ثم بعد ذلك عاقبه بأقرب شيء يردعه ويردع مثله وإن لم يكن ردعه ومنعه من ذلك إلا بقطع يده أو رجله وصلبه أو قتله أو غير ذلك من الروادع الشرعية فافعله لأنه ظالم، والظالم أحق أن يحمل عليه. ولكن لا تفعل بالمفسد ما هو أشد في ردعه إلا إذا رأيت أنه يرجع بغيره، مثال ذلك من لم ينته من الناس من عمل الخمر إلا بنهب أموالهم أو حرق بيوتهم أو إجلائهم أو بيع الكفار منهم أو غير ذلك فافعله ولا تبال، ومن لم يستر أمته أو عبده ولم ينته إلا ببيعه عليه أو بأخذه منه فافعل ولا تبال. وكذلك من يغش بمسحات ناقصات وأبى أن ينتهي عن المعاملة بها فخذها منه واجعلها في مصالح المسلمين. وأما من لم يغش بها ولا أبى أن ينتهي فمره بإصلاحها إن أراد المعاملة.

وكذلك من يتلقى ما يأتي للسوق من طعام وغيره فيشتريه قبل وصوله للسوق أو بعد وصوله ويبيعه على يده وإن لم ينتهوا إلا بنفيهم أو نهب ذلك منهم فافعل، لأن مقصد الشارع في الروادع درء المفاسد وجلب المصالح بحسب الإمكان في كل زمان ومكان وليس الخبر كالعيان. ولذلك قال الإمام العادل عمر بن عبدالعزيز رحمة الله عليه: تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور، فلا بد من إزالة الفساد على كل حال، وإن تعارضت مفسدتان إحداهما أكبر من الأخرى فدرء المفسدة الكبرى أولى، وهذا الذي بينا لك يكفيك إن شاء الله في تلك المناكر وغيرها؛ وإن الناس في حكم الله ورسوله

سواء، فلا تخرج من ذلك عالما ولا عـابدا ولا شريفا ولا أميراً، وأقم حق الله على جـميع عبـاد الله بالتقـوى لا بالهوى، ومن عـارضك في شيء من ذلك فعاقبه بما فيه ردع له ولمثله، وإن لم يكن إلا بقطع يده أو رجله أو أنفه أو صلبه فافـعله ولا تبال ولكن بعد ثبـوت وتثبت في ذلك كله، ومقـابلة كل واحد بما يليق به بحسب حـاله من الخير والشر والتـواضع والطغيان، فتـصرف في ذلك بالزيادة والنقصان حتى يعـتدل الميزان وليس الخبر كالعيان والله المسـتعان وعليه التكلان. وفي هذا القدر كـفاية لمن سبقت له العناية، وكل مـا نوصيك به من أمر دينك ودنياك تعرف ذلك، وإذا نسيت شيـئا منه فلا تنس أن من غيّر حكم الله فقد كفـر، ومن تغيير حكم الله ودينه أن يكون الظالم قاضـيها لأنه يحكم بالظلم وهو يقول هذا هو الشـرع، ومن فعل ذلك فهو كافر لأنه صـير الباطل حقا والحق باطلا. فإن كان لابد من أن يجعل بـعض الظالمين حاكما فلا تجعله باسم القاضي، فإن القضاء من صـفات رسول الله لا يوصف به إلا عالـم تقي لا يأخذ الرشا ولا يحكم بالهوى.

الله الله الله وهذه الوصـية هي أوكد جـميع الوصايا. أمـا يكفيك أن تظلمـوا باسم السلطنة فتكونوا مـذبذبين ترجون رحـمة الله ثم تظلمـون باسم الشرع حـتى تكونوا كفـاراً؟ والكافر لانصـيب له من رحمـة الله مطهر مـقام الشريعـة من كل خبث، لأنه مـقام رسـول الله لعل الله أن يغفـر لك ذنوبك جميعها والسلام على من اتبع الهدى.

كتبه سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩١م.

ملحق رقم (٤)
رسالة السيوطي لأمراء بلاد التكرور عامة ولسلطان كاتسينا خاصة

مأخوذة عن الألوي: موجز تاريخ نيجيريا
بيروت، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥، ص ص١٣٧ ـ ١٤٠.

بسم الله الرحمن الرحيم

«ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما». من الفقير عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي إلى الملوك والسلاطين في بلاد التكرور عموما، وإلى الملك الزاهد محمد بن صطفو صاحب أكدز وأخويه محمد وعمر وابن أختهم محمد بن عبدالرحمن وإلى الملك إبراهيم صاحب كاشنه خصوصا، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد:

فأحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على نبيه محمد، ثم أوصيكم بتقوى الله عز وجل فإنها رأس الأمر وسنامه، وقد فاز وأفلح من كان بها اعتصامه، واحتكموا على العدل بين الرعية، والوقوف عند حدود الأحكام الشرعية، ولا يغيرن امْرُؤٌ منكم ما آتاه الله من الملك والسلطنة وما خوله من زينة الحياة الدنيا فإنما الدنيا كلها سِنَة منام ولابد أن يستيقظ من السنة. وقد بلغني عن أحدكم أنه يذكر له الحكم الشرعي في واقعة المحكوم عليه، ويضمه إليه ويحضه ويحول بينه وبين صاحب الحق ويحضه، ويقول هذا دخل في

ملكي أو جعل في سلطاني، ويرد ما حكم به الشارع اغتراراً بالأماني، أفلا يخشى أحدكم من مالك الملوك أن يحل به العذاب الأكبر ويتنزل عليه سخطه في الدنيا قبل أن يقبر. إن بطش ربك لشديد. ومار بك بظلام للعبيد. أيغتر أحدكم بملكه الذي هو كقطرة ويريد أن يلقي حكم الله بإقامة ناموسه الذي لا يساوي عند الله جناح ذبابة. أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض أو يدك عليكم ما بين طولها والعرض. قال النبي ﷺ: «السلطان ظل الله على الأرض يأوي إليه كل مظلوم من عباده. وإذا عدل كان له الأجر وعلى الرعية الشكر. وإذا جار كان له الإصر وعلى الرعية الصبر. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: ماذا قلت يارسول الله عن السلطان الذي ذلت له الرقاب وخضعت له الأجساد ماهو؟ قال: ظل الله تعالى في أرضه فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الصبر. وعن النبي أيضا أنه قال: صنفان من أمتي لن تنالهما شفاعتي: سلطان ظلوم غشوم عسوف، وغال مارق في الدين.

وعنه أيضا: مامن أحد يؤم عشرة فصاعدا إلا جاء في الأصفاد والأغلال، وفي لفظ: إلا أتي به يوم القيامة مغلولة يداه يفكه العدل أو يوبقه الجور. وقال أيضا: من ولي عشرا فحكم بما أحبوا وكرهوا جيء به مغلولا يده، فإن عدل ولم يرتش ولم يَجُر فكّ الله عنه، وإن حكم بغير ما أنزل الله وارتشى وجار شدت يساره إلى يمناه ثم ألقي في قعر جهنم فلم يبلغ قعرها خمسمئة سنة.

وقال أيضاً: إذا كان يوم القيامة أتي بالوالي فيوقف على جسر فيأمر الله الجسر فينتفض انتفاضة يزول كل عظم من مكانه، فيأمر الله العظام أن ترجع إلى مكانها ثم يسأله، فإن كان مطيعا أخذ بيده فأعطاه كفلين من رحمته، وإن كان عاصيا خرق به الجسر يهوى في جهنم مقدار سبعين خريْفا.

«.. وقال أيضاً: السلطان ظل الله في الأرض فمن غشه ضل ومن نصحه اهتدى، ولذلك بذلت لكم النصيحة وبلغتكم ماجاء عن رسول الله من أحاديث النصيحة، فأقيموا السلطنة بعدلها وأدوا الأمانة إلى أهلها.

ومما ينص عليكم بالخصوص قضية الحاج محمد الترجمان مع عبده الذي حاد عن الحق وحكم عليه القاضي محمد بن عبدالكريم بأنه باق في رقه، وأمر بأن يسلم إلى مستحقه، فأعنتم بعد على الباطل وجعلتم حكم الشرع الشريف كالعاطل، فتوبوا إلى الله من هذه الموبقة، ولا يحول بين السيد وعبده إلا أن يكاتبه باختياره أو يعتقه. وقد بلغني أن محمد بن مريم أقلع عما كان عليه وتاب، ورجع إلى الله وأناب، هذا هو الذي يعتقه في المآب. وبلغني من أهل غوبر أن منهم من إذا مرض ذبح عبدا له أو أمة، ويزعم أن ذلك يفديه من الموت فما أكفره فيما صنعه وفيما زعمه، وهذا مايسوله الشيطان ومما يزينه من العدوان ومما يؤول صاحبه إلى الكفران، فليعلم من بعد ذلك أن الله بريء منه ورسوله وليس هو يبلغ بذلك مناه وسؤله ولو أعتقه كان أقرب إلى الفداء بعيدا عن الاعتداء فمن عرض له أمر ليعرضه على حملة الشريعة، ويسأل عالمًا يوثق بعلمه ويجب عليه أن يطيعه. واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لايظلمون.

ملحق رقم (٥)
طرف من أسئلة آسكيا الحاج محمد وأجوبة المغيلي

مأخوذ عن الدكتور عبدالقادر زبادية: محمد بن عبدالكريم المغيلي» أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي ص ص ٣٤ ـ ٣٩.

بسم الله الرحمن الرحيم

« . . من عبدالله تعالى محمد بن عبدالكريم بن محمد المغيلي، إلى الأمير الحاج أبي عبدالله محمد بن أبي بكر الملقب بآسكيا، وفقه الله تعالى، ونصره نصراً عزيزاً وفتح له فتحا مبيناً بجاه سيدنا محمد ﷺ».

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. . قولكم، سددكم الله في هذه البلاد وأهلها، فأنهم في زعمهم وظاهر أمرهم مسلمون، ومدنيتهم بالجامع والجماعة والجمعة والأذان لـلصلوات الخمس، وذلك بعد أن كانت كلها بلاد كفر، وأهلها عبدة أصنام، فقام عليهم بعض أجداد هؤلاء السلاطين مع أتباعهم فقاتلوا أولئك الكفار وملكوا بلادهم المذكورة منهم عنوة، وسكونها بالإسلام أكثر من ثلاثين سلطانا قبل سني علي، وكان أبو سني علي سلطان أهلها، وكانت أمه من بلاد فار[١]، وهم قوم كفار يعبدون الأصنام من الأشجار والأحجار، ويتصدقون لها، ويسألون حوائجهم عندها، فإن أصابوا خيراً زعموا أن تلك الأصنام هي التي أعطتهم، وإن لم يصيبوا، رأوا أنها منعتهم،

(١) منطقة في الجنوب الغربي من سنغي.

فلا يغزون حتى يشاوروها، وإن قدموا من سفر قصدوها ونزلوا عندها، ولتلك الأصنام سدنة يخدمونها ويترجمون لها عنهم، وفيهم كهان وسحرة يقصدونهم كذلك، وكـان سني علي من صغره إلى كـبره كثيـر الإقامة عندهم حـتى نشأ بينهم وتطبع بطبـاعهم. وقاتلهم حتى غلبـهم في شركهم وعـوائدهم، ثم بعد موت أبيه طلب السلطنة فقام علي سنغي وقاتلهم حتى غلبهم وتسلطن عليهم، كما كان أبوه ومن قبله من ملوك سنغي، إلا أنه لما نشأ من صغره إلى كبره بين أخواله وتطبع بطباعهم، كان من صفـته أنه ينطق بالشهادتين ونحوها من ألفاظ المسلمين، ولكن لا يعـرف لذلك حقيـقة، إنما يقول ذلك بلسـانه، وربما سمع النبي ﷺ، فقال: صلى الله عليـه وسلم، ويصوم رمضان ويتصدق كـثيرا من الذبائح وغيرها عند المساجد ونحـوها، ومع ذلك يعبد الأصنام ويصدق الكهان ويستعين بالسحرة ونحوهم فيعظمون بعض الأشجار والأحجار بالذبح عندهم، والصدقة والتـضرع والنذر لها وطلب قضـاء حوائجه، ويستعين بهـا وبالسحرة والكهان في الأمور كلها، أو جلها.

ومن صـفته أيضـا أنه ما رئي فـي جامع ولا مـسجد هو ولا أحـد من دائرته.. فلا يحفظ الفاتحة ولا غيرها، ولا يصلي صلاة مكتوبة في وقتها، ولا يقوم ويركع ويسـجد فـيها، إنما يتـرك الصلوات الخمس إلى آخـر الليل أو غد وقت الضحى، ثم يجلس كهيئة جلوس ويومئ إلى السجود من جلوسه، وهو صحيح قوي لا علة به....

«.. ومن صفتـه أيضاً أنه لا يتوقف في النساء علـى نكاح ولا غيره من الشروط الإسلامية، بل كلما أعجبته امرأة في جميع مملكته أخذها وأدخلها في بيته وفراشه، لا يبـالي بزوجها ولا أحد، ويجمعها مع أمـها، فيتلذذ من المرأة وابنتها حرّة أو أمة.

ومن صفته أيضاً أنه حلل دماء المسلمين وأموالهم، فيقتل من القراء والفقهاء والنساء والصبيان. . وفساده في الأرض بذلك ونحوه مشهور، ولم يسمع قط بمثله في الإسلام، ولم يزل على ذلك مدة عمره حتى مات.

ثم ولي بعده الأمير آسكيا، فملك البلاد ورد العباد عن الشرك والفساد، فما الحكم في سني علي وجميع أعوانه من الظلمة الذين كانوا يعملون بعمله في ذلك كله، ولا مال لهم إلا من ماله، وهل هم كفار أم لا؟ وهل تسترق أولادهم من بعدهم وتباع أمهات أولادهم أم لا؟ وهل يرد ما وجد الآن من تلك الأحوال التي نهبوها من المسلمين والتي نهبها المسلمون منهم، أو هي كالأموال التي نهبت بين المسلمين والكفار، «وهل البيّنة علينا أو على من وجدناه بأيديهم مستعبَدا فادعى أنه حر، وأنهم استعبدوه ظلما؟ وهل البينة علينا أو على من ادعى من خدامهم وأتباعهم فيما بيده من المال أنه ليس لسني علي وإنما هو ماله اكتسبه من جهة أخرى، ومعروف أن أعوانه وخدامه ما يملكون شيئاً مما في أيديهم؟ وهل تلك الأرض التي كانت للكفار ثم فتحها أجدادنا عنوة وحازوها واقتسموها وكانوا يرعون فيها خلفا عن سلفهم من ذلك الزمان إلى الآن؟ وهل يجب على المسلمين والكائنين ببلاد هذا الأمير أن يعينوه بقدر طاقتهم على مايراه باجتهاده إذا أراد جهاد الكفار أو غيرهم من أهل الفساد وإرسال الرسل في أمر المسلمين، أو ليس عليهم شيء من ذلك؟

الجواب.والله الموفق للصواب أن سني علي وجميع أعوانه وأتباعه وأنصاره لاشك أنهم من أظلم الظالمين الفاسقين الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، فجهاد الأمير آسكيا فيهم وأخذه السلطنة من أيديهم من أفضل الجهاد وأهمه، وأما قولك هل هم كفار أم لا؟ فلا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة. .».

ملحق رقم (٦)

مؤلفات أحمد بابا التنبكتي ـ نموذج للعالم المكثر

مأخوذ عن الوالاتي : فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور.
مخطوط قام بنشره هنويك

J. C. Hunwick: "A New Source for the Biography of Ahmad Baba AL-Tumbukti (1556 - 1627)", B. S. O. A. S. Vol. XXV11 1964, pp. 578-581.

«ألَّفَ رحمه الله تعالى تواليف عديدة مفيدة: (١) شرح الصغرى في أربعة كراريس. (٢) المطلب والمأرب في أعظم أسماء الرب تعالى في كراسة. (٣) شرح الصدور وتنوير القلوب ببيان مغفرة ما نسب للجانب النبوي من الذنوب. (٤) نشر العبير بمعاني آيات الصلاة على البشير النذير و(٥) نيل الأمل في تفضيل النية على العمل في شرح نية المؤمن أبلغ من عمله وآخر فيه سماه. (٦) غاية الأمل في تفضيل النية على العمل و(٧) المنهج المبين في شرح حديث أولياء الله المحبين و(٨) البدور المسفرة في شرح حديث الفطرة (٩) شرح مختصر خليل من الزكاة إلى أثناء النكاح في سفرين، وسماه: المقصد الكفيل بحل مقفل خليل. وحاشية عليه سماها: (١٠) منن الرب الجليل في تحرير مهمات خليل، في سفرين ينقل منهما الأجهوري في شرحه على المختصر (١١) تنبيه الواقف على تحرير، وخصصت نية الحالف في كرّاسي و(١٢) إفهم السامع بمعنى قول خليل في النكاح بالمنافع و(١٣) فتح الرزاق في مسألة الشك في الطلاق و(١٤) أنفس الأعلاق في فتح الاستغلاق من كلام

خليل في درك الصداق. و(١٥) الزند الوري في تخيير المشتري و(١٦) الكشف والبيـان لأصناف مجلوب السودان و(١٧) اللمـع في الإشارة لحكم تبع و(١٨) ترتيب جـامع المعـيار للونشـريشي كـتب منه كـراريس و(١٩) أجوبة الأسـئلة المصرية و(٢٠) فتح الصمد الفرد في معنى محبة الله تعالى للعبد و(٢١) تعليق على أوائل الألفيـة وآخر سماه (٢٢) النكت الوافيـة بشرح الألفية وآخـر سماه (٢٣) النكت الزكية، لم يكملا، (٢٤) غاية الإجادة في مساواة الفاعل للمبتدأ في شرط الإفادة فـي كراس وآخر سماه (٢٥) النكـت المستجادة «مسـواتها في شرط الإفادة و(٢٦) التحديث والتأنيس في الاجتماع بابن إدريس، يريد ألفاظه في العربية، في ورقـات و(٢٧) نزول الرحمة في التحـدث بالنعمة (٢٨) دور الوشاح لفـوائد النكاح وهو مختصـر كتاب الوشاح للسـيوطي. و(٢٩) جلب النعمة ودفع النقـمة بمجانبة الولاة الظلمة و(٣٠) نيل المرام ببـيان حكم الإقدام على الدعـاء لما فيـه من الإيهم. وهو مأخـوذ من مسـودة تأليفـه و(٣١) فتح القدير للعاجز الفقير في الكلام على دعاء محمد بن حمير (٣٢) تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء ومختصره في عشر ورقات بغالب الثمن، سماه (٣٣) مرآة التعـريف في فضل العلم الشـريف و(٣٤) درر السلوك بذكر الخلفـاء وأفاضل الملوك و(٣٥) نيل الابتهاج بتطريز الديباج و(٣٦) كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج و(٣٧) ترجمة السنوسي في ثلاثة كراريس و(٣٨) خمائل الزهر في كيفية الصلاة على سيد البشر و(٣٩) الدر النضير في ألفاظ الصلاة على البشير النذير فهذه تسعة وثلاثون تأليفا وقـال صاحب الترجمة: ألفت عدة كتب تزيد على أربعين تأليفا. انتهى. فأنا ما وقفت على أسماء الباقي من تواليفه.

ولما ألف بعض تواليفه وكتبه أوقف عليه كل من ينسب للعلم في مراكش كالفقيه العلم المتفنن الـرُّحلة، الحاج أبي جمعة بن مسعود بن سعيد الماغوسي،

وقاضي الجماعة بمراكش الفمهمة الدراك، أبي عبدالله الرجراجي، كبيرهم، وابن أخيه مفتي عصره الفمهمة الدراك، عبد الواحد بن أحمد بن أبي عبدالله الرجراجي وقاضي الجماعة بفاس، الشيخ المعقلي أبي القاسم بن أبي النعيم الغساني، والفمهمة الدراك، السيد الفرضي المعقلي الحساني أحمد السالم، والفمهمة الناقد ذي الذهن الوقاد، أحمد، عرف بالخياط فكلهم استحسنه إلى الغاية ورأوا أن لا مزيد عليه في الإحسان والإجادة وكتب في ذلك بما ظهر من الثناء والتقريظ».

ملحق رقم (٧)

رسالة من إنشاء عبدالرحمن السعدي بأمر الباشا المراكشي إلى أهل كاغ.
نموذج للكتابة الإنشائية في غربي إفريقية في القرن (١١هـ/ ١٧م)

مأخوذة عن «تاريخ السودان»، ص ص٢٨٤ ـ ٢٨٧.

«الحمد لله وصلى الله على نبيه محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.
الأبرار المكرمين، الأخيار المعظمين، الأنجاد المرعيين، الاسناد المرضيين: القائد منصور بن مبارك الدرعي وكافة من معه من القياد والكواهي والمقدمين و. . .، رعاكم الله وأنجدكم وأعانكم وسددكم، وأصلح عنه كافة أحوالكم وبلغكم من جميع الخيرات والمسرات بمنالكم وآمالكم، سلام تام عميم عليكم ورحمة الله وبركاته عن الخير والعافية ونعم الله المتوافية. كتبناه إليكم لله الحمد وله الشكر وعما تشوقتم إليه من معرفة أحوالنا وأخبارنا حسبما هو مسطور في كتابكم الكريم الذي ورد علينا صحبه مراسيلكم في مرسي كرتزفي، فأدركنا في كل ما تحبون لنا وتمنون من العافية الباسطة والوافرة والنعم السابغة الفاخرة من المولى الكريم ذي الفضل العظيم وذلك لما عزمنا على الحركة إلى ناحية الظلمة المفسدين أعداء الله ورسوله قبيله شفنتير الذين أفسدوا طاعتنا في كيمى بجهة كرم وخسروها، خرجنا بالمحلة السعيدة إلى ساحل البحر في السفن وسبب خروجنا بأنفسنا في ذلك شيئان: أحدهما الاطلاع على أمكنتهم ومساكنهم في غايتها ونهايتها في البعد والمسافة بركائبنا وأرجلنا وحوافر خيلنا دفعا لما قد عسى أن يتوهمه الغبي الأحمق أن طول رقدتنا لتعديتهم ومفسدتهم التي شملت طاعتنا وبلادنا منهم ومن غيرهم من القطاعين والمحاربين كان من

ضعفنا وعجزنا، كلا ليس الأمر كـما يزعم ويتوهم الغبي الظالم، بل من صبر السلطنة وتأنيـها حتى نبطش البطشـة الواحدة فتـمحو كـل شيء أتت عليه في لحظة واحدة. والثاني من الشيئين: ضيق الحال وخلو الدار من المال، لا أخلاها الله تعالى من الخيرات والبركات، ولكـنْ للدنيا طلوع ونزول وتغييرات وحول الأرزاق تغور وتفور وترقد وتنور وهذان الشيئان أخرجاني فيها، فلما انتهينا إلى موضع الطلوع إلى العوالي، وانتقلنا من بطون السفن بحفظ الله الكبير المتعالي وحـملنا على ظهور الدواب بعـون الله القـدير الوهاب، شرعنا في اتبـاع أثر الأبعد الخـاسر الظالم الفـاجر رأس شـياطين الإنس حـمد بالي، نقطع أكـمة وآجـاما، ونشـد عزمـة وأحزامـا، ويلفظنا أرض إلى أرض ويجـذبنا رفع من خفض، حـتى وصل بنا السير إلى سـفح الجبل بعناية من بيده القـوة والحيل، وسلكنا منهـا مسلكا ما سلكه أحـد قبلنا لا من الأسـلاف ولا من الأخلاف، فصـرفنا لأربابها من مـشارقهـا إلى مغاربهـا من صاحب هنبر ودعـنكا وفيلي فأجـابوا دعوتنا، وأنابوا لسطوتنا، حتى اتصلـت الإجابة لصاحب كرو وغـيره فنزلوا إلينا وحضروا لدينا مذعنين راغـبين مذللين راهبين فجددوا لمولانا ـ نصره الله تعـالى ـ البيـعة والطاعـة، وقالوا كل مـا أردتم منا من الخدمـة فالسـاعة الساعـة، وتبرؤوا من جـميع أعدائنا، وخلعـوا من رقابهم كل عـروة إلا عرى طاعتنـا فطلبوا منا الأمـان على مهجـتهم وبلادهم، فـأعطيناهم ذلك بالعـهد والميثـاق، فنهضوا مـعنا إلى لقاء ذلك الأبعـد الخاسر، وأخـذنا في أثره حتى قاربناه، فلما تيقن بـالهلاك رمى نفسه في غارة ضيقـة أضيق من سم الخياط، وعن المسلك صعب الارتقاء منفردا وحيدا تفـرق عنه أصحابه وأتباعه، وتشتت عنه أهله وأشيـاعه، فولج عليه في ذلـك الغار الأسود والنسور وجـيشنا المؤيد المنصور حـفاة مشاة لما توقـد فيهم حينئـذ من غضب النجدة والجرأ ة فـاغرين

أشداقهم، رافعين أعناقهم، مبدين أنيابهم ومخالبهم، حتى انتهوا به منتهى الغار فرمى نفسه إلى ورائها في أيدي المشركين، فلما رأى أنه ضاقت عليه نفسه وضاقت عليه الأرض بما رحبت بعث المرسول إلى صاحب دعنكا في طلب العفو منا وأنه تائب لله ولرسوله وللسلطنة فعفونا عنه...».

ملحق رقم (٨)

ترجمة محمد بن محمد الفولاني الكشناوي

مأخوذ عن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار.
طبعة القاهرة ١٢٩٧هـ/ ١٨٧٩م، الجزء الأول، ص ص١٥٩ ـ ١٦٠.

بسم الله الرحمن الرحيم

«الإمام العلامة الوحيد، والبحر الخضم الفريد، روض العلوم والمعارف، وكنز الأسرار واللطائف، الشيخ محمد بن محمد الفلاني الكشناوي الدانرنكوي السوداني. كان إماما دراكا متقنا متفننا وله يد طولى وباع واسع في جميع العلوم، ومعرفة تامة بدقائق الأسرار والأنوار، تلقى العلوم والمعارف ببلاده عن الشيخ الإمام محمد بن سليمان بن محمد النوالي البرناوي الباغرماوي، والأستاذ الشيخ محمد بندو، والشيخ الكامل الشيخ هاشم[١] والشيخ محمد فودي،[٢] ومعناه الكبير. وقال: وهو أول من حصل على يديه الفتح، وعليه قرأت أكثر كتب الأدب ولازمته حضرا وسفرا نحو أربع سنوات، فأخذ عنه الصرف والنحو حتى أتقن ذلك وصار شيخه المذكور يلقبه بسيبويه، وكان يلقبه قبل ذلك بصاحب المقامات لحفظه لها واستحضاره لألفاظها استحضارا شديدا بحيث إذا ذكرت كلمة يأتي بما قبلها بالبديهة وعدم الكلفة.

(١) من علماء الهوسا، انظر الإنفاق، ص٥٢، وجاء في إيداع النسوخ أنه أستاذ الشيخ عثمان بن فودي انظر: الإيداع، ص٦.

(٢) والد الشيخ عثمان بن فودي.

وتلقى عن الشيخ محمد بندو علم الحرف والأوفاق، وعلم الحساب والمواقيت على أسلوب طريقة المغاربة، والعلوم السرية بأنواعها الحرفية والوفقيه وآلاتها الحسابية والميقاتية وحصلت له منه المنفعة التامة. قال وقرأت عليه الأصول والمعاني والبيان والمنطق وألفية العراقي وجميع عقائد السنوسي الستة. وسمع عليه البخاري وثلاثة أرباع مختصر خليل من أول البيوع إلى آخر باب السلم، ومن أول الإجارة إلى آخر الكتاب، ونحو الثلث من كتاب ملخص المقاصد وهو كتاب لابن زكري معاصر الشيخ السنوسي في ألف بيت وخمسمئة بيت في علم الكلام وأكثر تصانيفه إلى غير ذلك. قال: وسمعت منه كثيرا من الفوائد العجيبة والحكايات الغريبة والأخبار والنوادر ومعرفة الرجال ومراتبهم وطبقاتهم، ذكر ذلك في برنامج شيوخه المذكورين وكانت للمترجم همة عالية ورغبة صادقة في تحصيل العلوم المتوقف عليها تحصيل الكتب، وكان يقول عن نفسه إن مما منّ الله عليَّ به أني لم اقرأ قط من كتاب مستعار، وإنما أدنى مرتبتي إذا حاولت قراءة كتاب لم يكن موجودا عندي أن أكتب متنه موسَّعَ السطور لأقيد فيه ما أردته من شروحه أو ما سمعته من تقريرات الشيخ عند قراءته، وأعلاها أن أكتب شرحه وحاشيته بدليل أنه لولا علو همتي وصدق رغبتي في تحصيل العلوم لما فارقت أهلي وأنسي، وطلقت راحتي وبدلتها بغربتي ووحشتي وكربتي، مع كون حالي مع أهلي في غاية الغبطة والانتظام، فبادرت في اقتحام الأخطار لكي أدرك الأوطار (شعر):

إن الأمور إذا ما الله يسّرها أتتكَ من حيث لا ترجو وتحتسبُ
وكلُّ ما لم يقدره الإله فما يفيد حرص الفتى فيه ولا النَّصَب
ثق بالإله ولا تركن إلى أحدٍ فالله أكرم من يُرجَى ويرتقب

ولما استأذن شيخه في الرحلة والحج مر في رحلته بعدة ممالك، واجتمع

بملوكها وعلمائها. فممن اجتمع به في كاغ برن[1] الشيخ محمد كرعك وأخذ عنه أشياء كثيرة من علوم الأسرار والرمل، وأقام هناك خمسة أشهر، وعنده قرأ كتاب الولاية للكردي وهو كتاب جليل معتبر في علم الرمل. . . . .

وله رحلة تتضمن ما حصل له في تنقلاته، وحج سنة ١١٤٢هـ/ ١٧٢٩م وجاور بمكة وابتدأ هناك بتأليف "الدر المنظوم وخلاصة السر المكتوم في علم الطلاسم والنجوم"، وهو كتاب جامع رتبه على مقدمة وخمسة مقاصد وخاتمة، وقسم المقاصد أبوابا، وأتم تبييضه بمصر في رجب ١١٤٦هـ/ يناير ١٧٣٤م. ومن تأليفه كتاب "بهجة الآفاق وإيضاح اللبس والأغلاق في علم الحروف والأوفاق"، رتبه على مقدمة ومقصد وخاتمة، وجعل المقدمة ثلاثة أبواب، والمقصد خمسة أبواب، وكل باب يشتمل على مقدمة وفصول ومباحث وخاتمة، وله منظومة في علم المنطق سماها "منح القدوس"، وشرحها شرحا عظيما سماه "إزالة العبوس عن وجه منح القدوس"، وهو مجلد حافل نحو ستين كراسا، وله شرح بديع على كتاب الدر والترياق في علم الأوفاق. ومن تأليفه "بلوغ الأرب من كلام العرب" في علم النحو، وله غير ذلك. توفي سنة ١١٥٤هـ/ ١٧٤١م بمنزل المرحوم الشيخ الوالد، وجعله وصيا على تركته وكتبه، وكان يسكن أولا بدرب الأتراك، وهو الذي أخذ عنه علم الأوفاق وعلم الكسر والبسط الحرفية والعددية. ودفنه الوالد ببستان العلماء بالمجاورين، وبنى على قبره تركيبه وكتب عليها اسمه وتاريخه». ومن كلامه:

طلبت المستقَرَّ بكل أرضٍ فلم أر لي بأرضٍ مستقَرَّا
تبعت مطامعي فاستعبدَتْني ولو أني قنعت لكنت حرا

---

(١) لم يعرف قصده؛ أهي كوكو ذات المكان غير المحدد، أم كاغو الاسم الحديث لجاو عاصمة سنغي.
انظر: Bivar and Hiskett, op. cit., p. 136

ملحق رقم (٩)

أبيات مختارة من قصيدة «شرب الزلال» للإمام محمد بن الحاج عبدالرحمن البرناوي المتوفى سنة ١١٦٩هـ/ ١٧٥٥م، مع تخريج بعض الأعلام.

مأخوذة عن :

A. D. H. Bivar and Hiskett ", The Arabic Literature of Nigeria to 1804: Aprovisional Account, B. S. O. A. S., Vol. XXV, Part 1, 1962, pp. 118-23.

فأصل دين الله والعباده أكل الحلال فخذوا الإفاده

ولا يحل أكل لحم من ذبح غصبا ولو طبخ هذا ما اتضح

والناصر اللقاني[١] والقرافي[٢] فتواهما بذاك يا موافي

ولحم مكسي مثله فيما اعتزى لمدخل ولابن ناج[٣] جوزا

هذا إذا علم أن لا يضمنا لربه قيمته يامعتنا

ولا يجوز أخذه شراء وهبة صدقة وفاء

نقل هذا سيدي الأجهوري[٤] وسيدي عثمان[٥]، في المشهوري

---

(١) انظر ترجمته: صفحة ٧٤٠ من هذا الكتاب.

(٢) أحمد بن إدريس بن عبدالرحمن، أبو العباس شهاب الدين الصنهاجي القرافي، من علماء المالكية. نسبته إلى قبيلة صنهاجة، وإلى القرافة المحلة المجاورة لقبر الإمام الشافعي بالقاهرة، وهو مصري المولد والمنشأ والوفاة. له مصنفات. الأعلام، جـ١، ص٩٠. وعرف أكثر من عالم بهذا الاسم.

(٣) هو قاسم بن ناجي المتوفي سنة ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م. تعلم بالقيروان وتولى القضاء في عدة أماكن؛ من آثاره: شرح المدونة، الشافي في الفقه، شرح الرسالة. انظر: معجم المؤلفين جـ٨، ص١١٠.

(٤) انظر ص ٧٤٠ من هذا الكتاب.

(٥) انظر ص ٤٣١ من هذا الكتاب.

كلُّ حـــــرامٍ عُـلِمت أربابُـه فـــلا يحل يـا أخي أســـبـــابه

أمـــا الذي قـــد جُـهِلت أربابه فـــجـــائـز مـــتـــسع أبـوابه

مـــســتـــهلك الطعـام قـــد يحل على صـــريح الفـقـــه ياذا الخل

وتركـــه تورع فـــيـمـــا ظهـــر لكل مستغن عن الشبهات فر

والورعَ الـزمْ لاتدعـــه صـــاحِ لأنه طـريقـــــة الـفـــــلاح

وهو مـراتب كمـا قـد صرحـوا في بابه فـقف على ما وضحوا

أربعـــة الأقـوال فـيـــه جاءت عن ابن رشد[1] فارع ما أضاءت

وشـهـــروا جـواز أخـــذه على ظاهر فـقـه فـخـد المستعـمـلا

وهل على إجـرائـه كـالصـدقـة أو هو كـالفيء لدى من حـققـه

يجـــوز لـلغني والفـــقـــيـــر أو العـــديم قط لدى الخـبـيـر

صـــلاة من في بـطنه حـــرام لا يقـــبل الله فــقـل ســلام

كـذاك من صلى بـثـوب فـيـه من الحـــرام درهم يـوفـيـــه

وآكل مـن لقـــمـــة حـــرام عن ابن عـــبـاس من الأعـــلام

عـــمـله صـــبـــاح أربعـــينا لم يتـــقـبل فـاحـــترز يقـــينا

وكل لحم قـــد ربا من سُـحُتِ أحقُّ بـالـنـار لخـــبـث النبت

وكلـمـــا لم يتـــبين أصـله هو الحـــلال كُلُّه ذا مـــحـله

وحكـرة في كل شـيء تحـــرم إن خيـرت الناس على مـايعلم

واختـلفـوا في حكرة الـطعـام من حـــيـث لاضـــرر لـلأنام

وجـوزوا في غـيـره بلا ضـرر والمنع في ضـرورةٍ قـد اشتـهـر

وبيع فـــاضل الطعـــام واجب في حـاجـة بسـعـر وقت لازب

---

(١) أبوالوليد محمد بن أحمد بن رشد، الفيلسوف المسلم المشهور. انظر: معجم المؤلفين، جـ٨، ص٣١٣.

فـجـائز شــراؤنا قــوت سنة — في ســعــة أخي علـى المبــينة
فليس هذا آكــــلاً حــرامــــا — كــلا ولا الشـبــهـة يامن رامـا
الفـاكـهـاني[1] شـارح الرسـالة — قــد قال هذا فـاحـفظن ما قـاله
وكل مـــا وجـدته في الـسـوق — فـجـائـز الشـراء بالتـحــقـيق
مـالم يك الحـرام فـيـه غـالبـا — فــاترك إلا لـضـــرر جـالبـــا
عن ابن وضاح أتى[2] الشعبي[3] — بـذاك هـذا المـذهـب المـرضـي
إياك والتـــاب[4] وأن تجـــربه — أتى به الخـراشي[5] دع ذا منتـبه
أفتى به السنهوري[6] دعه مشتبه — أتى به اللقـاني[7] دعـه فانـتبه
فـــإن أتيت في طعـــام الأمـــرا — فـأنت بالخـيار فـيـمـا اشتـهـرا
قد جـمع الأعيان بعـضهم على — وليمــة لـــه وفيــهـم فـضـــلا

---

(١) هو تاج الدين عمر بن علي بن سالم اللخمي الإسكندري المتوفى سنة ٧٣٤/ ١٣٣٣م، معجم المؤلفين جـ٧، ص٢٩٩.

(٢) يبدو أن المعني هو محمد بن وضاح القرطبي (أبوعبدالله)، من علماء المالكية، وله مؤلفات في الفقه المالكي والحديث، وكتاب في البدع والنهي عنها، توفي سنة ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م. انظر ترجمته في: معجم المؤلفين جـ١٢، ص٩٤.

(٣) يوجد أكثر من عالم بهذا الاسم: عبدالرحمن (ت ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م)، علي (ت ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م)، عبدالرحمن (ت ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥م)، ونرجح أن يكون المقصود هنا هو عبدالرحمن (ت ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م) لأنه ممن كانت تدور عليهم الفتيا بقطره الأندلس، وكان مجتهدا وله مجموع في الأحكام، معجم المؤلفين، جـ٥، ص١٦٥، الأعلام، جـ٤، ص١٩٧.

(٤) التاب: هو التبغ.

(٥) هو محمد الخراشي (نسبة إلى قرية أبي خراش بمحافظة البحيرة)، المالكي، فقيه، نحوي، ت١١٠١هـ/ ١٦٩٠م، من آثاره: الدرة السنية على حل ألفاظ الأجرومية في النحو، والشرح الكبير على متن خليل. انظر: الجبرتي، عجائب الآثار، جـ١، ص٦٥؛ معجم المؤلفين، جـ٩، ص٢٧٨؛ بغية الوعاة، ص٢٦٢، الأعلام، جـ٣ ص١١٨.

(٦) هو أبوالنجاة سالم بن محمد السنهوري، مفتي المالكية بمصر وعالمها، توفي سنة ١٠١٥هـ/ ١٦٠٦م. انظر: شجرة النور الزكية، ص٢٨٩؛ خلاصة الأثر، جـ٢، ص٢٠٤؛ الأعلام، جـ٣ ص١١٦.

(٧) يوجد أكثر من عالم مصري بهذا الاسم. انظر ص ٧٤٠ من هذا الكتاب.

وبعضهم قلل وبعض أكثرا ... أو قال هاتوا من طعام الكبرا

وبعضهم جمع فقها ورعا ... وبعضهم صريح فقه قد رعى

كل له بصيرة على الهدى ... قد قاله القوري[1] يامن اقتدى

فإن علمت ذاك فالإنسان ... فقيه نفسه له الإمكان

فلك في ذا مسلكا ياذا ... لسان علم ورع من لاذا

قد يسر الله لنا شرب الزلال[2] ... وتم بالحمد بتسويغ الملال

ثم الصلاة بعد والسلام ... على النبي وآله التمام

(١) ربما يكون أحد رواة الأحاديث الأندلسيين، المتوفى سنة ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م انظر:
Bivar and Hiskett, op. cit. p. 147.

(٢) وهذا الاسم هو الذي اشتهرت به هذه القصيدة.

ملحق رقم (١٠)

القصيدة التي نظم فيها عبدالله بن فودي شيوخه وما تلقاه على أيديهم من العلوم.

مأخوذة من عبدالله بن فودي : إيداع النسوخ في من أخذت عنه من الشيوخ.

مخطوط مصور، ص ص١٠ـ١٢.

وعِ نظم شيوخ صاحِ أوَّلهم أبي ... معلمنا القرآن وهو مؤدبي

ومن بعده عثمان صِنوي وعمدتي ... سراجي في علم الشريعة مذهبي

فعلمني العشرينيات ونحوها ... والإعراب والشعراء تعليمك الصبي

وفي علم توحيدٍ وعلم تصوّفٍ ... سقاني فروى والحساب المقرَّبي

وفقه وتفسير وعلم الحديث مع ... محمد ابن الخالة المتحبب

شيوخي بعلم النحو والصرف خالنا ... وذلك عبدالله عمي من أبي

ومج وإبراهيم بَرنو وَمَنْدَراً ... وثنبُ المَرَتيُّ الذي من أقاربي

ومن عابد الرحمن نجل محمد ... مسائل من نحو أجاز بمطلبي

وصاحبنا وهو الفَرَيريُّ مرجعي ... إلى منطق يعلو على كل كوكب

علوم بلاغات وشرح نقاية ... من أحمد غار الزاهد المتأدب

وعلم أصول الفقه شيخ شيوخنا ... وقدوتنا جبريل فسمي ذاك حبب

أجاز لنا مروية من شيوخه ... ولقننا التوحيد أعظم موهبي

وصاحبنا تلميذه قد أفادني ... به المصطفى ابن الحاج في نص كوكب

من الحاج عمي وابن راج محمد ... سماع البخاري الصحيح المطيب

وسائر كتب للحديث أجازنا ... بما مَنَّ عليَّ في المدينة يثرب

ببوطُع شيخي نلت ألفية الأثر ... وعلما سواها قد أجاز بما حبي

ملحق رقم (١١)

تاريخ الاسم «تكرور» ـ دراسة تعريفية

كان الاسم «تكرور» يطلق على عاصمة دولة عرفت بهذا الاسم على نهر السنغال الأدنى ـ في فوتا تورو أو فوتا السنغالية[١]ـ وازدهرت هذه الدولة لفترة قصيرة.

إن أول من ذكر هذه الدولة من المؤرخين والجغرافيين المسلمين أبوعبيد البكري في القرن (٥هـ/ ١١م)، ومن بعده الإدريسي في القرن (٦هـ/ ١٢م) وابن سعيد والقزويني في القرن (٧هـ/ ١٣م) والدمشقي في القرن (٨هـ/ ١٤م). ونص البكري[٢] هو «.. ويلي مدينة صنغانة مابين الغرب والقبلة على النيل مدينة تكرور، أهلها سودان..».

ودخل الإسلام هذه الدولة في وقت مبكر نتيجة للعلاقات التجارية التي ذكرناها، وذلك منذ القرن الخامس الهجري، وأول من اشتهر من ملوكهم المسلمين هو واركعابي بن رابيس المتوفى سنة ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م.[٣]

وقامت هذه الدولة بنشر الإسلام في المناطق المجاورة مثل مدينة سلى، لا سيما في عهد وارجابي[٤]. ويؤكد الإدريسي[٥] هذه الحقيقة، ويضيف إلى

---

(١) قداح، مرجع سبق ذكره، ص٤٠. The Sequ Turkulor Empire, op. cit., p. 7.
ريمون فيرون: الصحراء ـ ترجمة د. جمال الدين الدناصوري، ص٨٢.
دائرة المعارف الإسلامية، مادة تكرور.

(٢) المغرب، مصدر سبق ذكره، ص١٧٢.

(٣) المكان نفسه.

(٤) المكان نفسه.

(٥) نزهة المشتاق، مصدر سبق ذكره، ص٢٨.

ذلك بان مدينة سلى ذاتهــا كانت من أملاك ملك التكرور في الفتــرة التي كتب فيــها. وذلك في قولــه: «. . . ومن جزيرة أوليل إلى مدينة ســلى ستة عــشر مــرحلة. . وهي مدينة حــاضــرة وبها مــجتــمع الســودان. . وهي من عمــالة التكروري، وهو سلطان موسر وله عبيد وأجناد وله حزم وجلادة وعدل مشهور وبلاده آمنة وادعة ومواضع مستــقرة. والبلد الذي هو موطنه هو مدينة تكرور. ومدينة تكرور أكبر من مــدينة سلى وأكثر تجارة» ويزيد ابن سعيــد الأمر تأكيدا ووضوحا عندما يذكر إسلام التكرور ومــدنهم واستقلالهم، فيقول: «. . وأول ما يــلقاك على غــربي النيل من مدائن التكرور مــدينة قلنبــوا وهي مشــهورة. وكانت في زمن أبي عــبيد البكــري للكفار. وأما في عــصرنا فمــا على شاطئ النيل من بلاد التكرور مــدينة إلا وقــد دخلها الإســلام، وجــميــعهــا لسلطان التكرور، وقاعدتها على جانبي النيل اسمها تكرور فيما عرفوا. . .».[1]

ويطلق الاسم تكرور على الشعب والبلاد والعاصــمة كما هو واضح من النصوص السابقــة ومن نص ياقوت الحموي[2]، الذي يقول: «بلاد تنسب إلى قبــيل من السودان في أقــصى جنوب المغرب، وأهلــها أشبــه الناس بالزنوج»، ونص الدمشقي[3]: «وأما السودان فطوائــف كثيرة ونبدأ منهم بمكــان مساكنهم والواغلة فــي الجنوب، ويطلق علــيــهم التــكرور. وليس هذا الاسم مــــا يعم طوائفهم وإنما يطلق على طائفــة منهم يسكنون بلدا يسمى بهذا الاســم»، وغير ذلك من نصوص أخرى لآخرين.[4]

(١) بسط الأرض في الطول والعرض، مصدر سبق ذكره، ص٢٤.

(٢) معجم البلدان، جـ٥، مصدر سبق ذكره، ص٣٨.

(٣) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مصدر سبق ذكره، ص٢٦٧.

(٤) المصدر نفسه، ص١٩، ١١٠؛ الفوتي: تعريف العشائر والخلان بشعوب وقبائل الفلان، ص٤.

وعلى الرغم من أن الإسلام قد دخل هذه البلاد في وقت مبكر، وإسلام ملكها منذ القرن الخامس الهجري، فإن ذلك لم يعن إسلام جميع الناس. فقد لاحظ القزويني[1] (ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) أن أهل تكرور مسلمين وكفار، وأن الملك فيها كان للمسلمين.

وتذكر المصادر أن هذه الدولة التكرورية المستقلة أسهمت مع المرابطين في إسقاط دولة غانة الوثنية التي عاصرت دولة تكرور.[2]

استمرت هذه الدولة مستقلة إلى أن امتصتها دولة مالي الإسلامية حوالي القرن الثامن الهجري (١٤م)[3]. وظلت خاضعة لمالي حتى القرن العاشر الهجري (١٦م)، عندما انتقلت القوة السياسية في المنطقة إلى الفولانيين تحت أسرة سلتيجي كولي.[4] وظل الأمر في يد هذه الأسرة إلى أن أسقطها سليمان بال في ثورته سنة ١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م، وقامت دولة إمامية[5] برئاسة عبدالقادر حمادي[6] بعد موت بال. واستمرت الإمامية بعد الشيخ عبدالقادر، إلا أن السلطة الحقيقية ظلت في يد العشائر المحلية[7]، إلى أن دهمها الاستعمار الفرنسي في نهاية القرن (١٩م/ مطلع ١٤هـ).

لقد قطن منطقة تكرور خلال تاريخها الإسلامي الطويل مجموعتان رئيستان من البشر، تجمعهما لغة مشتركة: إحداهما زراع من البدو، ذوو بشرة فاتحة، يعرفون الآن بالفولاني، والمجموعة الأخرى حضرية ذات أصول

---

(١) آثار البلاد، مصدر سبق ذكره، ص٢٥.

(٢) دائرة المعارف، مادة تكرور. The Cambridge Hist. of Isl., op. cit. p. 347

(٣) The Seq. Tukulor Enpire, op. cit. p. 8.

(٤) Loc. cit.

(٥) نعني بذلك أن رئيسها لقبه «الإمام».

(٦) انظر: تعريف العشائر، ص٦.

(٧) The Seq, op. cit. pp. 9-10.

عنصرية مختلطة، ولكن العنصر الرئيس هو الزنجي، وهم سود ويسمون الآن بـ«التوكولور» أي شعب تكرور».[1]

أصبح التحديد الجغرافي الدقيق لمنطقة تكرور يختفي رويدا رويدا بعد قيام الدول الإسلامية الكبري في غربي إفريقية مثل مالي وسنغي والهوسا والبرنو.

فالكتاب المتأخرون بدؤوا يطلقون اللفظ «تكرور» على دولة مالي،[2] على الرغم من أن منسا موسى (ت٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م) كان يأنف من ذكر لقب «ملك التكرور» لأن التكرور إقليم من أقاليمه، والأحب إليه أن يقال «صاحب مالي» لأنه الإقليم الأكبر، وهو به أشهر.[3]

وتابع الكتاب المحليين بغربي إفريقية رصفاءهم الآخرين من خارج المنطقة في إطلاق الاسم تكرور معمما أيضا. فالسعدي[4] يقول عن سنغي: «.. ثم أرسل السلطان مولاي أحمد الشريف الهاشمي رسوله إلى آسكيا الحاج بهدايا عجيبات وقصده في ذلك الاطلاع على حال بلاد التكرور..».

ويذكر أيضا صاحب الفتاش[5]، أن آسكيا الحاج محمد قد نصبه مولاي العباس خليفة على أرض التكرور، وهو يعني بذلك بلاد سنغي التي كانت تشمل منطقة غانة وتكرور ومالي،[6] وتابعهما التنبكتي[7] في ذلك وفي مثل قوله: «أبوالثناء وأبوالمحاسن عالم التكرور وصالحها ومدرسها».

وجاء من بعد ذلك من أطلق الاسم تكرور على كل منطقة غربي

---

(١) بسط الأرض ص٢٤ .The Cambridge Hist., op. cit., p. 374

(٢) انظر: ابن الوردي، جـ٢، مصدر سبق ذكره، ص٢٧٥.

(٣) مسالك الأبصار، ص٤٩٤.

(٤) تاريخ السودان، ص١٢٠.

(٥) تاريخ الفتاش، ص١٦.

(٦) انظر: المصدر نفسه، ص٣٩.

(٧) النيل، و٣٢٣، ١٣٥.

إفريقية، فالسلطان بللو يؤلف كتابا كاملا يسميه «إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور». ويجعل باغرمي ووادای ودارفور من بلاد التكرور.[١] ويسمى البارتلي والوالاتي كتابه بـ«فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور» وهو يعني أيضا كل غربي إفريقية.

وهكذا تدرج الاسم من خاص إلى عام، وأصبحت كلمة تكروري تطلق على كل وافد من منطقة غربي إفريقية حتى دارفور.

أما ما يعنيه الاسم تكرور فقد تباينت آراء المؤرخين حوله. تقول لوجارد[٢] بأن المعنى اللغوي يعني «أسود». وذهب بوركهارت[٣] مذهبا آخر حين قرر أن إطلاق هذا الاسم على الوافدين من غربي إفريقية لا يعني قدومهم من بلد بهذا الاسم، ولكنه مشتق من الفعل تكرر، أي تنقى، وبمعنى أن مشاعرهم الدينية تنقت وتطهرت بحفظ القرآن والحج، ويبدو أنه قد اشتط في هذا التفسير، ولم نجد له سندا من المصادر الأصيلة.

والكلمة «توكولور» Tukulor تحريف بسيط لكلمة «تكرور»، وتنطق بهذا قبائل الولوف التي تقطن المجرى الأدنى لنهر الكنغو.[٤] أما في المشرق الإسلامي فقد حرفت كلمة تكرور أيضا، فمنهم من يقول للمفرد «تكروني»، وللجمع تكارين «بدلا من تكروري وتكاررة[٥]، بل منهم من يقول: «دكروري» ويجمعها «دكارير».[٦]

---

(١) انظر: إنفاق الميسور، ص٢٩.

(٢) Tropical Dependency, op. cit., p. 115.

(٣) رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان، مصدر سبق ذكره، ص٣٢١.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية، مادة تكرور.

(٥) انظر: ألفا هاشم الفوتي: تعريف العشائر والخلان بشعوب وقبائل الفلان، مكة ١٣٥٤هـ، الناشر: المطبعة الماجدية، ص٤.

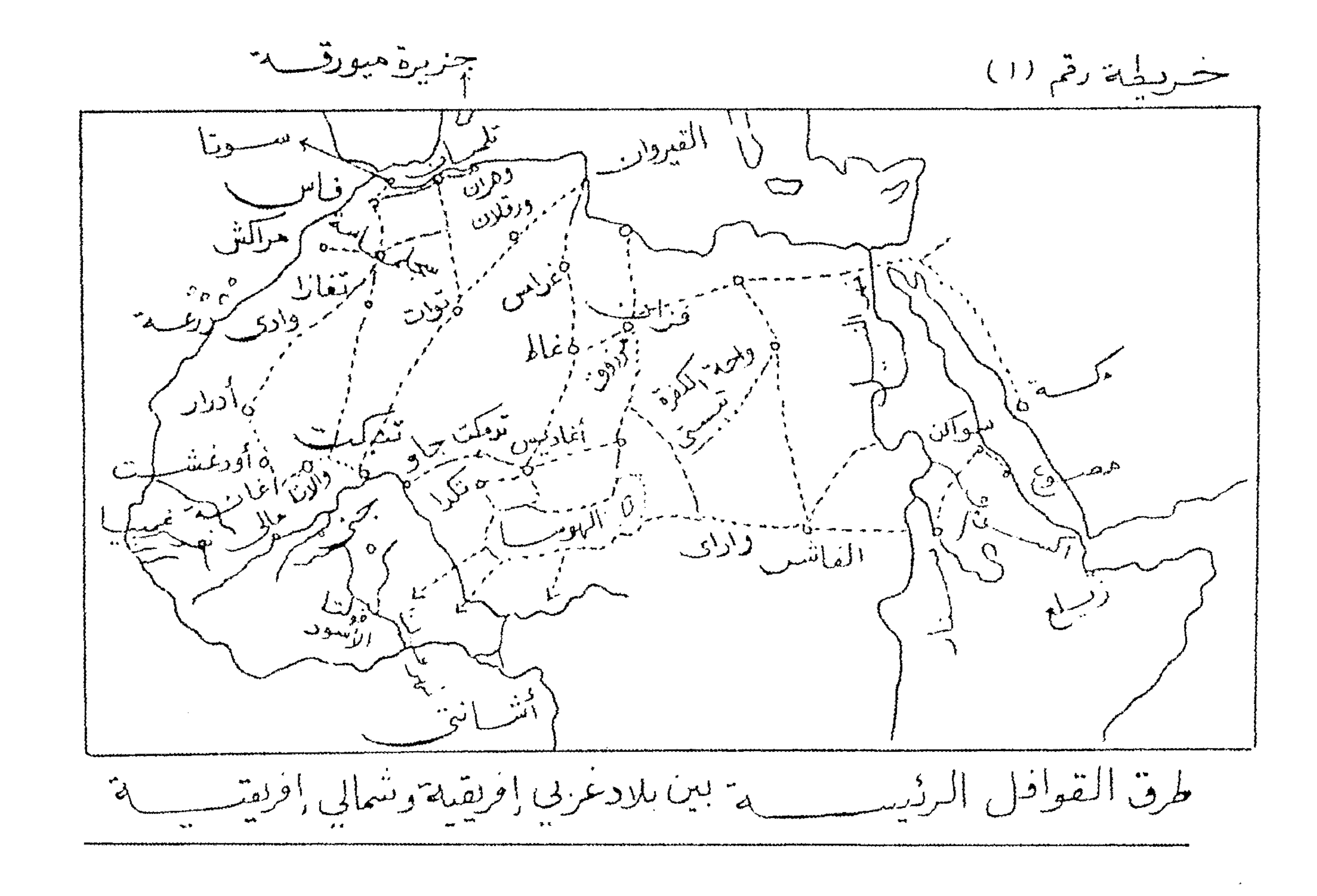
(٦) خاصة في مصر، مثل قولهم «بولاق الدكرور».

ويفرق الناس اليــوم في غربي إفريقية بين من هــو فولاني أو فلاتي ومن هو هوساوي أو تــكروري. أما عامــتنا في المشرق فـيطلقون على الكــل كلمة تكروري. وقرنت الكثـير من المؤلفات هـذه الصفة بكل مَن هو غــربي إفريقي مثل: عنبر التكروري وصبيح التكروري وفاتح التكروري. . . إلخ.



ملحق الخرائط

خريطة رقم (١)

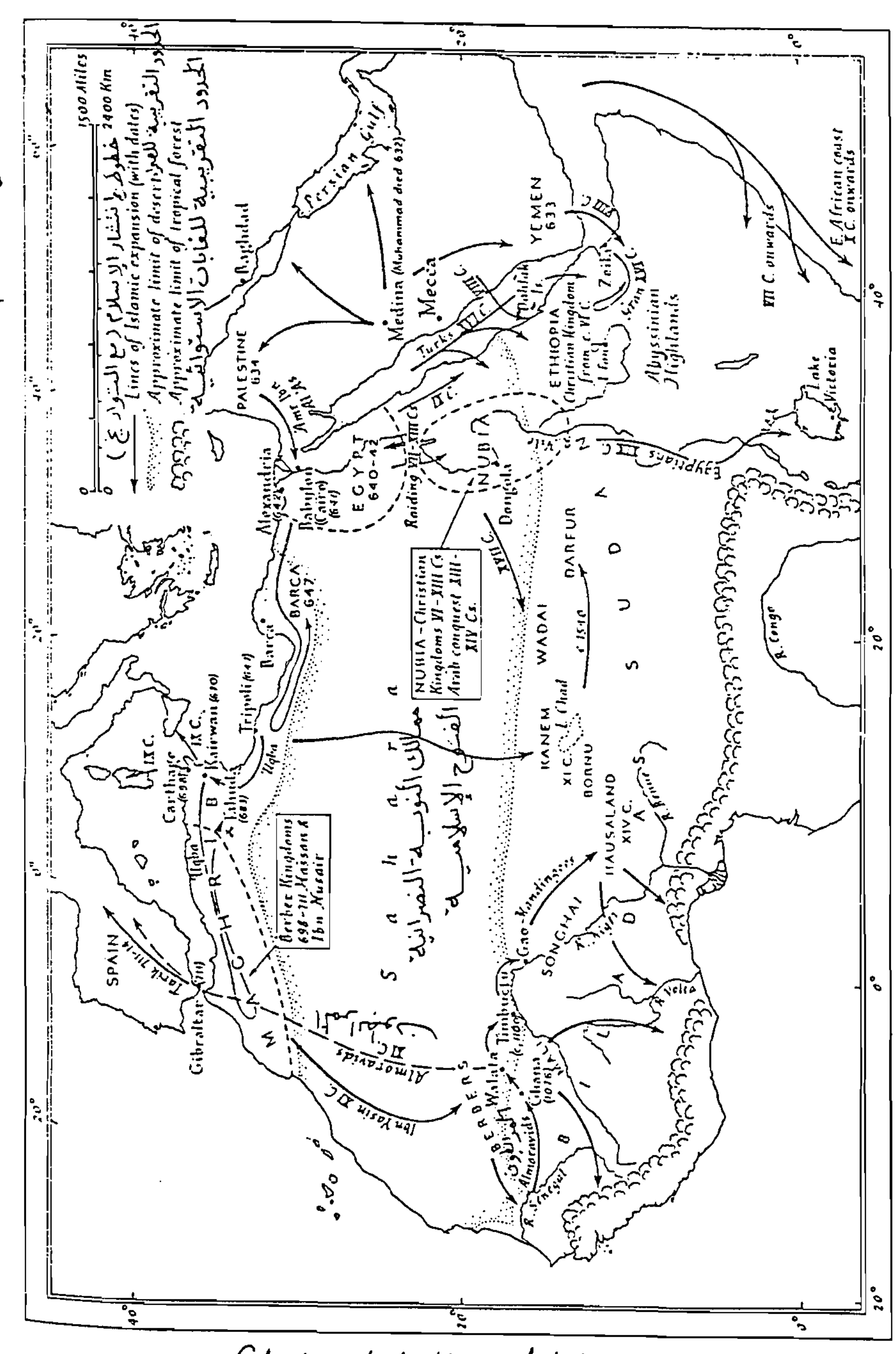


طرق القوافل الرئيسية بين بلاد غربي إفريقية وشمالي إفريقية

خريطة رقم (٢)

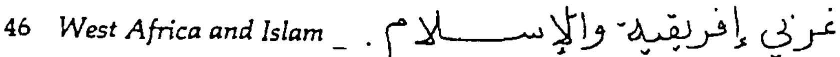
أهم دول غرب إفريقية في القرن الثامن الهجري (١٤ م .)

خريطة رقم (٣)



نقلاً عن : Clarke : West Africa & Islam , P. 9.

Penetration of Islam (تسرب الإسلام)

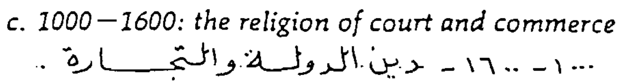


خريطة رقم (٤)

دول السودان (غربي إفريقية) في القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

States of the Sudan in the 14th and 15th centuries

نقلاً عن : P.B. Clarke : West Africa and Islam , P. 46 .



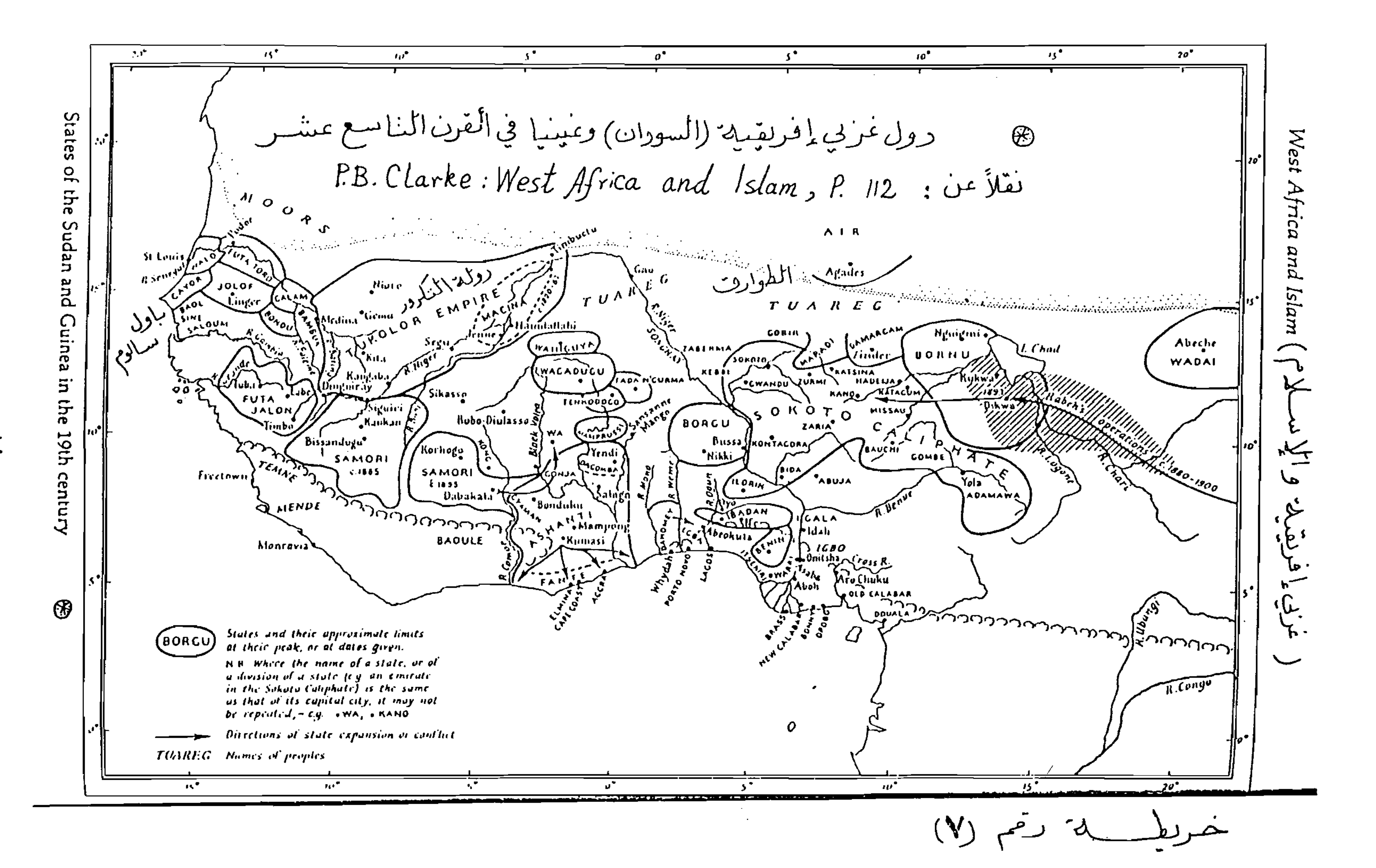
خريطة رقم (٥)

States of the Sudan in the 16th century. دول السودان (غربي إفريقية) في القرن ١٦م

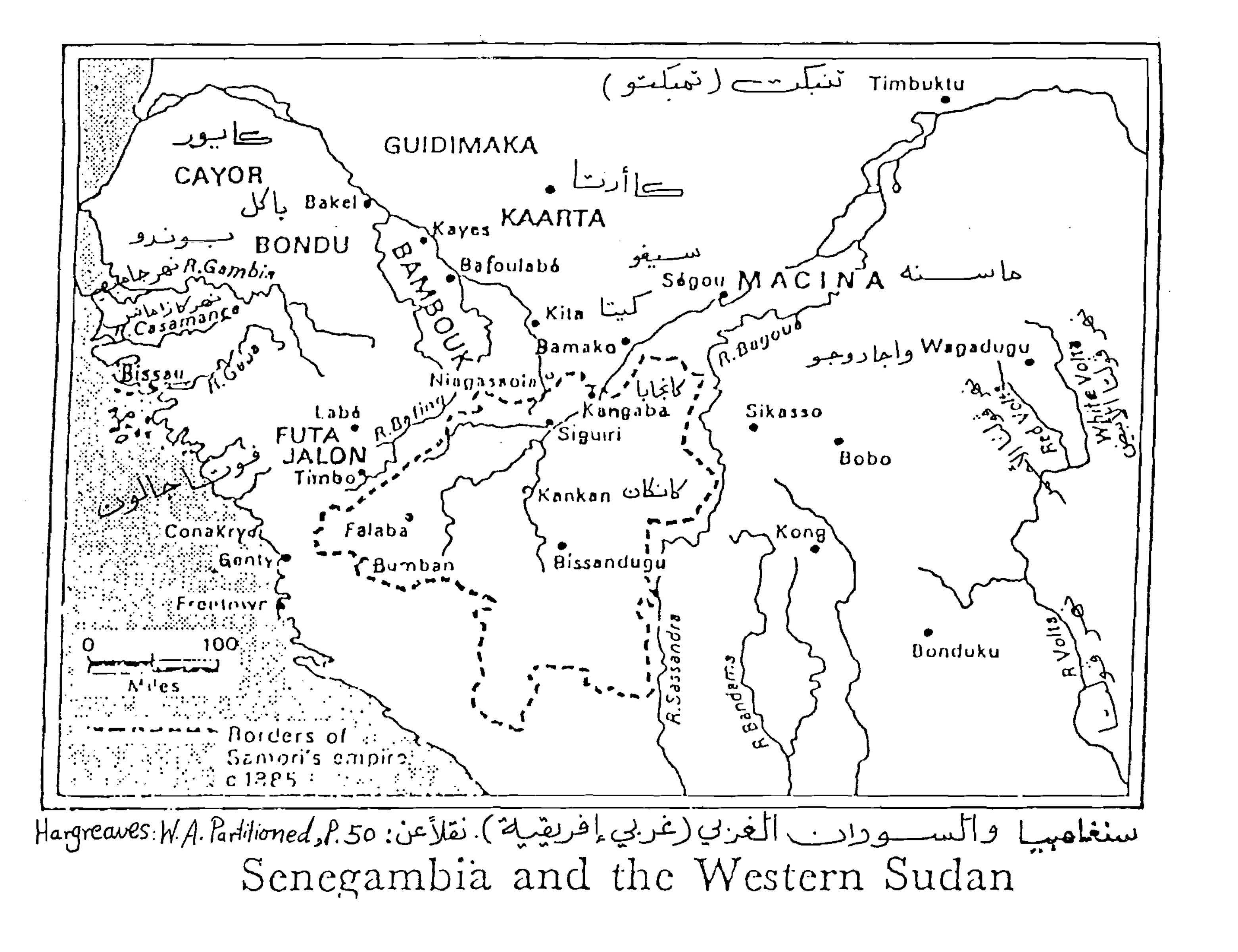
نقلاً عن : Clarke : West Africa & Islam , P. 51

خريطة رقم (٦)

غربي إفريقية في القرون: السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر. نقلاً عن تاريخ الفتاش، ص ٢٦٥ من النص الفرنسي

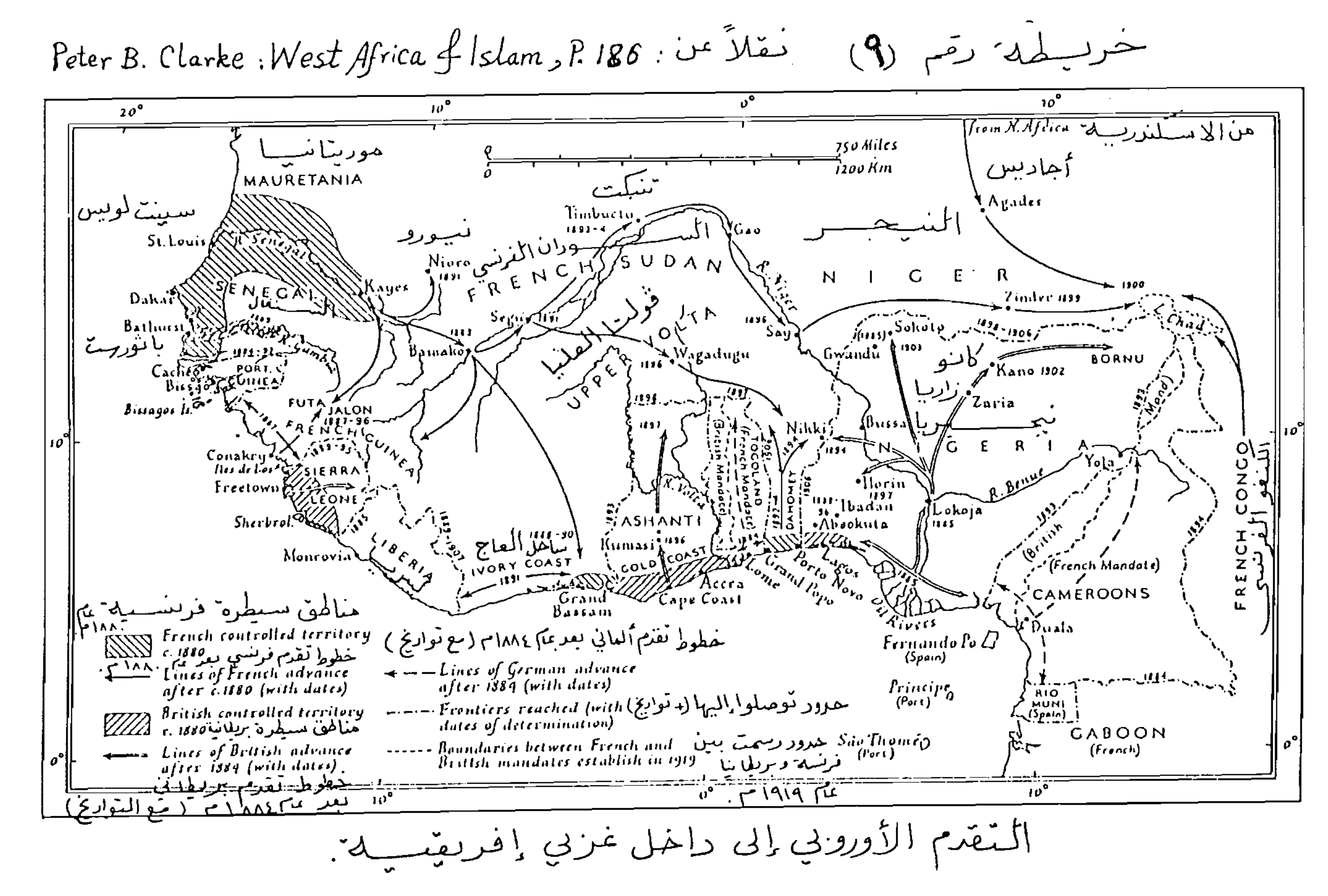


States of the Sudan and Guinea in the 19th century



Hargreaves: W.A. Partitioned, P.50 : سنغامبيا والسودان الغربي (غربي إفريقية). نقلاً عن

Senegambia and the Western Sudan



European advance into West Africa

خريطة رقم (١٠)

⊛ غربي إفريقيه المستقلة

⊛ Independent West Africa



مصادر ومراجع[1] الكتاب

(١) بعض المراجع التي ذكرتها في الحواشي لم نثبتها هنا لأنها وردت مرة أو مرتين.

أولا ـ المخطوطات والمصورات :

١ ـ أحمد بابا التنبكتي : (أبوالعباس) (٩٦١-١٠٣٧هـ/ ١٥٥٣ـ١٦٢٧م)

نيل الابتهاج بتطريز الديباج. مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ١٣١٥، ١٩٧١م تاريخ.

٢ ـ أحمد بابا التنبكتي

كفاية المحتاج لمن ليس في الديباج، مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية ـ جامعة الدول العربية، رقم ٧٦٥ تاريخ.

٣ ـ الدرجيني : (أبو العباس أحمد. ت. منتصف القرن السابع الهجري)

طبقات الإباضية، جزآن ـ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٦١٢ تيمور ١٢٥٦١ح.

٤ ـ عبدالله بن فودي

إيداع النسوخ في من أخذت عنه من الشيوخ. مخطوط بكلية عبدالله بايرو ـ جامعة أحمد بلّو ـ رقم ١٣٥.

٥ ـ العمري: (شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ـ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٦٨ تاريخ، معارف عامة ٥٥٩.

٦ ـ الوسياني : (أبوالربيع سليمان بن عبدالسلام بن حسان بن عبدالله الوسياني، ت ٤٧١هـ/ ١٠٧٨م)

مختصر تاريخ الإباضية، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٩١١٣ح.

ثانياً ـ كتب عربية مطبوعـة :

٧ ـ القرآن الكريم.

٨ ـ آدم متز

الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجـري، ترجمة محمد عبدالهادي أبوريدة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م.

٩ ـ آرنولد (السير توماس)

الدعوة إلى الإسلام، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم والدكتور عبدالمجيد عابدين والدكتور النحراوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

١٠ ـ إبراهيم حركات:

المغرب عبر التاريخ. دار السلمي، الدار البيضاء ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

١١ ـ إبراهيم العدوي : (دكتور)

المجتـمع المغربي ـ مـقومـاته الإسلامـية والعربيـة. الأنجلو المصرية، الـقاهرة، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

١٢ـ أبوالعرب (محمد بن أحمد بن تميم التميمي)

طبقات علماء إفريقية، طبعة ابن أبي شنب، الجزائر ١٣٣٤هـ/ ١٩١٥م.

١٣ـ أبوالفداء (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر، ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)

تقويم البلدان، باريس ١٢٦٧هـ/ ١٨٥٠م.

١٤ـ أحمد أمين : (دكتور)

ضحى الإسلام، جـ٢، ط٧. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

١٥ـ أحمد بك النائب

المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، بيروت من دون تاريخ.

١٦ـ أحمد شلبي (دكتور)

تاريخ التربية الإسلامية. مكتبة النهضة المصرية، ط٤، القاهرة ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

١٧ـ أحمد شلبي (دكتور)

موسوعة التاريخ الإسلامي، جـ١ ـ مكتبة النهضة المصرية، ط١، القاهرة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

١٨ـ أحمد فؤاد الأهواني (دكتور)

التربية في الإسلام، دار المعارف القاهرة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

١٩ـ أحمد فؤاد بليغ

عبدالرحمن السعدي، عصره ـ وكتابه «تاريخ السودان»، مقال بالمجلة التاريخية المصرية، المجلد العشرون ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

٢٠ ـ أحمد مختار العبادي (دكتور)

الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين، مقال في مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية، العدد ٢١، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

٢١ ـ أحمد مختار عمر (دكتور)

النشاط الثقافي في ليبيا ـ من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر التركي، مطبوعات الجامعة الليبية ـ كلية التربية ـ ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

٢٢ ـ الإدريسي (محمد بن عبدالعزيز الشريف ـ ت٥٦٤هـ/ ١١٦٨م)

المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ليدن ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م.

٢٣ ـ الإدريسي

نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمداين والآفاق ـ طبع حجر.

٢٤ ـ أسماء فهمي

مبادئ التربية الإسلامية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٧م.

٢٥ ـ إسماعيل رأفت

التبيان في تخطيط البلدان، مطبعة محمد محمد مطر الوراق الجمزاوي، القاهرة ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م.

٢٦ ـ الأصطخري (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد ـ ت في النصف الأول من الق ٤هـ/ نحو النصف الأول من الق ١٠م).

مسالك الممالك، مطبعة بريل، ليدن ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

٢٧ ـ الأفراني (سيدي محمد الصغير بن محمد بن عبدالله المراكشي)

صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، طبعة حجرية، فاس.

٢٨ ـ ألفا هاشم الفوتي (محمد بن أحمد)

تعريف العشائر والخلان بشعوب وقبائل الفلان، المطبعة الماجدية مكة ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م.

٢٩ ـ الألوري (آدم عبدالله)

موجز تاريخ نيجيريا، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

٣٠ ـ أوليفر وفيج (رولاند أوليفر وجون فيج)

تاريخ إفريقية، ترجمة الدكتورة عقيلة محمود رمضان ـ الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٣١ ـ الباجي (عبدالله الشيخ محمد الباجي المسعودي)

الخلاصة النقية في أمراء إفريقية مطبعة الدولة التونسية، تونس ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م.

٣٢ ـ البخاري (محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، ت ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م.

الجامع الصحيح، شرح الكرماني

٣٣ ـ بدوي عبداللطيف عوض (دكتور)

تقويم جامعة الأزهر في أربع سنوات ١٣٨٨ ـ ١٣٩٢هـ/ ١٩٦٨-١٩٧٢م. دار المعارف، القاهرة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

٣٤ ـ برنارد لويس

العرب المسلمون في إفريقية ـ من سلسلة فجر التاريخ الإفريقي ـ الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، د. ت.

٣٥ ـ بشكوال (أبو القاسم خلف الله بن عبدالملك ت٥٧٨هـ/ ١١٨٢م

الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، تصوير جامعة الدول العربية، نشر وتصحيح ومراجعة السيد عزت العطار الحسيني، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

٣٦ ـ ابن بطوطة (أبوعبدالله محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)

تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، طبعة كتاب التحرير الأعداد ١٦٦ إلى ١٦٧، القاهرة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

٣٧ ـ البكري (أبوعبيد عبدالله بن عبدالعزيز ـ ت ٤٩٦هـ/ ١١٠٢م)

المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ـ جزء من كتاب المسالك والممالك. راندوم، الجزائر ١٢٧٤هـ/ ١٨٥٧م.

٣٨ ـ البكري

معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ـ تحقيق مصطفى السقا، ط١. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٥م.

٣٩ ـ بل (الفريد)

دائرة المعارف الإسلامية، م١، جـ٧٣، كتاب الشعب، مادة «تلمسان».

٤٠ ـ بلّو (الإمام محمد بللو بن عثمان بن فودي ـ ت ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م

إنفـاق الميـسـور في تاريخ بلاد الـتكرور. وزارة الأوقـاف المصـرية، القـاهرة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٤١ ـ بوركهارت (جون ليوس)

رحلات بوركـهات في بلاد النوبة والسـودان ـ ترجمـة فؤاد أندراوس. مطبـعة المعرفة، القاهرة ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م.

٤٢ ـ بوفل

الممالك الإسـلامية في غـربي إفريقية وأثرها في تجـارة الذهب عبر الصـحراء، ترجمة زاهر رياض. الأنجلو المصرية، القاهرة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

٤٣ ـ التجاني (أبو محمد عبدالله بن محمد بن أحمد)

رحلة التجاني، تونس ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م

٤٤ ـ التونسي (خيرالدين)

أقـدم المسالك في مـعرفـة أحوال الممـالك، مطبـعة الدولة التـونسيـة، تونس ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م.

٤٥ ـ التونسي (محمد بن عمر)

تشحيـذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، تحـقيق الدكتورين خليل عـساكر ومصطفى مسعد. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر القاهرة ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

٤٦ ـ الجبرتي (عبدالرحمن بن حسن الجبرتي ت نحو ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٤م)

عجائب الآثار في التراجم والأخبار، مصر ١٢٩٧هـ/ ١٨٩٧م.

٤٧ ـ ابن جبير (محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي ت٦١٤هـ/ ١٣١٧م)

رحلة ابن جـبيـر، تحقيق الـدكتور حـسين نصار. دار مـصر للطـباعة القـاهرة ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

٤٨ ـ جواد علي (دكتور)

تاريخ العرب قبل الإسلام، المجمع العلمي العراقي، القاهرة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

٤٩ ـ جورجي زيدان

تاريخ آداب اللغة العربيـة ـ جـ٣، مراجعة وتعليق الدكتـور شوقي ضيف ـ دار الهلال، القاهرة ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م.

٥٠ ـ جونـز (هـ. د)

شعوب ممالك السودان الأوسط (من سلسلة فجر التاريخ الإفريقي)

٥١ ـ جوليان (شارل أندريه)

تاريخ إفريقية (ترجمة طلعت عوض أباظة)، مصر ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م

٥٢ ـ جينتز (جون)

داخل إفريقية، جـ١ .

٥٣ ـ ابن حجر (شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني ـ ت٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م.

الدرر الكامنة في أعيـان المائـة الثامنة (تحـقيق جاد الحق)، مـصر سنة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

٥٤ ـ حسن إبراهيم حسن (دكتور)

انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مصر ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٥٥ ـ حسن إبراهيم حسن (دكتور)

انتشـار الإسلام والعروبة فيـما يلي الصحراء الكبـرى وشرقي القارة الإفريـقية وغربيها. مصر ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م. مطبوعات معهد الدراسات العربية.

٥٦ ـ حسن إبراهيم حسن (دكتور)

تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، جـ٤، مصر ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

٥٧ ـ حسن أحمد محمود (دكتور)

الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، مصر ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

٥٨ ـ حسن أحمد محمود (دكتور)

المرحلة الإفريقية من تاريخ المرابطين، مقال في المجلة التاريخية المصرية، المجلد١٢، ١٣٨٤-١٣٨٥هـ/ ١٩٦٤- ١٩٦٥م.

٥٩ ـ حسن أحمد محمود (دكتور)

قيام دولة المرابطين، مصر ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م.

٦٠ ـ حسن أحمد محمود (دكتور)

دور العرب في نشر الحضارة في غربي إفريقية، مقال في المجلة التاريخية المصرية، المجلد١٤، سنة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

٦١ ـ حسن حسني عبدالوهاب

ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، تونس ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

٦٢ ـ حسين أمين (دكتور)

المسجد، المعهد الأول للتعليم عند المسلمين، مقال في مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد ٢٢، سنة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

٦٣ ـ ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي، ت ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م).

صورة الأرض. مكتبة الحياة، بيروت، د. ت.

٦٤ ـ حيدر خوجلي

أبوعبيد البكري ـ حياته وآثاره العلمية ـ رسالة ماجستير غير منشورة آداب جامعة القاهرة، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

٦٥ ـ ابن الخطيب (الوزير الغرناطي محمد لسان الدين ـ ت ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م

الإحاطة في أخبار غرناطة، ط١، مطبعة الموسوعات، القاهرة ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م.

٦٦ ـ خفاجي (الدكتور محمد عبدالمنعم)

الأزهر في ألف عـام، ٣ أجزاء، المطبعـة المنيرية بالأزهر، القـاهرة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م.

٦٧ ـ ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد ـ ٨٠٩هـ/ ١٤٠٥م)

العـبر وديوان المبـتـدأ والخبـر ـ سبـعـة أجزاء ـ دار الكتـاب اللبناني، بيـروت ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م.

٦٨ ـ ابن خلدون

التعريف بابن خلدون، ورحلته غربا وشرقا، تحقيق محمد بن ثاويت الطنجي. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٧هـ/ ١٩٥١م.

٦٩ ـ ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨م.

٧٠ ـ الدباغ (عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله ـ ت ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م)

معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، المطبعة العربية التونسية، تونس ٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م.

٧١ ـ دبوز (محمد علي)

تاريخ المغـرب الكبـيـر، ٣ أجـزاء، ط١ طبـعـة الحلبي، القـاهرة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

٧٢ ـ دلافوس، م

دائرة المعارف الإسلامية، م١٠، جـ٧٣، كتاب الشعب، مادة تكرور.

٧٣ ـ الدمشقي (شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي طالب ت٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م)
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر. يطلب من مكتبة المثنى، ليبزج، ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م.
٧٤ ـ ديشان (هوبير)
الديانات في إفريقية السوداء، ترجمة أحمد صادق حمدي، دار الكتاب المصري، القاهرة ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م.
٧٥ ـ ديفدسون (بازل)
إفريقية القديمة تكتشف من جديد، ترجمة نبيل بدر وسعد زغلول، سلسلة من الشرق والغرب، العدد ٣٩ ـ الدار القومية للنشر والترجمة والطباعة، القاهرة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.
٧٦ ـ دنيس بولم
الحضارات الإفريقية، ترجمة علي شاهين، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٣م.
٧٧ ـ ابن أبي دينار (أبو عبدالله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني ـ ت نحو ١١١٠هـ/١٦٩٨م)
المونس في أخبار إفريقية وتونس، ط١، طبعة الدول التونسية تونس ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م.
٧٨ ـ ابن رستة (أبو علي أحمد بن عمر)
الأعلاق النفيسة، ليدن ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.
٧٩ ـ الرقيق القيرواني (القرن ٥ هـ/ ١١م)
تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي. الثائر: رفيق السقطي، تونس ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

٨٠ ـ روجيه لوتورنو

فاس في عصر بني مرين، ترجمة نقولا زيادة، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت ـ نيويورك ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

٨١ ـ زاهر رياض

تاريخ غانة الحديث، ط١ دار المعرفة، القاهرة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م

٨٢ ـ زبادية (الدكتور عبدالقادر)

مملكة سنغاي في عهد الأسيقيين، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

٨٣ ـ ابن أبي زرع (علي بن محمد الفاسي ـ ت ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م)

الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، جـ١، تحقيق محمد الهاشمي الفيلالي. المطبعة الوطنية، الرباط ١٢٥٢هـ/ ١٩٣٦م.

٨٤ ـ الزركلي (خير الدين)

الأعلام، الطبعة الثالثة، بدون ناشر، القاهرة، د. ت.

٨٥ ـ زكي محمد حسن (دكتور)

الرحالة المسلمون في العصور الوسطى. دار المعارف، القاهرة ١٢٦٢هـ/ ١٩٤٥م.

٨٦ ـ السخاوي (شمس الدين محمد بن عبدالسلام، ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م.

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. مكتبة القدسي، القاهرة ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م.

٨٧ ـ سر الختم عثمان (دكتور)

العلاقات بين مصر والسودان في العصور الوسطى بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر الميلاديين، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب القاهرة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

٨٨ ـ سعد زغلول (دكتور)

تاريخ المغـرب العربي، مـن الفتح العـربي حـتى قيـام الأغالبـة والرسـتمـيين والأدارسة. دار المعارف، القاهرة ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

٨٩ ـ السعدي (عبدالرحمن بن عبدالله بن عمران بن عامر ـ بعد سنة ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٥م).

تاريخ السودان، نشر هوداس وينوا، باريس ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م.

٩٠ ـ ابن سعيد المغربي (علي بن موسى ـ ت ٦٧٣هـ/ ١٢٧٥م)

بسط الأرض في الطول والعـرض، تحـقيـق الدكتـور خـوان قرنبط، مـطبعـة كريماديس، تطوان (المغرب) ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م.

٩١ ـ سويلم العمري (دكتور)

الإفريقيون والعرب. الأنجلو المصرية، القاهرة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

٩٢ ـ السيد عبدالعزيز سالم (دكتور)

المغرب الإسـلامي، الجزء الثاني ـ الدار القومـية للطباعة والنشـر، القاهرة ١٣٧٦هـ/ ١٩٦٦م.

٩٣ ـ سيكوتوري (أحمد)

إفريقيـة والثورة، ترجمة مجـموعة من الاختصـاصيين. المؤسسة المصـرية العامة للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

٩٤ ـ سيلا (عبدالقادر محمد سيلا)

المسلمون في السنغال ـ معالم الحاضر وآفاق المستقبل، سلسلة «كتاب الأمة»، ط٢ قطر، شوال ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

٩٥ ـ ابن سينا (ت ٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م)

كتاب السـياسة، مع مجموعـة من المقالات الفلسفية، ط٢، المطبـعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت ١٣٣٠هـ/ ١٩١١م.

٩٦ ـ السيوطي (جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر ـ ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)

حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مطبعة إدارة الوطن، القاهرة، ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٧م.

٩٧ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ط١. مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م.

٩٨ـ الجامع الصغير من حديث البشير النذير، ط١، مطبعة حجازي، القاهرة ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م.

٩٩ـ شريف محمد شريف (دكتور)

توطن العناصر الإفريقية الغربية بالسودان، مقال في مجلة كلية آداب جامعة القاهرة، المجلد ٢٤، الجزء الثاني، ١٣٨٢هـ/ مايو ١٩٦٢م.

١٠٠ـ شلبي (دكتور أحمد)

موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، جـ٦، النهضة المصرية، القاهرة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

١٠١ ـ الشمّاخي (أحمد بن سعيد بن محمد بن عبدالواحد ـ ت ٩٢٨هـ/ ١٥٢٢م)

كتاب السير، نشر الشيخ محمد بن يوسف الباروني النفوسي، الجزائر، د. ت)

١٠٢ ـ الشنقيطي (أحمد بن الأمين)

الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، المطبعة الجمالية، القاهرة ١٣٣٠هـ/ ١٩١١م.

١٠٣ ـ شيخو (أحمد سعيد فلادنت)

حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا من سنة ١٢١٩هـ/ ١٨٠٤م إلى ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

١٠٤ ـ صبحي لبيب (دكتور)

التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، مقال في المجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع، العدد الثاني، سنة ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م.

١٠٥ ـ ابن صود (ابن محمد بن الأمين، الق ١١هـ/ ١٧م)

تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان ـ نشر وترجمة هوداس باريس ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م.

١٠٦ ـ ود ضيف الله (محمد ضيف الله بن محمد الجعلي ـ ت ١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م

الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، تحقيق إبراهيم صديق، مطبعة محمود صبيح، القاهرة ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م.

١٠٧ ـ طرخان (الدكتور إبراهيم علي)

إمبراطورية غانا الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

١٠٨ ـ دولة مالي الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

١٠٩ ـ إمبراطورية البرنو الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

١١٠ ـ الإسلام واللغة العربية في غرب إفريقية، مقال في مجلة كلية آداب، جامعة القاهرة، المجلد ٢٧، سنة ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

١١١ ـ طيان

دائرة المعارف الإسلامية، م١٢، جـ٩٦، كتاب الشعب، مادة «جهاد».

١١٢ ـ ابن الطيب (أبوعبدالله محمد ـ ت ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م)

نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، طبع حجر.

١١٣ ـ عاشور (الدكتور سعيد عبدالفتاح)

العصـر المماليكي في مصـر والشام، دار النهـضة العربيـة، القاهرة ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

١١٤ ـ ابن عبدالحكم (عبدالرحمن بن عبدالله ـ ٢٥٧هـ/ ٨٧١م)

فتـوح إفريقـية والأندلس، تحقـيق وتقديم عـبدالله أنيس الطبـاع. دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

١١٥ ـ عبدالحميد بخيت (دكتور)

المجـتـمع العـربي والإسـلامـي، جـزءان. دار المعـارف، القـاهرة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

١١٦ ـ عبدالرحمن زكي (دكتور)

الإسلام والمسلمون في غربي إفريقية. مطبعة يوسف، القاهرة، د . ت

١١٧ ـ جمهورية نيجيريا الحديثة، مقال في مجلة المجلة، العدد ٤٧، السنة الرابعة، نوفمبر ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م.

١١٨ ـ المراجع العربية للتاريخ الإسلامي في غربي إفريقـية، بحث في مجلة الجمعية المصريـة التاريخـية، المحاضـرات العامـة، الموسم الثقـافي ١٣٨٧-١٣٨٨هـ/ ١٩٦٧-١٩٦٨م.

١١٩ ـ عبدالعزيز أمين عبدالمجيد (دكتور)

التربية فـي السودان من أول القرن السادس عـشر إلى نهاية القرن الثـامن عشر والأسس النفسية التي قامت عليها. وزارة المعارف العمومية، القاهرة ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩م.

١٢٠ ـ عبدالعزيز كامل (دكتور)

العروبة والحضارات الإفريقية في منظور جديد. معهد الدراسات والبحوث الاحصائية ـ مطبعة جامعة القاهرة، القاهرة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م

١٢١ ـ جغرافية الإسلام في إفريقية، القاهرة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م

١٢٢ ـ عبدالفتاح محمد وهيبة

جغرافية العرب في العصور الوسطى. معهد الدراسات الإفريقية، القاهرة ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م.

١٢٣ ـ عبدالله عبدالرازق إبراهيم (الدكتور)

الإسلام والحضارة الإسلامية في نيجيريا، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

١٢٤ ـ عبدالله الغنيم

مصادر البكري ومنهجه الجغرافي، القسم الأول، ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

١٢٥ ـ عبدالله كنون

النبوغ المغربي في الأدب العربي، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.

١٢٦ ـ عبدالمجيد عابدين (دكتور)

تاريخ الثقافة العربية في السودان: منذ نشأتها إلى العصر الحديث. مطبعة الشبكشي بالأزهر، القاهرة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م.

١٢٧ ـ عبده بدوي (دكتور)

مع حركة الإسلام في إفريقية. الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر والترجمة، القاهرة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م

١٢٨ ـ ابن العربي (علي حراز بن العربي راده المغربي الفاسي)

جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني، المطبعة الأزهرية، القاهرة ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م.

١٢٩ ـ عصمت دندش (عصمت هانم عبداللطيف علي دندش)

دور المرابطين في نشر الإسلام في غربي إفريقية، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد الدراسات الإفريقية القاهرة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

١٣٠ ـ علي أبو بكر (دكتور)

الثقافة العربية في نيجيريا، رسالة دكتوراه غير منشورة، آداب جامعة القاهرة، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

١٣١ ـ عمر رضا كحالة

معجم المؤلفين، مطبعة الترقي، دمشق١٣٧٧-١٣٧٨هـ/ ١٩٥٧-١٩٦١م.

١٣٢ ـ العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله، ت ٧١٨هـ/ ١٣١٨م)

التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م.

١٣٣ ـ عياض (أبوالفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي ـ ت ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م)

ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق الدكتور أحمد بكير محمود. دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت.

١٣٤ ـ الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، تحقيق السيد أحمد صقر. دار التراث، القاهرة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

١٣٥ ـ الغبريني (أبوالعباس أحمد بن أحمد، ت ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م)

عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية، تحقيق الأستاذ رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

١٣٦ ـ ابن غلبون (أبوعبدالله محمد بن خليل، ت بعد سنة ١١٣٣هـ/ ١٧٢٠م)

التذكـار فيمن ملك طرابلس ومـا كان بها من الأخيـار، تحقيق الأسـتاذ الطاهر أحمد الزاوي الطرابلسي. مكتبة النور، طرابلس ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

١٣٧ ـ ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني، الق ٣هـ/ ٩م)

مختصر كتاب البلدان، ليدن ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م.

١٣٨ ـ القاسمي (محمد جمال الدين)

قواعـد التحـديث من فنون مصطلح الحـديث، تحقـيق وتعليق محـمد بهـجة البيطار. دار احياء الكتب العربية ـ الحلبي، القاهرة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.

١٣٩ ـ ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري، ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م)

عيـون الأخبار، الطبعـة الأولى ـ مطبعة دار الكتب المصـرية، القاهرة ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م.

١٤٠ ـ قداح (نعيم)

إفريقية الغربية في ظل الإسلام، وزارة الثقافة والإرشاد القومي. مديرية التأليف والترجمة، كوناكري ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م.

١٤١ ـ القرطبي (أبوعمر يوسف بن عبدالبر النمري، ت٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م)

جامع بيان العلم وفـضله، تحقيق عبدالرحمن مـحمد عثمان. المكتبـة السلفية ـ السعودية، المدينة المنورة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

١٤٢ ـ القزويني (زكريا بن محمد بن محمود، ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م)

آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

١٤٣ ـ القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي، ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)

صبح الأعـشى في صناعة الإنشا، المجلد الخـامس والثاني، المطبعة الأمـيرية، القاهرة ١٣٣٤هـ/ ١٩١٥م.

١٤٤ ـ كابوراي

دائرة المعارف الإسلامية، م٦، جـ٤٣، كتاب الشعب مادة «بجرمي».

١٤٥ ـ كارده فو، ب

دائرة المعارف الإسلامية، م١٠، جـ٧٣، كتاب الشعب، مادة «تمبكتو».

١٤٦ ـ الكعاك (الدكتور عثمان)

مراكـز الثقافـة في المغرب من القرن الـسادس عشـر إلى القرن التاسع عـشر. مطبوعات معهد الدراسات العربية العليا، القاهرة ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م.

١٤٧ ـ الكعاك

البربر، ط١، تونس ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م.

١٤٨ـ كوابونج، أ. أ.

إفريقـية الشـماليـة في العصر القـرطاجني واليونانـي والروماني، سلسلة فـجر التاريخ الإفريقي. الدار القومية للطباعة والترجمة والنشر، القاهرة، د. ت

١٤٩ ـ لوبون (الدكتور غوستاف)

حضارة العرب، معرب، دار إحياء الكتب المصرية، القاهرة، د. ت.

١٥٠ ـ ماكدونالد، ل. ب

دائرة المعارف الإسلامية، م١٢، جـ٩٦، مادة «جهاد».

١٥١ ـ المالكي (أبو بكر عبدالله بن أبي عبدالله ـ ت ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م)

رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفـريقية، نشر الدكتور حسين مؤنس ـ مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٣٧١هـ/ ١٩٥١م.

١٥٢ ـ مجهول

الاستـبصار في عجـائب الأمصار، لكاتب مـراكشي من كتاب القـرن السادس الهجري، نشـره وعلق عليه الدكتور سـعد زغلول عبدالحمـيد ـ مطبعة جـامعة الإسكندرية، الإسكندرية ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م.

١٥٣ ـ المحبي (محمد أمين بن فضل الله، ت ١١١١هـ/ ١٦٩٩م)

خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، مكتبة خياط، بيروت، د. ت.

١٥٤ ـ محمد أسعد أطلس (دكتور)

التربية والتعليم في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م.

١٥٥ ـ محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي

الأدب المغربي، ط٢، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

١٥٦ ـ محمد عبدالرحيم غنيمة

مقدمة لتاريخ التعليم الجامعي في الإسلام، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب جامعة القاهرة (فؤاد الأول)، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م.

١٥٧ ـ محمود إسماعيل (دكتور)

أثر الخوارج في الحياة السياسية في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، رسالة دكتوراه غير منشورة، آداب جامعة القاهرة، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

١٥٨ ـ محمود رزق سليم

عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، المجلد الثالث، مكتبة الأدب بالجماميز، القاهرة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م.

١٥٩ ـ محمود عبدالرؤوف القاسم

الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

١٦٠ ـ ابن المختار هذا المصدر في طبعته المنشورة منسوب إلى القاضي محمود كعت (ت بعد سنة ١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤م)

تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار. نشر هوداس ودلافوس، مطبعة بردين، باريس ١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م.

١٦١ ـ ابن مخلوف (محمد بن محمد)

شجرة النور الـزكية في طبقات المالـكية. المطبعة السلفـية ومكتبتـها، القاهرة، ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م.

١٦٢ ـ ابن مريم (أبوعبدالله محمد بن محمد بن أحمد)

البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. نشر ابن أبي شنب، المطبعة الثعالية، الجزائر ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م.

١٦٣ ـ ابن مسكويه (أبو علي أحمد بن محمد، ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م)

تهذيب الأخـلاق وتطهير الأعراق. نشره مـحمد عبـدالقادر المازني، طبع إدارة الوطن، القاهرة ١٢٩٨هـ/ ١٨٨٠م.

١٦٤ ـ مصطفى محمد مسعد (دكتور)

الإسلام وحركات الفلان الإصلاحية في غرب إفـريقية. مقال في مجلة جامعة أم درمان الإسلامية، العدد الأول، سنة ١٩٦٨م.

١٦٥ ـ المغيلي (محمد بن عبدالكريم، ت ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م)

أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تقديم وتحـقيق الأستاذ عبدالقادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

١٦٦ ـ المقـدسي (شـمس الديـن أبي عـبـدالله بن أبي بكـر الشـامي المقـدسي ـ ت٣٨٠هـ/ ٩٩٠م.

أحسن التقاسيم لمعرفة الأقاليم ط٢، مطبعة بريل، ليدن ١٣٢٨هـ/ ١٩٠٩م.

١٦٧ ـ المقريزي (تقي ا دين أحمد بن علي، ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)

الخطط المقريزية، طبعة مطابع النيل، القاهرة ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م.

١٦٨ ـ الإلمام بأخـبار من بأرض الحـبـشة من ملـوك الإسلام، القـاهرة ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م.

١٦٩ ـ الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال. مكتبة الخانجي بمصر والمثنى ببغداد، القاهرة ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

١٧٠ ـ ابن الملقن (عمر بن علي بن أحمد بن محمد الوادي آشي التكروري (ت ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م)

طبقات الأولياء ومناقب الأصفياء، تحقيق وتقديم الأستاذ عبدالله الجبوري، نشر مجلة دعوة الحق، العدد الرابع، السنة الثالثة عشر، ١٣٩٠هـ/ ابريل ١٩٧٠م.

١٧١ ـ موني (Mouny)

دائرة المعارف الإسلامية، م١٢، جـ٩٦، كتاب الشعب، مادة «جني».

١٧٢ ـ النعيمي (عبدالقادر بن محمد الدمشقي، ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م)

الدارس في تاريخ المدارس، الجزء الثاني، نشر وتحقيق جعفر الحسني. مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ـ مطبعة الترقي، دمشق ٣٧١هـ/ ١٩٥١م.

١٧٣ ـ النفوسي (سليمان بن الشيخ عبدالله الباروني ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م)

الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية. مطبعة الأزهار البارونية، د ت.

١٧٤ ـ النيفر (الشيخ محمد، ت ٧٣١هـ/ ١٣٣٠م)

عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب، ط١، المطبعة التونسية، تونس ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م.

١٧٥ ـ هودكير (توماس)

ممالك السودان الغربي ـ ترجمة عبدالواحد الأمبابي ـ من سلسلة فجر التاريخ الإفريقي. الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، د ت.

١٧٦ ـ الواقدي (محمد بن عمر ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م)

فتوح إفريقية، ج١ المطبعة العمومية، تونس ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م.

١٧٧ ـ ابن الوردي (أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر بن عمر بن محمد، ت ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م)

تتمة المختصر في أخبار البشر. المطبعة الوهبية، القاهرة ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م.

١٧٨ ـ ويدنر (دونالد)

تاريخ إفريقية جنوب الصحراء ـ ترجمة راشد البراوي، مكتبة الوعي العربي، القاهرة، د ت.

١٧٩ ـ ياقوت الحموي (أبوعبدالله ياقوت الحموي ـ ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)

معجم البلدان، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

١٨٠ ـ يسري عبدالفتاح الجوهري (دكتور)

شمال إفريقية ـ دراسة في الجغرافية التاريخية. دار الجامعات المصرية، د ت.

١٨١ ـ يفر، ج

دائرة المعارف الإسلامية، م١٢، ج٩٦، كتاب الشعب، مادة «جني».

١٨٢ ـ دائرة المعارف الإسلامية، م٤، جـ٣٥، كتاب الشعب، مادة «أودغست».

١٨٣ ـ ابن يونس: (إبراهيم صالح بن يونس بن محمد الأول بن يونس)

تاريخ الإسلام وحياة العرب في إمبراطورية كانم برنو. شعبة أبحاث السودان ـ كلية الآداب جامعة الخرطوم ـ الخرطوم ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

ABBREVIATIONS

1) ANS (Archives Nationale du Senegal).

2) B.S.O.A.S. (Bulletin Of The School Of Oriental And African Studies, London).

3) K. C. (Kano Chronicle).

4) K. S. (Kano Studies).

5) J. A. H. (Journal of African History).

6) J. A. S. (Journal of the African society).

7) J. A. S. (Journal of African Studies).

8) J. H. S. N. (Journal of the Historical Sooiety of Nigeria).

9) J. R. A. S. (Journal of the Royal Asiatic Society).

10) S. N. R. (Sudan Notes and Records).

REFERENCES

1) AL- HAJJ, MUHAMMAD AHMAD: 'A Seventeenth Century Chronicle on the Origins and Missionary Activities of the Wangarawa, K. S, 1, 4, 1968.

2) AL-NAQAR, UMAR: The Pilgrimage Tradition in west Africa. Khartoum, 1972.

3) .....'Takrur - The History of a Name', J. A. H, X, 3, 1969.

4) ARKELL, A. J.: More about Fung Origins', S. N. R., XXVII, 1946.
.....'Darfur Antiquities - Ain Farah', S. N. R. XIX, 2, 1936.

5) BARTH,

6) BARROWS, D. P.: Berbers and Blacks - Impression of Morrocco, Timbictu and the Sudan. London, 1927.

7) BATRAN, A. A.: 'A Contribution to the Biography of Shaikh Muhammed Ibn' Abd- AL-Karim Ibn Muhammad AL-Maghili, AL-Tilmsani', J. A. H., XIV, 3, 1973.

8) BIVAR, A. D. H.: 'Arabic Documents of Northern Nigeria'. B.S.O. A.S., XXII, 2, 1959.

9) .....' The Wathigat Ahl AL-Sudan', J.A.H, II, 2, 1961.

10) ....., A.D.H. and HISKETT, M.:' The Arabic Literature of Nigeria to 1804: A Provisional Account', B.S.O.A.S., XXV, 1, 1962.

11) BOVILL, E.W.: Caravans of the Old Sahara, An Introduction to the History of the Western Sudan. Oxford, 1933.

12) BLYDEN, E.W.: Christianity, Islam and the Negro Race. Edinburgh, 1967.

13) BURCKHARDT, J.L.: Travels in Arabia. London, 1829.

14) BURNS, Sir A.: History of Nigeria, Sixth edition. London, 1963.

15) CHURCH, R.J.H.: West Africa, London, 1960.

16) CLARKE, PETER B.: West Africa and Islam - AStudy of Religious Develoment from the 8th to the 20th Century. Edward Arnold. London (1982).

17) COOLEY, W.D.: The Negro Land of the Arabs, London 1841.

18) CURTIN, P.D.:'Jihad in West Africa - Early phases and Inter-Relaions in Muritania and Senegal', J.A.H., XII, 1, 1971.

19) DAVIDSON, B.: The Lost Cities of Africa U.S.A., 1959.
20) DENHAM, Major, Clapperton, Captain, and The Late Dr. Oudney: Narrative of Travels and Discoveries in the Northern and Central Africa, in the Years, 1822 and 1826. London, 1826.
21) ELMASRI, F.H.:' The Life of Shehu Usuman Dan Fodio Before the Jihad', J.H.S.N., II, 4, 1964.
22) EWAN, P.J.M.: The Influence of the Mande. Oxford, 1969.
23) FAGE. J.D.: An Atlas of African History. Cambr., 1958.
.....: An Introcuction to the History of West Africa Cambr., 1959.
24) FISHER, H.: The Western and Central Sudan (The Cambr. History of Islam), Cambr., 1970.
25) GRUNEBAUM, G.E. Unity and Variaty in Muslim Civilization U.S.A., 1955.
26) HARGREAVES, JOHN D.: West Africa Partitioned, Volume I, The Loaded Pause, 1885-1889, Macmillan Press LTD. London, 1974.
27) HERKOVITS, M.J.: The Human Factor in Changing Africa. New York, 1967.
28) HISKETT, M.,:'Kitab AL-FARQ: A Work on the Habe Kingdoms Attributed to Uthman Dan Fodio, B.S.O.A.S., XXIII, 2, 1960.
29) HRBEK, IVAN: The Early Period of Mohamadu Lamine's Activities (in R. Willis: Studies in West African Islamic History).
30) HODGKIN, T.:Nigerian Perspectives, An Historical Anthrology. London, 1960.
31) ..... Islam and National Movements in West Africa', J.A.H, III, 2, 1962.
32) HOGBEN, S. J.: The Muhamadan Emirates of Nigeria, London, 1930.
33) HOGBEN, S. J. and Kirk- Green, A. H.: An Introduction to the History of Islamic States of Northern Nigeria. Ibadan, 1967.
34) HUNWICK, J. O.: 'A new Source for the Biography of Ahmad Baba Al-Tumbukti', B. S.O. A.S., XXVII,1964.
35) HUNWICk, J. O.: ' Source Materials for the History of Songhai, Bornu and Hausaland in the Sixteenth Century', J. H. S. N., VII, 3, December, 1974.
36) ..... Religion and State in the Songhay Empire, 1464 - 1591, (Islam in Tropical Africa), oxford, 1969.
37) KANYA, A. S: The Comquest of the Western Sudan- A Study in French Milidary Imperialism, Cambridge University Press, London, 1969.

38) JOHNSTON, H. AS.: The Fulani Empire of Sokoto. Ibadan, 1967.
39) KENSDALE, W. E. N.: 'Field Notes on the Arabic Literatures of the Western Sudan: Muhammadu Bello', J.R.A.S., 1958.
40) KIRK-GREEN, A.H.M.: Barth's Travels in Nigeria. Extracts from the Journal of Heinrich Barth's Travels in NiGeria London, 1962.
41) KLEIN, M.A.: ' Social and Economic Factors in the Muslim Revolution in Sengambia', J.A.H. XII, 3, 1972.
42) LEO- AFRICANUS (J. Leo A More): The History and Description of Africa (Translated and Collected by: John Pory). London, 1600.
43) LEVTZION, N.: ' Ibn-Hawqual, the Cheque, and Audaghost', J.A.H., IX, 1968.
44) ..... Muslims and Chiefs in West Africa: A Study of Islam in the Middle Volta Basin in the pre- Colonial Period Oxford, 1968.
45) .....: ' A Seventeenth - Century Chronicle by Ibn AL-Mukhtar, A Critical Study of Tarikh AL-Fatash', B.S.O.A.S., XXXIV, 3, 1971.
46) LEVTZION, N.: Ancient Ghana and Mali. London, 1973.
47) LEWIS, I.M.: Islam in Tropical Africa. Oxford, 1969.
48) LUGARD, L.: A Tropical Dependency: An Outline of the Ancient History of the Western Sudan with an Account of the Modern Settlement of Northern Nigeria. London, 1964.
49) LYNCH, J.R.: ' Edward W. Blyden: Pioneer West African Nationalist', J.A.H., VI, 3, 1965.
50) LYON, G.E.: ANarrative of Travels in Northern Africa in the years 1818- 19 and 1920 Accompanied by Geographical Notes on Sudan and of the Course of the Niger. London, 1966.
51) MARGOLLOUTH, D.S.: ' Contribution to the Biography of Abd AL-Kadir of Jilan', J.R.A.S., April, 1907.
52) MARTIN, B.G.: ' Kanem, Bornu, and the Fazzan: Notes on the Political History of the Trade Routes', J.A.H., X, 1, 1969.
53) MEEk, C.K.: The Northern Tribes of Nigeria. An Ethnographical Account of the Northern Provinces of Nigeria together with a report on the 1921 Decennial census. New York, 1969.

54) MURDOCK, G.P.: Africa: Its Peoples and their Culture History. New York, 1959.
55) NORRIS, H.T.: ' Sanhaja Scholars of Timbuctoo', B.S.O.A.S. XXX, 3, 1967.
56) .....: ' Znaga Islam During the Seventeenth and Eighteenth Centuries', B.S. O. A. S., XXXII, 3, 1969.
57) OLORUNTIMEHIN, B.O.: The Segu Tukulor Empire. London, 1972.
58) Omer- Cooper, J.D. and other: The Growth of African Civilisation, I, The 19th C. the Partition, London, 1975.
59) OLIVER, R.: The Dawn of African History. Oxford, 1961.
60) OLORUNTIMEHIN, B. O.: Senegambia- Mahamadou lamine (in, m. Crowder: West African Resistence- The Military response to Colonial occupation), Hutchinson University Library for Africa. London, 1978.
61) PALMER, H.R.: ' The Kano Chronicle' , J.R.A.S., 1908.
61) ..... The Bornu Sahara and Sudan. London, 1936.
36) .....: ' Two Sudanese Manuscripts of the Seventeenth Century', B.S.O.A.S, V, 1928-30.
46) .....: ' History of Katsina', J.A.S., XXVI, April, 1927.
65) PANIKER, K.M.: The Serpent and the Crescent: A History of the Negro Empires of Western Africa. Bombay, 1963.
66) PEDLAR, F.J.: West Africa. London, 1951.
67) ROBINSON, A.E.: ' The Tekruri Sheikhs of Gallabat', J.A.S., XXVI, Cl, Oct., 1926.
68) RODNEY, W.: 'Jihad and Soical Revolution in Futa Djalon in the Eighteenth Century' J.H.S.N., IV, 2, June, 1968.
69) SHARIF, M.M.: Islam in Africa. Lahore, 1964.
70) SHARKAWY, M.A.M.: ' Egyptian and Foreign Elements in the Evolution of West African Cultures ', B.F.A.C.U., 1, 2, 19.
71) SMITH, H.F.C.: ' Source Material for the History of Western Sudan', J.H.S.N., 1,3, 1958.
72) STAMP
73) STEWART, E.K. and STEWART, C.C.: Islam and Social order in Muritania: A case Study from the 19th. C. oxford, 1973.

74) TRIMINGHAM, J.S. A History of Islam in West Africa. Oxford, 1970.
75) .....: Islam in West Africa. Oxford, 1959.
76) TRIMINGHAM, J.S: The Influence of Islam upon Africa. London, 1968.
77) TRIMINGHAM, J.S. and Others: Islam in Africa. America, 1969.
78) WARD, W.E.F.: A History of Africa. London, 1960.
79) WIlkS, 1.: 'The Northern Factor in Ashanti History: Begho and the Mande, J.A.H., II, 2, 1961.


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



المحتويـــات

الموضـــوع	الصفحة
مقدمة الكتاب	١-٣٦
أ ـ بواعث وأهمية موضوع الكتاب	١
ب ـ دراسة عن أهم مصادر الكتاب	٥
تمهيد: عـن شمالي وغربي إفـريقية	٣٧-٥١
القسم الأول	
الفصل الأول: عوامل تغلغل الإسلام إلى غـربي إفريقية	٥٢-١١٩
المبحث الأول: التجارة والتجار	٥٧
المبحث الثاني: العلمـاء الدعاة المعلمون	٩٧
المبحث الثالث: المرابطون	١٠٥
المبحث الرابع: الفرقة السنوسية	١١١
المبحث الخامس: الهجرات الإسلامية	١١٧
الفصل الثاني: أسباب نجاح تغلغل الإسلام في غربي إفريقية	١٢٠-١٥٠
المبحث الأول: الدوافـع	١٢٥
المبحث الثاني: بساطة وسماحة العقيدة الإسلامية	١٢٩
المبحث الثالث: ريادة المسلمين التجارية والجغرافية	١٤١
المبحث الرابع: المعتقدات الروحية في إفريقية	١٤٩
الفصل الثالث: الآثار الحضارية لتـغلغل الإسلام في غربي إفريقية	١٥١-٢٥٩
المبحث الأول: قيام دولة غانا الإسلامية	١٥٥
تـمهيـد عن المنطقة عامة	١٥٥
المطلب الأول: التطور التاريخي لقيام دولة غانا	١٥٩

الموضوع	الصفحة
المطلب الثاني: المرابطون ودولة غانا	١٧٣
المطلب الثالث: الأثر الحضاري للإسلام في غانا	١٧٩
أولاً: الناحية الثقافية	١٧٩
ثانياً: الناحية الاجتماعية	١٨٤
ثالثاً: الناحية الاقتصادية	١٨٦
رابعاً: الناحية السياسية	١٨٨
المبحث الثاني: دولة مالي الإسلامية	١٩٣
المطلب الأول: التطور التاريخي لقيام دولة مالي	١٩٣
المطلب الثاني: الإسلام في دولة مالي	٢٠٠
المطلب الثالث: الأثر الحضاري للإسلام في دولة مالي	٢١٠
أولاً: الناحية السياسية	٢١٠
ثانياً: الناحية الاقتصادية	٢١٤
ثالثاً: الناحية الثقافية والروحية	٢١٦
المبحث الثالث: دولة سنغي الإسلامية	٢٢٥
المطلب الأول: تطورها التاريخي	٢٢٥
المطلب الثاني: الإسلام في سنغي	٢٢٩
المطلب الثالث: المراكشيون ونهاية دولة سنغي	٢٣٥
المطلب الرابع: أثر الإسلام الحضاري في دولة سنغي	٢٣٨
أولاً: الناحية السياسية والإدارية	٢٣٨
ثانياً: الناحية الاقتصادية والثقافية والاجتماعية	٢٤٠

الموضوع	الصفحة
المبحث الرابع: دولة الفولاني الإسلامية	٢٤٧
المطلب الأول: الفولاني ـ دراسة تعريفية عن الأصل	٢٤٧
المطلب الثاني: دور الفولاني في إسلام بلاد الهوسا	٢٥٠
المطلب الثالث: الأثر الحضاري للإسلام في دولة الفولاني الهوساوية	٢٥٥
أولاً: الناحية السياسية	٢٥٥
ثانياً: الناحية الاقتصادية	٢٥٦
ثالثاً: الناحية الاجتماعية	٢٥٨
القسم الثاني	
حركة التعليم الإسلامي في معاهد غربي إفريقيا قبل الاستعمار	٢٦٠
الفصل الرابع: أماكن التعليم في غربي إفريقية	٢٦٣-٢٩٥
المبحث الأول: المسجد	٢٦٧
المبحث الثاني: الكُتّاب	٢٨١
المبحث الثالث: منازل العلماء وقصور الحكام	٢٩١
المطلب الأول: منازل العلماء	٢٩١
المطلب الثاني: قصور الحكام	٢٩٣
الفصل الخامس: حركة التعليم الإسلامي في معاهد مدينة تنبكت	٢٩٦-٣٥٥
المبحث الأول: تاريخ مدينة تنبكت	٣٠١
المبحث الثاني: تاريخ معاهد تنبكت العلمية	٣١١
المطلب الأول: الجامع الكبير	٣١١

الموضوع	الصفحة
المطلب الثاني: مسجد سنكري	٣١٦
المطلب الثالث: مسجد سيدي يحيى التادلسي	٣٢٢
المبحث الثالث: أشهر علماء معاهد تنبكت	٣٢٩
الفصل السادس: حركة التعليم الإسلامي في معاهد مدينة جني	٣٥٩-٣٧٦
المبحث الأول: تاريخ مدينة جني	٣٦١
المبحث الثاني: أشهرمعاهد جني وعلمائها	٣٧١
الفصل السابع: حركة التعليم الإسلامي في بلاد الهوسا	٣٧٧-٤٦٥
تمهيد	٣٧٩
المبحث الأول: تاريخ الإسلام والتعليم الإسلامي في معاهد كانو	٣٨٧
المبحث الثاني: تاريخ حركة الإسلام والتـعليم في معاهد كاتسينا	٤٠٧
المبحث الثالث: أشهر علماء بلاد الهوسا	٤١٧
الفصل الثامـن: تاريخ حركة الإسلام والتعليم الإسـلامي في بلاد البرنو	٤٦٧-٥٠٤
تمهيد	٤٦٩
المبحث الأول: حركة الإسلام والتعليم الإسلامي في بلاد البرنو	٤٧٧
المبحث الثاني: أشهر علماء البرنو	٤٩٥
الفصل التاسع: علماء غربي إفريقية	٥٠٧-٦٣٢
تمهيد	٥٠٧
المبحث الأول: ألقاب العلماء	٥١١
المبحث الثاني: وظائف العلماء	٥٢١
المبحث الثالث: مكانة العلماء الاجتماعية	٥٣٣

الموضوع	الصفحة
المبحث الرابع: دورهم في التوجيه	٥٣٧
المبحث الخامس: دورهم في الحركات الإسلامية الإصلاحية	٥٤٥
المطلب الأول: حركة الشيخ ناصر الدين	٥٤٥
المطلب الثاني: حركة الشيخ مالك ساي	٥٤٨
المطلب الثالث: حركة الشيخ عبدالقادر	٥٤٩
المطلب الرابع: حركة الشيخ عثمان بن فودي	٥٥٠
المطلب الخامس: حركة الشيخ صالح بن محمد جنتا	٥٥١
المطلب السادس: حركة الشيخ حمد	٥٥٦
المطلب السابع: حركة الحاج عمر الفوتي	٥٥٨
المطلب الثامن: حركة الشيخ مابا جاخو	٥٦٤
المطلب التاسع: حركة الشيخ فودي كبا	٥٦٥
المطلب العاشر: حركة الشيخ محمد الأمين درامي	٥٦٦
المطلب الحادي عشر: حركة الشيخ أحمد بامبا	٥٨٣
المبحث السادس: الأثر الحضاري الإسلامي للحركات الإصلاحية الإسلامية	٥٩٣
المبحث السابع: مواقفهم في المحن	٥٩٩
المبحث الثامن: وسائل كسب العيش	٦٠٥
المبحث التاسع: برنامج الدراسة اليومي	٦١١
المبحث العاشر: أساليب التدريس	٦١٥
المبحث الحادي عشر: الإجازة العلمية	٦٢١
المبحث الثاني عشر: التخصص العلمي	٦٢٧
المبحث الثالث عشر: لغة التدريس وأسلوب الكتابة	٦٣١

الموضوع	الصفحة
الفصل العاشر: التلاميذ	٦٣٣-٦٦٤
المبحث الأول: سن التعليم	٦٣٧
المبحث الثاني: مراحل التعليم	٦٤١
المبحث الثالث: أنواع تلقي العلوم	٦٤٥
المبحث الرابع: الرحلة العلمية	٦٤٩
المبحث الخامس: أحوال التلاميذ العامة	٦٥٥
المبحث السادس: نصيب المرأة من التعليم	٦٦١
الفصل الحادي عشر: الكتب والمواد الدراسية الشائعة الاستعمال	٦٦٧-٦٩٣
الفصل الثاني عشر: التبادل التعليمي مع البلاد الإسلامية خارج غربي إفريقية وداخلها	٦٩٩-٧٤٨
المبحث الأول: مع بلاد المغرب والصحراء	٦٩٩
المبحث الثاني: التبادل التعليمي مع مصر والسودان العربي والحجاز	٧٢٧
المطلب الأول: مع مصر	٧٢٧
المطلب الثاني: مع السودان العربي النيلي	٧٤٤
المطلب الأول: مع الحجاز	٧٤٧
خاتمة	٧٤٩-٧٦٥
الملاحق	٧٦٧-٨٠١
ملحق الخرائط	٨٠٣-٨١٣
المصادر والمراجع	٨١٥-٨٤٥
فهرس المحتويات	٨٤٧-٨٥٢


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com